



سلسلة مؤلفات
فضيلة الشيخ

١٧٧

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ
الْمَجْلَدِ الثَّالِثِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

دُرُوسٌ

التفسيرية من سورة الفرقان إلى سورة الشورى

مِن إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ
الْحَمْدِ لِلَّهِ الشَّيْخِ رَافِعِ بْنِ
الْمُحَمَّدِ الثَّالِثِ

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٩ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

دروس وفتاوى من الحرمين الشريفين . / محمد بن صالح العثيمين ط ١ -

القصيم، ١٤٣٩ هـ / ١٨ مج .

٨٠٠ ص : ٢٤×١٧ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين : ١٧٧)

ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٤ - ٦٧ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (٣ ج)

١- الفتاوى الشرعية. ٢- الفقه الحنبلي. أ. العنوان

١٤٣٩ / ٢٠٣٥

ديوي ٢٥٨.٤

رقم الإيداع: ١٤٣٩ / ٢٠٣٥

ردمك: ٣ - ٦٤ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)

٤ - ٦٧ - ٨٢٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (٣ ج)

حقوق الطبع محفوظة

لِمُؤَسَّسَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيرياً بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ

يُطلب الكتاب من:

مُؤَسَّسَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثَمِينَ الْخَيْرِيَّةِ

المملكة العربية السعودية

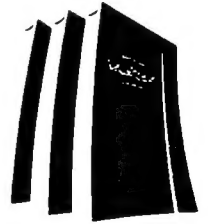
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص . ب : ١٩٢٩

هاتف : ٠١٦ / ٣٦٤٢١٠٧ - فاكس : ٠١٦ / ٣٦٤٢٠٠٩

جوال : ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧ - جوال المبيعات : ٠٥٠٠٧٣٣٧٦٦

www.binothaimeen.net

info@binothaimeen.com



الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدرة الدولية للطباعة والتوزيع

١٣٥ شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - الحي الثامن - بجوار مدارس المنهل الخاصة .

هاتف وفاكس : ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول : ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

دُرُوسٌ وَفَتَاوَى مِنْ الْمَجْلَدِ الثَّامِنِ

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

المجلد الثالث

دُرُوسُ التَّفْسِيرِ بِدَايَةِ مَنْ سُورَةِ الْفُرْقَانِ إِلَى سُورَةِ الشُّورَى

مِنْ إِصْدَارَاتِ

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الفرقان

الدرس الأول:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمدٍ خاتم النبيِّين وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٢٥].

نؤمن نحن المسلمون بأن لا إله إلا الله، والمعنى: لا معبود حق إلا الله عز وجل، ودليل هذا قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]، فكلنا نؤمن بأن لا معبود حق إلا الله، وأن كل ما عبد من دُونِ الله فهو باطل.

والذين يعبدون الشمس يعبدون باطلاً، وكذلك الذين يعبدون القمر، والذين يعبدون النبي عبادتهم باطلة، والذين يعبدون عيسى عبادتهم باطلة، وهلم جرا، وكل من عبد سوى الله فعبادته باطلة.

إذن كلنا يؤمن بأن الله تبارك وتعالى موصوفٌ بصفات الكمال، أي: جميع صفات الكمال ثابتة لله عز وجل، والدليل: قال الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، والمثل بمعنى الوصف؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥]، مثلها أي: وصفها وصفتها كذا وكذا.

فكُلُّنا يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ تعالى موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ من كلِّ وجهٍ.

ورَبُّنا موصوفٌ بأنه حيٌّ، وبأنه سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَلِيمٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ حَلِيمٌ شَكُورٌ... إلى آخرِ ما ذَكَرَ عن نفسه عَزَّوَجَلَّ. ولا يُمكنُ أن نَعْلَمَ ما يَثْبُتُ لله على وجهِ التَّفْصِيلِ من الصِّفَاتِ إلا بالدَّلِيلِ، فأنا أعْرِفُ من حيثِ العمومُ أنَّ اللهَ تعالى لا بُدَّ أن يكونَ موصوفاً بصفاتِ الكمالِ، ولكِنِّي لا أعْرِفُ التَّفْصِيلَ.

وإذا أردتُ أن أعْرِفَ أنَّ اللهَ يُوصَفُ بهذه الصِّفَةِ المُعَيَّنَةِ فعليَّ بالكتابِ والسُّنَةِ، وليسَ لي الحقُّ أن أثْبِتَ من صِفاتِ الله ما لم يكنْ في الكتابِ والسُّنَةِ، وليسَ لي الحقُّ أن أنْكَرَ من صِفاتِ الله ما ثَبَتَ في الكتابِ والسُّنَةِ. وهذه هي قَاعِدَةُ صِفاتِ الله على وجهِ الإجمالِ التي نَعْلَمُها؛ وهي أنَّ اللهَ موصوفٌ بصفاتِ الكمالِ هذا معلومٌ لنا، ونَعْلَمُ أنَّ مَنْ ليسَ كاملاً لا يَصِحُّ أن يكونَ ربًّا، ولهذا قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَتَّابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]. لكن لا نَعْلَمُ تَفْصِيلَ تلك الصِّفاتِ بعقولِنا، فهذا أمرٌ فوق ما تُدركُهُ العقولُ.

إذن يَلْزَمُنَا أن نُثْبِتَ كلَّ وصفٍ أثْبَتَهُ اللهُ لنفسِهِ في القرآنِ الكريمِ، أو في سُنَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ويجب علينا أن نُؤْمِنَ بكلِّ ما وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، فإنَّ أنْكَرْنَا شَيْئاً من ذلك، فَذَلِكَ جِنايَةٌ عَظِيمَةٌ في حقِّ الله، وفي حقِّ النصوصِ من القرآنِ والسُّنَةِ؛ لأننا أَقْصَرُ من أن نُحِيطَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأَقْصَرُ من أن نَحْكُمَ بعقولِنا

على الله عَزَّوَجَلَّ، إنما نَرْجِعُ في هذا إلى الكتابِ والسُّنةِ، وإذا ذَكَرَ اللهُ عن نفسه شيئاً قلنا: سَمِعْنَا وآمَنَّا، ولا نقول: هذا مَجَازٌ عن كذا، بل نقول: هذا حَقٌّ على حقيقته، وإلا لم نَكُنْ مُؤْمِنِينَ بما أَنْزَلَ اللهُ.

وهذه قاعدةٌ -أيها المسلمون- عِشُوا عليها ومُوتُوا عليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: والله ما لا يَقْبَلُهُ العقل لا يَقْبَلُهُ أبداً. فمن أنت يا ابن آدم حتى تَحْكُمَ على ربِّ العالمين بأنَّ هذا يَصْلُحُ، وهذا لا يَصْلُحُ؟! أرجو أن تَسْتَقِرَّ هذه القاعدةُ راسخةً في قلوبكم، مُطْمَئِنَّةً بها نُفُوسُكُمْ، تَحْيَوْنَ عليها وتموتون عليها؛ لأن هذه هي طريقُ النبي ﷺ وطريقُ الخلفاء الراشدين، وطريقُ الصحابة، والتابعين لهم بإحسان. إذن كُلُّ ما أَخْبَرَ اللهُ به عن نفسه، فالوَاجِبُ الإِيْمَانُ به، إن نَفِيًّا، وإن إثباتًا. فإذا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَجَبَ علينا أن نَعْتَقِدَ بأنَّ له الحياةَ الكاملةَ، وأنه لا يَمُوتُ، وهذا إثباتٌ ونَفْيٌ، الإِثْبَاتُ: الحياةُ، والنَفْيُ: الموتُ.

وهذه قاعدةٌ أَكْرَرُهَا كثيرًا؛ لأنها عَقِيدَةٌ، وكيف يُمَكِّنُ أن يَلْقَى الإنسانُ رَبَّهُ وهو يقول: أنا لا أُوْمِنُ بهذه الصِّفَةِ؛ لأنَّ عَقْلِي لم يَقْبَلْهَا. وهناك الآن أناسٌ يَنْتَسِبُونَ للإسلام، وهم مُسْلِمُونَ وليسوا كُفَّارًا، لكن يقولون عن بعضِ الصِّفَاتِ: لا نَقْبَلُهَا؛ لأنَّ العَقْلَ لا يَقْبَلُهَا. والله قد أَخْبَرَ بها.

سُبْحَانَ اللهِ، هل تَحْكُمُونَ على اللهِ، أم أنتم أَعْلَمُ مِنَ اللهِ؟! أَتَظُنُّ أن اللهَ لما أَخْبَرَ عِبَادَهُ بهذه الصِّفَةِ يُرِيدُ أن يُضِلَّ عِبَادَهُ، ويعتقدوا فيه ما لا يَجُوزُ؟ إن كان ظَنُّكَ هكذا

فالأمر خطيرٌ جدًا. وهذه هي القاعدة: كلُّ ما أخبرَ اللهُ عن نفسه إثباتًا أو نفيًا وجبَ علينا الإيمانُ به، والتصديقُ به، ويجبُ على عقولنا أن تُسلمَ له، وألا نقول: قال فلانٌ، قال فلانٌ. مَنْ فلانٌ حتى يقولَ على الله!

نعودُ إلى الآية: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ والمعنى: علا على العرش، وارتفع على العرش. وهذا العرش الذي استوى عليه الربُّ مخلوقٌ عظيمٌ، لا يعلمُ قدره إلا الذي خلقه، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم فيما يُروى: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ». الحلقة: حلقةُ الدرع، وهي صغيرةٌ جدًا مثل السلسلة، والفلاة: هي الأرض الواسعة، فضع الحلقة في فلاةٍ من الأرض، ستكون الحلقة بالنسبة لهذه الفلاة لا شيء، قال: «وَفَضَّلَ الْعَرْشَ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ»^(١). سبحان الله! مخلوقاتُ واللهِ عَظِيمَةٌ، يحارُّ العقلُ منها، لكنه لا يحيلها، لأنَّ اللهَ أَعْظَمُ قَدْرًا وَأَعْظَمُ قُوَّةً.

وقد يأتي مُتَنَطِّعٌ مُتَعَمِّقٌ فيقول: من أيِّ شيءٍ خُلِقَ هذا العرشُ؟ ومثلُ هذا نقولُ له: اللهُ أَعْلَمُ، أَنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ هُنَاكَ عَرْشًا عَظِيمًا هَذِهِ سَعَتُهُ، وَلَا يَعْلَمُ قَدْرَهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا حَسْبُكَ.

إذن قوله: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي علا عليه، وعُلُوُّ اللهِ على العرش لا يعني أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ مُفْتَقِرٌ إلى هذا العرش، بحيث لو أُزِيلَ سَقَطَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ، ولكنَّ العرشَ هو المُفْتَقِرُ إلى الله، وجميعُ المخلوقاتِ مُفْتَقِرَةٌ إلى الله، فالاستواء على العرش من كمالِ العَظَمَةِ والسُّلْطَانِ.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم (٣٦١).

فما بَالُكَ يا أخي المسلم بعدَ أن قَرَرْنَا العقيدةَ بَمَنْ يَقُولُ: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ
بمعنى مَلَكِ الْعَرْشِ واسْتَوَى عليه؟! فهذا مُخْطِئٌ خَطَأً عَظِيمًا فِي حَقِّ اللَّهِ، وَمُخْطِئٌ فِي
حَقِّ النُّصُوصِ. لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّعْبِيرُ بِمَعْنَى الْمَلِكِ وَالِاسْتِيْلَاءِ، وَالْقُرْآنُ
نَزَلَ بِاللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَلَنْ تَجِدَ فِي كَلِمَاتِ اللُّغَةِ كُلِّهَا الْفِعْلَ (استوى على كذا) بمعنى:
اسْتَوَى عَلَيْهِ. وَكُلُّ عَرَبِيٍّ إِذَا قَالَ: اسْتَوَى فُلَانٌ عَلَى كَذَا. فَيَعْنِي: عَلَا عَلَيْهِ. فَمَعْنَى
(استوى الله على العرش) أي: عَلَا عَلَيْهِ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا، وَأَنْ يَجْعَلَ
لَنَا فِي قُلُوبِنَا نُورًا نَسْتَضِيءُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾
[النور: ٤٠].

وَإِذَا سَلَّمْنَا مَنْ قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: إِنْ (اسْتَوَى) مَعْنَاهَا: اسْتَوَى وَمَلَكٌ. فَلِمَنْ كَانَ الْعَرْشُ قَبْلَ
أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟! فَمَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّ الْعَرْشَ كَانَ تَمْلُوكًا قَبْلَ هَذَا
لِغَيْرِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ حَرْبٌ وَقِتَالٌ حَتَّى اسْتَوَى اللَّهُ عَلَيْهِ. وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ لِعَاقِلٍ
أَنْ يَقُولَهُ.

وَنَحْنُ نَرُدُّ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ بِقَوْلٍ نَدِينُ بِهِ إِلَى اللَّهِ، وَبِالتَّصْرِيحِ بِهِ، وَنَخْشَى اللَّهَ
إِنْ قُلْنَا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُ. هَذَا الَّذِي يَقُولُ: اسْتَوَى مَعْنَاهَا اسْتَوَى وَمَلَكٌ. قَدْ جَنَى
عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: أَنَّهُ أَبْطَلَ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَبِمُقْتَضَى شَهَادَةِ
السَّلَفِ الصَّالِحِ.

الوجه الثاني: أَنَّهُ أَوْجَدَ لِلْكَلِمَةِ مَعْنًى مِنْ عِنْدِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ: اسْتَوَى بِمَعْنَى
اسْتَوَى.

فإذا قال: إذا أثبت أن الله استوى على العرش كاستواء الراكب على البعير، والله عز وجل يقول في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢﴾ لستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم إذا استويتم عليه ﴿[الزخرف: ١٢-١٣]، ومعلوم أننا إذا استوينا على هذه الأشياء وسقطت أو خرت لسقطنا؛ لأننا محتاجون لها، فإذا أثبت أن الله استوى على العرش أثبت أنه محتاج إليه، وأنه مشابه لاستوائنا على الفلك والأنعام؟

قلنا: سبحان الله! هل ثبت لله ذاتاً أو لا ثبت؟ فإن قال: نعم، فقد أعلن أنه مخصوم، وإن قال: لا، فقد أعلن على نفسه جحود الخالق عز وجل.

إذن إذا قال: لا أثبت لله ذاتاً سبحانه وتعالى معناه أنه أنكر الله، وإذا قال: أثبت لله ذاتاً، قلنا: أليس لك ذات؟ فسيقول: نعم، فنقول: أثبت لنفسك ذاتاً والله ذاتاً، أفيلزم من إثبات ذات الله أن يكون ماثلاً لذاتك؟ فسيقول: لا يمكن، الله ذات تليق به، ولي ذات تليق بي، فنقول: أثبت لله استواء يليق به، ولك استواء يليق بك.

والعرش معلوم أنه فوق المخلوقات كلها، فالعرش سقف المخلوقات كلها، ولا نعلم أن فوق العرش شيئاً من المخلوقات، فيلزم من إثباتك استواء الله على العرش أنه بمعنى (علا) علو الله على الخلق.

وهنا نتوقف قليلاً، فكلنا يؤمن بالفطرة بعلو الله على خلقه، بقطع النظر عن الدليل العقلي أو النقلي، ونؤمن بأن الله فوق كل شيء، حتى العجائز في قعر بيوتهن، وإن لم يكن يقرأن أو يكتبن فإنهن يعلمن أن الله فوق كل شيء، وهذا دليل فطري معلوم. ولكن هناك من يقول: إن الله تعالى في كل مكان. وهذا خطأ

عَظِيمٌ. فعلى هذا القول يكون الله في المسجد، وفي السوق، وفي دور اللهو والسينما، وفي الحمامات والمراحيض! ولا يؤمن عاقل بهذا أبدًا، حاشا الله عزَّ وجلَّ أن يكون في الأرض.

ولكن هناك من الناس الآن من يؤمن بأن الله بذاته في كل مكان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، أسأل الله أن يهديهم؛ حتى يلقوا ربهم وهم يؤمنون بعُلوِّه عزَّ وجلَّ وإلا هلكوا.

وهناك فريق آخر من الناس يقول: لا تقول: إن الله في كل مكان، ولا تقول: إن الله له مكان، لكن قل: الله عزَّ وجلَّ لا مكان له، ليس فوق، ولا تحت، ولا يمينًا، ولا يسارًا، ولا أمام، ولا وراء! وإنا لنعجب من كلامهم هذا، ونسأل: على ذلك أين يكون الله؟ هكذا أصبحَ عَدَمًا!

ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا الله بالعدم لم نجد أدق من هذا الوصف، ولا أعم من هذا الوصف، إذا كان الله ليس فوق الناس، ولا تحتهم، ولا يمينًا، ولا يسارًا، ولا أمام، ولا خلف، فأين ذهب؟ وهذا يعني العدم.

ولهذا قال محمود بن سبكتين رَحِمَهُ اللهُ وهو أحدُ الأمراء الذين فتح الله على أيديهم بلادًا كبيرة في السند والهند، قال لمحمد بن فورك أحد علماء الكلام: صف لنا ربك. قال: ربنا لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا مَبَين ولا مُحَايِث ولا مُتَّصِل ولا مُنْفَصِل. قال: لو قيل لنا: صفوا الله بالعدم ما وجدنا أدق من هذا الوصف. فأنكرَ عليه إنكارًا عظيمًا^(١).

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/٢٥٣)، والصواعق المرسله (٤/١٢٨٧).

إذن لدينا الآن ثلاثة أقوال:

الأول: لا تصف الله أبدًا بمكان، لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا يسار ولا خلف ولا أمام، ولا متّصل ولا منفصل. وهذا بلا شك تعطيل محض لله عزّ وجلّ وإنكار له.

الثاني: الله في كل مكان، وعلى قولهم هذا فإن الله يكون في غرف النوم، وفي الحمامات، ويكون معك أينما كنت مُلازمك، وهذا لازم هذا القول، وإن قلت به هلكت، وإن أنكرت هذا اللازم كابرْتَ، أي أنه أمرٌ لازم لا يمكن أبدًا أن ينفصل عن الإنسان.

الثالث: الله في العلوّ، في السماء، فوق كل شيء. وليس معنى قولنا: إنه فوق كل شيء أن شيئًا يُحيط به؛ لأنّ ما فوق المخلوقات فضاء، ليس فيه إحاطة، ولا جذران ولا جبال ولا أشجار، ولا غيرها، بل فضاء ليس فيه إلا الله عزّ وجلّ. وهذه عقيدة أرجو الله عزّ وجلّ أن يُميتنا وإياكم عليها، عقيدة مُهمّة، وربما تجدون في بلادكم من يقول: إنّ الله في كل مكان، أو لا تصف الله بأيّ مكان.

فإذا قال قائل: أنا لا أطمئن إلا إذا ذكرت لي دليلًا يدلّ على العلوّ. قلنا: على العين والرأس، ويحبّ علينا أن نبين لعباد الله ما تبين لنا من دليل القرآن والسنة، وأرجو الله أن أكون من العلماء، والعلماء يحبّ عليهم أن يبلغوا ما علّموا بشريعة الله؛ لأنّ العلماء ورثة الأنبياء^(١). سنأتي بالدليل: أولاً من الكتاب، وثانياً من السنة،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

وثالثاً من إجماع السلف الصالح، ورابعاً من العقل، وخامساً من الفطرة. خمسة أدلة متنوعة، وهي:

أولاً: في القرآن: هناك آيات كثيرة فيها لفظ (العلي)، مثل: ﴿وَهُوَ أَلْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفيها (الأعلى)، مثل: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفيها الفوقية، مثل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. وآيات أخرى مثل ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وكقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وكلها تدلُّ على علوِّ الله.

ثانياً: من السنة: قد دلت السنة بأنواعها على علوِّ الله: بالقول، والفعل، والإقرار.

أما القول فإنه ثبت عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثبوتاً لا ريب فيه أنه يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»^(١). مُقَرَّراً بها مؤمناً بها.

أما الفعل فكان في أكبر اجتماع للمسلمين مع النبي ﷺ في حجة الوداع في السنة العاشرة في عرفة، لما خطب النبي ﷺ الخطبة العظيمة التي قرَّر فيها قواعد الإسلام، وقال: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نَعَمْ. قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(٢). وجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكثها إلى الناس، فأشار بإصبعه فوق عند قوله: «اشْهَدْ»، وأشار تحت إلى المشهود عليهم في الأرض، فهذا دلالة على علوِّ الله بالفعل.

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

أما الإقرار، فما رواه معاوية بن الحكم رضي الله عنه من أنه كان عنده جارية مملوكة غضب عليها يوماً من الأيام، فصكّها، وأراد أن يعتقها بدلاً عن صكّها، فأمره النبي ﷺ أن يأتي بها، فأتى بها، فقال لها النبي ﷺ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم: «أين الله؟». قالت: في السماء. قال: «من أنا؟». قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها، فإنّها مؤمنة»^(١).

فهذه جارية أعلم من هؤلاء الذين يقولون: إنه في كل مكان، أو إنه ليس في مكان، فهل صاح النبي ﷺ صلى الله عليه وعلى آله وسلّم بهذه الجارية منكراً قولها؟! لا لم يصح، بل أقرّه، وقال له: «أعتقها، فإنّها مؤمنة»، فهذا إقرار. وهكذا -والحمد لله- دلت السنة على علو الرب عزّ وجلّ بالقول والفعل والإقرار، وليس بعد هذه الأدلة شيء.

ثالثاً: وأمّا إجماع الصحابة فإننا نطلب من كل من ينكر علو الله عزّ وجلّ دليلاً واحداً من قول الصحابة يقولون فيه: إنّ الله ليس في السماء. ولن يجد، فما قال أحد من الصحابة: إنّ الله ليس في السماء أبداً، والحبْل ممدود لمن أراد أن يأتي بدليل من كلام السلف.

وهناك قاعدة مفيدة أقدمها لطلبة العلم: كل ما في الكتاب والسنة فالسلف -الصحابة والتابعون لهم بإحسان- قد قالوا به؛ لأنّ رأيهم لو كان خلافه لبيّنه. ولذلك من طرق إثبات إجماع الصحابة ألاّ يوجد في كلامهم مخالفة لما في القرآن، فإنهم يقرءون القرآن صباحاً ومساءً، ولو كان عندهم مخالفة له لبيّنها.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

وكذلك الأئمة من بعد الصحابة، لم نجد عند واحد منهم حرفاً واحداً يقول: إن الله في السماء، بل قال رجل للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة إمام المدينة النبوية، وهو أشهر من أن نعرفه؛ لأنه معروف، قال له: يا أبا عبد الله، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، فكيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه، وجعل يتصبب عرقاً خجلاً من هذا السؤال. فانظر كيف كان تقدير السلف لعظمة الله عز وجل وحيأؤهم منه، نسأل الله أن يتبعنا آثارهم. ثم رفع رأسه، وقال: «يا هذا، الاستواء غير مجهول» أي: معلوم لجميعنا «والكيف غير معقول» أي: لا نذكره بعقولنا «والإيمان به واجب» يريد الاستواء «والسؤال عنه» أي: عن كَيْفِيَّتِهِ «بدعة»، وما أراك أي: ما أظنك «إلا مبتدعاً». ثم أمر به فأخرج من مسجد النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم^(١).

أخرجه لأن هذا دم فاسد، وعرق فاسد، يجب أن يخرج كما يخرج الدم الفاسد من البدن بالحجامة، فأمر أن يخرج من المسجد النبوي. وحق للإمام مالك أن يفعل ذلك، فهذا الرجل يشكك الناس ويضلهم بالسؤال عن الكيفية، فلنطرده من المساجد.

بعض العلماء ينقل هذه القصة فيقول: «الاستواء معلوم» والمعنى واحد، لكن اللفظ الذي ورد (الاستواء غير مجهول).

إذن الاستواء معلوم، لا يحتاج إلى أن يسأل عنه، لكن هذا الرجل سأل عن الكيفية، فإما أنه صادق في سؤاله، ويريد الاستعلام، أو أنه يريد أن يلزم مالكا بأنه إذا لم يعلم الكيفية فلا يمكن الاستواء. هذا في علم الله، لكن ظن الإمام مالك رحمه الله لعله يكون هو الواقع، وأنه رجل مبتدع يريد أن يفسد العقائد.

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٥، رقم ٨٦٧).

رابعاً: العقل: فاللهُ يُجِبُّ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الصِّفَاتِ جَلَّ وَعَلَا عَالِيَا عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ. إِذَنْ الْعَقْلُ دَلٌّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَالِيَا، وَهَذَا الْعُلُوُّ صِفَةٌ كِهَالٍ، فَيَجِبُ أَنْ يُثَبَّتَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

خامساً: الفطرة: وهي فطرة الإنسان التي فُطِرَ عليها الخلق، فما قال قائل: يَا رَبِّ. إِلَّا وَيَتَّجِهْ بِقَلْبِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَا أَظُنُّ أَحَدًا يَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ: يَا رَبِّ. وَيَجْعَلُ يَدَيْهِ تُجَاهَ الْأَرْضِ، وَلَا يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، إِنَّمَا إِلَى الْأَعْلَى. فَطَلَبُ هَذَا الْعُلُوِّ فِطْرِيٌّ.

ولذلك تَجِدُ الْعَجَائِزَ الْآنَ وَعَوَامَّ النَّاسِ إِذَا لَمْ يُهَيَّأْ لَهُمْ مَنْ يُضِلُّهُمْ وَيَقُولُ: اللَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ؛ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَبَدًا. وَلِهَذَا كَانَ أَبُو الْمُعَالِي الْجَوْنِي رَحِمَهُ اللَّهُ الْمَلَقَ بِإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ، يُقَرِّرُ فِيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ، وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ. يُقَرِّرُ إِنْكَارَ الْإِسْتَوَاءِ الَّذِي هُوَ الْعُلُوُّ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرِ الْهَمْدَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَا شَيْخَ، دَعْنَا مِنْ ذِكْرِ الْعَرْشِ، وَاسْتَوَاءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ، مَا تَقُولُ فِي هَذِهِ الضَّرُورَةِ: مَا قَالَ عَارِفٌ قَطُّ: يَا اللَّهَ، إِلَّا وَجَدَ مِنْ قَلْبِهِ ضَرُورَةً لَطَلَبِ الْعُلُوِّ؟ فَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِالْفِطْرَةِ، فَجَعَلَ يَضْرِبُ عَلَى رَأْسِهِ وَيَقُولُ: حَيْرَنِي الْهَمْدَانِي، حَيْرَنِي الْهَمْدَانِي^(١). وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُنْكِرَ الْفِطْرَةَ، فَالْفِطْرَةُ لَا يُمَكِّنُ إِنْكَارَهَا.

ولِهَذَا رَجَعَ عُلَمَاءُ الْكَلَامِ الْبَارِزُونَ إِلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَمَذْهَبِ السَّلَفِ فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى عَقِيدَةِ أُمِّي الَّتِي مَا قَرَأْتُ عِلْمَ الْكَلَامِ، وَلَا تَعْرِفُ عِلْمَ الْكَلَامِ. وَالرَّازِيُّ، وَهُوَ مِنْ فُحُولِ أئِمَّةِ الْكَلَامِ، يَقُولُ عَنِ

(١) انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٤٤)، ومختصر العلو للذهبي (ص: ٢٧٦).

نفسه: نَظَرْتُ فِي الْعُلُومِ، وَفِي الطُّرُقِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْمَنَاهِجِ الْفَلَسَفِيَّةِ، فَمَا رَأَيْتُهَا تَرْوِي غَلِيلًا، وَلَا تَشْفِي عَلِيلًا، وَوَجَدْتُ أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ، أَقْرَأُ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وَأَقْرَأُ فِي النَّفْيِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أَيْ: فَأُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ، وَأَنْفِي مَا نَفَاهُ اللَّهُ. وَأَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اسْتَوَى حَقِيقَةً عَلَى الْعَرْشِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي^(١)، ثُمَّ أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ أَوْ لغيره:

وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالٌ	نِهَابَةٌ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالٌ
وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذَى وَوَبَالٌ	وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا
سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا	وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا

وهكذا رَجَعَ الرَّجُلُ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ، وَعَنْ قَوْلِ أَوْلَئِكَ الْمُتَكَلِّمِينَ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ عَلَى اللَّهِ بِعُقُولِهِمْ، وَلَوْ رَجَعُوا إِلَى الْعُقُولِ حَقًّا لَوَجَدُوا أَنَّ اعْتِمَادَهُمْ عَلَى الْعَقْلِ مُخَالِفٌ لِلْعَقْلِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنَّ الْأُمُورَ الْغَيْبِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْخَبَرِ، وَعَلَى السَّمْعِ، وَلَا نَتَجَاوَزُهُ. وَلَوْ أَنَّا رَجَعْنَا إِلَى الْعُقُولِ لَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ يَغْتَرُّ بِعَقْلِهِ.

وَلِذَلِكَ تَجِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَرْجِعُونَ إِلَى الْعَقْلِ مُتَنَاقِضِينَ، يُوجِبُ بَعْضُهُمْ مَا يَرَى الْآخَرُ أَنَّهُ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا، أَوْ جَائِزٌ عَقْلًا، وَالوَاحِدُ مِنْهُمْ فِي كُتْبِهِ يَتَغَيَّرُ، فَيُوجِبُ فِي بَعْضِ كُتْبِهِ مَا كَانَ يُنْكِرُهُ فِي الْأَوَّلِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ قَانُونٌ مُسْتَقِيمٌ، بَلْ هِيَ عُقُولٌ تَتَغَيَّرُ، وَلَيْسَتْ عُقُولًا حَقِيقَةً؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَالْوَاجِبُ الْإِيْمَانُ بِهِ وَاتِّبَاعُهُ، إِثْبَاتًا لِلثَّابِتِ، وَنَفْيًا لِلْمَنْفِيِّ، هَذَا الْعَقْلُ.

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٦٠).

أَخِيرًا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ
بأنَّه استوى على العرش، أي: عَلَا عَلَيْهِ عُلُوًّا خَاصًّا يَلِيقُ بِهِ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُنْكِرَ
قَوْلَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ اللَّهَ بَذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَنْ نَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَبْلَ
أَنْ يَفْجَأَهُ الْمَوْتُ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْبَاطِلَةِ. وَنَحْنُ وَاللَّهُ لَا نُحِبُّ لَهُمْ إِلَّا مَا نُحِبُّ
لأنفسنا، وَلَا تَرْضَى لَأَنْفُسِنَا أَنْ نَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ: إِنَّ اللَّهَ بَذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَاللَّهُ
عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] فكيف يكون الربُّ عَزَّوَجَلَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ!
وهو واحدٌ وليس مُتَعَدِّدًا، فَإِذَا قُلْنَا: فِي كُلِّ مَكَانٍ، لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُتَعَدِّدًا، أَوْ يَكُونَ
مُتَجَزِّئًا؛ بَعْضُهُ هُنَا، وَبَعْضُهُ هُنَاكَ.

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ هَؤُلَاءَ إِلَى الْحَقِّ، وَأَنْ يَقْتُلَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ تِلْكَ الْعَقِيدَةُ
الْفَاسِدَةُ، وَأَنْ يَقْدُرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَيُعْظَمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بِمَاذَا نُجِيبُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ
إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾
[المجادلة: ٧]، وَعَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]؟

فَالْجَوَابُ أَنْ نَقُولَ: لَا مُعَارَضَةَ، هُوَ مَعَنَا، وَفَوْقَ السَّمَاوَاتِ، وَلَا مَانِعَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ
لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَهُوَ عَالٍ فِي عُلُوِّهِ، وَهُوَ مَعَ عِبَادِهِ، لَكِنْ لَيْسَتْ ذَاتُهُ مَعَ عِبَادِهِ.

فَنَحْنُ نَرَى فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ قَوْلَ السَّائِرِ الْمُسَافِرِ: مَا زِلْتُ أُسِيرُ وَالْقَمَرُ مَعِيَ
حَتَّى غَابَ. وَالْقَمَرُ عَالٍ فِي السَّمَاءِ، وَتَرَاهُ أَصْغَرَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَهَكَذَا فَإِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ
تَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ: هُوَ مَعَنَا.

وهناك مثل آخر: رجل طلق امرأته، فنفى أحدهم هذا الأمر، وقال: لم يطلقها زوجها، بل هي معه. وقد تكون في مكة، وزوجها في المدينة، ولكن (مع) معناها هنا: المصاحبة، وليس معناها أنها معه في المكان. فالمعية معناها المطلق في اللغة العربية المصاحبة، وتكون في كل موضع بحسبه.

ولهذا كان من دعاء السفر: اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ^(١). جمع بين هذا وهذا؛ لأن الله تعالى محيط بكل شيء، وهؤلاء الذين يستدلون بآية المعية على أن الله بذاته في كل مكان هم من الذين اتبعوا ما تشابه من القرآن، وتركوا المحكم؛ لأن الجمع بين هذا وهذا واضح، هو فوق كل شيء، ولكنه مع الخلق.

فإذا كان الله يعلم بك ويسمع قولك ويُبصرُ فعلك، فإذا هو معك ولو كان في السماء، والأمر واضح والله الحمد، أسأل الله تعالى أن يتوفاني وإياكم على هذه العقيدة عقيدة أن الله في السماء وأنه واسع العلم والسمع والبصر والسلطان.

والعقيدة لها فروع تخفى على كثير من الناس، وواجبنا أن نبينها، ولكن إذا لم تستطع الكل فخذ بالبعض، ولهذا يقال: ما لا يدرك جُلُّه لا يترك كُله. نسأل الله التوفيق والسداد.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره، رقم (١٣٤٢).

الدرس الثاني:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ [الفرقان: ٦١-٧٠].

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. والبروج جمع بُرْج، وهو في الأصل البناء العالي، والمراد بذلك البروج الفلكية، وهي اثنا عشر بُرْجًا، ثلاثة منها للشتاء، وثلاثة منها للقيظ، الحر، وثلاثة للربيع، وثلاثة للخريف، فالجميع اثنا عشر بُرْجًا.

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في السماء ﴿سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ والمراد بالسماء هنا العلو، وليس المراد بالسماء السقف المحفوظ الذي بناه الله عز وجل بقوة، بل المراد العلو؛ لأنه ثبت أن هذه البروج بين السماء والأرض، وليست في السماء التي هي السماء العليا، والسماء تُطلق ويراد بها العلو؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩] أي: من العلو.

والدليل على أن المراد العلو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَذُوقُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. فأنزل من السماء أي من العلو؛ لأن الماء إنما يكون من السحاب، وقد قال الله تعالى في السحاب: إِنَّهُ مَسْخَرٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

قوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾: وهي الشمس، ووصف الله تعالى هذا السراج في آية أخرى بأنه وَهَّاجٌ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبا: ١٣]، أي: شديد الحرارة، فالشمس شديدة الحرارة، ويدل ذلك أنها تَحْتَرِقُ هذه المسافات العظيمة حتَّى تصل إلى الأرض، ويكون فيها -أي في الأرض- من جرَّاء هذا الضوء حرارة شديدة جدًا، حتَّى إنه في أيام الصيف ربما يذوب الإسفلت الذي قد طُلِيت به الممرَّات؛ مع هذا البعد، فتبيِّن أن حرارتها شديدة عظيمة.

ولهذا لو أنكم سَعَرْتُمْ نَارًا عظيمة لوجدتم أن حرارتها لا تذهب بعيدًا؛ فكيف بهذه الحرارة التي تَبْعِثُ من مكانٍ بعيد حتَّى تصل إلى الأرض، إذن حرارتها شديدة،

ولهذا قال بعضهم: إن حرارتها تُذيب الحديدَ حتَّى يكون كالماءِ قبل أن يصطدم بها ويُبَاشرها من شِدَّة الحرارة، فسبحان الخلاق العليم! سبحان مَنْ قوَّته فوق كلِّ قوةٍ تَبَارَكَ وَتَعَالَى!

قوله تعالى: ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وصف الله القمر بأنه مُنير، وفي آيةٍ أُخرى قال: ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]، فالقمرُ نفسه مُظلم، ليس فيه نور، لكنه يكتسب نُوره من الشمس، ولذلك إذا قابَلها أتمَّ المقابلة امتلاً نُورًا، وكلَّما دنا منها ضَعُف نُوره، والمنيرُ منه هو الجانبُ الَّذِي يلي الشمسَ، فكلما ابتعدَ منها ازداد نُورًا، فإذا قابَلها أتمَّ مقابلةً امتلاً نُورًا، ويقابلها أتمَّ مقابلةً في وسطِ الشهرِ في أيامِ البِيضِ؛ إن كانت هي في المشرقِ وهو في المغربِ فهذه مقابلةٌ، وذلك في أولِ النهارِ، وإن كانت الشمسُ في المغربِ وهو في المشرقِ فهي مُقابلةٌ، وذلك في أولِ الليلِ، وكلَّما دنا منها ضَعُفَ نُوره، والذي يُنيرُ منه هو الجانبُ الَّذِي يلي الشمسَ؛ ولهذا ترى الهلالَ أولَ الشهرِ مُقَوَّسًا، وقوسُهُ الأسفلُ هو المنيرُ، والقوسُ الأسفلُ منه هو الَّذِي يلي الشمسَ، وترى القمرَ في آخرِ الشهرِ مُقَوَّسًا، والمنيرُ منه هو القوسُ الأعلى الَّذِي يلي الشمسَ.

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يعني يخلف بعضها بعضًا، فإذا جاء اللَّيْلُ ذَهَبَ النَّهَارُ، وإذا جاء النَّهَارُ ذَهَبَ اللَّيْلُ.

قوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرْ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ لمن أراد أن يذكر أي يتذكَّر بتقلُّب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وهو -والله- محلُّ ذِكْرِي، بينما ترى الجوَّ مُظْلِمًا إذا به يكون مُنِيرًا، والعكسُ، ممَّا يدلُّ على قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ كما قال الله تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْمَلْقَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ بِأَتْيَكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ

﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿[القصص: ٧١-٧٢]؟ الجواب في الآيتين: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

ولهذا قال: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكَرَ﴾ أي يتذكر ويتعظ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾، و(أو) هنا ليست للتنويع، بل هي مانعة الخلو، أي مَنْ أَرَادَ الذِّكْرَ والشُّكُورَ، أما الذِّكْرَ فعرفتكم ذلك لأن هذا يدلُّ على كمال قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وأما الشُّكُورُ فلأن اختلاف اللَّيْلِ والنَّهَارِ فيه مَصَالِحٌ عظيمةٌ للخلق؛ جعل اللَّيْلَ سَكَنًا يسكن فيه النَّاسُ، والنَّهَارَ مُبْصِرًا يبتغي النَّاسُ فيه من فَضْلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ويذهب كلُّ إنسانٍ منهم بحاجاته.

ثمَّ قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾، وذكر بقية الصفات، وقد أضاف هذه العبودية إلى الرحمن؛ لأن اتصافهم بهذه الصفات الحميدة من آثارِ رحمةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فهو لاءِ رحمهم الله عَزَّوَجَلَّ رحمة خاصة، أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم.

وهنا أسأل: هل الخلق كلهم عبادُ اللَّهِ أو الخُلُص من الخلق هم عبادُ اللَّهِ فقط؟

الجواب: أما العبودية العامة، وهي عبودية القَدَر، فهي عامّة لكلِّ الخلق، فالكافر عبدُ اللَّهِ من حيث إن الله تعالى يقضي فيه بما شاء، والمؤمن عبدُ اللَّهِ من حيث إنَّه يفعلُ فيه ما شاء، فالاثنان بالنسبة لعبودية القَدَر على حدٍّ سواء، فكلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عبدُ اللَّهِ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

أما عبودية الشَّرع، يعني التَّعبُّدُ لله بشرعه والانقياد لأمره، فهذه خاصَّة بالمؤمنين الَّذِينَ وصفهم اللهُ في هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

وهل المراد في قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ السعيُّ بالقدم، أو المرادُ السعيُّ بالقدم والسعيُّ في الفكر، والسعيُّ في العمل، وفي كل شيء؟

الجواب: الثاني؛ لأنَّه أعمُّ، يعني أنَّهم يسيرون في أعمالهم بالهون، أي دون العَجَلَةِ، فهم مُتَزَنُونَ، عندهم وقار، وعندهم تفكيرٌ، وعندهم تخطيطٌ، ولا يُمكن أن يُقَدِّموا على شيءٍ إلَّا وقد عَرَفُوا كيف يدْخُلون فيه، وكيف يتَخَلَّصون منه.

إذن هذا عامٌّ في كل الأحوال، وانتبه يا أخي، فلا يَحْمِلُكَ الطيشُ على سُرْعَةٍ تَنْدَمُ عليها، بل اجعلْ مَشِيكَ أي: سيرَكَ على الأقدام، وسيرَكَ في العمل، وفي الفكر، كله اجعله هَوْنًا، أي على هونٍ وتأنٍّ وتَوَدَّةٍ، فكم من إنسانٍ تَعَجَّلَ فَنَدِمَ، وقال: لَيْتَنِي لم أفْعَلْ، فانظر كيف تدخل وكيف تخرج.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، الجاهِل: الَّذِي لا يُحْسِنُ التَّصَرُّفَ، إذا خاطبهم فلا يَمِكنُ أن يَقْعُوا معه في خصومةٍ؛ بل يقولون قولًا سَلَامًا يَسْلَمُونَ به من جهلِ هذا الجاهِل، ولا سِيًّا إذا كان الإنسان صائِمًا؛ فإن النبي ﷺ أمر الصائم إذا سابه أحدٌ أو قاتله أن يقول: إني صائمٌ^(١).

كذلك عبادُ الرحمن في كلِّ الأحوال إذا خاطبهم الجاهلون قالوا قولًا يَسْلَمُونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب: هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

به من أذية هذا الجاهل، ويسلمون به من الذلّ أيضًا، ويسلمون به من الذلّ لأنّه أحيانًا يكون مَوْقِفُ العِزِّ - والمرادُ عِزُّ المؤمنِ - أن يَتَكَلَّم، وأن يُقَابِلَ الجَهْلَ بما يَسْتَحِقُّ، لكن هذا نادر، والأصل أنه ينبغي في مخاطبة الجاهل الإعراض عنه، وأن يقول الإنسان في ذلك قولًا يسلم به.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ يعني ليسوا يبيتون على هوى، ولا على مُحَرَّم، ولا نومًا بدون تهجد، بل يبيتون سُجَّدًا وقِيَمًا.

وذكر الله السُّجُودَ وذكر القيام، ولم يذكر الجلوس، وإنما ذكر جَلَّوَعَلَا القيام لأنّه أشرفُ بذكره؛ لأن القيام يقرأ فيه الإنسان كلام ربّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، وكلامُ الله تعالى أفضلُ الكلام، وذكر السُّجُودَ لأنّه أفضلُ بهيئته؛ إذ إن أدلَّ حال يكون الإنسان عليها أن يكون ساجدًا، فإذا سجدت فإنك تضعُ جبهتك أشرف أعضائك، وأعلى أعضائك، تجعلها في الأرض في مساواة القدم، في الأرض التي هي موطئ الأقدام. فالسُّجُودُ أشرفُ بهيئته، والقيامُ أشرفُ بذكره، أما القعودُ والجلوسُ فهذا تابع، وهو دون حال الرُّكُوعِ والسُّجُودِ، فذكر الله تعالى أعلى الحالين؛ أحدهما أعلى بذكره، والثاني أعلى بهيئته.

وفي هذا إشارة إلى أنّه ينبغي إذا أطال الإنسان القيام فإنه يُطِيلُ السُّجُودَ، وكذلك الرُّكُوعَ، والجلوس بين السجدين، والقيام بعد الرُّكُوع؛ لتكون الصلاة متناسبة، ولهذا كان قيام النبي ﷺ وقعوده وركوعه وسجوده وجلسه متساوية قريبة من السواء، عكس ما يفعله بعض الناس اليوم، فتجده يُطِيلُ القراءة جدًا، وربما يقرأ نصفَ جزءٍ أو أكثر، وإذا أتى إلى الرُّكُوع وكأنّ خلفه أحدٌ يحدّوه ويسوّقه،

فَيُعَجِّلُ جِدًّا حَتَّى تَقُولَ: لَا يَطْمِئُنُّ، وَهَذَا غَلَطٌ، فَإِذَا أَطْلَتَ الْقِيَامَ فَأُطِلِ الرُّكُوعَ، وَإِذَا أَطْلَتَ الرُّكُوعَ فَأُطِلِ السُّجُودَ؛ لِتَكُونَ الصَّلَاةُ مُنَاسِبَةً.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم.

وهل المعنى إذا عملوا السيئة أن يصرف الله عنهم عقوبتها، أو المعنى أن يصرفهم عن عمل السيئات، أو المراد المعنيان جميعاً؟

الجواب: الثالث، يسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ أولاً أن يصرف عنهم الأعمال التي تُوجب دخول النار، بحيث يُوفَّقُهُم للعمل الصالح، أو إذا أساءوا تابوا إلى الله؛ لأن الإنسان إذا أساء وتاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ صار كَمَنْ لَمْ يُسِئْ، فالتائب من الذنب كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. أو يريدون بقولهم: ﴿أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أننا إذا عملنا سوءاً فاصرف عنا عذاب جهنم فتعاملنا بالعفو والمغفرة.

وكلا المعنيين حق، وكلا المعنيين ينبغي للإنسان إذا قرأ هذه الآية أن يجعلها على باله، أي أن يصرف عنه عمل السوء، وأن يصرف عنه المجازاة على السوء.

قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: مُلَازِمًا والعياذ بالله، والمراد عذاب أهلها الخالدين فيها، فهو غرامٌ مُلَازِمٌ كملزمة الغريم لمدينه.

قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا ذمٌ للنار والاستقرار فيها، والإقامة فيها، فقد ساءت مُسْتَقَرًّا وساءت مُقَامًا، والمُسْتَقَرُّ: الدائم، والمُقَام: غير الدائم، فالنار -أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا- مُسْتَحِقَّةٌ لِهَذَا الذَّمِّ: ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

وأهل الجنة قال الله فيهم: ﴿حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦].

قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾
هذه حالهم في الإنفاق؛ لا يُسرفون فيتجاوزون الحدَّ، ولا يَقْتُرُونَ فيَقْصُرُونَ عن
الواجب، بل هم بين الإسرافِ والتقتير. وإلى أيهما يميلون؛ إلى الإسرافِ أو التقتير؟
قال تعالى: ﴿بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ يعني إنفاقاً قواماً؛ أحياناً يزيدون عن الوسطِ
إذا دَعَتِ الحاجةُ إلى ذلك، مثل أن ينزلَ بهم ضيفٌ، وأحياناً يميلون إلى التقصير،
مثل ألا يكونَ هناك سببٌ للزيادة، فهذا حالهم في الإنفاق.

فحالهم في الصَّلاة ﴿يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾، وحالهم في الإنفاقِ
والصدقةِ لا يُسرفون ولا يَقْتُرُونَ، ولكن بين ذلك قواماً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يعني أَنَّهُمْ مُخْلِصُونَ في
عبادتهم، لا يدعون أحداً مع الله، فإن استغاثوا استغاثوا بالله، وإن استعانوا فبالله،
وإن توكلوا فعلى الله، وإن صلَّوا فله، وإن تصدَّقوا فله، وإن برُّوا الوالدين فله،
وإن وصلَّوا الأرحامَ فله، فهم مُخْلِصُونَ في كلِّ أعمالهم لله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك لأن
المشرك لا يُقْبَلُ عمله ولو كان عبادةً، فإذا أشرك بها مع الله بطلت.

ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ
بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وفي الحديث القدسي الذي رواه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن ربه:
«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ

غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١). فَأَيُّ عَمَلٍ صَالِحٍ تُشْرِكُ فِيهِ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا فَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ، وَيَتْرَكَكَ أَنْتَ وَشِرْكُكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

إِذْنُ عِبَادِ الرَّحْمَنِ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ هُمُ عِبَادُ الشَّيْطَانِ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۖ﴾ [يس: ٦٠-٦١].
فَعِبَادُ الرَّحْمَنِ لَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَدْعُونَ مَعَهُ أَحَدًا، وَعِبَادُ الشَّيْطَانِ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ.

فَمَنْ يَتَرَدَّدُ إِلَى أَهْلِ الْقُبُورِ، وَيَقِفُ عَلَى الْقَبْرِ يَقُولُ: يَا سَيِّدِي، يَا مَوْلَايَ، إِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي، إِنِّي مُحْتَاجٌ إِلَى الزَّوْجِ فَيَسِّرْ لِي، إِنْ أَمْرَاتِي بَقِيَتْ سِنَوَاتٍ لَمْ تَحْمِلْ فَأَعْطِنِي وَلَدًا، مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ مُشْرِكٌ شَرِّكًَا أَكْبَرَ.

وَهَذَا الرَّجُلُ يُصَلِّي وَيَأْتِي إِلَى الْمَسْجِدِ وَيَكُونُ خَلْفَ الْإِمَامِ دَائِمًا، وَيَتَصَدَّقُ كَثِيرًا، وَيَصُومُ كَثِيرًا، وَيُحُجُّ كَثِيرًا، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَبْرُؤُ الْوَالِدِينَ، وَلَكِنْ عَمَلُهُ هَذَا حَابِطٌ.
وَالدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

فَهَذَا الْخَطَابُ مُوجَّهٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ الشَّرْكُ، لَكِنْ عَلَى فَرَضٍ وَقُوعِهِ إِنْ أَشْرَكَ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَمَا بِالْكَ بغيره! يَحْبَطُ عَمَلُهُ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ إِشْكَالٌ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، فالرجلُ الَّذِي ضربته مثلاً عمله حابط؛ حتَّى صالح الأعمال الَّذي يكون مقبولا من المخلص يكون من هذا مردودا.

وإني أقول لمن يتردد إلى هذه القبور:

أولاً: ما الَّذي أعلمك أنه قبر فلان؟ لأن هذا يحتاج إلى دليل؛ لأنه قد يدعى أن هذا قبر فلان وليس كذلك، يُقال: إنَّ الحسين بن عليٍّ - رضي الله عنه وعن أبيه - رأسه في العراق، وله رأس آخر في الشام، وله رأس آخر في مصر، فهذه ثلاثة رؤوس!

وربما يكون في بلاد أخرى، ويأتي الجهلة العامة إلى ما يُقال: إنه محلُّ رأس الحسين، فيدعون الحسين، والحسين بريء منهم ومن شركهم.

إذن نحتاج إلى إثبات أن هذا قبر فلان؛ لأنه قد يدعى أنه قبره وليس قبره.

ثانياً: إذا ثبت أنه قبر فلان فإننا نحتاج إلى إثبات شيء آخر، هو أن هذا الفلان الَّذي يُقال عنه: إنه وليُّ تثبت ولايته؛ لأنه قد يقال: إنه وليُّ وهو عدوٌّ، وأولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون؛ كما فسّر ذلك ربُّ العالمين عَزَّوَجَلَّ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿[يونس: ٦٢-٦٣].

فمن قال: إن هذا الرجل مُتَّصِف بالصفتين: الإيمان والتقوى؟! فقد يظهر الرجل بمظهر التقى النقي وهو من أفجر عباد الله، أليس المنافقون يذكرون الله

ويصلون؟ بلى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ»^(١).

إذن المنافق يُصلي، ويشهد أن مُحَمَّدًا رسول الله، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] فهذه شهادة مقابل شهادة، والثانية هي الحق: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

والمنافق له زِيٌّ حَسَنٌ، وهيئةٌ حسنةٌ، وكلامٌ ساحرٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، يعني في هيئتها وشكلها، وإذا رأيته قلت: هذا المؤمنُ التقيُّ، ويُعجبك جسمه، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] لفصاحتهم وبيانهم -اللَّهُمَّ أعِزَّنَا مِنَ النِّفَاقِ، اللَّهُمَّ أعِزَّنَا مِنَ النِّفَاقِ، اللَّهُمَّ أعِزَّنَا مِنَ النِّفَاقِ- يعني يُبْهِرُكَ الْقَوْلُ وتُنْصِتُ رَغْمَ أَنْفِكَ، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»^(٢)، ومع ذلك هم منافقون، فقد يكون هذا المدفونُ في هذا المكان رجلاً يتبادر للناس أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وهو من أعداء الله.

فهاتان مَرَّتَانِ: الأولى: أَنْ يَثْبَتَ أَنَّ هَذَا قَبْرُ فُلَانٍ، والثانية: أَنْ يَثْبَتَ أَنَّهُ وَلِيٌّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب إن من البيان سحرا، رقم (٥٧٦٧).

ثالثاً: أن يُثَبَّتَ أَنَّ هذا المِيتَ يَنْفَعُكَ أو يَضُرُّكَ، وهذا مُحَال، فالمِيتُ جُثَّةٌ هَامِدَةٌ يحتاج إلى الحَيِّ، والحَيُّ لا يحتاج إليه، ألسنا إذا زُرنا القبور قلنا: السلام عليكم دار قومٍ مؤمنين، يَرْحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ والمستأخِرِينَ؟ فهم مُحْتَاجُونَ لَنَا في أن ندعُوَ لَهُمْ، لا أن ندعُوَهُمْ، ولا يُمكن أن يستجيبوا لنا، وكيف يستجيبون لي وأنا أعْرِفُ أَنَّ الرجلَ جُثَّةٌ هَامِدَةٌ! فمن أين يجيب دُعائي!

ولهذا قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

الجواب: لا أحد أضلّ، فلو سُئِلْنَا: مَنْ أضلُّ النَّاسِ هَدِيًّا وَأَسْفَهُهُمْ عُقُولًا لقلنا: الَّذِينَ يَدْعُونَ الْقُبُورَ، حتّى لو كانوا من أَذْكَى النَّاسِ، فالذكاء ليس عقلاً، فالعقل هو الَّذي يَهْدِي صاحبه إلى حُسن التصرف.

إذن قوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نقول: إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ليسوا عباد الرحمن، ولكنهم عباد الشيطان.

قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني ليس منهم عُدَوَانٌ في حقِّ الخالق ولا في حقِّ المخلوق، ليس منهم عدوانٌ في حقِّ الخالق لأنهم لا يدعون مع الله إِلَهًا آخَرَ، ولا في حقِّ المخلوق لأنهم لا يقتلون النفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ.

فذكر الله أعلى حقوقه، وأعلى حقوقِ الْآدَمِيِّينَ: احترام النفوس، واحترام النفوسِ من محاسن الإسلام، فما هي النفسُ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ؟

النفوس الَّتِي حَرَّمَها اللهُ أربعة أصنافٍ: المسلم، والذمي، والمعاهد والمستأمن.

فهؤلاء نفوسهم محرمة.

أما المسلم فقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ»^(١).

والذَّمِّيُّ والمُعَاهَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(٢). وهذا يعني أن الله حَرَّمَ عليه الجنة، والمُعَاهَدُ والذَّمِّيُّ كلاهما أُعْطُوا وَثَاقٌ مِنْ وُلاَةِ الْأُمُورِ، وليس من أَفْرَادِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ أَفْرَادَ النَّاسِ ليس منهم حَلٌّ وَلَا عَقْدٌ، وَأَفْرَادُ النَّاسِ مُحْكَمُونَ، لكن إذا أُعْطِيَ وَلِيُّ الْأَمْرِ تصرُّحًا لهذا الرجلِ فقد صار مُعَاهِدًا، وأما الذَّمِّيُّ فهو أعلى حَالًا مِنَ الْمُعَاهَدِ؛ لِأَنَّ الذَّمِّيَّ يُقِيمُ معنا في بلادنا، له ما لنا وعليه ما علينا، فهو مُوَاطِنٌ ذِمِّيٌّ، ولكن في عصرنا الحاضر ثَمَرَةُ الذَّمِّيِّ غَيْرُ موجودَةٍ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ ضُعَفَاءَ، وَالثَّمَرَةُ مِنَ الذَّمِّيِّ الَّتِي نَحْمِيهِ بِهَا وَنَحَافِظُ عَلَيْهِ وَنَعْتَقِدُهُ كَالْمُوَاطِنِ هِيَ الْجِزْيَةُ؛ أَنْ نَأْخُذَ عَلَيْهِ مَا يُسَمُّونَهُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ ضَرِيبةً كُلِّ عَامٍ حَسَبَ رَأْيِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، لكنَّ حُكْمَهُ بَاقٍ إِذَا كَانَ معنا في بلادنا كمُوَاطِنٍ عَادِيٍّ، فهو ذِمِّيٌّ دَمُهُ مُحْتَرَمٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْتَدِيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ لِأَنَّهُ مُحْتَرَّمٌ حَسَبَ الْعَهْدِ الَّذِي بَيْنَا وَبَيْنَهُ.

والمُعَاهَدُ ليس مُقِيمًا معنا، بل هو في بلدٍ لكن بَيْنَا وَبَيْنَهُ عَهْدٌ أَلَّا يُحَارِبَنَا وَلَا نُحَارِبَهُ، مِثْلَمَا جَرَى مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مع كُفَّارِ قُرَيْشٍ فِي الْحُدُوبِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَاهَدَ قُرَيْشًا عَشْرَ سِنَوَاتٍ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ، فَهَؤُلَاءِ مُعَاهَدُونَ دِمَاؤُهُمْ مُحْتَرَمَةٌ لَا يَجُوزُ الْعُدَاوَانُ عَلَيْهِمْ لَا فِي بِلَادِهِمْ وَلَا خَارِجَ بِلَادِهِمْ؛ لِأَنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ عَهْدًا، وَأَوْفَى الْبَشَرِ بِالْعَهْدِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، رقم (٣١٦٦).

وهذا الحُكْمُ واجبُ التطبيقِ، بمعنى يجب أن يكون المسلمون أوفى مَنْ يكون بالعهد؛ لأنهم إذا وفوا بالعهد فالمصلحةُ لهم كمسلمين محترمين احترموا أنفسهم، وللإسلام أيضاً، حتَّى لا يُقال: إنَّ الإسلامَ دينُ غدرٍ وخيانة.

وهل لنا أن نُعاهدَ الكُفَّارَ عهداً دائماً ألا نحاربهم؟

الجواب: لا يجوز؛ لأننا إذا عاهدنا الكفار عهداً دائماً ألا نحاربهم فهذا يعني إسقاط الجهاد في سبيل الله، ولا يمكن إسقاطه، فالجهادُ ماضٍ إلى يومِ القِيَامَةِ. لكن هل يصحُّ أن نعاهدهم عهداً مطلقاً غير موقتٍ أو لأمَدٍ أو للأبد؟

الصَّحيحُ أنَّه يصح، فيجوز أن نُعاهدَ الكفار عهداً مطلقاً؛ فنكتب بيننا وبينهم عهداً ألا نحاربكم ولا تحاربونا، ولكن لا نقول: أبداً، ولا نقول: لمدة عشرِ سنواتٍ ولا عشرين سنةً ولا أكثر ولا أقل، وهذا عهدٌ مُطلقٌ صرَّح بجوازه جماعةٌ من العلماء؛ منهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

الثالث: العهد الموقت: وأكثر العلماء قالوا: العهد المؤقت لا يجوز أن يزيد على عشرِ سنواتٍ؛ قالوا: لأن الأصل وجوبُ قتالِ الكفار حتَّى يُسلموا أو يُعطوا الجزية، وخرجنا عن الأصل بعشرِ سنواتٍ لأن الرسول ﷺ عاهد قريشاً عشرَ سنواتٍ.

ولكن بعض أهل العلم يقول: إذا دعتِ الضرورةُ أو الحاجةُ إلى الزيادة على عشرٍ فلا بأس؛ لأنَّ معاهدة النبي ﷺ لقريشٍ عشرَ سنواتٍ دعت الحاجةُ إليها، ولم يقل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: لا تعاهدوهم بأكثر.

والمسألة على كل حال ليست راجعةً لنا نحن أفراد الشعب، لكنها عائدة إلى وليّ الأمر، فإذا رأى المصلحة بالزيادة على عشرٍ أو بالأقل أو بالإطلاق فالأمر إليه، لكن لو رأى التأييد فحينئذٍ نعارضه، نقول: لا يمكن أن يكون بيننا وبين الكفار عهدٌ مؤبد؛ لأن هذا يعني تعطيل فريضة من فرائض الله، وهي الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

إذن في قوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ نقول: الأنفس التي حرم الله إلا بالحق المسلم والذمي والمعاهد والمستأمن.

والمستأمن نفسه محرمة؛ لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

فدلّ هذا على أنه آمن في حال استجارته، وهو كذلك، فالمستأمن أصله حربيٌّ طلبَ منا أن يقدم إلى بلاد المسلمين ليسمع كلام الله، أو ليتجرّ ويرجع إلى بلده، وأعطيناه أماناً، فيكون حينئذٍ له كرامة، ولا يجوز أن يهان؛ لأننا أعطيناه أماناً، وقد قال النبي ﷺ: «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِيٍّ»^(١).

فما دام هذا قد أُعطي أماناً من قبل الجهات المسؤولة، أي تصريحاً بالدخول إلى البلد، وقضاء حاجته والرجوع إلى أهله، إما ليسمع القرآن، أو ليسمع إلى خلق الذكر، المهم جاء يطلع على الإسلام، وعلى عمل المسلمين لعله يسلم، فهذا نُعطيهِ أماناً، وهو مُحترَم ولا يجوز لأحد أن يخون أمانته.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، رقم (٣١٧١)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب عدد ركعات الضحى.. رقم (٣٣٦).

وبهذا نعرف خطأ أولئك القوم الذين يعتدون على المعاهدين أو على المستأمنين، وأن هذا الخلق ليس من خلق الإسلام في شيء، فخلق الإسلام الوفاء للمعاهد والمستأمنين.

واعلم أن أكثر طلبة العلم يقولون: المستأمن، وهذا لحنٌ يُفسد المعنى؛ لأن المستأمن الذي طلب الأمان منه، والداخل في أمانٍ لم يُطلب الأمان منه، وإنما طلب الأمان له، وعليه فصوابُ الكلمة أن يُقال: المُستأمن - بكسر الميم - ليكون اسم فاعل بدلاً من أن يكون اسم مفعول.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، كلمة ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يعني إذا جاز قتلها بحق. وإلى أي شيء نرجع في معرفة كون القتل حقاً؟ إلى الكتاب والسنة، فليس الحق ما قلنا: إنه حق، حتى يُعرض على الكتاب والسنة.

زَنَا الثَّيِّبِ يُبِيحُ الْقَتْلَ:

فلنضرب لهذا مثلاً: إذا زنى الرجل وهو قد تزوج وصار ثيباً بجماع زوجته، يعني تزوج وجامع زوجته ثم زنى بعد ذلك، أيقتل أم لا؟
الجواب: يُقتل.

فإن قيل: كيف يُقتل وهو يُصلي ويتصدق ويصوم ويحج؟!

قلنا: يُقتل بالرجم؛ بأن يُضرب بحجارة لا صغيرة ولا كبيرة، ولا تُقصد المقاتل، بل يُقصد بقاء الجسم، فيضرب بالحجارة إلى أن يموت، سُبْحَانَ اللَّهِ!

والإنسان يدور في رأسه شيء: لماذا لا نقتله بالسيف ويستريح، أو نُسلط عليه خطًّا كهرباء ميتين وعشرين ويموت على الفور؟

نقول: الجزء من جنس العمل، وإذا كان الجزء من جنس العمل فهذا عدلٌ وليس بجور؛ هذا الرجل تلذذ جميع جسمه بلذة محرمة، فكان من الحكمة أن العذاب يشمل جميع بدنه، ولهذا قال العلماء: يحرم أن يضرب بحجارة كبيرة، أو أن تقصد مقاتله؛ لأنه إذا ضرب بحجارة كبيرة مات، وإذا قصدت المقاتل مات، وهذا غير مقصود للشرع، فالمقصود للشرع أن يتألم جميع البدن الذي تلذذ باللذة المحرمة.

اللواط يُبيح القتل:

وإذا تلوط ذكرٌ بذكر هل تكون نفسه محرمة أو لا؟

الجواب: لا، فإنه يُقتل؛ لأن اللواط -والعياذ بالله- فاحشة عظيمة، أعظم من فاحشة الزنا، والدليل أن لوطاً عليه الصلاة والسلام قال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وفي الزنا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، يعني فاحشة من الفواحش. فكلمة فاحشة أهون من كلمة الفاحشة؛ لأن معنى الفاحشة التي بلغت في الفحش غايتها -والعياذ بالله- فكان اللواط أعظم من الزنا.

إذن من تلوط بذكر يُقتل حتى وإن لم يكن متزوجاً، حتى لو كان بكرًا لم يتزوج إطلاقاً فإنه يُقتل إذا كان بالغاً عاقلًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أجمع الصحابة على قتل اللوطي -وإجماع

الصَّحَابَةِ لَيْسَ بِهِيْنِ - وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا كَيْفَ يُقْتَلُ؛ فَقِيلَ: يُحْرَقُ بِالنَّارِ، وَقِيلَ: يُرْجَمُ، وَقِيلَ: يُرْمَى بِهِ مِنْ أَعْلَى شَاهِقٍ فِي الْبَلَدِ وَيُتْبَعُ بِحِجَارَةٍ^(١).

المهم اتفاقهم على قتله، أما كيف يُقتل فهذا يرجع إلى الإمام، يعني إلى وليّ الأمر، فإذا قال: اقتلوه بالرجم فإنه يُرْجَم، أو بالقائه من شاهقٍ كمنارة وشبهها أو طيارة هليكوبر فلْيُفْعَل، فإذا قال: اقتلوه بالإحراق أحرقناه، يعني حسب ما تقتضي المصلحة، والمصلحة هنا راجعة إلى أقوى قِتلة يحصل بها الردع؛ لأن اللواط - يا إخواني - فاحشة منكرة والعياذُ بالله، فهي انقلاب حسّ وفطرة.

واللواط لا يُمكن التحرُّزُ منه، بمعنى لا يمكن إذا رأيتَ شابين يمشيان جميعاً أن تقول: قف، مَنْ هذا الشاب؟ لكن الزنا يمكن إذا رأيتَ رجلاً مشبوهاً مع امرأة أن تُوقِفَه وتَسألَ عن المرأة. فلما كان اللواط لا يمكن التحرُّزُ منه، وكان قبيحاً، وكان يجعلُ رجالَ الشعبِ إناثاً؛ لأنَّ هذا المفعول به - سُبْحَانَ اللَّهِ - ما أشدَّ ظُلْمَةً وَجْهَهُ إذا قيلَ له في المستقبل: يا زوجةَ فلانٍ، فهذه صعبةٌ جداً، فهو في الحقيقة إذلالٌ لرجولة الشاب.. لما كان ذلك كان يجبُ على وليِّ الأمرِ إذا ثبت اللواطُ من شخصٍ أن يقتله؛ اتِّبَاعاً لِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهناك حديثٌ مرفوعٌ لكن اختلفَ النَّاسُ في صحَّته، وهو: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(٢).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٣٥ / ٢٨).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمٍ لُوطٍ، رقم (٢٥٦١).

ومن هنا نرى أنه يجب على أولياء الشباب أن يراقبواهم مراقبةً تامّةً، وأن ينظروا مَنْ أصحابهم، وَمَنْ يخرجون معه، وَمَنْ يذهبون إليه؛ حتّى يحفظوا الشباب؛ لأنّ الشابَّ عاطفته قريبة، وسُرْعانَ ما يَنخدع، وأولئك الفَسَقَةُ الفَجَرَةُ اللُّوطِيَّة حِيلُهُمْ وَمَكْرُهُمْ عظيم؛ يخدعون الشابَّ خدعةً عظيمةً جدًّا، ولا حاجة أن أذكر هنا شيئًا من مكائدهم لأنّي أخشى أن يسمّعها خبيثٌ فيتّخذها سبيلًا، لكنها معروفة.

فيجب على أولياء الأمور أن يُحافظوا على شبابهم محافظةً تامّةً، حتّى يعرفوا مَنْ أصحابهم، وما مَسْلُكُهُمْ، فيحصل بذلك ردُّع الشرِّ.

الحِرابَة:

كذلك أيضًا ممّا يُبيح قتل النفسِ الحِرابَة، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣-٣٤].

هؤلاء المحاربون لله ورسوله الساعون في الأرضِ فسادًا جزاؤهم حسب محاربتهم وفسادهم:

النوع الأول من الجزاء: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ يقتلهم الإمامُ إعدامًا، والثاني: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ قال أهل العلم: ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ أي: مع القتل، وعلى هذا فيكون القتلُ تارةً بصلبٍ، وتارةً بغيرِ صلبٍ. والصلبُ أن يُربط إلى عمودٍ أو إلى خشبةٍ، وتمدُّ يداؤه حتّى يشتهر ويفتضح. وهل يُصلب قبل القتلِ ثمَّ يُقتل أو يُقتل ثمَّ يُصلب؟

هناك رأيان للعلماء: قال بعضهم: يُصَلَبُ حَتَّى يَشْتَهَرَ وَحَتَّى يُحْزَى أَمَامَ النَّاسِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُقْتَلُ، وَقِيلَ: يُقْتَلُ ثُمَّ يُصَلَبُ. وَالْأَوَّلُ أَشَدُّ عَارًا وَخِزْيًا؛ لِأَنَّ الْمَقْتُولَ إِذَا قُتِلَ ثُمَّ صُلِبَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضُرُّهُ، وَلَا يَتَأَلَّمُ، لَكِنْ إِذَا كَانَ حَيًّا فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ أَلَمًا قَلْبِيًّا، كَمَا هُوَ يَتَأَلَّمُ أَلَمًا بَدَنِيًّا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ معناه: إِذَا قُطِعَتِ الْيَمْنَى مِنَ الْيَدِ فَاقْطَعِ الْيُسْرَى مِنَ الرَّجْلِ، وَإِنْ قُطِعَتِ الْيُسْرَى مِنَ الْيَدِ فَاقْطَعِ الْيَمْنَى مِنَ الرَّجْلِ. وَالدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَزْمِ، وَهَذَا لَا يُوجِبُ اللَّهُ الْقَطْعَ فِي الْيَدِ وَالرَّجْلِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ هَذَا يُخِلُّ بِتَوَازُنِ الْجَسْمِ، بَلْ كَانَ قُطْعُ الْيَدِ مِنْ جِهَةٍ وَقُطْعُ الرَّجْلِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ الرَّأْفَةِ.

ولكن هل نَقْطَعُ الْيَدَ الْيَمْنَى وَالرَّجْلَ الْيُسْرَى، أَوِ الْيَدَ الْيُسْرَى وَالرَّجْلَ الْيَمْنَى؟

لننظر السارق: فَإِذَا سَرَقَ فَإِنَّهُ تُقَطَّعُ يَدُهُ الْيَمْنَى، وَإِنْ سَرَقَ بِالْيَدِ الْيُسْرَى. وَالذَّلِيلُ أَنْ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا)^(١). وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُقَطَّعُ مِنَ السَّارِقِ يَدُهُ الْيَمْنَى.

إِذْ نَقُولُ: الْمَحَارِبُ تُقَطَّعُ يَدُهُ الْيَمْنَى، وَلِأَنَّ الْيَمْنَى غَالِبًا هِيَ آلَةُ الْعَمَلِ، فَعَمَلُكَ بِالْيَدِ الْيَمْنَى أَكْثَرُ مِنَ الْيُسْرَى، إِلَّا رَجُلًا أَعْسَرَ فَيَكُونُ عَمَلُهُ بِالْيُسْرَى أَكْثَرَ.

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٩٤).

فإذا كان السارق تقطع يده اليمنى قلنا: المحارب أيضًا تقطع يده اليمنى، فإذا قطعنا اليد اليمنى تعين أن تقطع الرجل اليسرى.

القصاص:

ومن ذلك القصاص، فإذا اعتدى شخص مسلم على من يقتص له منه فإنه يُقتل. والشروط معروفة عند الفقهاء، وعند الحكام والقضاة.

قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

والزنا: فعل الفاحشة في قبل أو دبر. ويدخل في ذلك اللواط، لكن اللواط أقبح من الزنا، ولذلك كان حد اللوطي أن يُقتل بكل حال إذا كان بالغًا عاقلًا، حتى وإن لم يتزوج؛ لقوله ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ، وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(١)، وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الإجماع - أعني إجماع الصحابة - على قتل اللوطي، وشيخ الإسلام ابن تيمية حجة في نقل الإجماع؛ لأنه رجل أعطاه الله تعالى علمًا، وهو أمين فيما ينقل، وهو بصير أيضًا في الطرق التي يُعرف بها الإجماع.

وعلى هذا فإذا تلوط رجل قد بلغ خمس عشرة سنة بمثله، أو بمن دونه وجب قتله، ولا حاجة أن نسأل: هل هو متزوج أم غير متزوج. أما المفعول به فإن كان مكرها فلا شيء عليه، وإن كان مطيعًا نظرنا إن كان بالغًا عاقلًا قتلناه، وإلا فلا.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الحدود، باب فيمن عمل عمل قوم لوط، رقم (٤٤٦٢)، والترمذي: أبواب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، رقم (١٤٥٦)، وابن ماجه: كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، رقم (٢٥٦١).

وقد ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في آية أخرى النهي عن الزنا، لكنه لم يأت بلفظ: ولا تَزْنُوا إِلَّا في مبايعة النساء: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ [المتحنة: ١٢] أما النهي عن الزنا فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَةَ﴾ [الإسراء: ٣٢]. والنهي عن قربان الزنا يتضمّن النهي عن كل ما يكون سبباً للزنا، فمن ذلك:

الخلوة بالمرأة إذا لم يكن من محارمها، فإن الخلوة بالمرأة إذا لم يكن من محارمها وسيلة وذريعة للزنا؛ لأنّه إذا خلا بها قد يُمازحها ويُصاحكها، ويكلّمها ويَعِدُّها، حتّى يقع في شرك الزنا.

ولهذا نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن خلوة الرجل بالمرأة إِلَّا مع ذي محرم^(١)، وقال: «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ»^(٢).

وَمِنَ الْخُلُوةِ مَا يَتَهَاوَنُ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ كَوْنِ السَّائِقِ تَرْكَبُ مَعَهُ الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا مِنَ الْبَيْتِ إِلَى السُّوقِ، أَوْ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، أَوْ مِنَ الْبَيْتِ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ هَذَا مِنَ الْخُلُوةِ، وَهُوَ أَقْبَحُ مِنْ أَنْ يَخْلَوْا بِهَا فِي حُجْرَةٍ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُرَاوِدَهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَالْقِيَادَةُ فِي يَدِ السَّائِقِ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرِيدُ.

فَلَا يَحِلُّ لِإِنْسَانٍ أَنْ يَمْكُنَ نِسَاءَهُ مِنَ الرُّكُوبِ مَعَ السَّائِقِ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ إِضَاعَةِ الْأَمَانَةِ وَالتَّخَلِّيِّ عَنِ الْمَسْئُولِيَّةِ، وَنَسَاؤُكَ هُمْ وَجْهُكَ، وَهُمْ حَرَمُكَ، أَتَرِيدُ أَنْ يَكُونَ نِسَاؤُكَ لُعْبَةً بِيَدِ الرِّجَالِ! لَا أَحَدٌ يَرِيدُ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم (٥٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، رقم (٢١٧٢).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الرضاع، باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات، رقم (١١٧١).

فإذا قال قائل: امرأة زوجها يأبى أن يذهب بها إلى المدرسة، وأولادها صغار، وهي تدرس أو تدرّس، فماذا تصنع؟

قلنا: يؤتى بالسائق ومعه محرّم من نسائه؛ كزوجته وأختيه وما أشبه ذلك، فإذا ركب هذا السائق مع محرّمه، ومعهم المرأة الأخرى، زالت الخلوة.

ألا فاتقوا الله عباد الله، لا تُهدروا حُرُمَاتِكُمْ، لا تهدروا شرفكم من أجل الطمع والتهاون؛ لأن نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حذّر من الخلوة بالنساء، حتّى قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِيَّاكُمْ وَالْدُخُولَ عَلَى النِّسَاءِ». فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ الْحَمُو؟ قَالَ: «الْحَمُو الْمَوْتُ»^(١): يعني هو البلاء وهو الشر وهو الهلاك. وَالْحَمُو هُمُ أَقَارِبُ الزَّوْجِ.

فمنع النبي ﷺ أن يخلو قريب الزوج بالزوجة، حتّى ولو كان أخاه، فإنه لا يجوز ألا يخلو بزوجة أخيه.

ولهذا يجب أن نعلم خطر أولئك القوم الَّذِينَ يَخْرُجُونَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَيَدْعُونَ زَوْجَاتِهِمْ مَعَ إِخْوَانِهِمْ فِي الْبَيْتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَطَرٌ عَظِيمٌ، وَقَدْ سَمِعْنَا مَا لَا نُحِبُّ ذَكَرَهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنَ الْبَلَاءِ.

إذن في الآية الكريمة من صفات عباد الرحمن أَنَّهُمْ لَا يَزْنُونَ، فهل يدخل في ذلك زنا العين، وزنا الأذن، وزنا اليد، وزنا الرجل؟

الجواب: نعم، يدخل كل هذا في عموم ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، فزنا العين النظر،

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، رقم (٥٢٣٢)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية، رقم (٢١٧٢).

فإن بعض الناس -نسأل الله العافية- يُطلق نظره في النساء ولا تكاد تمرُّ به امرأةٌ إلا وقد ركز على النظر إليها، والنظرُ سهمٌ مسموم من سهام إبليس، فإذا أصاب إبليسُ به قلبَ صاحبه فقد أماته وأزهقه، ويكون هذا الرجلُ الَّذي يُبتلى بالنظرِ إلى النساءِ، وإتباع بصره إياهنَّ، يكون كالمسحور؛ كلما مرَّت امرأةٌ علَّقَ نظره فيها، وإن كان لا يعلمُ أجيلةٌ هي أم ليست جميلةً، لكنَّ المرضَ مرضٌ، نسأل الله العافية.

كذلك زنا الأذن، يعني يستمع إلى صوتِ امرأةٍ جميلٍ، ويستمتع بهذا السماعِ أو يتلذذ به، فإن هذا نوعٌ من الزنا؛ ولذلك أمرتِ النساءُ بغضِّ الصوتِ، ونُهينَ عن الخضوع بالقول؛ لأن ذلك يُؤدِّي إلى الفتنة، حتَّى إنَّه إذا حصل سهوٌ من الإمام ومعه رجالٌ ونساءٌ فوظيفةُ الرجالِ التسبيحُ، ووظيفةُ النساءِ التصفيقُ لئلا يُسمعَ صَوْتُها. كذلك زنا اليد، ويكون باللمس، فإن بعض مَنْ في قلبه مرضٌ إذا مرَّ بالمرأةِ ربما يلمسها لمسًا مُريبًا.

وزنا الرجل المشي؛ أن يمشي إلى بيوت الدُّعارة والحُنا^(١) والعياذُ بالله.

فكلُّ هذا قد انتفى عن عبادِ الرحمن.

فهذه ثلاثةُ أشياء:

الأول: ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

والثاني: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

والثالث: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

(١) الحُنا: الفُحش.

فالأول: الإخلالُ به إخلالٌ بحقِّ الله عزَّوجلَّ، فإنَّ أعظمَ الذنوبِ «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»^(١).

والثاني: إخلالٌ بحفظ النفوسِ، فإنَّ أعظمَ الحقوقِ حقُّ النفسِ، ولذلك كان «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(٢).

والثالث: الإخلال بصيانة الأعراضِ، وهو الزنا، نسأل الله العافية.
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ﴾.

من يفعل هذه الأشياء الثلاثة، وهي: أن يدعو مع الله غيره، وأن يقتل النفس التي حرم الله بغير حق، وأن يزني؛ يلقى أثامًا، وهذا الأثم بينه بقوله: ﴿يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ والتوبة تعريفها: الرجوعُ من معصية الله إلى طاعة الله. فالتوبةُ من الشُّرك بالتوحيد والإخلاصِ.

والتوبةُ من البدعة بالاتباعِ وحُسنِ الأسوة برسولِ الله ﷺ.

والتوبةُ من الزنا بالعفاف.. وهلمَّ جرًّا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرَّسُولُ بَلَغًا مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، رقم (٧٥٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

المهمُّ أن التوبةَ تعريفها الجامع المانع هي الرجوع عن معصية الله إلى طاعة الله.
وللتوبة شروطٌ:

الأول: الإخلاصُ.

والثاني: الندم على ما فعلَ.

والثالث: الإقلاعُ عن الذنبِ.

والرابع: العزمُ على ألا يعودَ.

والخامس: أن تقع التوبةُ في وقتٍ تُقبل فيه.

فالإخلاصُ ألاَّ يحملَ الإنسانَ على التوبةِ إلاَّ مخافةُ الله، والرغبةُ فيما عنده،
لا يُريد دنيا ولا مَدْحًا ولا جاهًا.

والندمُ أن يكونَ في قلبه حسرةٌ على ما حصلَ من ذنبٍ، وألاَّ يكونَ فعلُ الذنبِ
وعدمه عنده سواءً، فلا بُدَّ أن يقعَ في قلبه شيءٌ من التحسُّرِ على ما فعلَ.

والثالث: الإقلاعُ بأن يترك الذنبَ بدون تأخيرٍ.

والرابع: العزمُ على ألاَّ يعودَ، فإن تاب وهو في نفسه أنه متى تيسَّرَ له الذنبُ
فَعَلَهُ، فليست توبته مقبولةً.

الخامس: أن تكونَ في وقتٍ تُقبل فيه التوبةُ، فإن فات الوقتُ فلا توبةَ، واقرأ

قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ
الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨].

فيقال: فات الأوانُ ولا تنفعُ التوبةُ إذا شاهدَ الإنسانُ ملكَ الموتِ؛ لأن هذه توبةٌ مُضطرٌّ لا مُختار، فالَّذي يتوبُ حقًا هو الَّذي يتوبُ باختيارٍ، وأما الَّذي لا يتوبُ إلا عند الضرورة فلا توبةَ له، واقرأ قولَ الله تعالى عن فرعونَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ف قيل له: ﴿ءَاكُنْ﴾ يعني الآن تؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]. فلم يقبلِ اللهُ توبتهُ لأنَّه إنَّما تاب حين رأى العذابَ ورأى الموتَ.

وبناءً على هذا الشرطِ الأخيرِ يجب أن يبادرَ الإنسانُ بالتوبة؛ لأنَّه لا يدري متى يَفْجُوهُ الموتُ، فكم من إنسانٍ رَكِبَ سيارتهُ يقودها إلى عمله فيصاب بحادثٍ ويموتُ، وكم من إنسانٍ يموت على فراشه، وكم من إنسانٍ يسقط وهو يُصَلِّي مَيِّتًا، فإذا كان الموتُ قد يأتي بغتةً فالواجب علينا أن نُبادرَ بالتوبة؛ لئلا يأتي الموتُ بغتةً ونحن لم نُنَبِّ.

وهناك أيضًا وقتٌ لا تُقبل فيه التوبةُ، وهو إذا طلعت الشمسُ من مغربها، فالشمسُ الآن تدورُ على الأرضِ؛ تأتي من الشرقِ وتغربُ في الغربِ؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقال النبي ﷺ لأبي ذرٍّ وقد غربت الشمسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟». قال أبو ذرٍّ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يُقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

فإذا خرجت الشمس من مغربها فإن الناس كلهم يؤمنون، حتى ألد الناس وأكفر الناس وأفجر الناس يؤمن؛ لأنه رأى آية لا يمكن للمخلوق أن يقوم بها، وهي رد الشمس عن سيرها حتى ترجع إلى الوراء، وتخرج من مغربها، فحينئذ يؤمن الناس كلهم، ولكن الله تعالى يقول: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وقال النبي ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

فهذه شروط التوبة، فبادر أخي المسلم بالتوبة إلى الله، واخرج من المظالم قبل ألا تستطيع الخروج، فإذا كان عندك حق لإنسان فإنه يجب عليك أن تؤديه، حتى إنه لا يجوز للإنسان أن يماطل بالحق، بمعنى لو كان أحد يطالبك مئة ريال، فيأتي إليك ويقول: يا أخي أوفني، وأنت غني تستطيع أن توفيه مئة ريال، فتقول: غدا، ويأتي غدا فتقول: بعد غد، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أخبر أن مظل الغني ظلم^(٢)، والظلم ظلمات يوم القيامة^(٣).

ومن ذلك ما نسمعه عن بعض الكُفلاء الذين لا يرحمون الخلق، ولا يخافون الخالق، فتجده يماطل بوفاء المكفول، فيكدح المكفول ليلاً ونهاراً حسب ما يجري به العقد، ومع ذلك يماطل به، وربما لا يعطيه، وربما ينقص من الأجرة التي اتفق معه

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب في الاستقراض، باب مظل الغني ظلم، رقم (٢٤٠٠)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مظل الغني، رقم (١٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، رقم (٢٤٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٩).

عليها في بلاده، وقد قال النبي ﷺ فيما رواه عن ربه: «قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكَل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره»^(١).

فمن استوفى من الأجير العمل ولم يعطه كان الله يوم القيامة خصمه، وما ظنك يا أخي إذا كان الله خصمك، فهل أنت غالب أو مغلوب؟ مغلوب بلا شك، وليس هناك أدنى احتمال لأن تغلب.

فعلينا ألا نظلم هؤلاء المساكين الذين تركوا أهليهم وأوطانهم، وجاءوا يريدون لقمة العيش، ثم نغدر بهم، حتى إن بعضهم إذا اشتغل عند كفيله قال له كفيله: أعطيك ثلاث مئة ريال وإلا ارجع، وهو قد اتفق معه على خمس مئة ريال، فهذا حرام ولا يحل، وبعضهم يأخذ على الفيزا أجراً إلى ألفين وثلاثة وأربعة، وكل هذا بغير حق.

فالواجب علينا -يا إخواني- ألا ننظر إلى الدنيا والاتجار بها والإكثار منها، بل ننظر إلى شيء آخر الذي هو مألنا وهو الآخرة؛ ماذا قدمنا للآخرة، أما الدنيا فإنها زائلة؛ إما أن تزول الدنيا أو يزول صاحب الدنيا، وما خلّد أحد؛ كما قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، يعني: كلكم ستموتون.

وكما قال في الآية الثانية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠-٣١].

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إثم من باع حراً، رقم (٢٢٢٧).

قال الله عزَّوجلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ اللَّهُمَّ لك الحمد، إذا تاب الإنسانُ إلى الله وصدق في توبته أبدل الله سيئاته حسناتٍ، يُبدله بالشرك إخلاصًا وتوحيدًا، ويُبدله بالعقوبة على الشرك إثابةً على الإخلاص والتوحيد، ويبدل الله تعالى سيئاته حسناتٍ بالنسبة للقتل وبالنسبة للزنا إذا تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا.

وبالنسبة للقاتل فتوبته أن يُسلم نفسه لأولياء المقتول حتى يستقيدوا منه، أو يأخذوا الدية أو يعفوا مجَّانًا، وبدون ذلك لا تصحُّ التوبة، يعني لو أن من قتل نفسًا ذهب في البرِّ وتاب إلى الله، وصار يقوم الليل ويصوم النهار ولكن لم يسلم نفسه لأولياء المقتول فتوبته غيرُ صحيحة، فلا بُدَّ أن يسلم نفسه لأولياء المقتول، وإلا فلا توبة له.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبيِّنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه.



الدرس الثالث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه،
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۖ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ۖ وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ
مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۖ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ
قَوَامًا ۖ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضْعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۖ﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٠] إلى آخر ما ذكر الله تعالى
من الأوصاف الجليلة لهؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أولاً قال: «عباد
الرَّحْمَنِ» ولم يقل: «عباد الله»؛ لأن توفيقهم لهذه الصفات الجليلة من آثار رحمة الله
تعالى.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ والمراد بالمشي الهون ليس هو التهاوت،
وإنما هو المشي المعتدل؛ الذي كمشية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وأما
التهاوت في المشي، أو المشي في الأرض مَرَحًا وكِبَرًا وإعجابًا، فإن ذلك ليس من
أوصاف مشي عباد الرحمن.

قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾؛ أي قالوا قولاً يسلمون به، وليس المعنى قالوا سلاماً أي أن يسلموا عليهم، فإذا خاطبهم الجاهل الذي يريد العدوان عليهم بقوله أو فعله، فإنهم يقولون قولاً يسلمون به.

ومن ذلك ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم على آله وسلم الصائم إذا سابه أحد أو قاتله: «فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»^(١). خلافاً لبعض الناس الآن؛ تجده يُقاتل على أدنى شيء وهو صائم، ولا يحترم الصوم، ولا يلتفت إلى ما أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم من أنك لا تقاتل من قاتلك، ولا تسب من سابك في أيام الصيام، ولكن قل: إني امرؤ صائم، حتى يعرف أنك قد احتفظت لنفسك، وأنت لم تمنع من مقابلته إلا من أجل الصوم، ومن أجل أن يخجل هو أيضاً فيمتنع.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي أنهم لا ينامون كما ينام الناس على فرشهم، ولكنهم يبيتون لله سجداً وقِيَامًا، و(سُجَّدًا) جمع ساجد، و(قِيَامًا) جمع قائم، وذكر الله السجود والقيام لأن السجود أشرف أفعال الصلاة في هيئته، والقيام أشرف أفعال الصلاة في ذكره.

والجملة المعروفة (السجود أشرف أفعال الصلاة في هيئته) لأن الإنسان يضع أشرف ما فيه في مداس الأقدام، ولهذا كان الإنسان الساجد أقرب ما يكون من ربه، وأمّا القيام فهو أشرف أفعال الصلاة في ذكره؛ لأن المشروع في حال القيام هو قراءة القرآن؛ الذي هو أفضل أنواع الذكر؛ فلهذا ذكر الله تعالى من أفعال الصلاة هذين

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم (١٩٠٤)، ومسلم: كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (١١٥١).

الفاعلين فقط دون الرُّكُوع والْقعود؛ لأن هذين الفعلين أشرف أنواع الصَّلَاة؛ القيامُ بِذِكْرِهِ والسُّجُودُ بِهِيَّتِهِ.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي أنهم يسألون الله تعالى أن يصْرِفَ عنهم عذابَ جَهَنَّمَ. ٦٥

فإن قيل: بماذا يصْرِفَ عنهم عذابَ جَهَنَّمَ؟ هل المراد بالتوبة من المعاصي، أو بأن يصْرِفَ عنهم المعاصي التي هي سببُ عذابِ جَهَنَّمَ، أو الأمران جميعًا؟

الجواب: الأمران جميعًا، والقاعدةُ في هذا الأمرِ أَنَّهُ إذا كان النصُّ يَحْتَمِلُ معنيين لا مُرَجِّحَ لأحدهما على الآخر، ولا يُعَارِضُ أحدهما الآخرَ، وجبَ أن يُحْمَلَ النصُّ على المعنيين جميعًا؛ استيعابًا للمعنى الذي يَحْتَمِلُهُ اللفظُ.

إذن ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ بالأُ نتعرَّضُ للأعمال التي تُوجبُ عذابَ جَهَنَّمَ، وأن نُوفِّقَ للتوبة إذا نحن وقعنا فيها، فيشمل المعنيين جميعًا.

قوله: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ أي: كالغريم في مُلَازِمَتِهِ لأهلِهِ والعياد بالله، والمراد بذلك أهل النار الذين هم أهلُها.

قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا ذمُّ لها في المُقام والمُسْتَقَرَّ، فهي شرُّ دارٍ سواءً كان الإنسان أقام فيها بنيَّةَ المغادرة، أو استقرَّ فيها استقرارًا كاملاً.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ذكر الله عزَّ وجلَّ ثلاثَ أحوالٍ للإِنفاقِ:

الأولى: الإسرافُ.

والثانية: الإقتارُ.

والثالثة: الوَسَطُ.

فعبادُ الرَّحْمَنِ إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا؛ أي لم يَتَجَاوَزُوا الحَدَّ في إنفاقهم، ولم يَقْتُرُوا؛ أي لم يُقْصِرُوا في الإنفاقِ عَمَّا ينبغي أن يُنْفِقُوهُ، وكان إنفاقهم بين ذلك المشار إليه: الإسراف والتقتير، لكن (قوامًا) يعني ليس وسطًا على كلِّ حالٍ، بل (قوامًا) أحيانًا يميلون إلى الزيادة، وأحيانًا يميلون إلى النقصِ بِحَسَبِ المصلحة والحاجة.

فإذا كان الإنسانُ إذا أنفقَ أسرفَ فإنه بذلك يخرجُ عن هذا الوصفِ الجليل؛ كما يوجد الآن في كثيرٍ من إخواننا الفقراء؛ فتجده فقيرًا ويريد أن تكون نفقاته كنفقة الغنيِّ، فيشتري أفخرَ السياراتِ، ويلبس أفخرَ الملابسِ، وَيَطْعَم في أفخر المطاعمِ، ويفترش أفضلَ الفرش؛ لأنَّه يريد أن يكملَ النقصَ في زَعَمِهِ، وهذا ما يُسمِّيهِ علماء النفس بِمُرْكَبِ النِّقْصِ؛ يَشْعُرُ أَنَّهُ فقيرٌ وأنه يجب أن يكونَ مُضاهيًا للأغنياء، وهذا غلط، وهذا خلاف الشرع، وخلاف العقل.

وتجد هذا الرجل يمكن أن يشتري سيارةً بثلاثين ألفًا، لكنَّه لا يكتفي بذلك، بل يشتري سيارةً بستين ألفًا أو بأكثر؛ لأنَّه لا يريد أن يشتري من السياراتِ الرخيصة، وإنما يشتري من السياراتِ الغالية تفاخرًا، ولئلاَّ يظهرَ أمامَ الناسِ وكأنَّه فقيرٌ، وهذا غلط.

وتجده أيضًا يستدين من أجل أن يفرشَ جميعَ البيتِ، بل من أجل أن يفرش

الدَّرَج؛ لأن فلانًا الغنيَّ قد فرَشَ درجَه، فيريد أن يفرشَ الدرجَ كما فرشه الغني، ويستدين ويثقل كاهله بالدين، ويموت وهو مدين، ولم يشعر هذا المسكين أن ذلك من الخطأ في التصرف وأنه ليس رُشدًا.

فيجب علينا أن نحذر من التهاون بالدين حذرًا بالغًا؛ لأن الدين أمره عظيم، وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ مِيتٌ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَعَلَى هَذَا الْمِيتِ دِينَ لَا وِفَاءَ لَهُ، لَمْ يَصَلِّ عَلَيْهِ^(١). وَقُدِّمَ لَهُ ذات يومٍ رجلٌ من الأنصار، فلمَّا خَطَا خُطَوَاتِ قَالَ: «أَعَلَيْهِ دَيْنٌ؟». قالوا: نعم، عليه ديناران. والديناران هما ما يُسَمَّى عند النَّاسِ الآنَ بِالْجُنَيْهَاتِ الذَّهَبِيَّةِ، فانصرف ﷺ ولم يصل عليه؛ لأن عليه دينًا، فقال أبو قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الدِّينَارَانِ عَلَيَّ. يعني: وصلَّ عليه، فقال: «حَقَّ الْغَرِيمِ، وَبَرِيءٌ مِنْهُمَا الْمِيتُ؟». قَالَ: نعم. فَتَقَدَّمَ وَصَلَّى^(٢).

وسأله رجلٌ عن الشهادة، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَ قُلْتَ؟». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكْفَرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدِّينَ؛ فَإِنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ»^(٣). فانظر إلى الشهادة؛ يُقْتَلُ الْإِنْسَانُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُكْفَرُ عَنْهُ كُلُّ سَيِّئَاتِهِ إِلَّا الدِّينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكفالة، باب من تكفل عن ميت دينًا، فليس له أن يرجع، رقم (٢٢٩٨)، ومسلم: كتاب الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته، رقم (١٦١٩).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياهم إلا الدين، رقم (١٨٨٥).

ثم انظر إلى القصة الغريبة:

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئتُ أهبُ لك نفسي - يعني تريد أن تكون زوجةً له بدون مهر - فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظرَ فيها وصوبه، ثم طأطأ رسول الله ﷺ عليه وعلى آله وسلّم رأسه - فلكرم أخلاقه لم يقل: لا أرغب - فلما رأت المرأة أنه لم يقضِ فيها شيئاً جلست، فقام رجلٌ من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجةٌ فزوّجنيها - وهذا من كمال الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لم يطلب أن يزوجه إياها فوراً، بل قال: إن لم يكن لك بها حاجةٌ فزوّجنيها - فقال: «فهل عندك من شيء؟». فقال: لا والله يا رسول الله. فقال: «اذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئاً؟». فذهب ثم رجع، فقال: لا والله، ما وجدتُ شيئاً. فقال رسول الله ﷺ: «انظر ولو خاتماً من حديد»، فذهب ثم رجع، فقال: لا والله، يا رسول الله، ولا خاتماً من حديد، ولكن هذا إزارِي - وما له رداءٌ - فلها نصفه. فقال رسول الله ﷺ: «ما تصنع بإزارِكَ؟ إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء». فجلس الرجل، حتى إذا طال مجلسه قام، فراه رسول الله ﷺ عليه وعلى آله وسلّم مولىً، فأمر به فدعي، فلما جاء قال: «ماذا معك من القرآن؟» قال: معي سورةٌ كذا وسورةٌ كذا - عدّها - فقال: «تقرؤهن عن ظهر قلبك؟» قال: نعم. قال: «اذهب فقد زوّجتُكها بما معك من القرآن»^(١). يعني علّمها، ولم يقل النبي ﷺ عليه وعلى آله وسلّم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب وكالة المرأة الإمام في النكاح، رقم (٢٣١٠)، ومسلم: كتاب النكاح، باب الصداق، وجواز كونه تعليم قرآن، وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير، واستحباب كونه خمسمئة درهم لمن لا يحف به، رقم (١٤٢٥).

آلِهِ وَسَلَّمْ هَذَا الرَّجُلِ: تَسَلَّفَ، اسْتَقْرِضَ، اسْتَدِنَ، وَإِنَّمَا قَالَ: «زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ».

وهنا مسألة وهي: هل الباء للسببية أو للعوض؟

الجواب: الباء للعوض، والفرق بينهما أنها إذا كانت للسببية صار المعنى: زَوَّجْتُكَهَا لَأَنَّكَ قَارِئٌ، وليس للمرأة حظٌّ من التعليم، وإذا كانت للعوض صار المعنى: زَوَّجْتُكَهَا عَلَى أَنْ تُعَلِّمَهَا مَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، وبينهما فرقٌ عظيمٌ.

فالمقصود من هَذَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يقل له: اسْتَقْرِضْ، وهناك أناسٌ الآن شباب يريدون أَنْ يَتَزَوَّجُوا، ويمكن أَنْ يَتَزَوَّجَ المرأةُ بثلاثين ألفَ ريالٍ حَسَبَ مستوى المعيشة، لكنه يقول: لَنْ أُعْطِيَهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ رِيَالٍ، إِنَّمَا أُعْطِيهَا خَمْسِينَ أَلْفَ رِيَالٍ؛ لِئَلَّا أَنْقُصَ عَنْ زَمِيلِي، فزَمِيلِي أَصْدَقَ امْرَأَتِهِ خَمْسِينَ أَلْفَ رِيَالٍ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَصْذُقَهَا خَمْسِينَ أَلْفَ رِيَالٍ، فَهَذَا غَلْطٌ، وَمَعَ هَذَا سَوْفَ يَسْتَدِينُ هَذِهِ الْخَمْسِينَ. لذلك يجب أَنْ نَهْتَمَّ بِأَمْرِ الدِّينِ، وَأَلَّا نَسْتَدِينُ أَوْ نَسْتَقْرِضَ إِلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، وهذه أُمَمٌ السَّيِّئَاتِ؛ الشُّرْكُ: إِخْلَالٌ بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَتْلُ النَّفْسِ: انْتِهَاكُ حُرْمَاتِ النَّفُوسِ، وَالزَّنا: انْتِهَاكُ حُرْمَاتِ الْأَعْرَاضِ وَالْأَنْسَابِ؛ فَإِنَّ الزَّنا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- هَتَكٌ لِلْأَعْرَاضِ وَاجْتِلَاطٌ لِلْأَنْسَابِ، فَالمرأة إذا تَوَالَى عَلَيْهَا الزُّنَاةُ -نَسَأَ اللَّهُ الْعَافِيَةَ- وَأَتَتْ بَوْلِدٍ لَا أَحَدَ يَعْلَمُ لِمَنْ يَكُونُ هَذَا الْوَلَدُ، فَتَخْتَلِطُ الْأَنْسَابُ.

فهذه العظائمُ الثلاثُ يَتَخَلَّى عَنْهَا عِبَادُ الرَّحْمَنِ تَمَامًا؛ فَلَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا

آخَرَ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالنَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ أَرْبَعُ أَنْفُسٍ: نَفْسَ الْمُؤْمِنِ، وَنَفْسَ الذَّمِّيِّ، وَنَفْسَ الْمَعَاهِدِ، وَنَفْسَ الْمُسْتَأْمِنِ، فَهَذِهِ أَرْبَعُ أَنْفُسٍ مُحْتَرَمَةٌ، مَعْصُومَةٌ، لَا يَجُوزُ الْإِعْتِدَاءُ عَلَيْهَا.

ونفس المؤمن واضح أمرها: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وأما نفس الذمّي فالذمي هو الذي بيننا وبينه ذمة؛ بأن يُقيم بدارنا نحمة، ويبذل الجزية، والذمة هي العهد، وهذا قد انمَحَى منذ زمانٍ، فلما كان المسلمون أقوى صار الكافر يقيم بينهم آمناً مطمئناً، له ما للمواطنين من الحقوق، لكن يبذل الجزية، فهذا الذمي.

وأما نفس المعاهد فالمعاهد هو الذي لا يُقيم بديارنا، لكنه يقيم بداره، ويكون بيننا وبينه عهد، كما حصل للنبي ﷺ مع قريش في صلح الحديبية، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٤]، فيكون بينه وبين المسلمين عهد ألا يعتدي أحد على أحد، ويكون هذا المعاهد مُحْتَرَمًا، نفسه مَعْصُومَةٌ، لا يجوز العدوان عليه.

ومن ذلك: مَنْ دَخَلَ بِلَادَنَا بِأَمَانٍ، وَهُوَ الْمُسْتَأْمِنُ، فَإِنْ حُكِمَ فِي حِمَايَتِهِ حَكْمُ الْمَعَاهِدِ، وَ«مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحَهَا تَوَجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»^(١)؛ كما قاله النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، رقم (٣١٦٦).

فعباد الرَّحْمَنِ لا يقتلون النفسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، والْحَقُّ كُلُّ ما يبيح الدَّمَ المحترَمَ، فمن ذلك الزَّنا، فإذا كان الزاني ثيبًا فإنه يُقتل، ومن ذلك اللُّواط، فإن اللَّائِطَ يُقتل ولو لم يكن ثيبًا، والمملوطُ به كذلك يُقتل إذا كان بالغًا عاقلًا ولم يُكرَه.

ومن ذلك القصاص؛ فإن القاتل يُقتل ولو كان مُسلمًا. ومن ذلك المُفَارِقُ للجماعة؛ كقُطَاعِ الطُّرُق، فهو لاءٍ يُقتلون وإن كانوا مسلمين.

وهنا مسألة: الزاني يُقتل إذا كان ثيبًا، وهو المُحصَن، وأمَّا البكر فإنه لا يُقتل، ولكن يُجلد مئةً جلدةً، ويُطرَد عن البلد مدةً سنةً، أما الثيبُ، وهو الَّذي تزوج بنكاحٍ صحيحٍ فإنه يُقتل، ولكن يُقتل قتلاً غيرَ معتادٍ، فيُرجَم بالحجارة؛ حجارة لا كبيرة ولا صغيرة؛ لأن الكبيرة تُميتُه بسرعة، فلا يذوق ألمَ الحجارة، والصغيرة لا تؤدِّي الغرضَ إِلَّا بعد وقتٍ طويلٍ، فيتعذَّب، وقد رَجَمَ النَّبِيُّ ﷺ في حياته، ورجَمَ الصحابة بعده، ونزل في ذلك آيةٌ من كتاب الله^(١)، هذه الآية نُسِخَ لفظها وبقي حكمها^(٢).

فإذا قال قائل: لماذا لا يُقتل بالسيف؟

قلنا: ليزوق عذابَ الحجارة كما ذاق لذة الشهوة المحرَّمة، وهذا من الحكمة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ ۖ﴾ هذه الجرائم الثلاث إذا فعلها الإنسان فإنه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب الاعتراف بالزنا، رقم (٦٨٢٩)، ومسلم: كتاب الحدود،

باب رجم الثيب في الزنى، رقم (١٦٩١).

(٢) وهي «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيَا فَارْجُوهُمَا الْبَتَّةَ».

يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ، وَعَلَى هَذَا فَمَنْ تَابَ مِنْ أَعْظَمِ الْجَرَائِمِ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَهْمَا كَانَ ذَنْبُهُ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الشَّرِكِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا تَابَ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا تَابَ مِنَ الزَّانَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

فإذا نظرنا إلى بعض مَنْ تَابَ مِنْ شِرْكَه فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وجعله من الأئمة؛ نجد من هؤلاء عمر بن الخطَّاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم كثير تابوا من الشرك، فتاب الله عليهم، وكانوا أئمة.

وكذلك أيضًا مَنْ تَابَ مِنَ الزَّانَا فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، ولهذا لما جاء ماعز بنُ مَالِكٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ، أَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ إِلَى جَانِبٍ، فَاسْتَدَارَ مَاعِزٌ لِيُوجِهَ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّةً ثَانِيَةً، فَقَالَ: إِنِّي زَنَيْتُ، فَلَمَّا شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ مَرَاتٍ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَبِكَ جُنُونٌ؟»؛ يَعْنِي أَنْتَ مَجْنُونٌ حِينَ قُلْتَ: إِنَّكَ زَنَيْتَ، قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. لَكِنَّهُ زَنَى حَقًّا، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُرْجَمَ، فَخَرَجَ بِهِ الصَّحَابَةُ لِيَرْجُمُوهُ، فَلَمَّا أَذْلَقَتْهُ الْحَجَارَةُ -أَي: ذاقَ مَسَّهَا- هَرَبَ، وَلَكِنْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَدْرَكُوهُ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْجُمُوهُ، قَالُوا: لَا بُدَّ أَنْ نَنْفِذَ أَمْرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَأَدْرَكُوهُ حَتَّى هَلَكَ، فَلَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ بِذَلِكَ قَالَ: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب سؤال الإمام المقر: هل أحصنت، رقم (٦٨٢٥)، ومسلم: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، رقم (١٦٩١)، ولفظ: «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ، فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» لفظ أبي داود: كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، رقم (٤٤١٩).

وكذلك أيضًا ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إذا تابوا تاب الله عليهم.

توبة القاتل:

وهنا مسألة نذكرها وهي: كيف يتوب القاتل، والمقتول قد مات؟

نقول: يتوب القاتل بأن يندم، ويستغفر الله، ويسلم نفسه لأولياء المقتول، وأما فيما بينه وبين المقتول؛ فإن بعض العلماء يقول: إن المقتول يُطالب بحقه يوم القيامة فيرضيه الله عز وجل، ومنهم من قال: إنه إذا تاب تاب الله عليه وتحمل عنه حق المقتول. فالتوبة تجب ما قبلها والله الحمد، والتوبة إلى الله تعالى من صفات عباد الرحمن -نسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعلى المسلمين- وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص.

والثاني: الندم على ما فعل.

والثالث: الإقلاع عن الحال.

والرابع: أن يعزم على ألا يعود.

والخامس: أن تكون التوبة في وقت قبول التوبة.

فالتوبة حب التقرب إلى الله عز وجل، والتذلل له، دون المراءاة أو طلب الجاه أو طلب المال، وأما الندم فأن يشعر بنفسه أنه أذنب فيحزن لذلك، ويتمنى أن لم يكن منه الذنب، وأما الإقلاع فأن يدع الذنب إن كان متلبسًا به، وأن يقضيه إن كان واجبًا تركه ولم يفت وقت قضائه.

وعلى هذا فإذا كان الذنب أخذ مالٍ مُحْتَرَمٍ فلا بُدَّ في التوبة من أن يتحلَّل من صاحب المال؛ إما بإبراء وإما بإيفاء ولا بُدَّ.

وقد كثر السؤال من بعض الناس يقول: إنه كان حين صغره قد سرق أموالاً من بعض الدكاكين، وإنه الآن تاب، فماذا يصنع بهذه الأموال؟

والجواب أن يقال: إن كنت تعرف أصحابها فلا بُدَّ من إيصالها إليهم، وإن كنت لا تعرفهم فتصدَّق بهذه الأموال، أو بما يُقابلها من النقود لأصحابها.

لكن قد يقول: أنا لو ذهبتُ إلى الرجل الذي سرقْتُ منه المال، وقلتُ: إني قد سرقْتُ منك مئةَ ريالٍ، تفضَّل خُذها، أخشى أن يقول: إنك سرقْتَ ألفَ ريالٍ، وليس مئةَ ريالٍ، نقول: إذا كنتَ تَخْشَى هَذَا فَأَرْسِلْهَا بِالْبَرِيدِ المِمْتَازِ، واكتبْ ورقةً بأن هذه دراهمُ لك من شخصٍ أخذها منك ولا تُبَيِّن.

وإننا بهذه المناسبة نذكر قصةً تدلُّ على ذكاء بعض القضاة؛ يقال: إن رجلين من السُّرَّاق (النَّشَّالِينَ) أرادا أن يسْرِقا بالخيانة، فمرَّ بهما رجلٌ من اليهود، فقال أحدهما للآخر: لا بُدَّ أن نُوقِعَ هَذَا اليهوديَّ بمشكلةٍ، قال: كيف ذلك؟ قال: اذهب أنت أمامه وارمِ بالبوك، والبوك هو الحقيَّةُ الصغيرةُ التي تُحَفَظُ فيها الدراهمُ، ويُسمِّيها البعضُ مُحَفَظَةً دراهمٍ، قال: ألقِ بالمحفظة، وهو في الغالب سوف يقول لك: يا فلانُ، خذِ المحفظةَ، وإذا أخذتها وفتحتها فقلْ له: أنتَ أحسنتَ بأنَّ نَبَّهْتَنِي أنها سقطتْ مِنِّي، ولكن المحفظة كان بها مئةَ دينارٍ، والآن ما فيها إلا عشرةُ دنانيرٍ، وحينئذٍ سيقول لك: مَنْ يشهد لك؟ فقلْ: يشهد لي هَذَا، يعني شريكه في السرقة.

ففعل الرجلُ، وتقدّم أمام اليهوديِّ، ثمّ ألقى المحفظةَ، فناداه اليهوديُّ: يا فلانُ، خذ محفظتك، فقال: أنت رجلٌ أمينٌ، وجعل يمدحُه، ثمّ فتح المحفظةَ فقال: لكن يا فلانُ المحفظة كان بها مئة دينارٍ، والآن ما فيها إلا عشرةٌ دنانيرَ، أين ذهب التسعون دينارًا؟ قال: لا أعلمُ، قال: لا يمكن، لا بُدَّ أن تسلّم لي تسعين دينارًا وإلا فالقضاء. وحصل بينهما كلام.

قال: مَنْ يَشْهَدُ لك؟ قال: يشهد لي فلانُ، قال: تَشْهَدُ؟ قال: نعم، أَشْهَدُ، وهو سيشهد لأنّه سارق.

فذهبا إلى القاضي، وقال صاحب المحفظة: هَذَا الرجلُ سَرَقَ من محفظتي تسعين دينارًا، فقال القاضي للمُدَّعَى عليه، وهو اليهوديُّ: أَجِبْ عن هذه الدعوى. قال: ما سَرَقْتُ منه شيئًا، فقال القاضي للمُدَّعِي، وهو صاحبُ المحفظة: عندك شهودٌ؟ قال: نعم، هَذَا فلان يشهدُ، وأنا أَحْلِفُ، ومعلومٌ أنّه إذا شَهِدَ شاهدٌ وحلفَ المدَّعي فإنّه يُقْضَى له.

ولكن اليهوديُّ انفعَلَ وأقسمَ بالَّذي أنزلَ التوراةَ على موسى أنّه لم يأخذِ المحفظةَ، ولم يَسْرِقْ منها شيئًا، فعرف القاضي أن اليهوديَّ صادقٌ، وأن المدَّعِي وشاهدَه كاذبان، فقال للمُدَّعِي: أنت مُتَيَقِّنٌ أن المحفظةَ الَّتِي سقطتُ منك فيها مئةُ دينارٍ وأنت لم تجدْ فيها إلا عشرةَ دنانيرَ؟ قال: نعم متأكّد، قال: إذن محفظتك ضاعتُ، والمحفظة الَّتِي فيها العشرةُ دنانيرَ ليستُ لك، قال لهذا المدَّعي: إذن ابحثْ عن محفظتك الَّتِي فيها مئةُ دينارٍ، أما هذه المحفظةُ الَّتِي نبَّهك عليها هَذَا اليهوديُّ فهي ليستُ لك، بل لرجلٍ آخرَ، ثمّ أخذَ القاضي المحفظةَ، وقال: اذهبوا عني.

فحينئذٍ سُقِطَ في أيديهم؛ ضاعت المحفوظة، وكان منها شهادة زور، ويمينٌ بالله كاذبة، و«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»^(١)، ومالُ المعاهدِ محترَم، واليهوديُّ ذهبٌ سالمًا. وبَقِيَتِ المشكلةُ الآن؛ كيف يَسْتَخْرِجُونَ عَشْرَةَ الدنانيرِ من هَذَا القاضي. وإلى هنا انتهت القِصَّة، ولا أحدٌ يدري هل تابا إلى الله، أو لم يَتُوبَا، فاللهُ أعلم.

المهم أن الإنسان يجب عليه إذا تاب أن يؤدي الحقوقَ إلى أهلها، وإن كانت أموالاً فإنه يردُّها إليهم، وإن كانت غيبةً أو ما أشبه ذلك فليَتَحَلَّلْ منها، حتَّى تَتَحَقَّقَ التوبةُ. نسأل الله لنا وللمسلمين التوبةَ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب المساقاة، باب الخصومة في البئر، رقم (٢٣٥٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة بالنار، رقم (١٣٨).

الدرس الرابع:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وخليفه، وأمينه على وحيه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وترك أمتة على محجة بيضاء، ليلها كنهارها، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وقد مكث النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، ومكث بعد الهجرة في المدينة عشر سنوات؛ فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

هذه ثلاثة من أصول وعظائم المحرمات:

الأول: الشرك؛ لأن الشرك أعظم المحرمات، فأعظم الذنب «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَكَ الرَّسُولُ بِلَغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾

الثاني: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وقتل النفس بغير حق من أعظم ما يكون جرمًا في حق آدميين، و«أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»^(١).

الثالث: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنا من الفواحش، وهو فساد الأمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فهذه ثلاثة أشياء: الشرك، والثاني: قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والثالث: الزنا.

من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر:

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر. وانتفاء الشرك عنهم يتضمن خالص التوحيد، يعني أن عباد الرحمن - جعلني الله وإياكم منهم - على أكمل ما يكون في إخلاص التوحيد لله عز وجل، فلا يُشركون بالله؛ لا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته، فيجعلون ما لله خاصاً به، ولا يشاركه فيه أحد.

وقوله: ﴿مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي معبوداً آخر، وإنما يُخلصون العبادة لله وحده لا شريك له.

= [المائدة: ٦٧]، رقم (٧٥٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، رقم (٨٦).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٣)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب المجازاة بالدماء في الآخرة، وأنها أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، رقم (١٦٧٨).

وقوله: ﴿لَا يَدْعُونَكَ مَعَ اللَّهِ﴾ المرادُ دعاءُ العبادة، أو دعاءُ المسألة؛ لأن الدعاء ينقسمُ إلى قسمين: دعاءُ مسألة ودعاءُ عبادة.

فإذا قلت: اللهم اغفر لي وارحمني، فهذا دعاءُ مسألة، وإذا قامَ الإنسانُ يُصلي يرجو ثوابَ الله فهذا دعاءُ عبادة.

ويدلُّ لهذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

إذن لا يعبدون مع الله إلهاً آخر، ولا يسألون أحداً حاجةً لا يقدرُ عليها إلا الله وحده لا شريك له؛ فالذين يدعون الأموات يأتون إلى قبرِ الوليِّ يقولون: يا سيدي، يا وليي، أغثني من الشدة، هؤلاء مشركون شركاً أكبر يُخرجهم من دين الإسلام، حتى لو صلّوا لله، وتصدقوا لله، وصاموا لله، وحجّوا لله، واعتمرّوا لله، وهم يدعون من يزعمونهم أولياء لله، فإنهم مشركون لا يُقبلُ منهم شيءٌ.

ولو دعا أحدٌ رسولَ الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلّم أفضلَ البشرِ أيكونُ مشركاً بالله؟

نقول: نعم يكونُ مشركاً بالله، ولا يُقبلُ منه صلاةٌ.

ولو وقفَ على قبرِ النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال: يا رسولَ الله، إنه لا يأتيَنِي ولدٌ، فارزقني ولداً، ثم انصرفَ إلى القبلة وجعل يصلي، فإننا نقولُ في صلاته: إنها باطلة، ولا تُقبلُ. وإذا تصدقَ لم يُقبلُ منه، وإذا صامَ لم يُقبلُ منه، وإن حجَّ لم يُقبلُ منه، وإن اعتمرَ لم يُقبلُ منه، وإن فعلَ أيَّ شيءٍ من العباداتِ لم يُقبلُ منه حتى يتوبَ من الشرك. وهذا هو النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فكيفَ بغيره!

كذلك أيضًا ﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ لا يعبدون أحدًا سِوَى اللَّهِ، فلا يركعون إلا لله، ولا يسجدون إلا لله، ولا ينظرون إلا لله، ولا يخشون إلا الله، إلى آخر أنواع العبادة، فلا يصرفون شيئًا من العبادة إلا لله وحده، فهو لاء هم عبادُ الرحمن.

قتل النفس بغير حق:

ثانيًا: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والنفس التي حرم الله عز وجل أربعة أنفس:

الأولى: المسلم.
والثانية: الذمي
والثالثة: المعاهد.
والرابعة: المستأمن.

المسلم:

وكل هؤلاء أنفسهم محرمة؛ فالمسلم ظاهر أن نفسه محرمة؛ لأنه لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث^(١). وسنبينها إن شاء الله تعالى.

الذمي:

والذمي هو الرجل الكافر يقيم في بلادنا تحت ظل الإسلام، ويبدل الجزية، ونحن ندافع عنه، ونمنع العدوان عليه؛ لأنه في حمايتنا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ...﴾ [المائدة: ٤٥]، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يباح به دم المسلم، رقم (١٦٧٦).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

المعاهد:

المعاهدُ الذي بيننا وبينه عهدٌ، فهذا نفسه محترمةٌ ما لم ينقضِ العهد؛ فإن نقضَ العهدَ زالَ احترامه، أما ما دامَ على عهده فإنه يجبُ علينا أن نوفي له بالعهد؛ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد ذكرَ اللهُ أحوالَ المعاهدينَ أنها ثلاثُ حالاتٍ:

الحالُ الأولى: أن يستقيموا على العهد، ولا ينقضوا العهد، ولا يُخشَى منهم نقضُ العهد، فهو لاءٍ يجبُ علينا أن نوفي بعهدهم، وألا نعتديَ عليهم في أيِّ حالٍ من الأحوال؛ لأن أوفى الأديانِ ذمةً وعهدًا هو دينُ الإسلام.

الحالُ الثانية: قومٌ نكثوا عهدهم بعدَ أن أُجروا معاهدةً بينهم وبين المسلمين، فهو لاءٍ يقولُ اللهُ فيهم: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢]، يعني لا عهدَ لهم، وهذا ظاهرٌ، فإذا جرى بيننا وبين الكفارِ عهدٌ، ثم نقضوا العهدَ باعتداءٍ علينا، أو على من كانَ في حلفنا، فإن عهدهم ينتقضُ، ولا أمانَ لهم.

الحالُ الثالثة: قومٌ لم ينقضوا العهد، ولكننا نخافُ أن ينقضوا العهد، يعني بأن بدا منهم أفعالٌ تشيرُ إلى أنهم سينقضون العهد، فحكمُ هؤلاءِ كما قالَ اللهُ

تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافُكَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَأَنْذِرْ لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] انبذ يعني انبذ العهد، وقل لهم: لا عهد بيننا وبينكم؛ لأننا نخاف أن ينقضوا العهد، فإذا نقضوا العهد ما بقي شيء، فقبل أن ينقضوا العهد نبادرهم، لكن لا ننقض العهد، بل نقول: لا عهد بيننا وبينكم، فلا نخونهم، بل نخبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم على سواء.

إذن المعاهد نفسه من الأنفس المحرمة، إلا إذا نقض العهد، فإن احترامه يزول، وإن خيف نقض العهد منه نبذنا إليه عهده على سواء، حتى يكون على بصيرة ونحن على بصيرة.

أما إذا استقام على عهده فالواجب علينا أن نستقيم على العهد.
نفس المستأمن:

الرابع: المستأمن، وهو الذي ليس بيننا وبين طائفته عهد، لكن هو بنفسه دخل إلى بلادنا مستأمنًا، يعني أعطي أمانًا من قبل الدولة، أو ممن يصح أن يُعطي الأمان، فهذا آمن، ويجب أن نرده إلى مأمنه، وألا نعتدي عليه بأي حال من الأحوال، مع أن قومه ليس بيننا وبينهم عهد ولا ذمة، بل هم حريون، لكنه دخل مستأمنًا وأعطيناه الأمان، فالواجب الوفاء بالأمان؛ لأن هذا ما بيننا وبينه عهد، بل بيننا وبينه أمان.

مثلاً: تاجر من الكفار قدم إلى بلادنا مستأمنًا، وأعطي الأمان من قبل من يصح منه إعطاء الأمان، فهو محترم لا نعتدي عليه، أو على تجارته التي معه حتى ينتهي من التجارة ويرجع إلى بلده، وهذا محترم.

ومن ذلك العمال، فالعمال حتى وإن لم يكن بيننا وبين قومهم عهد فإنهم آمنون؛ لأن مجرد العقد الذي بيننا وبينهم على أن يعملوا في بلادنا يستلزم الأمان، فكيف آتي به ليعمل عندنا بدون أن يكون آمناً! هذا لا يستقيم، ولهذا العمال حتى وإن كان بيننا وبين قومهم حرب فإنهم يُعتبرون آمنين، إذا كان بيننا وبين قومهم حرب وهؤلاء جاؤوا تجاراً أو عمالاً مهندسين أو غير ذلك، فهؤلاء قد أعطيناهم أماناً، فهم آمنون محترمون في دمائهم وأموالهم.

وبهذا نعرف وفاء الإسلام، وأن الإسلام دين الوفاء، ودين الأمان، لكنه في مقابل ذلك دين الحزم والجهد والقتال إذا لم يوجد سبب الأمان؛ لأن الدين الإسلامي ما فيه مداينة، لكن متى وجد ما يقتضي الأمان وجب على المسلمين الوفاء به، ولا يحل لأي واحد من أفراد الناس أن يعتدي على هؤلاء؛ لأنهم آمنون.

إذن قوله عز وجل: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ بينا أنها أربعة أنفس.

قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فيقتلونها. من ذلك المسلم إذا زنى الرجل وهو ثيب، أو زنت المرأة وهي ثيب، والثيب هو الذي جامع زوجته في نكاح صحيح، فهذا الثيب إذا زنى فإنه يُرجم حتى يموت، ويُرجم بالحجارة حتى يموت مع أنه مسلم، لكن رجمه هنا حق.

وإذا قتل نفساً وتمت شروط القصاص، وهو مسلم، فالقاتل يُقتل، مع أن نفسه محرمة، لكن إلا بالحق، فمن قتل شخصاً عمداً وتمت الشروط والقصاص فإنه يُقتل.

وإذا خرج عن الجماعة وفارق الجماعة، وأراد أن يشق العصا، فإنه يُقتل؛ لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»^(١).

لأن الفتنة التي تحصل بفعله فتنة عظيمة، يترتب عليها إراقة دماء وانتهاك أعراض، وإفساد أموال.

والأسباب المبيحة للقتل كثيرة، ليس هذا موضع ذكرها، لكن النبي ﷺ أشار إلى هذه الثلاث في حديث واحد فقال في حديث ابن مسعود: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأَحَدِي ثَلَاثٍ: الشِّبُّ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»^(٢).

كذلك الذمي، فالذمي أيضاً إذا نقض العهد أو نقض الذمة وجب قتله، فلو أن الذمي سب الله ورسوله، وهو ذمي، يُعطي الجزية، خاضع لأحكام الإسلام؛ فإنه إذا سب الله ورسوله انتقض عهده، ووجب قتله؛ لأنه فعل ما ينقض العهد.

وكذلك يقال في المعاهد إذا نقض العهد، فإنه يباح قتله، ويباح مقاتلته، ولهذا لما نقضت قريش العهد الذي بينهم وبين الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وذلك بمعاونة حلفائهم على حلفاء الرسول ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ انتقض عهدهم.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم (١٨٥٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾

[المائدة: ٤٥]، رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين، باب ما يباح به دم المسلم، رقم

(١٦٧٦).

فالذي حصل بين الرسول ﷺ وبين قريش في الحديبية هو وضع الحرب بينهم لمدة عشر سنوات، وقريش ما صبرت، فما مضى بعد هذه المعاهدة سوى سنتين حتى نقضوا العهد؛ لأن الصلح كان في السنة السادسة، ونقض العهد كان في السنة الثامنة، فنقضوا العهد بمعونة حلفائهم على حلفاء النبي ﷺ، فغزاهم الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والمستأمن كذلك إذا وجد منه ما يُخل بالأمان انتقض أمانه، وحل دمه وماله، ولهذا قيد الله عز وجل فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وعرضنا شيئاً من جوانب الحق.

من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يزنون:

قوله: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، والزنا فساد الأخلاق، وفساد الأمم اختلاط الأنساب حتى لا يُدرى هذا الولد ولد الزاني أو ولد الزوج، فكله فساد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

ولهذا حرم الله عز وجل كل وسيلة تؤدي إلى الزنا؛ فحرم النظر لغير الزوجة، وحرم النظر بشهوة حتى لمحارمك، فلو أن رجلاً -والعياذ بالله- انسلخ من الحياء والخجل والإيمان وصار ينظر إلى أخته من الرضاع نظر شهوة، صار هذا النظر حراماً، بل لو كان ينظر إلى أقرب الناس إليه بشهوة -غير الزوجة- فإنه يُعتبر النظر حراماً.

وسد الله عز وجل كل طريق يوصل إلى الزنا فأمر بغض البصر، ونهى المرأة أن تُبدي زينتها إلا ما ظهر؛ فقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ

فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴿[النور: ٣١]... إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي من الزينة، والزينة هي: ما يتزين به الإنسان، وهو اللباس؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، ولم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في اللغة العربية أن الزينة بعض المتزين أبداً، وإنما الزينة شيءٌ مُنفصلٌ يتزين به المتزين؛ كاللباس، أما أن تعود الزينة على جزء من المتزين فهذا لا يوجد في اللغة العربية، ولا في القرآن الكريم.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ﴾ أي ثيابهن، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلا ما لا بد من ظهوره، وهو العباءة والرداء والجلباب، وما أشبه ذلك مما تغطي به المرأة لباسها الباطن، هكذا فسرهُ عبدُ الله بن مسعود^(١)، وهو الحق.

ويبعدُ جداً أن يُراد بالزينة الوجه والكفان؛ لأن هذا ليس بزينة، فهذا جزء من الإنسان، والجزء من الإنسان ليس زينةً له، فالزينة كما ذكرتُ هو ما يتزين به الإنسان، ولا بد أن يكون منفصلاً عنه، يعني ليس جزءاً منه. وليس في اللغة العربية ولا في القرآن ما يدلُّ على أن الزينة بعض المتزين.

ثم إنه قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ولو كان الوجه لقال: إلا ما أظهرن منها، وإلا فالأصل أن الوجه مستورٌ مع بقية البدن، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾ أي: لا بد من ظهوره؛ كالعباءة والرداء والجلباب، وما أشبه ذلك.

(١) تفسير الطبري (١٩ / ١٥٥).

قَالَ: ﴿وَلْيَضْرِبَنَّ بِخُمْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] الْخُمْرُ مَا تُغَطِّي بِهِ الرُّؤُوسُ، وَالْجَيْبُ هُوَ أَعْلَى النَّحْرِ، فَتَضْرِبُ بِخُمَارِهَا عَلَى جَيْبِهَا، وَإِذَا كَانَ خُمَارًا وَقَلْنَا: اضْرِبِي بِهِ عَلَى الْجَيْبِ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَمُرَّ الْخُمَارُ بِالْوَجْهِ، فَيَكُونُ مَغْطًى.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فِي الْأَوَّلِ قَالَ: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا يَبْدِيَنَّ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾، فَهَلِ الزَّيْنَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ الزَّيْنَةُ الْأُولَى؟

الْجَوَابُ: لَا، الزَّيْنَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ الزَّيْنَةُ الْبَاطِنَةُ الَّتِي تَتَجَمَّلُ بِهَا الْمَرْأَةُ؛ كَالْقَمِيصِ وَشَبَّهَهُ، فَهَذَا لَا يُبْدِيهِ إِلَّا مَنْ ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَهَذَا فَرْقٌ بَيْنَ الزَّيْنَتَيْنِ: الزَّيْنَةُ الْأُولَى الَّتِي يَظْهَرُ وَلَا بَدَّ مِنْ ظَهْوَرِهِ، وَالثَّانِيَةُ الَّتِي لَا يَظْهَرُ وَلَكِنَّهُ يَجُوزُ إِبْدَاؤُهُ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

قُلْتُ هَذَا اسْتَطْرَادًا لِبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ حَرَّمَ الزَّانَا وَكُلَّ وَسِيلَةٍ تُؤَدِّي إِلَيْهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وَاعْلَمْ أَنَّ الزَّانَا يَتَضَاعَفُ بِحَسَبِ جُرْمِهِ وَإِثْمِهِ، فَزَنَا الشَّيْخِ الْكَبِيرِ أَعْظَمُ مِنْ زَنَا الشَّابِّ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَمِنْهُمْ: «أَشْمِطُ زَانٍ»^(١) يَعْنِي: شَيْخٌ شَمَطَهُ الشَّيْبُ فَزَنَى، وَلَكِنَّهُ صَغَرَهُ تَحْقِيرًا لَهُ، فَلَمْ يَقُلْ: أَشْمَطُ زَانٍ، بَلْ قَالَ: «أَشْمِطُ زَانٍ».

كَذَلِكَ يَعْظُمُ الزَّانَا إِذَا كَانَ بِإِحْدَى الْمَحَارِمِ، فَإِذَا كَانَ بِإِحْدَى الْمَحَارِمِ كَمَا لَوْ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ (٦/٢٤٦، رَقْمُ ٦١١١).

زَنَى - والعياذُ بالله - بأمِّ زوجته، أو زَنَى بنتَ زوجته التي دَخَلَ بها، فهذا أشدُّ مما لو زَنَى بامرأةٍ أجنبية، ولهذا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]. والزنا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: ومقتًا؛ فدلَّ ذلك على أن الزنا بذواتِ المحارمِ أشدُّ وأعظمُّ؛ لأنَّ قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ نهي عن عقدِ النكاحِ عما تزوجه الأبُّ، فإنَّ جامعَ صارَ أشدَّ من الزنا؛ لأنَّ العقدَ الأولَ غيرُ صحيح.

فماذا على مَنْ زَنَى بامرأةٍ من محارمه؟ أيقالُ فيه ما يقالُ فيمن زَنَى بامرأةٍ ليست من محارمه؟ لأننا نعرفُ أن الرجلَ إذا زَنَى بامرأةٍ من غيرِ محارمه فإنَّ كانَ ثيبًا رُجم، وإنَّ كانَ غيرَ ثيبٍ جُلِدَ مئةَ جلدةٍ، وغرِّبَ عن الوطنِ لمدةِ سنةٍ، لكن إذا زَنَى بامرأةٍ من محارمه، فهلَ حكمُ هذا كحكمِ مَنْ زَنَى بامرأةٍ من غيرِ محارمه؟

الجوابُ: اختلفَ في هذا العلماءُ؛ فمنهم مَنْ قال: إنَّ الحكمَ واحدٌ، وإنَّ مَنْ زَنَى - والعياذُ بالله - بأخته كَمَنْ زَنَى بابنةِ عمِّه؛ إنَّ كانَ محصنًا رُجم، وإنَّ كانَ غيرَ محصنٍ لم يُرجم.

ولكن القولُ الراجحُ أن مَنْ زَنَى بواحدةٍ من محارمه فإنه يقتلُ بكلِّ حالٍ، حتى وإن لم يكنْ محصنًا؛ لأنَّ الزنا بذواتِ المحارمِ أعظمُّ من الزنا بغيرِ ذواتِ المحارمِ؛ كما في اللواطِ والعياذُ بالله؛ فلو تلوَّطَ ذكرٌ بذكرٍ فإنه يجبُ قتلُهما جميعًا إذا كانا بالغينِ عاقلينِ، سواء كانا محصنينِ أو غيرِ محصنينِ، إلا إذا كانَ المفعولُ به مكرهاً فإنه لا يُقتلُ.

إِذْنُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ هذا الوصفُ الثالثُ مِنْ أوصافِ عبادِ الرحمن؛
أنهم لا يدعونَ معَ اللهِ إلهاً آخرَ، ولا يقتلونَ النفسَ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ،
ولا يزنونَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْمِثْلَ لِإِلَهِهِ؛ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ؛ أَنْ
يَدْعُوَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، وَأَنْ يَقْتُلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَنْ يَزْنِيَ؛ مَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ الْمَذْكُورَ يَلْقَ أَثَامًا.

و(يَلْقَى) بِدُونِ أَلْفٍ، وَالَّذِي أَوْجَبَ حَذْفَهَا الْجُزْمُ عَلَى أَنَّهَا جَوَابُ
الشَّرْطِ.

قَوْلُهُ: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا﴾. أَمَا قَتْلُ النَّفْسِ
فَظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضَبَ اللهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا، لَكِنَّهُ عَلَى طَرِيقِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ،
وَآيَاتِ الْوَعِيدِ إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِيهِ إِيمَانٌ فَإِنَّهُ لَا يُخْلَدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، بَلْ يُعَذَّبُ فِيهَا
مَا شَاءَ اللهُ إِنْ لَمْ يَعْفُ اللهُ عَنْهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا
دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الزَّنا: إِنْ الْخُلُودَ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ، وَلَكِنَّهُ عَرْضَةٌ لِأَنَّ يُخْلَدَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- لَا يَزْنِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ^(١).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَظَالِمِ وَالْغَضَبِ، بَابُ النَّهْيِ بِغَيْرِ إِذْنِ صَاحِبِهِ، رَقْمُ (٢٤٧٥). وَمُسْلِمٌ:
كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ نَقْصَانِ الْإِيمَانِ بِالْمَعَاصِي وَنَفْيِهِ عَنِ الْمَتَلَبَسِ بِالْمَعْصِيَةِ عَلَى إِرَادَةِ نَفْيِ
كَمَالِهِ، رَقْمُ (٥٧).

توبةُ المشرك:

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أولاً نبدأ بالشرك؛ مَنْ تَابَ مِنَ الشَّرِكِ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَهْمَا عَظُمَ شَرُّهُ، حتى لو كان حينَ شركه يسبُّ الله، ويسبُّ الرسول، ويسبُّ الإسلام، ثم اهتدى وآمن، فإن الله يتوبُ عليه.

وانظر للذين كانوا يستهزئون بالرسول والقرآن، قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

والذين يعفو الله عنهم هم الذين يتوبون، فمن تاب من أيِّ شرك، ومن أيِّ كفرٍ فإن الله يتوبُ عليه، مهما كان، والتوبة تهدم ما قبلها، فلو جاءنا رجلٌ مثلاً وقال: إنه مضى عليه ستان أو أكثر لا يصوم ولا يصلي، ويسرق، ويزني، وقتل نفساً، وهو الآن تائبٌ نادمٌ، فإننا نقول: توبتك مقبولة.

إذن الشركُ مهما عظم فإن توبته مقبولة.

توبةُ القاتل:

أما قتل النفسِ فإذا تاب الإنسانُ منه، وقد قتل نفساً مؤمنةً عمداً، فإن الله يتوبُ عليه، ولكن لاحظ أن التوبة من القتل لا تصحُّ إلا إذا سلم القاتل نفسه لأولياء المقتول، بأن أتى إليهم وأقرَّ بأنه هو الذي قتل صاحبهم، أما أن يكونوا قد اتوه وأخفى نفسه، ويبقى غير مبين نفسه، فهذا لا تصحُّ توبته، فلا بدَّ أن يسلم نفسه لأولياء المقتول، ويُمكنهم من قتله إذا شاؤوا.

على أنه لو تاب القاتل وبرئ من حق أولياء المقتول فإنه يبقى عليه حق آخر، وهو حق المقتول نفسه، ولهذا جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن القاتل لا توبة له^(١)، ويريد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لا توبة له باعتبار حق المقتول؛ لأن المقتول الآن مات لا يُدرى هل سامح وتنازل أو لا، فلا بد من أخذ حقه من القاتل يوم القيامة ولو تاب؛ لأنه فوّت على المقتول أن يبقى في الدنيا.

ولكن ظاهر الآية الكريمة أن توبته مقبولة، وأن الله تعالى يرضي المقتول يوم القيامة بما يقابل إثم هذا القاتل.

توبة الزاني:

أما الزنا فلو كان رجل زان -والعياذ بالله- وسفه في أول عمره، ثم من الله عليه بالتوبة، فهل يسقط عنه إثم ما سبق؟

الجواب: نعم؛ لأن الله قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾، فيسقط عنه كل إثم حصل له بالزنا، لكن بشرط أن تكون توبته نصوحاً خالصة لله عز وجل.

ولهذا أكد الله هذا الأمر بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

فإذا قدرنا أن الكافر اعتدى على حقوق المسلمين في حال الكفر، مثلما يجري بين الكفار والمسلمين من القتال، فهل يضمن الكافر حق المسلم، أو لا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾، رقم (٤٧٦٤)، ومسلم: كتاب التفسير، رقم (٣٠٢٣).

الجواب: لا يضمن، ولهذا لم يُضمّن النبي ﷺ الذين أسلموا ما قتلوه في بدر وغيرها من الغزوات. ولما أدرك أسامة بن زيد رضي الله عنه رجلاً من المشركين؛ لأن المشرك هرب من أسامة فلحقه أسامة، فلما أدركه قال المشرك: لا إله إلا الله، فقتله أسامة؛ لأن أسامة تأول أن هذا المشرك إنما قال: لا إله إلا الله تَعَوّذاً من القتل، وليست من قلبه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ وجاءه الخبر قال لأسامة: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». قال أسامة: «كَانَ مُتَعَوِّذًا» يعني خوفاً من القتل، فما زال الرسول ﷺ يكرّر عليه وهو يقول: إنما قالها تَعَوّذاً، وقال: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». قال أسامة: «فَمَا زَالَ يُكْرِّرُهَا، حَتَّى تَمَيَّنْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»^(١).

لأنه لو قتل هذا الكافر وهو كافر فإنه لا يُعاقب عليه؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

فهذه بُدْ يسيرةٌ مما من الله به علينا أن نتكلم به على هذه الآية، وإلا فالآية تحتاج إلى كلام أكثر، لكن أشرنا إلى بُدٍ لعلها يُستغنى بها عما وراءها، أو لعلها تكون فتح باب لطالب العلم حتى يستنبط من القرآن ما هو أهل له.

ولذلك ينبغي لطالب العلم أن يعتني باستنباط الفوائد من الأدلة الشرعية، سواء من القرآن أو من السنة، فيفكر مثلاً ماذا تدل عليه الآية حتى يستنبط، ولهذا لما قال أبو جحيفة لعل بن أبي طالب: «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» لأنه كان في ذلك الوقت قد أشيع أن الرسول ﷺ أوصى إلى علي بن أبي طالب

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحركات من جهينة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦).

أن يكون الخليفة من بعده، فقال عليٌّ: «لَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا فَهْمًا يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ» وهذا هو الشاهد «وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ»
والصحيفة فيها: العقلُ، وَفَكَاكُ الْأَسِيرِ، وَأَلَّا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ^(١).

فالمهمُّ الفهمُ -يا إخواني- فيما يدلُّ عليه الكتابُ والسنةُ من الفوائدِ والسنةِ والأحكامِ، ثم تطبيقها على الواقعِ.

نسألُ اللهَ أن يرزقني وإياكم الفهمَ في كتابه، والعملَ به، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.
والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الأسير، رقم (٣٠٤٧).

سورة الشعراء

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ؛ فَصَلَّواتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

ففي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع فِرْعَوْنَ كان بينهما محاورَةٌ ومجادلةٌ، ولجأ فِرْعَوْنُ في النهاية إلى التهديد؛ فَإِنَّهُ لَمَّا عَجَزَ عن المجادلةِ بِالْحَقِّ قَالَ: ﴿لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ أَي لَأَسْجِنَنَّكَ ضِمْنَ الْمَسْجُونِينَ، وَهَذَا هُوَ سَبِيلُ الْمُفْلِسِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ حُجَّةٌ، أَنَّهُ يُهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ، لَكِنْ لَيْسَتْ الْحُجَّةُ هِيَ مَا يَهْوَاهُ الْإِنْسَانُ، أَوْ مَا تُثْلِيهِ الْعَاطِفَةُ، لَكِنَّهَا مَا كَانَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، سَوَاءٌ كَانَ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أَوْ فِي شَرِيعَةِ مَنْ قَبْلَهُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَا يَعْتَقِدُهُ الْإِنْسَانُ حُجَّةً يَكُونُ حُجَّةً.

وفي آخِرِ الْقِصَّةِ نجد أن فِرْعَوْنَ أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ؛ مُجِيدٍ لِلسَّحَرِ؛ مِنْ أَجْلِ مُقَابَلَةِ مُوسَى بِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، قَالَ

تَعَالَى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ (٣٦) يَا تَوَكَّ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿[الشعراء: ٣٦-٤٠]﴾.

وإنما حَشَرَ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ؛ لأن آيات مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من جنس السحر، لكنها ليست سحرًا؛ بل آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

فإنَّ من آيات مُوسَى أَنْ يُلْقِيَ عَصَاهُ الَّتِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا، وَيَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِهِ، يَلْقِيهَا عَلَى الْأَرْضِ، فَتَكُونُ ثَعْبَانًا عَظِيمًا، ثُمَّ يَحْمِلُهَا فَتَعُودُ عَصًا، وَهَذَا فِي نَظَرِ النَّاسِ يُظَنُّ أَنَّهُ سَحَرٌ، وَيُدْخِلُ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ عَلَى طَبِيعَتِهَا، ثُمَّ يُخْرِجُهَا بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ عَيْبٍ، وَمِنْ غَيْرِ سُوءٍ؛ يَعْنِي لَيْسَ بِيَاضَ بَرَصٍ، وَلَكِنَّهَا بِيَضَاءٌ تَتَلَأَلَأَ، وَهَذَا أَيْضًا يُظَنُّ الرَّائِي أَنَّهُ سَحَرٌ.

وكان للسحر في عهد فِرْعَوْنَ شأنٌ عظيم، حتَّى وصل إلى القمَّة، فجمع السحرة، وانتهى الأمر إلى أن ألقى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَصَاهُ ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]؛ تبتلعه مع كثرته؛ لأن الأرض امتلأت من حبالهم وعصيَّهم، وصار الرائي يظنها حيَّاتٍ تسعى، وهذه الحية الَّتِي ألقاها مُوسَى صارت تلتهم كلَّ ما صنعوا.

فمن آيات الله أنها تلتهم هذه الحبال والعصيَّ، ومن آيات الله أنها تهضمها بسرعة، وكأنه بخارٌ يزول سريعًا، وإلا فأَيُّ بطنٍ تسعُ هذه الحبال والعصيَّ الَّتِي ملأت هذه الأرض؟! ولكنها آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ.

لَمَّا رَأَى السَّحْرَةَ ذَلِكَ - وَهُمْ عُلَمَاءُ بِالسِّحْرِ - عَرَفُوا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ،
وَأَنَّهُ خَارِجٌ عَنْ طَاقَةِ الْبَشَرِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ السِّحْرِ فِي شَيْءٍ، فَأَمَنُوا، ﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ
سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦]؛ وَفِي قَوْلِهِ: (أَلْقَى) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ سَجَدُوا مَبْهُوتِينَ^(١)، كَأَنَّا
أَلْقَوْا إِلْقَاءً عَلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ مَا بَهَّرَهُمْ، وَقَالُوا: ﴿أَمَّا رَبِّ الْعَالَمِينَ
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨]، فَتَوَعَّدَهُمْ فِرْعَوْنُ، وَهَدَّدَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لِقُوَّةِ
إِيمَانِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ قَالُوا لَهُ: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) ﴿إِنَّا آمَنَّا
بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

ثُمَّ إِنْ فِرْعَوْنُ جَمَعَ النَّاسَ لِيَقْضِيَ عَلَى مُوسَى وَقَوْمِهِ، فَأَمَرَ اللَّهُ مُوسَى
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْرِيَ بِقَوْمِهِ لَيْلاً، وَيَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى نَاحِيَةِ
الشَّرْقِ مِنْ مِصْرَ، أَيِ إِلَى نَاحِيَةِ آسِيَا، يَتَجَهَّزُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ (الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)،
فَفَعَلَ وَخَرَجَ بِأَمْرِ اللَّهِ.

فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ جَمِيعَ جُنُودِهِ أَنْ يَتَّبِعُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَوَصَلَ مُوسَى وَقَوْمَهُ إِلَى
الْبَحْرِ، وَخَلَفَهُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، فَقَالَ أَصْحَابُ مُوسَى: ﴿إِنَّا لَمَذْكُورُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]،
وَيَكُونُ إِدْرَاكُهُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا تَقَدَّمُوا وَقَعُوا فِي الْبَحْرِ، وَإِذَا بَقُوا أَوْ رَجَعُوا تَلَقَّاهُمْ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُ، فَأَيَقِنُوا بِالْهَلَاكِ، وَلَكِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِقُوَّةِ إِيْمَانِهِ بِاللَّهِ، وَقُوَّةِ تَوَكُّلِهِ
عَلَيْهِ ﴿قَالَ كَلَّا﴾ يَعْنِي لَسْنَا بِمُذْرَكِينَ ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]؛ لِأَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى وَعَدَهُ حِينَ أَرْسَلَهُ أَوَّلَ مَا أَرْسَلَهُ: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾
[طه: ٤٦].

(١) بَهْتَهُ: أَخَذَهُ فَجَاءَهُ.

فأمره الله أن يضربَ البحرَ بعصاهُ، فضربه، فانفلقَ البحرُ في الحالِ اثني عشرَ طريقًا بإذنِ الله، وصارتِ المياهُ بينَ هذهِ الطرقِ كالجبالِ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ تفرَّقَ البحرُ اثني عشرَ طريقًا؛ لأن بني إسرائيلَ كانوا اثني عشرَ أسباطًا؛ أي: قبائلَ، كل قبيلةٍ كانت تمرُّ من طريق.

ولم يحدثْ لهم حينُ مُرورهم بالبحرِ غوصٌ في الطينِ ﴿فَأَضْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]؛ وهذه آيةٌ ثانيةٌ، أنَّه في هذهِ اللحظة يَبَسُ البحرُ؛ وكأنه أرضُ صحراءٍ لم ينزلْ عليها ماءٌ إطلاقًا، وهذا -والله- من آياتِ الله الدالةِ على كمالِ قُدْرته، وكمالِ نصره لأوليائه إذا ضاقتْ بهم الحِيل.

عَبَرَ مُوسَى وقومه آمِنِينَ، ودخلَ فِرْعَوْنُ وقومه على أنهم ظافرون بمُوسَى وقومه، فأمر الله تعالى البحرَ فانطبقَ عليهم؛ فغرقوا عن آخرهم.

ولَمَّا أدركَ فِرْعَوْنُ الغرقُ ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولم يقل: لا إلهَ إلا الذي دعا إلى توحيدهِ مُوسَى، ولم يقل: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ: لا إلهَ إلا الذي آمَنْتُ به بنو إسرائيلَ، فأذَلَّ نفسه حتَّى جعلها تابعةً لبني إسرائيلَ؛ الذين كان بالأُمسِ يذبحُ أبناءَهُم، ويستحيي نساءَهُم، فأذاقه الله الذلَّ قبل أن يفارقَ الحياةَ، وهذا من بلاغةِ القرآن.

وهذا دليل على أن من استكبر عن آياتِ الله فإن ماله أن يذَلَّ ويخزى؛ ﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقل له: ﴿ءَاَلْتَنَ﴾ يعني الآن تؤمن وتُتوب ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] يعني ولا توبة لك؛ لأنَّه إنما تاب حين رأى الموت.

ومن تاب حين رأى الموت فإنه لا تُقبل منه التوبة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنَ﴾ [النساء: ١٨] فهذا ليس له توبة؛ لأنه عاينَ الحقَّ، والإيمان عن معاينة لا ينفع، ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٨٤) ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]؛ ومن ثمَّ يتبيَّن أنه يجب علينا أن نبادر بالتوبة، وأن نبادر بالخلاص من الآثام التي بيننا وبين ربِّنا، ومن الآثام التي بيننا وبين عباد الله، قبل أن يفجأنا الموت.

فلا أحد يضمن لنفسه أن يبقى إلى صباح هذه الليلة، وكم من إنسانٍ خرج من بيته ولم يرجع إليه! وكم من إنسانٍ لبس ثوبه، وزرَّ أزراره، ولم يفكَّ أزراره إلا غاسله على سرير غُسله! وكم من إنسانٍ بيده القلم يكتب على مكتبه وإذا هو ميّت! وإذا كان كذلك فإن الواجب أن نبادر بالتوبة إلى الله عزَّ وجلَّ، وأن نفكر -أسأل الله أن يعيننا على ذلك- هل نحن قمنا بواجب ربِّنا؟ هل انتهينا عمَّا حرَّم؟ هل علينا حقوق للناس؟ مظالم، أكل أموال، ادِّعاء ما ليس لنا، كذبٌ ودجل، غشٌّ وخيانة... ما أكثرَ هذا بين الناس اليوم!

لقد تكالبَ الناس على الدُّنيا حتَّى صارت الدُّنيا أكبرَ همِّهم، ومبلغَ علمهم، وصاروا لا يهتمُّون بنقص الدين إذا زادت الدُّنيا -نسأل الله العافية- مع أن الدُّنيا إما مفارقةٌ لهم، وإما أنهم هم مفارقون لها.

نرجع إلى القصَّة، ففرَّعون آمنَ حين أدركه الغرقُ، وعاینَ الموتَ، فقليل له توبيحًا: ﴿أَلَمْ يَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٩١) ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ﴾

يعني لا تغرق ببدنك، كما غرق آل فرعون وأكلتهم الحيتان، بل ننجيك ببدنك، ﴿لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩١-٩٢]؛ لأن بني إسرائيل قد أربعهم فرعون، ووصل خوفه ورعبه إلى شغاف قلوبهم، فلن يطمئنوا حتى يشاهدوا عدوهم طافياً على الماء، فإذا شاهدوه أيقنوا أنه ميت؛ لأنه لو غاب مع من غاب من آل فرعون لصار في قلوب بني إسرائيل شك، هل مات أو لم يمُت؟ فإذا طفا على سطح الماء، وشاهده بنو إسرائيل حينئذ أيقنوا.

فإن قيل: وهل هناك فرق بين كون المرء يشاهد الشيء بعينه أو يخبره عنه مخبر صدق؟

قلنا: نعم، بينهما فرق، والدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَكُم مِّنْ أَهْلِ الْاَلَمِ الْأَوَّلِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، هذا الكلام ﴿أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا﴾ قاله الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام لأنه طلب من الله أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وليس الخبر كالمعاينة، وكم من إنسان صدوق عندك ثقة مئة بالمئة يخبرك بالخبر وتصدقه، ولكنه لا يطمئن قلبك تماماً إلا إذا شاهدته عين اليقين؛ ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].

وبهذا يتبين أن الفرَج مع الكرب؛ فلما اشتد الكرب على بني إسرائيل فرج الله عنهم؛ بنجاتهم وهلاك عدوهم.

وقد قال نبينا محمد رسول الله ﷺ كلمة جامعة ينبغي أن تكون بين جنبينا، وأن تكون على أفهامنا دائماً: «وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ

مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا^(١). آمِنَ بِهَذَا، وَصَدَّقْ بِهِ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ، فَكَلَّمَا اشْتَدَّتْ عَلَيْكَ الْكُرُوبُ فاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْجَ قَرِيبٌ، لَكِنْ اصْبِرْ، وَكَلَّمَا تَعَسَّرَتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ فاعْلَمْ أَنَّ الْيُسْرَ قَرِيبٌ؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فِيمَا يَذْكُرُ عَنْهُ: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»^(٢).

وَهُنَاكَ شَوَاهِدٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَارِجُ الْكُرْبَاتِ، وَأَنَّهُ كَلَّمَا اشْتَدَّ الْكَرْبُ وَاعْتَمَدَ الْإِنْسَانُ عَلَى رَبِّهِ اعْتِمَادًا كَامِلًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْرِجُ عَنْهُ، وَهَذَا مَا حَصَلَ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ؛ مِنَ الشَّرْطِ الَّتِي ظَاهَرَهَا أَنَّهَا قَاسِيَةٌ شَدِيدَةٌ، وَأَنَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَلَيْسَتْ لَهُمْ.

وَقِصَّةُ صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا؛ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ؛ لَا يُرِيدُ قِتَالًا، وَمَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَلْفٌ وَأَرْبَعُ مِائَةٍ رَجُلًا، وَمَعَهُمْ إِبِلٌ كَثِيرَةٌ؛ هَدَى يُهْدُونَهُ إِلَى الْبَيْتِ.

وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْحَدِيثِيَّةِ، وَالْحَدِيثِيَّةُ مَكَانٌ مَعْرُوفٌ؛ بَعْضُهُ مِنَ الْحِلِّ وَبَعْضُهُ مِنَ الْحَرَمِ، يَعْنِي نَزَلَ عَلَى حُدُودِ الْحَرَمِ، مَنَعَهُ الْمَشْرُكُونَ؛ قَالُوا: لَا يُمْكِنُ أَنْ تَدْخَلَ مَكَّةَ، لَوْ دَخَلْتَ مَكَّةَ لَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ بِأَنَّا أَخَذْنَا ضَغْطَةً؛ يَعْنِي غَضَبًا عَلَيْنَا. وَهَذَا مِنَ الْجَبَرُوتِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ. وَحِمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ هِيَ الَّتِي أَدَّتْ بِهِمْ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ يَأْتِي رَجُلٌ مُشْرِكٌ مِنْ أَقْصَى الْجَزِيرَةِ لَفَتَحُوا لَهُ الطَّرِيقَ! لَكِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) أخرجه أحمد (٣٠٧/١).

(٢) التفسير الوسيط للواحدى (٥١٧/٤).

وأصحابه، وهم أولى الناس بالبيت منعوهم! قالوا: لئلا يتحدّث العربُ أنا أخذنا ضَغْطَةً؛ أي: غصبًا.

فحصلت بينهم مراسلاتٌ، واتفق الجميعُ على شروطٍ ظاهرها أنها ليست في مصلحةِ المسلمين:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أن تُوضَعَ الحربُ بينهم لمدةِ عشرِ سنواتٍ، لا يحاربهم الرَّسُولُ، ولا يحاربون الرَّسُولَ، مع أنهم مُشْرِكُونَ، ومع ذلك رأى النَّبِيُّ ﷺ من المصلحة أن يصالحهم هذه المدة، فصالحهم على أن توضع الحربُ لمدةِ عشرِ سنواتٍ، هذا شرطٌ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أن النَّبِيُّ ﷺ لا يدخل مَكَّةَ؛ ويرجع إلى المدينة من حيثُ جاء. وهذا أيضًا ثَقِيلٌ؛ ووجهُ ذلك أن الرَّسُولَ مُحْرَمٌ يقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، ثم يُرَدُّ، فهو أمر شاقٌّ على النفوسِ، ولكن الرَّسُولُ وافقَ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أن الرَّسُولَ ﷺ يقضي العُمْرَةَ في العام القادم، لكن بدون حملِ السلاح، إلَّا بالسيوفِ في جرابها.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أن مَنْ جاء منهم مُسْلِمًا إلى المُسْلِمِينَ يُرَدُّ، وَمَنْ ذهبَ من المُسْلِمِينَ إليهم لا يُرَدُّ -سبحانَ الله- وهذا الشرط فيه جور ظاهر، والعدلُ أنه إذا جاء مسلمٌ إلى المدينة فإنه يَبْقَى في المدينة، كما أنه إذا ذهبَ من المُسْلِمِينَ إلى المُشْرِكِينَ رجل يَبْقَى عندهم، هذا هو ظاهرُ العدل. وهذا الشرط من أثقل ما يكون على المُسْلِمِينَ.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: لَمَّا أَملى النَّبِيُّ ﷺ الصُّلْحَ، وقال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قال مندوب قريش: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ: بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ.

وهناك أناس الآن لا يكتبون (بسم الله الرحمن الرحيم) بل يكتبون: (باسمه تعالى)، والضمير في (باسمه تعالى) لا ندري على من يعود، فهو ضمير لا يُعرف مرجعه، والكتابة الصحيحة: (بسم الله الرحمن الرحيم)،

إذن قال الرسول: «اكتب بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ»^(١) تنازلاً من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لكن بحق.

الشرط السادس: لما قال النبي ﷺ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» قَالَ مندوب قريش: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. وقد وافق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللَّهِ، وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي» احتفظ لنفسه بهذا «اكتب مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»^(٢)؛ لَأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَا شَكَّ.

ولهذا ينبغي أن ننبه إخواننا الذين يقولون دائماً: هَذَا قول مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، أَوْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، بدلاً من أن يقولوا: قال رسول الله، نقول: يا أخي، وصفه بـ(رسول الله) أفضل ألف مرة من وصفه بأنه مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. فَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلِمَ عَلَى ذَاتِهِ ﷺ، وعلى ذات أبيه، لكن مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ إثبات رسالة. وهذه نجدها في الكتاب المتأخرين كثيراً، فبدلاً من أن يقول: قال رسول الله، يقول: قال مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وبدلاً من أن يقول: الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على رسول الله، يقول: الصَّلَاةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

والسلام على مُحَمَّدٍ بنِ عبدِ الله.. يا أخي، الرسالةُ أفضلُ وصفٍ؛ فأفضلُ وصفٍ للرسولِ أَنَّهُ عبدُ الله ورسولُهُ.

وانتهى الصلحُ، أو انتهت الوثيقةُ، وفيها مشقةٌ على المسلمين، ونفذَ النبي ﷺ الصلحَ، وأمر أصحابه أن يخلوا، وقال: «قُومُوا فَأَنْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا» لكنه كبر على الصحابة ذلك الأمر، وتأنوا وتأخروا لم ينفذوا سريعاً؛ رجاء أن يبدو للنبي صلى الله عليه وآله عليه وعلى آله وسلّم رأيٌ آخر؛ لأن الزمنَ زمنَ تشريع، ويمحو الله ما يشاء ويُثبت، ولكنَّ الرسولَ صمّم، فلما رآهم ثاقلوا دخل على زوجته أمّ سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وكانت امرأة ذكية عاقلة، فاستنكرت منه ما رآته على وجهه، وأخبرها بما جرى، وأنه أمر الصحابة، ولم يمتثلوا، فقالت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمُ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُو حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. سبحان الله! هذا تطبيق بالفعل، ففعل الرسول ﷺ، ولما فعل الرسول هذا علموا أَنَّهُ لَا نَسْخَ فِي الْأَمْرِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَبْدِيلِ هَذَا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَخْلُقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، رضي الله عنهم وأرضاهم^(١).

لم نأتِ إلى المقصودِ من ذكر هذه القصة؛ جاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى رسولِ الله ﷺ يحاوره في هذه الشروط، يقول: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّيَّةَ فِي دِينِنَا إِذْنُ؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ مُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»^(١)؛ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، غير مقيّد.

الشاهد هنا قوله: «وَهُوَ نَاصِرِي»، فأيقن النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ الضَّنْكَ؛ الَّذِي لَمْ يَتَحَمَّلْهُ مِثْلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُهُ، مَعَ أَنَّ ظَاهَرَ وَثِيقَةِ الصُّلْحِ أَنَّهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وعمرُ بنُ الْخَطَّابِ معروفٌ بِشِدَّتِهِ فِي دِينِ اللَّهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ أَحْصَى النَّاسَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَرَّحَ لَهُ كَمَا صَرَّحَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَجَعَلَ يَنَاقِشُهُ كَمَا نَاقَشَ النَّبِيَّ ﷺ، فَكَانَ جَوَابُ أَبِي بَكْرٍ كجَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ حَرْفًا بِحَرْفٍ، وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ثَبَاتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهُ أَشَدُّ النَّاسِ ثَبَاتًا عِنْدَ الْمَضَائِقِ.

يقول عمر: فَاتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيُّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذْ نَ؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغُرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

يُحَدِّثُنَا أَنَا سَنَاتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ^(١).

وحدث -والحمد لله- النصر بعد سنة واحدة فقط، فنقضت قريش الصلح مع رسول الله ﷺ؛ حيث أعانت حلفاءها على حلفاء النبي ﷺ، فجعل النبي ﷺ ذلك نقضاً للعهد، وغزاهم في السنة الثامنة في رمضان، وفتح الله عليه مكة وطهرها -والله الحمد- من الشرك والأوثان، ووقف على باب الكعبة -كما قاله المؤرخون^(٢)- وكبراء قريش تحته، يقول لهم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟». قالوا: خَيْرًا، أَخْ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

وقال: «فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(٣).

انظر! مَنْ عليهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بعد أن كان قبل ثماني سنواتٍ خارجًا خائفًا منهم، فصارت العاقبة للمتقين، والنصر مع الصبر، والفرج مع الكرب، وهذا أمرٌ لَا يَشْكُ فِيهِ الْإِنْسَانُ، لكن الشَّيْطَانُ يَأْتِي بَنِي آدَمَ، وَيُوسُوسُ لَهُمْ، وَيُزَيِّنُ لَهُمْ أَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَى الْأَسْبَابِ دُونَ الْمُسَبَّبِ، حَتَّى إِنْ الْوَاحِدُ مَنَّا إِذَا أُصِيبَ بِالزُّكَامِ الْمَعْتَادِ فَإِنَّهُ يَفِرُّ إِلَى جِهَةِ الْمُسْتَشْفَى: أَيْنَ الْمُسْتَشْفَى؟ أَيْنَ الطَّيِّبِ؟ وَيَغْفُلُ كَثِيرًا مَنَّا عَنِ الرَّبِّ عَزَّجَلَّ؛ الَّذِي قَدَّرَ الْمَرَضَ بَعْدَ الصَّحَّةِ، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَقَدِّرَ الصَّحَّةَ بَعْدَ الْمَرَضِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، رقم (٢٧٣١).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٤١٢).

(٣) السنن الكبرى للنسائي (١٠/١٥٤، رقم ١١٢٣٤).

لكننا لا ننفي بذلك الأسباب، فالأسباب ثابتة وحقٌّ، وقد أمر النبي ﷺ بالتداوي فقال: «تَدَاوُوا وَلَا تَدَاوُوا بِحَرَامٍ»^(١).

لكن كوننا نَعْتَمِدُ على غير الله من الأسباب التي جعلها الله تعالى أسباباً، هذا هو الخطأ. فالواجب أن نَعْتَمِدَ على مُسَبِّبِ الأسباب، وأن نَعْتَقِدَ أن السبب من خلق الله عزَّ وجلَّ، وهو الذي قَدَّرَهُ، وقَدَّرَ لنا الشفاء بهذا السبب.

فيا أخي؛ إذا ضاقت بك الحِيلُ فانتظرِ الفَرَجَ مِنْ الله عزَّ وجلَّ، ولا تَرَكْنِ إِلَّا إِلَى الله، ولا تستعِنْ إِلَّا بالله، ولا تسأل إِلَّا الله عزَّ وجلَّ؛ فإنه فارِجُ الكُرْبَاتِ، ومُجِيبُ الدَّعَوَاتِ.

نسأل الله تعالى أن يُفَرِّجَ كُرُوبَنَا وكُرُوبَكُمْ، وأن يَكْشِفَ غَمَّنَا وَغَمَّكُمْ، وأن يجعلنا من عبادِ الله المؤمنين المتوَكِّلِينَ عليه، إنه جَوَادٌ كَرِيمٌ، وصَلَّى اللهُ على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، والحمدُ لله الَّذِي بحمده تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، رقم (٣٨٧٤).

الدرس الثاني :

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

الْضَّمِيرُ فِي (إِنَّهُ) يَعُودُ عَلَى الْقُرْآنِ.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أَضَافَ التَّنْزِيلَ إِلَى الرَّبِّ، وَإِلَى عُمُومِ الرُّبُوبِيَّةِ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فَالَّذِي أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي خَلَقَهُمْ، وَلَهُ مُلْكُهُمْ، وَلَهُ تَدْبِيرُهُمْ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُوا بِهَذَا الْقُرْآنِ.

وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنُ لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلَيْسَ لِلْمُسْلِمِينَ فَقَطْ، فَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ الْقُرْآنُ لَزِمَهُ أَنْ يَتَّبِعَهُ. وَلِهَذَا أَقْسَمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِدُونِ قَسَمٍ، فَقَالَ: «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، وَلَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١)، وَأَصْحَابُ النَّارِ هُمْ أَهْلُهَا الْمُخَلَّدُونَ فِيهَا.

وَعَلَى هَذَا، فَكُلُّ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ سَمِعَ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ مَاتَ عَلَى هَذَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، فَإِنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، وَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

نَدْعُو لَهُ بِالمَغْفِرَةِ، أَوْ بِالرَّحْمَةِ، أَوْ نُبْدِي الحَزْنَ أَوْ الأَسْفَ عَلَيْهِ، وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ
لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾
[التوبة: ١١٣].

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ إِمَامُ الْحَنَفَاءِ، اسْتَغْفَرَ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ؟
قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ- أَجَابَ عَنْ هَذَا الإِشْكَالِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانِ
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ
مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

فَلَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِفُلَانٍ، وَقَدْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ
الاعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ، فَاللَّهُ لَا يَغْفِرُ لِلْمُشْرِكِينَ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ مَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ
يَفْعَلَهُ، أَوْ مَا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ إِلَّا يَفْعَلَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ﴾ الرُّوحُ الْأَمِينُ هُوَ جَبْرِيلُ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، نَزَلَ بِهِ مِنَ اللَّهِ عَلَى قَلْبِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَلَمْ يَقُلْ: عَلَى
أُذُنِكَ، أَوْ عَلَى سَمْعِكَ؛ لِأَنَّ مَحَلَّ الْوَعْيِ وَالْحَفْظِ هُوَ الْقَلْبُ، فَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا
أُوحِيَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ، لَمْ يُفَلِّتْ مِنْهُ حَرْفٌ وَاحِدٌ، وَلَا حَرَكَةٌ، وَلَا كَلِمَةً، وَلَا آيَةً، فَتَنْزِلُ
فِي الْقَلْبِ.

قَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ أَيُّ: مِنَ الرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ- مُبَشِّرُونَ وَمُنْذِرُونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ: ﴿رُسُلًا
مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، وَهَذَا لَمْ تَذَكِّرِ الْبَشَارَةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنْذِرِينَ ﴿١﴾؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يَقْتَضِي الْإِنْذَارَ، وَلِأَنَّ السُّورَةَ فِي بَيَانِ تَكْذِيبِ الْمَجْرِمِينَ لِلرُّسُلِ، وَالْمُكَذِّبِ الْأَنْسَبُ فِي مَخَاطِبَتِهِ، الْإِنْذَارُ؛ وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أَيْ: مِنَ الرُّسُلِ الْمُنْذِرِينَ الَّذِينَ يُنْذِرُونَ قَوْمَهُمْ مُخَالَفَتَهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وَهَذَا فَخْرٌ لِلْإِنْسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَفَخْرٌ لِلغَتْنَا الْعَرَبِيَّةِ، فَعَلَيْنَا التَّمَسُّكَ بِهَا.

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّنَا نَجِدُ أَنَسًا عَرَبًا مُسْلِمِينَ مِنْ جَهْلِهِمْ يَتَكَلَّمُونَ وَيَتَخَاطَبُونَ بِاللُّغَةِ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى كَانُوا يُعَوِّدُونَ صَبْيَانَهُمْ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَنْ يَقُولُوا: بَايَ بَايَ.

إِنَّ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ هِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ، وَلُغَةُ مَنْ نَفَتْخَرَ بِالْإِنْسَابِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ، فَكَيْفَ تَأْتِي بِلُغَةٍ أَعْجَمِيَّةٍ تُعَلِّمُهَا الصَّبْيَانُ!

وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَضْرِبُ عَلَى رِطَانَةِ الْأَعَاجِمِ ^(١)، فَإِذَا سَمِعَ إِنْسَانًا عَرَبِيًّا يَتَكَلَّمُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ، ضَرَبَهُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: لِمَاذَا تُضَيِّعُ لُغَتَكَ وَهِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ، وَعِلْمَاءُ الْمُسْلِمِينَ.

الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إِمَامُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، غَيْرُ عَرَبِيٍّ، لَكِنَّهُ يَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ، وَيَعْرِفُ مَعَانِيَ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ، وَيَفْخَرُ بِذَلِكَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ إِنْسَانٍ عَاقِلٍ يَفْخَرُ بِأَنْ يَسْتَعْمَلَ لُغَةَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.

(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الْمَصْنَفِ (١/ ٤١١).

قوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أَي: بلغة؛ لِأَنَّ اللِّسَانَ يُرَادُ بِهِ اللُّغَةُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ أَي بلغتهم، ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

قوله: ﴿مُبِينٍ﴾ أَي: بَيِّن، أَوْ مُظْهِر، أَوْ كِلَاهُمَا.

فَائِدَةٌ:

إِذَا رَأَيْتَ النَّصَّ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ لَا مُرَجَّحَ لِأَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَالنَّصُّ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا جَمِيعًا، فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَرْجَحَ أَخَذَ بِهِ، وَإِنْ تَسَاوَيَا لَكِنْ هُنَاكَ مُرَجَّحٌ خَارِجِيٌّ، أَخَذَ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْمُرَجَّحُ الْخَارِجِيُّ.

و(مُبِين) تَصْلَحُ لَازِمَةً وَمُتَعَدِيَةً؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ أَبَانَ اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهَا مُبِينٌ، كَأَكْرَمَ اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْهَا مُكْرِمٌ، وَكَلِمَةُ أَبَانَ يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لَازِمَةً، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُتَعَدِيَةً، تَقُولُ: أَبَانَ الصُّبْحُ، هَذِهِ لَازِمَةٌ، بِمَعْنَى: بَانَ الصُّبْحُ، وَتَقُولُ: أَبَانَ الضُّوءُ حُرُوفَ الْكِتَابِ، فَتَكُونَ مُتَعَدِيَةً.

إِذَنْ (مُبِين) يَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى: بَيِّن، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى: مُبَيِّنٌ لِغَيْرِهِ، وَلَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَقُولَ: هِيَ شَامِلَةٌ لِلْمَعْنَيْنِ، صَحَّ لَا شَكَّ.

إِذَنْ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بَيِّنٌ مُبَيِّنٌ لِغَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فُرْقَانًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦].

﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنُ، وَزُبُرِ الْأَوَّلِينَ: كُتُبُهُمْ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْقُرْآنَ مَذْكُورٌ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَهَذَا لِتَعْلِيَةِ شَأْنِهِ، وَأَنَّهُ كِتَابٌ عَظِيمٌ نَوَّهَتْ عَنْهُ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ،

وَحُقَّ لَهُ ذَلِكَ، فَالْقُرْآنُ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، عَلَى أَشْرَفِ نَبِيِّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أَيُّ: لِلْمُكَذِّبِينَ، ﴿آيَةٌ﴾ أَيُّ: عَلَامَةٌ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ، ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، وَعُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمُ الْأَخْبَارُ الَّذِينَ دَرَسُوا الْكُتُبَ، يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَيَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، لَكِنَّهُمْ يَكْتُمُونَ الْحَقَّ؛ حَسَدًا لِلْعَرَبِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الرِّسَالَةُ الْعَظِيمَةُ فِيهِمْ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْتَشْهَدُ بِقَوْلِ الْعُلَمَاءِ لِيُقِيمَ بِهِ الْحُجَّةَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فَعَلَيْنَا بِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ، فِيهِ رَفَعْتُنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْعِلْمُ نُورٌ لَنَا وَلِلْأُمَّةِ، وَيَكْفِينَا فَخْرًا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَنَ الْعُلَمَاءَ بِالْمَلَائِكَةِ فِي شَهَادَةِ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ وَحْدَهُ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾، وَهُنَا يَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ١٩٨ ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩].

وَهَذَا كَالْتَبَكُّيتِ لِلْعَرَبِ، وَاللُّومُ لَهُمْ، يَقُولُ اللَّهُ: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ نَزَلَ عَلَى الْعَجَمِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ، لَكَانَ لَهُمْ بَعْضُ الْعَذْرِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ، لَكِنْ أَنْتُمْ الْعَرَبُ نَزَلَ بِلُغَتِكُمْ، فَلِمَاذَا لَا تُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهَذَا تَوْبِيخٌ لِلْعَرَبِ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهَذَا

الكتاب العزيز، والحمد لله أظهر الله من العجم من علموا القرآن، وعلموه، وقاموا بتفسيره، فحفظوا السنة، وهذا شيء معلوم من التاريخ، ومن الكتب المؤلفة في ذلك.

وقد فسر بعض العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢-٣] بأن المراد بهم العجم.

فوجب على العرب أن يكونوا أول من يؤمن بالقرآن؛ لأنه نزل بلغتهم، بلسانهم، فيفهمون الكلام مركبًا وغير مركب؛ لأنه لغتهم.

ويجب أن نحمد الله على نعمه، أن يسر لنا اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن، والسنة، فهناك علماء وأئمة مسلمون من المحدثين ليس أصلهم عربيًا، ولكنهم تعلموا العربية من أجل أن يفهموا كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



الدرس الثالث:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أُولَئِكَ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ [الشعراء: ١٩٢-٢٠٧].

في هذه الآيات الكريمة يُبَيِّنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَمْ يَنْزِلْ مَنْ غَيْرِهِ، بَلْ هُوَ كَلَامُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى خَلْقِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ حِينَما نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ رُوحًا لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بِمَا فِيهِ الرُّوحُ، أَي: الْحَيَاةُ الْقَلْبِيَّةُ، وَهِيَ حَيَاةُ الْإِيمَانِ وَالْدِّينِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْأَمِينُ﴾ هَذَا وَضَفُّ مُهِمٍّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مُقَصِّرًا فِيمَنْ أُرْسِلَ وَلَا فِيمَا أُرْسِلَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ

أَمِينًا، وكان ذا قُوَّةٍ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠].

قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾: خَصَّ الْقَلْبَ بالذكرِ لأنه محلُّ الوَعْيِ والحِفْظِ، ولهذا نَزَلَ جبريلُ الأمينُ على قلبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فكان بواسِطَةِ أمينٍ إلى أمينٍ.

واللام في قوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ للتَّعْلِيلِ؛ أي: لبيانِ الْحِكْمَةِ من إنزالِ هذا القرآنِ على قلبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، لأجل أن يكونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ.

والإنذار: الإِعلامُ المقرُّونُ بالتَّخْوِيفِ والتَّرهيبِ، أي: لتُنذِرَ النَّاسَ وتُخَوِّفَهُمْ مِنْ مَخَالَفَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى يَكُونُوا قَائِمِينَ بِطَاعَةِ اللَّهِ مُصَدِّقِينَ بِأَخْبَارِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾، أي: بِلُغَةٍ؛ لأنَّ اللِّسَانَ يُطْلَقُ عَلَى اللُّغَةِ، كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي: بِلُغَةٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ؛ لأنه مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لو خَاطَبَ قَوْمًا بغيرِ لُغَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَفْهَمُونَ ما جَاءَ بِهِ، وَحَتَّى لو تُرْجِمَ فَإِنَّ التَّرْجِمَةَ لَا تُؤَدِّي الْمَعْنَى الْكَامِلَ لِلْمُتَرْجِمِ.

قوله: ﴿مُبِينٍ﴾، أي: مُظْهِرٍ لِلْمَعَانِي الْمُقْصُودَةِ بِاللَّفْظِ.

فالمُبِينُ هنا من أَبَانَ الْمُتَعَدِّي؛ لأنَّ (بَانَ) فِعْلٌ لازِمٌ بِمَعْنَى: ظَهَرَ، وَتَكُونُ بِمَعْنَى: انْفَصَلَ، وَ(أَبَانَ) يُسْتَعْمَلُ لازِمًا وَمُتَعَدِّيًا، فيقال: أَبَانَ الْفَجْرُ بِمَعْنَى: بَانَ الْفَجْرُ وَظَهَرَ، وَيُقَالُ: أَبَانَ الْحُجَّةَ، بِمَعْنَى: أَظْهَرَهَا وَبَيَّنَّهَا.

وَإِذَا جَاءَتْ كَلِمَةُ (مُبِينٍ) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فَإِنَّهَا تَارَةٌ تَكُونُ بِمَعْنَى بَيِّنٍ، وَتَارَةٌ

تَكُونُ بِمَعْنَى مُظْهِرٍ، فَمَثَلًا: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، مبین هنا مِنْ أَبَانَ اللّٰزِمِ، الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى بَيَّنَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ هُنَا: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَالْمُرَادُ بِالْمُبِينِ هُنَا: الْمُظْهِرُ، أَيِ: الْمُبِينِ لِحَقَائِقِ الْأُمُورِ، الْفَاصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَاءِ اللَّهِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ أَيِ: مُظْهِرٍ لِلْمَعَانِي الْمُرَادَةِ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَهُوَ أَمْرٌ بَيِّنٌ وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَدْبِيرٍ، فَإِنْ هَذَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ إِذَا لَمْ تَتَدَبَّرْهُ فَإِنَّهُ لَنْ تَتَبَيَّنَ لَكَ مَعَانِيهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، زُبُرٌ بِمَعْنَى كُتُبٍ، أَيِ: إِنْ ذَكَرَ هَذَا الْقُرْآنَ وَالتَّنْوِيَةَ بِهِ وَبَيَانَ أَنَّهُ سَيَنْزِلُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِمَوْجُودٍ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ. قَوْلُهُ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، إِذَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ قَدْ نُوِّهَ عَنْهُ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ فَإِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ سَوْفَ يَكُونُ لَدَيْهِمْ عِلْمٌ بِهِ وَشَهَادَةٌ بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وَهُنَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ أَيِ: لِمَنْ جِئْتَ إِلَيْهِمْ وَبُعِثْتَ إِلَيْهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ، ﴿ءَايَةٌ﴾: أَيِ: عَلَامَةٌ، ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُونا﴾ بَنِي إِسْرَءِيلَ، نَعَمْ إِنْ ذَلِكَ لَآيَةٌ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ حَيْثُ شَهِدَتْ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ لَهُ بِالْحَقِّ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿[الشعراء: ١٩٨-١٩٩] أَيِ: لَوْ نَزَّلَ اللَّهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ

عليهم ما كانوا به مؤمنين؛ لأنه بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، والأعجميُّ لا يفهمُ اللسانَ العربيَّ، والمرادُ بالأعجميِّ هنا ليس الفُرس فقط، ولكنَّ المرادُ كلُّ من لا يتكلَّمُ باللغة العربية، فلو نزلَ هذا القرآنُ على بعضهم ما كانوا به مؤمنين.

وهذا الاحترازُ العجيبُ في القرآن: على بعضِ الأعجمين، ولم يقل: على الأعجمين، ولا: على كلِّ الأعجمين؛ لأنَّ من الأعجمين من آمنَ بهذا القرآن، وأيده ونصره، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٢-٣].

فإن بعضَ المفسرين قال: إن المراد بقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، من لم يكن من العرب الذين هم الأميون.

وفي الآية تفسيرٌ آخر وهو أن المراد بهم من جاء بعد الصحابة من العرب. قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠]، أي: أن القرآن وصل إلى المجرمين وقامت عليهم الحجة به، ولكنهم مع ذلك لن يؤمنوا به ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠١]، أي: أنهم سيستمثرون في إجرامهم وفي غيهم حتى ينزل بهم عذابُ الله عزَّ وجلَّ، فيأتيهم العذابُ بغتةً وهم لا يشعرون، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

وما أشدَّ العذابَ إذا نزلَ بالمترفين المنعمين الغافلين اللاهين! لأنه يكون

عَذَابًا مُضَاعَفًا والعياذ بالله، حَيْثُ يَفْقِدُونَ مَا أُسْرَفُوا فِيهِ، وَيَنْزِلُ بِهِمْ مَا يَتَلَفُونَ بِهِ، فحِينَئِذٍ يَكُونُ الْأَمْرُ أَشَدَّ وَأَنْكَى والعياذ بالله، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، وَهَذَا مِنَ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى الْمَعَاصِي وَيَقُولُونَ: أَيْنَ الْعَذَابُ الَّذِي تَوَعَّدَنَا اللَّهُ بِهِ، هَذَا -والعياذ بالله- مِنْ تَحَدِّي مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ وَأَوْعَدَهُمْ إِيَّاهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾، ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ أَي: أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الْمَخَاطَبُ إِنْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ سِنِينَ، وَلَوْ كَانَتْ طَوِيلَةً، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، فَهَلِ الْمُتَعَةُ الَّتِي مُتَّعُوا بِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْبَنِينَ وَالْقُصُورِ وَالْمَرَائِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ هَلِ تُغْنِي عَنْهُمْ؟ وَلِهَذَا (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ الْأَرْجَحُ أَنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ وَلَيْسَتْ نَافِيَةً، وَلَكِنَّهُ اسْتِفْهَامٌ مُضَمَّنٌ لِمَعْنَى النَّفْيِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ؟ وَالْجَوَابُ: لَنْ يُغْنِيَ عَنْهُمْ شَيْءٌ.

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ بَيَانٌ لِأُمُورٍ:

أَوَّلًا: فَضِيلَةُ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ، حَيْثُ نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، الَّذِي هُوَ مُنَزَّلٌ لَجَمِيعِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَلِهَذَا كَانَ يَنْبَغِي عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ أَنْ تَكُونَ لُغَتُهُمْ هِيَ اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ؛ لِأَنَّهَا لُغَةُ الشَّرِيعَةِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ، وَمِنَ الْمُؤَسَفِ أَنْ قَوْمًا مِنَ الْعَرَبِ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ أَيْضًا كَفَرُوا هَذِهِ النِّعْمَةَ، حَيْثُ صَارُوا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَيَفْخَرُونَ بِهَا، وَيَرَوْنَ أَنَّهَا أَعَزُّ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَيَشْعُرُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ ارْتَفَعَ فَوْقَ قِمَمِ الْجِبَالِ حِينَ يَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ غَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ.

وقد ذكر كثيرٌ من أهل العلم أنه يحرمُ على المرءِ العربيِّ أن ينطقَ بغير اللغة العربية بدلاً من اللغة العربية، وليس المعنى أن ينطقَ بغير اللغة العربية عند الحاجة إليها فإن هذا أمرٌ جائزٌ، والنبيُّ ﷺ قال لزَيْنَبَ بنتِ أمِّ سلمة وقد جاءت من الحبشة، ورأى عليها ثوباً جديداً قال: «هَذَا سَنَاهُ»، ومعنى سناه في اللغة الحبشية: أي هذا حسنٌ^(١)، وأمر زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يتعلَّم لُغَةَ الْيَهُودِ^(٢) حتى يقرأ ما يردُّ إلى النبيِّ ﷺ من كتابهم، ويكتب إليهم بلغتهم.

فتعلَّم غير اللغة العربية جائزٌ، وقد يكون واجباً أحياناً، إذا كان وسيلةً لإبلاغ الشريعة الإسلامية، ولكن المؤسف أن بعض الناس يتخذون من غير اللغة العربية وسيلةً لنطقهم، حيث يتكلمون بها، فمثلاً: تجد بعض الناس بدل من أن يقول: السلام عليكم باللغة العربية يأتي بما يقابلها في اللغة غير العربية، وكذلك أيضاً ينطق عندما يسأل شيئاً أو يُعطي شيئاً أو ما أشبه ذلك بغير اللغة العربية، وقد ذُكر أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان ينهى عن رطانة الأعاجم ويضربُ عليها^(٣)، ولا شك أن هذا حقٌّ فيمن اتَّخذها بدلاً عن اللغة العربية، أو اتَّخذها مُنطلقاً للعزِّ والافتخار بها، والحقيقة أن الفخرَ كلَّ الفخر أن يكون الإنسان عالماً باللغة العربية التي هي لغة القرآن.

ويتبيَّن من هذه الآيات الكريمة أيضاً أن القرآن محفوظٌ من لدن الله عزَّ وجلَّ إلى أن وصلَ إلى محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ثم هو محفوظٌ بعد ذلك أيضاً كما

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة، رقم (٣٨٧٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام، رقم (٧١٩٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤١١ / ١).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَالْتَفِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿[القيامة: ١٦-١٩]، ﴿عَلَيْنَا﴾ أي: أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يُبَيِّنَ كَلَامَهُ لِلخَلْقِ.

وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وَهَذَا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ اللَّهَ حَفِظَ كِتَابَهُ هَذَا فَلَمْ تَنْلُهُ أَيْدِي التَّحْرِيفِ اللَّفْظِيَّةِ كَمَا نَالَتْ الْكُتُبُ السَّابِقَةُ.

نَقُولُ: أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، إِنْ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ، حَيْثُ إِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَفِظَ لَنَا الْقُرْآنَ مِنْ وَقْتِ أَنْ نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَيْنَا وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَصَارَ يَقْرَأُهُ مِنَّا الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَصَارَ أَعْظَمَ كِتَابٍ تَوَاتَرَ فِي أَيِّ كُتُبٍ سَابِقَةٍ.

وَيَتَبَيَّنُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ التَّحْذِيرُ الْعَظِيمُ مِنْ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِي هَلَكُوا فِيهَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَغَفَلُوا بِدُنْيَاهُمْ عَنْ آخِرَتِهِمْ، وَصَارَ أَكْبَرُ هَمِّهِمْ أَنْ يَشْتَغِلُوا بِالدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ لَيُفَكِّرُ فِي دُنْيَاهُ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَمُضْطَجِعًا وَآكِلًا وَشَارِبًا، حَتَّى فِي مَكَانِ الْخَلَاءِ الَّذِي يُبُولُ أَوْ يَتَغَوَّطُ فِيهِ، كُلُّ جِسْمِهِ وَكُلُّ عَقْلِهِ وَكُلُّ فِكْرِهِ مُنْصَرِفٌ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، إِمَّا تَحْصِيلًا، وَإِمَّا تَنْمِيَةً، وَإِمَّا تَمَتُّعًا بِمَا فِيهَا مِنَ الْقُصُورِ وَاللَّذَائِدِ وَالنَّعِيمِ.

وَمَا يَكُونُ بِهِ الْعَجَبُ وَلَا يَنْقُضِي بِهِ الْعَجَبُ أَنْ هَؤُلَاءِ يُشَاهِدُونَ النَّاسَ يَرْتَحِلُونَ عَنِ الدُّنْيَا رَجُلًا رَجُلًا، وَأَنْهُمْ لَا يُمْتَنِعُونَ بِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ غَافِلُونَ بِهَا عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَنِعُونَ. ﴿

أيها المسلمون، الحذر الحذر أن تفتنكم الدنيا حتى تقعوا في الترف، ثم تكونوا بعد ذلك في التلف، وأن تجعلوا الدنيا وسيلة إلى الآخرة، ولقد أعجبني كلام شيخ الإسلام ابن تيمية قال: ينبغي للإنسان أن يجعل المال بين يديه كاللحم الذي يركبه، فيقضي عليه حاجته^(١).

وقال في موضع آخر: أو كبيت الخلاء الذي يقضي به حاجته أيضًا^(٢). لا أن يجعل المال راكبًا على ظهره. فينبغي للإنسان أن يكون هو الراكب على المال، لا أن يكون المال راكبًا عليه.

وأسأل الله أن يعيذني وإياكم من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٣).

سورة النمل

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]. وداود وسليمان هما من أنبياء بني إسرائيل، وليس داود ملكاً فقط كما تزعمه اليهود عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، فإن داود نبيُّ أرسله الله تبارك وتعالى إلى قومه من بني إسرائيل.

والعلم الذي آتاه الله تعالى داود وسليمان هو علم الشريعة بالوحي، وعلم بعض الأمور الدنيوية، كما علم الله تعالى داود صنعة الدروع، وكذلك علم الله تعالى سليمان ما علمه من منطق الطير، وغير ذلك من العلوم.

ثم ذكر الله تبارك وتعالى عن سليمان عليه الصلاة والسلام قصة غريبة عجيبة؛ وقعت لحشرة من الحشرات التي خلقها الله عز وجل، مما يدل على أن ربنا سبحانه وتعالى ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

فقال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٧-١٨] إلى آخر القصة.

ووادي النمل هو وادٍ معروفٌ بهذا الاسم، وذلك لكثرة النمل فيه، لما أتى سليمان وجنوده من الجن والإنس والطير، قالت النملة محذرة قومها ومُرَّهبة هم: ﴿ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾، ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده بأنهم إذا حطّموا هذا النمل فإنما يحطّمونه وهم لا يشعرون، فلا يشعرون بها لأنها حشرة صغيرة، وهذا جندٌ عظيمٌ.

وقد ذكر علماء البيان أن كلام النملة اشتمل على اثني عشر نوعاً من أنواع البلاغة، وليس هذا موضع ذكرها.

وسليمان عليه الصلاة والسلام لما سمع من هذه النملة ما سمع لم يأخذه الغرور، ولم يأخذه العجب ولكنه تبسم، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَن أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدِي وَأَن أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وهذه القصة، وهي قصة قصيرة لكن فيها فوائد عظيمة؛ فمن فوائدِها أن النمل حيوانٌ يعقل بقدر ما يكون فيه مصلحته، ليس عاقلاً عقلاً مطلقاً يكون مناطاً للتكليف كعقل الإنس والجن، ولكنه عقلٌ يكون به مصلحتها، ولهذا نادَتْ ولا ينادي إلا العاقل؛ لكن بحسب عقله الذي يليق به، قالت: ﴿يَأَيُّهَا النَّمْلُ﴾، وفي هذا دليلٌ على أن مَنْ قَتَلَ حَشْرَةً مِنَ الحشرات وهو لا يشعر فإنه معذورٌ، ولا حرج

عليه في ذلك، فَمَنْ دَهَسَ بِالسَّيَّارَةِ قِطًّا أَوْ كَلْبًا أَوْ حَمَامَةً أَوْ غَيْرَهَا، فَلَيْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ حَرَجٌ مَا دَامَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ؛ إِلَّا مَا كَانَ مَمْلُوكًا فَإِنَّهُ يَجِبُ ضَمَانُهُ مِنْ مَالِكِهِ، أَمَا إِذَا كَانَ مَالِكُهُ مُفَرِّطًا أَوْ مُتَعَدِّيًّا فَلَا.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ تَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: مَا أَمَرَ الشَّرْعُ بِقَتْلِهِ، وَهُوَ: كُلُّ مُؤَذِّ مِنْ الْحَيَوَانَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرَعُ لِلْإِنْسَانِ قَتْلُهُ، مِثْلَمَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: «خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ كُلُّهُنَّ فَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ: الْحِدَاةُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْغُرَابُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»^(١)، فَهَذِهِ الْخَمْسُ وَمَا أَشَبَّهَا كُلُّهَا يُقْتَلُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: مَا نَهَى الشَّارِعُ عَنْ قَتْلِهِ، وَمِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الْحَدِيثُ الَّذِي يُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةِ، وَالنَّحْلَةِ، وَالْهُدْهُدِ، وَالصُّرْدِ^(٢).

الْقِسْمُ الثَّلَاثُ: مَا لَمْ يَجِئِ الشَّرْعُ بِقَتْلِهِ، وَلَا بِالنَّهْيِ عَنْ قَتْلِهِ، فَهَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ قَتْلُهُ، وَلَكِنَّهُ إِنْ قَتَلَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ حَصَلَ مِنْهُ تَعَدٍّ، وَمِثَالُ ذَلِكَ: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ: «إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ؛ فَإِنَّ فِي إِحْدَى

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ مَا يَنْدُبُ لِلْمَحْرَمِ وَغَيْرِهِ قَتْلُهُ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ، رَقْمُ (١١٩٨).

(٢) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فِي قَتْلِ الذَّرِّ، رَقْمُ (٥٢٦٧)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الصَّيْدِ، بَابُ مَا يَنْهَى، عَنْ قَتْلِهِ، رَقْمُ (٣٢٢٤).

جَنَاحَيْهِ دَاءٌ، وَالْأُخْرَى شِفَاءٌ»^(١). ومن المعلوم أَنَّهُ إِذَا غُمِسَ الذُّبَابُ فِي مَاءٍ حَارٍّ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتَ؛ لَكِنْ هُنَا لَدَرْءٍ مَا يُخْشَى مِنْ أَذِيَّتِهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء، رقم (٣١٤٢).

سورة القصص

الدرس الأول:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخليته، وأمينه على وحيه، أرسله الله بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أمَّا بعد:

فتناول بما يسر الله عز وجل قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

فرعون هو ملك مصر، قيل: إنه علم على فرعون الطاغية الذي أرسل إليه موسى، وقيل: إنه علم جنس على كل من ملك مصر وهو كافر، وإن كل من ملك مصر وهو كافر فإنه يسمى فرعونًا، كما يقال لمن ملك الروم: هرقل، ولمن ملك الفرس: كسرى.

وعلى كل حال فالمراد بفرعون هنا شخص معين، ألا وهو فرعون موسى، أي فرعون الذي أرسل إليه موسى عليه الصلاة والسلام.

هذا الرَّجُلُ كَانَ جَبَارًا عَنِيدًا، ادَّعَى لِنَفْسِهِ مَا لَمْ يَدَّعِهِ أَحَدٌ، فَادَّعَى أَنَّهُ إِلَهُ، وَقَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وَظَنُّوا أَن مَا قَالَهُ حَقٌّ؛ لِأَنَّهُ يَرْمِي فِيهِمْ بِالشُّبْهِ الْعَظِيمَةِ الْبَالِغَةِ، حَتَّى أَضَلَّ قَوْمَهُ وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ.

وَقَالَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

هذا الرَّجُلُ -فِرْعَوْنُ- عَلَا فِي الْأَرْضِ وَاسْتَكْبَرَ فِيهَا، وَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا؛ أَي طَوَائِفَ مَتَفَرِّقَةً يَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، وَهَذَا مِنَ السِّيَاسَةِ الْمَاكِرَةِ الَّتِي يَلْجَأُ إِلَيْهَا أَعْدَاءُ الدِّينِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَهُوَ تَفْرِيقٌ؛ تَفْرِيقُ الْكَلِمَةِ وَتَفْرِيقُ الْأَمَةِ.

وهذا أيضًا مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ الَّذِي هُوَ رَأْسُ الْفِتْنَةِ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [المائدة: ٩١]، فَهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ وَإِذَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ بِنَا شَيْئًا فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ عَلَيْهِ فِي غَايَةِ الْحَرَصِ، وَهَذَا ذَكَرَ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ كَمَثَالٍ عَلَى مَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ، وَإِلَّا فَإِنَّ الشَّيْطَانُ يُرِيدُ أَنْ يُوقَعَ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ عَلَى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ خَصَّ اللَّهُ الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ بِالذِّكْرِ هُنَا، وَإِلَّا فَإِنَّ الشَّيْطَانُ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يُلْقِيَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّما بَيْنَ طُلَابِ الْعِلْمِ، وَهَذَا مِمَّا يُؤَسَفُ لَهُ؛ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ إِعْلَاءَ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ

إصلاح عباد الله، والَّذِينَ يريدُونَ إقامة الشريعة أن يَكُونُوا أعداءً، فالهدفُ لمن أرادَ الآخرةَ من طلابِ العلمِ إعلاءُ كلمةِ الله، وإقامةُ دينِ الله في عبادِ الله، هذا هو الهدفُ، فما بالنا نتفرقُ فيه، أليسَ هذا من عملِ الشَّيْطَانِ! بلى واللهِ من عملِ الشَّيْطَانِ، فهو الذي يريدُ أن نتفرقَ.

ولقد كانَ الشَّبابُ على خطٍّ مستقيمٍ منذُ سنواتٍ، إلا أنه في السَّنَاتِ الأخيرةِ معَ الأسفِ، وأقولها بحرارةٍ، ليسَ من حيثِ إلقاءِ القولِ، ولكن من حيثِ ما في ضميري من هذا الأمرِ، الذي حدثَ أخيراً بينَ شبابِ الإسلامِ وبينَ شبابِ الصحوةِ أنهم غرَّهُمُ الشَّيْطَانُ، ونزغَ بينهمُ العداوةَ، وصارُوا يتعصبونَ للهوى، لا للهدى، فيتعصبونَ لفلانٍ وفلانٍ، سواءً أقالَ حقاً أم باطلاً.

وهذا -والله- هو العَمى، فما لنا لفلانٍ وفلانٍ؛ إن أساءوا فعلى أنفسهم، وإن أحسنوا فلا أنفسهم.

إن الواجبَ علينا أن نقولَ للحقِّ: حقٌّ، من أيِّ شخصٍ كان. والواجبُ أن نقولَ للباطلِ: باطلٌ، من أيِّ شخصٍ كان. والواجبُ علينا ألا نعتقدَ أن أحداً من البشرِ معصومٌ إلا رسولُ الله ﷺ، فكلُّ إنسانٍ يُمكنُ أن يُخطئَ خطأً كبيراً أو خطأً صغيراً، فما بالنا نجعلُ معاداتنا ومُوالاةنا وبراءتنا منوطةً بأشخاصٍ معينين، هذا يتحلُّ لفلانٍ، وهذا يتحلُّ لفلانٍ، وهذا يتحلُّ لفلانٍ، وكأنَّ الحقَّ ما نطقَ به هذا الرَّجُلُ، والباطلُ ما نطقَ به الرَّجُلُ الآخرُ، فأينَ هذه الطَّرِيقُ من طَرِيقِ السَّلَفِ!

إن طريقَ السَّلَفِ الصَّالحِ الرجوعُ إلى شيئين، لا ثالثَ لهما، ألا وهما كتابُ الله، وسنةُ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لا الانتحالَ لفلانٍ وفلانٍ، حتى

يُرقوا هذا الرَّجُلَ الذي يَتَّحِلُونَ لَهُ إلى ما فوق الثَّرى، ومقامه في الحقيقة دون الثَّرى، فهذا غلطٌ يا إخواني، وهذا والله يُحْزَنُ، فبينما النَّاسُ مستبشرون بصحوة الشَّبابِ الإسلاميِّ واتجاههم اتجاهاً سليماً، وإذا بهم ينكصون على أعقابهم؛ لأن هذا فلانٌ يَتَّحِلُ لفلانٍ ويمدحُ فلاناً، ويذمُّ فلاناً، ويمدحُ كُتُبَ فلانٍ، ويذمُّ كُتُبَ فلانٍ.

ما لنا ولهذا! هؤلاء القومُ إن كانوا أحياءً فنسألُ اللهَ لهم الهدايةَ فيما أخطؤوا فيه، وإن كانوا أمواتاً فقد قَدِمُوا على أَحْكَمِ الحَاكِمِينَ، وأَعْدَلَ الحَاكِمِينَ، ربَّ الْعَالَمِينَ جَلَّ وَعَلَا، لكن الخطأ يجبُ أن نقولَ: إنه خطأ، مهما تكلمَ به المتكلمُ، والصَّوابُ يجبُ أن نقولَ: إنه صوابٌ، مهما كان المتكلمُ به؛ لأن الرِّجَالَ يُعرفونَ بالحقِّ، وليسَ الحقُّ هو الذي يُعرفُ بالرِّجَالِ، فلو كانَ الحقُّ هو الذي يُعرفُ به الرِّجَالُ لَكُنَّا نَضِلُّ إذا وجدنا أحداً على خطأٍ واتبعناه في خطيئه.

لذلك أدعو إخواني المسلمين، وأخصَّ الشَّبابَ منهم، وأخصَّ طلبةَ العلمِ، أدعوهم إلى الائتلافِ والاتفاقِ، ونبذِ الخلافِ، وطرحِ الافتراقِ، وألا يتعصبَ بعضهم لأناسٍ وبعضهم لأناسٍ، فإن هذا هو عنوانُ الشَّقَاءِ، وعنوانُ الفشلِ.

واستمعوا إلى قولِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يخاطبُ خيرَ القرونِ؛ صحابةِ رَسولِ اللهِ ﷺ، يقولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ولهذا لو سُئِلَ هذا الرَّجُلُ عن الشخصِ الذي كانَ يَنتمي إليه، وكانَ يَتَّحِلُ مذهبه، لو سُئِلَ عما قالَ من خطأٍ، دونَ أن يَعرفَ مَنْ قائله، لقالَ: هذا خطأ، لكن لو كانَ القائلُ هو مَنْ يَتَّحِلُ إليه، ويتعصبُ له، قالَ: هذا صوابٌ، وإذا عجزَ أن

يقول: إنه صوابٌ قال: لعلَّه رجَعَ عنه. والأصلُ فيما قاله القائلُ أنه قوله حتى يُعلنَ أنه رجَعَ عنه إعلانًا واضحًا بينًا يبطلُ به ما سبق من قوله الخطأ حتى يعرفَ الناسُ أنه رجَعَ إلى الصَّوابِ.

ولهذا كان الهوى يُعمي ويُصم، فكلمةٌ خطأ نُقلت إلى شخصٍ وقيلَ له: ما تقولُ في هذا؟ قال: واللهِ هذا خطأٌ وغلطٌ، ثم بقينا يومًا أو يومين فقلنا: وجدنا هذا القولَ في الكتابِ الفلانيِّ لمن يتحلُّ، أَلَفَهُ مَنْ ينتحلُ إليه، فهذا الخطأُ بالأمسِ يكونُ اليومَ صوابًا، الله أكبرُ! فانقلبَ الخطأُ صوابًا لأن فلانًا قاله! والخطأُ خطأً، والصَّوابُ صوابٌ أيًّا كان القائلُ به.

لذلك يجبُ على شبابنا وطلابِ علمنا أن يتعدوا عن هذه الأمور، وعن هذه السفاسفِ، وأن تكونَ همُّهم فوقَ ذلك، وأن يكونَ همُّهم كتابُ الله وسنةَ رسوله ﷺ، ومنهجَ السلفِ الصَّالحِ صحابةِ رسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، الَّذِينَ قالَ عنهم الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»^(١).

فالصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يكونُ بينهمُ الخلافُ حتى في الأصولِ، ومعَ ذلكَ لا تختلفُ القلوبُ، ألمَ يختلفِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هل رأى النبي ﷺ ربَّهُ؟ لقد اختلفوا في ذلك، وهو من العقائدِ والأصولِ، ومعَ ذلكَ لم تختلفِ القلوبُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم (٣٦٥١)، ومسلم: كتاب فضائل الصَّحابة، باب فضل الصَّحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٣).

الاختلاف عند الصحابة:

ألم يختلف الصحابة رضي الله عنهم في أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين؛ في الصلاة؟ ومع ذلك لم تختلف القلوب؛ ألم يبلغكم أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لما رجع من غزوة الأحزاب أمره جبريل أن يخرج إلى بني قريظة اليهود، الذين نقضوا العهد، فندب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أصحابه إلى الخروج وقال: «لا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»^(١)، فاتجه الصحابة إلى بني قريظة، وحانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى التي هي الفضلى، والتي أمر الله بالمحافظة عليها بذاتها، حيث قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وإني أسأل سؤالاً مُعْتَرِضاً -والجملة المُعْتَرِضَةُ لا بأس بها أحياناً-: هل أنتم إذا أردتم أن تكبروا تكبيرة الإحرام لصلاة العصر تستشعرون قول الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾؟ أبداً، فاستشعر أن الله يقول: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ وأن الصلاة الوسطى هي هذه الصلاة التي هي صلاة العصر، فالمحافظة عليها أشد وأعظم كما أوصى بها الله عز وجل في كتابه بخصوصها.

إخواني، استشعار القلب امتثال أمر الله عند فعل العبادات واتباع رسول الله ﷺ له شأن كبير في صلاح القلب، أما الغفلة وفعل الشيء على العادة فهذا لا يكسب العباد رُوحاً ومعناها والمراد بها.

(١) أخرجه البخاري: أبواب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب، رقم (٩٤٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب المبادرة بالغزو، رقم (١٧٧٠).

أعوذ وأقول: قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»، وفي أثناء الطريق حانت صلاة العصر، فاختلف الصحابة؛ فبعضهم قال: نُصَلِّي العصر حتى لا يخرج وقتها، والعصر أفضل الصلوات، فكيف نُصَيِّعُهَا، وكيف نُخرجُهَا عن وقتها. وقال آخرون: بل نمثلُ أمرَ الرسول ﷺ لأنه قال: لا تُصلُّوا إلا في بني قُرَيْظَةَ، وهذا أمرٌ خاصٌّ في هذه الصلاة، فلا نُصَلِّي إلا في بني قُرَيْظَةَ.

ولو وُجِّهَ الخطابُ إلى الناسِ الآنَ لاختلَفُوا كما اختلفَ السَّلفُ، فيقول البعض: نريدُ أن نُصَلِّي حفاظًا على الوقتِ، والآخرون يقولون: سنؤخرُ حتى نُصلَّ بني قُرَيْظَةَ؛ طاعةً لرسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المهمُّ أن بعضهم صلى في الطريق حتى لا يخرج الوقتُ، وبعضهم صلى بعد أن وصل إلى بني قُرَيْظَةَ بعد غروب الشمسِ.

فهذا اختلافٌ في صلاةٍ هي أفضلُ الصَّلواتِ، ومع ذلك فإن هذا ما أحدث في قلوبهم اختلافًا أبدًا، فالقلوبُ متفقةٌ، فكلُّ منهم يرى أن صاحبه معذورٌ، وكلُّ واحدٍ منهم يرى أن الخطأ الذي مشى عليه صاحبه هو الخطأ الذي مشى عليه هو؛ لأنه يعتقدُ أن صاحبه صلى في الوقتِ قبل أن يصلَ إلى بني قُرَيْظَةَ لأنه يرى أن هذا مرادُ الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والآخِرُ الذي أخرَ يرى أن مرادَ الرسول ﷺ تأخيرُ الصَّلَاةِ إلى أن يصلوا إلى بني قُرَيْظَةَ.

إذن كلُّ منهم فعلَ ما فعلَ امتثالًا لأمرِ الله ورسوله، وليس مخالفةً لأمرِ الله ورسوله.

إِذْ أَخَذَ الْخَطُّ وَاحِدٌ، كَمَا لَوْ قَصَدْنَا جَمِيعًا مَكَّةَ لَكِنَّ بَعْضَنَا ضَرَبَ يَمِينًا، وَبَعْضَنَا يَسَارًا، وَبَعْضَنَا مَشَى بِالْوَسْطِ، فَالطَّرُقُ كُلُّهَا تُوصِلُ إِلَى مَكَّةَ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ حَصَلَ هَذَا الْاِخْتِلَافُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ الْقُلُوبُ وَاحِدَةٌ مُتَّفِقَةٌ مُؤْتَلِفَةٌ، وَالْمَحَبَّةُ بَاقِيَةٌ، وَالتَّآلُفُ بَاقٍ.

وَإِمَامُهُمْ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْقِفُهُ نُجَاهَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ أَنَّهُ لَمْ يَعْزُ أَحَدًا؛ لَا هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ، يَعْنِي لَمْ يَقُلْ لِلَّذِينَ صَلَّوْا قَبْلَ أَنْ يَصَلُّوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ مَحَافِظَةً عَلَى الْوَقْتِ؛ لَمْ يَقُلْ: لِمَاذَا صَلَّيْتُمْ قَبْلَ أَنْ تَصَلُّوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ؟ وَلَمْ يَقُلْ لِلْآخَرِينَ الَّذِينَ أَخَّرُوا إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ الْغُرُوبِ؛ لَمْ يَقُلْ: لِمَاذَا أَخَّرْتُمُ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمْ يَقْصُدُوا الْمَخَالَفَةَ، وَإِنَّمَا تَأَوَّلُوا، وَكُلٌّ مِنْهُمْ مَعْذُورٌ.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا حَكَّمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ. وَإِذَا حَكَّمَ، فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»^(١).

إِذْ لَمْ يَحْرَمْ وَاحِدًا مِنْهُمْ مِنَ الْأَجْرِ، وَلَكِنْ لَا شَكَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ أَنَّ الصَّوَابَ مَعَ الَّذِينَ صَلَّوْا فِي الْوَقْتِ، وَأَنْ مَرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» أَنْ يُبَادِرُوا بِالْخُرُوجِ وَلَا يَتَأَخَّرُوا، كَمَا لَوْ قُلْتُ لَكَ: يَا فَلَانُ، اذْهَبْ إِلَى الْمَدِينَةِ الْفُلَانِيَّةِ، لَا يُؤْذَنُ الْعَصْرُ إِلَّا وَأَنْتَ فِيهَا، أَوْ لَا تُصَلِّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْاِعْتَصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ أَجْرِ الْحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، رَقْمُ (٧٣٥٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَقْضِيَةِ، بَابُ بَيَانِ أَجْرِ الْحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ، أَوْ أَخْطَأَ، رَقْمُ (١٧١٦).

العصرَ إلا فيها، فهل المعنى أن يؤخروا الصلاة ولو غابت الشمس، أو المعنى: بادِر حتى تصل إليها قبل العصر وتُصلي العصر فيها؟

الجواب: الثاني بلا شك.

الحق مقبولٌ دون النظر لقائله:

على كلِّ حالٍ أقول: يا إخوان، لا يجوز للشباب، ولا سيَّما طلبة العلم، أن يتفرَّقوا من أجل اختلافٍ في التأويل، إذا كان للتأويل مساعٍ، أما إذا كان عنادًا فالعنادُ له بابٌ آخر.

كذلك أيضًا لا يجوز أن نتحلَّ لشخصٍ ونتعصبَ له، ونعادي ونوالي من أجله، بل نقول للذي أصاب: أصبت، وللذي أخطأ: أخطأت.

فإن قال قائل: رجلٌ عالمٌ كبيرٌ أديبٌ، مؤلفاته منتشرة، نقول له: أخطأت؟ فالجواب: نعم نقول: أخطأت، ولا نبالي، والخطأ مردودٌ، وإذا أصاب إنسانٌ آخر فإننا نقول له: أصبت؛ لأن الصواب يجب أن يُقبل حتى من أكفر الكافرين.

ألم تعلموا أن الله تعالى سكت عن الحق، وأبطل الباطل، وهو صادرٌ من المشركين؟ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ هذه علة ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ هذه علة ثانية، فكان الجواب من الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فأبطل العلة الثانية وهي قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، وسكت عن الأولى، وإبطال أحد الأمرين والسكوت عن الآخر يعني أن الآخر صحيح، وهو كذلك، فهم وجدوا آباءهم على هذا، ولذلك لم يُبطلوا مع أنه صادرٌ من المشركين.

والنبي ﷺ قَبْلَ الْحَقِّ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ الْحَقِّ؛ جَاءَهُ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ -يعني عالماً من اليهود- وَقَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ...» وَذَكَرَ بَقِيَةَ الْحَدِيثِ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ تَصَدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، وَلَيْسَ إنْكَارًا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَاذِبًا لَأَنْكَرَ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ ضَحِكَ تَصَدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] (١).

فَقَبِلَ الْحَقُّ مِنْ حَبْرٍ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَعَالِمُو الْيَهُودِ أَشَدُّ مِنْ عَوَامِّهِمْ؛ لِأَنَّ عَالِمَ الْيَهُودِ قَدْ خَالَفَ الْحَقَّ عَنْ بَصِيرَةٍ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَكَانَ أَشَدَّ جُرْمًا مِنْ عَوَامِّهِمْ، فَأَحْبَارُ الْيَهُودِ أَشَدُّ جُرْمًا مِنْ عَوَامِّ الْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ خَالَفُوا الْحَقَّ عَنْ بَصِيرَةٍ، لَكِنْ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ الْحَقِّ؛ لِأَنَّ دِينَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دِينُ الْحَقِّ، يَقْبَلُ الْحَقُّ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ كَانَ.

بل إن الرسول عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ الْحَقِّ مِنْ رَأْسِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ، وَرَأْسِ الطَّوَاعِيتِ، أَلَا وَهُوَ الشَّيْطَانُ، فَيَقْبَلُ الْحَقُّ إِذَا صَدَرَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةِ أَبِي هُرَيْرَةَ:

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا رَفْعَ لَكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، رقم (٤٨١١)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ».

فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ -انظر الإيذان والتصديق، فما تردد أبو هريرة ولا وقع في قلبه شك، فعلم أنه سيعود- فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنْكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ -والشَّيْطَانُ لَا يَرِيدُ أَنْ يُرْفَعَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَالشَّيْطَانُ يَهْرُبُ مِنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَا سَلَكَ عَمْرٌ فَجًّا، أَيْ طَرِيقًا، إِلَّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا آخَرَ^(١)، فَكَيْفَ بَرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! -؟

قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٩٤)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (٢٣٩٦).

- وهذه لا شك أنها حراسة عظيمة من عند مَنْ؟ من عند الله عزَّ وجلَّ، آية في كتاب الله إذا قرأها الإنسان في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يقربهُ شيطان حتى يُصبحَ -.

فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، فَأُصْبِحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ»، قَالَ: لَا، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»^(١).

قال: «صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» أي أخبركَ بالصدق، إذن صدَّقه الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع أن الذي دَلَّ عَلَيْهِ هُوَ الشَّيْطَانُ.

والمهمُّ أن الحقَّ يجبُ أن يُقبلَ مِنْ أَيِّ أَحَدٍ قَالَ بِهِ، لا لَأَنَّهُ مِنْ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ، بل لأن هذا هُوَ الحقُّ، ويجبُ أن يُردَّ الباطلُ مِنْ أَيِّ قَائِلٍ قَالَ بِهِ، لا لَأَنَّهُ فُلَانُ بِنِ فُلَانٍ، ولكنْ لأن هذا هُوَ باطلٌ.

فإذا كَانَ هذا هُوَ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسُ فِي هذه الشريعة، وفي كُلِّ حَكْمٍ مِنَ الْأَحْكَامِ، فإن الواجبَ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الشَّبَابِ وَطُلَابِ الْعِلْمِ أَلَّا يَهْمَنَّا فُلَانٌ وَلَا فُلَانٌ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مسمى جاز، رقم (٢٣١١).

بل يهْمُنَا الْحَقُّ أَيْنَمَا كَانَ، وَأَلَا نَتَحَزَبَ لِحَزْبٍ؛ لِأَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ ضِدُّ الْأَحْزَابِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. بَرَأَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا، الَّذِينَ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فَلَا حِزْبِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ، فَالْإِسْلَامُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ.

والتفرُّقُ في الدين الإسلاميِّ مما تقرُّ به عينُ الأعداءِ، ألم تعلموا أن أعداءَ الإسلامِ إذا رأوا شبابَ الإسلامِ والمتجهينَ إلى الإسلامِ على هذا الحالِ من التفرُّقِ فسوفَ يفرحونَ، وسوفَ يُسرونَ؛ لأنهم بدلاً من أن يدخلوا المعركةَ مع هَؤُلَاءِ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ جَعَلُوا الْمَعَارِكَ بَيْنَهُمْ، فَتَقَرُّ أَعْيُنُهُمْ، وَيَفْرَحُونَ بِذَلِكَ.

فَارْجُوا - أَيُّهَا الْإِخْوَةُ - أَنْ تَكْسِرُوا أَعْيُنَ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ، وَأَنْ تَرَوْا مِنْ أَنْفُسِكُمْ الْإِتِّفَاقَ وَالْإِتِّلَافَ وَالْوِثَامَ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنْ تَدْعُوا هَذَا الْخِلَافَ جَانِبًا، فَإِلَى مَتَى هَذَا الْخِلَافُ يَا جَمَاعَةٌ؟! إِلَى أَنْ يَرْتَقِيَ إِلَى خِلَافٍ مُسَلِّحٍ، سُبْحَانَ اللَّهِ! يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَّفَقَ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ يَعْذَرَ أَحَدُنَا أَخَاهُ فِيمَا يُمْكِنُ فِيهِ الْجِتْهَادُ، ثُمَّ يَجِبُ عَلَيْنَا أَيْضًا إِذَا رَأَيْنَا مِنْ أَحَدٍ مَنَا مَخَالَفَةً لِلْحَقِّ أَنْ نَتَّصَلَ بِهِ، وَأَنْ نُنَاقِشَهُ مُنَاقِشَةً هَادِئَةً هَادِفَةً مُفِيدَةً، لَا بَعْفٍ وَلَا بَانْتِقَادٍ، وَلَا بَانْتِصَارٍ لَأَنْفُسِنَا.

وَكثِيرٌ مِنَ الْمُنَاقِشِينَ يَنَاقِشُ بَعْفٍ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ يَنَاقِشُ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًا، وَأَكْبَرُ مِنْهُ عِلْمًا، وَأَقْوَى مِنْهُ فَهْمًا، فَتَجِدُهُ يَنَاقِشُهُ وَكَأَنَّهُ يَنَاقِشُ تَلْمِيزًا مِنْ تَلْمِيزِهِ، وَلَا يَعْرِفُ لِعَالَمٍ قَدْرًا وَلَا مَكَانًا، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خِلَافُ الْأَدَبِ مِنْ وَجْهِ، وَرَبَّمَا تَأْخُذُ الْعَالِمَ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَلَا يَقْبَلُ.

لِذَلِكَ إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ أَخِيكُمْ شَيْئًا فَلَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَتَّصِلُوا بِهِ وَتُنَاقِشُوهُ، لَكِنْ

مناقشة هادفة هادئة، لا حملا له على أن يتبعكم، ولا انتصارا لأنفسكم، ولا انتقادا لما هو عليه، هذا إذا كنا نريد الحق، أما إذا كنا نريد أن تنتصر آراؤنا وأهواؤنا، فهذا والله هو البلاء.

أسأل الله أن يجمع قلوبنا على طاعته، وعلى العلم النافع، والعمل الصالح.

فأوصيك ونفسي بترك الخلاف، والدعوة إلى الائتلاف، ونبذ هذه الآراء إلا ما وافق الحق، وإلا ما كان عليه سلف الأمة من طاعة الله ورسوله، والإيمان بالله ورسوله، والاجتماع على كلمة الحق، فإن هذا هو المنهج السليم، وقد قال مالك رحمه الله كلمة توزن بالذهب: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها. وأما النزاع والخلاف فهذا لا يجوز إطلاقا.

وليُعلم أن هناك أيدي خائبة خاسرة مفسدة مدمرة تريد من الشباب أن يتفرقوا، وتكتب في المجلات، وتكتب في الصحف، وتكتب في النشرات من أجل تفريق الأمة، وفساد الأمة، وزوال أمنها، وزوال دينها، وزوال عيشها الرغيد؛ لأنهم حاقدون، فلا يغرنكم هؤلاء، فبينكم -والحمد لله- كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ومنهج السلف الصالح.

فهذا ما أوصي به، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المتبعين، لا المبتدعين، فهؤلاء القوم فيهم بلا شك شبه بفرعون؛ لأن فرعون هو الذي جعل أهل الأرض شيعة، وفيهم شبه من الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين، فهم رسل الشياطين، وهم ورثة فرعون.

فإياكم أن تغتروا بهم، فانبدؤوا آراءهم، وانبدؤوا ما يكتبون وما يمحون به ما دام مخالفاً للحق، وما داموا يريدون أن يفرقوا جماعتكم ويشتتوا شملكم، ويخالفوا بين آرائكم.

وأسأل الله وأبتهل إليه جلّ وعلا أن يجمع شباب المسلمين على الحق، وأن يعيدهم من أعدائهم، وأن يدحر أولئك الأعداء بالذلّ والخزي والعار، إنه على كل شيء قدير، والحمد لله ربّ العالمين.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٤-٦].

هذه آيات عظيمة ذكرها الله تعالى عن حال فرعون، وفرعون كان ملكًا لمصر، وكان ملكًا كافرًا جبارًا متكبرًا، علا في الأرض، وجعل أهلها شيعًا، أي: فرقًا؛ لأنه كلما تفرقت الأمة ضعفت شوكتها، وقلت هيبتها، وتخللها أعداؤها، وإذا كانت الأمة كلمتها واحدة، وقولها واحد، واتجاهها واحد قويته، ولم يكن لعدوها أي مطمع فيها؛ ولكن كما قيل: (فرق تسد). فإذا حصل التفرق والتفريق اختلت قوة الأمة، وضاعت هيبتها بين الأمم.

ولهذا كان من طريقة فرعون أنه جعل أهل الأرض شيعًا وطوائف، يضل بعضهم بعضًا، ويُعادي بعضهم بعضًا، ويُبغض بعضهم بعضًا، وفي هذا دليل على أنه يجب علينا أن نحذر من أعداء المسلمين، الذين يحرضون على إلقاء العداوة بينهم، وإلقاء البغضاء والتفرق، سواء كان ذلك على مستوى الحكومات الإسلامية، أو على مستوى علماء المسلمين، فإن الواجب على الجميع من ولاة الأمور من الحكام والعلماء أن يتفطنوا لما يريد أعداؤهم بهم من تفريق كلمتهم، وتمزيقهم وشتاتهم، فإنه بذلك تضيع الهيبة، وتختل القوة.

يقول الله عزَّجَل في هذا الرَّجُلِ الطَّاغِيَةِ: إِنَّهُ جَعَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ شِيعًا لِأَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ شِيعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، وَهِيَ طَائِفَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانَ مِنْهَا مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، قِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ذُكِرَ لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَخْرُجُ فَيَكُونُ زَوَالُ مُلْكِهِ عَلَى يَدِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ إضْعَافِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأُمَّةَ بِرِجَالِهَا، فَإِذَا فُقِدَ الرِّجَالُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا النِّسَاءُ فَلَا أُمَّةَ، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِرَادَتَهُ الَّتِي لَا رَادَّ لَهَا، فَقَالَ: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكِ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، وَإِنَّمَا قَصَّ اللَّهُ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنْ يُطَمِّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الَّذِي كَانَ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُسْتَضَعِفِينَ فِيهَا، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَمُنُّ عَلَيْهِمْ كَمَا مَنَّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَهْدِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى كَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ.

وَهَكَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ وَأَصْحَابُهُ مُسْتَضَعِفِينَ فِي الْأَرْضِ فِي مَكَّةَ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ كَانَتْ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَامُوا بِاللَّهِ وَقَامُوا فِي اللَّهِ، وَكُلُّ مَنْ قَامَ عَلَى هَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مَنْصُورًا فِي كُلِّ حَالٍ.

أَمَّا مَعْنَى قَوْلِنَا: (قَامَ بِاللَّهِ). فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ اسْتَعَانَ بِاللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَلَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى قُوَّتِهِ، وَلَا عَلَى حَوْلِهِ وَلَا عَلَى سُلْطَانِهِ، وَإِنَّمَا اعْتَمَدَ عَلَى قُوَّةِ اللَّهِ وَحَوْلِهِ وَسُلْطَانِهِ، اعْتَمَدَ عَلَى قُوَّةِ اللَّهِ مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ بِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما معنى قولنا: (قائماً لله). فمعناه أن يكون قيامه خالصاً لله عزَّ وجلَّ، لا يريدُ بقيامه مدح المخلوقين، ولا ثناء المخلوقين، ولا التقرب إلى المخلوقين، وإنما يريدُ بذلك أن يكون قريباً من الله عزَّ وجلَّ، وأن يحظى بمدح الله سبحانه وتعالى وثنائه، فإن ذلك هو الذي ينفع العبد، أن يكون مخلصاً لله في عمله لا يُبالي، ولا تأخذه في الله لومة لائم، فإنه بذلك يكون منصوفاً مؤيداً مظفراً.

وأما قولنا: (في الله). فإن (في) للظرفية، والمعنى: أن يكون قيامه هذا في شريعة الله، وعلى حسب شريعة الله، وعلى حسب ما أمر الله به من الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة وبالموعظة الحسنة، وبالمجادلة بالتي هي أحسن.

فكل من قام لله وبالله وفي الله؛ فإن العاقبة تكون له، ولهذا قال الله - سبحانه -: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكُ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ۝﴾، وهذا كله كلام الله عزَّ وجلَّ القادر على كل شيء، الذي بيده ملكوت كل شيء.

وما فات الأمة الإسلامية من النضر، وما فاتها من العزة إلا بسبب عدم الأخذ بتوجيه الله عزَّ وجلَّ، وبسبب إخلالها بأمر من هذه الأمور الثلاثة، إما أنها لم تقم لله، أو أنها لم تقم بالله، أو أنها لم تقم في الله، ولو أنها فعلت ذلك لكان لها النضر المبين.

والواجب علينا أن نتبين وأن نعرف ما يريدُ بنا أعداؤنا من تفريق كلمتنا، وتفريق صفوفنا، والواجب كذلك على أهل العلم أن يجتمعوا على كلمة سواء بينهم، أن يجتمعوا على كلمة الله، أن يجتمعوا على شريعة الله، أن ينصح بعضهم

بعضاً، أن يكون مراد الجميع هو الحق، لأن ذلك هو الواجب عليهم، ولا يجوز لهم أن يتفرقوا شيعاً، وأن يكون لكل واحد منهم رأي يخالف الآخر، إلا إذا كان ذلك عن محض اجتهاد وإخلاص لله عز وجل.

فإن الإنسان لا يمكنه أن يلزم بقول غيره، إذا كان يرى أن الحق في خلافه، بل الواجب عليه أن يتبع ما دل عليه الحق وإن خالفه من خالفه، إلا أن يكون في ذلك خارجاً عن إجماع المسلمين، فإن الخروج عن إجماع المسلمين ضلال؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فدل هذا على أن محل الوفاق من أهل العلم أنه حجة، وإلا لا احتاج إلى الرد إلى الكتاب والسنة حتى مع الاتفاق.



الدرس الثالث:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي
 الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ فَالْقَطْعَةُ ٥٥
 فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ
 ۝٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ
 لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا
 عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ وَقَالَتِ لَأُخْتِيْهِ قُصِيْهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ
 لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ
 يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيْحُونَ ۝١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
 وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿الْقَصَصُ: ٧-١٣﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [الْقَصَصِ: ٧] هَذَا الْوَحْيُ لَيْسَ وَحْيَ نُبُوَّةٍ أَوْ رِسَالَةٍ؛
 لِأَنَّهُ لَا يُنْبَأُ إِلَّا الرِّجَالُ، وَلَا يُوْحَىٰ إِلَّا إِلَى الرِّجَالِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا
 رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يُوسُف: ١٠٩].

إِذَنْ: أَوْحَيْنَا إِلَيْهَا وَحْيَ إلهَامٍ، وَوَحْيُ الْإلهَامِ يَكُونُ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْبَهَائِمِ،
 مِثَالُهُ فِي الْبَهَائِمِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النَّحْلِ: ٦٨] هَذَا وَحْيُ إلهَامٍ.
 أَوْحَى اللَّهُ إِلَى أُمِّ مُوسَى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾.

﴿فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ﴾ أَي: مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ؛ لِأَنَّهُ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ،
 وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴿فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ يَعْنِي الْبَحْرَ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾
 [الْقَصَصِ: ٧] لَا تَخَافِي عَنْ مُسْتَقْبَلِهِ، وَلَا تَحْزَنِي عَنْ مَاضِيهِ.

﴿إِنَّا رَأَدُّهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الْقَصَصِ: ٧] بُشْرِيَانِ عَظِيمَانِ:

الأولى: ﴿إِنَّا رَأَدُّهُ إِلَيْكَ﴾.

الثانية: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وَأَعْظَمُهُمَا الثَّانِيَةُ، أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَمَنْتَ بِاللَّهِ، وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ، جَعَلَتْهُ فِي تَابُوتٍ، وَأَلْقَتْهُ فِي الْيَمِّ فِي الْبَحْرِ، وَهَذَا إِيْمَانٌ رَاسِخٌ، وَإِلَّا فَأَيُّ أُمَّ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُلْقِيَ رَضِيعَهَا فِي الْبَحْرِ لَوْلَا الْإِيْمَانُ؟!

﴿فَالنَّقْطَةُ: ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا الَّذِي تُقْتَلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ خَوْفًا مِنْهُ، صَارَ فِي أَحْضَانِ فِرْعَوْنَ، قُدْرَةُ إِلَهِيَّةٍ عَجِيبَةٍ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [الْقَصَصِ: ٨] اللامُ هُنَا لِلْعَاقِبَةِ، أَي: التَّقْطُوهُ حَتَّى صَارَتْ عَاقِبَتُهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لَهُمْ وَحَزَنٌ.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [الْقَصَصِ: ٨] فِرْعَوْنُ هُوَ الْكَبِيرُ، وَهَامَانُ هُوَ الْوَزِيرُ، وَجُنُودُهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ.

﴿وَقَالَتْ﴾ يَعْنِي أُمُّ مُوسَى ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّيه﴾ [الْقَصَصِ: ١١] أَي: تَتَّبِعِي أَثَرَهُ أَيْنَ ذَهَبَ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الْقَصَصِ: ١١] يَعْنِي: بَصُرَتْ الْأُخْتُ ﴿عَنْ جُنْبٍ﴾ أَي: عَنْ بُعْدٍ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الْقَصَصِ: ١١].

قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الْقَصَصِ: ١٢] لَمْ يَرْضِعْ مُوسَى مِنْ امْرَأَةٍ قَطُّ حَتَّى رَدَّ اللَّهُ إِلَى أُمِّهِ.

﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الْقَصَصِ: ١٢] فَجَاءَتْ أُخْتُهِ وَالنَّاسُ يَبْحَثُونَ: مَنْ يَرْضِعُ هَذَا الطِّفْلَ ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

نَصِيحُونَ ﴿[الْقَصَصِ: ١٢] لَمْ تَقُلْ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أُمِّهِ؟ بَلْ قَالَتْ: ﴿عَلَى أَهْلِ بَيْتِ﴾
وَهَذَا صَحِيحٌ أَنَّهُمْ أَهْلُ بَيْتِ ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ [الْقَصَصِ: ١٢].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾ [الْقَصَصِ: ١٣] رَدَّهٗ اللَّهُ إِلَى أُمِّهِ قَبْلَ أَنْ يَرْضَعَ
مِنْ ثَدْيِ أَيْ أَنْتَى ﴿كَى نَقَرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾
[آلِ عِمْرَانَ: ٩].

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطَّلَاقِ: ٤] وَهَذَا حَقٌّ،
فَلَوْ اتَّقَيْنَا اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَجَعَلَ لَنَا مِنَ الْأُمُورِ الْعَسِيرَةِ يُسْرًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا﴾ [الطَّلَاقِ: ٢] أَيْ: مَخْرَجًا مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَاقِ: ٣]
وَهَذَا وَعْدٌ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [يُونُسَ: ٥٥].

لَكِنِ الْبَلَاءُ مَنَا نَحْنُ، فَلَوْ ادَّعَيْنَا أَنَّا نَتَّقِي اللَّهَ قَدْ تَكُونُ تَقْوَانَا ضَعِيفَةً، قَدْ
تَكُونُ ضَعِيفَةً مِنْ جِهَةِ التَّطْبِيقِ، وَقَدْ تَكُونُ ضَعِيفَةً مِنْ جِهَةِ الْقَلْبِ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ
يُصَلِّي صَلَاةً إِذَا رَأَيْتَهَا قُلْتَ: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الصَّلَاةَ! وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ذَكَرَ
النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنِ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ خَرَجُوا عَلَى وُلَاةِ الْأُمُورِ وَقَاتَلُوهُمْ أَنَّهُمْ
يَصُومُونَ وَيَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَأَنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ صَلَاتَهُمْ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ، وَقِرَاءَتِهِمْ
عِنْدَ قِرَاءَتِهِمْ، لَكِنَّهُمْ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ: يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَتَجَاوَزُ حَنَاجِرَهُمْ،
وَالْحَنَاجِرُ هِيَ أَسْفَلُ الْقَصَبَةِ، أَيْ: لَا يَدْخُلُ الْقُلُوبَ، فَالْعِبْرَةُ بِالْقَلْبِ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ﴾ [يُونُسَ: ٥٥].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَانَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الْقَصَصِ: ١٤]

﴿بَلِّغْ أَشَدَّهُ﴾ أَي: غَايَةَ قُوَّتِهِ ﴿وَأَسْتَوَى﴾ أَي: كَمُلَ، حِينَئِذٍ صَارَ أَهْلًا لِلرَّسَالَةِ،
 أَتَاهُ اللَّهُ الْحُكْمَ وَالْعِلْمَ، الْحُكْمَ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَالْعِلْمَ بِمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي
 التَّوْرَةِ.



الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وَسَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَرَصَ عَلَى أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ؛ لِأَنَّ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُ النَّبِيَّ ﷺ وَيَحْمِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ وَيَنْصُرُهُ نَصْرًا عَزِيزًا؛ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ فِي قَصَائِدِهِ وَأَشْعَارِهِ يُثْنِي عَلَيْهِ، يَقُولُ فِي لَامِيَّتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ فَصِيحَةٌ بَلِيغَةٌ جَدًّا؛ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهَا إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى مِنْهَا جَمِيعًا، وَقَدْ أوردَهَا الْأُمَوِيُّ فِي مَغَازِيهِ مُطَوَّلَةً بِزِيَادَاتٍ أُخَرَ».

وَالْمُعَلَّقَاتُ هِيَ قَصَائِدُ عَظِيمَةٌ عِنْدَ الْعَرَبِ كَانُوا يُعَلِّقُونَهَا عَلَى الْكَعْبَةِ تَعْظِيمًا لَهَا^(٢)، يَقُولُ:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذَّبَ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

يَعْنِي لَا هُوَ كَاذِبٌ وَلَا سَاحِرٌ، وَيَقُولُ أَيْضًا^(٣):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٤/ ١٤٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٣) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا

وَقِصَّتُهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي نَصْرِهِ إِيَّاهُ وَالِدِّفَاعِ عَنْهُ مَشْهُورَةٌ مُعْلُومَةٌ؛ وَهَذَا حَرَصَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَهْدِيَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنْ قَالَ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا كَانَ هَادِيًّا لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ.

جَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ وَقَالَ لَهُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ عَاطِفِيٍّ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١)، انْظُرْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ كَيْفَ تَحَرَّزَهُ، يَقُولُ: «أُحَاجُّ»، يَعْنِي مَا جَزَمَ بِأَنَّهَا تَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، وَكَانَ عِنْدَهُ جُلَسَاءُ الشُّوْءِ، جُلَسَاءُ الشُّوْءِ الَّذِينَ وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ إِيَّاهُمْ بِأَنَّهُمْ كـ«نَافِخِ الْكَيْرِ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»^(٢)، كَانَ عِنْدَهُ رَجُلَانِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَمَا مِلَّةُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ الشِّرْكُ وَاتِّخَاذُ الْأَصْنَامِ، فَكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. أَعُوذُ بِاللَّهِ، اللَّهُمَّ اخْتِمْ لَنَا بِالْحَاتِمَةِ الْحُسْنَى يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَحْسِنْ خَاتِمَتَنَا وَتَوَفَّنَا عَلَى الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ، قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. هَذَا آخِرُ مَا قَالَ، فَمَاتَ إِذْنًا عَلَى الشِّرْكِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَوْفَ يَتَأَثَّرُ، هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي دَافَعَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ دِينِ الرَّسُولِ وَنَصْرَهُ تَكُونُ خَاتِمَتُهُ خَاتِمَةً سُوءًا، هَذَا مِمَّا يَوْسَفُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (٥٢١٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم (٢٦٢٨).

لَهُ، وَيُحْزَنُ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ»^(١)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾ مِثْلَ عَمِّ الرَّسُولِ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَمَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

وَبِالنِّسْبَةِ لِلْهِدَايَةِ قَالَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ الْهِدَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ الْأَسْبَابَ، وَهَذَا لَا يَحْتَجُّ عَلَيْنَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أَهْمَلُوا أَبْنَاءَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَلَمْ يُرَبُّوهُمْ، وَلَمْ يَرْعَوْهُمْ فَيَقُولُ: الْهِدَايَةُ بِيَدِ اللَّهِ. نَقُولُ: افْعَلِ السَّبَبَ، وَلَكِنْ إِذَا فَعَلْتَ السَّبَبَ، وَلَمْ يَحْصُلِ الْمَطْلُوبُ، فَحِينَئِذٍ سَلِّمِ الْأَمْرَ لِلَّهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَحْرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنْ لَوْ تَفَتَّحَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ»^(٢).

الْمُهْمُ افْعَلِ السَّبَبَ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يُرِيدُ هِدَايَتَهُمْ فَلَنْ تَهْدِيَهُمْ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ ثُمَّ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ، يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ قُرْنَاءَ صَالِحِينَ فَاهْتَدَى عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَهَذَا - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - يُوجَدُ كَثِيرًا فِي الشَّبَابِ، اهْتَدَى كَثِيرٌ مِنَ الشَّبَابِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - وَصَارُوا مُلْتَزِمِينَ، وَصَارُوا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا عَلَى مُنْكَرٍ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ، لَكِنْ فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ.

الْمُهْمُ أَنَّ اللَّهَ قَالَ مُسْلِمًا رَسُولُهُ ﷺ قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

انْظُرْ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ يُسَلِّي الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ كَمَا قَالَ لَهُ فِي الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]. تَسْلِيَةً لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا قَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فَهُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ لَا مَانِعَ لَهَا أُعْطِيَ، وَلَا مُعْطِيَ لَهَا مَنَعَ.



الدرس الخامس:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ
الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

قوله: ﴿إِنَّكَ﴾ الخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يقول الله
له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي لا تملك أن تهديه، قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ
فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] لا رسول الله ولا غيره، فلا يمكن أن تهدي من
أضله الله أبداً، حتى لو كنت تحب أن يهتدي فإنه لا يمكن أن يهتدي، فما دام الله
قد قضى عليه بالضلالة فلا يمكن لأحد أن يهديه أبداً.

وهذه الآية نزلت في أبي طالب عم النبي ﷺ شقيق أبيه، وكان هذا الرجل
قد نصر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وآواه ودافع عنه أشد المدافعة، حتى
إنه في قصيدته اللامية المشهورة -التي قال عنها ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وَهِيَ أَفْحَلُ
مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى فِيهَا جَمِيعًا»^(١)؛ لأنَّ العرب في
الجاهلية اختاروا سبع قصائد عظيمة فخمة وعلّقوها في الكعبة -التي قالها في ابن
أخيه مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ من جملة ما قال فيها^(٢):

لقد علموا أن ابننا لا مكذب
لدينا ولا يُعْنَى بِقَوْلِ الأباطيل

(١) البداية والنهاية (٣/ ٧٤).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(لقد علموا) أي قريش (أن ابننا) يعني مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ (لا مكذَّب لدينا) بل هو مُصَدِّق، (ولا يُعْنَى بقول الأباطل) أي بقول أهل الباطل، أو بقول السَّحرة. فهذه شهادة بأن مُحَمَّدًا ﷺ صادق وعلى حق.

وقال أيضًا في دين الإسلام^(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ
لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا

والمهم أن الرجل أسدى معروفًا كبيرًا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ولما حضرته الوفاة كان عنده النبي ﷺ ورجلان مشركان من قريش، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فإذا هم أن يقولها قال له الرجلان المشركان: «يَا أَبَا طَالِبٍ، أترغب عن ملة عبد المطلب؟». وعبد المطلب زعيم من زعماء قريش، له السيادة في قريش، ولهذا انتسب النبي ﷺ إليه في غزوة حنين دون أبيه، حيث قال^(٢):

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ

وأبوه المباشِر هو عبد الله، لكنه لما كان عبد المطلب مشهورًا في قريش وسيّدًا فيهم انتسب إليه، كما جرت العادة أن الإنسان ينتسب إلى أشرف آبائه وأجداده، وأبلغهم في السيادة.

(١) دلائل النبوة، للبيهقي (٢/ ١٨٨)، ومجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

المهم قال الرجلان المشركان لأبي طالب: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟» وملة عبد المطلب عبادة اللات والعزى ومناة وهبل وما أشبهها. حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله^(١). نسأل الله العافية.

فهذه خاتمة سيئة، ولو قالها لحاج بها النبي ﷺ عند الله؛ لأن الأعمال بالخواتيم^(٢). اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم أحسن خاتمتنا، اللهم اجعلها على الإيمان والتوحيد، اللهم اجعلها على الإيمان والتوحيد، اللهم اجعلها على الإيمان والتوحيد، اللهم أمتنا على كلمة الإخلاص، وابعثنا عليها يا رب العالمين.

فالعبرة بالخواتيم يا إخواني، ولكني أقول: والله! الله أكرم بعباده، والله ما أحسن أحد المعاملة مع الله بإخلاص إلا أحسن الله له الخاتمة، وإذا كان في القلب شيء من الحُبث والبلاء فإنه حري أن يُحرم من حُسن الخاتمة، أجارنا الله وإياكم من هذا.

المهم أن النبي ﷺ حزن لهذا، أن يكون هذا العم الشفيق الرفيق المدافع الذي يحوط^(٣) النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وينصره، يكون ماله أن يموت على الشرك، فلا شك أنه سوف يهتم الرسول عليه الصلاة والسلام ويحزن، فأنزل الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم، رقم (٦٦٠٧) أنه ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلَ النَّارِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ».

(٣) حاطه: رعاه. مختار الصحاح (حوط).

عليه هذه الآية تسرية له حتى لا يحزن، وهي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هديت.

إن الهداية بيد الله، وكم من إنسان تأتيه النصائح من كل جانب ومن كل شفيق عليه، ولكن لا يهتدي، وكم من إنسان يهتدي بأدنى كلمة، بل إني أعلم أن أناسا كانوا على جانب من الفسوق، فأصيبوا بمصائب، فكانت هذه المصائب فتحا فهداهم الله.

فالمهم أن القلوب بيد الله عز وجل، ولا يستطيع أحد أن يهدي أحدا من دون الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾. قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾؛ لأن الحكم حكمه تعالى، والمملك مملكه، والأمر أمره، والتدبير تدبيره، فلا أحد يستطيع أن يعمل شيئا دون الله عز وجل.

فإن قال قائل: وهل يهدي الله الإنسان لمجرد المشيئة، وهل يضلّه لمجرد المشيئة بدون حكمة؟

فالجواب: لا، فلا يهدي إلا من هو أهل للهداية، ولا يضل إلا من هو أهل للإضلال، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أعلم بمن يستحق الهداية - اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هديت - قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلَّمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضَ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، أي أنهم لم يتولّوا إلا لأنهم فعلوا ما يستحقون أن يتولّوا من أجله.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فلا يرسل إلا من علم أنه أهل للرسالة، ولا يهدي للرسالة إلا من علم أنه أهل للهداية، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يُضِلَّ أَحَدًا لَيْسَ أَهْلًا لِلإِضْلَالِ، بَلْ هُوَ جَلَّ وَعَلَا يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، إِذَا كَانَ هَذَا الْمَهْدِيُّ أَهْلًا لِلْهُدَايَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟
أَثْبَتَ لَهُ الْهُدَايَةَ بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْهُ الْهُدَايَةَ، فَكَيْفَ نَجَمَ بَيْنَهُمَا؟

قلنا: هناك قاعدة قبل أن نُجيبَ عن هذا السؤال، وهي أن تعلموا -بارك الله فيكم- أنه لا يمكن أن يكون في القرآن تناقض أبداً؛ لأن الذي نزل به هو الله عز وجل، وهو أصدق القائلين، والتناقض يلزم منه تكذيب أحد الأمرين، والله عز وجل أصدق القائلين، فلا يمكن أن يكون في كلامه تناقض، وإذا قُدِّرَ أن إنساناً توهم التناقض فالبلاء في فهمه، وليس البلاء بحسب الواقع، فالواقع أن القرآن ما فيه تناقض، واسمع رب العالمين يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أما وهو من عند الله فلا اختلاف ولا تناقض.

ثانياً: صحيح السنة -وانتبه لقولي: صحيح- لا يمكن أن يكون فيه تناقض، أما الضعيف فيمكن أن يكون فيه تناقض؛ لأن الضعيف لا يصح أن يُنسب إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن صحيح السنة لا يمكن أن يكون فيه تناقض.

فالقرآن الكريم لا يمكن أن يكون فيه تناقض، وصحيح السنة لا يمكن أن يكون فيه تناقض.

وكذلك القرآن وصحيح السنة لا يمكن أن يكون بينهما تناقض؛ لأن الكل شرع الله عز وجل، فإذا علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

لا يناقض قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ لأن الهداية نوعان:

النوع الأول: هداية دلالة وبيان، وهذه تكون للرسول ﷺ ولغيره، وتكون أيضًا للكافر والمؤمن، حتى الكافر مهدي بهذه الهداية، قال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢] فالذي جعل سميعًا بصيرًا هو الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. فكلهم هُدوا السبيل، وكلهم بُيِّن لهم، وكلهم لم يكن لهم على الله حُجَّة؛ لأن الله بيِّن.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بعدها؟ ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. ومعنى هديناهم: بيَّنَّا لهم، ووضحنا لهم الآيات، ولكنهم لم يَهْتَدُوا والعياذُ بالله.

إذن فهداية الدلالة والبيان تكون للرسول ﷺ ولغيره، وتكون من الله ومن غيره، وتكون للمؤمن والكافر.

النوع الثاني: هداية توفيق، بمعنى أن يهتدي الإنسان بهداية الله ويوفق للعمل بها، وهذه لا يملكها إلا رب العالمين، الذي نسأله تعالى أن يَهْدِينَا، ولا تكون للرسول ولا لغيره من الرسل، ولا تكون للأب الشفيق على ابنه، ولا للقريب على قريبه أبدًا، فما تكون إلا لله عز وجل، ولا يُوفق لها إلا المؤمن.

ولهذا لو سألنا سائل فقال: هل الكافر مهدي أم غير مهدي؟

فإننا نقول: أما هداية البيان والإرشاد فقد هُدي ويُن له، وأما هداية التوفيق

فإنه لم يُوفق لها ولم يَهْتِد.

والهداية المُثَبِّتَةُ لِلرَّسُولِ هي هدايةُ الدلالةِ والبيانِ، والهداية المنفيَّة عن الرَّسُولِ وغيره إِلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ هي هداية التوفيق.

إذن ليس في الآيتين تناقضٌ أبدًا: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي هداية توفيق، ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هداية بيان ودلالة.

النبي ﷺ قد بيَّن للأُمَّة كُلَّ ما تحتاج إليه:

وإنني بهذه المناسبة أقول: إن النبي ﷺ قد بيَّن للأُمَّة كُلَّ ما تحتاج إليه، بيَّنه إما بقوله، وإما بفعله، وإما بإقراره، بيَّن ذلك بيانًا واضحًا، فما ترك شيئًا تحتاج الأمة إليه إِلَّا بيَّنه، واسمع قولَ اللهِ تَعَالَى الَّذِي نَزَلَ وَالنَّبِيُّ ﷺ واقفٌ بعرفة يومَ الْجُمُعَةِ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فكلُّ شيءٍ بيَّنه الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وكلُّ ما تحتاج الأمة إليه بيَّنه.

فقد بيَّن آدابَ الأكلِ والشربِ القوليَّةَ والفعليةَ: كُلُّ بِالْيَمِينِ، وَسَمِّ اللهُ عِنْدَ الأكلِ، واحمَدِ اللهَ عِنْدَ الأكلِ.

وبيَّن الرَّسُولُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- الآدابَ القوليَّةَ والفعليةَ عند إخراجِ هذا الطَّعامِ؛ أي عند البولِ والغائطِ، فإذا دخلتَ الخلاءَ فقل: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»^(١)، وإذا خرجتَ فقل: «غُفْرَانُكَ»^(٢) «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يقول الرَّجُلُ إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠٠).

الأذى وعافاني»^(١).

وبَيَّنَّ آدابَ النومِ، فهناك أذكارٌ عند المَنامِ، وهناك أذكار عند الاستيقاظِ، بل بَيَّنَّ أذكارَ إتيانِ الرَّجلِ لامرأته: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ» أي ذَكَرَ أو أُنْثَى «لَمْ يَضُرَّهُ»^(٢).

وبَيَّنَّ آدابَ الدخولِ، وآدابَ الخروجِ من البيتِ، وكل شيءٍ بَيَّنَّهُ، قال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ تَرَكْنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَمَا يُحَرِّكُ طَائِرٌ جَنَاحِيهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا أَذْكَرْنَا مِنْهُ عِلْمًا»^(٣).

فكُلُّ شيءٍ بَيَّنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وبهذا نعرف أن الَّذِينَ يَبْتَدِعُونَ فِي دِينِ اللَّهِ ما لم يَأْتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا، حَتَّى ولو كان أَصْلُ البدعةِ ثابتًا.

والتَّسْبِيحُ حَقٌّ، والتَّحْمِيدُ حَقٌّ، والتَّكْبِيرُ حَقٌّ، والتَّهْلِيلُ حَقٌّ، فإذا رَكَّبْنَا هذه الأشياءَ على صفةٍ معيَّنة لم تَرُدَّ بها الشريعةُ صارتُ بدعةً في وصفها وليس في أصلها، والأصلُ في العِبَادَاتِ التحريمُ إِلَّا ما ثَبَتَتْ به الشريعةُ؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٤).

فهذه قاعدة: الأصلُ في العِبَادَاتِ التحريمُ حَتَّى يقومَ دليلٌ على أَنَّها مشروعةٌ،

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم (٣٠١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (١٤١)، ومسلم:

كتاب النكاح، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع، رقم (١٤٣٤).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٣/٥).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)،

ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

والأصل في غيرها الحِلُّ حَتَّى يَأْتِيَ دَلِيلٌ عَلَى التَّحْرِيمِ. واحفظ هذا البيت^(١):

والأصل في الأشياءِ حِلٌّ وَاِمْنَعِ عِبَادَةً إِلَّا بِإِذْنِ الشَّارِعِ

فهذان أصلان: الأصل في الأشياء الحِلُّ إِلَّا مَا وَرَدَ تَحْرِيمُهُ، والأصل في العِبَادَاتِ الْمُنْعُ إِلَّا مَا وَرَدَتْ شَرْعِيَّتُهُ.

فصار القرآن الكريم، وما صحَّحَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَنَاقُضٌ.

إِذْنُ الْهَدَايَةِ نَوْعَانِ: هَدَايَةٌ دَلَالِيَّةٌ وَبَيَانِيَّةٌ، وَهَذِهِ تَكُونُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ رُسُلُ اللَّهِ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ وَرِثُوا الْأَنْبِيَاءَ. وَهَدَايَةٌ تَوْفِيقِيَّةٌ، وَهِيَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَا يَمْلِكُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

إِذْنُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقِفَ إِنْسَانٌ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَيَقُولَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اهْدِنِي، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ مُخْرِجٌ عَنِ الْمِلَّةِ، يَعْنِي مَنْ اعْتَقَدَ هَذَا فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ صَلَاةٌ وَلَا صَدَقَاتٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا حَجٌّ، فَكَيْفَ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اهْدِنِي، وَاللَّهُ يَقُولُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؟! وَلَوْ وَقَفَ عَلَى قَبْرِ وَلِيِّ؛ رَجُلٌ مَعْرُوفٌ بِالصَّلَاحِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالْخَيْرِ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، اهْدِنِي إِلَى الْحَقِّ، فَهَذَا حَرَامٌ وَشِرْكٌ أَكْبَرُ، وَهَذَا الْمَسْكِينُ الَّذِي يَأْتِي إِلَى الْقَبْرِ وَيَقُولُ: اهْدِنِي أَوْ ارْزُقْنِي أَوْ هَاتِ لِي الْوَلَدَ أَوْ هَاتِ لِي زَوْجَةً، هَذَا لَوْ صَلَّى فَمَا تَنْفَعُهُ صَلَاتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. فَإِذَا كَانَ جَاهِلًا، فَعَلَّمَهُ حَتَّى تُبْرِيَ ذِمَّتَكَ وَيَنْتَفِعَ أَخُوكَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

(١) من منظومة أصول الفقه وقواعده لفضيلة شيخنا رحمه الله.

الدَّرْسُ السَّادِسُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يَهْدِيَ كُلَّ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَهْدِيَهُ وَلِذَلِكَ كَانَ يَدْعُو النَّاسَ لِيَهْتَدُوا، وَهُوَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَهْدِيَ مَنْ أَحَبَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وَمِنْ أَخْصَرَ ذَلِكَ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَعَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ دَافَعَ دُونَهُ وَحَمَاهُ وَنَصَرَهُ حَتَّى كَانَ يَقُولُ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي قَالَ عَنْهَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذِهِ قَصِيدَةٌ عَظِيمَةٌ فَصِيحَةٌ بَلِيغَةٌ جَدًّا، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهَا إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى مِنْهَا جَمِيعًا^(١). قَالَ فِيهَا يَخَاطَبُ أَوْ يَتَحَدَّثُ عَنْ قَرِيشٍ^(٢):

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبَ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

لَقَدْ عَلِمُوا: يَعْنِي قَرِيشًا، أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَذِّبَ لَدَيْنَا، وَابْنُهُ: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لِأَنَّ اللَّهَ أَلْقَى فِي قَلْبِ أَبِي طَالِبٍ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْأَبَاطِلُ: أَيُّ قَوْلِ السَّحَرَةِ، وَهَذَا تَصْدِيقٌ مِنْهُ.

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٤٣/٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٢٨٠/١).

ويقول أيضًا^(١):

وَعَرَضْتَ دِينًا قَدْ عَرَفْتُ بِأَنَّهُ
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حَذَارِي سُبَّةٍ
مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينَا

وهذه شهادة بأن دين محمد حق لكنه لم يقبله ولم يذعن له، وهذا هو الذي حال بينه وبين التوفيق، هذا الرجل - أبو طالب - له يد في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي نصرته، ولكن الأمر كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

هذا الرجل لما حضرته الوفاة كان عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه وعلى آله وسلم وعنده رجلان مشركان من قريش فكان النبي ﷺ يقول له بتلطف: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، ثم يقول له هذان المشركان: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وملة عبد المطلب هي الشرك، فكان آخر ما قال: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ.

فحزن النبي ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(٢) [التوبة: ١١٣].

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، وبلغظه في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

ثُمَّ أَجَابَ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ عَنْ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِمَامُ الْحَنْفَاءِ قَالَ لِأَبِيهِ حِينَ حَاوَرَهُ فِي التَّوْحِيدِ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] وَلَكِنْ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ، وَلِهَذَا أَجَابَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ لَمَّا أُنْزِلَ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَكُنَّا مَأْمُورِينَ أَنْ نَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ، أَجَابَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وَالْمُؤْمِنُ يُوفَّى بِالْوَعْدِ، وَالْمَوْعِدَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

وهنا اختبارٌ للذكاء: هل أمُّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مؤمنةٌ أو غيرُ مؤمنةٍ؟

والجوابُ: أنها مؤمنةٌ، والدَّلِيلُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١] فَنَهَاةُ اللَّهِ عَنْ اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ وَسَكَتَ عَنْ اسْتِغْفَارِهِ لِأُمِّهِ، إِذَنْ فَهِيَ مُؤْمِنَةٌ.

هل أبوا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أعني أمُّه وأباه هل هما مؤمنان أو كافران؟

الجوابُ: مؤمنان، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمَا مُؤْمِنَانِ قَوْلُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨] مِثْلُ هَذَا الِاسْتِنْبَاطِ يُحْتَطُّ طَالِبُ الْعِلْمِ عَلَى تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَالْعِلْمُ كُلُّ الْعِلْمِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، حَتَّى مَا بَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ مِنَ الْقُرْآنِ فَهُوَ مِنَ الْقُرْآنِ.

نَرْجِعُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، قُلْنَا: أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ فِيهَا أَبُو طَالِبٍ، مَاتَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى الشَّرْكِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلم: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»^(١)،
أَعُوذُ بِاللَّهِ، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا^(٢).

قال بعض الناس: ما الجمع بين قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؟ الآية الأولى نفى والثانية إثبات مؤكد أيضًا؟

فالجواب: الهداية المنفية هداية التوفيق، يعني أنك يا محمد ما يمكن أن تُوفَّقَ إنسانًا ليَهْتَدِيَ، هذا بيد الله عزَّ وجلَّ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ.

أما هداية الدلالة فالنبي ﷺ يَهْدِي، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي تدلُّ إليه، وهذا يكون للنبي وللعلماء الذين يُعَلِّمُونَ النَّاسَ فهُمْ يَهْدُونَهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ، فصارت الهداية المثبتة هداية الدلالة، والمنفية هداية التوحيد.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).
(٢) لحديث: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُتَّعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ». أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا، رقم (٢١٢).

الدَّرْسُ السَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ
الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]
هَذِهِ الْآيَةُ تَحْتَاجُ إِلَى كَلَامٍ كَثِيرٍ لَكِنْ لَكِنِ الْخَصُّ:

فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مَاذَا أَجَابَ بِهِ الْعَالَمَ الْفُلَانِيَّ أَوِ الْعَالَمَ
الْفُلَانِيَّ لِأَنَّ «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١)، يُبَلِّغُونَ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَيْسَ يُوحَى إِلَيْهِمْ،
وَلِذَلِكَ لَا يُسْأَلُ النَّاسُ عَنْ عِلْمَائِهِمْ، فَلَا يَقَالُ: مَاذَا أَجَبْتُمُ الْعَالَمَ الْفُلَانِيَّ وَالْعَالَمَ
الْفُلَانِيَّ؟ بَلْ يَقَالُ: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ وَعَلَى هَذَا لَوْ احْتَجَّ عَلَيْكَ مَتَعَصَّبٌ وَقَالَ:
هَذَا مَذْهَبُ فُلَانٍ بَنِ فُلَانٍ. تَقُولُ لَهُ: يَا أَخِي أَنْتَ لَنْ تُسْأَلَ عَنْ مَذْهَبِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ،
أَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْ مَذْهَبِ مُحَمَّدٍ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ اللَّهَ
يَقُولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾.

لَوْ قَالَ إِنْسَانٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:
هَذَا قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَسَدِ الْأُمَّةِ رَأْيًا وَأَهْدَاهُمْ سَبِيلًا بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، مَاذَا تَقُولُ إِذَا كَانَ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ يَخَالِفُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ؟ نَرُدُّ قَوْلَ
أَبِي بَكْرٍ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، نَعَمْ، نَرُدُّهُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَسَلَّمَ لَا نَرُدُّهُ مُطْلَقًا وَإِلَّا فَقَوْلُ أَبِي بَكْرٍ أَقْرَبُ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ إِلَى الصَّوَابِ، لَكِنْ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى طَلْبِ الْعِلْمِ، رَقْمُ (٣٦٤١)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ
الْعِلْمِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْفَقْهِ عَلَى الْعِبَادَةِ، رَقْمُ (٢٦٨٢)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْإِيمَانِ وَفُضَائِلُ
الصَّحَابَةِ وَالْعِلْمِ، بَابُ فَضْلِ الْعُلَمَاءِ وَالْحَثِّ عَلَى طَلْبِ الْعِلْمِ، رَقْمُ (٢٢٣).

إِذَا خَالَفَ قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ لَا يُقْبَلُ، لَكِنْ قُلْ لِي يَا أَخِي: هَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ أَبُو بَكْرٍ قَوْلًا يَخَالِفُ قَوْلَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟

الجواب: نَعَمْ، قد يقول قولًا يخالف قول الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم لكن عن اجتهاد، لِأَنَّهُ قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِ قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ يَخْفَى عَلَيْهِ الْمَعْنَى، إِنَّمَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَمْ يُحْفَظْ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْلٌ خَالَفَ فِيهِ النَّصَّ الصَّرِيحَ.

لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ مَهْمَا كَانَ الْقَائِلُ غَيْرَ الرَّسُولِ إِذَا خَالَفَ قَوْلَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ يُطْرَحُ قَوْلُهُ، وَلَيْسَ لَنَا حُجَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ فقط، فاستعدَّ لجوابِ هَذَا السُّؤَالِ لَا يَضِيعُ عَنْكَ الْجَوَابُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦] لِأَنَّهُمْ لَيْسَ عَنْدهُمْ حُجَّةٌ، فَهُمْ لَمْ يَجِيبُوا الْمُرْسَلِينَ، عَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ وَعَجَزُوا عَنِ الْجَوَابِ الصَّحِيحِ، وَهُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى تَحْرِيمِ تَقْدِيمِ قَوْلِ الْإِمَامِ عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَتَّى يُرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ»^(١)، مَعَ أَنَّا نَعْلَمُ فِي قَلْبِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مِنْ تَعْظِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ مَا لَيْسَ فِي

(١) أوردته بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/٢١٥)، وابن القيم في زاد المعاد (٢/١٩٥)، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد، باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله (ص: ١٠٢)، وهو عند الإمام أحمد (١/٣٣٧)، رقم (٣١٢١) بلفظ: «أَرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ: نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

قلوبنا، وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ».

وَنَاسَفُ لِبَعْضِ النَّاسِ إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا قَوْلُ الرَّسُولِ. قَالَ: نَعَمْ قَوْلُ الرَّسُولِ لَكِنْ هَذَا قَوْلُ فُلَانٍ، فَهَلْ أَنْتَ أَعْلَمُ مِنْ فُلَانٍ؟ وَهَذَا جَوَابٌ غَيْرُ سَدِيدٍ، نَقُولُ: أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ يَحْتَجُّ لَهَا وَلَا يَحْتَجُّ بِهَا، وَلَكِنْ قَوْلِي هَذَا لِلْإِنْسَانِ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَى الْاجْتِهَادِ أَمَّا الْعَوَامُّ فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فَلَا يَأْتِي وَاحِدٌ عَامِيٌّ لَا يَعْرِفُ كَوَعَهُ مِنْ كُرْسُوهِ يَقُولُ: قَالَ الرَّسُولُ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ مَا يَدْرِي شَيْئًا عَنِ الْحَدِيثِ، وَلَا عَنِ صِحَّةِ الْحَدِيثِ، وَعَامِيٌّ يَقُولُ: خَيْرُ الْأَسْمَاءِ أَحْمَدُ وَحَمْدُ وَمُحَمَّدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَالدَّلِيلُ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا حَمِدَ وَعَبَّدَ»^(١).

فَهَلْ قَالَ الرَّسُولُ هَذَا؟ مَا قَالَهُ، لَكِنْ هَذَا عَامِيٌّ، وَلِهَذَا مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَرَةِ الْمَعْرُوفَةِ الْمَأْلُوفَةِ: (العوام هوام)، والهوام قد تأتي بالطَّوَامِ، إِنَّمَا الْإِنْسَانُ الْمُجْتَهِدُ إِذَا بَانَ لَهُ الْحَقُّ فَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَبَانَ لَهُ سُنَّةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَعَارِضَهَا لِقَوْلٍ غَيْرِهِ.

العوامُّ فِي الْحَقِيقَةِ يَتَّبِعُونَ عِلْمَاءَهُمْ وَلَوْ قُلْنَا: إِنَّ الْعَامِيَّ لَهُ أَنْ يَجْتَهِدَ لَفَسَدَتِ الْأُمُورُ، لَكِنْ إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ عَالَمَهُ الَّذِي يَقْلُدُهُ عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ بِدَلِيلِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.



(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء، رقم (١٢٤٥)، وقال: قال النجم: لا يعرف. وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الضَّعِيفَةِ (٤١١): لَا أَصْلَ لَهُ.

سورة الروم

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المؤمنين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ
تَنْشُرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

إن ذلك والله! من آياته، فإن التراب شيء جامد لا يتحرك، وليس فيه حياة،
ولكن هذا البشر الذي خلق منه يكون بشراً ينتشر في أرض الله، يسعى لرزق الله،
ويسعى لحياته في الدنيا والآخرة، هذا من آيات الله عز وجل.

﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ
مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] هذا أيضاً من آيات الله؛ أن
خلق لنا من أنفسنا أزواجاً، وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ومن شبهكم،
حتى لا يحصل التنافر بين الإنسان وبين زوجته، فجعل الله الزوجة من جنس
الإنسان، وذكر الله تبارك وتعالى الحكمة من ذلك لأجل أن يسكن إليها، ولا ينفر منها
وتصور لو كانت الزوجة من غير جنس الذكر، لكان بذلك تنافر، ولم يحصل
اتلاف ولم يحصل سكون، وبالتالي لا يمكن أن تبقى الخليقة؛ لأنها لا تبقى إلا
بالتوالد.

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يعني: بين

هؤلاء الأزواج جعل بينكم وبينهن مودةً، فالأنثى تود زوجها، والزوج يود زوجته، وهكذا ينبغي أن تكون الحياة الزوجية مبنية على هذين الأمرين: على المودة المتبادلة، وعلى الرحمة، وجعل بينكم مودة ورحمة. هذا من آيات الله سبحانه وتعالى.

ولا يرد على ذلك من يشد من بني آدم حيث يكون بينهم وبين زوجاتهم تباعد وغل وحق وعداوة، حتى إن الرجل ليتمنى أن يفارق زوجته، وحتى إن بعض بني آدم إذا حصل بينه وبين زوجته أقل مشكلة ذهب يطلقها، ويبت طلاقها من غير ترو، ومن غير نظر في حدود الله، قد يطلقها وهي حائض، وقد يطلقها في طهر جامعها فيه وليست بحامل، وقد يطلقها مرتين وقد يطلقها ثلاثاً، كل ذلك بسبب الغضب الذي يحصل بأذى مشكلة، والواجب على الرجل أن يكون متصفاً بمعنى هذه الكلمة، بمعنى الرجولة، كما قال الله تعالى: ﴿الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤] وأن يصبر على ما يرى من امرأته من تقصير، وكذلك يجب على المرأة أن تصبر على ما ترى من زوجها من تقصير حتى يحصل الالتمام ويحصل البقاء بينهما.

وللتنبية فإنه لا يجوز للإنسان أن يطلق زوجته في حالين:

أحدهما: أن يطلقها وهي حائض، والثانية: أن يطلقها في طهر جامعها فيه إذا لم يتبين حملها، فإن هذا الطلاق يعد طلاقاً بدعياً محرماً، يجب على الزوج إذا وقع منه في هاتين الحالتين أن يرد الزوجة إلى عصمته، ثم يدعها حتى تطهر من حيضتها إن كان طلقها في حال الحيض، ثم تحيض مرة ثانية، ثم تطهر، وبعد ذلك إن شاء أمسك وإن شاء طلق، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر حين طلق زوجته وهي حائض، فأخبر عمر النبي ﷺ بما وقع فتغيظ رسول الله ﷺ وأمره

أَنْ يَأْمُرَ ابْنُ عُمَرَ بِمُرَاجَعَةِ زَوْجَتِهِ^(١). أي: بِرَدِّهَا إِلَى عِصْمَتِهِ حَتَّى يُطَلِّقَهَا طَلَاً شَرْعِيًّا، ثُمَّ يَتْرُكُهَا حَتَّى تَطْهَرَ، ثُمَّ تَحِيضُ، ثُمَّ تَطْهَرُ، ثُمَّ إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ».

كَذَلِكَ أَيْضًا: لَا يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا الْإِنْسَانُ فِي طَهْرٍ جَامِعٍ فِيهِ حَتَّى تَحِيضَ وَتَطْهَرَ أَوْ يَتَبَيَّنَ بِهَا حَمْلٌ، وَعَلَى هَذَا فَإِذَا وَلَدَتِ امْرَأَةٌ مَثَلًا وَطَهَرَتْ مِنَ النَّفَاسِ وَجَامَعَهَا زَوْجُهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَرَادَ أَنْ يُطَلِّقَهَا بَعْدَ هَذَا الْجَمَاعِ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا حَتَّى يَعُودَ عَلَيْهَا الْحَيْضُ.

وَنَحْنُ جَمِيعًا نَعْرِفُ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا كَانَتْ تُرَضِعُ فَإِنَّ الْحَيْضَ لَا يَأْتِيهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا بَعْدَ السَّنَةِ الْأُولَى، عَلَى هَذَا نَقُولُ لِهَذَا الرَّجُلِ: انْتَظِرْ حَتَّى تَأْتِيَ السَّنَةُ أَوْ مَا بَعْدَ السَّنَةِ، وَيَرْجِعُ الْحَيْضُ إِلَى امْرَأَتِكَ فَإِذَا طَهَرَتْ مِنَ الْحَيْضَةِ فَلَكَ أَنْ تُطَلِّقَهَا.

وَالطَّلَاقُ الْمُبَاحُ يَكُونُ فِي حَالَيْنِ:

الْحَالِ الْأُولَى: إِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ حَامِلًا، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يُطَلِّقُهَا وَلَوْ كَانَ قَدْ جَامَعَهَا الْآنَ، فَإِنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ مَا دَامَتْ حَامِلًا، فَلَهُ أَنْ يُطَلِّقَهَا حَتَّى وَإِنْ كَانَ لَمْ يَغْتَسِلْ مِنْ جَمَاعِهَا؛ لِأَنَّ الْحَامِلَ تُطَلَّقُ فِي كُلِّ وَقْتٍ.

الْحَالِ الثَّانِيَّةُ: إِذَا طَلَّقَهَا فِي طَهْرٍ لَمْ يَجَامِعْهَا فِيهِ.

فَفِي هَاتَيْنِ الْحَالَيْنِ يَكُونُ الطَّلَاقُ شَرْعِيًّا، وَلَا بُدَّ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الطَّلَاقُ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَإِنْ طَلَّقَهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ طَلَاقٌ مُحَرَّمٌ، لِأَنَّهُ تَعَدُّ لِحُدُودِ اللَّهِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابٌ، رَقْمٌ (٥٢٥١)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ تَحْرِيمِ طَلَاقِ الْحَائِضِ بَغَيْرِ رِضَاهَا، رَقْمٌ (١٤٧١).

يعني مثلاً: لا يجوز للإنسان أن يقول لزوجته: أنت طالق أنت طالق، أو: أنت طالق أنت طالق أنت طالق، ولا يجوز له أن يقول لها أيضاً: أنت طالق طلقتين، أو أنت طالق ثلاثاً؛ لأن ذلك كله طلاق بدعي محرم، لا يجوز للإنسان أن يوقعه، وإنما إذا أراد أن يطلق زوجته، وعرف أنه لا يمكن أن يصبر معها، أو أنها هي ترغب أن تطلقها، فإنه يطلقها مرة واحدة في الحالين السابقتين، وهما إذا كانت حاملاً، وإذا كانت طاهرة في طهر لم يجامعها فيه.

والمهم: أننا دائماً نسأل عن الطلاق؛ لأن الإنسان إذا غضب لأذى شيء طلق زوجته؛ وهذا في الحقيقة خطأ، خطأ في التفكير، فأنت أيها الرجل تروى في الأمر وتأتي واضبر لا سيما في مثل وقتنا هذا، الذي لا يكاد الإنسان يجد زوجة إذا خطب، فينبغي أن تروى؛ لأنك قد تطلقها ولا تحصل بعد ذلك على زوجة فتكون أعزب، قد تطلقها ومعها أولاد منك، فيتولى أولادك غيرك، إلى غير ذلك من المفاسد التي تحصل بسبب الاستعجال.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فالمؤمنون هم الذين ينتفعون بالآيات ويعرفونها ويرونها، أما غير المؤمنين فإنه في إعراض -والعياذ بالله- ولا ينتفع بالآيات كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

مسألة في مضاعفة الأعمال الصالحة:

مضاعفة الصلاة بمئة ألف خاص بالمسجد الحرام نفسه، مسجد الكعبة^(١)،

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في فضل الصلاة في المسجد الحرام، رقم (١٤٠٦).

و هذا هو ظاهر كلام أصحاب الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ كما ذَكَرَ ذلك عَنْهُمْ صاحبُ
الْفُرُوعِ تلميذُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تَيْمِيَّةَ^(١). وهذا هو مقتضى ظاهر النصوص.

والأعمالُ وإن كانت لا تَتَضَاعَفُ هذا التَّضَاعُفُ خارجَ المسجدِ، لكنها
تَتَضَاعَفُ بحسبِ المكانِ، ولا رَيْبَ أن حُدُودَ الْحَرَمِ فيها سِوَى المسجدِ أَفْضَلُ
من غيره، لأن له أَحْكَامًا كَثِيرَةً يَخْتَصُّ بها، كِتْحَرِيمِ صَيْدِهِ مَثَلًا، وغير ذلك مما
لا مجالَ لِدِكْرِهِ هنا، لكنَّ أسبابَ مضاعفةِ الأعمالِ متَعَدِّدَةٌ منها:

شَرَفُ الْمَكَانِ؛ كَالْحَرَمَيْنِ حَرَمِ مَكَّةَ وَحَرَمِ الْمَدِينَةِ، فَإِنَّهُمَا مَكَانَانِ فَاضِلَانِ
تُضَاعَفُ فِيهِمَا الْحَسَنَاتُ، وَلَا يُوجَدُ فِي الدُّنْيَا حَرَمٌ سِوَى هَذَيْنِ الْحَرَمَيْنِ لَا الْمَسْجِدُ
الْأَقْصَى وَلَا غَيْرُهُ، لَا يُوْجَدُ حَرَمٌ إِلَّا هَذَانِ الْحَرَمَانِ فَقَطْ، وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ لَا نُعَبِّرَ
بِالْعِبَارَةِ الْمُوْهِمَةِ، وَهِيَ مَا يُعَبِّرُ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ عَنِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى: إِنَّهُ
ثَالِثُ الْحَرَمَيْنِ، فَإِنْ بَعْضٌ مِنْ يَسْمَعُهُ يَظُنُّ أَنَّهُ حَرَمٌ، وَلَيْسَ حَرَمًا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ،
وَلَكِنَّهُ مَسْجِدٌ مَفْضَّلٌ عَلَى غَيْرِهِ، وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى
ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢)،
فَتُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ بِحَسَبِ شَرَفِ الْمَكَانِ.

كَذَلِكَ أَيْضًا تُضَاعَفُ بِحَسَبِ شَرَفِ الزَّمَانِ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ
قَالَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ». قَالُوا: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ

(١) الفروع (٢/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، رقم (١١٨٩)،
ومسلم: كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، رقم (١٣٩٧).

بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»^(١)، فَهَذَا تَشْرُفُ الْأَعْمَالُ فِي عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ، وَهِيَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَيِّ زَمَنٍ عُمِلَتْ فِيهِ بِسَبَبِ شَرَفِ هَذَا الزَّمَانِ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، حَيْثُ إِنَّ مَنْ قَامَهَا إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَهَذَا مِنْ أَمْرَانِ تُضَاعَفُ بِهِمَا الْأَعْمَالُ.

الْأَمْرُ الثَّالِثُ: تُضَاعَفُ الْأَعْمَالُ بِحَسَبِ جِنْسِ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ أَجْنَاسٌ، بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، وَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ وَلَوْ اسْتَرَدَدْتُهُ لَزَادَنِي^(٢). فَالْعِبَادَةُ هُنَا اخْتَلَفَتْ أَفْضَلِيَّتُهَا بِحَسَبِ جِنْسِهَا.

الْأَمْرُ الرَّابِعُ: أَنَّ الْعِبَادَةَ تَخْتَلِفُ بِحَسَبِ التَّكْلِيفِ فِيهَا، فَمَا كُتِّفَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا يَفْعَلُهُ الْمَرْءُ عَلَى سَبِيلِ التَّطَوُّعِ، وَلِهَذَا ثَبَتَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، أبواب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق، رقم (٩٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب وسمى النبي ﷺ الصلاة عملاً، رقم (٧٠٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله - تعالى - أفضل الأعمال، رقم (٨٥).

أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، فَأَنْتَ تُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ تَطَوُّعًا، وَتُصَلِّي صَلَاةَ الْفَجْرِ الْمَفْرُوضَةَ، فَصَلَاةُ الْفَجْرِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الرَّكْعَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا رَكْعَتَيْنِ.

الْأَمْرُ الْخَامِسُ: تَخْتَلِفُ الْعِبَادَةُ أَيْضًا بِحَسَبِ الْعَامِلِ؛ بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ وَبِحَسَبِ مَتَابَعَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلِهَذَا قَدْ يُصَلِّي رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا إِلَى جَنْبِ الثَّانِي يُصَلِّيَانِ صَلَاةً وَاحِدَةً، وَبِإِمَامٍ وَاحِدٍ، وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنَ الْفَرْقِ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِسَبَبِ اخْتِلَافِ نِيَّتِهِمَا وَحَسَنِ عَمَلِهِمَا.

وَمِنْ هَذَا النُّوعِ: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ: «لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(٢)، قَوْلُهُ: «مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»: مِنَ الذَّهَبِ أَوْ مِنَ الطَّعَامِ؟

يُحْتَمَلُ هَذَا وَهَذَا، وَالْأَقْرَبُ أَنَّهُ مِنَ الطَّعَامِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُكَالُ عَادَةً بِالْمُدِّ وَالصَّاعِ، فَإِذَا كَانَ الْوَاحِدُ مِنَ الصَّحَابَةِ إِذَا تَصَدَّقَ بِمُدٍّ مِنْ طَعَامٍ أَوْ بِنَصِيفِ الْمُدِّ مِنَ الطَّعَامِ لَا يَبْلُغُ مَنْ بَعْدَهُمْ أَوْ مَنْ سِوَاهُمْ مِثْلَهُ فِيمَا لَوْ تَصَدَّقَ بِمِثْلِ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ تَتَفَاضَلُ أَيْضًا بِحَسَبِ الْعَامِلِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، بَابُ التَّوَاضُّعِ، رَقْمُ (٦١٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا»، رَقْمُ (٣٦٧٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ -، بَابُ تَحْرِيمِ سَبِّ الصَّحَابَةِ، رَقْمُ (٢٥٤٠).

والمهم: أنه ينبغي للإنسان أن يعرف تفاضل الأعمال وأسباب هذا التفاضل ليكون على بصيرة من أمره، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والصالح، وأن يجعلنا من المتسابقين إلى الخيرات التاركين للمنهيات، إنه جواد كريم.



سورة لقمان

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

لُقْمَانُ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، وَلَيْسَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَعْظَمَ حَقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ بَعْدَ حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ حَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ؛ الْأُمِّ وَالْأَبِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ هَذَا كَالْتَعْلِيلِ لِلْوَصِيَّةِ؛ فَالْأُمُّ تَحْمِلُ ابْنَهَا فِي بَطْنِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ؛ أَيِ ضَعْفًا عَلَى ضَعْفٍ، وَتَعَبًا عَلَى تَعَبٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَضَعُهُ عَلَى تَعَبٍ، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ

شَهْرًا ﴿[الأحقاف: ١٥]﴾؛ يعني هو بعد أن يُوضَعَ تحضنه الأم، وينفصل عنها في عامين؛ لأن من أراد أن يُتِمَّ الرِّضَاعَةَ فَإِنَّهُ يُرَضِعُ وَلَدَهُ حَوْلِينَ كَامِلِينَ.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَلَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[لقمان: ١٤-١٥]﴾، جاهداك؛ أي بذلا الجهد معك من أجل أن تشرك بالله؛ يعني يقول الأب لولده: أشرك يا ولدي، والأم كذلك تقول: أشرك بالله، وربما يُغري الأب ولده تارة، ويتوعده تارة، فهل إذا جاهدا الولد على الشرك يُشرك، أو يعصي الوالدين؟

نقول: يعصي الوالدين؛ لأنه عصاهما في طاعة الخالق عز وجل، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾.

فإن قيل: ما مفهوم قوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؟ هل يعني إن جاهداه على أن يشرك بالله ما له به علم فإنه يُطيعهما؟

قلنا: هذا بيان للواقع، وصفة كاشفة؛ لأنه لا يمكن لإنسان أن يشرك بالله شريكا له به علم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: ٣٣].

إذن لا يمكن لإنسان أن يشرك بالله إلا وهو جاهل.

قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، وما موقفه منهما في معاملة الدنيا؟ ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا

مَعْرُوفًا ﴿سَبْحَانَ اللَّهِ! وَالِدَاهُ يَأْمُرَانِهِ أَنْ يَشْرَكَ، وَيَبْذُلَا الْجُحْدَ أَوْ الْجُحْدَ فِي إِشْرَاكِهِ، وَيَقُولُ اللَّهُ: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وَهَذَا لِعِظَمِ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ.

قوله: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ من الأمِّ أو الأب، فإذا قُدِّرَ أن الأبَ فاسِقٌ يأمرُ بالفِسقِ، والأمُّ صالحةٌ تأمرُ بالخيرِ، فإنه يطيع الأمَّ وإن عصَى الأب، فلو قال الأبُ لابنه: يا ولدي، لا تذهبْ إلى عمِّكَ، عمُّكَ بيني وبينه مشكلةٌ، لا تذهبْ إليه، لا تصلِّه، فقالت الأمُّ: يا بني، صلِّ عمِّكَ؛ فإنه من أقاربِكَ، وصلِّه الرِّحمَ واجبةً، فقال: أمي وأبي، نقول له: زد؛ أمي وأبي وربِّي، فأطعَ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ، ربُّكَ أَمَرَكَ بِصَلَةِ الرَّحِمِ، وأبوكَ نَهَاكَ عَنْ صَلَةِ الرَّحِمِ، وأُمُّكَ أَمَرَتْكَ بِصَلَةِ الرَّحِمِ، فَأَطِعْ أَمْرَكَ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وهذا يقع كثيرًا بين النَّاسِ الآن؛ فتجد الشخصَ يكون بينه وبين أخيه مشكلةٌ دُنيوية، فيهجره ويأمرُ أبناءَهُ أَنْ يَهْجُرُوهُ، وهو عمُّهم، وربما يكون جدُّهم، وهذا غلطٌ عظيمٌ، ولا يجوز للأبناء أن يطيعوا أحدًا من والديهم بقطيعةِ الرَّحِمِ، أبدًا؛ لأنَّ قطيعةَ الرَّحِمِ من كبائر الذنوب، قال النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(١). وتكفلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِلرَّحِمِ أَنْ يَصِلَ مَنْ وَصَلَهَا، وَيَقْطَعَ مَنْ قَطَعَهَا، فلا نُطِيعُهُ.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، إِلَىٰ أَنْ قَالَ، وهو ما أريدُ الكلامَ عليه:

﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، فهذه أربعة أوامر.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٩٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرَّحِمِ وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

فالأول: إقامة الصلاة.

ثم الأمر بالمعروف، والمعروف الذي يجب الأمر به هو كل ما أمر به الشرع؛ فالصلوات من المعروف، فإذا رأيت أحدا يضيع الصلاة فمُرّه بها.

والمنكر كل ما نهى عنه الشرع في الكتاب أو السنة، فإذا رأيت أحدا يتعامل مع الناس بالغش والخيانة فانهه؛ قل: يا أخي، هذا حرام عليك، لا يحل لك.

والأمر الرابع: اصبر على ما أصابك؛ لأن الأمر والنهي لا بُدَّ أن يُصيبه أذى؛ إما بالقول وإما بالفعل ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ [المطففين: ٢٩-٣٠]، يتغامزون سخرية بهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ المؤمنون إذا مروا بالكفار يتغامز الكفار بهم، والآية تحتمل وجهًا آخر، وهو أن المار هم الكفار؛ فإذا مرَّ الكفار بالمؤمنين وهم جالسون تغامزوا بالمؤمنين.

فإن قيل: وهل في الآية ما يرجح أحد الاحتمالين؟

قلنا: الأظهر أن الآية لا ترجح أحدهما على الآخر؛ قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٢٩﴾ وإذا أنقلبوا إلى أهلهم أنقلبوا فكهين؛ لأنه من الممكن أن يمر هؤلاء المجرمون بالمؤمنين يتغامزون بهم، ثم وهم مُنْطَلِقُونَ إلى أهلهم يتفكّهون بما صنعوا مع هؤلاء المؤمنين، أو بالعكس، والقاعدة: إذا كان النص يحتمل معنيين، لا يترجح أحدهما على الآخر، وجب حمله على المعنيين جميعًا.

فقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ فيه إشارة إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سوف يناله أذى؛ إما بالقول وإما بالفعل، قد يؤذى بالفعل؛

فِيضْرَبُ، وَيُحْرَقُ مَالُهُ، وَيُضْرَبُ وَلَدُهُ، وَيُنْهَبُ مَالُهُ، الْمَهْمُ لَا بُدَّ مِنْ أَذِيَّةٍ.

قال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] والصبرُ على ما أصابه ليس معناه أن يصبرَ على المصيبة التي مضت ثم يُحْجَمَ عن الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر؛ بل المعنى: اصبرْ على الأمرِ بالمعروفِ وإن أصابك ما تكره، اصبرْ فالعاقبة للمتقين، ولا بُدَّ أن تكونَ العاقبةُ للأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، مع الإخلاص والتقوى.

وهنا ثلاثة أمورٍ تشبه على كثيرٍ من النَّاسِ؛ الدعوة، والأمر، والتغيير، وكلُّ هذه الأمورِ الثلاثة بينَ الله تعالى حكمها في القرآن، وبعضها في السنة؛ فالدَّعوة قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] ما فيها ذكرُ (أمر) أبداً، بل فيها دعوة بأن ترغِبَ النَّاسَ بالخيرِ وتحذِّرهم من الشرِّ، فتقوم مثلاً في جمعٍ من المُسْلِمِينَ وتحثُّهم على عملٍ صالحٍ؛ كالصَّلاة، والزكاة، والصَّيام، وغير ذلك، فهذا يُسمَّى دعوة.

فلو وجدت إنساناً أخلَّ في شيءٍ لا تأمره بأن يفعلَه، بل تقول: إن الإنسانَ الَّذي يفعلُ كذا يناله من الثوابِ كذا، وتذكِّره بالثوابِ، وبالعقابِ إذا خالفَ، فهذه دعوة، وهذه قال فيها الله تعالى: ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾.

والحكمة هي أن يضعَ الشَّيْءَ مواضعه.

ويختلف المدعوون في المخاطبة، فمن النَّاسِ مَنْ تقتضي الحالُ أن يُخاطَبَ بالأدلة السَّمْعِيَّة؛ وهي القرآنُ أو السنة، ويقتنع بها، ومن النَّاسِ مَنْ لا تكفيه الأدلة السَّمْعِيَّة، ولا يقتنع بها، فهذا يُخاطَبُ بالأدلة العقلية. ولهذا نجد في القرآن الكريم آياتٍ كثيرة كلها تُقنِعُ المعارضين بالعقل، نذكر بعضها، والآياتُ كثيرةٌ.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فهذا دليلٌ عقليٌّ على إمكان الإعادة؛ فالَّذي يبدأُ الخلق لا يعجز عن إعادته؛ إذ الإعادة أهون، وهذا دليلٌ عقليٌّ لا يمتري فيه أحدٌ.

ولو نظرنا أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، فهذا دليلٌ عقليٌّ؛ هل الإنسانُ خلقٌ من غير خالقٍ؟ الجواب: لا؛ لا بُدَّ أن يكون له مُحدثٌ.

فَمَنْ الَّذِي أحدثه قبل أن يكون؟ هل هو أحدث نفسه؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؟ الجواب: لا؛ لم يُحدث نفسه؛ لأنَّه قبل أن يوجد عدمٌ، والعدم لا يوجد نفسه.

فهل أحدثه أبوه وأُمُّه؟ الجواب: لا.

لَكِنْ أَلَيْسَ لَوْلَا أَنَّ أَبَاهُ غَشِيَ أُمَّهُ لَمْ يَأْتِ الْوَلَدُ؟

الجواب: بلى، لكن هذا سبب، والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٥٠]، فأُمُّه وأبوه لم يُوجداه.

إِذَنْ الَّذِي أوجدَهُ هو خالقُ كُلِّ شَيْءٍ، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، ولهذا لما سمعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو من أسرى بدرٍ، لما سمعَ النَّبِيَّ ﷺ يقرأ في المغرب هذه السورة، ووصل إلى هذه الآية، قال: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»^(١)، من شدة اليقين والتصديق، ووقر الإيمان في قلبه، وأسلم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كما هو معروفٌ. فهذا دليلٌ عقليٌّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة والطور، رقم (٤٨٥٤)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب القراءة في المغرب، رقم (٤٦٣).

مثال ثالث: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، وكان يعرض بالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأن أولاده الذكور كلهم ماتوا، وقال: ﴿لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَا وُلَدًا﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]. فهذا دليل عقلي؛ يُعرف بالسُّبْر والتقسيم: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ﴾ يعني هل عنده علم من غيبٍ بأن الله تعالى سيؤتيه المال والولد ﴿أَمْ أَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾؛ أعطاه الله عهدًا بأنه سيؤتيه ما لا وولداً؟

الجواب: لا هذا ولا هذا، إذن دعواه باطلة؛ لأنه ليس لها دليل.

الخلاصة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] الحكمة وضع الشيء في موضعه.

ومن الناس من تكون الحكمة في دعوته بذكر الأدلة السمعية؛ القرآن والسنة، ويقتنع ويقول: سمعنا وأطعنا، ومن الناس من لا يقتنع بهذا، فلا بُدَّ من أن نذكر الأدلة العقلية.

ولهذا أحثُّ إخواني طلبة العلم على أن يكون لهم عناية بالأدلة العقلية، لا سيما في هذا الزمن الذي كثر فيه الإلحاد، وصار غالب المعاندين يعتمدون على الأدلة العقلية، لكن إذا كان الشعب شعب إيمان واستسلام فيُكْتَفَى فيه بالأدلة السمعية.

سألت امرأة عائشة أم المؤمنين - رضي الله تعالى عنها - قالت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قالت: لستُ بحرورية، ولكنني أسأل. قالت: «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ،

وَلَا تُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(١).

فالحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، والخوارج يقولون: تقضي الصوم والصلاة؛ لأنهم مُتَشَدِّدُونَ. والحرورية لقب للخوارج؛ لأنهم خرجوا من مكان يُسمى حروراء بظاهر الكوفة.

هَذَا دَلِيلٌ سَمْعِيٌّ، فَاقْتَنَعْتُ الْمَرْأَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

أَمَّا الَّذِي يَقُولُ: لِمَاذَا يَكُونُ هَذَا وَاجِبًا؟ وَلِمَاذَا يَكُونُ هَذَا مُحَرَّمًا؟ ثُمَّ إِذَا قُلْتَ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِكَذَا؛ قَالَ: هَلِ الْأَمْرُ لِلْجَوَابِ أَوْ لِلِاسْتِحْبَابِ أَوْ لِلِإِبَاحَةِ؟ سَبْحَانَ اللَّهِ! يُقَالُ: أَمَرَ الرَّسُولُ، فَتَقُولُ: الْأَمْرُ لِلِاسْتِحْبَابِ أَمْ لِلْجَوَابِ؟ الْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، فَافْعَلْ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ، ثُمَّ الثَّوَابُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

نعم، إذا وقع الإنسانُ في المخالفة حينئذٍ له أن يسأل؛ يقول: هل الأمر للوجوب فيحتاج إلى توبة واجبة أو للاستحباب؟ أما حينما يُقال له: أَمَرَ الرَّسُولُ بِكَذَا، فالواجب الاستسلام.

وَلِهَذَا لَمَّا حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ إِلَيْهَا». فَقَالَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعَهُنَّ. فَأَقْبَلَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصلاة، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (٣٣٥).

عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا، يَقُولُ الرَّأْيِيُّ: مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَقَالَ: أَخْبِرْكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَتَقُولُ: وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ! ^(١). وَمَا كَلَّمَهُ عَبْدُ اللَّهِ حَتَّى مَاتَ ^(٢).

وإنما قال ذلك ابنه بناءً على ما رأى من النساء من التبرُّج، وعدم التقيد بما أمر به النبي ﷺ في قوله: «لِيُخْرِجَنَّ وَهْنَ تَفَلَّاتٍ» ^(٣).

فشدّد عليه في ذلك لأنّ الواجب على المؤمن إذا سمع عن الله ورسوله، أن يقول: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. فإذا أمر الرسول بكذا، فعلى العين والرأس، لكن حينما يقع في المخالفة؛ فله الحق أن يقول: أوجب هو فأجدد توبةً واجبة أم هو أمر على سبيل الاستحباب فيكون أمره أخفّ.

فإن سأل سائل فقال: لحم الإبل إذا أكلت منه وأنا على وضوء، هل يجب عليّ أن أجدد الوضوء؟

قلنا له: نعم، يجب عليك أن تتوضأ؛ لأن النبي ﷺ أمر بالوضوء.

فقال: الأمر للاستحباب، فنقول له: ما الذي أعلمك أنه للاستحباب؟

قال: والله لأنني لا أعرف معنى معقولاً؛ لماذا أتوضأ من لحم الإبل وجوباً ولا أتوضأ من لحم الغنم؟ ما الفرق؟ فما جوابنا على هذا؟

جوابنا: أن النبي ﷺ فرّق بينهما، وما دام قد فرّق بينهما رسول الله ﷺ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم (٤٤٢/١٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦/٢).

(٣) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما جاء في خروج النساء إلى المسجد، رقم (٥٦٥). وتفلّات: غير متطيبات.

فلا بُدَّ أن يكونَ بينهما فرقٌ؛ والفرقُ أنَّه سُئِلَ: أَتَوَضَّأُ مِنْ حُومِ الْغَنَمِ؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ». قَالَ: أَتَوَضَّأُ مِنْ حُومِ الْإِبِلِ؟ قَالَ: «نَعَمْ فَتَوَضَّأْ مِنْ حُومِ الْإِبِلِ»^(١).

أخذنا من هذا أن قوله في لحم الإبل: «نَعَمْ» يعني الوجوب؛ لأنَّه قال في لحم الغنم: «إِنْ شِئْتَ»، ولو كان الأمرُ لغير الوجوب في لحم الإبل لكان داخلا تحت المشيئة؛ إن شاء الإنسانُ تَوَضَّأَ وإن شاء لم يتَوَضَّأْ؛ لأن الأمرَ المستحبَّ ليس أمراً حتماً على الإنسان، بل له أن يتركه.

إذن لا حاجة أن نقول: ما الفرقُ؛ لأنَّا لو فَتَحْنَا على أنفسنا هذا البابَ لَقَالَ قائلٌ: لماذا كانت الظُّهْرُ أربعَ ركعاتٍ، ولم تكن ثمان ركعاتٍ؟ فهذه أمورٌ علينا فيها الاستسلامُ والسَّمْعُ والطَّاعةُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الوضوء من لحوم الإبل، رقم (٣٦٠).

الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ.

وَالْهُدَى هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ، وَدِينُ الْحَقِّ هُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

فَبَلِّغِ الرِّسَالَةَ، وَأَدِّى الْأَمَانَةَ، وَنَصِّحِ الْأُمَّةَ، وَجَاهِدِ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، فَصَلِّوْا لِلَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هَذِهِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا، وَهِيَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَيَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَعْلَمُ مِنْ حَالِ الْعَبْدِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَبْدُ -اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ [ق: ١٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥].

إن الله يعلم من حالك ما لا تعلمه أنت، إن الله يعلم مستقبلك وحاضرَكَ وماضيك، ولما قال فرعون لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١]؟ أجاب: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]، لا يَضِلُّ يعني لا يجهل، فهو عالمٌ بها تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا ينسى ما علم، فعلمه عَزَّوَجَلَّ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، أزلي في السَّابِقِ، أبدي في المُسْتَقْبَلِ، فهو جَلَّ وَعَلَا بكلِّ شيءٍ عليمٌ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ والأرض إما بَرٌّ وإما بحرٌ، فالله تعالى يعلم ما في البرِّ والبحر، و(ما) هنا اسمٌ موصول، تفيدُ العمومَ، أي إنه يعلم كلَّ شيءٍ في البرِّ والبحر، قَرَبَ أو بَعُدَ.

قوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أي ورقة تسقط من أي شجرة كانت في أي مكانٍ كانت، وفي أيِّ زمانٍ، فإن الله تعالى يعلمها، وإذا كان الله تعالى يعلم الأوراق الساقطة من أشجارها، فعلمه بالأوراق المخلوقة من بابٍ أولى، فإذا كانت الورقة إذا سقطت علمها الله عَزَّوَجَلَّ متى سقطت، وفي أيِّ مكانٍ سقطت، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَالِمٌ بالأوراق المخلوقة؛ لأنَّ الله تعالى خالقُ كلِّ شيءٍ.

قوله: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ أي ما من حبةٍ في ظلمات الأرض إلا ويعلمها عَزَّوَجَلَّ. و(ظلمات الأرض): ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة القاع، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، فإذا فرضنا أن حبة صغيرة لا يُدرِكها الطرف، قد غاصت في قاع البحر، في ليلة مظلمة، في ليلة ممطرة، فالظلمة الأولى في هذه الحبة هي ظلمة الطين التي هي غائصة فيه، والظلمة الثانية ظلمة ماء البحر، والظلمة

الثَّالِثَةُ ظِلْمَةُ اللَّيْلِ، وَالظِّلْمَةُ الرَّابِعَةُ ظِلْمَةُ السَّحَابِ، وَالظِّلْمَةُ الْخَامِسَةُ ظِلْمَةُ الْمَطَرِ، فَهَذِهِ الظُّلُمَاتُ، وَرَبِّمَا يَكُونُ هُنَاكَ ظُلُمَاتٌ أُخْرَى، فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ حَبَّةٌ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا، فَمَا بِالْكَ بِمَا كَانَ ظَاهِرًا.

إِذْنُ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

وَفِي آخِرِ الْآيَةِ قَالَ: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِمَّا رَطْبَةً وَإِمَّا يَابِسَةً، فَمَا مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَالكِتَابُ الْمُبِينُ هُوَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ، وَهُوَ لَوْحٌ عَظِيمٌ، لَا نَعْلَمُ مِنْ أَيِّ مَادَّةٍ هُوَ، وَلَا يَعْلَمُ قَدْرُهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، لَكِنَّهُ لَوْحٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ، كَتَبَ اللَّهُ فِيهِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَبَدِ»^(١).

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، الْقَلَمُ مِنْ أَيِّ مَادَّةٍ هُوَ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ، هَذَا مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَمْ نُخْبَرْ عَنْهَا، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُصَدِّقَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، سِوَاءَ عِلْمٍ وَجْهَ ذَلِكَ أَمْ لَمْ يَعْلَمْ، وَاللُّوحُ الْمَحْفُوظُ أَيْضًا مَا نَدْرِي مِنْ أَيِّ مَادَّةٍ هُوَ؛ لِأَنَّ عِلْمَ هَذَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْقَلَمُ أَمْرٌ بِالْكِتَابَةِ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ وَالْقَلَمُ لَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْ تَنْفِيزِ الْأَمْرِ، وَالْأَمْرُ هُنَا مَجْمَلٌ: اكْتُبْ، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ: مَاذَا أَكْتُبُ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ مُسْتَعِدٌّ لِلْكِتَابَةِ لَكِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا الَّذِي يَكْتُبُ، قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

هَذَا الْكِتَابُ -أَعْنِي اللُّوحَ الْمَحْفُوظَ- كُتِبَ فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ، فَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السَّنَةِ، بَابُ فِي الْقَدْرِ، رَقْمُ (٤٧٠٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ ن، رَقْمُ (٣٣١٩).

لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فإذا نزل القضاء والقدر فلا تقل: ليتني لم أفعل، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، إن الأمر لا يمكن أن يتغير عما وقع، فما كان فلن يتغير ولن يتقدم ولن يتأخر.

والإنسان مأمورٌ بفعل الأسباب الواقية قبل وقوع الشيء، أما بعد وقوع الشيء فليس له إلا التسليم، ولا يمكن أن يتغير، فتغيير الحال الواقع من المحال، ولكن الإنسان مأمورٌ بأن يفعل الأسباب.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ»^(١).

والآن إلى الآية التي نحن بصددِها:

فسر النبي عليه الصلاة والسلام مفاتيح الغيب فقال: «خمسٌ لا يعلمها إلا الله». وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

قال: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ والمراد الساعة العظمى، الساعة التي قال الله عنها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفًا رَبُّكُمْ﴾ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩)، واللفظ لأحمد (٢٤/٢).

سُكَّرِي وَمَا هُمْ بِسُكَّرِي وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ [الحج: ١-٢].

يعني الناس في انزعاجهم واختلاف تصرفهم تراهم سكارى؛ أي كالسكارى، وما هم بسكارى، ولكن أذهلهم العذاب الشديد.

وهنا قال: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، والمعروف أن الوصف الخاص بالمرأة لا يحتاج إلى ذكر التاء، وهذه قاعدة نحوية عربية: كل وصف يختص بالمرأة لا يحتاج إلى التاء الفارقة؛ لأن تاء التأنيث يُؤتى بها للفرق بين المذكر والمؤنث، فالوصف الخاص بالأنثى لا يحتاج إلى التاء، فالمرأة يكون في بطنها الجنين نقول: هي امرأة حامل، وليس حاملة؛ لأن الوصف مختص بالأنثى، فلا يوجد رجال يحملون أبدأ، وهذا خاص بالأنثى. ولا نقول: امرأة حامل متاعها، فهذا خطأ، بل نقول: امرأة حاملة؛ لأن حمل المتاع مشترك بين الرجال والنساء.

وكذلك مرضع، فالمرضع خاص بالمرأة، فلماذا قال هنا: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، مع أن المرضع خاص بالأنثى، قال العلماء: إذا قصد الفعل دون الوصف جاءت التاء، فالمعنى: كل مرضعة أي ترضع طفلها بالفعل، تذهل عنه، ومع أنه يرضع منها فإنها تذهل، لكن امرأة مرضع وإن كان الولد بعيداً عنها نقول: هي مرضع، وهذا وصف، فإذا قصد الفعل جاءت التاء.

أقول: هذه الساعة التي علمها عند الله، لو أن أحداً من الناس ادعى أن الساعة سوف تقوم في القرن العشرين فإن هذا لا يصح، ونقول له: كاذب، كاذب، فلا يمكن لأحد أن يعلم متى تقوم الساعة أبدأ؛ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولهذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، رقم (٩).

فإذا كان أشرف البشر لا يعلمها، وأشرف الملائكة لا يعلمها، فمن دونهما من باب أولى، إذن علم الساعة عند الله وحده عز وجل، ولا أحد يمكن أن يعلم الساعة متى تقوم، ومن ادعى علم الساعة فهو كافر كاذب؛ لأنه مكذب للقرآن.

قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ أي المطر الذي يُغاث به الناس، فهناك مطر لا يغاث به الناس؛ قال النبي ﷺ: «لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمَطَّرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمَطَّرُوا وَتُمَطَّرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»^(١)، سبحان الله! ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ دون: وينزل المطر؛ لأن المطر قد ينفع وقد لا ينفع.

ولهذا أحياناً تجد الأمطار تكثر ولكن لا تنبت الأرض شيئاً، أو تنبت شيئاً قليلاً لا يقابل ما حصل من الأمطار، وأحياناً تنزل أمطاراً قليلةً ويجعل الله فيها بركة كثيرة فتنبت الأرض وتخصب.

إذن ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ يعني: ينزل المطر الذي يُغاث به الناس، ولا أحد يقدر على هذا، قيل: إنهم حاولوا أن يُنشئوا سحباً صناعياً كما صنعوا اللبن الصناعي، فيحاولون أن يجعلوا سحباً صناعياً، ولو قدر في سنواتٍ مستقبلية أن ذلك كان فلا يكون به الغيث، ولا ندري الآن ماذا يكون، لكن لو فرض أن أحداً من هؤلاء آتاه الله علماً في أمور الدنيا واستطاع أن ينشئ بخاراً ويكثفه ثم يسلط عليه مواداً تنزل الماء، لو فرض هذا فنقول: هذا الماء الذي ينزل لا يمكن أن يكون به الغيث، وهذه هي الحكمة في قوله جل وعلا: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (ما) اسم موصول يفيد العموم، أي يعلم كل

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم

ما في الأرحام، و(أل) في الأرحام تفيدُ التعريفَ، لكن من حيث المعنى تفيدُ العمومَ، أي كلِّ رحمٍ. فالذي يعلمُ جميعَ ما في الأرحامِ وفي كلِّ رحمٍ هو الله، ولا أحدٌ يعلمُ ما في الأرحامِ.

لكن ما هي جهة العلم المقصودة؟ هل المراد: ذكرٌ هو أو أنثى؟

الجواب: لا؛ لأنه لا يعلمُ أذكراً هو أم أنثى في الرحمِ من سوى الله عزَّ وجلَّ، فالملكُ الموكَّلُ بالأرحامِ إذا أراد الله أن يخلق الجنينَ ووَكَّلَ به الملكَ يقولُ الملكُ: يا ربِّ، أذكرٌ أم أنثى؟ فيقولُ: ذكرٌ أم أنثى، وحينئذٍ يكونُ عندَ الملكِ علمٌ أيضاً.

وتوصل الناسُ الآنَ بواسطة الأشعة الدقيقة إلى أن يعلموا أن الذي في الرحمِ ذكرٌ أو أنثى، وحينئذٍ تبين أنه ليس المقصودُ من الآية الذكورة والأنوثة، لكن المقصودُ شيءٌ آخر؛ فهذا الذي في الرحمِ هل أحدٌ يعلمُ أنه سيخرجُ حياً أو ميتاً؟ فهذا لا يمكنُ، وهل أحدٌ يعلمُ أنه إذا خرجَ ستطولُ مدته في الدنيا أو تقصرُ؟ لا، وهل أحدٌ يعلمُ أن هذا الجنينَ سيكونُ غنياً أو فقيراً؟ وهل يعلمُ أنه سيكونُ باراً أو فاجراً؟ لا، إذن متعلقاتُ العلمِ كثيرةٌ ولا يعلمها إلا الله.

قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نفسٌ نكرةٌ في سياقِ النَّفي، وقد قال العلماءُ: إن النكرة في سياقِ النَّفي تفيدُ العمومَ، إذن أي نفسٍ لا تدري ماذا تكسبُ غداً، أي ماذا تحصلُ عليه، وإن كان الإنسانُ يقدرُ أنه سيفعلُ غداً كذا وكذا، ولكنه ليسَ عنده علمٌ بأن ذلك سيحصلُ، ومن ثم جاء التعبيرُ بالكسبِ دون الفعلِ.

ولذلك كان لا يجوزُ للإنسانِ أن يقولَ: إني فاعلٌ ذلك غداً إلا مقروناً بمشيئةِ الله، يعني لا تجزم وتقولُ: غداً سأفعلُ كذا، على أنك ستفعله فعلاً، بل قل: إن شاء

الله، فإن لم تقل: إن شاء الله فقد عصيت ربك: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣-٢٤]، أما إذا كنت تخبر عما تريد أن تفعل فلا بأس، فإذا قال لك مثلاً: متى تسافر؟ قلت: تسافر غداً تخبر خبراً فليس معنى ذلك أنك تجزم بأنك ستسافر؛ لأنه ربما يعرض لك عارض فتسافر قبل غد، وربما يعرض لك عارض فتتأخر عن غد، فأنت الآن مخبر عما في ضميرك، فلا يلزمك أن تقول: إن شاء الله.

وانتبهوا لهذا الفرق؛ لأن بعض الناس يشتبه عليه، فإذا أردت أن تخبر عن شيء ستفعله غداً فلا يلزمك أن تقول: إن شاء الله؛ لأنك تخبر عما في ضميرك، وما في ضميرك أمر كائن، لكن إذا قلت: إني فاعل ذلك غداً بمعنى أنك ستفعله فعلاً، فهذا لا يجوز، إلا أن تقول: إن شاء الله؛ لأنك قد تحصل على هذا وقد لا تحصل.

إذن لا تعلم نفس ماذا تكسب غداً، فالإنسان يقدر ويقول: سأفعل وسأفعل وسأفعل، وإذا به تُصرف همته عما أراد، أو يُحال بينه وبين ما أراد.

فأنت الآن تقدر أنك ستفعل كذا وكذا، لكن أنت لا تجزم بأنك ستفعل؛ لأنه ربما تُصرف الهمّة؛ كما هو مجرب؛ يكون الإنسان جازماً على أن يفعل كذا ويفعل كذا، وإذا به يُصرف، ويكون جازماً على الفعل مستعداً له وإذا بالمانع يحصل، وهذا المانع إما قدرّي وإما شرعي. فإذاً لا تقولن لشيء: إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله.

سئل أعرابي -والأعرابي هو البدوي، والغالب على أهل البدو أنهم على فطرهم - قيل له: بم عرفت ربك؟ قال: بنقض العزائم وصرف الهمم.

يعني الإنسان دائماً يعزّم على الشيء وإذا به تتقضّ عزمته بدون أي سبب ظاهر، والذي نقض العزيمة هو الله عزّوجلّ، وكذلك صرفُ الهمم، فيكون الإنسان هاماً بشيء وإذا به ينصرف عنه بدون سبب معلوم، وهذا من علامات أن للكون مدبراً فوق إرادة العبد.

وسئل أعرابيٌّ آخر: بمَ عرفتَ ربّك؟ فقال: «الأثرُ يدلُّ على المسير» يعني إذا وجدتَ على الأرضِ أثرَ قدمٍ عرفتَ أنه قد سارَ على هذا سائرٌ من النَّاسِ، «والبصرةُ تدلُّ على البعير» إذا وجدتَ بصرةً عرفتَ أنه قد مرَّ بهذا بعيرٌ، «فسماءُ ذاتُ أبراجٍ، وبحارُ ذاتُ أمواجٍ، وأرضُ ذاتُ فجاجٍ، ألا تدلُّ على السميعِ البصيرِ؟»^(١) الجوابُ: بلى والله.

فالحاصلُ أن كلَّ نفسٍ لا تدري ماذا تكسبُ غداً.

قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فلا أحدٌ يدري أنه سيموتُ في المكانِ الفلاني، ولا يمكنُ أن يعلمَ، فلا يدري أيموتُ في بيته أو في السوقِ أو في المسجدِ، أو في بلدٍ آخر، أو في الجوِّ أو في البحرِ، وكثيرٌ من النَّاسِ يكونُ في بلده آمناً مطمئناً، ولا يطرأ على باله إطلاقاً أن يسافرَ عنه، وإذا حانَ الأجلُ نُقلَ قهراً عليه إلى المكانِ الذي قدَرَ الله أن يموتَ فيه، والإنسانُ ما يدري، فقد تحصلُ حواصلُ في الطرقِ فيموتُ الإنسانُ في الطريقِ؛ هذا الطريقُ الذي ليسَ يعرفه، ولا قدَرَ أنه يبقى فيه، فيتغدّى أو يتعشى الإنسانُ في مكانٍ ما قدَرَ أن يبقى فيه وإذا بالمنيةِ توافيه في هذا المكانِ.

إذن لا أحدٌ يدري بأيِّ أرضٍ يموتُ، ولا أحدٌ يدري بأيِّ زمنٍ يموتُ؛ لأنه

إذا انتفى علم الإنسان بمكان وفاته فانتفاء علمه بزمان وفاته من باب أولى؛ لأن المكان يتصرف الإنسان فيه، فيمكن أن يمكث هنا أو هنا، لكن الزمان ما يتصرف فيه.

فالحاصل أن الله تعالى عنده مفاتيح الغيب في هذه الخمس.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١﴾ عليم من أسماء الله، وخبير من أسماء الله، والفرق بينهما أن الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، والعلم يشمل العلم بالظواهر والبواطن، فتكون الخبرة أخص من العلم.

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ هِيَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ؛ وَسُمِّيَتْ مَفَاتِحَ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا فَاتِحَةٌ لِشَيْءٍ بَعْدَهُ. فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فَالسَّاعَةُ، فَاتِحَةٌ لِلْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ النِّهَايَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وَالْغَيْثُ، فَاتِحَةٌ لِحَيَاةِ النَّبَاتِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فَاتِحَةٌ لِحَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فَاتِحَةٌ لِلزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فَاتِحَةٌ لِقِيَامَةِ كُلِّ إِنْسَانٍ بِحَسَبِهِ.

فَعِلْمُ السَّاعَةِ هُوَ الْقِيَامَةُ الْعَامَّةُ، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قِيَامَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّ مَنْ مَاتَ قَامَتْ قِيَامَتُهُ.

أَوَّلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

عِلْمُ السَّاعَةِ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُدْرِكَهُ إِلَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهِيَ هُوَ أَفْضَلُ الرِّسَالِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَسْأَلُ أَفْضَلَ الرِّسَالِ مِنَ الْبَشَرِ مُحَمَّدًا ﷺ، وَيَقُولُ لَهُ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ: «مَا الْمَسْئُورُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ»^(١)، أَي: عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِيهَا سَوَاءٌ، فَكَمَا أَنَّكَ لَا تَعْلَمُهَا، فَأَنَا كَذَلِكَ لَا أَعْلَمُهَا؛ وَلِهَذَا مَنْ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعَةِ فَهُوَ مُكَذِّبٌ لِلْقُرْآنِ، وَمُكَذِّبٌ لِللسَّانَةِ، وَمُكَذِّبٌ لِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ، وَخَارِجٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

فَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِتَكْذِيبِهِ الْقُرْآنَ وَالسَّنةَ وَإِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ^(١)، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ يُفِيدُ الْحَصَرَ؛ لِأَنَّ مِنْ طُرُقِ الْحَصْرِ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ.

أَمَّا مَنْ يُصَدِّقُ مَنْ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعَةِ فَإِنَّهُ يَكْفِرُ؛ لِأَنَّ مَنْ صَدَّقَ مَا يُكَذِّبُ الْقُرْآنَ أَوْ السَّنةَ فَقَدْ كَذَّبَ الْقُرْآنَ وَالسَّنةَ، وَعَلَى هَذَا فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تُصَدَّقَ شَخْصًا يَدَّعِي أَنَّهُ يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ، وَمَنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ كَافِرٌ لِتَكْذِيبِهِ الْكِتَابَ وَالسَّنةَ وَإِجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ لِلَّسَّاعَةِ عِلَامَاتٌ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْثَةٌ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

ثَانِيًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾.

وَاللَّهُ لَمْ يَقُلْ: «يَعْلَمُ نُزُولَ الْغَيْثِ»، بَلْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، وَإِذَا كَانَ تَنْزِيلُ الْغَيْثِ لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ، فَعِلْمُ نُزُولِهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي السَّاعَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، وَفِي الْغَيْثِ قَالَ: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ دُونَ أَنْ يَقُولَ: «وَيَعْلَمُ نُزُولَ الْغَيْثِ»؟

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣/ ٥١٨).

قُلْنَا: الْحِكْمَةُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ، وَيَسْتَفِيدُ مِنْهُ النَّاسُ وَيَلْمُسُونَهُ بِأَيْدِيهِمْ هُوَ الْغَيْثُ، وَنُزُولُ الْغَيْثِ يَكُونُ مِفْتَاحًا لِحَيَاةِ الْأَرْضِ، فَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَنْزِلُ الْمَطَرُ إِلَّا اللَّهُ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُنْزِلُ الْمَطَرَ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ هُوَ اللَّهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: نَسْمَعُ فِي الْإِذَاعَاتِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: سَيَنْزِلُ غَدًا مَطَرٌ فِي جِهَاتٍ مُعَيَّنَةٍ، فَهَلْ هَذَا يُنَافِي أَنْ عِلْمَ نَزُولِ الْغَيْثِ خَاصٌّ بِاللَّهِ؟

فَالْجَوَابُ: هَذَا مِمَّا يُشْكِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، فَيُظَنُّ أَنَّ هَذِهِ التَّوَقُّعَاتِ الَّتِي تُذَاعُ فِي الْإِذَاعَاتِ تُعَارِضُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهَا لَا تُعَارِضُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ عِلْمَهُمْ بِهَذَا عِلْمٌ مُسْتَنَدٌ إِلَى مُحْسُوسٍ لَا إِلَى غَيْبٍ، وَهَذَا الْمُحْسُوسُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ حَكِيمٌ، وَمِنْ حِكْمَتِهِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ مَرْبُوطَةٌ بِأَسْبَابِهَا، لَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْأَسْبَابُ مَعْلُومَةً لِكُلِّ أَحَدٍ، وَقَدْ تَكُونُ مَعْلُومَةً لِبَعْضِ النَّاسِ، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ مَعْلُومَةٍ لِأَحَدٍ، فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ سَبَبَ كُلِّ شَيْءٍ وَحِكْمَةَ كُلِّ شَيْءٍ.

فَالْمَطَرُ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْزَالَهُ، فَإِنَّ الْجَوَّ يَتَغَيَّرُ تَغْيِيرًا خَاصًّا يَتَكُونُ مَعَهُ السَّحَابُ، ثُمَّ نُزُولُ الْمَطَرِ، كَمَا أَنَّ الْحَامِلَ عِنْدَمَا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُخْرِجَ مِنْهَا الْوَلَدَ يَنْشَأُ الْجَنِينَ فِي بَطْنِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ، فَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ مَرَاصِدُ دَقِيقَةٍ يَعْلَمُونَ بِهَا أَنَّهُ سَيَكُونُ مَطَرٌ؛ وَلِهَذَا نَجِدُهُمْ لَا يَتَجَاوَزُ عِلْمُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ سَاعَةً، أَوْ عَلَى مَدَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَعِلْمُهُمْ مُحْدُودٌ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَسْبَابٍ حِسِّيَّةٍ لَا تُدْرِكُ إِلَّا بِوَاسِطَةِ هَذِهِ الْأَلَاتِ.

وَنَحْنُ بِحُسْنِ الْقَاصِرِ إِذَا رَأَيْنَا أَنَّ السَّمَاءَ مُلْبَدَةٌ بِالْغُيُومِ، وَرَأَيْنَا هَذَا السَّحَابَ

يَرْعُدُ وَيَبْرُقُ فَتَتَوَقَّعُ نُزُولَ الْمَطَرِ، وَهُمْ كَذَلِكَ يَتَوَقَّعُونَ إِذَا رَأَوْا مِنَ الْجَوِّ تَكْيِفاً مُعِينًا يَصْلُحُ مَعَهُ أَنْ يَكُونَ الْمَطَرُ، وَحِينَئِذٍ لَا مُعَارَضَةَ بَيْنَ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْوَاقِعِ، وَهُمْ أَيْضًا يَتَوَقَّعُونَ تَوَقُّعًا رَبِّيًّا يُحْطِئُونَ فِيهِ وَرَبِّيًّا يُصِيبُونَ.

ثَالِثًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، (مَا) اسْمٌ مُوصُولٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ، وَتَعَلَّقُ الْعِلْمُ بِهَذَا الْعَامِّ هُوَ تَعَلُّقٌ عَامٌّ أَيْضًا، فَعِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى عِلْمِ كَوْنِهِ ذَكَرًا، أَوْ أُنْثَى، وَاحِدًا أَمْ مُتَعَدِّدًا، بَلْ عِلْمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ أَشْمَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَشْمَلُ كَوْنَهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا، وَيَشْمَلُ كَوْنَهُ يُخْرَجُ حَيًّا أَوْ يُخْرَجُ مَيِّتًا، وَيَشْمَلُ أَيْضًا أَنَّ هَذَا الْجَنِينَ سَيَبْقَى مَدَّةً طَوِيلَةً فِي الدُّنْيَا، أَوْ مَدَّةً قَصِيرَةً، وَيَشْمَلُ أَنَّ هَذَا الْجَنِينَ سَيَكُونُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ، أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ، وَيَشْمَلُ أَنَّ هَذَا الْجَنِينَ سَيَكُونُ عَالِيًا أَوْ جَاهِلًا، فَكُلُّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْجَنِينَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فَهُوَ شَامِلٌ عَامٌّ، وَهَذَا الْعِلْمُ خَاصٌّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَيُشْكَلُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ تَوَصَّلَ الطَّبُّ إِلَى أَنْ يَعْلَمَ مَا فِي بَطْنِ الْأُنْثَى، أَنَّ الْجَنِينَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَهَلْ يُعَارِضُ هَذِهِ الْآيَةَ؟

الْجَوَابُ: إِذَا عُلِمَ بِمَا فِي بَطْنِ الْحَامِلِ أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، فَإِنَّهُ لَا يُعَارِضُ الْآيَةَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، أَمَّا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ الْعِلْمَ بِأَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى.

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا خُلِقَ ذَكَرًا، أَوْ أُنْثَى، فَهَلْ يَكُونُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، أَمْ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ؟

قُلْنَا: هُوَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ، وَمِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ عِنْدَ مَنْ يَحْصُلُ لَهُ الْعِلْمُ بِذَلِكَ، فَالْمَلِكُ يُرْسِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الرَّحِمِ، فَيَقُولُ الْمَلِكُ: يَا رَبِّ، ذَكَرٌ

أَمْ أَنْتَى؟ وَيُعَلِّمُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، فَيَأْمُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا أَرَادَ، فَصَارَ هَذَا عِلْمَ شَهَادَةٍ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَلِكِ، لَكِنْ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَهُوَ عِلْمٌ غَيْبٍ حَتَّى لِلْمَلَائِكَةِ، فَكَوْنُهُ يَكُونُ عِلْمَ شَهَادَةٍ بِوَاسِطَةِ تَقَدُّمِ الطَّبِّ لَا يُعَارِضُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ.

ثَانِيًا: ذَكَرْنَا أَنَّ عِلْمَ مَا فِي الْأَرْحَامِ لَا يَخْتَصُّ بِعِلْمِ كَوْنِهِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى؛ وَلِهَذَا لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنْ يَقُولَ: هَذَا الْجَنِينُ سَوْفَ يَخْرُجُ وَيَبْقَى مُدَّةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً، وَيَكُونُ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا، عَالِمًا أَوْ جَاهِلًا، طَوِيلًا أَوْ قَصِيرًا؛ لِأَنَّ هَذَا أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَفِي هَذَا تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ الْأَطْبَاءُ الْيَوْمَ مِنْ إِمْكَانِ مَعْرِفَةِ الْجَنِينِ أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، لَا يُعَارِضُ الْآيَةَ.

فَائِدَةٌ:

مَا صَحَّ مِنَ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَارِضَ الْوَاقِعَ، فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَصَحَّتْ بِهِ السُّنَّةُ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَارِضَ الْوَاقِعَ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ تَعْبِيرُ (مَا صَحَّ مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ)، صَحِيحٌ أَمْ خَطَأٌ؟

قُلْنَا: التَّعْبِيرُ سَلِيمٌ، لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ: إِنَّ هَذَا التَّعْبِيرَ مُوْهَمٌ، نَقُولُ: كُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَصَحَّتْ بِهِ السُّنَّةُ، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُعَارِضَ الْوَاقِعَ، أَبَدًا؛ لِأَنَّ الْوَاقِعَ شَيْءٌ مُتَيَقَّنٌ، وَدِلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُعَارِضَ الشَّيْءَ الْمُتَيَقَّنَ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَذَرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ انْظُرِي إِلَى التَّعْبِيرِ: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ

غَدًا﴾ فَقَدْ يُرْتَبُ الرَّجُلُ عَمَلُهُ فِي الْمَكْتَبِ، وَيُرْتَبُ شُؤْؤُنُهُ، وَيَقُولُ: غَدًا أَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ

آتِي أَوَّلَ سَاعَةٍ مِنَ الْعَمَلِ، مِنْ وَقْتِ الدَّوَامِ، وَعِنْدِي الْمَعَامَلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، وَالْمَعَامَلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، وَالْمَعَامَلَةُ الْفُلَانِيَّةُ، يُرْتَّبُهَا، لَكِنْ لَا يَعْلَمُ هَلْ يَكْسِبُ هَذَا الَّذِي عِلْمُهُ، وَيَحْصُلُ لَهُ، أَوْ لَا؟ فَأَنْتَ قَدْ تَخَطَّطَ لِعَمَلٍ مُسْتَقْبَلٍ لَكِنْ لَا تَكْسِبُهُ، وَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَانِعٌ مِنْ مَوْتٍ، أَوْ مَرَضٍ، أَوْ شُغْلٍ آخَرَ تَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْكَمَ بِأَنَّهُ سَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ الْفُلَانِيَّةِ، وَقَدْ يَقُولُ الْإِنْسَانُ: لَنْ أَخْرَجَ مِنْ بَلَدِي، وَسَأَمُوتُ بِهَا، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَتِمُّ أَبَدًا، فَأَحْيَانًا يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي بَلَدٍ وَلَا يَخْرُجُ أَبَدًا مِنْ بَلَدِهِ، فَيَمْرُضُ، وَتُحْدِثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يُسَافِرَ لِلْعِلَاجِ، فَإِذَا وَصَلَ الْبَلَدَ الَّذِي قَرَّرَ أَنْ يَتَعَاطَلَ فِيهِ، مَاتَ فَوْرَ وُصُولِهِ.

فَإِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، فَمِنْ بَابِ أَوَّلَى لَا تَدْرِي بِأَيِّ زَمَنِ تَمُوتُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ لَهُ تَصَرُّفٌ فِي الْمَكَانِ، فَيُحَدِّدُ الْأَرْضَ الَّتِي يُحِبُّ أَنْ يَمُوتَ فِيهَا، فَإِذَا كَانَ لَا يَعْلَمُ هَذَا، فَمَا بَالُكَ بِالزَّمَنِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ تَحْدِيدَهُ أَبَدًا، فَالَّذِي لَا يَعْلَمُ الْمَكَانَ لَا يَعْلَمُ الزَّمَانَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى؛ وَلِذَلِكَ أَمْثَلُهُ:

الْمَثَالُ الْأَوَّلُ: رَاكِبَانِ عَلَى دَرَّاجَةٍ نَارِيَّةٍ يَمْرَانِ بِشَارِعٍ فَرْعِيٍّ، وَهَنَّاكَ سَيَّارَةٌ تَمُرُّ بِالْشَّارِعِ الْعَامِّ، فَلَمَّا رَأَى صَاحِبُ السَّيَّارَةِ هَذِهِ الدَّرَّاجَةَ، وَقَفَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَعْبَرَ الدَّرَّاجَةُ، وَالرَّاكِبَانِ عَلَى الدَّرَّاجَةِ النَّارِيَّةِ لَمَّا رَأَى السَّيَّارَةَ وَقَفَا لِتَعْبَرِ السَّيَّارَةُ، لَكِنَّهُ فِي خِلَالِ دَقِيقَةٍ أَوْ دَقِيقَتَيْنِ، تَحَرَّكَتِ السَّيَّارَةُ، وَتَحَرَّكَتِ الدَّرَّاجَةُ النَّارِيَّةُ وَاصْطَدَمَا، فَمَاتَ أَحَدُ الرَّاكِبَيْنِ، وَنُفِّسَ هَذَا أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي مَاتَ بَقِيَ لَهُ مِنْ عُمرِهِ دَقِيقَتَانِ أَوْ دَقِيقَةٌ،

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَعَبَرَ كُلُّ مِنَ السَّيَّارَةِ وَالْدَّرَاجَةِ النَّارِيَةِ بِسَلَامٍ، وَهَذِهِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «...أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا»^(١).

المثال الثاني: كَانَ النَّاسُ قَدِيمًا يَأْتُونَ إِلَى مَكَّةَ عَنْ طَرِيقِ الْبَرِّ عَلَى الْجِبَالِ، وَكَانَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَنْزِلُونَ جَمِيعًا، وَيَسِيرُونَ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الْبِلَادَ غَيْرُ آمِنَةٍ، فَخَرَجَ الْحُجَّاجُ إِلَى مَكَّةَ، وَكَانُوا يَمْشُونَ فِي الرِّيْعَانِ -جِبَالٍ وَأَوْدِيَةٍ- عَلَى حُدُودِ الْحِجَازِ مِنْ نَجْدٍ، وَكَانَ أَحَدُ الْقَوْمِ مَعَهُ أُمُّهُ مَرِيضَةٌ وَهُوَ يُمَرِّضُهَا، فَسَارَ النَّاسُ مِنْ مَكَانٍ نَزَلُ لَهُمْ لَيْلًا، وَهُوَ جَالِسٌ يُمَرِّضُ أُمَّهُ، وَيَمَهِّدُ لَهَا الْفِرَاشَ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَنَامَ عَلَى الرَّاحِلَةِ مُسْتَقَرَّةً، فَصَارَ الْقَوْمُ، وَلَمَّا اطمأنَّ مِنْ إِصْلَاحِ الرَّحْلِ لِأُمِّهِ مَشَى، وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ الْقَوْمَ؛ لِأَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا كَثِيرًا.

فَدَخَلَ فِي طَرِيقِ جَادَةٍ صَغِيرَةٍ مَعَ أَحَدِ الرِّيْعَانِ، وَصَارَ يَمْشِي وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى إِثْرِهِمْ حَتَّى ارْتَفَعَتِ الشَّمْسُ، وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْعَطَشِ، فَتَبَدَّى لَهُ خِيبَاءٌ بَدُو -يَعْنِي: خِيَمَةٌ صَغِيرَةٌ- فَاتَّجَهَ إِلَيْهَا، وَوَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَيْنَ طَرِيقُ الْحِجَاجِ؟ قَالُوا لَهُ: طَرِيقُ الْحِجَاجِ وَرَاءَكَ، لَكِنْ انْزِلِ أَنْتَ وَالْمَرْأَةُ مَعَكَ حَتَّى تَسْتَرِيحَ، وَنَذُلْكَ، فَنَزَلَ بِأُمِّهِ، وَمَا أَنْ وَضَعَ أُمَّهُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهَا.

فَمَنْ يَقُولُ: إِنَّ امْرَأَةً مِنَ الْقَصِيمِ تَأْتِي إِلَى الْحِجَازِ، إِلَى هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي قَدْ لَا يَحِلُّ أَنْ يَصَلَ إِلَيْهَا، فَتَمُوتُ فِي هَذَا الْمَكَانِ، لَا يَحْدُثُ ذَلِكَ إِلَّا مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(١) جامع الأصول من أحاديث الرسول، لابن الأثير (٧٥٨٦/١٠)، رقم (٧٥٨٦).

الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

هَذِهِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ هِيَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فَهَاتَانِ الْآيَتَانِ دَلَّتَا عَلَى مَرَّتَيْنِ مِنْ مَرَاتِبِ الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ؛ لِأَنَّ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ، أَيْ: بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْأَشْيَاءِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ لَهُ مَرَاتِبُ أَرْبَعٌ:

المرتبة الأولى: الإيمان بالعلم.

المرتبة الثانية: الإيمان بالكتابة.

المرتبة الثالثة: الإيمان بالمشيئة.

المرتبة الرابعة: الإيمان بالخلق.

فَهَذِهِ مَرَاتِبُ أَرْبَعٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ إِلَّا بِهَا.

المرتبة الأولى: الإيمان بالعلم:

الْإِيمَانُ بِالْعِلْمِ: أَنْ تُؤْمِنَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ كُلَّ مَا يَكُونُ فِي الْأَزَلِ، أَيْ:

الماضي، وفي الأبد، أي: في المستقبل، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ: الماضي والمستقبل، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ وهذا المستقبل، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ وهذا الماضي.

وَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُوسَى حِينَ سَأَلَهُ فِرْعَوْنُ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١] أي: مَا شَأْنُهَا، وَمَا حَالُهَا؟ ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢] مَعْنَى: ﴿لَا يَضِلُّ﴾ أي: لَا يَجْهَلُ، فَهُوَ لَا يَضِلُّ الْمُسْتَقْبَلُ، وَلَا يَنْسَى الْمَاضِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَيَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِالْأَدَلَّةِ الَّتِي ذَكَرْتُ لَكُمْ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، [طه: ١١٠] ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].
وهذا العلمُ إِذَا آمَنَ بِهِ الْإِنْسَانُ أَوْجِبَ لَهُ مُرَاقَبَةَ اللهِ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ مَا يَكُونُ فِي ظَاهِرِكَ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَمَا فِي بَاطِنِكَ مِنْ عَقِيدَةٍ وَغَيْرِهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: الْإِيمَانُ بِالْكِتَابَةِ:

الْإِيمَانُ بِالْكِتَابَةِ: أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ مِنْ أَيِّ مَادَةٍ كَانَ هَذَا اللَّوْحُ، هَلْ هُوَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ أَوْ زُمْرِدٍ أَوْ مَرَجَانٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، لَكِنَّا نُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لَوْحٌ عَظِيمٌ كُتِبَ فِيهِ مَقَادِيرُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، وَهُوَ قَلَمٌ لَا نَذْرِي مِنْ أَيِّ مَادَةٍ هُوَ، قَالَ اللهُ لَهُ: «اكْتُبْ»؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (اَكْتُبْ) لَمْ يُذَكَّرْ فِيهَا الْمَكْتُوبُ، فَالْقَلَمُ مُسْتَعِدٌّ لِلتَّنْفِيزِ، لَكِنَّهُ قَالَ: «اَكْتُبْ

فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١)، فَكُتِبَ هَذَا الْقَلَمُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَا قُدِّرَ فَلَنْ يَرْتَفَعَ، وَمَا لَمْ يُقَدَّرْ فَلَنْ يَكُونَ؛ وَلِهَذَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ (مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ).

فَالْقَلَمُ كُتِبَ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَانْتَهَى كُلُّ شَيْءٍ، (مَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئْهُ، وَمَا أَخْطَاهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبْهُ)؛ وَلِهَذَا إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ «فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا»، فَمَا وَقَعَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ لَا يَقَعَ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّرَهُ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ، فَعَلَيْنَا بِالرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ.

المرتبة الثالثة: الإيمان بالمشيئة.

وَالْإِيمَانُ بِالْمَشِيئَةِ: هُوَ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ مَا فِي الْكَوْنِ كُلِّهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَإِنْزَالِ الْمَطَرِ وَهُبُوبِ الرِّيحِ، وَمَا أَشَبَهَ ذَلِكَ، فَلَا شَكَّ أَنَّهَا بِمَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّهَا فَعْلُهُ، وَلَا مُكْرِهَ لَهُ، وَلَا أَحَدَ يُجْبِرُهُ، بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، فَتَعَلَّقُ الْمَشِيئَةُ بِفِعْلِ اللَّهِ أَمْرٌ وَاضِحٌ وَلَا أَحَدٌ يُنْكِرُهُ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ؟

قُلْنَا: نَعَمْ، يَجِبُ أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّ حَرَكَاتِنَا وَسَكَنَاتِنَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، وَالْأَدَلَّةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾، [البقرة: ٢٥٣] فَالْأَقْتَالُ فِعْلُ الْعَبْدِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا﴾ إِذَنْ، أَقْتَلَهُمْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ.

(١) أخرجه أحمد: (٣٧ / ٣٧٨، رقم ٢٢٧٠٥).

فَإِنْ احْتَجَّ الْعَاصِي وَقَالَ: إِذَا كَانَتْ مَعْصِيَتِي بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، فَكَيْفَ يُعَاقِبُنِي عَلَيْهَا وَهِيَ بِمَشِيئَتِهِ؛ فَلَا يُمَكِّنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَارِضَ مَشِيئَةَ رَبِّهِ، فَكَيْفَ يُعَذِّبُنِي عَلَيْهَا؟

وَجَوَابُ هَذِهِ الشَّبْهَةِ: مَنْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى: قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] فَأَبْطَلَ اللَّهُ حُجَّتَهُمْ، فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنَ الْقَبْلِ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] أَيْ: عَذَابُنَا، وَلَوْ كَانَتِ الْحُجَّةُ صَحِيحَةً مَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَأْسَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا.

فَإِنْ قِيلَ: هَلِ الْعَاصِي أَقْدَمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ بِاخْتِيَارِهِ، أَمْ هُوَ مُجْبَرٌ عَلَيْهَا؟ قُلْنَا: الْعَاصِي أَقْدَمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ بِاخْتِيَارِهِ لَا شَكَّ، فَيَمُرُّ الرَّجُلُ بِحَانَاتِ الْخَمُورِ، وَبُيُوتِ الْبَغَايَا، فَإِنْ شَاءَ مَالَ إِلَيْهَا وَشَرِبَ الْخَمْرَ وَزَنَا، وَإِنْ شَاءَ اسْتَمَرَّ فِي مَسِيرِهِ، إِذَنْ فَعَلُ الْمَعْصِيَةِ يَكُونُ بِاخْتِيَارِهِ.

وَلِهَذَا لَوْ أُكْرِهَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ إِثْمٌ، فَلَوْ أَنَّ شَخْصًا أُكْرِهَ عَلَى الزَّنا، بَأَنْ قِيلَ لَهُ: إِمَّا أَنْ تَزْنِيَ بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ أَوْ قَتَلْتُكَ، فَزَنَا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ بَغَيْرِ اخْتِيَارِهِ.

وَكَذَلِكَ لَوْ أُكْرِهَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى الزَّنا، فَزَنَا بِهَا رَجُلٌ، فَلَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَلَوْ أُكْرِهَ رَجُلٌ عَلَى أَنْ يَسْجُدَ لِلصَّنَمِ فَسَجَدَ؛ خَشْيَةً أَنْ يُقْتَلَ، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أُكْرِهَ رَجُلٌ عَلَى أَنْ يَقُولَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ رَبٌّ، فَقَالَهَا، فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَكْرَهَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَفَرَ

بِاللَّهِ ﴿بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ؛ الْقَوْلِيُّ أَوْ الْفِعْلِيُّ، ﴿مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَكْفُرُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ عَذَابٌ؛ لِأَنَّ هَذَا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِذَا أُمِكنَ الْمُكْرَهُ أَنْ يَصْرِفَ الْقَوْلَ أَوْ الْعَمَلَ إِلَى وَجْهِ صَحِيحٍ، بَأَنْ أَكْرَهَ عَلَى أَنْ يَسْجُدَ لِلصَّنَمِ، فَهَلْ يَلْزَمُهُ أَنْ يَنْوِيَ بِسُجُودِهِ أَنَّهُ سَجَدَ لِلَّهِ وَلَيْسَ لِلصَّنَمِ؟

قُلْنَا: إِذَا أُمِكنَهُ ذَلِكَ فَيَكُونُ وَاجِبًا عَلَيْهِ، لَكِنْ قَدْ تَغَيَّبُ عَنْهُ هَذِهِ النِّيَّةُ، وَقَدْ يَكُونُ عَامِيًّا لَا يَعْلَمُ، فَنَقُولُ: إِذَا سَجَدَ لِلصَّنَمِ مُكْرَهًا فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ: قُلْ: إِنَّ فِرْعَوْنَ رَبٌّ، فَأُكْرَهَ عَلَى هَذَا، وَقَالَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ رَبٌّ، فَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ يَتَأَوَّلَ فَيَقُولَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ رَبٌّ أَسْرَتِهِ؛ وَلِهَذَا يَجِبُ أَنْ نُطْلِقَ مَا أَطْلَقَهُ اللَّهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وَمَا قُلْنَا أَرَدْنَا بِهِ أَنْ يَتَّبِعَ لِلْعَاصِي الَّذِي يَعْصِي اللَّهَ بِاخْتِيَارِهِ، أَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حُجَّةٌ، لِأَنَّهُ حِينَ إِقْدَامِهِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَهَا عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ الْفِعْلِ، فَالْقَدَرُ سِرٌّ مَكْتُومٌ لَا يَعْلَمُ.

الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْإِيْمَانُ بِالْخَلْقِ.

وَالْإِيْمَانُ بِالْخَلْقِ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْإِنْسَانَ وَالْدَوَابَّ، فَالْخَالِقُ هُوَ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فَالسَّمَاوَاتُ مَخْلُوقَةٌ، وَالْأَرْضُ مَخْلُوقَةٌ، وَالشَّمْسُ مَخْلُوقَةٌ، وَالنُّجُومُ مَخْلُوقَةٌ، وَالْقَمَرُ مَخْلُوقٌ.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ فِعْلُ الْعَبْدِ مَخْلُوقًا لِلَّهِ، أَلَسْتُ أَنَا الصَّائِمُ، أَنَا الْمُصَلِّي، أَنَا الْمُزَكِّي، أَنَا الْحَاجُّ، فَكَيْفَ نَقُولُ: هَذَا الْفِعْلُ لِلَّهِ؟

قُلْنَا: الْفِعْلُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ فِعْلَكَ هَذَا نَاشِئٌ عَنْ مَشِيئَةٍ مِنْكَ، وَعَنْ قُدْرَةٍ عَلَى الْفِعْلِ، فَالَّذِي جَعَلَكَ تَشَاءُ هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي أَقْدَرَكَ عَلَى الْفِعْلِ هُوَ اللَّهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَات: ٩٦]، إِذَنْ أَعْمَالُ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ فِعْلَ الْعَبْدِ وَعَمَلَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَسَاسِ الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ، وَالْإِرَادَةُ وَالْقُدْرَةُ صِفَتَانِ لِلْمَخْلُوقِ، وَصِفَةُ الْمَخْلُوقِ مَخْلُوقَةٌ.

إِذَنْ مَرَاتِبُ الْقَدْرِ أَرْبَعٌ: الْإِيمَانُ بِالْعِلْمِ، الْإِيمَانُ بِالْكِتَابَةِ، الْإِيمَانُ بِالْمَشِيئَةِ، الْإِيمَانُ بِالْخَلْقِ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] يَعْنِي: الْوَرَقَةُ الصَّغِيرَةُ فِي غُصْنٍ صَغِيرٍ تَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ يَعْلَمُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أَيِّ مَكَانٍ، وَعَلَى أَيِّ قَدَرٍ كَانَتْ.

وَمَا يَكُونُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا فَإِذَا كَانَ يَعْلَمُ السَّاقِطَ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْكَائِنَ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، إِذَا خَرَجَتْ وَرَقَةٌ فِي غُصْنٍ فَاللَّهُ عَالِمٌ بِهَا، إِذَا يَبَسَتْ وَسَقَطَتْ فَاللَّهُ عَالِمٌ بِهَا: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا.

﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٥٩] أَي: إِلَّا يَعْلَمُهَا، فَالْحَبَّةُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَوْ صَغُرَتْ مَعْلُومَةٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾، وَكُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ إِمَّا رَطْبٌ وَإِمَّا يَابِسٌ. ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾، فَالظُّلُمَاتُ كَثِيرَةٌ، ظُلُمَاتُ اللَّيْلِ، وَظُلُمَاتُ الْأَرْضِ، وَظُلُمَاتُ الْكَهَوفِ، وَظُلُمَاتُ الْبَحْرِ، فَاللَّيْلُ إِذَا أَظْلَمَ لَا تُرَى الْأَشْيَاءُ.

وَالثَّانِي: إِذَا قَدَّرْنَا أَنَّ هَذِهِ الْحَبَّةَ فِي قَاعِ الْبَحْرِ مُنْغَرِزَةٌ فِي الطِّينِ، فَتَكُونُ الظُّلُمَاتُ، ظُلْمَةُ الطِّينِ مَعَ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ الْبَحْرِ، وَلِنَفَرُضَ أَنَّ الْجَوَّ مُغَيِّمٌ فَتَكُونُ الظُّلُمَاتُ؛ ظُلْمَةُ الْغَيْمِ، وَظُلْمَةُ الْمَطَرِ، وَظُلْمَةُ الْعَوَاصِفِ.

هَذِهِ الظُّلُمَاتُ -وَرُبَّمَا ظُلُمَاتٌ أُخْرَى- لَا نَعْرِفُهَا، لَكِنْ أَيُّ حَبَّةٍ صَغُرَتْ أَمْ كَبُرَتْ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُهَا.

مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ:

الْأُولَى: عِلْمُ السَّاعَةِ:

مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: فَسَّرَهَا النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْخَمْسِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لُقْمَانَ: ٣٤] أَيُّ: عِلْمُ السَّاعَةِ الْكُبْرَى، وَهِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّتِي يُبْعَثُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْثَةً لَا مَوْتَ بَعْدَهَا، وَهَذَا هُوَ الْمَثْوَى الْأَخِيرُ، وَلَيْسَ الْمَثْوَى الْأَخِيرُ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ؛ وَلِذَلِكَ مَا تَرَاهُ فِي بَعْضِ الصُّحُفِ أَنَّ فُلَانًا انْتَقَلَ إِلَى (مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ) كَلِمَةً خَطَأً، كَلِمَةً لَوْ اعْتَقَدَ الْإِنْسَانُ مَذْلُولَهَا لَكَانَ مُنْكَرًا لِلْبَعْثِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: إِنَّ الْقُبُورَ الْمَثْوَى الْأَخِيرُ، فَيَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَهَا شَيْءٌ، فَكَيْفَ نَقُولُ: إِنَّ الْقُبُورَ هِيَ الْمَثْوَى الْأَخِيرُ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].

هَذِهِ الْكَلِمَةُ لَوْ أَنَّ الْكَاتِبَ أَوْ الْقَائِلَ لَهَا اعْتَقَدَ مَعْنَاهَا، لَقُلْنَا: إِنَّهُ كَافِرٌ بِالْبَعْثِ،

لَكِنَّ النَّاسَ يَقُولُونَهَا وَيُرِيدُونَ بِهَا أَنَّهُ مَاتَ، وَأَنَّ هَذَا الْمَثْوَى الْأَخِيرَ بِاعْتِبَارِ مَنَازِلِ الدُّنْيَا، لَكِنَّ مَا دَامَتِ الْكَلِمَةُ تَحْتَمِلُ مَعْنَى فَاسِدًا، فَالْوَاجِبُ تَجَنُّبُهَا.

وَمَا أَظُنُّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ إِلَّا وَرَدَتْ مِنْ قَوْمٍ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، فَتَلْقَاهَا بَعْضُ الْكُتَّابِ، أَوْ بَعْضُ الصُّحَفِيِّينَ، أَوْ بَعْضُ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَدْلُولَاتِ الْكَلَامِ، تَلْقَفُوهَا، وَصَارُوا يَنْطَقُونَ بِهَا بِدُونِ أَنْ يَتَفَهَمُوا مَعْنَاهَا؛ وَلِذَلِكَ يَجِبُ إِنكَارُهَا، فَكَيْفَ تَكُونُ الْقُبُورُ هِيَ الْمَثْوَى الْأَخِيرَ مَعَ أَنَّ هُنَاكَ بَعْثًا.

إِذَنْ، عِلْمُ السَّاعَةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، وَلَا أَحَدَ مِنَ الْخَلْقِ يَعْلَمُهَا؛ وَلِهَذَا سَأَلَ أَعْلَمُ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ أَعْلَمَ الْبَشَرِ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ، فَقَالَ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، فَقَالَ ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ»^(١).

وَمَا يَذْكُرُهُ هَؤُلَاءِ الْمُخَرَّفُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: عُمُرُ الدُّنْيَا كَذَا مِليونَ سَنَةٍ، وَأَنَّ قِيَامَ السَّاعَةِ سَيَكُونُ بَعْدَ كَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ! فَكُلُّ هَذَا خَرَصٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَهَرَاءٌ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصَدَّقَ؛ لِأَنَّا نَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَا يَطَّلِعُ عَلَى السَّاعَةِ إِلَّا مَنْ يَقِيمُ السَّاعَةَ، حَتَّى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهَا اللَّهُ ۖ يَوْمَ تَظْهَرُ ۚ إِنَّمَا تُحْشَدُ بِالنَّازِعَاتِ ۖ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ يُكْذَبُونَ ۖ وَيَوْمَ لَا يُفْعَلُ لَهُمْ جُنْدٌ مُدِيرٌ ۖ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٤٢-٤٣] مَا لَكَ فِيهَا شَأْنٌ، وَلَا لَكَ دَخْلٌ فِيهَا إِلَى رَبِّكَ وَخُذْهُ مُنْتَهَاهَا، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۚ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٤٤-٤٦].

إِذَنْ، عِلْمُ السَّاعَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، وَمَا يَذْكُرُهُ الدَّجَالُونَ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

الصحف أو المجلات فهو كذب، ولا يحل لأحد أن يصدقه، عكس ذلك من يتشاءمون أو يتفاءلون بالأنواء، يقولون: هذا ولد في نوء سعد السعود، إذن هو سعيد، وهذا ولد في برج العقرب، إذن هو عقرب، وهذا في برج الحمل، إذن هو خروف، هذا كله دجل وكذب، ومع الأسف أنه يُنشر في بعض الصحف والمجلات، وتقرأ بين أيدي المسلمين، وهو من الكذب الواضح.

ودليل هذا الكذب أن النبي ﷺ كان ذات يوم في الحديبية، والحديبية موقع بين مكة والمدينة، صلى النبي الفجر على إثر مطر، فقال لأصحابه: «هل تدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»^(١)، فالكواكب ليس لها دخل في سعادة الإنسان أو شقاوته، ولا يجوز أن نربط سعادة إنسان أو شقاوته بالأنواء أو البروج.

والحوادث الفلكية لا علاقة لها بالأحوال الأرضية، فالفلك مُستقل؛ ولهذا أبطل النبي ﷺ هذه العقيدة حين كسفت الشمس يوم مات أحد أبنائه، وهو إبراهيم رضي الله عنه لما مات إبراهيم كان من قدر الله عز وجل أن كسفت الشمس يوم موته، وكانوا في الجاهلية يعتقدون أن الشمس تنكسف إذا مات عظيم، وينخسف القمر إذا مات عظيم، فأبطل النبي ﷺ هذه العقيدة، وقال: «إن الشمس والقمر

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، رقم (٨٤٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء، رقم (٧١).

آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ»^(١)، فالأحوال الفلكية
لَا عَلاَقَةٌ لَهَا بِالْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ.

حَتَّى لَا يَخْتَلَّ تَوْحِيدُكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ، فَلَوْ مَاتَ مَيِّتٌ وَصَادَفَ يَوْمَ مَوْتِهِ أَنْ
نَزَلَ الْمَطَرُ بِغَزَارَةٍ، فَلَا تَقُولُ: إِنَّ هَذَا الْمَطَرَ نَزَلَ لِمَوْتِهِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا قَدِمَ الْبَلَدَ،
وَلَمَّا قَدِمَ الْبَلَدَ نَزَلَ الْمَطَرُ بِغَزَارَةٍ، لَا نَقُولُ: هَذَا مِنْ أَجْلِهِ، فَالْأَحْوَالُ الْفَلَكِيَّةُ
لَا عَلاَقَةٌ لَهَا بِالْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ.

وَهَؤُلَاءِ الْكُتَابُ فِي الصُّحُفِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَمْلُؤُوا الصُّحُفَ بِالْكَلَامِ
الْهُرَاءِ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: فُلَانٌ وُلِدَ فِي بُرْجٍ كَذَا، فَهُوَ سَعِيدٌ أَوْ شَقِيٌّ، كُلُّ هَذَا حَرَامٌ،
وَلَا يَجُوزُ اعْتِقَادُهُ، وَلَا نَشْرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَالْمُسْلِمُ عَلَى عَقِيدَةٍ رَاسِخَةٍ، وَيَعْلَمُ أَنَّ هَذَا
لَا صِحَّةَ لَهُ، وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا يَجُوزُ اعْتِقَادُهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ
أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ»^(٢)، فَكُنْ عَلَى عَقِيدَةٍ رَاسِخَةٍ، بِأَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ وَلَا عَلاَقَةَ لِلْحَوَادِثِ
الْأَرْضِيَّةِ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيَّةِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ أَيُّ: الْمَطَرُ، وَسُمِّيَ الْمَطَرُ غَيْثًا؛ لِأَنَّهُ بِهِ يَحْصُلُ
الْغُوثُ، وَهُوَ إِزَالَةُ الشَّدَّةِ، فَالنَّاسُ يَكُونُونَ فِي شِدَّةٍ إِذَا قَلَّ الْمَطَرُ، فَتَمْسِكُ الْأَرْضُ،
وَتَجُوعُ الْمَوَاشِي، وَرُبَّمَا تَهْلِكُ، وَيَحْصُلُ بِذَلِكَ ضَرَرٌ عَلَى النَّاسِ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ،
وَأَحْيَا بِهِ اللَّهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، زَالَتِ الشَّدَّةُ.

وَهَنَّا مَسْأَلَةٌ نَذْكُرُهَا فَنَقُولُ: هَلْ نُزُولُ الْمَطَرِ الْمَجْرَدِ يَكُونُ غَوْتًا؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، رقم (١٤٠٤)، ومسلم: كتاب
الكسوف، باب صلاة الكسوف، رقم (٩٠١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: (٥/١١٨)، رقم (٤٨٤٤).

الجواب: قد ينزل المطر ولا يكون به الغوث، دليل هذا ما أخرجه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمَطَّرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمَطَّرُوا، ثُمَّ تُمَطَّرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»^(١)، وهذا يقع، فأحياناً تنزل أمطار كثيرة ولكن الأرض لا تنبت.

فالذي ينزل الغيث -أي: المطر- الذي تزول به الشدة هو الله عز وجل ولا أحد يستطيع أن ينزل الغيث إلا الله.

وهناك قصة حدثت في عهد النبي ﷺ، فقد دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يحطّب الناس على المنبر، فقال: «هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثَنَا»، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وعلى آله وسلم يديه، وقال: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا» ثلاث مرّات، قال أنس رضي الله عنه وهو راوي الحديث، «مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ، وَلَا قَزَعَةً» السماء صحو، «وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ، وَلَا دَارٍ قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ الثُّرْسِ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ-، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ، ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلَكَتِ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ يُمَسِّكْهَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ^(٢) وَالْجِبَالِ وَالْأَجَامِ^(٣) وَالظَّرَابِ^(٤) وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ، وَخَرَجْنَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، رقم (٢٩٠٤).

(٢) جمع أكم، وهي الرابية. انظر: النهاية (أكم).

(٣) أي: الحصون. انظر: النهاية (أجم).

(٤) الظراب: الجبال الصغار، واحدها: ظرب بوزن كتف. وقد يجمع في القلة على أظرب. النهاية (ظرب).

نَمْشِي فِي الشَّمْسِ»^(١) بِيَدِهِ هَكَذَا، فَيَنْجَابُ السَّحَابُ، وَكُلَّمَا أَشَارَ إِلَى نَاحِيَةٍ انْفَرَجَتْ.
وَلَيْسَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُهَا، وَلَكِنَّ الَّذِي
يُدَبِّرُهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّ هَذِهِ عَلَامَةٌ حَوَالَيْنَا تَنْفَرُجُ السَّحَابُ، «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا،
وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْأَجَامِ وَالظَّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»،
فَاقْلَعَ الْمَطَرُ عَنِ الْمَدِينَةِ فَقَطُّ، وَصَارَتْ حَوْبَةً، يَعْنِي: صَارَتْ كَالْإِكْلِيلِ، وَالسَّحَابُ
مَدُورٌ، فَمَا عَلَى الْمَدِينَةِ لَا يُمَطِّرُ، وَمَا حَوْلَهَا يُمَطِّرُ، وَصَارَ الْوَادِي يَسِيلُ شَهْرًا كَامِلًا
وَادِي قَنَاةً - وَهُوَ مَعْرُوفٌ الْآنَ بِهَذَا الْاسْمِ -. فَتَأَمَّلْ كَيْفَ كَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ
بِإِنْزَالِ الْغَيْثِ فِي دَقَائِقَ، فَالَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَنْزِلَ مَطَرًا؛ لِأَنَّ الَّذِي يُنْزِلُ الْمَطَرَ الَّذِي بِهِ
الْغُوثُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ (مَا) اسْمُ مَوْصُولٍ لِلْعُمُومِ؛ لِعُمُومِ الْمَعْلُومِ
وَعُمُومِ الْعَلَمِ.

وَالَّذِي فِي الْأَرْحَامِ هِيَ الْأَجِنَّةُ، أَرْحَامُ بَنِي آدَمَ، وَأَرْحَامُ كُلِّ الْإِنَاثِ، فَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِي رَحِمِ الْإِنَاثِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَغَيْرِهَا، وَكُلُّ مَا فِي
أَرْحَامِهَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْلَمَ مَا فِي الْأَرْحَامِ إِلَّا اللَّهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ الْبَشَرَ الْآنَ وَبِوَاسِطَةِ مَا عَلِمَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنْ عُلُومِ الْكَوْنِ،
مَا يَسْتَطِيعُونَ بِهِ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ فِي الرَّحِمِ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى؟

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة غير مستقبل القبلة، رقم (١٠١٤)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء، رقم (٨٩٧).

قُلْنَا: إِنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّهُ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى بَعْدَ تَخْلِيْقِهِ، وَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِأَنَّ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِمَا فِي الْأَرْحَامِ، يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِي الرَّحِمِ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؛ لِأَنَّهُ يَسْأَلُ اللَّهُ فَيَقُولُ: «أَيُّ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى»، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مَا شَاءَ، إِذَنْ هَؤُلَاءِ عَلِمُوا أَنَّهُ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى بَعْدَ أَنْ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى.

ثُمَّ إِنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا فِي الْأَرْحَامِ لَا يَتَنَاوَلُ كَوْنَهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى فَقَطْ، فَالْعِلْمُ بِمَا فِي الْأَرْحَامِ يَتَنَاوَلُ كَوْنَهُ ذَكَرًا أَمْ أُنْثَى، وَيَتَنَاوَلُ هَلْ يَخْرُجُ حَيًّا أَمْ مَيِّتًا، وَيَتَنَاوَلُ هَلْ يَطُولُ عُمُرُهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ أَمْ يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَلُ هَلْ يَكُونُ وَاسِعَ الرِّزْقِ أَمْ ضَيِّقَ الرِّزْقِ، وَيَتَنَاوَلُ هَلْ يَكُونُ عَالِمًا أَمْ جَاهِلًا، وَيَتَنَاوَلُ هَلْ يَكُونُ شَقِيًّا أَمْ سَعِيدًا، فَالْعِلْمُ بِمَا فِي الْأَرْحَامِ كَوْنَهُ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى عِلْمٌ مُحْسُوسٌ يُمَكِّنُ الْإِطْلَاعُ عَلَيْهِ، لَكِنَّ الْعِلْمَ بِالْغَيْبِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، وَالْمَرَادُ بِالْغَدِ هُنَا الْمُسْتَقْبَلُ، سَوَاءُ الْغَدِ الْقَرِيبُ أَمْ الْبَعِيدُ، كُلُّنَا لَا نَعْلَمُ مَّاذَا نَكْسِبُ غَدًا، فَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا نَعْلَمُهُ تَقْدِيرًا لَا تَحْقِيقًا، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ وَمَا قَالَ: مَّاذَا تَنْوِي غَدًا، فَإِنَّا أَعْلَمُ مَا أَنْوِي غَدًا، لَكِنْ لَا أَجْزِمُ بِأَنِّي سَأَفْعَلُهُ؛ لِأَنَّهُ رَبِّمَا تَتَغَيَّرُ النِّيَّةُ، وَرُبَّمَا أَعْجَزُ عَمَّا كُنْتُ مُقَدِّرًا وَلَا أَسْتَطِيعُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣-٢٤]، فَلَا تَقُلْ: سَأَفْعَلُ، وَقُلْ: أَنَا نَاوِي أَفْعَلُ، فَفَرَّقُ بَيْنَ مَنْ يَنْوِي، وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ: أَنَا سَأَفْعَلُ، فَإِنْ قُلْتَ: أَنَا سَأَفْعَلُ، فَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَإِنْ قُلْتَ: أَنَا نَاوِي أَنْ أَفْعَلُ، فَهَذَا جَائِزٌ وَإِنْ لَمْ تَقُلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ لِأَنَّكَ تُخْبِرُ عَنْ نِيَّةٍ وَاقِعَةٍ فَلَا حَاجَةَ إِلَيَّ أَنْ تَقُولَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّسَانُ عَاشَ فِي بَلَدِهِ مَدَّةً طَوِيلَةً، فَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَقُولَ: أَنَا سَأَمُوتُ فِي هَذَا الْبَلَدِ، لَا يَدْرِي، فَرُبَّمَا يَنْتَقِلُ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ وَيَمُوتُ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ بَعْضُ الْمَرْضَى يَمْرُضُ وَيَبْقَى فِي بَلَدِهِ، فَإِذَا قَرُبَ أَجَلُهُ نُقِلَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ، وَرُبَّمَا يَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ حَادِثٌ فِي الْبَرِّ الَّذِي مَا كَانَ يَعْلَمُهُ، وَلَا يَعْرِفُهُ، فَيَحْصُلُ عَلَيْهِ الْحَادِثُ، وَيَمُوتُ فِي مَكَانِ الْحَادِثِ، فِي بَرٍّ مَا كَانَ يَدْرِي أَنَّهُ سَيَكُونُ فِيهِ، فَلَا يَدْرِي الْإِنْسَانُ فِي أَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ.

وَإِذَا كُنَّا جَاهِلِينَ بِالْمَكَانِ، فَجَهِلْنَا بِالزَّمَانِ مِنْ بَابِ أَوَّلَى، فَلَا تَدْرِي نَفْسٌ مَتَى تَمُوتُ، فَنَحْنُ جُهَّالٌ لَا نَدْرِي مَتَى نَمُوتُ، وَلَا نَدْرِي فِي أَيِّ مَكَانٍ نَمُوتُ، وَالَّذِي يَعْلَمُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.



الدَّرْسُ الْخَامِسُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ،
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِلَهَ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ
بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ
وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

هذه خمسٌ هي مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ الْمَذْكُورَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ
الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الأَوَّلُ: عِلْمُ السَّاعَةِ، وَالسَّاعَةُ نَوْعَانِ:

سَاعَةٌ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَالسَّاعَةُ الْعَامَّةُ.

وسَاعَةٌ كُلِّ إِنْسَانٍ مَوْتُهُ، وَالسَّاعَةُ الْعَامَّةُ هِيَ الَّتِي يَمُوتُ فِيهَا الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ.
وَالَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ ذَلِكَ هُوَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى يَمُوتُ، وَلَا أَحَدٌ يَعْلَمُ
مَتَى يَمُوتُ غَيْرُهُ، حَتَّى لَوْ رَأَيْنَا الْمَرِيضَ مُدْنِفًا^(١) مُغْمًى عَلَيْهِ لَا يَتَحَرَّكُ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ
نَقُولَ: سَيَمُوتُ بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ سَاعَتَيْنِ أَوْ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ، وَقَدْ نَتَوَقَّعُ أَنَّ مَوْتَهُ قَرِيبٌ،
وَلَكِنْ قَدْ لَا يَمُوتُ، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ دُعِيَ إِلَيْهِ الْغَاسِلُ وَأُحْضِرَ الْكَفَنُ وَحُفِرَ الْقَبْرُ ثُمَّ

(١) أدنف المريض: ثقل.

يَعِيشُ بَعْدَ ذَلِكَ طَوِيلًا! وَهَذَا شَاهِدُنَا، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ صَحِيحِ الْبَدَنِ قَوِيٍّ يَمُوتُ فَجَاءَةً.

إِذَنْ لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ سَاعَتُهُ، وَكَذَلِكَ لَا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ الْكُبْرَى الْعَظْمَى، وَلِذَلِكَ لَمَّا قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَتَى السَّاعَةُ؟» وَجَبْرِيلُ أَفْضَلُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمُحَمَّدٌ أَفْضَلُ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ، فَكَانَ الْجَوَابُ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»^(١).

فَإِذَا كَانَ الْمَسْئُولُ لَيْسَ أَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَالسَّائِلُ يَجْهَلُهَا، فَصَارَ الْجَمِيعُ يَجْهَلُونَهَا، فَإِذَا كَانَ مُحَمَّدٌ رَسُولَ اللَّهِ وَجَبْرِيلُ لَا يَعْلَمَانِ مَتَى تَكُونُ السَّاعَةُ فَغَيْرُهُمَا مِنْ بَابِ أُولَى، وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَكْذِبَ وَبِمَلَأِ أَفْوَاهُنَا وَبِكُلِّ أَلْسِنَتِنَا أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: عُمُرُ الدُّنْيَا كَذَا وَكَذَا مِنَ السَّنَوَاتِ، وَبَاقٍ عَلَى الدُّنْيَا كَذَا وَكَذَا، نَقُولُ: هَذَا كَذِبٌ كَذِبٌ.

وَأَمَّا قَوْلُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يَحْدُثُ أَصْحَابَهُ مِنْ بَعْدِ الْعَصْرِ وَيَقُولُ: «أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيهَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيهَا مَضَى مِنْهُ»^(٢)، فَالِنَبِيِّ ﷺ لَمْ يَحْدُدْ، لَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهَا قَرِيبَةٌ، لَكِنْ لَمْ يَحْدُدْ.

وَهَنَّاكَ أَنَا نَسْ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَدْ يَكْتُبُونَ فِي الصُّحُفِ أَنَّ عُمَرَ الدُّنْيَا بَعْدَ أَلْفِي سَنَةٍ، أَوْ بَعْدَ مِلْيُونِ سَنَةٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَؤُلَاءِ كَذَبَةٌ كَهَنَةٌ، مَنْ صَدَّقَهُمْ فِي نَقْضِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ سُؤَالِ جَبْرِيلَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالْإِحْسَانِ، وَعِلْمُ السَّاعَةِ، رَقْمُ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِيمَانِ مَا هُوَ وَبَيَانُ خِصَالِهِ، رَقْمُ (٩).
(٢) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابُ الْفِتَنِ، بَابُ مَا جَاءَ مَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٢١٩١).

ما أخبر الله به ورَسُولُهُ فهو كافرٌ مكذِّبٌ لله ورَسُولِهِ.

إِذْنُ السَّاعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ * نَوْعَانِ: سَاعَةٌ كُبْرَى عُظْمَى لَجَمِيعِ النَّاسِ، وَسَاعَةٌ لِكُلِّ شَخْصٍ مَعَيَّنٍ، الْأُولَى هِيَ الْقِيَامَةُ، وَالثَّانِيَةُ مَوْتُ الْإِنْسَانِ، وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ﴾ * وَيُنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ، وَالْغَيْثُ مَا تَزُولُ بِهِ الشَّدَةُ، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَالَّذِي يُنْزِلُهُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَالَّذِي يَجْعَلُهُ غَيْثًا هُوَ اللَّهُ، وَكَمْ مِنْ مَطَرٍ نَزَلَ وَلَمْ يَكُنْ غَيْثًا، وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «لَيْسَتْ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمَطَّرُوا، وَلَكِنْ السَّنَةُ أَنْ تُمَطَّرُوا وَتُمَطَّرُوا، وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا»^(١). وَالسَّنَةُ: الْجَدْبُ وَعَدَمُ الرَّبِيعِ.

وَالنَّاسُ يَذْكُرُونَ لَنَا أَشْيَاءَ عَجِيبَةً فِي هَذَا الْبَابِ، يَذْكُرُونَ أَنَّهُ فِي سَنَةٍ مِنَ السَّنَوَاتِ كَانَ الْمَطَرُ يَنْزِلُ طَلًّا، لَا وَابِلًا، يَعْنِي رَذَاذَا خَفِيفًا، حَتَّى إِنْ بَعَرَةَ الْبَعِيرُ أَوْ دِمْنَةَ الشَّاةِ لَا يَبْتَلُّ أَسْفَلَهَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى خِفَّةِ الْمَطَرِ، لَكِنْ قَالُوا: إِنْ هَذِهِ السَّنَةُ صَارَتْ أَوْفَرَ مَا تَكُونُ رَبِيعًا، سُبْحَانَ اللَّهِ! وَلِهَذَا يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فَيَقَالُ: سَنَةُ الدِّمْنَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ بَارَكَهَا. وَأَحْيَانًا تَأْتِي أَمْطَارٌ غَزِيرَةٌ وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضَ، فَمَنْ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ؟ اللَّهُ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ فَمَنْ يَعْلَمُ مَتَى يُنْزِلُ الْغَيْثَ؟ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَدْ يُشْكِلُ عَلَيْنَا أَنَّا نَسْمَعُ فِي الْإِذَاعَاتِ مَنْ يَقُولُ: سَيَكُونُ مَطَرٌ خِلَالِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، فَهَلْ هَذَا يُنَاقِضُ مَا فِي الْآيَةِ؟

الْجَوَابُ: لَا؛ لِأَنَّ مَا يَقُولُونَهُ إِنَّمَا هُوَ أَشْيَاءُ اسْتَتَجَوْهَا مِنْ تَغْيِيرِ الْجَوِّ بِآلَاتِ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفِتَنِ وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ، بَابُ فِي سَكْنَى الْمَدِينَةِ وَعِمَارَتِهَا قَبْلَ السَّاعَةِ، رَقْمُ

دقيقة، والجو يتغير فيكون قابلاً للسحاب والمطر، ويكون أحياناً جافاً، فهم يستتجون هذا من الأحوال الجوية، على أنهم في بعض الأحيان يُقدِّرون ولكن لا يكون، فلا إشكال الآن والحمد لله؛ لأن ما يُذكر في هذه الإذاعات ليس مبنياً على غيب وإنما هو على أمور محسوسة لكنها دقيقة لا يعرفها كثير من الناس، على أن هذا التقدير قد يُخطئ.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ وليس أرحام بناتِ آدم فقط ولكن كل أنثى؛ كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨]، فيعلم الله عز وجل ما في أرحام الإناث من البشر وغيرهم، ولا يعلمه أحد إلا الله. وهنا يُشكل أنهم الآن قد يعلمون ما في رحم الأنثى أذكر هو أم أنثى، فهل يناقض الآية؟

نقول: لا يناقضها؛ لأنهم لا يعلمونه إلا بعد أن يكون ذكراً أو أنثى، وقبل أن يكون ذكراً أو أنثى لا يعلمونه، وإذا كان ذكراً أو أنثى فالمَلَكُ الموَكَّلُ بالأرحام يعلمه، وكذلك أيضاً البشر بحسب تقدم الطب الآن، فيعلمون أنه ذكر أو أنثى. وهل الأفضل للإنسان أن يذهب إلى الطبيب ويقول: أخبرني عما في بطني زوجتي؟

أقول: الأحسن ألا يفعل؛ لأنه إذا أخبره أنه ذكر وهو يحب الذكور ثم مات ازداد حسرة، فخلها لله، ومتى خرج عرفت أنه ذكر أو أنثى، ولا تُنقب ولا تُفتش. فإذا قال الإنسان: كيف نُجيب عن الآية الكريمة، مع وجود العلم بأنه ذكر أو أنثى؟

نقول: المعلومات التي تتعلق بالحمل لا تنحصر في كونه ذكراً أو أنثى، فهناك معلومات؛ وهي أولاً هل يخرج حياً أو ميتاً؟ وهل يتأخر في الخروج أو يتقدم؟ وهل يطول عمره بعد أن يخرج أو لا؟ وهل يكون رزقه واسعاً أو ضيقاً؟ وهل يكون عمله صالحاً أو سيئاً؟ وهل يكون سعيداً أو شقيماً؟

فكل هذه معلومات تتعلق بالجنين وتعلق بالحمل، فإذا قُدر أنه علم أنه ذكر أو أنثى فهناك معلومات أخرى لا يعلمها العباد، فمن يعلم أن هذا الحمل سيولد ويبقى سنة أو سنتين أو سنين؟ لا أحد يعلم إلا الله عز وجل، ومن يعلم أنه سيرزق ويأتيه الرزق كثيراً أو سيكون فقيراً؟ الله وحده، ومن يعلم أنه سيسر لليسرى ويعمل بعمل أهل السعادة؟ الله، ومن يعلم أنه سيسر للعسرى ويعمل بعمل أهل الشقاوة؟ الله عز وجل. إذن يعلم ما في الأرحام؛ كل متعلقات العلم.

قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ انتبه يا رجل، لا يدري الإنسان ماذا يصير غداً، ولا أحد منا يدري ماذا يكسب غداً.

فإذا قال إنسان: أنا أعلم ماذا سأفعل غداً؛ سأطبخ الغداء، وأدعو إخواني، وغداً سيكون عيد الفطر، ونفرح ونعمل ما يجوز لنا عمله من إظهار الفرح والسرور، فأنا أعلم هذا، فما الجواب؟

الجواب: أن الآية الكريمة فيها: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، فهل أنت إذا كنت قدّرت أن تفعل كذا وكذا في يوم العيد فهل أنت ستفعله؟ قد يحول بينك وبينه القدر؛ إما موت، أو مرض، أو سفر، أو عائق آخر، فلا أحد يعلم ماذا يكسب غداً، ولهذا قال الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ

ذَلِكَ غَدَا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الكهف: ٢٣-٢٤].

صحيح أن الإنسان يُقدَّر أنه سيعمل كذا وكذا غداً، ويخبر ويقول: سأفعل كذا وكذا، وسأسافر غداً، وسأسافر بعد غدٍ، يخبر، لكن هل هو على يقين أن الأمر يقع يا إخواني؟ لا، إذن ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي ماذا يكون من كسبها غداً؛ لأن الإنسان قد يقدر ولا يحصل.

قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ الله أكبر! إنسان مولود في بلده، ومن نيته ألا يغادر البلد إلا في حج أو عمرة أو جهاد في سبيل الله، وعازم على هذا عزمًا أكيدًا، ويقدر أنه سيموت في أرض أخرى، فهو لا يعلم بأي أرض يموت، فإذا أراد الله تعالى أن يموت في أرض جعل له إليها حاجة، وذهب لهذه الحاجة ويموت.

ف نجد أناسًا قابعين في بلادهم لا يسافرون عنها إلا في حج أو عمرة، ولا يحبون السفر، فإذا دنا الأجل يسر لهم أن يسافروا ليموتوا في الأرض التي أراد الله أن يموتوا فيها، وهذا شيء مُشاهد، ونجد بعض الناس يُصاب بحادث أثناء الطريق في أرض لم يكن يعرفها، ولا يعرف أنه سيموت فيها، فيموت في مكان الحادث في أرض فلاة، ولم يكن يعلم هذا قبل.

وحدثني رجل أثق به أنهم خرجوا من مكة بعد الحج في وقت كان الناس يحجون فيه على الإبل، وفي أثناء الطريق مرضت أمه، وجعل يُمرّضها فيُصلح لها المكان على الراحلة بالفراش اللين الطيب، وفي يوم من الأيام بقي يشتغل بهذا فمشى القوم وهو ما زال يُصلح ويوطئ لأُمّه، فلما انتهى سار على إثرهم، وكان في

مَنْطَقَةٍ جَبَلِيَّةٍ، وَالْقَوْمُ انْصَرَفُوا إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ وَهُوَ تَاهَ وَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَانْخَرَطَ فِي رَوْعٍ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطَلَعَتِ الشَّمْسُ وَارْتَفَعَتْ وَخَافَ عَلَى نَفْسِهِ، فَأَوَى إِلَى بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ لِقَوْمٍ مِنَ الْبَدْوِ، فَلَمَّا سَلِمَ قَالَ لَهُمْ: أَيْنَ الطَّرِيقُ إِلَى كَذَا وَكَذَا؟ قَالُوا: الطَّرِيقُ بَعِيدٌ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ، وَلَكِنْ أَنْخِ الْبَعِيرَ وَاسْتَرِحْ قَلِيلًا ثُمَّ نَذُلْكَ.

يقول: فلما أناخ بعيره وأنزل أمه في الأرض فمن حين أن نزلت في الأرض قضى الله أجلها، سُبْحَانَ اللَّهِ! أرضٌ بعيدةٌ وليست على الطريق، ولا معلومة. كان الله جَلَّ وَعَلَا قَدَّرَ أَنْ تَمُوتَ هَذِهِ الْعَجُوزُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ، فَقَدَّرَ أَنْ وَلَدَهَا يَتَأَخَّرُ فِي تَهْيِئَةِ مَرْكَبِهَا وَيَضِلُّ الطَّرِيقَ حَتَّى تَمُوتَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ تَمُوتَ فِيهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ يَا إِخْوَانِي! ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

وقبل شهرٍ أو شهرين حَدَّثَنِي رَجُلٌ أَنَّ لَهُ وَالِدًا كَانَ مَرِيضًا فَتَعَاثَى، فَأَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلَى الْحِجَازِ، وَأَخَذَ حَجْزًا لَهُ وَلِوَالِدِهِ فِي الطَّائِرَةِ، يَقُولُ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الطَّائِرَةِ إِذَا بِالرَّجُلِ الَّذِي هُوَ وَالِدُهُ يَرْتَحِي فَمَاتَ. فَكَانَتْ مَنِيَّةُ هَذَا الرَّجُلِ فِي الْجَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَهَذِهِ أُمُورٌ لَا يُقَدَّرُهَا الْإِنْسَانُ، لَكِنْ قَدَّرَهَا الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ فِي مَكَانٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ.

وهل تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ وَقْتٍ تَمُوتُ؟

نقول: لا. ولنا طَرِيقَانِ فِي أَخْذِهَا مِنَ الْآيَةِ؛ إِمَّا أَنْ نَقُولَ: هِيَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ كَمَا قَسَمْنَا السَّاعَةَ إِلَى قَسَمَيْنِ، أَوْ نَقُولَ: إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَعْلَمُ بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ فَأَنْ لَا يَعْلَمَ بِأَيِّ زَمَنِ يَمُوتُ مِنْ بَابِ أَوَّلَى.

فعليك - يا أخي - بتدبر القرآن فستجد فيه العجائب من المواعظ والأحكام والحكم، فإن هذا القرآن - يا إخواني - كلام رب العالمين، الذي أنزله لتدبر آياته ونتعظ به، والقرآن خير وبركة، فعليك بتدبر آياته، وتصديق أخباره، والعمل بأحكامه؛ إن كنت تريد السعادة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: «لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»^(١)، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ - وهو القرآن كما قال عز وجل: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] - ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ١٢٤ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴿محاوره مع الله﴾ قال كذلك أنتك ءايتنا فنسينها وكذلك اليوم نُنسِي ﴿[طه: ١٢٤-١٢٦].

فكما عمي في الدنيا عن ذكر الله - عن كتاب الله - حُشِرَ يوم القيامة أعمى..

اللهم بصرنا بكتابك، واجعلنا عاملين به، مُصَدِّقِينَ لأخباره يا ذا الجلال والإكرام.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.



سورة الأحزاب

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وَيُلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ أَنْ يَكُونَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ، وَالْعَكْسُ غَيْرُ صَحِيحٍ.

وهُوَ أَيْضًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ، أَي مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُتَّقِيًا فَلْيَأْتِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ»^(١). وَالْأَتَقَى هُوَ الْمُتَّبِعُ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَتْبَاعِهِ، وَأَنْ يَخْشُرَنَا فِي زُمْرَتِهِ، وَأَنْ يَسْقِينَا مِنْ حَوْضِهِ، وَأَنْ يُدْخِلَنَا فِي شَفَاعَتِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْاجْتِمَاعَ بِهِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه ووجد مؤنه واشتغال من عجز عن المؤن بالصيام، رقم (١٤٠١).

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، الخطابُ في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ﴾ للرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم فإنَّ النَّاسَ كانوا يُحِبُّونَ الاطلاعَ على كُلِّ شيءٍ، فكانوا يَسْأَلُونَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن السَّاعَةِ، فيقولون: متى تكونُ؟ فأجابَ اللهُ عزَّوجلَّ:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، فلا أَحَدٌ يَعْلَمُهَا. و﴿إِنَّمَا﴾ هذه أداة حَصْرٍ، والحَصْرُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ إثباتُ الْحُكْمِ في المذكورِ، ونَفْيُهُ عما سِوَاهُ، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا أَحَدٌ يَعْلَمُهَا، لا مِنَ الْبَشَرِ، ولا مِنَ الْجِنِّ، ولا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ولا مِنَ الرُّسُلِ، ولا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ، بل عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّهَا عزَّوجلَّ. لكن يقولُ تعالى: ﴿وَمَا يَذُرِّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: رَبِّمَا تَكُونُ السَّاعَةُ قَرِيبًا؛ لَأَنَّ عِلَامَاتِهَا وَأَشْرَاطَهَا ظَهَرَتْ كَمَا قَالَ اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]، أي: عِلَامَاتُهَا الدَّالَّةُ على قُرْبِهَا.

ومن عِلَامَاتِهَا بَعَثَةُ الرَّسُولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ». وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى^(١). أي: قرنين، والإشارةُ في خَتَمِ الرِّسَالَةِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى قُرْبِ السَّاعَةِ ظَاهِرَةٌ، فَالسَّاعَةُ قَرِيبَةٌ، ولكن لا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى تَكُونُ، ولا تَأْتِي النَّاسَ إِلَّا بَغْتَةً، حتَّى إِنَّهَا تَأْتِي وَالرَّجُلَانِ يَنْشُرَانِ الثُّوبَ بَيْنَهُمَا يَتَبَايَعَانِهِ فَتَقُومُ السَّاعَةُ، وَالرَّجُلُ يُضْلِحُ حَوْضَ إِبِلِهِ لِتَشْرَبَ مِنْهُ، فَهِيَ تَأْتِي النَّاسَ بَغْتَةً، ولا أَحَدٌ يَعْلَمُ مَتَى.

وانظُرْ إلى حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْمُطَوَّلِ الَّذِي عَلَّمَنَا فِيهِ جِبْرِيلُ دِينَنَا بِوِاسِطَةِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

أَسْأَلُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَإِجَابَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَهُ، قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَعْلَمُ الرِّسَالِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ وَوَحْيِ اللَّهِ فِيهَا نَعْلَمُ، قَالَ لِأَعْلَمَ الْبَشَرِ مُحَمَّدٌ ﷺ: أَخْبِرْنِي مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». يَعْنِي أَنْتَ إِذَا كُنْتَ لَا تَدْرِي فَأَنَا لَا أَدْرِي. «قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا»^(١)، فَأَخْبَرَهُ.

فَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُحَمَّدٌ، وَهُوَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ بِوَحْيِ اللَّهِ، قَالَ لَجَبْرِيلَ، وَهُوَ أَعْلَمُ الْمَلَائِكَةِ بِوَحْيِ اللَّهِ فِيهَا نَعْلَمُ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

فَمَنْ سِوَاهُمَا لَا يَعْلَمُ، وَمَنْ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعَةِ، وَأَنَّهَا تَكُونُ فِي الْيَوْمِ الْفُلَانِيِّ، أَوْ الشَّهْرِ الْفُلَانِيِّ، أَوْ السَّنَةِ الْفُلَانِيَّةِ، أَوْ الْأَلْفِ الْفُلَانِيَّةِ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ صَدَّقَهُ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّكَ إِذَا صَدَّقْتَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ السَّاعَةَ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ أَلْفَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ. فَقَدْ كَذَبْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. وَإِنِّي لَا أُعْجَبُ مِنْ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ أَرْجَفُوا وَأَجْلَبُوا فِيهِمَا يُسَمُّونَهُ الْأَلْفِيَّةَ الثَّلَاثَةَ، الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهُ سَيَكُونُ فِيهَا حَوَادِثُ وَمَشَاكِلُ، وَتَشَاءُمُوا مِنْهَا، وَأَرْجُو اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ شُؤْمُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ شُؤْمُهُمْ فَأُلًّا لِلْمُسْلِمِينَ، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

هَؤُلَاءِ الرِّعَاعُ خَافُوا مِمَّا يُسَمُّونَهُ الْأَلْفِيَّةَ الثَّلَاثَةَ، وَمَنْ سَفِهَهُمْ أَنَّهُمْ جَعَلُوا خِتَامَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ سُؤَالِ جَبْرِيلَ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ، رَقْمُ (٥٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ وَوُجُوبِ الْإِيمَانِ بِإِثْبَاتِ قَدْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رَقْمُ (١٠).

الألفين وابتداء الألف الثالث بعد عام الذي هو بعد أيام قلائل، وإذا أراد الله فضيحة أقوام صارت علما على رؤوسهم، ونحن -مَعَشَرُ الْمُسْلِمِينَ- لا يُهْمُنَا آلافُهُمْ ولا مِثَاتُهُمْ ولا عَشْرَاتُهُمْ ولا آحَادُهُمْ، نحن مُسْتَقِلُّونَ -ولله الحمد- بتاريخ بُنِيَ على أعظم مناسبة كانت في الإسلام، وهو التاريخ الهجري الذي فيه هجرة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فتكوّنت الدولة الإسلامية والأمة الإسلامية، واختير أن يكون أوله المُحَرَّم؛ لأنّه بعد انقضا ض النّاس من الحَجّ، وبعد استكمال المُسْلِمِينَ لِلصَّوْمِ الذي هو أحد أركان الإسلام، ثم الحج الذي هو الخامس من أركان الإسلام، فكان السّنة خُتِمَتْ، ثم في الشهر التالي من شهر الحَجّ ابتدأت السّنة، فهي مُناسبة شرعية هجرية لا يَمْتَرِي فيها أحد.

ولقد كان من فضائل هذه الدولة السعودية -ولله الحمد، زادها الله شرفاً وعِزّاً ورفعةً، ونَصَرَ بها الإسلامَ ونَصَرَها بالإسلام- أن جعلت التاريخ الرسمي هو التاريخ الهجري، وهذه نعمة على هذه البلاد، أنها أبقت التاريخ الإسلامي المَبْنِي على أعظم مناسبة، وتركت ما وراءه، نحن أمة أعزنا الله بالإسلام، فلا ينبغي أن نذل أنفسنا، وأن نكون أذنباً لغيرنا، إنا إذا أرخنا بتاريخ أولئك القوم فرحوا وفخروا وانتفخوا؛ لأننا كُنّا أتباعاً وأذنباً لهم.

لو كنتم تشعرون بما يشعرون به من الفرح؛ أن تكون الأمة الإسلامية -مع الأسف الشديد- تبعاً لهم في التاريخ، لرأيت العجب العجيب؛ ولذلك تبع هؤلاء القوم على سفاهتهم من كان سفيهاً؛ حتى استعدوا لما يُسمونه الألفية الثالثة، بعضهم الآن يُعلّق الزينات والقناديل على المتاجر، وبعضهم يُخفّض أسعار السلع، ويقول:

أَسْرِعُوا وَاعْتَمُوا الْفُرْصَةَ، فَمُدَّتْهَا أُسْبُوعٌ فَقَطْ! لكني أَتَوَقَّفُ في هذا الأمر: هل يُجُوزُ أَنْ يَشْتَرِيَ الْإِنْسَانُ السِّلْعَ بهذا التخفيض لهذه المناسبة؟ أَتَوَقَّفُ فيه لأنني إذا اشتريت منهم فقد رَضِيتُ بِفَعْلِهِمْ، أم أني أقول: هذا رِزْقُ اللَّهِ، وهم في آثامهم يَرْكُضُونَ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ بما في حُكْمِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وكذلك في قُرْبِ خِتَامِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ يَكُونُ هُنَاكَ احْتِفَالٌ آخَرُ، احْتِفَالٌ دِينِيٌّ بما يَدْعُوْنَهُ مِيلَادَ الْمَسِيحِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الَّذِي نَحْنُ نُؤْمِنُ بِهِ، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، نَعَمْ الْمُسْلِمُونَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَسِيحِ، وَالنَّصَارَى لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، أَقُولُ هَذَا لِأَنِّي أَمْلِكُ دَلِيلًا بِذَلِكَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَدَلِيلًا مِنْ فَعْلِ النَّصَارَى أَنْفُسِهِمْ، أَمَّا الدَّلِيلُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الصَّفِّ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنَى إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: ٦] وَهَذَا الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ مِنْ بَعْدِهِ اسْمُهُ أَحْمَدُ، هُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَيْسَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى نَبِيٍّ وَلَا رَسُولٍ، وَمَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ كُتُبِ التَّارِيخِ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ أَنْبِيَاءَ كَخَالِدِ بْنِ سِنَانٍ أَوْ غَيْرِهِ فَهَذَا كَذِبٌ، فَلَيْسَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَعِيسَى أَحَدٌ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ بَشَّرَهُمْ بِهِ لِيَتَلَقَّوْهُ بِالْبَشِيرِ وَالشَّرِّيرِ وَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِكَوْنِ مُحَمَّدٍ رَسُولًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وَقَالَ أَيْضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فَهَذَا مَوْجُودٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ حَتَّى الْآنَ وَمَنْقُولٌ،

نقل ذلك صاحب المنار مُحَمَّد رَشِيد رِضَا رَحِمَهُ اللَّهُ وهو عَالِمٌ شَهِيرٌ من عُلَمَاءِ مِصْرَ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، فهم بقولهم هذا كفروا بما بَشَّرَهم به نَبِيُّهم عيسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإذا سألت النَّصَارَى هل اليهودُ كُفَّارٌ أم مؤمنون؟ فسيقولون: كفارٌ؛ لأنهم كفروا بالإنجيل الذي نَزَلَ بعد التوراة، ونحن نَسْتَدِلُّ على كُفْرِهِم بفعليهم، فلما كَفَرُوا اليهودَ لأنَّهم كَفَرُوا بالإنجيل، كَفَرْنَاهم نحن؛ لأنهم كَفَرُوا بالقرآن، وكَفَرَهُم بالقرآن كَفَرُوا بالإنجيل والقرآن.

وقد يقول مُتَحَذِّقٌ من النَّصَارَى: إِنَّ الْمَسِيحَ قال: اسْمُهُ أَحْمَدُ. وهذا الذي بُعِثَ من الْعَرَبِ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ، وهذا غيرُ هذا، ونحن نَنْتَظِرُ الآنَ حتى يَأْتِيَ أَحْمَدُ؟ والجوابُ عليه أن نقول: أَحْمَدُ اسْمٌ، وَمُحَمَّدٌ اسْمٌ، وللنبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أَسْمَاءٌ عَدِيدَةٌ، وقد اختيرَ اسْمُ أَحْمَدَ على اسْمِ مُحَمَّدٍ الذي سَمَّاهُ به جَدُّهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ؛ لأنه من حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فاسْمُ أَحْمَدَ اسْمٌ تَفْضِيلٌ، أي: أَحْمَدُ الْخَلْقِ لِلَّهِ، وَأَحْمَدُ الْخَلْقِ خِصَالًا، فهو أَحْمَدُ بِمَعْنَى مَحْمُودٍ، وَأَحْمَدُ بِمَعْنَى حَامِدٍ، فهو اسْمٌ تَفْضِيلٌ من حَامِدٍ وَمِنْ مَحْمُودٍ، وإنما جاءَ بهذه الصِّيغَةِ حتى يَعْرِفَ الَّذِينَ بَشَّرَهُم عيسى بأنَّ هذا الرَّجُلَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالِاتِّبَاعِ؛ لأنه أَحْمَدُ النَّاسِ.

فالْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لَهُمْ حُجَّةٌ، واسْمَعُ قولَ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم الثَّابِتَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ» يعني أُمَّةَ الدَّعْوَةِ التي دعاها الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهم جَمِيعُ الْخَلْقِ بعدَ بَعْثِهِ، «يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، صدَقَ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٣).

وصدقَ رَسُولُهُ ﷺ بلا يمينٍ، فهو الصَّادِقُ المصدُّوقُ.

فانظر كيف قال: «لَا يَسْمَعُ بِي... يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ». دون أن يقول: وَيَفْهَمُ ما دَعَوْتُ إِلَيْهِ. فلا بُدَّ في إقامةِ الحُجَّةِ من فَهْمٍ، فمُجَرَّدُ السَّماعِ ليس حُجَّةً حتى يكون هناك فَهْمٌ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، فلو أرسلَ عَرَبِيًّا إلى عَجَمٍ ما قامتِ الحُجَّةُ، ولو أرسلَ أَعْجَمِيًّا إلى عَرَبٍ ما قامتِ الحُجَّةُ، لكن اليهودَ والنصارى بمُجَرَّدِ السَّماعِ قامتْ عليهم الحُجَّةُ؛ لأنَّ اليهودَ والنصارى يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، فمُجَرَّدُ السَّماعِ يُلْزِمُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وإذا كانَ لَدَيْهِمْ جَهْلٌ كالعَوامِّ منهم يَجِبُ أَنْ يَبْحَثُوا؛ لأنَّهم قد بُلِّغُوا عنه وبُشِّرُوا به، وَذُكِرَتْ أوصافُهُ، فَكانوا يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

أعودُ إلى قضيةِ الأَلْفِيَّةِ الثَّلاثَةِ التي تُزَعِّجُ النَّصارى الآنَ، وهي عندهم بُعْبُعٌ، نعم هم الآنَ يَخَافُونَ منها، وَيَدَّعَوْنَ أَنَّهُ سَيَكُونُ كذا، وَسَيَكُونُ كذا، وَسَيَنْزِلُ عِيسَى. لكن نقولُ: الحمدُ لله، إذا نَزَلَ عِيسَى فسوفَ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ الذي يَعْبُدُونَهُ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ، حتى الجزيةُ التي كُنا نَأْخُذُها منهم ونُقَرِّهُم على دينهم بها، سوفَ يَرْفُضُها، وَلَا يَرْضَى إِلَّا بِالْإِسْلَامِ، فإذا نَزَلَ كانَ عِقَابًا عليهم، لكنَّا لا نَعْلَمُ متى يَنْزِلُ، إذا كانَ الْوَاحِدُ مِنَّا لا يَعْلَمُ ماذا يَكْسِبُ غداً فكيفَ يَعْلَمُ ما يَفْعَلُهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ في الغَدِ؟ إن كنتُ قد هَيَّأْتُ السُّحُورَ مثلاً في رمضانَ، فلا أدري ربِّها أَمُوتُ ولا آكُلُهُ، وَربِّها تَعَجَّلَ عنه ما هو لَازِمٌ، فالإنسانُ يَتْرُكُ الشَّيْءَ إذا ماتَ، ربِّها يُعَجَّلَ عنه، ربِّها يَدْعُوهُ صاحِبُهُ، وَيَأْكُلُ شَيْئاً آخَرَ، أو يَجِدُ نَفْسَهُ ثَقِيلاً فَيَتْرُكُ الْأَكْلَ.

على كلِّ حالِ الإنسانُ يُقدَّرُ أنه سيفعلُ غداً وكذا، لكن لا يعلمُ هذا يقيناً؛ ولهذا قال الله لنبيه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] أي: لا تجزم بفعل شيء، فلا تدري أيها الإنسان ماذا سيفعل ربك.

قيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: عرفتُ ربي بنقض العزائم، وصرف الهمم. سبحان الله، هذا أعرابي يقول هذا الكلام.

ونقض العزائم معناه: أن الإنسان يعزم على الشيء، فإذا به يتركه وهو عازم عليه. وصرف الهمم معناه أن الإنسان يتجه إلى جهة معينة، فإذا به يتجه إلى أخرى، مدبر هذا القلب هو الله عز وجل، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «قُلُوبُ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، يعني إن شاء أزاغه وإن شاء أقامه، ثم يقول: «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١).

وما أكثر القوم الذين كانوا منحرفين فأصبحوا ملتزمين، وما أكثر القوم الذين كانوا ملتزمين فأصبحوا منحرفين؛ لأن القلوب بيد الله؛ ولذلك يحب علينا أن نسأل الله الثبوت دائماً، وألا نغترّ بما عليه قلوبنا من الالتزام، ونظن أننا لن نضل أبداً، فقد عرفنا الحق، ولن يمكن أن نتركه، فلنسأل الله الثبات دائماً. قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الدجال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَالِ فَلْيُنْأَ عَنْهُ» أي فليبتعد عنه «فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ، أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»^(٢)، فلا تتعرض إلى الفتن.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله - تعالى - القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

على كلِّ حالٍ بالنسبةِ للألفيةِ الثالثةِ أولاً: لا يجوزُ أن نَعْمَلَ عَمَلًا يَدُلُّ على الاحتفاءِ بها، أو أنَّها قد أَهْمَّتْنا أبداً، فهذا لا يجوزُ، فهي ليست طَرِيقاً لنا، بل طَرِيقُ الأممِ الكافِرةِ، التي أَرْغَمَتِ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ في كثيرٍ من البلادِ الإسلاميَّةِ على أن تُؤرِّخَ بالتَّاريخِ المِلادي؛ لأنها استعمرت البلادَ، استعمرت الشَّامَ والعِراقَ ومِصرَ، وأجبرت أهلها على أن يُؤرِّخوا بالتَّاريخِ المِلاديِّ، وإلا فَتَحُنْ نَرى أن كلَّ العُلماءِ من تلك البلادِ قَبْلَ الاستعمارِ الغربيِّ الفاسِدِ الغادرِ كانت تُؤرِّخُ بالهِجْريَّةِ، يقولون: وُلِدَ العالِمُ الفُلاني سَنَةً كذا هِجْريَّةً، ومات سَنَةً كذا هِجْريَّةً، وكان الفَتْحُ الفُلاني سَنَةً كذا هِجْريَّةً، كلُّه كان بالسَّنَةِ الهِجْريَّةِ.

وكذلك نحن لا نَعْرِفُ هذه السَّنَوات المِلادية، وكذلك شُهورها، فليست مَبْنِيَّةً على أصلٍ، فشهرٌ يكون ثمانيةً وعشرين، وشهرٌ يكون ثلاثين، وشهرٌ يكون واحداً وثلاثين، من أين هذا؟ وهو مُحالِفٌ لما وَضَعَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِعِبَادِهِ، اسْمَعْ كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والنَّاسُ هنا هُمُ كلُّ النَّاسِ مِنَ العَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩] أي: لكلِّ النَّاسِ، ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ وقد نَصَّ على الحَجِّ؛ لأنَّ العَرَبَ في الجاهليَّةِ تَارَةً يَجْعَلُونَ الحَجَّ في ذِي الحِجَّةِ، وتارةً يجعلونه في مُحَرَّمٍ، والحَجُّ لا يَتَعَدَّى شَهْرَهُ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ متى؟ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦] وهذه الشُّهُورُ هي: مُحَرَّمٌ، وَصَفَرٌ، وَرَبِيعُ أَوَّلٍ، وَرَبِيعُ آخِرٍ، وَجُمَادَى الْأُولَى، وَجُمَادَى الْآخِرَةِ، وَرَجَبٌ، وَشَعْبَانٌ،

وَرَمَضانُ، وشَوَّالٌ، وذو القَعْدَةِ، وذو الحِجَّةِ. هذه عِدَّةُ الشهورِ عندَ اللهِ بإجماعِ المُفسِّرينَ، إذن لماذا نُورِّخُ بأشياءَ وَهْمِيَّةٍ، وعندنا أشياءَ حِسِّيَّةٌ يَعْرِفُهَا الجميعُ، وليست خَفِيَّةً بجانبٍ من الأرضِ، بل في السماءِ، وكلُّ الناسِ يُشاهدونها؟

وقد قال لي مرَّةً رَجُلٌ من الناسِ: يا فلان، هذه الشهورُ المِيلادِيَّةُ أَفْضَلُ لأهلِ الزَّرعِ؛ لأنها مَضْبُوطَةٌ بالفُصولِ، فأغسطس يكونُ في الصَّيفِ، فيزرعون زَرْعَ الصَّيفِ، وديسمبر يكونُ في الشِّتاءِ، فيزرعون زَرْعَ الشِّتاءِ، لكنَّ الأشهرَ العربيَّةَ تَتَنَقَّلُ في الفصولِ.

قلنا: الحمدُ لله، إذا كان هذا هو المُرادُ فعندنا ما هو أَفْضَلُ من هذا، عندنا البرُوجُ، قال الله تعالى: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وهذه البروجُ مَضْبُوطَةٌ تمامًا، وهي اثنا عشر بُرجًا، أولُها الحَمَلُ، وآخرُها الحُوتُ. وهي مَعْرُوفَةٌ، فَلْنُورِّخْ بها من أجلِ الزَّرعِ.

أما أن نَجْعَلَ هذا المِيقَاتِ الذي ليس له أصلٌ فيما نَعْلَمُ هو الذي يَبْنِي عليه الناسُ وَثائِقَهُم وتاريخَ أَمْواتِهِم؛ لَتُحَدَّ المرأةُ أربعةَ أشهرٍ وعَشْرَةَ أيامٍ، وغير ذلك، فلا.

وَيَجِبُ على المسلمين أن يكونوا أَعِزَّةً بدينِهِم وتاريخِهِم وَلُغَتِهِم وَمَنْهَجِهِم وجميعِ شُؤونِهِم، ولا يَلْتَفِتُوا إلى هذا إطلاقًا، كيف نكونُ أَعِزَّةً أَعَزَّنَا اللهُ بالإسلامِ، ثم نَحْذُلُ أَنْفُسَنَا، ونكونُ تَبَعًا لغيرنا، وهذا لا يَلِيقُ أبدًا بنا نحن المسلمين، لا يَجُوزُ أبدًا أن نَتابعَهُم على هذا الاحتفالِ.

أما بالنسبةِ لعيدِ المِيلادِ فهو أَشَدُّ وَأَفْظَعُ، ولا يَجُوزُ أن نُهَيِّئَهُم به، قال ابنُ القيمِ

رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (أَحْكَامُ أَهْلِ الذِّمَّةِ): «وَأَمَّا التَّهْنِئَةُ بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ فَحَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ مِثْلَ أَنْ يُهْنِئَهُمْ بِأَعْيَادِهِمْ وَصَوْمِهِمْ، فَيَقُولَ: عِيدٌ مُبَارَكٌ عَلَيْكَ، أَوْ تَهْنَأُ بِهَذَا الْعِيدِ، وَنَحْوَهُ، فَهَذَا إِنْ سَلِمَ قَائِلُهُ مِنَ الْكُفْرِ فَهُوَ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُهْنِئَهُ بِسُجُودِهِ لِلصَّلِيبِ، بَلْ ذَلِكَ أَعْظَمُ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ وَأَشَدُّ مَقْتًا مِنَ التَّهْنِئَةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَارْتِكَابِ الْفَرْجِ الْحَرَامِ وَنَحْوِهِ»^(١).

وَقَالَ شَيْخُهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (اِقْتِضَاءُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِمُخَالَفَةِ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ): «إِنَّ مُشَابَهَتَهُمْ فِي بَعْضِ أَعْيَادِهِمْ يُوجِبُ سُرُورَ قُلُوبِهِمْ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ، خُصُوصًا إِذَا كَانُوا مَقْهُورِينَ تَحْتَ ذُلِّ الْجَزْيَةِ وَالصَّغَارِ، فَرَأَوْا الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارُوا فَرْعًا لَهُمْ فِي خَصَائِصِ دِينِهِمْ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ قُوَّةَ قُلُوبِهِمْ وَانْشِرَاحَ صُدُورِهِمْ، وَرَبِمَا أَطْمَعَهُمْ ذَلِكَ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصِ، وَاسْتِدْلَالِ الضُّعَفَاءِ»^(٢) وَذَكَرَ كَلَامًا طَوِيلًا فِي كِتَابِهِ ذَلِكَ، وَأَشِيرُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَقْتَنِيَ ذَلِكَ الْكِتَابَ.

إِذَنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُهْنِئَهُمْ بِأَعْيَادِهِمْ أَبَدًا؛ لِأَنَّ التَّهْنِئَةَ بِأَعْيَادِهِمُ الدِّينِيَّةُ يَعْنِي الرِّضَا بِشَعَائِرِ الْكُفْرِ، وَهَذَا خَطِيرٌ جَدًّا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يَجُوزُ أَنْ يُهْنِئَهُمْ مُجَامِلَةً لَهُمْ، كَمَا كَانُوا يُهْنِئُونَنَا بِأَعْيَادِنَا، إِذَا جَاءَ عِيدُ الْفِطْرِ هُنُوْنَا، وَكَذَلِكَ عِيدُ الْأَضْحَى؟ قُلْنَا: لَا يُهْنِئُهُمْ؛ لِأَنَّ أَعْيَادَنَا -وَالْحَمْدُ لِلَّهِ- أَعْيَادٌ شَرْعِيَّةٌ، وَأَعْيَادُهُمْ أَعْيَادٌ بَدْعِيَّةٌ؛ لِأَنَّهَا -إِنْ صَحَّتِ الْمُنَاسَبَةُ، وَهُوَ مِيلَادُ عِيسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهِيَ بَدْعِيَّةٌ شَرْعًا؛ لِأَنَّ عِيسَى مَا كَانَ يَحْتَفِلُ

(١) أَحْكَامُ أَهْلِ الذِّمَّةِ (١/ ٤٤١).

(٢) اِقْتِضَاءُ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِمُخَالَفَةِ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١/ ٥٤٦).

بميلاده، وإن لم يصح أنها مناسبة لعيد ميلاده فهي بدعية شرعية تاريخية، ليس لها أصل، إذن كيف نهئهم بشيء ليس عيداً شرعاً ولا واقعاً؛ لأننا لا نذري هل وافق ميلاد المسيح أو لا؟ وإذا قيل: إن هذا معلومٌ بالتواتر. نقول: وليكن معلوماً، وليكن مطابقاً لميلاد المسيح، لكنه عيدٌ بدعيٌّ شرعيٌّ، إذن لا نهئهم به.

أما كونهم يهتئوننا بعيدنا فنعم، ديننا شرعيٌّ والحمد لله، وحق لنا أن نهتأ به. أمّا عيدهم فليس بشرع، لكن رأيتم لو هم هتؤونا بعيدهم، فهل يجب علينا أن نرد عليهم؟ الجواب: لا، لا نرد عليهم؛ لأن الرد عليهم يعني الموافقة والرضا، فإذا جاء إنسانٌ كافرٌ يومَ الحادي والثلاثين من ديسمبر، فقال: أهنتك، عيدٌ مبارك، هنّاك الله، أعاده الله عليك بالخير.

فلا يجب أن ترد عليه، وقل: هذا ليس عيداً لنا، لكن دُعَاؤك لي لا أردّه، إنما أردُّ التهنئة فلا أقبلها؛ لأنه ليس عيداً لنا. هذا واجبٌ علينا إذا كنّا أعزّةً، وإلا فهم كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فلا بأس عندهم أن يهنتوك بعيدك، لكن لا تهنتهم أنت بعيدهم.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]؛ اسْتَمِعْ يَا أَخِي الْمُؤْمِنِ إِلَى هَذَا الْخِطَابِ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَوَجِّهْهُ إِلَيْكَ بِهَذَا الْوَصْفِ الْكَرِيمِ؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، فَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ، فَإِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا وَجَّهَهُ إِلَيْكَ.

وَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ أَقْسَامٌ كَثِيرَةٌ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فَمِنْ الذِّكْرِ مَا هُوَ مُطْلَقٌ، تَذْكُرُ اللَّهَ فِي أَيِّ وَقْتٍ شِئْتَ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ»^(١)، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»^(٢)؛ يَعْنِي: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ كَلِمَةً مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ غُرْسَ لَكَ غُرْسٌ فِي الْجَنَّةِ، غُرْسٌ لَا يَفْنَى، وَلَا يَفْسُدُ، فَهُوَ دَائِمٌ، فَمَا أَهْوَنَ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى بَنِي آدَمَ، يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ هَذَا آلَافَ الْمَرَّاتِ؛ (سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ)، أَرْبَعُ كَلِمَاتٍ يُغْرَسُ لَكَ بِهَا شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب هل يتبع المؤذن فاه ها هنا وها هنا وهل يلتفت في الأذان، ومسلم: كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها، رقم (٣٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، بعد باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، رقم (٣٤٦٢).

ومن الذِّكْرِ ما هو مَخْصُوصٌ بشيءٍ مُعَيَّن، كالذِّكْرِ بعدَ الصَّلواتِ الحَمْسِ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ به في كِتَابِهِ، فَقَالَ عَزَّوَجَلَّ في صَلَاةِ الْجُمُعَةِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْهُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وَفَعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وهو أنواعٌ، فإذا سَلِمَ الْإِنْسَانُ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(١)، وقال الأذكارُ الوارِدَةُ، وهي أربعة أنواعٍ: النوعُ الأوَّلُ: أن تقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» خمسًا وعشرين مرَّةً^(٢)، فيكونُ من ذلك مئة.

النوع الثاني: أن تقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، وتختِمَ ذلك بقولك: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^(٣).

النوع الثالث: أن تقول: (سُبْحَانَ اللَّهِ) ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، و(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) ثلاثًا وثلاثين مرَّةً، و(اللَّهُ أَكْبَرُ) أربعًا وثلاثين مرَّةً، فتكون مئة^(٤).

النوع الرابع: أن تقول: (سُبْحَانَ اللَّهِ) عشرًا، و(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ) عشرًا، و(اللَّهُ أَكْبَرُ) عشرًا^(٥)، فهذا ذِكْرٌ مَقِيدٌ بأدبارِ الصَّلواتِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب استحباب الذكر بعد الصَّلَاة وبيان صفة، رقم (٥٩١).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من عدد التسبيح، رقم (١٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب استحباب الذكر بعد الصَّلَاة وبيان صفته، رقم (٥٩٧).

(٤) أخرجه أحمد (١٥٨ / ٥)، رقم (٢١٧٤٠)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلَاة والسنة فيها، باب ما يقال بعد التسليم، رقم (٩٢٧).

(٥) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء بعد الصَّلَاة، رقم (٦٣٢٩).

ومن الأذكار المقيّدة: أن الإنسان إذا تَوَضَّأَ فَأَسْبَغَ الوضوءَ، يقولُ بعدَ الفراغِ مِنْ وضوئه: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»، فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ ذَلِكَ «فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»، كما جاء في الحديث الشريف^(١).

ومن الأذكار المقيّدة: الأذكارُ عندَ دُخُولِ المسجدِ، تقولُ: «بِسْمِ اللَّهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»، وإذا خَرَجْتَ تقولُ كَذَلِكَ، إِلَّا أَنَّكَ تقولُ: «اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(٢).

ومن الأذكار المقيّدة: التَّسْمِيَةُ عندَ الذَّبِيحَةِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ، إِلَّا السِّنُّ وَالظُّفْرُ». ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ السِّنَّ عَظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى الْحَبَشَةِ»^(٣)؛ وَإِنَّمَا قَالَ: «إِنَّ السِّنَّ عَظْمٌ»؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعِظَامَ إِمَّا نَجِسَةً فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مَطْهَرَةً، وَإِمَّا طَاهِرَةً كَالْعَظْمِ الَّذِي ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَهَذِهِ لِلْجَنِّ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَدِمَ إِلَيْهِ وَفَدُ الْجِنِّ قَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لِحُمًا»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الصَّلَاة، باب ما يقول عند دخوله المسجد، رقم (٣١٤)، وابن ماجه:

كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الذبائح والصيد، باب إذا أصاب قوم غنيمة فذبح بعضهم غنمًا أو إبلاً بغير أمر أصحابهم لم تؤكل، رقم (٥٢٢٣)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام، رقم (١٩٦٨).

(٤) أخرجه مسلم: كتاب الصَّلَاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم (٤٥٠).

وأنواع الذكر كثيرة، مذكورة - والحمد لله - في كتب أهل العلم؛ مثل كتاب (الوابل الصيب) لابن القيم رحمه الله، وكتاب (الأذكار) للنووي، وغير ذلك من كتب الأذكار المعروفة المشهورة عند أهل العلم.

المهم: استمع إلى قول ربك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ [الأحزاب: ٤١-٤٢]؛ في أول النهار وآخره: سبِّحوه؛ ومن التسبيح في ذلك الصلوات؛ صلاة الفجر وصلاة العصر؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تَصَامُونَ فِي رُؤُوسِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(١).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ [الأحزاب: ٤٣]؛ هو أي: الله عز وجل، يُصَلِّي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَمَلَائِكَتُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝ [الأحزاب: ٥٦].

ثم قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ [الأحزاب: ٤٤]، يعني: الَّذِينَ يُحْيِيهِمُ اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا لَاقَوْهُ: سَلَامٌ؛ أي: كُلُّ مَا فِيهِ سَلَامٌ مِنَ الْعُقُوبَاتِ وَالْآفَاتِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝ أي: وَاسِعًا عَظِيمًا - جعلنا الله وإياكم مِنْهُمْ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ -.



(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، ومسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عُدوانَ إلَّا على الظَّالِمينَ،
وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وحده لا شريكَ له، إلهُ الأولينَ والآخرينَ، وأشهدُ أنَّ
مُحَمَّدًا عبده ورسوله، سيدُ المرسلينَ، وإمامُ المتقينَ، وعلى آله وأصحابه ومن
تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، أمَّا بعدُ:

فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً
وَآصِيلًا ۖ﴾ ٤٢ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٤١-٤٣].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾. اعلمُ أن الله تعالى
إذا صَدَّرَ الخطابَ بالنداءِ فإنه يدلُّ على أهميَّة هذا الخطابِ؛ لأن النداءَ من جُملةِ
فوائده تنبيهُ المخاطبِ، والتنبيهُ للخطابِ يدلُّ على أهميته.

فإذا مرَّ عليك في القرآن: يا أيها النَّاسُ، يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا، فاعلمُ أن هذا
الخطابَ ذو اهتمامٍ، فانتبهْ له، ثمَّ إذا صَدَّرَه بالإيمانِ ووجهَ الخطابَ للمؤمنينَ دلَّ
هذا على أن ما يأتي بعد هذا إما خيرٌ يُؤمِّرُ به الإنسانُ، وإما شرٌّ يُنهي عنه، ولهذا قال
عبدُ الله بنُ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا﴾ فَأَصْغِ لَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤمِّرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصْرَفُ عَنْهُ»^(١).

والله تعالى إذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَصَدَّرَ الخطابَ بهذه الجملةِ فإن ذلك

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/ ١٣٠)، رقم (٨٦٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢١١)، رقم

يعني أن هذا الخطاب مهم، وأنه من مقتضيات الإيمان، وأن الإخلاص به نقص في الإيمان. فهذه ثلاثة أشياء: أن هذا مهم، وأنه من مقتضيات الإيمان، وأن الإخلاص به نقص في الإيمان.

وفي هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ خير أمر به. ومثال شر نهي عنه: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى﴾ [الأحزاب: ٦٩].

قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بالجوارح. فهذه ثلاثة أنواع. الذكر بالقلب:

يكون بالقلب بمعنى أن الإنسان يستحضر ربه دائماً، وهذا الذكر هو الأهم، وهو الأعظم، وهو الذي يأمر الإنسان بالخير، وينهاه عن الشر؛ كما قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ يعني بقلوبهم ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فذكر الله بالقلب هو الأصل، وكثير من الناس يذكر الله بلسانه وجوارحه وقلبه غافل، فهذا الذكر بالجوارح وباللسان ناقص جداً إذا لم يكن مصحوباً بذكر القلب.

ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] ما قال: لسانه، ولا قال: جوارحه، بل قال: ﴿قَلْبَهُ﴾، فالمهم كل المهم ذكر الله بالقلب. أسأل الله تعالى أن يُحيي قلوبنا جميعاً بذكره.

إذن ذكرُ الله بالقلب هو الأهمُّ والأعظمُّ، وهو الَّذي يأمرُ الإنسانَ بالمعروفِ وينهاه عن المنكرِ، بمعنى أن يستحضرَ الإنسانُ ربَّه دائماً بعلمه، أي بعلمِ الله، وسمعِهِ، وبصرِهِ، وعظمتِهِ، وجلالِهِ، ومحبتِهِ، وغير ذلك.

الذكر باللسان:

النوع الثاني: ذكر الله باللسان؛ مثل: سُبْحَانَ اللَّهِ، والحمدُ لله، ولا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، واللهُ أكبرُ، وما أشبه ذلك.

ويدخل في ذكر الله بالمعنى الأعمَّ كلُّ قولٍ يُقَرَّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فكلُّ قولٍ يُقَرَّبُ إلى الله فهو داخلٌ في ذكرِ اللسان. ووجهُ هذا أن القولَ الَّذي يقَرَّبُ إلى الله لا يقوله الإنسانُ إلا وهو يذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يريدُ التقَرُّبَ إليه بذلك، فيكونُ من هذا الوجهِ ذكراً لله.

ويدخلُ في هذا الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، فكلُّ قولٍ يقَرَّبُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يدخلُ في ذكرِ الله باللسان.

وكذلك قراءةُ القرآن من ذكرِ الله؛ لأنَّه قولٌ يقَرَّبُ إلى الله، وأفضلُ قولٍ يقوله الإنسانُ هو كلامُ الله عَزَّوَجَلَّ؛ القرآنُ، فإذا قرأه الإنسانُ فله بكلِّ حرفٍ حسنة، والحسنةُ بعشرِ أمثالها، فما أكثرَ حروفَ القرآن، وما أكثرَ الحسناتِ في تلاوةِ القرآن.

لذلك أحثُّ نفسي وإياكم على كثرةِ قراءةِ القرآن؛ ولا سيَّما في شهرِ رمضان الَّذي أنزل فيه القرآنُ، فأقول لنفسي: انتهزِ الفرصة، وأقول لإخواني: انتهزوا الفرصة في هذا الشهرِ المبارك قبل أن يزولَ، وأكثرُوا من قراءةِ القرآن.

وَمَنْ مَّنَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِحِفْظِهِ فَإِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يقرأه ماشياً وقاعداً ومُضْطَجِعاً على فراشه، ومن كان لم يحفظه فإنه يحفظُ منه ما تيسَّر وليكرَّر ما حِفْظُهُ من القرآن.

الذكر بالجوارح:

والنوع الثالث من أنواع الذكر: الذكر بالجوارح. والذكر بالجوارح نستطيع أن نقول: كلُّ فعلٍ يتقَرَّبُ به الإنسانُ إلى الله فهو من ذكرِ الله. وعلى هذا فإذا كتب الإنسانُ مسألةً من مسائل العلم قيدها لئلا ينساها، فإن تقييده إياها يُعتبر ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وإذا ركع الإنسانُ أو سجدَ أو قامَ من الرُّكُوعِ أو من السُّجُودِ فإنَّ ذلك من ذكرِ الله عزَّ وجلَّ.

ولهذا لا تجدُ عبادةً مثل الصلاة مُشتملة على كلِّ أنواع الذكر، ففيها ذكرُ القلب؛ لأنَّ الإنسانَ حينما يتوضأُ في بيته، ويأتي إلى المسجد، أو يتوضأُ في بيته ويصلي في بيته - لأنَّ النوافلَ في البيت أفضلُ من النوافلِ في المسجد - حينما يأتي بهذه النية يكون ذاكرًا لله بقلبه، فإذا كَبَّرَ وقرأ وسبَّح ودعا فهو ذاكرٌ لله بلسانه، وإذا قام وركع وسجدَ وقعد فهو ذاكرٌ لله بجوارحه.

إذن الصلاة في الحقيقة روضةٌ من رياض العبادات، فيها من كل زوج بهيج، ولهذا كانت أوكد العبادات بعد الشهادتين، ولهذا فرضها الله على رَسوله منه إليه بدون واسطة، ولهذا فرضها الله على رَسوله في أعلى مكانٍ يصلُّه البشرُ فيما نعلم؛ في السماء السابعة، ولهذا فرضها الله على رَسوله في أشرف ليلةٍ للرَّسولِ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وهي ليلة المعراج.

فَالصَّلَاةُ شَأْنُهَا عَظِيمٌ، وَلِهَذَا فَرَضَهَا اللَّهُ أَوَّلَ مَا فَرَضَهَا خَمْسِينَ صَلَاةً، اللَّهُ أَكْبَرُ! وَالْآنَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ ثَقِيلَةٌ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، وَكَانَتْ فِي الْأَوَّلِ خَمْسِينَ صَلَاةً لَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلَهَا يَا إِنْسَانُ فِي أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً، وَلَكِنْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بَلُطِفَهُ وَرَحْمَتِهِ وَكَرَمِهِ يَسِّرَ نَبِيَّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَهَا مَرَّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ نَازِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَمَرَّ بِمُوسَى فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟». قَالَ: «خَمْسِينَ صَلَاةً». قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ». وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْبَلُ الْحَقَّ مِنْ أَيِّ إِنْسَانٍ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. فَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ وَسَأَلَهُ التَّخْفِيفَ، وَسَأَلَهُ التَّخْفِيفَ، فَمَا زَالَ يَسْأَلُ حَتَّى كَانَتْ خَمْسًا بِالْفِعْلِ، وَخَمْسِينَ فِي الْمِيزَانِ^(١)، فَنَحْنُ لَا نَصَلِّي إِلَّا خَمْسَ صَلَوَاتٍ؛ لَكِنَّهَا خَمْسُونَ فِي الْمِيزَانِ.

وَخَمْسُونَ فِي الْمِيزَانِ يَعْنِي كَأَنَّا صَلَّيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً، وَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشِرَ أَمْثَالِهَا؛ لِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ -أَعْنِي أَنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشِرَ أَمْثَالِهَا- لَجَمِيعِ الْعِبَادَاتِ، لَكِنْ فِي الصَّلَاةِ أَنْتَ تُصَلِّي خَمْسًا وَكَأَنَّا صَلَّيْتَ خَمْسِينَ، وَالْخَمْسُونَ الْحَسَنَةُ بَعَشِرَ أَمْثَالِهَا تَكُونُ خَمْسَ مِئَةٍ؛ فَهَذِهِ الْخَمْسُ صَلَوَاتُ كَأَنَّا صَلَّيْنَاهَا خَمْسِينَ صَلَاةً وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ؛ تَخْفِيفٌ وَثَوَابٌ، وَكُلُّ هَذَا بَرَكَةٌ الْمَشُورَةِ النَّافِعَةُ.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحْمَتُهُ سَبَقَتْ رَحْمَةَ أَيِّ رَاحِمٍ، فَخَفَّفَ عَنِ الْعِبَادِ وَأَمْضَى الْفَرِيضَةَ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، وَصَارَتِ الصَّلَاةُ كَأَنَّا صَلَّيْنَا خَمْسِينَ صَلَاةً، وَإِنَّمَا صَلَّيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَنَاقِبِ، بَابُ الْمَعْرَاجِ، رَقْمُ (٣٨٨٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْإِسْرَاءِ، رَقْمُ (١٦٢).

قول الله عزَّوجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿رَبَّنَا عَزَّجَلَّ أَحَقُّ أَنْ يُشْنَى عَلَيْهِ، وَأَحَقُّ أَنْ يُذَكَّرَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، قَالَ: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ دَائِمًا بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ، فَإِذَا هَمَمْتَ بِسِيئَةٍ فَادْكُرِ اللَّهَ، اذْكُرِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَفْعَلُ، وَيَسْمَعُكَ حِينَ تَقُولُ، وَيَعْلَمُ بِمَا فِي قَلْبِكَ حِينَ تَهْتُمُّ، فَادْكُرْ هَذَا، وَإِذَا ذَكَرْتَهُ فَسَوْفَ تَمْتَنِعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَإِذَا حَدَّثَكَ نَفْسُكَ بِالتَّرَاخِي فِي فِعْلِ الْوَاجِبِ فَادْكُرِ اللَّهَ عَزَّجَلَّ حَتَّى يَحْمِلَكَ هَذَا الذِّكْرُ عَلَى الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ.

وَذَكْرُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ذِكْرٌ مُطْلَقٌ، وَذِكْرٌ لَهُ سَبَبٌ:

الذِّكْرُ الْمَطْلُوقُ: أَنْ تَذْكُرَ اللَّهَ دَائِمًا بِدُونِ أَيِّ سَبَبٍ؛ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ - لَأَنَّهُ كَبِيرٌ فِي السِّنِّ وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِيَامَ بِكُلِّ وَاجِبٍ - فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّهُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١)؛ يَعْنِي: أَكْثَرَ الذِّكْرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ لِسَانُهُ لَا يَزَالُ رَطْبًا فَسَوْفَ يَقُومُ بِالْوَاجِبَاتِ عَلَيْهِ مَا اسْتَطَاعَ.

فَالذِّكْرُ الْمَطْلُوقُ أَنْ يَذْكُرَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جَنْبٍ.

الذِّكْرُ الْمُقَيَّدُ: وَمِنْ أَنْوَاعِهِ:

الذِّكْرُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ:

وَالذِّكْرُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ مُقَيَّدٌ بِالصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ، فَإِذَا سَلَّمَ الْإِنْسَانُ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابَ الدَّعَوَاتِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الذِّكْرِ، رَقْمُ (٣٣٧٥)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فَضْلِ الذِّكْرِ، رَقْمُ (٣٧٩٣).

من الصَّلَاةِ المكتوبةِ أوَّلَ ما يبدأُ فإنه يقولُ: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ، أَسْتَغْفِرُ اللهَ» ثلاثًا، «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» هذا قبل كلِّ شيءٍ، ثمَّ يذكرُ اللهَ ثلاثَ مراتٍ فيقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في الظُّهْرِ والعَصْرِ والعِشَاءِ، ويقولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» عشرَ مراتٍ بعدَ الفجرِ وبعدَ المغربِ، ثمَّ يُسَبِّحُ. والتسبيحُ له أربعةُ أوجهٍ:

أولاً: تقول: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ لله، واللهُ أكبرُ، ثلاثًا وثلاثينَ مرةً، فيكونُ الجميعُ تسعًا وتسعينَ، واختتمها بـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ». فيكونُ الجميعُ مئةً.

ثانيًا: تقول: سُبْحَانَ اللهِ ثلاثًا وثلاثينَ، والحمدُ لله ثلاثًا وثلاثينَ، واللهُ أكبرُ أربعًا وثلاثينَ، فهذه مئة مرة، فسقط من الأول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..» واختلفت الصيغةُ، فالأول: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ لله، واللهُ أكبرُ جميعٌ، والآن كل واحدةٍ وحدها. هذان نوعان.

ثالثًا: تقول: سُبْحَانَ اللهِ، والحمدُ لله، ولا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أكبرُ، خمسًا وعشرينَ، فيكونُ الجميعُ مئةً.

رابعًا: تقول: سُبْحَانَ اللهِ عشرًا، والحمدُ لله عشرًا، واللهُ أكبرُ عشرًا، والجميعُ ثلاثونَ.

فهذه أربعةُ أنواعٍ، فافعلْ هذا مرةً، وهذا مرةً؛ لتأتي بالسنةِ على جميعِ وجوهها؛ لأنَّ القولَ الرَّاجِحَ الصَّوابَ الصَّحيحَ أن العبادَةَ إذا وردتْ على وجوهٍ متنوعةٍ

فالأفضل والأوفق للسنة أن تأتي بها تارة كذا، وتارة كذا.

وخذ هذه القاعدة انتفع بها: السنة إذا وردت على وجوه متنوعة فلا تأخذ بنوع واحد وتترك الباقي، بل افعل هذا مرة وهذا مرة؛ حتى تأتي بالسنة على جميع الوجوه.

فهذا ذكر مقيّد بأدبار الصلاة.

طُرْفَة: سمع رجل خطيباً يوم عيد النحر يخطب ويذكر شروط التزكية وكيفية التزكية، فقال: ويقول إذا أضجعها: باسم الله وجوباً، والله أكبر استحباباً. والخطيب يريد أن يبين الحكم، فلما أراد هذا الرجل أن يذبح الذبيحة وأضجع الذبيحة قال: باسم الله وجوباً، والله أكبر استحباباً! ظن أن هذا يقال عند الذبح، والخطيب يريد أن «باسم الله» واجب، و«الله أكبر» مستحب.

الذكر عند الطعام:

وهناك ذكر مقيّد عند الأكل والشرب، فعند الأكل تقول: «باسم الله» وجوباً، فيجب أن يسمي الإنسان ربه عند الأكل، وأن يسمي ربه عند الشرب، فيقول: «باسم الله» عند الأكل، و«باسم الله» عند الشرب، وجوباً، يعني لو تركها الإنسان متعمداً أثم، ولو نسيها ثم ذكرها في أثناء الأكل أو الشرب فإنه يقول: «باسم الله أوله وآخره». هذا عند البدء. وعند النهاية تحمّد الله، تقول: الحمد لله؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في الأول، وقد أكل معه غلام، وهو عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما، ابن أم سلمة، كان في حجر النبي ﷺ، فقدم الطعام، فجعلت يد الصبي تطيش يميناً وشمالاً، فعلمه معلّم الخير عليه الصلاة والسلام، قال: «يا غلام، سم الله

وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(١).

أما الثاني، وهو الحمدُ عند الفراغ، فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(٢) اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ. والأكلُ من الله، والشربُ من الله عَزَّوَجَلَّ ومع ذلك إذا حمدت الله على ما أنعم به عليك، فإن ذلك سببٌ لرضا الله عنك.

إذن هذا ذكرٌ مقيّدٌ عند الأكلِ ابتداءً وانتهاءً، وكذلك عند الشربِ.

الذكر عند الخلاء:

كذلك أيضًا من المقيّد أنّه لما كان عند الأكلِ والشربِ ذكرٌ، كان عند إخراجِ الأكلِ والشربِ ذكرٌ، فهذه نِعَمٌ عظيمةٌ؛ عند إخراجِ الأكلِ والشربِ ذكرٌ، وإذا أردت أن تدخلَ الحمامَ فهناك ذكرٌ، وهو: «بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»^(٣). والبسملَةُ واضحةٌ، والخُبْثُ: الشرُّ، والخَبَائِثُ: النفوسُ الخبيثةُ الشريرةُ.

والمناسبةُ ظاهرةٌ جدًّا؛ فالحمامات؛ المراحيضُ وبيوتُ الخلاءِ مقرُّ الشياطين، والمساجدُ مقرُّ الملائكة، فهناك فرق؛ الخبيثاتُ للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، فهؤلاء الشياطين إذا لم تتعوّذ بالله منهم فربما يُصيبونك بأذى، ولهذا كثر المسُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٣٧٦)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما يقول عند الخلاء، رقم (١٤٢)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب ما يقول إذا أراد دخول الخلاء، رقم (٣٧٥).

بالجنِّ في عصرنا هذا؛ لأننا لا نتحرَّز من الشياطين.

فلا تنسَ عند دخولِ الخلاءِ أو دخولِ المرحاض أن تقول: «بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ»؛ لأنَّ أَمَامَكَ شياطينَ عدوَّةَ لك، تريد أن تؤذيك، فاستعِذْ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وإذا خرجتَ فقل: «غُفْرَانُكَ»^(١)، وإن شئتَ أن تُكْمِلَ فتقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي»^(٢) فلا بأس.

ومعنى «غُفْرَانُكَ»: أسألكَ غفرانَكَ. قال بعضُ العلماء: لأنَّ الإنسانَ وهو على الخلاءِ لا يذكرُ اللهَ، فيستغفرُ اللهَ أنَّه لم يذكرِ اللهَ في هذه الحالِ، لكن هذا غلط؛ لأنَّ إمساكَه عن ذكرِ اللهِ في هذه الحالِ ليس ذنبًا، بل هو تعظيمٌ لله، ولكن العلماءُ أبدوا حِكْمَةً واضحةً، قالوا: إنَّ الإنسانَ إذا خرجَ من الخلاءِ أو من المرحاض فقد وضعَ عن نفسه حملاً ثَقِيلاً، فهو يدعو اللهَ أن يضعَ عنه عبءَ الذنوبِ ويغفرَها له.

فإذا خرجَ الإنسانُ من الخلاءِ فقد وضعَ عن نفسه حملاً ثَقِيلاً، وافترضَ أنك تدافعُ الأخبثين؛ البولَ أو الغائطَ، فإذا يسَّرَ اللهَ لك خُروجَهما وجدتَ خِفَةً وراحةً وأنساً وسروراً، وبهذه الخفةِ بعد الحملِ الثَقِيلِ والعبءِ الثَقِيلِ يتذكرُ الإنسانُ عبءَ الذنوبِ وثِقَلَهَا، فكأنك تقول: يا ربِّ، كما وضعتَ عني الحملَ الثَقِيلَ الجسديَّ، فَضَعْ عني الحملَ الثَقِيلَ والعبءَ الثَقِيلَ المعنويَّ. وهذه مناسبةٌ ظاهرةٌ.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الطهارة، باب ما يقول الرَّجُلُ إذا خرجَ من الخلاء، رقم (٣٠)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقول إذا خرجَ من الخلاء، رقم (٧)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرجَ من الخلاء، رقم (٣٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب ما يقول إذا خرجَ من الخلاء، رقم (٣٠١).

وهناك أيضًا ذكرٌ مقيدٌ عند النوم، وعند الاستيقاظ من النوم، وهناك ذكر عند دخول البيت وعند الخروج منه، وهناك ذكرٌ عند دخول المسجد وعند الخروج منه، والأذكارُ المقيدةُ بأسبابها كثيرةٌ، وليس هذا محلُّ استيعابها؛ لكن يمكن أن تُدرِكوها بمراجعة كتب الأذكار، وهناك كُتُبَاتٌ صغيرةٌ تُوزَعُ فيها أذكارُ اليوم والليلة، وهناك أيضًا كُتُبٌ أكبرُ مثل كتاب (الأذكار) للنووي رَحِمَهُ اللهُ، وكتاب (الوابل الصيب) لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، و(الكلم الطيب) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

فالعُلَمَاءُ - جزاهم الله خيرًا - أوضحوا ذلك وبيَّنوه في كُتُبِهِمْ. والذي ينبغي للإنسان أن يحرص على هذه الأذكار، وأن يذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بها.

قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ سبحوا الله بكرةً يعني في أول النهار، وأصيلًا: آخر النهار.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: ﴿هُوَ﴾ أي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي: تُصَلِّي عليكم، فأنت أيها المؤمنُ أبشِر أن الله عَزَّوَجَلَّ وملائكته الكرام يصلون عليك، فكل مؤمنٍ فالله وملائكته يُصَلِّي عليه، لماذا؟ ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات السفه إلى نور الرشيد، ومن ظلمات الانحراف إلى نور الاستقامة، ومن كل ظلمةٍ إلى كل نور، ﴿وَكَانَ﴾ أي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

اللَّهُمَّ كن بنا رَحِيمًا يا ربَّ العالمين، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، واجعل

خَيْرَ أَعْمَالِنَا خَوَاتِيمَهَا، وَخَيْرَ أَعْمَارِنَا آخِرَهَا، وَخَيْرَ أَيَّامِنَا وَأَسْعَدَهَا يَوْمَ نَلْقَاكَ، إِنَّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ.



الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ وَأَدَّى الْأَمَانَةَ وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَتَرَكَهَا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيِّضَاءَ لَيْلِهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وَقَدْ أَثَرُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَارْعَهَا سَمْعَكَ -يَعْنِي اسْتَمِعْ لَهَا- فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَوْجِيهِ الْخُطَابِ إِلَيْهِمْ بِهَذَا الْوَصْفِ الْجَلِيلِ، بِالْإِيْمَانِ الَّذِي أَسْأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ حَقِّقِ الْإِيْمَانَ عَقِيدَةً وَقَوْلًا وَعَمَلًا ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أَمَرْنَا بِذِكْرِهِ ذِكْرًا كَثِيرًا وَأَتْنَى عَلَى الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١] فَقَالَ: ﴿يَذْكُرُونَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (١/١٩٦)، رقم (١٠٣٧).

اللَّهُ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴿١﴾ أَيِ فِي كُلِّ حَالٍ، وهنا يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ واعلم أن ذكرَ الله عزَّوجلَّ يكونُ باللسانِ ويكونُ بالقلبِ ويكونُ بالجوارحِ، يكونُ باللسانِ كقولنا: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ، الحمدُ لله، اللهُ أَكْبَرُ، وَبِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، هَذَا يَكُونُ بِاللِّسَانِ.

ويكونُ بالقلبِ بأن يكونَ الإنسانُ دائماً معَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقلبه، يَذْكُرُ اللهَ تَعَالَى دائماً بقلبه، يَذْكُرُ اللهَ بِعَظَمَتِهِ، وَيَذْكُرُ اللهَ بِكِبَرِيَّاتِهِ، وَيَذْكُرُ اللهَ بِسُلْطَانِهِ، وَذِكْرُ اللهَ بالقلبِ أَشَدُّ تَأْثِيراً مِنْ ذِكْرِ اللهَ باللسانِ، اسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللهَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴿١٣٥﴾ آل عمران: ١٣٥﴾ أَيِ بقلوبِهِمْ ذَكَرُوا عَظَمَةَ اللهَ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿آل عمران: ١٣٥﴾.

ذِكْرُ اللهَ تَعَالَى بالجوارحِ فَكُلُّ حَرَكَةٍ تُقَرِّبُ إِلَى اللهَ فَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، هَذِهِ الْقَاعِدَةُ: كُلُّ حَرَكَةٍ تُقَرِّبُ إِلَى اللهَ فَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللهَ؛ فِي الصَّلَاةِ: الْقِيَامُ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، الرُّكُوعُ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، السُّجُودُ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، الْجُلُوسُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، كُلُّ حَرَكَةٍ فَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللهَ، دَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٩﴾ الجمعة: ٩﴾ الصَّلَاةُ وَالْخُطْبَةُ، وَقَوْلُ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] أَيِ لِمَا فِيهَا مِنْ ذِكْرِ اللهَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ.

إِذْنِ الذِّكْرِ يَكُونُ بِاللِّسَانِ وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ وَيَكُونُ بِالْجَوَارِحِ.

وَذِكْرُ اللهَ عزَّوجلَّ مُطْلَقٌ وَمَقِيدٌ، مُطْلَقٌ يَعْنِي كُلَّ وَقْتٍ، وَمَقِيدٌ يَعْنِي فِي حَالٍ

معينة أو في زمن معين أو في مكان معين، فعندما ندخل المسجد نقول: «بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ». وإذا خرجنا من المسجد نقول: «بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(١). هذا ذكر؛ لأنَّ الدعاء لا شكَّ أنه ذكرٌ مُقيَّدٌ بمكان، عندما نمرُّ بالحجر الأسود حول الكعبة المشرفة نقول: الله أكبر. هذا مُقيَّدٌ بمكان، عندما نضعُ الصفا والمروة نذكرُ الله ونَدْعُو، هذا أيضًا مُقيَّدٌ بمكان.

أما المقيدة بزمانٍ كأذكارِ المساءِ والصباحِ، هذه مقيدةٌ بزمانٍ، وهي معروفةٌ في كتبِ أهلِ العلمِ.

أما المقيدة بحالٍ فمثلاً عندما يصيبُ الإنسانَ همٌّ أو غمٌّ يذكرُ الله، قال رسولُ الله ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ: كَلِمَةُ أَخِي يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»^(٢) هذا مقيَّدٌ بحالٍ، ومنه مثلاً عندما يهجمُ الإنسانُ بالأمرِ ويُشكِلُ عليه ويتردَّدُ فيه ماذا يصنع؟ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ فإذا سَلِمَ دَعَا بدعاءِ الاستخارة المعروف: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»^(٣) وهو معروفٌ، هذا مقيَّدٌ بحالٍ، كذلك أذكارُ النومِ إن شئتَ قلَّ مقيدةٌ بحالٍ وإن شئتَ قلَّ مقيدةٌ بزمانٍ.

(١) أخرجه أحمد (١٥/٤٤)، رقم (٢٦٤١٧)، وابن ماجه: كتاب المساجد والجماعات، باب الدعاء عند دخول المسجد، رقم (٧٧١).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة، رقم (٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التهجد، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، رقم (١١٠٩).

وإذا جاء ذِكْرٌ مطلقٌ وقَيْدُهُ الإنسانُ بحالٍ أو مكانٍ أو زمانٍ لم تَرُدْ به الشريعةُ صارِ بِدْعَةً، لا مِنْ حَيْثُ أَصْلِهِ، ولكن مِنْ حَيْثُ تَقْيِيدِهِ بهذا الزمانِ أو بهذا المكانِ أو بهذه الحالِ؛ لأنَّ العِبَادَاتِ يا إِخْوَانَنَا مقيدةٌ بما وَرَدَتْ به الشريعةُ في أصلها ووصفها، فمثلاً لو قالَ قائلٌ: إِنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مشروعةٌ في كُلِّ وَقْتٍ. فَأَرَادَ أَنْ يجعلَ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ عندَ الأكلِ، صارَ إذا قُدِّمَ الأكلُ قالَ: بِسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ. نقولُ له: أَصَبْتَ في (بِسْمِ اللهِ) وأخطأتَ في (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ) مَعَ أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ، وهي مشروعةٌ كُلِّ وَقْتٍ.

إذن، الأمرُ بالذِّكْرِ عامٌّ في القلبِ والجوارحِ واللسانِ، ثمَّ إنَّ الذِّكْرَ نوعان: نوعٌ مقيدٌ، ونوعٌ مطلقٌ، والنوعُ المطلقُ لا يمكنُ أَنْ تَقْيِدَهُ إِلَّا بِدَلِيلٍ مِنَ الشَّرْعِ فقولُ اللهِ: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] هُوَ غيرُ مقيدٍ لو تَبَقَّى تَذْكُرُ اللهُ دائماً فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، وفي الحديثِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ شَرَّائِعَ الإِسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ فَأَوْصِنِي، قالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»^(١).

واعْلَمْ أَنَّ الإنسانَ كلما أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللهِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ اطمأنَّ قلبه وانشرح صدره ونسي كلَّ شيءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فإذا أَرَدْتَ طمأنينةَ القلبِ وانشراحَ الصدرِ وطيبَ العيشِ فعليك بِذِكْرِ اللهِ.

فلَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ فَقَالَ: إِنَّهُ طالِبُ عِلْمٍ فهل طَلَبُ العِلْمِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ؟

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، رقم (٣٧٩٣).

فالجواب: أَنَّ طلبَ العلمِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَا شَكَّ، بَلْ هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الذِّكْرِ، وَطَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ بِنِيَّةٍ صَالِحَةٍ قَالَ فِيهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْعِلْمُ لَا يَغْدِلُهُ شَيْءٌ»^(١)؛ كَلَامٌ مِنَ الْإِمَامِ إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ كَيْفَ تَصْلُحُ النِّيَّةُ؟ قَالَ: «يَنْوِي بِهِ رَفَعَ الْجَهْلَ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ». هَذِهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: إِنْ طَالَبَ الْعِلْمَ حِينَمَا يُفْتَشُّ الْكِتَابَ لِيُطَالَعَ فِيهِ فَهُوَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ، حِينَمَا يُرَدِّدُ مُحْفُوظَاتِهِ فَهُوَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ.

وقد اختلف العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَيُّمَا أَفْضَلُ الْعِلْمُ أَوِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟

فَنَقُولُ: الْعِلْمُ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ أَفْضَلُ مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ كُلُّهَا؛ وَلِأَنَّ الْعِلْمَ يَدْخُلُ فِي كُلِّ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عِبَادَةٍ وَمَعَامَلَةٍ وَأَخْلَاقٍ وَغَيْرِهَا، وَالْجِهَادُ فِي صَدِّ الْأَعْدَاءِ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، هَذَا مِنْ حَيْثُ اعْتِبَارِ ذَاتَيْهِمَا، أَمَّا بِاعْتِبَارِ كُلِّ شَخْصٍ بَعِيْنِهِ فَقَدْ يَأْتِينَا رَجُلٌ وَيَقُولُ: أَيُّمَا أَفْضَلُ لِي الْعِلْمُ أَوِ الْجِهَادُ؟ فَنَقُولُ: الْجِهَادُ، وَيَأْتِي آخَرُ يَقُولُ: أَيُّمَا أَفْضَلُ لِي الْعِلْمُ أَوِ الْجِهَادُ؟ نَقُولُ: الْعِلْمُ؛ لِلَاخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا، فَلَوْ جَاءَنَا رَجُلٌ قَوِيُّ الْبَدَنِ قَوِيُّ الْعَزِيمَةِ شَجَاعٌ وَهُوَ فِي الْعِلْمِ ضَعِيفٌ حِفْظُهُ رَدِيءٌ وَفَهْمُهُ أَرْدَأُ وَجَلَدُهُ عَلَى الْعِلْمِ أَقْلٌ، نَقُولُ لَهُ: جَاهِدْ، وَبِالْعَكْسِ رَجُلٌ جَاءَنَا ضَعِيفُ الْبَدَنِ وَلَيْسَ بِشَجَاعٍ، لَكِنْ عِنْدَهُ حِفْظٌ وَفَهْمٌ وَجَلَدٌ عَلَى الْعِلْمِ قَوِيٌّ جِدًّا، نَقُولُ لَهُ: الْأَفْضَلُ الْعِلْمُ. فَإِنْ تَسَاوَى الْأَمْرَانِ يَعْنِي لَمْ نَجِدْ مُرَجِّحًا لِهَذَا وَلَا لِهَذَا فَالْعِلْمُ، فَالْعِلْمُ النَّاسُ يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

(١) انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١١١).

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢] سبِّحوه في أول النهار وفي آخر النهار، والتَّسْبِيحُ أَنْ يَقُولَ الْإِنْسَانُ: سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ، وهنا كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرَّحْمَنِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١) هما خفيفتان على اللسان، هما ثقيلتان في الميزان، هما حبيبتان إلى الرَّحْمَنِ، يا أخي هذا الثواب لهاتين الكلمتين يجعلُ الْإِنْسَانُ لَوْ بَقِيَ طَوْلَ زَمَنِهِ يَقُولُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ. لكان الزمنُ رَخِيصًا بالنسبة لهاتين الكلمتين، وفيها هذا الفضلُ، ما فضلُهما؟ كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، هاتان الكلمتان متى قلتَهما فهذا ثوابُهما.

(سَبِّحُوهُ) يعني قولوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، ومن أفضلِ التَّسْبِيحِ هَاتَانِ الكلمتان، هناك تسبيحٌ مقيدٌ في الصَّلَاةِ أدبارِ الصَّلَوَاتِ المكتوبة، وهو أربعة أنواع، أن تقول: (سُبْحَانَ اللَّهِ)، عَشْرَ مَرَّاتٍ، (الْحَمْدُ لِلَّهِ) عَشْرَ مَرَّاتٍ (اللَّهُ أَكْبَرُ) عَشْرَ مَرَّاتٍ، هذه ثلاثون، هذا نوعٌ، النوعُ الثاني: أن تقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» ثلاثًا وثلاثين فيكون المجموعُ تسعةً وتسعين وتختتم المئة بقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وهذا الَّذِي لَا يَعْرِفُ غَالِبُ النَّاسِ سِوَاهُ. النوعُ الثالثُ: أن تقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ» ثلاثًا وثلاثين سَرْدًا «الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثلاثًا وثلاثين «اللَّهُ أَكْبَرُ» أربعًا وثلاثين، فيكون العددُ مئة. النوعُ الرابعُ أن

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَزِينَ الْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن، رقم (٧١٢٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

تقول: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» خَمْسًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً، فيكون الجميع مئة كل هذا وَرَدَ، فإذا كنتَ ضَبَطْتَ ذَلِكَ فَقُلْ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا مَرَّةً؛ لَأَنَّ الْعِبَادَاتِ الْوَارِدَةَ عَلَى أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَقُولَ هَذَا النُّوعَ مَرَّةً وَهَذَا النُّوعَ مَرَّةً حَتَّى يَحْفَظَ السُّنَّةَ وَيَعْمَلَ بِكُلِّ مَا وَرَدَ فِيهَا.

وَمِنَ التَّسْبِيحِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ الصَّلَاةُ، فَهِيَ مِنَ التَّسْبِيحِ؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ التَّسْبِيحَ؛ وَلِأَنَّهَا تَنْزِيهٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسُبِّحْنَ اللَّهَ حِينَ تُمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿ [الروم: ١٧-١٨] قَالُوا: إِنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ صَلَاتَا الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، قَالَ فِيهِمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(١).

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ، الْفَجْرُ بَرْدُ اللَّيْلِ وَالْعَصْرُ بَرْدُ النَّهَارِ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا تُغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»^(٢). الَّتِي قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ الْفَجْرُ، وَالَّتِي قَبْلَ غُرُوبِهَا الْعَصْرُ، يَا أَخِي هَذَا ثَوَابٌ عَظِيمٌ إِذَا حَافِظْنَا عَلَى هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ مَعَ الْمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْآخَرَى، هَذَا الثَّوَابُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ، رَقْمُ (٥٧٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ، رَقْمُ (٦٣٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاةِ الْعَصْرِ، رَقْمُ (٥٥٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ صَلَاتِي الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا، رَقْمُ (٦٣٣).

النظرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ «سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وهذا التشبيهُ لتحقيقِ رؤيةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لا لتشبيهِ اللَّهِ بالقمرِ، حاشاً وكلاً، فإنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَكِنْ شَبَّهَ الرَّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ لِتَحْقِيقِهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَا يَشْكُ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ، لَكِنْ لَا يَقَعُ فِي قَلْبِكَ أَنَّ الرَّبَّ مُشَابَهُ لِلْقَمَرِ أَبَداً.

والدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لَا يَقَعُ فِي قَلْبِكَ التَّمثِيلُ إِطْلَاقاً، مِنْ عَقِيدَتِنَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَرَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ رُؤْيَةً حَقِيقَةً بِالْعَيْنِ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ، نَسْأَلُ اللَّهَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَلَكِنْ هَلْ إِذَا رَأَيْنَا رَبَّنَا عَزَّوَجَلَّ وَنَسْأَلُ اللَّهَ ذَلِكَ، هَلْ إِذَا رَأَيْنَا رَبَّنَا نُذِرْكُهُ؟ الْجَوَابُ: لَا، مَا نُحِيطُ بِهِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَلَّ قَوْمًا فَأَنكَرُوا أَنَّ يَرَى اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَقَالُوا: لَا يُمْكِنُ رُؤْيَةُ اللَّهِ، بَلْ إِنَّهُمْ تَجَرَّعُوا وَكَفَّرُوا -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَرَى. سُبْحَانَ اللَّهِ، أَنَّنْكَرُ أَنَّ اللَّهَ يَرَى وَهُوَ الَّذِي أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ؟! أَنَّنْكَرُ أَنَّ يَرَى وَالَّذِي أَخْبَرَ بِذَلِكَ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؟! أَيْمَنُ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَشْكُ فِي خَبَرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟!

أَدْلَةُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

الآيَةُ الْأُولَى: فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ حَسَنَةٌ بَهِيَّةٌ جَمِيلَةٌ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾، وَآلَةُ الرُّؤْيَةِ فِي الْوَجْهِ الْعَيْنُ؛

ولهذا جاء التصريح بذلك «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنًا»^(١) عَيْنًا، أي: مُعَايَنَةً وَاضِحًا جِدًّا ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣].

الآية الثانية: قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ فِي سُورَةِ الْمَطْفِينَ حِينَ ذَكَرَ الْفَجَارَ وَمَا لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ذَلِكَ الْيَوْمَ ﴿لَمَحْجُوُونَ﴾ قَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ^(٢). لَأَنَّهُ لَمَّا حَجَبَ هَؤُلَاءِ فِي حَالِ الْغَضَبِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ فِي حَالِ الرِّضَا، وَلَوْ كَانَ الْكُلُّ مُحْجُوبِينَ عَنْ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ الْحِجَابِ عَنْ هَؤُلَاءِ فَائِدَةٌ، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ وَاضِحٌ مِنَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ الْمُطَّلِبِيِّ الْقُرَشِيِّ، وَنَاهِيكَ بِهِ فَهْمًا وَمَعْرِفَةً.

الآية الثالثة: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَرَى، لِأَنَّ نَفْيَ الْإِدْرَاكِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ أَصْلِ الرُّؤْيَى، وَلَوْ لَمْ تَكُنِ الرُّؤْيَى مَوْجُودَةً لَقَالَ: لَا تَرَاهُ الْأَبْصَارُ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ﴾ فَنَفْيُ الْإِدْرَاكِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الرُّؤْيَى، وَهَذَا وَاضِحٌ، وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ مِنْ لَهُ هَوَىٰ فَهِمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ نَفْيَ الرُّؤْيَى، اللَّهُ أَكْبَرُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي النُّونِيَّةِ الَّتِي تُسَمَّى (الكَافِيَةَ الشَّافِيَّةَ فِي اعْتِقَادِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ) وَهِيَ نُونِيَّةٌ مِنْ أَحْسَنِ الْقَصَائِدِ، قَالَ^(٣):

وَسَلِ الْعِيَادَ مِنَ التَّكْبَرِ وَالْهَوَىٰ فَهُمَا لِكُلِّ الشَّرِّ جَامِعَتَانِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم (٧٤٣٥).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، لأبي القاسم اللالكائي (٤٦٨/٣).

(٣) القصيدة النونية، لابن القيم (ص ٢٨٧).

فكيف يقال: إن الآية الكريمة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ فيها دليل على نفي الرؤية؟ لا يقول هذا إلا صاحب هوى، وإلا من تأمل القرآن على وجه صحيح متجرداً من الهوى فإنه يتبين له أن في هذه الآية دلالة واضحة على إثبات الرؤية.

الآية الرابعة: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ووجه الدلالة أن نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وهو أعلم الناس بمعنى كلام الله فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل، وهو أعلم الخلق بمعنى كلام الله لا شك، وهو ﷺ أنصح الخلق للخلق، ولا يمكن أن يفسر معنى القرآن بغير ما أراد الله وهو أفصح الخلق، لا يمكن أن يكون في كلامه إلباس ولا إلغاز، وهو أسلم الناس وأكمل الناس إرادة هدى الخلق ﷺ لا شك في ذلك، قال ﷺ: «الزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللَّهِ»^(١).

الآية الخامسة: ومن الآيات أيضاً قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آخِرِ سُورَةِ الْمُطَفِّينِ فِي ثَوَابِ الْأَبْرَارِ: ﴿عَلَى الْأَرْآكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣] أول ما يدخل فيها النظر إلى وجه الله لقوله في الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] يعني لو نازع منازع وقال: الآية هذه ليس فيها دلالة؛ لأنهم ينظرون ما أعد الله لهم من النعيم. قلنا: وأول ما يدخل في ذلك النظر إلى وجه الله لقوله في الفجار.

هذه خمس آيات من القرآن من كلام الله الذي هو أعلم بنفسه من خلقه، أما النبي ﷺ فقد كشف هذا بآيين قول وأوضحه، والأحاديث عنه في ذلك لا أقول كثيرة ولا أقول مشهورة، بل أقول: الأحاديث في رؤية الله عز وجل يوم القيامة

(١) أخرجه الترمذي: كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رقم (٢٥٥٢)، وابن ماجه: كتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٧).

مُتَوَاتِرَةٌ، والمتواتر عند علماء الحديث يفيد العلم اليقيني، هنا بيتان في ذكر بعض المتواتر^(١):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثُ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضُ وَمَسَحَ خُفَّيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وهذان البيتان ذكرهما الحافظ ابن حجر رحمه الله.

إذن، الرؤية ثبتت بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة، وهذا الذي سأقوله إن شاء الله، وهذه قاعدة: عَلِمْنَا إجماع الصحابة بأن الصحابة قرؤوا القرآن وقرؤوا الأحاديث ولم يرد عنهم حرف واحد يخالف ما جاء في القرآن، فإذا لم يكن علمنا أنهم مجمعون، لأنهم لو كان عندهم خلاف لذكروه، فمثلاً هل جاء عن أحد من الصحابة نفى رؤية الله عز وجل؟ ما جاء أبداً، إذا كان لم يجئ وهم يتلون الكتاب ويقرؤون السنة علمنا أنهم مجمعون على ما دل عليه الكتاب والسنة، وهذه القاعدة تطبق في بقية صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، فقد أجمع الصحابة عليها؛ لأنه لم يرد عنهم مخالف، فخذها قاعدة تنفعك في مجادلة أهل التحريف والتعطيل، والشئ بالشئ يذكر.

مسألة العلو:

مسألة علو الله عز وجل قسمان:

الأول: علو وصفي، بمعنى أنه عال بصفاته، أي أن صفاته كلها علو، وهذا

(١) ذكره الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلاً عن الشيخ أبي الله محمد التاودي (ت ١٢٠٩ هـ) في حواشيه على الجامع الصحيح.

متفق عليه بين المسلمين، لا أحد يقول: إن صفات الله فيها نقص، فهذا النوع من العلو أجمع عليه المسلمون فيما نعلم، ولا يمكن أن ينكره أحد، دليله قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] المثل يعني الوصف، وهل المثل يأتي بمعنى الوصف؟ نعم يأتي، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد: ١٥] أي وصفها.

الثاني: العلو الذاتي، يعني أن الله نفسه فوق كل شيء، أي إن الله تعالى عال بذاته فوق كل شيء، هذا النوع أو هذا القسم من العلو أنكره بعض الناس الذين يستقبلون قبلتنا وينسكون نسكنا، قالوا: الله لا يمكن أن يكون فوق كل شيء. ثم ذهب فريق فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى نفسه في كل مكان في السطح في الأسفل في الطاهر في القذر في كل مكان - أعود بالله -.

والحقيقة كيف ترسخ قدم مؤمن بالله على هذا القول، مقتضى هذا القول أن الإنسان إذا كان في المرحاض في أقدر مكان وأنته فالله فيه - أعود بالله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا، هل يمكن لمؤمن أن يعتقد هذا؟ أبدا لا يمكن، وسبحان الله إذا كان الله في كل مكان بذاته فإما أن يتجزأ وإما أن يتعدد ولا بُدَّ، إما أن يتجزأ يكون بعضه هنا وبعضه هنا، لا حول ولا قوة إلا بالله، أو يتعدد، يقول: في كل مكان، أي: نحن الآن في المدينة هو في المدينة، وفي مكة هو في مكة، وفي الرياض هو في الرياض، في كل مكان.

إذن، إما أن يكون متعددا وإما أن يكون متجزئا، وهم بذلك يعتقدون أنهم ينزهون الله، ولكنهم أبعدوا شططا وارتكبوا خطأ، ولا يمكن أن تثبت قداما شخص

يؤمن بالله على هذا القول الباطل.

عُلُوُّ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَابِتٌ بِكُلِّ أَنْوَاعِ الْأَدْلَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ، كُلُّ الْأَدْلَةِ تُثَبِّتُ عُلُوَّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فِي الْقُرْآنِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَأَمِنُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وَالْعُرُوجُ مَعْنَاهُ الصُّعُودُ إِلَى اللَّهِ، إِذَنْ هُوَ فَوْقَ، عَلَى كُلِّ حَالٍ الْأَدْلَةُ تَبْلُغُ الْمَثَابَ.

فِي السُّنَّةِ:

كَذَلِكَ فِي السُّنَّةِ أَيْضًا الْأَدْلَةُ كَثِيرَةٌ، فَمِنْ الْأَحَادِيثِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عُلُوِّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ عِنْدَمَا غَضِبَ عَلَى جَارِيَتِهِ فَلَطَمَهَا فَجَاءَ إِلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَسْتَفْتِيهِ فِي ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ سَيَعْتَقُهَا كَفَّارَةً لِلطَّمِإِ إِيَّاهَا، قَالَ هَاتِيهَا فَقَالَ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» فَهَلْ قَالَ: أَيْنَ اللَّهُ أَوْ قَالَ مَنْ اللَّهُ؟! وَأَيْنَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْمَكَانِ، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. سُبْحَانَ اللَّهِ جَارِيَةٌ أَفْهَمُ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سُدَّ عَلَيْهِمْ بَابُ الْفَهْمِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَبَنَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى هَذَا الْجَوَابِ فَقَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١). وَلَمْ يَقُلْ: أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا كَافِرَةٌ، قَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ، رَقْمُ (٥٣٧).

«أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤَمِّنَةٌ» هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ، وَيَسْمَى عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ دَلِيلًا إِقْرَارِيًّا، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَرَّ مُنْكَرًا.

فِي عَرَفَةٍ وَهُوَ أَكْبَرُ اجْتِمَاعٍ اجْتَمَعَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَصْحَابِهِ، خَطَبَ النَّاسَ وَوَعَظَهُمْ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ثُمَّ قَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١) وَجَعَلَ يَرْفَعُ أَصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيُنْكِتُهَا لِلنَّاسِ. يَعْنِي اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَقَرُّوا بِأَنِّي بَلَغْتُ، وَكَرَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يُجِيبُونَهُ: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» وَهَذِهِ دَلَالَةٌ ثَبَتَتْ بِالْفِعْلِ فِي الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ فِي الْمَجْتَمَعِ الْكَبِيرِ يَرْفَعُ أَصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى أَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ أَقَرُّوا بِأَنَّهُ بَلَغَ، وَنَحْنُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ نُشْهَدُ اللَّهُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ بَلَغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَأَنَّهُ تَرَكَ أُمَّتَهُ عَلَى حُجَّةٍ بَيضاء لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْمُسْتَضِيئِينَ بِهَا، أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا.

وَمِنَ الْأَدْلَةِ أَيْضًا فِي السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاتِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»^(٢).

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»^(٣). وَهَذَا إِقْرَارٌ، وَهَذَا قَوْلٌ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب ليلبلغ العلم الشاهد الغائب، رقم (١٠٥)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٥)، وأبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، رقم (٨٦٩)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب التسبيح في الركوع والسجود، رقم (٨٨٧).

الإجماع:

الإجماع المعتبر هو إجماع السلف، والذي يأتي بعدهم مخالفاً لقولهم فهو خارج عن الاجتماع، فالسلف الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين من بعدهم لم يرد عن واحد منهم حرف واحد يقول: ليس الله في السماء. أبداً، وهذه كتب، كتب بأسانيد والصحاح والحسان كلها موجودة معنا، لا يوجد أحد يقول هذا القول عندهم إجماعاً أو خلافاً؟ إجماعاً بناءً على القاعدة التي ذكرتها قبل قليل أنه إذا لم يرد عن الصحابة ما يخالف القرآن، فهذا إجماع منهم.

العقل:

لو سألنا فقلنا: هل العلوُّ صفة كمالٍ أو صفة نقصٍ؟ لكان الجواب: العلوُّ صفة كمالٍ لا شك، إذا كان العلوُّ صفة كمالٍ فإن العقل يدُلُّ دلالة قاطعة على أن الله موصوفٌ بصفات الكمال، وحينئذ يثبت العلوُّ، الفطرة أدلُّ، والدليل على ذلك أن كل إنسان لم يطلع على هذا القول الباطل - وهو زعمهم أن الله تعالى في كل مكان - إذا قال: يا ربَّ يا ربَّ. أين يذهب قلبه؟ أين يذهب؟ إلى السماء يذهب إلى السماء فطرة بدون تعلُّم وبدون مراجعة كتب، حتى العجوز التي لا تعرف الحروف الهجائية إذا دعت الله وقالت: يا ربَّ، هذا دلالة فطرة.

إذن، إن عقيدتنا التي نرجو الله عزَّ وجلَّ أن يثبتنا عليها إلى الممات أن الله تعالى فوق سمواته مستوٍ على عرشه، وأنه له العلوُّ المطلق في ذاته وصفاته، ونبراً إلى الله من قوم يقولون: إن الله في كل مكان، ونسأل الله لهم الهداية أن يهديهم إلى الصواب حتى لا يلاقوا الله على هذا المذهب الباطل، أيها المسلمون اثبتوا على عقيدتكم

اثْبُتُوا عَلَيْهَا، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَالِمٌ بِذَاتِهِ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْعَرْشِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، بَلْ هُوَ جَلَّ وَعَلَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ
وَلَيْسَتْ السَّمَاءُ ثِقْلُهُ وَلَا الْعَرْشُ يُقْلُّهُ بَلْ هُوَ جَلَّ وَعَلَا مُسْتَغْنٍ عَنِ كُلِّ خَلْقِهِ، وَخَلْقُهُ
كُلُّهُمْ مُفْتَقرُونَ إِلَيْهِ.



الدرس الخامس:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المؤمنين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

[الأحزاب: ٤٥].

فأقول وبالله أقول، وأرجو أن أكون في الله أقول، وحينئذ، وقبل أن نشرع في
التفسير، أريد أن أبين الفرق بين قولنا: «وبالله أقول»، وبين قولنا: «وأرجو أن أكون
في الله أقول»:

أما قولنا: «بالله أقول» فالمراد الاستعانة، ويجب أن يكون الإنسان مستعيناً
بالله عز وجل في جميع أحواله؛ لقول المصلي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ ولقول
النبي ﷺ: «وَإِذَا اسْتَعْنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١).

وأما قولنا: «في الله أقول» أي: إنني أرجو أن يكون قولي في شريعة الله، أي:
مؤافقاً لشرعه، وقول الإنسان قد يوافق الشرع وقد لا يوافقه، ودليل ذلك قول النبي
ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»^(٢)، فجعل
الحاكم المجتهد له حالان: إصابة وخطأ، فأرجو الله سبحانه وتعالى أن نقول: في الله
نقول، وبالله نقول.

(١) أخرجه أحمد: (٢٩٣ / ١)، رقم (٢٦٦٩)، والترمذي: كتاب صفة القيامة، باب، رقم (٢٥١٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (٧٣٥٢)،

ومسلم: كتاب الحدود، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم (١٧١٦).

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، لَا يَخْفَى مَا فِي تَوْجِيهِ الْخِطَابِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِصِغَةِ النِّدَاءِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، أَيُّ: تَعْظِيمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي عُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ حَيْثُ وَصَفَهُ بِالنُّبُوَّةِ، وَلَا يَخْفَى مَا فِي مَسْكِ الْخِتَامِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾، فَجَمَعَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ: النُّبُوَّةِ، وَالرِّسَالَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نُبِيٌّ أَوَّلًا، ثُمَّ أُرْسِلَ ثَانِيًا، نُبِيٌّ أَيُّ: نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ دُونَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالتَّبْلِيغِ.

فَإِنْ قِيلَ: بِأَيِّ شَيْءٍ نُبِيٌّ ﷺ؟

فَالْجَوَابُ: نُبِيٌّ بِـ ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، فَهَذِهِ الْآيَاتُ هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ، نُبِيٌّ بِهَا، وَقَطَعَ الْوَحْيَ، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢]، وَبِذَلِكَ صَارَ رَسُولًا؛ وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ نُبِيٌّ بِـ ﴿أَقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بِالْمُدَّثِّرِ^(١).

إِذْنُ؛ مَا الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ؟

عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالْشَّرْعِ لَكِنْ لَمْ يَكْلَفْ بِالْإِبْلَاحِ، وَإِنَّمَا يَتَعَبَّدُ بِهِ بِنَفْسِهِ؛ إِحْيَاءً لِشَرِيعَةٍ كَانَتْ قَبْلَهُ، أَوْ لِشَرِيعَةٍ مُبْتَدَأَةٍ، أَمَّا

(١) انظر: أصول الدين الإسلامي مع قواعده لمحمد بن عبد الوهاب: (ص ١٧).

الرَّسُولُ فَإِنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالْشَّرْعِ، وَالزَّمَّ بِالْبَلَاغِ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَ رَسُولًا مِنَ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ نَدْبُ الْإِنْسَانِ إِلَى أَحَدٍ يَبْلُغُهُ حَاجَةٌ مَّا، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٍّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا.

فَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿تَحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، تَعْنِي أَنَّهُ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، لَا شَكَّ فِي هَذَا، جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ الَّذِي عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا يَقُولُهُ عِنْدَ الْمَنَامِ: «وَأَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَلَمَّا فَرَّغَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الدَّعَاءِ الَّذِي عَلَّمَهُ، أَعَادَهُ عَلَيْهِ الْبَرَاءُ، وَقَالَ: «أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، قُلْ: وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»^(١)، وَأَنْتُمْ الْآنَ تَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا عَكْسَ، فَإِذَا قَالَ: «وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» فَكَأَنَّمَا قَالَ: وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَمَعَ هَذَا خَطَأُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالَ قُلْ: «وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»، لِمَذَا؟

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ خَطَأُهُ مَحَافِظَةٌ عَلَى اللَّفْظِ الْوَاردِ فِي الْأَذْكَارِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَبْدَلَ الْأَلْفَاظَ الْوَارِدَةَ فِي الْأَذْكَارِ بِشَيْءٍ آخَرَ وَلَوْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لَهَا.

وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ لَهُ وَجْهٌ مِنَ النَّظَرِ لَكِنْ أَحْسَنُ مِنْهُ الْجَوَابُ الثَّانِي، وَهُوَ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: وَرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ الرَّسُولُ الْمَلَكِيُّ، أَمَّا إِذَا قَالَ: وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ الرَّسُولُ الْمَلَكِيُّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء، رقم (٢٤٧).

ومن هنا نعلم أن الملك رسول، قال الله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وقال أيضًا في القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢٠]، فالمراد بالرسول هنا هو جبريل ملك، فإذا قال: برسولك الذي أرسلت؛ فإنه يحتمل أن يكون المراد برسوله الذي أرسل أي: بملك من ملائكته الذين أرسلهم، لكن إذا قال: بنبيك؛ تعين أن يكون المراد به الرسول البشري، وهذا هو المطلوب.

وقد يمكن أن نقول بالقولين: أنه خطأه لملاحظة أن الذكر لا ينبغي أن يغير لفظه، ولأجل ألا يظن الظان أن المراد به الرسول الملكي، فبإمكاننا أن نجمع بين الوجهين، ولا منافاة في ذلك، وهذه قاعدة ينبغي لطالب العلم أن يفهمها:

«إذا وجد قولان في مسألة من المسائل في معنى آية أو حديث، وكان اللفظ يحتملها ولا تناقض بينهما؛ فإنه يحمل على المعنيين، ما دام ليس بينهما من منافاة واللفظ يحتملها حمل على المعنيين».

ولهذا أمثلة كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَأَلِيلَ إِذَا عَسَّسَ﴾ (١٧) وَالصُّبْحَ إِذَا نَفَسَ ﴿[التكوير: ١٧-١٨]، اللَّيْلُ إِذَا عَسَّسَ مَعْنَاهَا: أَدْبَرَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهَا أَقْبَلَ، وَالْإِقْبَالُ غَيْرُ الْإِدْبَارِ؛ لَكِنْ هَلْ بَيْنَهُمَا مُنَافَاةٌ؟ يَعْنِي لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِاللَّيْلِ حِينَ إِقْبَالِهِ، وَبِاللَّيْلِ حِينَ إِدْبَارِهِ، هَلْ هُنَاكَ تَنَاقُضٌ؟ لَا؛ لِأَنَّ إِقْبَالَ اللَّيْلِ أَوْ إِدْبَارَهُ كِلَاهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢]، قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ: الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ: الَّذِي يُؤْخَرُ

الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا، والمُقْتَصِدُ: الَّذِي يُؤَدِّيهِا فِي الْوَقْتِ؛ لَكِنْ لَا فِي أَوَّلِهِ، وَالسَّابِقُ بِالْخِيَرَاتِ: الَّذِي يُؤَدِّي الصَّلَاةَ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا.

وَقَالَ آخَرُونَ: الظَّالِمُ نَفْسُهُ: الَّذِي يَبْخُلُ بِالزَّكَاةِ، وَالْمُقْتَصِدُ: الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَلَا يَتَطَوَّعُ بِالصَّدَقَةِ، وَالسَّابِقُ بِالْخِيَرَاتِ: الَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ وَيَتَطَوَّعُ بِالصَّدَقَةِ.

فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ الْقَوْلَيْنِ؟ نَعَمْ، يُمَكِّنُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهَا تَحْتَمِلُهَا عَلَى السَّوَاءِ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا.

الَّذِي يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَالَّذِي يَمْنَعُ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، الَّذِي يُؤَدِّي الصَّلَاةَ فِي وَقْتِهَا وَلَكِنْ لَيْسَ فِي أَوَّلِهِ، وَالَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ وَلَا يَتَصَدَّقُ كِلَاهُمَا مُقْتَصِدٌ، وَالَّذِي يُؤَدِّي الصَّلَاةَ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا أَوْ فِي آخِرِهِ إِذَا كَانَ هُوَ الْأَفْضَلُ، وَالَّذِي يُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ وَالصَّدَقَةَ كِلَاهُمَا سَابِقٌ لِلْخِيَرَاتِ، وَهَذَا قَاعِدَةٌ يَنْبَغِي لِطَالِبِ الْعِلْمِ أَنْ يَفْهَمَهَا.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، شَاهِدًا عَلَى الْأُمَّةِ بِأَنَّهُ بَلَّغَهَا رِسَالَةَ اللَّهِ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَنَذِيرًا لِلْكَافِرِينَ وَالْمُخَالَفِينَ بِالْعُقُوبَةِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، فَالْنَبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شَاهِدًا عَلَى أُمَّتِهِ، شَاهِدٌ عَلَى مَنْ أَطَاعَ وَعَلَى مَنْ عَصَى، شَاهِدٌ بِأَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغْتَهُمْ، مُبَشِّرٌ لِمَنْ أَطَاعَ، وَمُنْذِرٌ لِمَنْ عَصَاهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فِي حَيَاتِهِ لَا شَكَّ أَنَّهُ شَاهِدٌ أَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغَتْ الْأُمَّةَ، فَكَيْفَ يَكُونُ شَاهِدًا عَلَى الْأُمَّةِ بِأَنَّهُ بَلَّغَهَا بَعْدَ مَمَاتِهِ؟

فالجواب: نقول: يشهد لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فما جاء به النبي ﷺ في حياته من كتاب الله فلا بد أن يبلغ الأمة؛ لأن الله تكفل بحفظه، وهذا - والحمد لله - هو الواقع.

كتابنا الذي أنزله الله تعالى علينا لم يزل محفوظًا منذ نزل إلى يومنا هذا، أي خمسة عشر قرنًا، والكتب السابقة حُرِفَتْ في أقل من ذلك، مع أن ما بين عيسى ومحمد ست مئة سنة تقريبًا، ومع ذلك حُرِفَ الإنجيل، وحُرِفَت التوراة في أقل من هذه المدة التي مَضَتْ على هذا القرآن، ولم يتجاسر أحد أن يُحرفه أو يبدله، وإذا أراد أحد أن يحرفه قيد الله له من يكشف حقيقة أمره، ويُبَيِّنُ عَوَارِئه، فيفتضح بين الأمة، ويكون شاذًا عن الأمة الإسلامية، إذا حاول أن يُخفي شيئًا من كتاب الله، أو أن يزيد شيئًا من كتاب الله.

فإن قيل: وهل الشهادة في تبليغ الرسالة خاصة بالرسول، أو تكون له ولغيره، يعني هل أحد من الناس غير الرسول يشهد على أن الرسول بلغ؟

قلنا: نعم، كل الأمة، دليل ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولكن من الشهداء حقيقة أولو العلم، قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وهذه مزية عظيمة لأهل العلم أن يكونوا هم الشهداء مع الأنبياء والملائكة على توحيد الله عز وجل.

﴿ وَدَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، داعيًا إلى الله، أي: تدعو الناس إلى الله عز وجل إلى شريعته الموصلة إليه؛ لأن الله تعالى وضع طريقًا يوصل إليه،

لَا يُوَصَّلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ سِوَى هَذَا الطَّرِيقِ، أَلَا وَهُوَ دِينُ اللَّهِ، فَهَذَا الدِّينُ إِذَا اسْتَمْسَكَتَ بِهِ أَوْصَلْتَ إِلَى اللَّهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَمَسَّكَ بِهَا دَعَا إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَلَ إِلَى اللَّهِ، إِلَى ثَوَابِهِ وَجَنَّتِهِ، وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ؛ حَتَّى يَحْصَلَ لَهُ كَمَالُ النِّعَمِ.

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ ذَلِكَ وَصْفُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهَلْ هَذَا وَصْفٌ لِكُلِّ دَاعِيَةٍ أَوْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِكُلِّ دَاعِيَةٍ؟ نَقُولُ: بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ وَصْفًا لِكُلِّ دَاعِيَةٍ؛ لِأَنَّ مَنْ الدَّعَاةِ مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ، لَا إِلَى رَبِّهِ، يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هُوَ الْمَهِيْمَنَ عَلَى كُلِّ الْأَقْوَالِ، يُرِيدُ أَنْ يَرَى النَّاسُ مَكَانَهُ.

مَنْ الْعُلَمَاءِ وَالدَّعَاةِ مَنْ إِذَا خُولِفَ -وَلَوْ بِحَقٍّ- انْتَفَخَ وَغَضِبَ، فَيَرَى أَنَّ النَّاسَ خَالَفُوا الْحَقَّ، وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ الْحَقَّ بِخِلَافِ مَا قَالَ، فَمِثْلُ هَذَا يَكُونُ دَاعِيًا إِلَى نَفْسِهِ، وَالَّذِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الَّذِي لَا يُبَالِي بِمَا حَصَلَ مِنْ مُخَالَفَتِهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ؛ وَلِذَلِكَ تَرَى الَّذِي يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِذَا خَالَفَهُ غَيْرُهُ بِمُقْتَضَى الدَّلِيلِ يَشْعُرُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْغَيْرَ لَمْ يُخَالَفْهُ؛ بَلْ سَلَكَ سَبِيلَهُ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ -الدَّاعِيَّ وَالْمَدْعُوَّ- إِنَّمَا يُرِيدَانِ الْوَصُولَ إِلَى الْحَقِّ، فَإِذَا خَالَفَنِي فِي مُقْتَضَى الدَّلِيلِ عِنْدَهُ فَلَيْسَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَغْضِبَ، بَلْ أَرَى أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِي فِيهَا دَعْوَتُ؛ لِأَنِّي إِنَّمَا أَدْعُو إِلَى الْحَقِّ، وَهُوَ يَرَى أَنَّ الْحَقَّ فِي خِلَافِ مَا أَقُولُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ إِذَا كَانَ مُفْرَطًا فِي طَلَبِ الْحَقِّ، غَيْرِ مُسْتَقْسِمٍ فِي التَّبِينِ، فَأَمَرُهُ إِلَى اللَّهِ؛ لَكِنِّي مَا دُمْتُ أَعْرِفُ أَنَّهُ خَالَفَنِي، لَيْسَ لِلْهَوَى؛ وَلَكِنْ اتِّبَاعًا لِلْهُدَى عِنْدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِي أَنْ أَحْمَلَ فِي نَفْسِي عَلَيْهِ شَيْئًا.

ولهذا تجد الصحابة رضي الله عنهم يختلفون؛ لكن هذا الاختلاف لا يحمل اختلاف القلوب، وتجد الأئمة من صدر هذه الأئمة يختلفون، وهم على أكمل ما يكونون من المحبة والتألف؛ لكن من كان يدعو لغير الله وإنما يدعو لنفسه فسوف يغضب إذا خولف ولو في الحق، إذن؛ لا بد من الإخلاص في الدعوة إلى الله.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ إذن الله تعالى ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إذن شرعي.

القسم الثاني: إذن كوني.

فما تعلق بالشرع فهو إذن شرعي، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، ومثل قوله تعالى: ﴿شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللهُ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: لم يأذن به شرعاً؛ لأنه لو أذن به شرعاً وقع.

وأما الإذن الكوني فهو الذي يتعلق بالخلق والكون، مثل هذه الآية: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾، وهذه الآية نحملها على الإذن الكوني والإذن الشرعي؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إنما يدعو وفق شريعة الله، وهذا هو الإذن الشرعي، وقد دعا فعلاً بقدر الله، وهذا هو الإذن الكوني، فهو ﷺ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ الشرعي والكوني.

ثم إن الدعوة بالإذن الشرعي لا بد فيها من شروط:

الشرط الأول: الإخلاص، وهو مأخوذ من قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾.

واعلم أنك إذا دعوت لغير الإخلاص فإنك فاشل؛ حتى لو نجحت برهة من الزمن فالفشل حليفك؛ لأن الله تعالى لا يقبل شيئاً لا يراؤ به وجهه، فيكون من دعا إلى الله بغير الله فاشلاً، وإذا ازدانت له الدنيا يوماً من الدهر؛ فإن عاقبته الفشل.

الشرط الثاني: أن تكون دعوته وفق الشريعة الإسلامية، وهذه مأخوذة من قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾، وكونه موافقا للشريعة، وإذا كان لا بد أن يكون موافقا للشريعة؛ فلا بد أن تكون الدعوة مسبوقة بعلم بالشريعة، وعلى هذا فلنضف العلم، أي: أن يكون الإنسان عالما بما يدعو إليه شرعا، فلا يحل لشخص أن يقوم داعية إلى الله وليس معه علم؛ لأن هذا يفسد أكثر مما يصلح، وكذلك لا بد للداعية من العلم بأحوال المدعوين؛ حتى يكون على بصيرة من أمرهم؛ ولهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»^(١)، فَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِمْ؛ لِيَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِمُقَابَلَتِهِمْ.

فلو كنت تدعو أحدا إلى شيء ما، وأنت لا تعرف عن حالهم شيئا؛ فربما يكون فيهم الذكي العبقري الفصيح، فيقوم معارضا لما تدعو إليه من الحق، وتنهزم أمامه؛ لأنه ليس معك سلاح واستعداد لمقابلتة، وربما تدعوهم إلى شيء وهم قد قاموا به؛ لكنك لا تعلم أنهم قد قاموا به، وربما تنهاهم عن شيء هم لا يفعلونه، فيكون كلامك لا فائدة منه.

إذن؛ لا بد للداعية من العلم بالحكم الشرعي، والعلم بأحوال المدعوين. ولا بد أيضا في الداعية أن يكون على جانب كبير من الحلم والتأني والتبصر؛ حتى يقبل قوله؛ لأنه إذا لم يكن عنده حلم فسيجد معارضا بلا شك؛ لأن الداعي إلى الله لا بد أن يجد من يعارضه، فإذا لم يكن معه حلم واسع يتسع صدره فإنه سوف يستحسر ويقول: إنني لم أقبل، ويدع الدعوة إلى الله، فلا بد أن يكون عند

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الدَّاعِي حِلْمٌ يَتَسَعُ بِهِ صَدْرُهُ لِمُقَابَلَةِ النَّاسِ وَمَا يَخْشَى أَنْ يُوْجَهَ إِلَيْهِ مِنْ لَوْمٍ أَوْ عِتَابٍ أَوْ مُنَازَرَةٍ فَيَقْعُ فِي الْاسْتَحْسَارِ، وَيَدْعُ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: مُبَشِّرًا الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

ولكن؛ مَا هِيَ الْعَلَامَةُ الَّتِي يُمَكِّنُ أَنْ يُبَشِّرَ بِهَا الْمُؤْمِنُ؟

فنقول: إِذَا رَأَيْتَ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ يُسِّرُ لِلْيُسْرَى، وَسُهِّلَتْ لَهُ الطَّاعَةُ، فَكَانَ يَقُومُ بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَنُبَشِّرُهُ بِالْخَيْرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، فَأُبَشِّرُهُ وَأَقُولُ لَهُ: أَبَشِّرُ بِالْخَيْرِ، وَإِذَا رَأَيْتَهُ يُصَلِّي، وَيَتَصَدَّقُ، وَيَصُومُ، وَيَحُجُّ، وَيَحْسَنُ إِلَى النَّاسِ نُبَشِّرُهُ بِالْخَيْرِ، كَذَلِكَ أَيْضًا إِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا مُصَابًا بِمَصَائِبَ تَتَوَالَى عَلَيْهِ فِي بَدَنِهِ، أَوْ فِي أَهْلِهِ، أَوْ فِي مَالِهِ، وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ لَا يَتَشَكَّى وَلَا يَتَضَجَّرُ وَلَا يَتَسَخَطُ؛ فَأَنَا أُبَشِّرُهُ بِالْخَيْرِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

كَذَلِكَ أَيْضًا إِذَا رَأَيْتَ فِيهِ رُؤْيَا تَسْرُّكَ فَإِنَّ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ جُزْءٌ مِنْ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ^(١)، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ^(٢)، فَإِذَا رَأَيْتَ فِيهِ رُؤْيَا صَالِحَةً فَأَنَا أُبَشِّرُهُ، وَأَقُولُ لَهُ: أَبَشِّرُ، رَأَيْتُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، وَهَذِهِ عِلَامَةٌ خَيْرٍ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، رقم (٦٥٨٨)، ومسلم: كتاب الرؤيا، رقم (٢٢٦٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم (٢٦٤٢).

فالمهمُّ أن طرق البشارة كثيرةٌ للمؤمنين، وتعلمُ بالتبع.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ ﴿[الأحزاب: ٤٧-٤٨]، لَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ، وَلَا تُطِيعِ الْمُنَافِقِينَ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْكَافِرَ يُصَرِّحُ بِكُفْرِهِ، وَالْمُنَافِقَ يُخْفِي كُفْرَهُ، مَاخُودٌ مِنَ النِّفَقِ وَهِيَ جُحْرُ الْيَرْبُوعِ، وَالْيَرْبُوعُ ذِكْيٌ، يَحْفَرُ لَهُ جُحْرًا فِي الْأَرْضِ، وَيَجْعَلُ لَهُ بَابًا مَفْتُوحًا، مِنْهُ يَدْخُلُ، وَمِنْهُ يُخْرَجُ، وَيَجْعَلُ فِي أَقْصَى الْجَحْرِ بَابًا مُغْلَقًا بِطَبَقَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَعْنِي يَحْفَرُ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَى خُرُوجِهِ إِلَّا قَشْرَةٌ رَقِيقَةٌ تَوْقِفُ؛ مَنْ أَجَلَ إِذَا أَتَاهُ إِنْسَانٌ يَرِيدُ إِمْسَاكَهُ مِنْ بَابِ الْجَحْرِ؛ فَإِنَّهُ يَنْفِذُ مِنَ الْبَابِ الْآخِرِ الَّذِي عَلَيْهِ قَشْرَةٌ رَقِيقَةٌ، يَضْرِبُهُ بِرَأْسِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ.

فَالْمُنَافِقُونَ مِثْلُ هَذَا الْيَرْبُوعِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُمْ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ مَعَ شَيَاطِينِهِمْ، يَقُولُونَ آمَنَّا، وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعِ أَذْنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، اتركْ أَذْيَتَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَوَلَّى ذَلِكَ، وَاصْبِرْ عَلَيْهَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُمْ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ لِلْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أَي: اعتمد عليه في جلبِ المنافعِ ودفعِ المضارِّ.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿٤٨﴾، تَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي أَكْثَرِ مِنْ هَذِهِ الْعُجَالَةِ، وَتَأَمَّلُوا أَيْضًا بَقِيَّةَ كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ تَجِدُوا الْخَيْرَ الْكَثِيرَ فِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَجِدُوا الْعَجَائِبَ الَّتِي لَا تَنْتَهِي وَلَا تَنْقُضِي؛ وَلِهَذَا قَالَتِ الْجَنُّ وَهُمْ أَقَلُّ عُقُولًا مِنَ الْإِنْسِ:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢]، هؤلاء هم الجنُّ، وهم أبلدُ من الإنسِ، وأبعدُ من الصَّوابِ من الإنسِ؛ ومع ذلك أقرُّوا بأنَّ القرآنَ عجبٌ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ وآمنوا بِهِ.

نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا فَهْمَهُ فِقْهًا وَتَطْبِيقَهُ عَقْلًا، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.



الدَّرْسُ السَّادِسُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ هَذَا خَبْرٌ يَرَادُّ بِهِ بَيَانُ رَتَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حَتَّى يَكُونَ فِي هَذَا حَتْ عَلَى أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي أُلُوهِتِهِ وَلَا رَبُوبِيَّتِهِ وَلَا أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ،

﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾ جَمْعُ مَلَكٍ، وَالْمَلَائِكَةُ بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَظَائِفُهُمْ عَلَى وَجهِ الْإِجْمَالِ فِي قَوْلِهِ: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] يَرْسُلُهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى حَيْثُ شَاءَ، فَمَنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ؟

الْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ مِنَ الْعَوَالِمِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ خَلَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ وَجَعَلَهُمْ صَمَدًا، أَيْ لَا أَجْوَافَ لَهُمْ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى أَكْلِ وَلَا شَرِبٍ، وَإِنَّمَا يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ، فَعَلِينَا أَنْ نَوْمَنَ بِهَذَا الْعَالَمِ بِأَنَّهُمْ مِمَّنْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَنَوْمَنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُمْ رُسُلًا كَمَا فِي سُورَةِ فَاطِرٍ: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾.

هؤلاء الملائكة منهم من نَعَلَمَهُمْ بأعيانهم يعني بأسمائهم، ومنهم من لا نعرفهم، ومنهم من نعرف وظائفهم التي كَلَّفَهُمُ اللهُ بها، ومنهم من لا نعلم، فمن عَلِمْنَاهُمْ بأعيانهم أي بأسمائهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَلَّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بِالْوَحْيِ ووصفه بأنه رَسُولٌ كَرِيمٌ وأنه ذُو قُوَّةٍ وأنه أَمِينٌ فَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ يعني الْقُرْآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ ﴿[التكوير: ١٩-٢٠]﴾ أي صاحب قُوَّةٍ ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ وهو اللهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] يعني له مكانةٌ ومنزلةٌ عاليةٌ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى، وَوصفه بأنه ذُو هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ فَقَالَ: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: ٦] قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْمِرَّةُ الْهَيْئَةُ الْحَسَنَةُ أَيَّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُو هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ.

ورآه النَّبِيُّ -صلوات الله وسلامه عليه- مَرَّتَيْنِ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا، لَهُ سِتُّ مِائَةٍ جَنَاحٍ اللهُ أَكْبَرُ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ أَي مَلَأَ الْأَفْقَ، رآه مرةً فِي الْأَرْضِ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءَ، وَرآه مرةً فِي السَّمَاءِ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُتَهَيِّ، عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ^(١)، هَذَا عَظِيمٌ، عِظَمُ الْمَخْلُوقِ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْخَالِقِ جَلَّوَعَلَا. فَجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ يُوصِّلُهُ إِلَى الرِّسَالِ الَّذِينَ يُرْسِلُهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يأتي جبريل على صورة إنسانٍ مثل حديثِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتُحْجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ

(١) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).

سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

فقال: يا مُحَمَّدُ أخبرني عن الإسلام. لم يَقُلْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. لِيُظْهِرَ مظهر الأعراب، والأعرابُ ينادون النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ، فسأله عن أربعة أشياء، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والسَّاعَةِ، فأخبره النَّبِيُّ ﷺ بالإسلام والإيمان والإحسان، أما السَّاعَةُ فقال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». يعني: لا أعلمها كما أنك أنت لا تعلمها، فعلمها عند الله.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْعِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وفي الآية الأخرى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فلما أعلن النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُهَا قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. يعني علامتها فأخبره، ثُمَّ انْطَلَقَ، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟» فقال: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. لَأَنَّهُ لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ الصَّحَابَةُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة السَّاعَةِ، رقم (٨).

إذن، يمكنُ لِلْمَلَكِ أَنْ يَتَكَيَّفَ بِكَيْفِيَةِ الْإِنْسَانِ، كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.
 مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَيْضًا مَنْ عَلِمْنَا أَسْمَاءَهُمْ غَيْرَ جَبْرِيلَ، فَمِيكَائِيلُ مَلَكُ مُوَكَّلٌ
 بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، فَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِمَقْدَارٍ، كُلُّ شَيْءٍ مُنَظَّمٌ، كُلُّ شَيْءٍ عَلَى وَفْقِ
 الْحِكْمَةِ.

الثَّالِثُ: إِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِنَفْخِ الصُّورِ، الصُّورُ يَنْفُخُ فِيهِ عِنْدَ انْتِهَاءِ الْخَلَائِقِ،
 يَنْفُخُ فِيهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَفْزَعُ الْعَالَمُ؛ لِأَنَّهُ صَوْتُ لَا يُمْكِنُ إِدْرَاكُهُ، صَوْتُ عَظِيمٍ يَفْزَعُ، ثُمَّ
 يُصْعَقُونَ، أَي: يَمُوتُونَ ﴿ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ نَظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] سُبْحَانَ
 مَنْ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إذن، هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ كُلُّ وَاحِدٍ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ الْحَيَاةُ،
 جَبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَهُوَ الْوَحْيُ، مِيكَائِيلُ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ، وَهُوَ
 الْقَطْرُ وَالنَّبَاتُ، إِسْرَافِيلُ بِمَا فِيهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَوَاتُ
 اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- يَذْكُرُ هَؤُلَاءِ فِي اسْتِفْتَاكِ صَلَاةِ اللَّيْلِ، يَقُولُ إِذَا قَامَ يَتَهَجَّدُ،
 يَسْتَفْتِحُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ،
 عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا
 اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وَمَنْ عَلِمْنَا اسْمَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكُ مُوَكَّلٌ بِالنَّارِ، وَهُوَ مَالِكُ، ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَنَادَا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] يَعْنِي أَهْلَ
 النَّارِ، أَي لِيُهْلِكُنَا؛ لِمَا رَأَوْا مِنْ شِدَّةِ الْعَذَابِ، وَكَأَنَّهُمْ لِحَزْبِهِمْ وَذُلِّهِمْ يُخْجَلُونَ أَنْ

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل، رقم (٧٧٠).

يَدْعُوا اللَّهَ بِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا دَعَوْا اللَّهَ وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فطلبوا من مَالِكٍ أَنْ يَكُونَ شَفِيعًا لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَقَالُوا: ﴿وَنَادَا يَمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ﴿مَا فِيهِ خُرُوجٌ﴾.

وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا -أَعْنِي أَهْلَ النَّارِ- لِحَزْنَةِ جَهَنَّمَ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩] لَمَّا أَيْسُوا مِنَ الْخُرُوجِ وَأَيْسُوا مِنْ أَنْ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُونَ قَالُوا: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ، مَا قَالُوا: يُخَفِّفُ عَنَّا الْعَذَابَ، أَوْ يَقْطَعُ عَنَّا الْعَذَابَ، بَلْ قَالُوا: يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا وَاحِدًا. فَقَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ [غافر: ٥٠] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠].

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ إِنَّا فِي الدُّنْيَا فِي زَمَنِ الْإِمْهَالِ وَالْإِمْكَانِ فَوَقِّعْنَا لَعْمَلٍ نَنْجُو بِهِ مِنَ النَّارِ، نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا، لَمَّا قِيلَ لِلْمُتَّقِينَ: اخْرُجُوا لِلْجِهَادِ، فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١] فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

إِذْنًا، عَلِمْنَا مِنْ أَسْمَاءِ الْمَلَائِكَةِ اسْمَ مَالِكٍ، وَهُوَ الْمَوْكَلُ بِالنَّارِ.

وَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ: هَلْ وَرَدَ أَنْ مَلَكَ الْمَوْتِ يُسَمَّى عِزْرَائِيلَ؟ قُلْنَا: لَمْ يَرَدْ أَنْ مَلَكَ الْمَوْتِ اسْمُهُ عِزْرَائِيلُ، إِنَّمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي لَا تَصَدُقُ وَلَا تَكْذِبُ، وَكَفَى بِنَا أَنْ نَصِفَهُ بِهَا وَصَفَهُ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ مَلَكَ الْمَوْتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَنفَعُكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

وَأَيْضًا مَن عَلِمْنَا أَسْمَاءَهُم مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ لِلْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ
الْإِنْسَانَ عِنْدَ دَفْنِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، الْإِنْسَانُ سُخِّرَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، إِذَا مَاتَ
الْإِنْسَانُ وَدُفِنَ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ مُنْصَرِفِينَ، يَسْمَعُ قَرْعَ
النِّعَالِ وَهُوَ فِي الْقَبْرِ، لَوْ رَجَعْنَا إِلَى الْأَمْرِ الْمَحْسُوسِ لَقُلْنَا لَا يُمْكِنُ، وَلَكِنْ هَذَا أَمْرٌ
أَخْبَرَنَا بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَنَقُولُ: سَمِعْنَا وَآمَنَّا وَصَدَّقْنَا،
يَسْمَعُ قَرْعَ النِّعَالِ.

أما المؤمنُ «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُذَرِّبُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ». اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ السُّؤَالِ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْنَا عِنْدَ فَافْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْبُسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ». أما المنافقُ -والعياذُ بالله- اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا مِنَ النِّفَاقِ، المنافقُ الَّذِي يُظْهَرُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَهُوَ غَيْرُ مُسْلِمٍ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ، هَذَا الْمُنَافِقُ يُسْأَلُ هَذِهِ الْأَسْئَلَةُ الثَّلَاثَةُ «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ، لَا أَدْرِي،

لَا أَذْرِي»^(١).

وانتبه لقوله: هَاهُ هَاهُ. كَأَنَّهُ يَتَذَكَّرُ شَيْئًا فَيُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَذَكُّرِهِ، ومعلومٌ أن من يَذْكُرُ شَيْئًا ثُمَّ يُحَالُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَذَكُّرِهِ يَكُونُ أَشَدَّ حَسْرَةً مِنَ الَّذِي لَمْ يَتَذَكَّرْ أَصْلًا، كَأَنَّهُ غَنِمَ شَيْئًا فَفَاتَهُ، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، إِذْنُ هُوَ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَى قَلْبِهِ، نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، هَذَانِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ.

أما الوظائفُ فإننا نعلمُ أن لله ملائكةً مُوَكَّلِينَ بِعَمَلِ الْإِنْسَانِ يَكْتُبُونَهُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كُنِينًا ۝١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿[الأنفطار: ٩-١٢] وَقَالَ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝١٦﴾ إِذْ يَنْتَقَى الْمَتَلَقِّانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿[ق: ١٦-١٨] اللَّهُمَّ احْفَظْنَا، أَيُّ قَوْلٍ يَقُولُهُ لَدَيْهِ رَقِيبٌ، أَيُّ مُرَاقِبٍ، عَتِيدٌ حَاضِرٌ لَا يَفَارِقُهُ، هَذَانِ مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بِحِفْظِ عَمَلِ الْعَبْدِ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يُحْصِيَ أَقْوَالَهُ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا بِلِسَانِهِ، إِذْنِ، أَقْوَالٌ عَظِيمَةٌ، وَيَدُلُّكَ عَلَى هَذَا أَنَّكَ لَوْ جَلَسْتَ مُحَاضِرٌ مُحَاضِرَةً ثُمَّ نُقِلْتَ مِنَ التَّسْجِيلِ إِلَى الْأَوْرَاقِ لَوَجَدْتَ الْمُحَاضِرَةَ الَّتِي اسْتَوْعَبْتَ سَاعَةً مِنَ الزَّمَنِ اسْتَعْرِقْتَ أَوْرَاقًا كَثِيرَةً، فَأَنْتَ لَا تَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا كُتِبَ.

ذَكَرُوا أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَرِضَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ وَهُوَ يَتَنُّ مِنَ الْمَرَضِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنْ طَاوَسَا - وَهُوَ أَحَدُ التَّابِعِينَ الْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ - يَقُولُ: إِنَّ أَيْنَ الْمَرِيضِ يُكْتَبُ - اللَّهُ أَكْبَرُ، أَيْنَ الْمَرِيضِ يُكْتَبُ؛ لِأَنَّ الْأَيْنَ قَوْلٌ -

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣)، وأحمد رقم

فَأَمْسَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْأَيْنِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَكْتُبَ عَلَيْهِ^(١). وَهَذَا غَايَةُ الْوَرَعِ.

إِذَنْ، هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ نَعْرِفُ أَعْمَالَهُمْ أَتَنَّهُمْ مُوَكَّلُونَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِ الْعَبْدِ الْقَوْلِيَّةِ، وَالثَّانِي: الْفَعْلِيَّةِ، فَهَلْ يَكْتُبُونَ الْأَعْمَالَ الْقَلْبِيَّةَ؟ الْجَوَابُ: فِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ، أَمَّا مَا رَكَنَ إِلَيْهِ الْعَبْدُ وَأَثْبَتَهُ فِي قَلْبِهِ فَإِنَّهُمْ يَكْتُبُونَهُ، وَأَمَّا مَا حَدَّثَ بِهِ نَفْسَهُ وَلَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يَكْتُبُ، انْتَبِهْ لَوْ أَضْمَرَ الْإِنْسَانُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فِي قَلْبِهِ عَقِيدَةً فَاسِدَةً وَاعْتَقَدَهَا تُكْتَبُ لِأَنَّهُ أَثْبَتَهَا وَإِثْبَاتُهَا عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، وَلَوْ طَرَأَ عَلَى قَلْبِهِ عَقِيدَةٌ فَاسِدَةٌ لَكِنَّهُ رَفَضَهَا حَدَّثَ بِهَا نَفْسَهُ لَا تَكْتُبُ.

انْتَبِهْ يَا أَخِي إِنْ الشَّيْطَانُ يَأْتِيكَ فَيُوسِسُ لَكَ بِأَشْيَاءَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَنْطِقَ بِهَا وَلَوْ وُضِعَ الصَّمْصَامُ (السِّيفُ) عَلَى رَقَبَتِكَ، لَكُنْ إِيَّاكَ أَنْ تَرْكَنْ إِلَيْهَا، إِيَّاكَ أَنْ تُؤَثَّرَ عَلَيْكَ، لَا تَهْتَمَّ بِهَا، فَإِنْ نَبِينَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(٢) يَعْنِي هَذَا الشَّكُّ أَوْ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَقَعُ فِي الْقَلْبِ دُونَ أَنْ يَرْكَنْ إِلَيْهَا الْإِنْسَانُ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ خَالِصٌ صَرِيحٌ، وَلِهَذَا أَرَادَ الشَّيْطَانُ أَنْ يُكَدِّرَهُ، فَانْتَبِهْ لِهَذَا.

فَمَاذَا تَصْنَعُ؟ يَعْنِي كَيْفَ تُدَاوِي الْقَلْبَ إِذَا وَقَعَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْوَرُطَةِ؟ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنْ نَبِينَا مُحَمَّدًا ﷺ عَلَّمَنَا مَاذَا نَصْنَعُ، قَالَ: «فَلْيُسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَه»^(٣) جَرَعَتَانِ مِنْ

(١) ذكره أبو بكر الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (١١٩/٢).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣١٠٢)، ومسلم: كتاب

الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

الدواء، الأولى: الاستعاذة بالله، فيقول: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، والثانية: الانتهاء يعني الإعراض عَنْ هَذَا، أَلَّا يُفَكَّرَ فِيهِ وَأَلَّا يَقْلَقَ مِنْهُ؛ لَأَنَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَحْذَرُ أَنْ تَزِلَّ، فَتَحْتَ رِجْلِكَ هُوَّةٌ، أَحْذَرُ إِذَا وَقَعَ فِي قَلْبِكَ هَذَا الْأَمْرُ ارْفُضْهُ، قُلْ: أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَأَعْرِضْ عَنْهُ، وَسِزُولُ عَنْكَ؛ لِأَنَّ الَّذِي أَخْبَرَنَا بِذَلِكَ هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

إِذْنٌ، مَا حَدَّثَ الْإِنْسَانُ بِهِ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِ لَا يَضُرُّهُ، وَإِذَا أَثْبَتَهُ وَرَكْنَ إِلَيْهِ يَضُرُّهُ، وَاسْمَعْ إِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ»^(١).

ولو أن رجلاً حَدَّثَ نَفْسَهُ فِي طَلَاقِ امْرَأَتِهِ، لَمْ يَتَكَلَّمْ وَلَمْ يَعْمَلْ، يَعْنِي مَا كَتَبَ بِيَدِهِ الطَّلَاقَ وَلَا نَطَقَ بِهِ، وَرَأَى مِنْ نَفْسِهِ الْقَلْقَ مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ أَنَّهُ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، فَقَالَ: إِذْنٌ أَسْتَرِيحُ هِيَ طَالِقٌ. قُلْتُ: هِيَ لَا تُطَلِّقُ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا طَّلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ»^(٢). هَذَا الرَّجُلُ الْآنَ كَأَنَّهُ مُكْرَهُ عَلَى الطَّلَاقِ، انْتَبِهْ يَا أَخِي لِحَالِ النَّفْسِيَّةِ، رَجُلٌ قَلِقٌ مُتَعَبٌ مِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ، فَقَالَ: هِيَ طَالِقٌ. لَوْ سَأَلْنَاهُ: هَلْ طَلَّقْتَ بِاخْتِيَارٍ؟ لَقَالَ: لَا، وَلَكِنْ طَلَّقْتُ مِنَ الضِّيقِ الَّذِي حَدَّثَ فِي قَلْبِي كَأَنِّي مُكْرَهُ عَلَى هَذَا. قُلْنَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَبَشِّرْ بِالْخَيْرِ، الدِّينُ دِينُ يُسْرٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا طَّلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، رقم (٢٥٢٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١٢٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٦/٦، رقم ٢٦٤٠٣)، وأبو داود: كتاب الطلاق، باب في الطلاق على غلط، رقم (٢١٩٣)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٦).

ولهذا قال العلماء: إن طلاق الموسوس لا يقع، هذا ضابط من كلام العلماء مُستندُه قولُ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لَا طَّلَاقَ فِي إِغْلَاقٍ» (في إغلاق) يَعْنِي مُغْلَقًا عَلَى الْإِنْسَانِ ضَائِقًا.

نظيرُ هذا رجلٌ كثيرُ الشكوكِ إذا تَوَضَّأَ لَا يَبْقَى زَمَنًا قَلِيلًا إِلَّا شَكَّ هَلْ أَحْدَثَ أَوْ لَا؟ فقال: بَلَى هَذَا الشَّكُّ لَا يَلْزَمُ بِسْمِ اللَّهِ. وَذَهَبَ يَبُولُ أَوْ يَتَغَوِّطُ أَوْ أَحْدَثَ بِرِيحٍ تَخْلَصًا مِنْ هَذَا الْوَسْوَاسِ، فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَصَفَ لَكَ الدَّاءَ مِنْ هَذَا الدَّاءِ قَالَ: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا»^(١) نَقُولُ: يَا أَخِي، الْوَسْوَاسُ هَذَا لَا يَضُرُّكَ حَتَّى لَوْ كَانَ عِنْدَكَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ فِي الْمِئَةِ أَنْكَ أَحْدَثْتَ وَوَاحِدٌ فِي الْمِئَةِ أَنْكَ بَاقٍ عَلَى الطَّهَارَةِ فَأَنْتَ عَلَى طَهَارَتِكَ.

يا إخواني الدين الإسلامي يريد من أهله ألا يكونوا في قلقٍ ولا في تعبٍ بل يريد أن يكونوا مُطْمَئِنِّينَ.

إِذْنِ، مَتَى شَكَّكَتَ وَأَنْتَ عَلَى وُضُوءٍ هَلْ أَحْدَثْتَ أَوْ لَا؟ فَمَاذَا تَصْنَعُ، هَلْ تَذْهَبُ وَتُحَدِّثُ نَفْسَكَ حَتَّى تَتَيَقَّنَ أَنَّكَ أَحْدَثْتَ؟ لَا، اتْرُكْ هَذَا الشَّكَّ وَابْنِ عَلَى الْأَصْلِ عَلَى الْيَقِينِ أَنَّكَ لَمْ تُحْدِثْ.

وهذه المسألة الأخيرة يعاني منها كثير من الناس، فكثير من الناس رُبَّمَا يَتَوَضَّأُ عَشْرَ مَرَّاتٍ لصلاةٍ واحدةٍ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا تَوَضَّأَ شَكَّ هَلْ أَحْدَثَ أَوْ لَا، فَنَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من يقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

إِذَا شَكَّكَتَ هَلْ أَحَدْتَتْ أَوْ لَا فَأَنْتَ طَاهِرٌ، وَاتْرُكْ هَذَا الشَّكَّ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدُ رِيحًا».

نَعُودُ إِلَى أَصْلِ الْمَسْأَلَةِ، وَهُوَ كَلَامُنَا عَلَى الْمَلَائِكَةِ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ يُجْبُونَ الْأَرْضَ يَطُوفُونَ بِهَا فَإِذَا وَجَدُوا حَلَقَةً ذَكَرَ قَعَدُوا عِنْدَهَا حَضَرُواهَا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لِذِكْرِهِ، وَكُلَّ مَلَائِكَةٍ يَبْحَثُونَ فِي الْأَرْضِ يُجْبُونَهَا إِذَا وَجَدُوا حَلَقَةً ذَكَرَ حَضَرُوهُ ^(١).

وَهُنَاكَ مَلَائِكَةٌ مُسَخَّرُونَ لِلْإِنْسَانِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُ، مُعَقَّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] مَلَائِكَةٌ فِي اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ فِي النَّهَارِ، وَانْظُرْ إِلَى لُطْفِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ عَزَّوَجَلَّ يَجْتَمِعُ الْمَلَائِكَةُ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ يَنْزِلُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَمَلَائِكَةُ اللَّيْلِ يُودِّعُونَ، فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ يَنْزِلُونَ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ يُودِّعُونَ عَنَاءَهُ تَامَةً بِبَنِي آدَمَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ ﴿لَهُ، مُعَقَّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] النَّبِيُّ هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَيْهِ فَهُوَ الْمُخَاطَبُ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ كُلَّ نَبِيٍّ، بَلْ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَذَا مِنْ رَفْعِ ذِكْرِهِ، أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ لِلثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحْمَلُ أَعْظَمَ رِسَالَةٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر، رقم (٢٦٨٩).

لو سُئِلْنَا: ما أعظمُ الرسالاتِ؟ لَقُلْنَا: رسالةُ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لأنها شُرِّعَتْ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وأمةٍ، مُنْذُ بُعِثَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، الرسالاتُ الأخرى لا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْأَقْوَامِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُولُ، ولا تَصْلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ. إذن، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَحْمَلُ أعظمَ رسالةٍ؛ لذلك اسْتَحَقَّ الثَّناءَ مِنْ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وملائكته، وَلَمَّا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] فَأَمَرَنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ وَنُسَلِّمَ تَسْلِيمًا، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، ولا سِيَّما في ليلةِ الْجُمُعَةِ ويومِهَا فَإِنَّهُ يُتَأَكَّدُ الْإِكْثَارُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ لِأَنَّ الرُّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَمَرَ بِالْإِكْثَارِ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ^(١).

﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ فَبَعْدَ أَنْ رَفَعَ ذِكْرَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُصَلُّوا عَلَيْهِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَى الرُّسُولِ ﷺ وَكَيْفَ نُصَلِّي؟

قُلْنَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْقُرْآنُ أَمَرَ وَالرُّسُولُ بَيَّنَّ، الْقُرْآنُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَالرُّسُولُ ﷺ بَيَّنَّ فَقَالَ فِي تَعْلِيمِهِ إِيَّانَا السَّلَامَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(٢)، هَذِهِ أَفْضَلُ صِيغَةٍ فِي السَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَعَّ عَنْكَ الصِّيغَ

(١) أخرجه أحمد (٨٤ / ٢٦)، رقم (١٦١٦٢)، وأبو داود: كتاب الصَّلَاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، رقم (١٠٤٧)، والنسائي: كتاب الجمعة، باب إكثار الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يوم الجمعة، رقم (١٣٧٤)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصَّلَاة والسنة فيها، باب في فضل الجمعة، رقم (١٠٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب التشهد في الآخرة، رقم (٨٣١)، ومسلم: كتاب الصَّلَاة، باب التشهد في الصَّلَاة، رقم (٤٠٢).

الكثيرة التي فيها الكلمات المنمقة التي أكثرها غلو برسول الله ﷺ.

لو سألنا مَنْ أَعْلَمَ النَّاسِ بصيغة السَّلامِ عَلَى الرَّسُولِ؟ فَإِنَّهُ الرَّسُولُ ﷺ، وهل يمكنُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ يَعْلَمُ صيغةً أَحْسَنَ مِمَّا عَلمَ أُمَّتُهُ ثُمَّ يَكْتُمُهَا؟! لا والله؛ لَأَنَّهُ لو كَانَ هُنَاكَ صيغةٌ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا لَعَلَّمَهَا الْأُمَّةَ لِتَنَالَ فَضْلَهَا وَلِيَكْثُرَ السَّلامُ عَلَيْهِ، لَكِنْ قَالَ: «قُولُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ».

أما ما نراه في بعضِ الكتبِ مِنَ الصَّيغِ الطَّوِيلَةِ: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا حَبِيبَ اللَّهِ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ السَّلامُ عَلَيْكَ يَا شَفِيعَ الْخَلْقِ»، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَدَعْ عَنْكَ، لَأَنَّهُ أَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ؟ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَتَهَامِ نُصْحِهِ لَنْ يَدَّخِرَ عَنْكَ صيغةً وَيُعْطِيكَ مَا هُوَ مَفْضُولٌ وَمَرْجُوحٌ أَبَدًا، هَذَا لَا يُمْكِنُ

فَعَلَيْكَ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ بِالتَّزَامِ الدِّينِ وَدَعْ عَنْكَ الْبَدْعَ، دَعْ عَنْكَ مَا لَمْ يُعَلِّمُهُ الرَّسُولُ ﷺ أُمَّتُهُ، وَاللَّهُ مَا أَقُولُ هَذَا إِلَّا لِأَنِّي الْآنَ أَخْبَرُكُمْ تَحْدِثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﷻ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا ﷺ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ أَحْجَبَ عَنْهُ صيغةً سَلامٍ أَوْ صَلَاةٍ تَكُونُ أَفْضَلَ مِمَّا قَالَ أَبَدًا، وَهَذَا فِي ظَنِّي مَا تَعْتَقِدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا.

إِذَا كَانَ هَذَا فَلِمَاذَا أَحْمَلُ نَفْسِي صيغَ سَلامٍ لَمْ تَرِدْ لَا فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَنِ، وَفِيهَا أَشْيَاءٌ قَدْ يَكُونُ قُصُورُهَا ظَاهِرًا، مِثْلًا بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ مِنَ الرِّسَالِ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ. صَحِيحٌ وَالِدَلِيلُ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥]. ثُمَّ يَقُولُ: وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ، وَمُحَمَّدٌ حَبِيبُ اللَّهِ. إِذَا قَالُوا مُحَمَّدٌ حَبِيبُ اللَّهِ. فَهَذَا نَقْصٌ، نَحْنُ نَقُولُ: مُحَمَّدٌ خَلِيلُ اللَّهِ ﷺ، دَلِيلُنَا لِهَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا

كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١) والخُلَّةُ هِيَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْمَحَبَّةِ، الْآنَ الْمَتَّقُونَ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ بلى، فهل يمكنُ أن نقولَ: المَتَّقِي خَلِيلُ اللَّهِ؟ لا يمكنُ لأننا لا نعلمُ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ خَلِيلًا لِلَّهِ إِلَّا رَجُلَيْنِ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا -عليهما الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فَتَبَيَّنَ الْآنَ أَنَّ مَرْتَبَةَ الْخُلَّةِ أَعْلَى مِنْ مَرْتَبَةِ الْمَحَبَّةِ.

إذن، إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُحَمَّدٌ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنْ أَحْبَابِ اللَّهِ، لَكِنْ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ عَنْ أَحَدٍ أَنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ إِلَّا مَا بَلَّغْنَا بِالنَّصِّ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ -عليهما الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-.

إذن، عَرَفْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ أَنْ نَقُولَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْهِ؟ سَأَلَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»^(٢).

إذن، هَذِهِ هِيَ الصِّيغَةُ، وَلَمْ يَرِدْ مِنْ صِيغَةٍ أُخْرَى عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهَذِهِ أَفْضَلُ الصِّيغِ؛ لِأَنَّ صِيغَةَ الصَّلَاةِ فِيهَا أَنْوَاعٌ أُخْرَى فَهَذِهِ أَفْضَلُ الصِّيغِ.

فَإِنْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: هَلْ يُصَلِّي اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ عَلَى غَيْرِ الرَّسُولِ؟

قلنا: نعم، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الصَّلَاة على النبي ﷺ، رقم (٦٣٥٧)، ومسلم: كتاب الصَّلَاة، باب الصَّلَاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٥).

مَنْ الظُّلُمَتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿[الأحزاب: ٤٣].

وَصَلَاةُ اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ عَلَى رَسُولِهِ الْحَمْدُ وَالثَّنَاءُ، أَمَّا صَلَاةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ بِالثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ، فَإِذَا قُلْتَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ.

فإِنَّكَ تَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ وَأَنْ يَذْكُرَهُ بِالصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ: إِنْ الصَّلَاةُ هِيَ الرَّحْمَةُ. فَضَعِيفٌ - لَا شَكَّ - مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] فَفَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَوَاتِ وَالرَّحْمَةِ.

الْوَجْهُ الْآخَرُ: أَنَّ الْعُلَمَاءَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ لِلْمُسْلِمِ بِالرَّحْمَةِ، وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى الْمُسْلِمِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ.

تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] أَذِيَّةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَعْتَرِضَ الْمُعْتَرِضُ عَلَى تَدْبِيرِ اللَّهِ أَوْ عَلَى شَرْعِ اللَّهِ، فَإِنَّ هَذَا أَذِيَّةٌ تُؤْذِي اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ اسْمَعَ الْحَدِيثَ الْقُدْسِيَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُلْكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فقال: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ» وَفَسَّرَ الْأُذْيَةَ بِكَوْنِهِ يَسُبُّ الدَّهْرَ يَعْنِي ابْنَ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ يَقُولُ: هَذِهِ السَّنَةُ سَنَةٌ شَرٌّ سَنَةٌ بَلَاءٍ، لَا يَقْصِدُ الْخَبَرَ، لَكِنْ يَقْصِدُ الْقَدْحَ فِي السَّنَةِ، أَوْ: هَذَا الشَّهْرُ شَهْرٌ جَوْعٍ شَهْرٌ خَوْفٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَا يَرِيدُ الْخَبَرَ إِذَا أَرَادَ الْخَبَرَ مَا فِيهِ شَيْءٌ لَكِنْ يَرِيدُ الْقَدْحَ، هَذَا يُؤْذِي اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الدَّهْرَ الَّذِي يُصَرِّفُهُ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَالدَّهْرُ لَا يُصَرِّفُ نَفْسَهُ، وَلِهَذَا قَالَ: «وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ».

يُؤْذُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأُذِيَةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَكُونُ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ، الَّذِينَ آذَوْا الرَّسُولَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- بِالْقَوْلِ قَالُوا: إِنَّهُ سَاحِرٌ. قَالُوا: إِنَّهُ كَذَّابٌ. قَالُوا: إِنَّهُ كَاهِنٌ. قَالُوا: إِنَّهُ مَجْنُونٌ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَلْفَاظِ أَلْفَاظِ السَّخَرِيَّةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ أُذْيَةَ الرَّسُولِ ﷺ.

آذَوْهُ بِالْفِعْلِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سَاجِدًا تَحْتَ الْكَعْبَةِ فِي أَمْنٍ مَكَانٍ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ فَانْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ فَنَظَرَ حَتَّى إِذَا سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ^(١). فَهَذِهِ أُذْيَةٌ بِالْفِعْلِ.

وكَذَلِكَ أَيْضًا كَانُوا يُلْقُونَ الْأَذَى وَالْقَدْرَ عَلَى عَتَبَةِ بَابِهِ، وَمَنْ رَاجَعَ السِّيرَةَ رَأَى الْعَجَبَ الْعُجَابَ -لَعَنَهُمُ اللَّهُ- هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿يَعْنِي أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَلَمْ يَرْحَمُهُمْ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا لِأَذَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانُوا حَدِيثَ النَّاسِ بِالْهَزِيمَةِ وَالْخِزْيِ وَالْعَارِ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَي: يُهِنُهُمْ وَيَذِلُّهُمْ، وَهَذَا فِي الْآخِرَةِ.

وهنا إشكالٌ فأذيةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واضحةٌ ممكنةٌ، كُلُّ يَعْرِفُ أَنَّ الْبَشَرَ يُوْذِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَكِنْ مَا مَوْقِفُنَا مِنْ أَذِيَةِ اللَّهِ؟ مَوْقِفُنَا مِنْ أَذِيَةِ اللَّهِ أَنْ نُوْمنَ بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَنَقُولَ: إِنْ هَؤُلَاءِ يُوْذُونَ اللَّهَ، وَالَّذِينَ يَسُبُّونَ الدَّهْرَ يُوْذُونَ اللَّهَ كَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَإِذَا قِيلَ: أَلَيْسَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَتَضُرُّونِي»^(١).

فكَيْفَ يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ أَنَّ اللَّهَ أَثْبَتَ أَنَّ هَؤُلَاءِ يُوْذُونَهُ؟ الْجَمْعُ وَاضِحٌ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - أَثْبَتَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَأَنْفِ مَا نَفَاهُ اللَّهُ، هَذَا فَالْجَمْعُ أَنْ تَثْبِتَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَتَنْفِي مَا نَفَاهُ اللَّهُ، أَثْبَتَ أَنَّ هَؤُلَاءِ يُوْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَنْفِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَضَرَّرُ بِهَذِهِ الْأَذِيَةِ، يَعْنِي لَنْ يَتَضَرَّرَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ وَلَوْ تَأَذَى بِهَذَا الْفِعْلِ فَإِنَّهُ لَنْ يَتَضَرَّرَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْأَذِيَةِ الضَّرَرُ؟

فَالْجَوَابُ: لَا يَلْزَمُ، إِنْ الْإِنْسَانُ يَتَأَذَى إِذَا صَلَّى إِلَى جَنْبِهِ رَجُلٌ فِيهِ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ، وَلَكِنْ لَا يَتَضَرَّرُ، فَإِذَنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَثْبِتَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ وَنَنْفِي مَا نَفَاهُ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَنَاقُضَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

وَيُوجَدُ إِشْكَالٌ يَسِيرٌ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي سَقَّيْتُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

القدسي: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ» فهل الدهرُ من أسماءِ الله؟ لا، ليسَ من أسماءِ الله؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدهرُ ليسَ مشتقاً على هذا الوصف؛ ولأنَّ الَّذِينَ يَسْبُونَ الدَّهْرَ إِنَّمَا أَرَادُوا سَبَّ الدَّهْرِ لَا سَبَّ اللَّهِ. وهناك سبيان على أن الدهرَ ليسَ من أسماءِ الله:

السببُ الأوَّلُ: أن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وكلمة الدهرِ لا تحملُ هذا المعنى.

السببُ الثاني: أن الَّذِينَ يَسْبُونَ الدَّهْرَ لَا يُرِيدُونَ سَبَّ اللَّهِ وإنما يَسْبُونَ الدهرَ نفسه يعني الزمنَ والوقتَ، فتبين أن من زعم أن الدهرَ من أسماءِ الله فَقَدْ أَخْطَأَ.

بَقِيَ شَيْءٌ فِي الْآيَةِ أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] انظر للفرق بين الَّذِينَ آذَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وبين الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الأولون جزاؤهم اللعنة والعذاب المهيئ، وهؤلاءِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، فهو أخفُّ أي الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، لأنه إمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِسَبِّ مَنْ الْمُؤْمِنِ اكْتَسَبَهُ فهذا لا حَرَجَ فِيهِ وَممكن أَنْ يُؤْذَى، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ بِغَيْرِ سَبِّ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.

مثالُ الأوَّلِ: رجلٌ قَذَفَ رجلاً بالزَّنى قَالَ: هَذَا رَجُلٌ زَانٍ. هَذَا الْقَازِفُ يَجِبُ عَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ ثَمَانِينَ جَلْدَةً سَيَأْذِي بِهِذَا، فَإِذَا أَقْمَنَّا الْحَدَّ عَلَى هَذَا لَا يَكُونُ سَبًّا لِأَنَّهُ نَحْتَمِلُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي اكْتَسَبَ، فَهُوَ الَّذِي تَسَبَّبَ لِنَفْسِهِ.

إِذَا سَرَقَ الْإِنْسَانُ وَتَمَّتْ شُرُوطُ قَطْعِ يَدِهِ ثُمَّ قَطَعْنَا يَدَهُ، فَهُوَ بِذَلِكَ يَتَأَذَى بِلا شَكٍّ، وَالتِّي تُقَطَّعُ الْيَمْنَى وَلَيْسَ الْيَسْرَى، وَالْيَمْنَى الَّتِي هِيَ آلَةُ الْكِتَابَةِ آلَةُ الْأَكْلِ آلَةُ الْعَمَلِ، فَغَالِبُ بَنِي آدَمَ تَكُونُ أَيْدِيهِمُ الْيَمْنَى هِيَ آلَةُ الْعَمَلِ، فَإِذَا قَطَعْتَ الْيَمْنَى إِذْنٌ فِيهِ أَذِيَّةٌ، وَهِيَ أَذِيَّةٌ بِالْغَةِ لَكِنَّا أَذَيْنَاهُ بِسَبَبٍ مِنْهُ، هُوَ الَّذِي اكْتَسَبَ هَذَا؛ وَلِهَذَا قَيَّدَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، سَوَاءٌ أَذَوْا الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ، فَالَّذِي يُؤْذِي الْمُؤْمِنَ بِالْقَوْلِ؛ أَنْ يَغْتَابَهُ، فَيَذْكُرُهُ بَعِيبٍ فِي غَيْبَتِهِ، أَوْ يَذْكُرُهُ بَعِيبٍ فِي حَضْرَتِهِ هَذَا يُؤْذِيهِ، أَوْ يَسُبُّهُ فَهَذَا يُؤْذِيهِ، وَالَّذِي يَعْتَدِي عَلَى سَيَارَتِهِ فَيَكْسِرُ الزَّجَاجَ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يُؤْذِي، وَالَّذِي يَضَعُ الْقِمَامَةَ عِنْدَ بَابِ جَارِهِ يُؤْذِيهِ، وَالَّذِي يَفْتَحُ آلَاتِ اللَّهِ حَتَّى يَضْجَرَ مِنْهَا جَارُهُ يُؤْذِيهِ.

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا؛ وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا يَا إِخْوَانِي أَنْ يَتَحَاشَى الْإِنْسَانُ أَذِيَةَ إِخْوَانِهِ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذِيَّةِ، لَا بِالْقَوْلِ وَلَا بِالْفِعْلِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا آذَى أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا، قَالَ النَّبِيُّ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: «وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ» قَالُوا: مَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ»^(١). وَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِي جَارَهُ»^(٢). وَقَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، رقم (٦٠١٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم (٤٦).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ»^(١). وَقَالَ: «إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»^(٢).
فاحذر أن تؤذي أخاك لا بالقول ولا بالفعل حتى تسلم من احتمال البهتان والإثم
المبين.

اللَّهُمَّ اشْفِ بِلُطْفِكَ مَرْضَانَا وَمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ، وَاشْفِ مَنْ أَوْصَانَا بِالدُّعَاءِ
لَهُ بِذَلِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).
(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار، والإحسان إليه، رقم (٢٦٢٥).

الدَّرْسُ السَّابِعُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿[الأحزاب: ٥٦-٥٨].

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ يُخْبِرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِيُنَوِّهَ بِذَلِكَ عَلَى فَضْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَنَّهُ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ تَوْطِئَةً وَتَمْهِيدًا لِمَنْ أُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.

مَعْنَى الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ أَثْنِ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، أَي: كَرِّرْ مَدْحَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى، بِالصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الْحَمِيدَةِ، وَالْخِصَالِ الْحَسَنَةِ، أَي: وَصِفْهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَبِالْتَّنَاءِ الْحَسَنِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

في قوله تعالى: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ أمرٌ، والأمرُ للوجوبِ، ونقل بعض العلماء ومنهم القرطبي الإجماع على أنه يجب على الإنسان أن يُصلي على النبي ﷺ في عمره ولو مرة واحدة، وهذا حق لأن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ هذا أمرٌ والأمرُ للوجوب^(١).

والأمر المطلق كما هو معروف عند علماء الأصول إذا امتثله الإنسان مرة واحدة برئت منه الذمة، وعلى هذا فيجب على كل مؤمن أن يُصلي ويُسلم على رسول الله ﷺ في عمره ولو مرة واحدة.

واختلف العلماء رحمهم الله هل تجب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة؟ فمن العلماء من يقول: إن الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة واجبة، وإنها ركن من أركان الصلاة، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وهو الذي عليه علماء هذه البلاد، أنه يجب أن يُصلي على الرسول ﷺ في كل تشهد يعقبه سلام، سواء كان في الفريضة أو في النافلة. وأما الذي لا يُصلي على النبي ﷺ في صلاته فإن صلاته باطلة؛ لأن الصلاة عليه ركن من أركان الصلاة^(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة واجبة، وليست بركن، فيأثم الإنسان إذا تركها، ولكن لا تبطل صلاته بذلك^(٣).

وذهب بعض أهل العلم وهو الذي حكي عن جمهور العلماء: أن الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة سنة وليست بواجبة؛ ولكن الأحوط أن الإنسان لا يدعها، وأن

(١) تفسير القرطبي (١٤ / ٢٣٢-٢٣٣).

(٢) المبدع في شرح المقنع (١ / ٤٤٤)، المغني لابن قدامة (١ / ٣٨٨).

(٣) المبسوط للسرخسي (١ / ٢٩).

يُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ فِي كُلِّ صَلَاةٍ فَرِيضَةٍ أَوْ نَافِلَةٍ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ
الإمام أحمد، وعليه علماء هذه البلاد أو غالبهم.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا فِيمَا إِذَا ذُكِرَ النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ
يُصَلِّيَ عَلَيْهِ أَوْ لَا يَجِبُ؟

فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِذَا ذُكِرَ اسْمُ النَّبِيِّ ﷺ وَجَبَ عَلَى مَنْ سَمِعَهُ أَنْ يُصَلِّيَ
عَلَيْهِ، وَاسْتَدَلُّوا لِذَلِكَ بِمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَعِدَ الْمَنْبَرَ
ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، فَلَمَّا نَزَلَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ صَعِدْتَ الْمَنْبَرَ
فَقُلْتَ: آمِينَ آمِينَ آمِينَ، قَالَ: نَعَمْ، «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ
ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ،
أَوْ أَحَدَهُمَا، فَلَمْ يُدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ، ثُمَّ قَالَ: رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ شَهْرَ
رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَقُلْتُ: آمِينَ»^(١).

وَمَعْنَى «رَغِمَ»: أَيِ وَقَعَ فِي الرُّغَامِ وَهُوَ التُّرَابُ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ
لِمَنْ ذُكِرَ عِنْدَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ.

وَمَعْنَى: «أَدْرَكَ شَهْرَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ» أَنَّهُ أَدْرَكَهُ فَصَامُهُ؛ وَلَكِنَّهُ صِيَامٌ
لَا تَحْصُلُ بِهِ الْمَغْفِرَةُ لِكَثْرَةِ خَلَلِهِ وَالنَّقْصَانِ فِيهِ، وَقَامَهُ وَلَكِنَّهُ قِيَامٌ لَمْ تَحْصُلْ بِهِ
الْمَغْفِرَةُ لِكَثْرَةِ خَلَلِهِ وَالنَّقْصَانِ فِيهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ
الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم (٦٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٣/٢)، رقم (٨٨٤٣)، وابن ماجه: كتاب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث
للصائم، رقم (١٦٩٠).

وأما الأمر الثالث: فقال ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ أَدْرَكَ وَالدَّيْهَ، أَوْ أَحَدَهُمَا، فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ، فَقُلْتُ: آمِينَ»، والمعنى: أنه أدرك أبويه أو أحدهما، فلم يقم ببرهما وإنما قابلهما بالعقوق والقطيعة، وحيث لا يدخل الجنة لقول النبي ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»^(١)، يعني: قاطع رحم.

فهؤلاء الثلاثة دعا عليهم جبريل بأن تُرغم أنوفهم، وأمر النبي ﷺ أن يقول: آمين، فيؤمن على هذا الدعاء، فأمن النبي ﷺ على هذا الدعاء.

قال هؤلاء الذين يقولون بوجوب الصلاة على النبي ﷺ عند ذكره قالوا: والوعيد لا يكون إلا على ترك واجب، وهذا دليل على أن من ذكر عند رسول الله ﷺ ولم يصل عليه كان آثماً عاصياً؛ لأنه دعا عليه بأن يرغم الله أنفه، وهذا قول ليس ببعيد، وأنه يجب على المرء إذا ذكر عند رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم أن يصل على رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فإن قال قائل: بدأ الله تعالى بالصلاة قبل السلام، ونحن في صلاتنا نبدأ بالسلام قبل الصلاة؟

فالجواب: أن الواو هنا لا تقتضي الترتيب، ولا تستلزم الترتيب، فالواو لمطلق الجمع، يعني: اجمعوا بين الصلاة والسلام عليه، وقد بين رسول الله ﷺ أن السلام عليه في الصلاة يكون قبل الصلاة عليه.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم (٥٨٨٤)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم (٢٥٥٦).

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وَإِذَا هُوَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَكُونُ بِالمَحَادَّةِ فِي قَدَرِ اللَّهِ، أَوْ فِي شَرْعِ اللَّهِ، فَكُلُّ مَنْ حَادَّ اللَّهَ فِي شَرْعِهِ، أَوْ حَادَّ اللَّهَ فِي قَدَرِهِ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(١)، فَهَذِهِ مِنْ مُحَادَّةِ اللَّهِ فِي قَدَرِهِ، فَمَنْ حَادَّ اللَّهَ فِي قَدَرِهِ، وَسَبَّ قَدَرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(٢)، وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ مُؤْذٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لِمَحَادَّتِهِ لِشَرِيعَةِ اللَّهِ، فَمَنْ حَادَّ اللَّهَ فِي شَرْعِهِ، أَوْ حَادَّ اللَّهَ فِي قَدَرِهِ، فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ فِي الْمَعَاصِي مَا فِيهَا مِنْ أَذِيَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ أَذِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَا مِنْ أَذِيَّةِ رَسُولِهِ أَنْ يُلْحَقَهَا بِذَلِكَ ضَرَرٌ، فَالْأَذِيَّةُ قَدْ تَحْدُثُ وَلَكِنْ بَدُونِ ضَرَرٍ عَلَى الْمُؤْذَى؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوَنِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(٣)، فَلَا أَحَدٌ يَضُرُّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَضُرُّهُ الْعَاصِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَإِنَّمَا يُؤْذُونَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ ﴿وَمَا يُؤْلِكُكَ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنائية: ٢٤]، رَقْمُ (٤٥٤٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا، بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ، رَقْمُ (٢٢٤٦).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّهْنِ، بَابُ رَهْنِ السِّلَاحِ، رَقْمُ (٢٥١٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيرِ، بَابُ قَتْلِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ طَاغُوتِ الْيَهُودِ، رَقْمُ (١٨٠١).

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، رَقْمُ (٢٥٧٧).

كذلك الله عَزَّوَجَلَّ لا يَضُرُّهُ الْعَاصِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَلَكِنَّهُمْ يُؤْذُونَهُ، وَلَا يَسْلَمُ مِنَ الْأَذِيَّةِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَضَرَّرًا بِذَلِكَ.

مثال ذلك: ابنُ آدَمَ يَتَعَذَّبُ مِنَ الشَّيْءِ وَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ الشَّيْءُ، رَبِّهَا يَكُونُ إِلَى جَانِبِكَ رَجُلًا قَدْ أَكَلَ بَصَلًا أَوْ أَكَلَ ثُومًا فَتَتَأَذَّى بِرَائِحَتِهِ؛ وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَضُرُّكَ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا رَبِّهَا تَسْمَعُ قَوْلًا مُنْكَرًا فَتَتَأَذَّى بِهِ؛ وَلَكِنَّكَ لَا تَتَضَرَّرُ بِهِ، فَلَا يُلْزَمُ مِنَ الْأَذِيَّةِ أَنْ يَقَعَ الضَّرَرُ.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، أي طردهم وأبعدهم عن رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا رَحْمَةَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَا رَحْمَةَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: رَحْمَةٌ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِلْكَافِرِ وَالْمُؤْمِنِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: رَحْمَةٌ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِ.

أما الْعَامَّةُ فَإِنَّهَا الرِّزْقُ، وَالصَّحَّةُ وَالْعَافِيَةُ، وَالْعَقْلُ الْمَعِيشِيُّ، فَهَذِهِ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ كُلَّ الْعِبَادِ، يَعِيشُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَأَمَّا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ فَهِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مُتَّصِلًا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ.

قوله تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]: دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ أَذِيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

أَوَّلًا: أَذِيَّةٌ هُمْ الَّذِينَ اكْتَسَبُوهَا وَتَسَبَّبُوا فِيهَا، فَهَذِهِ حَقُّهُمْ، وَالْعَدْلُ هُوَ الَّذِي

أَوْجَبَ أَذِيَّتَهُمْ فِيهَا.

ثانيا: أَذِيَّةٌ أُخْرَى فَيُؤْذَى الْمُؤْمِنُونَ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ وَهَذِهِ الْعُقُوبَةُ ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾، فَالَّذِي يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ كَسْبٍ مِنْهُمْ أَيْ لَمْ يَكُونُوا سَبَبًا لِلأَذِيَّةِ، فَالَّذِي يُؤْذِيهِمْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا.

وَمِنَ الْأَذِيَّةِ أَنْ يَتَخَطَّى الْإِنْسَانُ رِقَابَ النَّاسِ، وَهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنْ تَخَطَّيَهُمْ مِنْ أَذِيَّتِهِمْ، وَلِهَذَا رُوي أَنَّهُ: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «اجْلِسْ فَقَدْ أَذَيْتَ»^(١).

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَذِيَّةُ مُضَاعَفَةً إِذَا تَخَطَّى الْإِنْسَانُ رِقَابَ النَّاسِ لِأَجْلِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى مَكَانٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَإِنْ بَعْضُ النَّاسِ يَحْتَجِرُونَ الْأَمَاكِينَ الَّتِي تَكُونُ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَهُمْ لَيْسُوا فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمْ خَارِجُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَتَمَتَّعُونَ بِنِسَائِهِمْ، وَيُمَتَّعُونَ بِطَوْنِهِمْ بِشَهَوَاتِهِمْ، وَالْمُسْلِمُونَ مُتَأَخِّرُونَ عَنِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمْ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُمْ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْتَجِرُونَ الْأَمَاكِينَ، وَيَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ هُمُ الَّذِينَ يَتَخَطُّونَ رِقَابَ النَّاسِ وَرُبَّمَا يُقِيمُونَ مِنْ وَجْدُوهُ فِي هَذَا الْمَكَانِ، هَؤُلَاءِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا، وَهُمْ آثِمُونَ وَعَاقُونَ لِلَّهِ، وَوَاقِعُونَ فِيهَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَجْرُ الْقُرْبَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَقَدَّمُوا وَالْأَجْرُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلْمُتَقَدِّمِ.

(١) أخرجه أحمد (١٨٨/٤، رقم ١٧٧١٠)، وأبو داود: كتاب الجمعة، باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة، رقم (١١١٨)، والنسائي: كتاب الجمعة، النهي عن تخطي رقاب الناس والإمام على المنبر يوم الجمعة، رقم (١٣٩٩).

ولهذا قال النبي ﷺ: «لِيَلْنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى»^(١)، فلا يجوز لأحد أن يحتجز مكاناً في المسجد الحرام، ولا في غيره من مساجد الله وهو خارج المسجد، ثم يأتي بعد ذلك يتخطى رقاب المؤمنين ويؤذيهم، هذا قد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً؛ لأن تخطي الرقاب من الأذية بنص رسول الله ﷺ، وأذية المؤمنين بغير ما اكتسبوا يحتمل بها الإنسان بهتاناً وإثماً مبيناً، كما في هذه الآية الكريمة.

ومن الأذية التي تحصل من بعض الناس للمؤمنين بغير ما اكتسبوا؛ ما يحصل من بعض الجيران الذين يؤذون جيرانهم، فتجدهم يفتحون الراديو، أو المسجل، أو التليفزيون بصوت عالٍ يقلق الجيران ويؤذيهم، ويمنع المتهجد من إتمام تهجده، ويمنع النائم من التلذذ في نومه، ويمنع طالب العلم من الانشغال بمطالعة كتبه ودراسته، فهو لاء يؤذون جيرانهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

فحتى لو فرض أن الإنسان فتح الراديو أو المسجل أو التليفزيون على كتاب الله، وعلى قراءة القرآن بصوت عالٍ يؤذي الناس فإن ذلك حرام عليه، لا يجوز له، وإذا كان يجب أن يسمع تلاوة القرآن فليجعلها بقدر ما يسمعه، ولا يؤذي الناس بهذا الصوت.

فإن قيل: كيف تنكر على من أسمع المسلمين كلام ربهم؟

قلنا: لا نستنكر ذلك، فإن النبي ﷺ خرج على أصحابه وهم يصلون ويجهرون بالقرآن، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، رقم (٤٣٢).

وَلَا يَرْفَعَنَّ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ»^(١)، فَيَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَنْتَبِهَ
 لِهَذَا الْأَمْرِ، وَأَنْ لَا يَجْهَرَ بِالْقُرْآنِ عَلَى وَجْهِ يُشَوِّشُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَصَلِّينَ وَغَيْرِهِمْ،
 فَإِنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ مُؤْذِيًا لِلنَّاسِ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا
 اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.

وَمِنَ الْأَذْيَةِ أَنْ يَسِيرَ النَّاسُ فِي الْأَسْوَاقِ عَلَى وَجْهِ يُزْعِجُهُمْ، كَمَا يَوْجَدُ فِي
 بَعْضِ الْمَنَبِّهَاتِ الْقَوِيَّةِ فِي السَّيَّارَاتِ الَّتِي تُزْعِجُ النَّاسَ، فَإِنْ هَذَا مِنْ أَذْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ،
 وَالْوَاجِبُ أَنْ يَتَّخِذَ الْإِنْسَانُ مِنْبَهًا بِقَدْرِ مَا يَحْصُلُ بِهِ التَّنْبِيهُ، لَا مُزْعَجًا يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ.

كَذَلِكَ أَيْضًا مِنْ أَذْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَحْصُلُ مِنْ بَعْضِ السَّائِقِينَ الَّذِينَ يُوقِفُونَ
 السَّيَّارَاتِ عَلَى الْأَرَصِفَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُشَاةِ، فَإِذَا أُوقِفَتْ فِيهَا السَّيَّارَاتُ تَأْذِي الْمَسْلُومُونَ
 الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى هَذِهِ الْأَرَصِفَةِ، بِالنُّزُولِ عَنْ هَذِهِ الْأَرَصِفَةِ ثُمَّ الصُّعُودِ إِلَيْهَا مِنْ
 وَرَاءِ السَّيَّارَةِ، أَوْ رَبِّهَا يَكُونُ الْحُطُّ مُشْغُولًا بِالسَّيَّارَاتِ الْأُخْرَى فَيَتَأَذُّونَ بِمُخَالَفَتِهَا.

فَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ مُتَنَبِّهًا لِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَأَلَّا يَكُونَ أَنَانِيًّا لَا يَهْمُهُ
 إِلَّا نَفْسُهُ، عَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ إِخْوَانَهُ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى
 يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»^(٢).



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (١٣)،
 ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه، رقم (٤٥).

الدَّرْسُ الثَّامِنُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨].

بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْإِذَاءِ:

الأول: أذيةُ الله.

الثاني: أذيةُ رَسُولِهِ ﷺ.

الثالث: أذيةُ الْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا أذيةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ فَجَعَلَهُمَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ، وَفِي نَسَقٍ وَاحِدٍ؛ لِأَنَّ أذيةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أذيةٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأذيةُ اللَّهِ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَالَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ يَسْتَحِقُّونَ اللَّعْنَ وَالْعَذَابَ الْمُهِينَ، وَاللَّعْنَةُ: هِيَ الطَّرْدُ، وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَتَكُونُ أذيةُ اللَّهِ، بِوصفه بما لا يليقُ به، وَسبِّه، وَالاستهزاء به، وَالسخرية به، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِسَمِيعٍ، وَلَا بِصِيرٍ، وَلَا عَزِيزٍ، وَلَا حَكِيمٍ، وَلَا رَحِيمٍ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مِمَّا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أذيةِ اللَّهِ.

وَمَنْ اعْتَرَضَ عَلَى اللَّهِ فِي شَرْعِهِ أَوْ قَدَرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أذيةِ اللَّهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي

الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»^(١)، فمثال سب الدهر: أن يقول: هذه سنة سيئة، وهذا فصل سيء، وما أشبه ذلك، مما ينم عن سب القدر، فإن ذلك أذية لله عز وجل.

وأشد من ذلك: أن يسب الدين، ويستهزئ به، ويورد الشبهات عليه، ويصفه بأنه متناقض، فإن هذا أشد من سب الدهر، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

وهنا يرد سؤال: كيف أثبت الله عز وجل الأذية له، مع أنه سبحانه وتعالى لا يضره أحد من خلقه، ولا تضره معصية العاصين، فكيف تثبت الأذية مع انتفاء الضرر؟
الجواب: أن يقال: لا يلزم من الأذية الضرر، ومثال ذلك: الإنسان يتأذى من الرائحة الكريهة، ولكن لا تضره، ويتأذى أن يسمع كلمة نابية، ولكن لا تضره، فلا يلزم من الأذية الضرر، فابن آدم يؤذي الله بأن يسب الدهر، ولكن لا يضر الله عز وجل شيئاً؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفعه طاعة الطائعين.

ومن أذية الرسول عليه الصلاة والسلام: أن يسب سنته وشريعته، ويصفها بالقصور، وأنها لم تستوعب الأحكام التي يحتاجها الناس.

ومن أذية الرسول عليه الصلاة والسلام: أن يسب آل بيته من قرابته، أو زوجاته،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يَهْلِكُ إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنائ: ٢٤]، رقم (٤٥٤٩)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فَإِنْ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَذْيَتِهِ، فَمَنْ سَبَّ وَاحِدَةً مِنْ أَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ جَمِيعَ أَمْهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ سَبَّ أَحَدًا مِنْ أَقَارِبِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، فَقَدْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

أما أقاربه الذين لم يؤمنوا به، فليس سبهم من أذية الرسول ﷺ فإن الله تعالى سبَّ أبا لهب وهو عمُّ الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنزل في سبِّه سورة كاملة يتلوها النَّاسُ إلى يومِ القيامة في صلواتهم، الفرض والنفل، وفي قراءتهم التي يتقربون بها إلى الله، قال الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١-٥].

وَمِنْ أَذْيَةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: سَبُّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ دَافَعُوا عَنْهُ، وَنَاصَرُوهُ، وَعَزَّرُوهُ، وَقَامُوا بِالْجِهَادِ مَعَهُ حَتَّى أَظْهَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ عَلَى يَدِهِ وَأَيْدِيهِمْ، فَإِنْ سَبَّهَمْ بِلَا شَكٍّ إِيْذَاءٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾، عَذَابًا يُهِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَالْلعنةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْعَذَابُ الْمُهِينُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَرَبِّمَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا أَيْضًا، يُعَذَّبُونَ عَلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَتَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبَ غِظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٥﴾ [التوبة: ١٤-١٥].

فَسَبُّ اللَّهِ تَعَالَى وَصْفُهُ اللَّهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ شَرْعًا أَوْ قَدْرًا، هَذَا مِنْ أَذْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِيْذَاءِ الرَّسُولِ ﷺ كَذَلِكَ أَنْ يَنْسَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ إِلَى أَهْلِهِ مَا لَا يَلِيقُ

بهم شرعاً أو قدرًا، فإن الله تعالى لم يختَر لرسوله ﷺ إلا خيارَ الخلق ينصرون الله ورسوله ﷺ.

القسم الثالث: أما القسم الثالث من الأذية فهو أذية المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ هؤلاء ﴿احْتَمَلُوا بُهْتَنًا﴾ أي: كذبًا، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، أي: عقوبة، وهنا لم يذكر اللعنة، ولم يذكر العذاب المهيّن؛ لأن سبَّ الله ورسوله ﷺ أعظم من سبَّ المؤمنين بلا شك، فسبُّ المؤمنين لا يوصل إلى الكفر، لكن سبَّ الله ورسوله ﷺ كفر، حتى إن بعض العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يقولون: إن سبَّ الله ورسوله ﷺ لا تُقبل فيه التوبة، فلو تاب وجب أن يُقتل^(١).

والصحيح أن من سبَّ الله قبلت توبته ولم يقتل، وإن كان قد سبَّ الرسول ﷺ قبلت توبته وقتل، مع أن سبَّ الله أعظم من سبَّ الرسول ﷺ، وهذا أمرٌ مستغربٌ، فكيف يُرفع القتل عن ذنبه أعظم وأشدُّ؟

الجواب: أن من تأمل الأمر رأى أن ذلك ليست فيه غرابة؛ لأن سبَّ الله حقٌّ لله، وقد أخبر الله عن حقه، أن من تاب إليه ورجع إليه، فقد عفا عنه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

أما من سبَّ الرسول ﷺ فإن سبَّهُ رِدَّةٌ عن الإسلام، فإذا تاب منها السَّابُّ

(١) انظر الصَّارم المسلول (١/٣).

قُبِلَتْ تَوْبَتُهُ، وَصَارَ مُسْلِمًا، لَكِنْ يُقْتَلُ لِحَقِّ الرَّسُولِ ﷺ، فَحَقُّ الرَّسُولِ حَقُّ آدَمِيٍّ لَا يَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ، فَيُؤْخَذُ بِالثَّأْرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الَّذِي سَبَّهُ، وَيُقْتَلُ، وَإِذَا قُتِلَ فَيُغَسَّلُ، وَيُكْفَنُ، وَيُصَلَّى عَلَيْهِ، وَيُدْفَنُ مَعَ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَطَهَّرَ.

وَأَذِيَةُ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَتْ كَأَذِيَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا﴾.

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ آذَى الْمُؤْمِنَ، لَكِنْ بِسَبَبٍ فَعَلِ الْمُؤْمِنِ، فَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ آذَاهُ بِغَيْرِ حَقٍّ، بَلْ نَقُولُ آذَاهُ بِحَقٍّ.

مِثَالُ ذَلِكَ: لَوْ أَنَّ جَارَكَ آذَاكَ فِي جَوَارِهِ، فَأَذَيْتَهُ بِمِثْلِ مَا آذَاكَ بِهِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ إِثْمٌ؛ لِأَنَّكَ آذَيْتَهُ بِمَا اكْتَسَبَ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِإِيْدَاءِ مَنْ فَعَلَ أَوْ أَتَى الْفَاحِشَةَ فَقَالَ: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]، فَأَمَرَ اللَّهُ بِأَذْيَتِهِمَا؛ لِأَنَّهُمَا اكْتَسَبَا ذَلِكَ، فَصَارَا هُمَا السَّبَبُ فِي الْأَذْيَةِ، فَلَيْسَ فِي أَذْيَتِهِمَا عَدْوَانٌ عَلَيْهِمَا.

إِذَنْ، الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، إِنْ كَانَ بِكَسْبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، فَهَذَا مِنْهُمْ، وَلَا إِثْمَ عَلَى مَنْ آذَاهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَخَذَ بِحَقِّهِ، أَوْ أَخَذَ بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَالرَّجُلُ إِذَا أُقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، يُؤْذَى لَكِنْ بِحَقٍّ.

وَمِنْ أَذْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ: شَتْمُهُمْ، أَوْ سَبُّهُمْ، أَوْ الْقَدْحُ فِيهِمْ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بَلْ مِنْ أَذْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَتَخَطَّى رِقَابَهُمْ فِي أَوْقَاتِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، أَوْ غَيْرِ الْجُمُعَةِ، وَلِهَذَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يَمْشِي فِي الصَّفُوفِ

يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ: «اجْلِسْ فَقَدْ آذَيْتَ»^(١).

وَمِنْ أَذِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنْ يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ إِلَى مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ بِرَائِحَةٍ كَرِيهَةٍ تُؤْذِي النَّاسَ، مِثْلَ أَكْلِ الْبَصْلِ وَالثُّومِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ ذَوَاتِ الرِّوَاحِ الْكَرِيهَةِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ الْبَصْلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى بِمَا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»^(٢).

فَبَيَّنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ فِي ذَلِكَ أَذِيَةً، فَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ إِذَا قَامَ إِلَى جَنْبِ مَنْ أَكَلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمُؤْذِيَّاتِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْذِيَ الصَّلَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ، فَتَكُونُ فِي ذَلِكَ أَذِيَةٌ بَاكْتِسَابِ الْمُؤْمِنِ، فَالْمُؤْذَى لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤْذَى عَلَيْهِ.

فَأَذِيَةُ الْمُؤْمِنِينَ لَا شَكَّ أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ، وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ إِذَا رَأَوْا أَحَدًا قَدْ أَكَلَ بَصْلًا، أَوْ ثُومًا فِي الْمَسْجِدِ، أَخْرَجُوهُ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَطَرَدُوهُ إِلَى الْبَقِيعِ، لِيَتَعَدَّ عَنْ أَذِيَةِ النَّاسِ.

وَمِنْ أَذِيَةِ الْمُسْلِمِينَ: أَنْ يَضَعَ فِي طُرْقَاتِهِمْ مَا يُؤْذِيهِمْ مِنْ قُشُورِ الْبَرْتَقَالِ، أَوْ مِنْ قُشُورِ الْمَوْزِ، أَوْ قِطْعِ الزَّجَاجِ، أَوْ الثِّيَابِ الْبَالِيَةِ، أَوْ الْأَحْجَارِ، أَوْ الْمَسَامِيرِ،

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٨٨/٤)، رَقْمُ (١٧٨٢٦)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ تَخْطِي رِقَابِ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١١١٨)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ تَخْطِي رِقَابِ النَّاسِ وَالْإِمَامُ عَلَى الْمَنْبَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١٣٩٩)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالسَّنَةِ فِيهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنْ تَخْطِي النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١١١٥).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ نَهْيِ مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصْلًا أَوْ كَرَاثًا أَوْ نَحْوَهَا، رَقْمُ (٥٦٤).

أو الميَاه، أو غير ذلك. قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَيُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»^(١).

وَمِنَ الْأَذْيَةِ الْعَظِيمَةِ: أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الشَّخْصِ مَا لَمْ يَقُلْهُ، وَلَا سِيَّاهُ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ قَوْلًا شَرْعِيًّا بِأَنْ يَقُولَ: قَالَ الْعَالِمُ الْفُلَانِيُّ كَذَا وَكَذَا، وَهُوَ لَمْ يَقُلْهُ، فَإِنْ هَذَا مِنْ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ كَذِبًا عَلَى الْعَالِمِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ كَذِبٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ الَّتِي يَحْمِلُهَا هَذَا الْعَالِمُ.

وَلِذَلِكَ نَقُولُ: إِذَا كَانَ الْكَذِبُ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ كَكَذِبِ عَلَى أَحَدِنَا، كَمَا قَالَ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٢).

فَالْكَذِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ لَيْسَ كَالْكَذِبِ عَلَى الْعَامَةِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَ: قَالَ الْعَامِيُّ كَذَا وَكَذَا فِي حَكْمٍ مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْكَذِبِ، لَكِنْ لَيْسَ كَمَا إِذَا قُلْتَ: قَالَ الْعَالِمُ الْفُلَانِيُّ كَذَا وَكَذَا؛ لِأَنَّ النَّاسَ سَوْفَ يَأْخُذُونَ بِمَا نُسِبْتَ إِلَى الْعَالِمِ، عَلَى أَنَّهُ قَوْلُ عَالِمٍ يُقْتَدَى بِهِ، لَكِنْ الْعَامِيُّ لَا يَهْمُهُ، سَوَاءٌ نُسِبَتْ إِلَيْهِ الْقَوْلُ أَمْ لَمْ تَنْسِبْ.

وَلِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نَحْذَرَ مِنْ أَنْ نَنْسِبَ إِلَى الْعُلَمَاءِ شَيْئًا يُنْقَلُ عَنْهُمْ إِلَّا إِذَا تَأَكَّدْنَا مِنْ هَذَا؛ حَتَّى لَا نَعْتَدِيَ عَلَى مَقَامِهِمْ، وَحَتَّى لَا نُضِلَّ النَّاسَ بِسَبَبِ هَذَا النُّقْلِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا قُلْتَ: قَالَ الْعَالِمُ الْفُلَانِيُّ وَهُمْ يَثْقُونَ بِهِ، أَخَذُوا قَوْلَكَ عَلَى

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، رقم (٢٩٨٩)، ومسلم:

كتاب الكسوف، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، رقم (١٠٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ، رقم (١١٠)، وصحيح

مسلم، باب في التحذير من الكذب على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، رقم (٣).

القبول، وجعلوا ذلك حجة، وهذا خطرُهُ عظيمٌ.

وَمِنْ أَذِيَةِ الْمُؤْمِنِينَ: التَّحْرِيشُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَإِلْقَاءُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ، إِمَّا بِالنَّمِيمَةِ أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ التَّفَرُّقِ؛ وَلِهَذَا نَرَى أَنَّ مَا يَتَنَاقَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَيَنْقُلُونَهُ أَوْ يَقُولُونَهُ فِي بَعْضِهِمْ، نَرَى أَنَّهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ وَمِحْنَةٌ كَبِيرَةٌ، وَأَنَّهَا سَبَبٌ لِقَتْلِ هَذِهِ الصَّحُوةِ الْمُبَارَكَةِ، الَّتِي كَانَتْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي عَصْرِِنَا الْحَاضِرِ.

فَإِنَّهُ إِذَا حُرِّشَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ، وَضُرِبَتْ أَقْوَالُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ، نَقَصَ قَدْرُ الْجَمِيعِ، فَيَنْقُصُ قَدْرُ هَذَا وَهَذَا، وَلَا يُوثَقُ بِقَوْلِ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ، فَإِذَا لَمْ يَثِقِ النَّاسُ بِعُلَمَائِهِمْ، وَلَمْ يَنْصَاعُوا لِقَوْلِهِمْ، لِأَصْبَحَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا فَوْضَى فِي الشَّرْعِ وَالنِّظَامِ، فَلَا يَقْبَلُونَ مِنْ عُلَمَاءٍ تَضَارَبَتْ أَقْوَالُهُمْ، أَوْ يُسَبُّ بَعْضُهُمْ أَوْ يَشْتُمُ بَعْضُهُمْ، وَلَا يَنْصَاعُونَ إِلَى أَوَامِرٍ وَلَا إِلَى أُمُورٍ، إِذْهُنُ أَصْبَحَ النَّاسُ فِي فَوْضَى، وَهَذَا خَطَرُهُ عَظِيمٌ.

وَلِهَذَا نَجِدُ الْفُقَهَاءَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَحْرَصُونَ غَايَةَ الْحَرَصِ عَلَى الْبَعْدِ عَنِ الْمَخَالَفَةِ وَالِاخْتِلَافِ، حَتَّى إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَتْ مَدَّةُ خِلَافَتِهِ نَحْوَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، كَانَ يَحْجُجُ بِالنَّاسِ، لِأَنَّ الْخُلَفَاءَ هُمْ أُمَرَاءُ الْحَجِيجِ، فَكَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ يُصَلِّي فِي مَنَى رَكَعَتَيْنِ، وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ نَحْوَ سِتٍّ، أَوْ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ، يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَصَلُونَ فِي مَنَى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ صَارَ يُصَلِّي أَرْبَعًا.

فَذَكَرَ ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَرَأَى أَنَّ مَخَالَفَةَ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، مَصِيبَةٌ

تستحقُّ أن يسترجع الإنسان عليها، ومع ذلك كان يُصلي خلف عثمان، ويصلي أربعاً، وهو يرى أن ذلك مصيبةٌ، فقلَّ له: يا أبا عبد الرحمن، كيف ذلك، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الخِلافُ شَرٌّ^(١).

انظر كيف الصحابةُ يوافقون على شيءٍ يرونه منكراً في رأيهم، ولكن لأجل ألا يقع الخلاف بين المسلمين، مع أنه يوجد من ينتسبون للخير، ولكنهم يُوقدون نارَ الفتنة بين العلماء وطلبتهم، والدعاة، بل عامة الناس، وهذا من أكبر الجناية والإيذاء للمؤمنين.

فعلى من ابتلي بهذا الأمر عليه أن يتوب إلى الله، وأن يرجع إلى ربه، وأن يتأمل النتائج السيئة التي تترتب على هذا، ونحن لا نقول: إن أحداً لا يخطئ، فكلُّ بني آدمَ خاطئٌ، وخيرُ الخطائين التوابون، ولكننا نقول كما قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في أول كتابه (القواعد الفقهية): «يأبى الله العصمة في كتابٍ غير كتابه، والمنصفُ من اغتفرَ قليلَ خطأ المرء في كثيرِ صوابه»^(٢).

فالصوابُ واحدٌ وعشرون، والخطأُ تسعةَ عشر، فعلى المنصف أن يزن، فإذا وزنَ واحداً وعشرينَ وتسعةَ عشر، فيترجَّح الواحدُ وعشرون، إذن هذا الرجلُ أصابَ في واحدٍ وعشرينَ، وأخطأ في تسعةَ عشر، فيُغتفرُ الخطأُ.

لكن أن يجيءَ عالمٌ يُصيبُ في ألفٍ، ويخطئُ في واحدةٍ، ثم يُطمسُ على الألفِ كله وكأنه لم يُصب فيه، ويُؤخذُ بواحدةٍ من الخطأ، وتُنشرُ، ويقالُ عنه ما يقالُ فهذا خطأ، وليس من الإنصافِ، وليس من دأبِ المسلمين.

(١) أخرجه أبو داود: كتاب المناسك، باب الصلاة بمنى، رقم (١٩٦٠).

(٢) القواعد لابن رجب (٣/١).

ومَعَ ذَلِكَ إِذَا رَأَيْتَ مِنْ أَخِيكَ خَطَأً فَلَا تُقَرِّهُ عَلَيْهِ، اتَّصِلْ بِهِ وَنَاقِشْهُ، فَقَدْ تَكُونُ أَنْتَ الْمُخْطِئُ وَالصَّوَابُ مَعَهُ، وَبَيِّنْ لَهُ، وَالْإِنْسَانُ الْمُؤْمِنُ حَقًّا هُوَ الَّذِي إِذَا بَانَ لَهُ الصَّوَابُ رَجَعَ إِلَيْهِ، وَتَرَكَ قَوْلَهُ، وَسَيَكُونُ الْخَيْرُ لَوْ أَنَّا اسْتَعْمَلْنَا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ أَنْ مَنْ أَخْطَأَ مِنَّا نَتَّصِلُ بِهِ، وَنُبَيِّنُ لَهُ سِرًّا لَا عَلَنًا، وَنُبَيِّنُ لَهُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ، وَنُناقِشْهُ، فَقَدْ يَتَبَيَّنُ الْحَقُّ مَعَهُ فَتَتَّبِعُهُ، أَوْ مَعَنَا فَيَتَّبِعُنَا.

أَمَّا أَنْ يَفْرَحَ الْإِنْسَانُ بِخَطَأِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْشُرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ دَأْبِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا مِنْ طَرِيقَةِ الْمُسْلِمِينَ، بَلْ هُوَ مِمَّا يُؤْذِي الْمُسْلِمِينَ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَتَأَذَّى بِأَنْ يَجِدَ إِخْوَانًا لَهُ يَنْبِذُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْأَلْقَابِ السَّيِّئَةِ فِي أُمُورٍ مَحَلِّهَا اجْتِهَادِيٌّ، وَيُمْكِنُ تَدَارُكُهَا.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ طَبِيعَةَ الْبَشَرِ إِذَا عُونَدَ فَإِنَّهُ يُعَانِدُ، وَيَزْدَادُ وَيُصِرُّ عَلَى رَأْيِهِ، لَكِنْ إِذَا أُوتِيَ بِالْحِكْمَةِ وَبَيَّنَّ لَهُ الْخَطَأُ، وَصَلَحَتِ النِّيَّةُ، حَصَلَ بِهِذَا خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَالْأَمْرُ بِأَيْدِينَا وَيُمْكِنُ تَدَارُكُهُ بِالرَّجُوعِ إِلَى الصَّوَابِ؛ حَتَّى يَزُولَ مَا بِأَذِيَةِ النَّاسِ. فَأَذِيَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا اكْتَسَبُوا حَلَالًا مَبَاحٌ، بَلْ قَدْ يَكُونُ مَأْمُورًا بِهَا؛ لِأَنَّهَا بِالْحَقِّ.

قِيلَ: إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٦]، إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِقَتْلِ اللُّوْطِيِّ - قَتْلِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ -؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ وَجَدَ مَوْهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ»^(١)، وَقِيلَ كَذَلِكَ: إِنَّهُ لَا يَوْجَدُ مِثَالُ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ فِيمَنْ عَمِلَ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ، رَقْمُ (٤٤٦٢)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي حَدِّ اللُّوْطِيِّ، رَقْمُ (١٤٥٦)، وَابْنُ مَاجَةَ: كِتَابُ الْحُدُودِ، بَابُ مَنْ عَمِلَ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ، رَقْمُ (٢٥٦١).

صحيح لنسخ القرآن بالسنة، وإن هذا من باب نسخ القرآن بالسنة؛ لأن القرآن يدل على من فعل الفاحشة: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ فجاءت السنة بأن نقتل الفاعل والمفعول به، فهل هذا صحيح ونأخذه مثالا لنسخ القرآن بالسنة؟

الجواب: يمكن اعتبار أن هذا المثال صحيح، والقول بأنها جاءت في الزنا غير صحيح؛ لأن الآية التي قبلها هي التي في الزنا: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۝١٥﴾ [النساء: ١٥-١٦]، يعني: منكم، وهذه لصيغة المذكر، والفاحشة باللواط أعظم من الفاحشة بالزنا، ولهذا عبر الله عن الزنا بأنه فاحشة، وعبر لوط عنه بأنه الفاحشة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَةَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، أما لوط فقال لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ [الأعراف: ٨٠] يعني: التي استقر فحشها في النفوس السليمة، واشتهر عند كل أحد، ولهذا كان القول الراجح أن الفاعل والمفعول به كلاهما يقتلان إذا كانا بالغين، ولم يكره المفعول به على الفعل، فيقتل كل منهما، حتى وإن لم يتزوجا، بخلاف الزنا، فالزنا لا يجرم إلا المتزوج، أما اللواط فيقتل وإن لم يتزوج.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إن الصحابة أجمعوا على قتل اللوطي الفاعل والمفعول به، لكن اختلفوا كيف يقتلان، فمنهم من قال: يُحرقان بالنار، ومنهم من قال: يُرجمان بالحجارة، ومنهم من قال: يُلقيان من أعلى شيء في البلد،

وَيُتَبَعَانِ بِالْحِجَارَةِ، وَالْمَهْمُ أَنْ الصَّحَابَةُ - أَجْمَعُوا عَلَى قَتْلِ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِهِ -
نَسَأُ اللَّهَ الْحِمَاةَ وَالسَّلَامَةَ»^(١).



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١١/٥٤٣)، (٢٨/٣٣٥).

الدَّرْسُ التَّاسِعُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ أي: يقولون ما يؤذي الله، أو يفعلون ما يؤذي الله، فمن ذلك أن يسب الإنسان الدهر، فإذا سب الإنسان الدهر لكثرة مصائبه في هذا الدهر، أو لكثرة الفتن أو ما أشبه ذلك، فسبّه وقال: هذا دهرٌ سيّئٌ، وهذا دهرٌ تأذينا منه، وهذا دهرٌ لا خير فيه، وما أشبه ذلك، فهذا يؤذي الله عزّ وجلّ؛ لقول الله تعالى: «يؤذيني ابنُ آدمَ، يسبُّ الدهرَ وأنا الدهرُ»^(١).

ولكن هل يلزم من أذية الله عزّ وجلّ أن يتضرّر الله؟

الجواب: لا يلزم؛ فإن الله تعالى لا يضرّه شيءٌ، فلا ينتفع بطاعة الطّائعين، ولا يتضرّر بمعصية العصّيين، بل هو عزّ وجلّ غنيٌّ عما سواه، وكلُّ ما سواه مُفتقرٌ إليه.

إذن لا يلزم من كون الله يتأذى بسبّ الدهر أن يتضرّر به؛ لأن الله تعالى

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُلْكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجنّة: ٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

لا يُمكن أن يتضرر بشيء. وفي الحديث القدسي قال الله عزَّ وجلَّ: «يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»^(١).

وقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ أي: ويؤذون رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقد أُوذِيَ النَّبِيُّ ﷺ بالقول وبالفعل، فأُوذِيَ بالقول ووصف بأنه ساحر، وأنه شاعر، وأنه كاهن، وأنه مجنون، وأنه كذاب، وأنه مسحور، ولا شك أن هذا يؤذيه، ولكن هل ضَرَّه ذلك شيئاً؟

الجواب: لا، بل صبرَ وانتظرَ الفرجَ، وصار له النصرُ على أعدائه، فلم يَتَضَرَّرْ، لكنه لا شكَّ أنَّه يتأذى كما يتأذى بنو آدمَ، ولكن ذلك لم يَضُرَّهُ والله الحمد، حتَّى السُّمُّ الَّذِي وَضَعَتْهُ الْيَهُودِيَّةُ فِي لَحْمِ الذَّرَاعِ عامَ فَتْحِ خَيْبَرَ لِيَأْكُلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَيَمُوتَ لم يَضُرَّهُ، فلم يَمُتْ في الْحَالِ، مع أن الَّذِينَ أَكَلُوا مِنْهُ مَاتَ بَعْضُهُمْ، أما النَّبِيُّ ﷺ فلم يَمُتْ في الْحَالِ، لكنه كان يقول مرض موتَه: «مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»^(٢). والأبهرُ عِرْقٌ يتصلُّ بِالْقَلْبِ، إذا انقطعَ هَلَكَ الْإِنْسَانُ.

ولهذا قال بعضُ التَّابِعِينَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَتَلَهُ الْيَهُودُ، عَلَيْهِمْ لعائنُ اللهِ المَتَابَعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

أَسْأَلُ اللهَ فِي هَذَا الْمَقَامِ، وَفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ أَنْ يَدْمُرَ الْيَهُودَ، اللَّهُمَّ دَمِّرِ الْيَهُودَ، وَمَنْ سَاعَدَ الْيَهُودَ مِنَ النَّصَارَى وَالْمَنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلات والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٢٨).

فإنهم آذوا المسلمين واعتدوا عليهم، وأخرجوهم من ديارهم، وخربوا بلادهم؛ ولكن الله تعالى بالمرصاد، لنا أمل كبير في أن نرجع إلى الله عز وجل حتى يكتب لنا النصر.

أما ما دُمنّا نُقاتِل حِمِيَّةً، ونقاتل عصبيةً، فالله أعلم هل نُنصر عليهم أو لا ننصر، لكن لو قاتلناهم باسم الإسلام وأسلمنا نحن قبل ذلك، وحسن إسلامنا، فالنصر لنا بلا شك.

إذن النبي ﷺ يُوذَى بالقول؛ مثل قولهم: ساحر، وكذاب، وكاهن، ومجنون، ومسحور، وما أشبه ذلك، وبالفعل أيضاً آذوا النبي ﷺ، حتى كانوا يُلقون القاذورات على عتبة بابه في مكة، وحتى كان ذات يوم ساجداً تحت بيت الله، فقالت قُرَيْشٌ بعضهم لبعض: ألا أحدٌ يذهب إلى جزور بني فلان فيأتي بسلاها^(١) فيضعه على ظهر محمد، فانتدب أشقاها لذلك، وأتى بالسلي وفرثه^(٢) ودمه ووضع على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد^(٣). وأنواع الأذى الحاصل للرسول ﷺ كثيرة.

قوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ معنى لعنهم: أي طردهم وأبعدهم عن رحمة الله. ومن لعنه الله فلا خير يُرجى من ورائه؛ لأنه مطرود من الرحمة. وأول من لعن فيها نَعَلَم إبليس.

(١) السلي: هو اللقافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهو من الآدمية: المشيمة.

(٢) الفرث: هو ما في كرش الحيوان.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

واليهود والنصارى ملعونون؛ لعنهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقال الله تعالى في القرآن: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: ٧٨]، والنبي ﷺ في آخر حياته يقول: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١).

فالنصارى ملعونون، واليهود ملعونون، ولم يُسلطوا على المسلمين إلا بتفريط المسلمين في دينهم، وبُعدهم عن دينهم، فسلط عليهم حَفَنَةٌ مِنَ الْيَهُودِ بمساعدة النصارى لهم، وحصل ما حصل مما تشاهدونه كل يوم في الجرائد، أو تسمعون في الإذاعات.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ الجزء من جنس العمل، لما كان هؤلاء يقصدون بأذية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إهانته أهينوا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي ذا إهانة وذُلٍّ وخِزْيٍ وعارٍ.

لا يلزم من الأذية الضرر:

ذكرنا أنه لا يلزم من الأذية الضرر، فمثلاً يَنْطَبِقُ عليه هذا الحكم: فالإنسان يتأذى من الرائحة الكريهة، ولكنه لا يتضرر، ولهذا نهى النبي ﷺ مَنْ أَكَلَ بَصَلًا أو ثُومًا أَنْ يَقْرَبَ الْمَسَاجِدَ، وأخبر أن ذلك يُؤْذِي الْمَلَائِكَةَ، وأن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلاة في البيعة، رقم (٤٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، رقم (٥٣١).

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم^(١)، وعليه فإذا أكلت بصلاً أو ثوماً أو غيرها من ذات الروائح الكريهة، وبقيت الرائحة فلا تقرب المسجد، ولا تُصل مع الجماعة.

وهذا ليس إسقاطاً للجماعة عنك، ولكن اتقاء لأذيته، ومعلوم أن الإنسان إذا عرف نفسه أنه محروم من حضور الجماعة فإنه سوف يُدبر أمره؛ فإما أن يأكل البصل والثوم في وقت مبكر بحيث تزول رائحته، وإما أن يستعمل روائح قوية الرائحة وهي طيبة حتى تقضي على رائحة الثوم والبصل.

المهم أن الإنسان يتأذى بالشيء ولا يتضرر به، وحينئذ نعرف أنه لا يلزم من أذية الله تبارك وتعالى من هؤلاء المؤذنين أن يتضرر بذلك، وكذلك النبي ﷺ.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ، وسواء كان القول مواجهة أو كان القول في الغيبة، فإن كان القول مواجهة سُمِّيَ سَبًّا وشتماً، بأن يقول أمامه: أنت كذاب، أنت خداع، أنت آكل رِبَا، وهو بريء من ذلك، فهو يتأذى بهذا، أو يتكلم في مجامع الناس بأن يقول: فلان فيه كذا وكذا، وهذه هي الغيبة، والغيبة: هي ذكرك أخاك بما يكره، وهي -أي الغيبة- من كبائر الذنوب.

وكبائر الذنوب لا تكفرها الصلاة، ولا الصيام، ولا الصدقة، ولا الحج،

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها، رقم (٥٦٤).

ولا العمرة، وتحتاج إلى توبة خاصة، والغيبة من كبائر الذنوب؛ لأن الله تعالى شبهها بأقبح تشبيه فقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

واعلم أن الغيبة يشتد إثمها ويعظم قبحها إذا كانت آثارها سيئة، فإذا كانت الغيبة لأهل العلم، صارت أشد قبحاً من غيبة العوام؛ لأنك إذا اغتبت العامي فقد أسأت إليه فقط، لكن إذا اغتبت العالم فقد أسأت إليه وإلى ما يحمله من شريعة الله، وحينئذ لا يبقى للشريعة التي يحملها هذا العالم كبير تعظيم في القلوب، فيزهد الناس بعلمه، ولا ينتفعون به، ويفقد جانب كبير من الشريعة.

إذن غيبة العلماء أعظم إثماً وأكبر جرمًا، وأشد قبحاً من غيبة العوام؛ لما يترتب على ذلك من الاستخفاف بالشريعة التي يحملها هذا العالم.

والعجب أن أولئك الذين يغتابون العلماء هم أسوأ حالاً من العلماء:

أولاً: لأنهم لا يساوونهم في العلم والإدراك.

وثانياً: أن عندهم من العنف والكبرياء، والإعجاب بالنفس، وتكفير غيرهم ما هو معروف.

كذلك غيبة الأمراء وغيبة الحكام أشد جرمًا وأعظم إثماً من غيبة العامة؛ لأنك إذا اغتبت الأمير أو الحاكم أو السلطان نقص قدره في قلوب الشعب والرعية، وإذا نقص قدره في قلوب الناس أصبحت أوامره لا شيء، ولا يهتمون بها، ولا ينظرون إليها، وحينئذ تصبح البلاد فوضى، وكل إنسان أمير نفسه، ولا يصلح أبداً أن يكون الناس فوضى كل إنسان أمير نفسه.

ولذلك أمر النبي ﷺ المسافرين إذا كانوا ثلاثة أن يؤمروا أحدهم^(١)، وهم ثلاثة، وفي سفر مؤقت لا دائم، لكن إذا كانت الأمة بلا أمير صارت فوضى.
ولهذا قال الشاعر^(٢):

لا يصلحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَاْلَهُمْ سَادُوا
فَغِيْبَةُ الْأَمْرَاءِ وَذَوِي السُّلْطَانِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ وَأَقْبَحُ مِنْ غِيْبَةِ عَامَةِ النَّاسِ؛ لَمَّا
يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَوْضَى.

فإذا قال قائل: إذا قيل لي عن عالم ما يقدح فيه، فهل أسكت أم ماذا؟
قلنا: لا تسكت، لكن استعمل مراتب:

أولاً: تَحَقُّقُ مِنَ النُّقْلِ؛ لَأَنَّهُ -والله يا إخواني- أحياناً يُنْقَلُ إلينا عن شخصٍ من الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ أَفْتَى بِكَذَا أَوْ قَالَ كَذَا، فَإِذَا سَأَلْنَاهُ قَالَ: أَبَدًا مَا جَرَى مِنِّي هَذَا، فَبَعْضُ النَّاسِ يَكْذِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا كَانَ يَرَى شَيْئًا فَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْ قَالَ: أَنَا أَرَى كَذَا أَنَّهُ لَا يَقْبَلُهُ النَّاسُ، لَكِنْ يَجْعَلُهَا فِي ظَهْرِ الْعَالَمِ، يَقُولُ: قَالَ الْعَالَمُ الْفُلَانِيُّ كَذَا وَكَذَا؛ لِأَجْلِ أَنْ النَّاسَ يَقْبَلُونَهُ، فَيَكْذِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقْبَلَ مَا يَرِيدُ.
وربما يكون ليس عنده قصدٌ سيئ، ولا يريد الإساءة إلى العالم ولا تشويه سمعته، لكن يفهم الجواب خطأً، وهذا واردٌ. وربما لا يفهم الجواب خطأً لكن يُورِدُ السؤالَ على وجه يفهمه المفتي على خلاف ما في نفس المُسْتَفْتِي، وهذا أيضًا واقعٌ، فيوردُ عليك السؤالَ مُجْمَلًا مثلاً، وتجيئه وهو يرى أنك أجبتَه عما في ضميره، فيذهب

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، رقم (٢٦٠٨).

(٢) البيت للأفوه الأودي. انظر الشعر والشعراء (٢/٢١٧).

يقول للناس: قال فلانٌ كذا وكذا.

المهمُّ المرتبةُ الأولى فيما إذا سمعتَ عن عالمٍ ما لا ترضاه هي التحقق، وإذا تحققتَ ففكّرْ هل ما قاله العالمُ له وجهٌ؛ لأنّه أحياناً يأتي الإنسانَ شيءٌ بغتةً فيُنكِره في قلبه، وعند التأمل يرى أنّه غيرُ منكرٍ، وأنه صحيحٌ، ففكّرْ أولاً قبل أن تُخاطبَ العالمَ؛ هل له وجهةُ نظرٍ، فإن كان له وجهةُ نظرٍ فالواجبُ عليك أن تذبَّ عن العالمِ، وأن تؤيّد قوله، وأن تُدافعَ عنه؛ لأنّه قال صواباً، لكنه غير معروف عند العامة. والذي لا يُعرف عند العامة يروونه خطأً مُنكرًا.

إذن المرتبة الثانية: التأمل فيما صحَّ نقله عن العالمِ؛ هل له وجهة نظر أو لا، فإن كان له وجهة نظرٍ فالواجبُ الدفاعُ عنه، وأن يُبيّنَ للناس أن هذا هو الصوابُ، وإن لم يكن له وجهة نظرٍ، أو لم تعرف وجهة نظره، فالواجبُ أن تتصلَّ بالعالمِ وتبحثَ معه.

ولكن كيف تبحث؟ بعضُ الناس المغرورين الذين ليس لهم من العلم إلا القليل، لكنّه يرى نفسه أكبرَ من الأئمة، يأتي للعالم الذي يرى أنّه أخطأ ويقول: يا فلان، بلغني عنك أنك قلتَ كذا وكذا، وهذا خطأ، وهذا مُصادِمٌ للنصِّ، ولا عبرة بما صادم النصِّ، وأنت أخطأت.

فهذا لا يليقُ بالعالم أبداً، فالعالمُ له حرمة، والعالمُ بشرٌ ربما تأخذه العزة بالإثم، ويصِرُّ على قوله، وهو باطلٌ، لكن تأتي إليه بتأدّب، تقول: بلغني عنك كذا وكذا، وثبت عندي هذا، فأريدُ - جزاك الله خيراً - أن تُبيّنَ لي وجهَ ذلك.

حدثني أحدُ العلماء الكبارِ رَحِمَهُ اللهُ، قال: يأتي العاميُّ ما يعرف الحياءَ من الحياءِ،

فُفْتِيهِ الْإِنْسَانُ ثُمَّ يَقُولُ: مَا دَلِيلُكَ. قَالَ لِي هَذَا الْعَالَمُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَيَأْتِي الْعَامِّيَّ يَسْتَفْتِي وَلَا يَعْرِفُ كُوعَهُ مِنْ كُرْسُوعِهِ، فَإِذَا أَفْتِيَتَهُ قَالَ: مَا الدَّلِيلُ.

وَالْكُوعُ مَا يَلِي الْإِبْهَامَ، وَالْكُرْسُوعُ مَا يَلِي الْخِنْصَرَ. وَعَلَيْهِ أَنْشَدَ الْقَائِلُ^(١):

وَعَظْمٌ يَلِي الْإِبْهَامَ كُوعٌ وَمَا يَلِي
لِخِنْصَرِهِ الْكُرْسُوعُ وَالرُّسْعُ مَا وَسَطُ

عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَا أَقْصِدُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَخَاطِبُ الْعُلَمَاءَ الْأَجَلَاءِ مُخَاطَبَةَ النَّدِّ لِلنَّدِّ، بَلْ أَرَدْتُ، وَهَذَا غَلْطٌ، فَالْعَالَمُ الْكَبِيرُ لَهُ وَزْنُهُ، وَلَهُ احْتِرَامُهُ.

إِذْنِ الْآنَ ذَكَرْنَا عِدَّةَ مَرَاهِلَ:

الْأُولَى: التَّحَقُّقُ وَالتَّثَبُّتُ مِنْ صِحَّةِ النِّقْلِ.

وَالثَّانِيَّةُ: التَّأَمُّلُ؛ هَلْ لَهُ وَجْهَةٌ نَظَرٍ أَوْ لَا.

وَالثَّالِثَةُ: مُخَاطَبَةُ الْعَالَمِ إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ وَجْهَةٌ نَظَرٍ، لَكِنْ بِأَدَبٍ وَاحْتِرَامٍ

وَاسْتِرْشَادٍ، لَا بِانْتِقَادٍ.

فَإِذَا كُنَّا نَسْتَعْمَلُ هَذَا فِي مُعَامَلَتِنَا لِأَهْلِ الْعِلْمِ حَصَلَ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وَكَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ لِلْأَمْرَاءِ، فَقَدْ يَنْفُذُ الْأَمِيرُ شَيْئًا فَيَأْمُرُ بِحَبْسِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ، أَوْ ضَرْبِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ، وَالنَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ لَهُ خَطَأً، فَيَقُولُونَ: هَذَا الْأَمِيرُ ظَالِمٌ، وَهَذَا الْأَمِيرُ فِيهِ كَذَا وَكَذَا، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَاءَ تَأْتِيهِمُ الْأَخْبَارُ مِنْ عِدَّةِ قَنَوَاتٍ، وَلَيْسَ قَنَاءَةً وَاحِدَةً، فَنَحْنُ مِثْلًا فِيمَا بَيْنَنَا تَأْتِينَا الْأَخْبَارُ مِنْ قَنَاءَةٍ وَاحِدَةٍ، لَكِنَّ الْأَمْرَاءَ لَهُمْ قَنَوَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ تُوصِلُ لَهُمُ الْأَخْبَارَ، فَقَدْ يَكُونُ هُنَاكَ أَشْيَاءُ أَوْ جِبَتْ أَنْ يُعَاقَبَ هَذَا

(١) انظر غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٢٣٦).

الَّذِي نَرَى أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ، لَكِنْ عِنْدَ وُلاَةِ الْأُمُورِ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُوجِبَةِ لِلْعُقُوبَةِ مَا لَا نَعْلَمُهُ، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ وَلِيَّ الْأَمْرِ ظَلَمَ بِشَيْءٍ فَأَوَّلًا لَا بُدَّ أَنْ نَتَحَقَّقَ هَذَا، فَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ يَقُولُونَ: فَلَانٌ حُبْسٌ، فَلَانٌ ضَرْبٌ، وَإِذَا تَبَيَّنَّا لَمْ نَجِدْ لِهَذَا أَصْلًا، فَإِذَا تَحَقَّقْنَا ذَلِكَ فَإِنَّا نَنْظُرُ السَّبَبَ، فَإِذَا كَانَ السَّبَبُ مُسَوِّغًا لِتِلْكَ الْعُقُوبَةِ فَعَلِينَا أَنْ نَدَافِعَ عَنِ وُلاَةِ الْأُمُورِ، وَنَقُولَ: هَذَا الرَّجُلُ يَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ؛ لِأَنَّ جُرْمَهُ يَزِنُ هَذِهِ الْعُقُوبَةَ، وَإِذَا كَانَتِ الْعُقُوبَةُ مُوَازِنَةً لِلْجُرْمِ فَلَيْسَ فِيهَا ظُلْمٌ، بَلِ الْعَدْلُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْعُقُوبَةَ أَكْثَرُ مِنَ الْجُرْمِ، فَحِينَئِذٍ نَتَدَخَّلُ فِي الشَّفَاعَةِ، وَمَنْ شَفَعَ شَفَاعَةً حَسَنَةً فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا.

وَالْحُدُودُ عَدْلٌ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نَشْفَعَ فِي إِسْقَاطِ الْعَدْلِ؛ وَلِهَذَا نَذَكُرُ لَكُمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ لِنَخْتَمَ بِهَا هَذَا الْكَلَامَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ - وَبَنُو مَخْزُومٍ مِنْ أَعَزِّ قَبَائِلِ الْعَرَبِ - تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ، فَتَأْتِي مِثْلًا لِصَاحِبِ الْبَيْتِ وَتَقُولُ: يَا فَلَانُ، أُرِيدُ الْقَدَرَ فَعِنْدِي ضُيُوفٌ لَا طَبْخَ فِيهِ لِلضُّيُوفِ، فَيُعْطُونَهَا الْقَدَرَ، فَإِذَا جَاؤُوا يَطْلُبُونَ الْقَدَرَ مِنْهَا أَنْكَرَتْ، قَالَتْ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُقَطَعَ يَدُهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ سَارِقَةٌ، لَكِنْ بِحِيلَةٍ، فَبَدَلَ أَنْ تَدْخَلَ الدَّارَ وَتَأْخُذَ الْقَدَرَ فَإِنَّمَا تَطْلُبُ إِعَارَتَهُ، فَأَحْسَنَ أَهْلُ الْقَدْرِ إِلَيْهَا وَهِيَ أَسَاءَتْ إِلَيْهِمْ.

فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ تُقَطَعَ يَدُهَا لِأَنَّهَا سَارِقَةٌ، لَكِنْ بِحِيلَةٍ، فَأَهَمَّ قُرَيْشًا أَمْرُهَا وَاهْتَمُّوا لِذَلِكَ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُقَطَعَ يَدُ امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، انْظُرُوا أَحَدًا يَشْفَعُ، فَاخْتَارُوا أَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ، شَابٌّ يُحِبُّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَيُحِبُّ أَبَاهُ، وَلَعَلَّهُ يَرِقُّ لَهُ لِكَوْنِهِ شَابًّا، وَالشَّبَابُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَرِقَّ لَهُمْ تَأْلِيفًا لَهُمْ، ثَانِيًا أَنَّهُ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

يحبّه وأباه حبًّا كبيرًا، فشفع أسامةً في شأنِ المَخْزُومِيَّةِ أَلَّا تُقَطَّعَ يَدُهَا، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟». وأغضبه ذلك، وقام وخطبَ النَّاسَ وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ» فيفرِّقون في حدودِ الله بين الغنيِّ والفقير، ثمَّ قال: «وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»^(١).

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ، اسمعوا العدل: أقسم وهو الصَّادِقُ البَارُّ بلا قَسَمٍ، قال: «وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» وهي أَشْرَفُ مِنَ الْمَخْزُومِيَّةِ بلا شَكٍّ «سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ» أنا «يَدَهَا»، ولم يقل: لأمرتُ مَنْ يَقَطَّعُ يَدَهَا، بل قال: «لَقَطَعْتُ يَدَهَا». وهذا يَحْتَمِلُ أَنْ الْمَعْنَى: لأمرتُ مَنْ يَقَطَّعُ يَدَهَا، ويَحْتَمِلُ أَنْ الْمَعْنَى لَبَّاشَرْتُ قَطَّعَ يَدَهَا، وَأَيًّا كَانَ فَالْحُدُودُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْفَعَ فِيهَا.

فلو أن رجلاً زنى، وثبتَ ذلك عند القاضي، وحكمَ بِرَجْمِهِ، فلا يجوزُ أن نشفعَ فيه.

ولو أن رجلاً قتلَ شخصًا عمدًا، وتمَّت شروطُ القصاصِ، وحكمَ القاضي بقتل القاتلِ، فإنه يجوزُ أن نشفعَ؛ لأن هذا ليس بحدٍّ، فالقصاصُ ليس بحدٍّ، ولذلك لو شاء أولياءُ المقتولِ لَعَفَوْا عنه؛ إما إلى دِيَّةٍ أو أكثر أو مَجَّانًا، لكن الحدَّ لله عَزَّوَجَلَّ، وعلى هذا فالشفاعةُ في رجلٍ ثبت عليه القتلُ قِصاصًا جائزةٌ.

والشفاعةُ في رجلٍ وجبَ عليه القتلُ رَجْمًا لَأَنَّهُ زَانٍ مُحْصَنٌ لا تجوزُ؛ لأنها حدٌّ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم (٦٧٨٨)، ومسلم: كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود، رقم (١٦٨٨).

أقول كل هذا تفریعاً على أن الأمراء قد يتصرفون تصرفاً ظنُّه ظلمًا، ولكن عندما نتبَّع الأمور نجد أنه عدلٌ؛ لأنَّه قد يصل إلى وُلاةِ الأمور من قنواتٍ أخرى ما لا نَعلمه نحن، لا سيَّما إذا عُلِمَ من وُلاةِ الأمور أنَّهم ذوو عدلٍ، وأنهم يحكِّمون بالشریعة، أما وُلاةُ الأمور الذين لا يحكِّمون بالشریعة فهؤلاء قد يحكمون بالظلم، ويحكمون بغير حقٍّ.

والحمد لله ربَّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.



الدرس العاشر:

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأشهد أن محمدًا
عبده ورسوله، سيد المرسلين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم
بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾
يعني متى تكون؛ لأن الساعة أمرها مهم كما قال عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا
رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، والذي عظمه هو العظيم عز وجل،
وتعظيم العظيم للشيء يدل على أنه عظيم، عظيم، عظيم.

واسمع ما يكون فيها: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ
وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ
عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. فالمرضعة في حجرها الرضيع تذهل عنه، ولا أحد من
الخلق أشفق من المرضعة على رضيعها في حجرها، إنما تريد أن تهب له الدنيا كلها من
شفقتها عليه، ولذلك تذهل في ذلك اليوم عما أرضعت؛ من شدة الهول.

وقد أورد بعض النحاة إشكالاً على هذه الآية في قوله: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾،
والمعروف أن الوصف إذا كان خاصاً بالإناث فإنه لا يحتاج إلى تاء التانيث؛ لأن تاء

التأنيث يُؤتى بها للفرق بين الذكور والإناث، وإذا كان الوصف خاصاً بالأنثى اكتُفي به عن تاء التأنيث، فتقول: امرأة مُرضِعٌ، ولا تقول: امرأة مُرضِعةٌ، وتقول: امرأة حَامِلٌ لما في بطنها، ولا تقول: امرأة حاملةٌ، فلماذا قال هنا: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾؟

نقول: لأنَّ المقصودَ هنا الفعلُ، لا الوصف، يعني الَّتِي تُرْضِعُ بالفعل، ومعلومٌ أن الَّتِي تُرْضِعُ بالفعل أشدُّ شوقاً وشفقةً على ابنها ممَّن ليس ابنها في حجرها تُرْضِعُهُ.

قال: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، ومعلومٌ أن المرأة الحَامِلَ إذا خافت من شيءٍ أفزعها كثيراً فإنها تُسْقِطُ الحملَ ﴿وَتَرَى النَّاسَ﴾ عُمومًا ﴿سُكَرَى﴾ مندهشين من شدة الهول ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ لم يشربوا خمرًا ولم يشربوا حشيشًا ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فمن شدته صاروا كالسكارى.

اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ أَنْجِنَا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

ولهذا يتساءل الناس عن الساعة، يقولون للرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: متى الساعة؟ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ مُجيباً لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وهذه الجملة فيها حصرٌ طريقه (إنما) يعني: ما عِلْمُهَا إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ، ولا يمكن لأحد أن يَعْلَمَهَا، إن أفضل رَسولٍ بشريٍّ لم يَعْلَمَهَا، وأفضل رَسولٍ ملكيٍّ لم يَعْلَمَهَا؛ وقد جاء ذلك في حديثِ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جاء جبريل إلى النبي ﷺ بصورة رجلٍ شديدٍ سوادٍ الشعرِ شديدٍ بياضِ الثيابِ، وجبريلُ مَلَكٌ رآه النبيُّ صلى الله عليه

وعلى آله وسلم على خلقته، له ستُّ مئة جناحٍ قد سدَّ الأفقُ^(١)، أي ملاً الأفق كله، وهنا يأتي بصورة إنسانٍ شديدٍ بياضِ الثيابِ، شديدٍ سوادِ الشعرِ، لا يرى عليه أثرُ السفرِ، وإذا لم يرَ عليه أثرُ السفرِ فمعناه أنه مدنيٌّ من أهلِ المدينة، لكنه يقول: ولا يعرفهُ مِنَّا أحدٌ.

فجلسَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم جلسةَ المتأدّب، فوضع كفيه على فخذه، وأسندَ رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ وقال: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. وما قال: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ سَمِعَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْأَعْرَابِ؛ لَأَنَّ الْأَعْرَابَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ ذَاكَ الْأَدَبُ الرَّفِيعُ، فَيَخَاطَبُونَ الرَّسُولَ: يا مُحَمَّدُ، وَيَصْرُخُ الْبَدَوِيُّ مِنْ أَقْصَى الْمَكَانِ: يا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ كَذَا.

قال: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فقال: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحْجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. والقائل إلى الآن ما عرفنا أنه جبريل.

قال عمرُ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ. معناه أنه عنده علمٌ، فكيف يسأل!

قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فهذه ستة. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، ركنٌ واحدٌ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هذا فيه كمالُ الشوقِ، «إِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم (١٧٤).

يَرَاكَ» فيه كمالُ المراقبةِ والخوفِ، والدرجةُ الثانيةُ دون الأولى. فالإحسانُ إذن مرتبتان.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». يعني أنا لا أدري عنها، وأنت لا تدري، والمسئولُ هو مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، والسَّائِلُ هو الرَّجُلُ، فلم يعلمْ لا هذا ولا هذا، وهما أشرفُ الرسلِ، جبريلُ أشرفُ الرسلِ من الملائكةِ، ومُحَمَّدٌ أشرفُ الرسلِ من البشرِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

«أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا» فتلدُ الأمةُ مَنْ تكونُ سيدةً عليها، «وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ» حفاةٌ: ليس عندهم نعالٌ، عُرَاةٌ: ليس عندهم ثيابٌ، عالَةٌ: ليس عندهم مالٌ، فُقَرَاءٌ، «رِعَاءَ الشَّاءِ» يعني في الباديةِ، لا يعرفون شيئاً، «يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» إذن صاروا حاضرةً؛ لأن البنيانَ في الحاضرةِ، فتجدهم يسكنون المدنَ، ويتطاولون في البنيانِ، فهذا من العلاماتِ.

ثم انطلق الرَّجُلُ، فَلَبِثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟». قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١).

إذن ديننا في ضمنِ هذا الحديثِ، فإذا أردتَ يا أخي أن تعرفَ دينَكَ فاعرفَ هذا الحديثَ؛ فإن الدينَ كله في هذا الحديثِ.

ولهذا أرجو من إخواننا في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، ولا سيَّما القائمونَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

على الثقافة والتعليم، أن يركزوا على هذا الحديث، وأن يجعلوه في مُقرَّرات الصَّبيان حتَّى يَحْفَظُوهُ وَيَعُوَّهُ وَيَعْرِفُوهُ؛ لَأَنَّهُ مَهْمٌ «أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».

ونعودُ إلى أصلِ البحثِ أن علمَ السَّاعَةِ لا يعلمُهُ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والذي يقيمُ السَّاعَةَ هو الَّذِي يعلمُهُ، والسَّاعَةُ لا تأتي إلا بغتَةً بعد أن تُوجَدَ أَشْرَاطُهَا، فإذا تَمَّتِ الأَشْرَاطُ جَاءَتْ بغتَةً، حتَّى إن الرَّجُلَ يُحَسِّنُ حَوْضَ إِبِلِهِ لِيَسْقِيَهَا فتقومُ السَّاعَةُ قبل أن يَسْقِيَهَا، وحتَّى إن الرَّجُلَ رَافِعٌ لِقَمَّتِهِ لِيَأْكُلَهَا فتقومُ السَّاعَةُ قبل أن يُوَصِّلَهَا إلى فَمِهِ، وحتَّى إن الرَّجُلَيْنِ يَتْبَايَعَانِ الثَّوبَ يَنْشُرَانِهِ بَيْنَهُمَا فتقومُ السَّاعَةُ قبل أن يَتَمَّ العَقْدُ^(١).

إذن تأتي بغتَةً، ولكن بعد أن تتمَّ أَشْرَاطُهَا. وَمَنْ ادَّعى علمَ السَّاعَةِ كما يدَّعي الْمُخَبِّلُونَ فيما يُكْتَبُ في بعضِ الأَحْيَانِ في الصَّحَفِ أن عمرَ الدُّنْيَا كَذَا وكَذَا أَلْفَ سَنَةٍ، والباقي كَذَا وكَذَا أَلْفَ سَنَةٍ، فهذا مُخَبِّلٌ مجنونٌ ليس عنده علمٌ من الشريعة، ولا عنده من العقلِ شيءٌ، فلا أحدَ يعلمُ ما يكونُ في المستقبلِ، ولو سألتَ هذا الرَّجُلَ: ماذا سيكونُ غداؤك غداً ما يستطيعُ أن يَجِزَمَ بأنه يكونُ خُبْزاً ولحماً، فقد يكونُ خُبْزاً ولحماً، وقد يعزِمُهُ صاحِبُهُ ويجعلُ له رُزاً وكبسةً، إذن كيف يدَّعي هذا المجنونُ المخَبِّلُ أن السَّاعَةَ تكونُ في كَذَا وكَذَا. وَمَنْ صَدَّقَهُ في ذلك فقد كَذَّبَ القرآنَ؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

(١) أخرج البخاري: كتاب الفتن، باب خروج النَّار، رقم (٧١٢١)، ومسلم: كتاب الفتن وأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، رقم (٢٩٥٤) أن النبي ﷺ قال: «...وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا، فَلَا يَتْبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِفَحْتِهِ فَلَا يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا».

وهذا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، أَعْلَمُ الخَلْقِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، يقول جبريلُ أَعْلَمُ المَلَائِكَةِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا يُوحَى إِلَيْهِ، يقول: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

أرجو يا إخواني ألا يَغُرَّنْكُمْ أولئك الَّذِينَ يَكْتُبُونَ فِي الصُّحُفِ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ يَتَخَبَّطُونَ خَبْطَ عَشَوَاءَ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُلْ: خَبَطَ عَمِيَاءَ، أَوْ يَكْتُبُونَ عَنِ الطَّالِعِ، وَحُسْنِ الطَّالِعِ؛ بُرْجُ الحَمَلِ فِيهِ كَذَا وَكَذَا، وَبُرْجُ الثَّوْرِ فِيهِ كَذَا وَكَذَا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ ثِيرَانُ! لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الطَّوَالِعَ وَالنُّجُومَ لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ فَهُوَ مِنَ الْمُتَنَجِّمِينَ، الَّذِينَ لَا يَجُوزُ إِطْلَاقًا أَنْ تُصَدِّقَهُمْ فِيهَا قَالُوا، بَلْ نَكْذِبُهُمْ وَنَقُولُ: كَذَبْتُمْ، وَصَدَّقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] فَمَا أَحَدٌ يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

لِذَلِكَ - يَا إِخْوَانِي - لَا تَغْتَرُّوا بِهِؤُلَاءِ وَلَا بِكَلَامِهِمْ، وَمَا أَصَابَ مَا أَصَابَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ مِنَ التَّخِيلَاتِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَزْمَاتِ النَّفْسِيَّةِ إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا التَّصَدِيقِ، وَمَا أَكْثَرَ الْأَزْمَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْآنَ؛ لِأَنَّهُ أَصْبَحَ النَّاسُ قُلُوبُهُمْ فَارِغَةً مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، كُلَّمَا أَصَابَهُمْ شَيْءٌ قَالُوا: هَذَا مَسٌّ مِنَ الْجَنِّ، وَلَوْ يُزَكِّمُ الْإِنْسَانُ زُكَاةً عَادِيًّا قَالَ: هَذَا مَسٌّ مِنَ الْجَنِّ، أَوْ هَذَا عَيْنٌ مِنْ حَاسِدٍ، أَوْ هَذَا سِحْرٌ، لَكِنْ لَوْ أَنَّ النَّاسَ تَرَكَوا هَذِهِ الْأُمُورَ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ، لَكَفَاهُمْ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٣].

فتوكل على الله يا أخي ولا تطع هؤلاء المشعوذين، وهؤلاء الأفاكين، وهؤلاء الجماعين، الذين يريدون أن يبتزوا أموال البشر بما لم ينزل الله به سلطاناً، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

واقراً آيات السحر؛ لما ذكر الله تعالى السحر، وأن هؤلاء السحرة يتعلمون ما يفرقون بين المرء وزوجه قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فتوكل على الله يا أخي، واصدق مع الله عز وجل في التوكل عليه، واترك هؤلاء المشعوذين، واترك هؤلاء الأفاكين، واترك الطالغ؛ هؤلاء يلعبون بعقول الناس، فدعوا هؤلاء يا أيها المسلمون، ووالله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. ولم يصب الإنسان مثل هذه الأمور المكذوبة المفتراة إلا بسبب ضعفه النفسي، وضعفه في توكله على الله عز وجل.

ونرجع إلى الآية: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي ما تعلمك أيها الإنسان بأن الساعة قريب، وصدق ربنا عز وجل فالساعة قريبة، ويدل لقربها أن النبي ﷺ خاتم الأنبياء، إذن ليس هناك طول، فالمسألة قريبة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وقال بالسبابة والوسطى^(١)، يعني الفرق بين الوسطى والسبابة يسير، فبعثة النبي ﷺ من أشراط الساعة وتعلم بقربها.

ومع ذلك -يا إخواني- فإن مدى عمر الإنسان الواحد -وليس الجنس- لا يمتد إلى الساعة الكبرى، فعمر الإنسان أقرب من الساعة، يعني ساعة كل واحد

(١) أخرج البخاري: كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم (٥٣٠١)، ومسلم: كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب قرب الساعة، رقم (٢٩٥٠).

أقرب من الساعة العظمى الكبرى، وهذا مُتَأَكِّدٌ؛ لَأَنَّهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَصْعَقَ النَّاسُ وَيَمُوتُوا.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَفْلا يَجْدُرُ بِنَا - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - أَنْ نَسْتَعِدَّ لِهَذِهِ السَّاعَةِ؛ سَاعَةِ الْإِنْسَانِ، الَّذِي لَا يَدْرِي مَتَى تَأْتِيهِ، فَقَدْ يُخْرَجُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ وَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَنَا مُسْتَعِدِينَ لِهَذِهِ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ تَرْزُقَنَا الْإِنَابَةَ إِلَيْكَ دَائِمًا.

ولهذا ينبغي للإنسان أن يُكثِرَ من ذكرِ الله، حَتَّى إِذَا أَتَاهُ الْيَقِينُ فَإِذَا هُوَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَأَنْ يُكثِرَ مِنَ التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ»^(١).

ولهذا فُكِّرَ يَا أَخِي فِي نَفْسِكَ: هَلْ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا؟ فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنَامَ وَأَنْتَ لَمْ تُحِطْ عِلْمًا بِمَا اسْتَغْفَرْتَ وَتَبْتَ إِلَى اللَّهِ فَاجْلِسْ عَشْرَ دَقَائِقَ أَوْ أَقَلَّ، وَقُلْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِئَةَ مَرَّةٍ، حَتَّى تَمُوتَ وَقَدْ فَعَلْتَ مَا فَعَلَهُ إِمَامُ الْمُتَّقِينَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فلنستعدَّ للساعة الصغرى؛ ساعة كُلِّ إِنْسَانٍ، وَهُوَ لَا يَدْرِي مَتَى يَمُوتُ، بَلْ لَا يَدْرِي بِأَيِّ أَرْضٍ يَمُوتُ، وَلَيْسَ الشَّأْنُ أَنْ تَعْرِفَ مَتَى تَمُوتُ، وَلَا أَنْ تَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ كُلَّ الشَّأْنَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَمُوتُ؛ أَعْلَى الْإِيمَانِ أَمْ عَلَى الْكُفْرِ. أَمَّا أَنْ تَمُوتَ فِي أَرْضِكَ أَوْ فِي أَرْضٍ أُخْرَى، أَوْ فِي شَهْرِكَ أَوْ فِي شَهْرٍ آخَرَ؛ فَهَذَا لَا يُهِمُّ كَثِيرًا، الْمَهْمُ عَلَى أَيِّ حَالٍ تَمُوتُ، أَعْلَى الْإِيمَانِ أَوْ الْكُفْرِ؟ أَعْلَى التَّوْحِيدِ أَوْ الشِّرْكِ؟

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢).

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَتَوَفَّانِي وَإِيَّاكُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى التَّوْحِيدِ، وَأَنْ يَتَوَفَّانَا وَهُوَ رَاضٍ عَنَّا، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ.

فَفَكِّرْ يَا أَخِي فِي قَلْبِكَ، وَانْظُرْ فِي الْقَلْبِ أُنْجِبْتَ إِلَى اللَّهِ أَمْ لَا؟ أَصَالِحٌ أَمْ فَاسِدٌ؟ فَإِذَا صَلَحَ الْقَلْبُ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]، لَعَنَهُمْ: أَي طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

وَأَوَّلُ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَعَنُوا هُوَ إِبْلِيسُ، لَعَنَهُ اللَّهُ، وَطَرَدَهُ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ. وَالْكَافِرُونَ مَلْعُونُونَ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾، وَهَلِ الْكَافِرُ هُوَ الْمَشْرِكُ الْمُلْحِدُ أَوِ الْيَهُودِيُّ أَوِ النَّصْرَانِيُّ؟

نَقُولُ: كُلُّهُمْ مَلْعُونُونَ، فَالْيَهُودُ مَلْعُونُونَ، وَالنَّصَارَى مَلْعُونُونَ، وَالْمَشْرِكُونَ مَلْعُونُونَ، وَالشُّيُوعِيُّونَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِرَبِّ مَلْعُونُونَ، وَجَمِيعُ الْكَافِرِ مَلْعُونُونَ، ﴿لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أَيَّ كَافِرٍ، عَلَى أَنْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَرَدَتْ فِيهِمُ اللَّعْنَةُ بِخُصُوصِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»^(١). إِذَنْ كُلُّ كَافِرٍ مَلْعُونٌ.

وَمَعْنَى اللَّعْنِ: الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ الصَّلَاةِ فِي الْبَيْعَةِ، رَقْمُ (٤٣٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّوَرِ فِيهَا وَالنَّهْيِ عَنْ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، رَقْمُ (٥٣١).

قوله: ﴿وَأَعِدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أَعِدَّ: هَيَّأ، وهَيَّأ لَهُمْ سَعِيرًا أي: نَارًا ذات سَعِير، وهذا يدلُّ على أن النَّارَ موجودةٌ الآن؛ فأَعِدَّ الشيءَ أي: هَيَّأه.

وهكذا جاءتِ السُّنَّةُ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ -والكسوفُ هو انحجابُ ضوءِ الشَّمْسِ أو القمرِ- في عهد النبي ﷺ، فلَمَّا ارتفعتْ قِيدَ رُمَحٍ -يعني مقدارَ رُمَحٍ- كَسَفَتِ كُسُوفًا كُليًّا، حتَّى صارت كأنها قطعة نحاس، فاضطربَ النَّاسُ، وخرجَ النبي ﷺ فِرْعَاءً حتَّى لحقَ بردائه، وأمرَ مناديًا ينادي: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فاجتمعَ النَّاسُ من رجالٍ ونساءٍ، وامتأَّ المسجدُ، وصلى بهم النبي ﷺ صلاةً طويلةً غريبةً؛ أما كونها طويلةً فلأنه قرأَ فيها سُورَةً طويلةً جدًّا بقدرِ سُورَةِ البقرة، حتَّى إن بعضَ الصَّحَابَةِ خَرَّ مغشيًّا عليه من طُولِ الوقوفِ، فركع وأطالَ الرُّكُوعَ، ثمَّ رفع وقرأَ الفاتحةَ وسورةً طويلةً، لكن دُونَ الأولى، ثمَّ ركعَ رُكُوعًا طويلًا لكن دُونَ الأولِ، ثمَّ رفع، وقام بقدرِ ركُوعِهِ قِيَامًا طويلًا، لكن ليسَ كقيامِ القراءة، ثمَّ سجدَ سجدتينِ طويلتينِ بقدرِ الرُّكُوعِ، وبينهما جلوسٌ بقدرِ السجدة. فصلَّى ركعةً واحدةً بركوعينِ وسجودينِ.

وقام إلى الركعة الثانيةِ وفعلَ كالأولى، إلا أنَّها أخَفُ في كلِّ ما يفعلُ، وسلَّم، وخطبَ خطبةً عظيمةً، أود أن تَقْرَأُوها في (زاد المعاد)^(١) لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ.

وفي صلاتِهِ هذه تأخَّرَ عن مكانِهِ حتَّى كَادَ يبلغُ الصَّفَّ، وتقدَّمَ أيضًا، وأخبرَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ تأخَّرَ لَأَنَّهُ عُرِضَتْ عَلَيْهِ النَّارُ وشاهدها،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (١/ ٤٥٠ وما بعدها).

وخاف من لفحها فتأخر^(١).

ورأى فيها رجلين؛ أما الأول فهو عمرو بن لُحَيّ الخزاعيُّ رأسُ الكفر والعيادُ بالله، وهذا أولُ مَنْ أدخلَ الشركَ في العربِ، وسَيَّبَ السَّوَائِبَ، رآه يجرُّ أمعاءه في النَّارِ. نسأل الله العافية، والثاني صاحبُ المِخْجَنِ، والمِخْجَنُ عصا طويلةٌ مَحْنِيَّةُ الرأسِ، وكان يقف للحجَّاج؛ فإذا مرَّ الحاجُّ شبك العصا في متاعه، فإن فطن له الحاجُّ قال: والله المِخْجَنُ أمسك المتاع وسقط، أما أنا فلم أعمل شيئاً، وإن لم يشعر به الحاجُّ ذهب به، إذن هو يسرق الحاجَّ بمِخْجَنه، فراه يُعَذَّب في ذلك.

وأما تقدُّمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فأخبر أنه تقدم لأنه عُرِضَتْ عليه الجنةُ فتقدَّم ليأخذَ منها عنقوداً من العنبِ ولكنه لم يأخذ، وفي الحديث: «إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عَنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُه لَأَكَلْتُ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا»^(٢) الله أكبر، يعني لكان باقياً إما هو بذاته أو ما ينمو منه، الله أعلم. على كل حال هو لم يأخذه، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَأُرِيتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرْ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْطَعُ». وصدق الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الشَّاهد من هذا أنه رأى الجنة ورأى النَّارَ، إذن الجنة والنَّارُ الآن موجودتان.

وقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥] يعني لا يجدون أحداً يتولَّاهم ويَرافُّهم ويرحمهم، ولا نصيراً يدفع عنهم العذاب، انتبه:

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنَّار، رقم (٩٠٤).

(٢) أخرجه البخاري: أبواب الكسوف، باب صلاة الكسوف جماعة، رقم (١٠٥٢)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنَّار، رقم (٩٠٧).

قال الربُّ عَزَّوَجَلَّ، وهو أعلمُ: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: إلى الأبد، ولا نهاية.

وقد غلط مَنْ قال من النَّاسِ: إن عذابَ النَّارِ مُوقَّتٌ، وتفنَّى النَّارُ وَمَنْ فِيهَا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ! كيف يَجْرُؤُ إِنْسَانٌ على هذا القولِ وربُّ الْعَالَمِينَ يقول: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، ولكن كما قال شيخنا عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقِ علقه على كتاب ابنِ الْقَيْمِ (شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل) قال: «لكلِّ جَوَادٍ كَبُوءَةٌ، ولكلِّ صَارِمٍ نُبُوءَةٌ»^(١).

والجملةُ الأخيرةُ «لكلِّ صَارِمٍ نبوة» أنا في شكٍّ منها.

فهل يمكن أن نقول: عذابُ النَّارِ مُوقَّتٌ، والربُّ العليمُ عَزَّوَجَلَّ الخالقُ يقول: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾؟! فكيف نواجهُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يومَ الْقِيَامَةِ ونعتقدُ أنَّها غيرُ مُؤَبَّدَةٍ وأنها مُوقَّتَةٌ! لا يمكنُ أن نواجهَ اللهَ فنقول: إن عذابه مُوقَّتٌ والله يقول: أَبَدًا.

وقد ذكر اللهُ تَأْيِيدَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ في غير هذه الآية؛ في آيتين أُخَرَيْنِ من كتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أُولَاهُمَا في سُورَةِ الْجَنِّ: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

والثَّانِيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

فإذا كان الله صرَّح في كتابه العزيز الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿[فصلت: ٤٢] في ثلاثِ آياتٍ من كتابه عَزَّوَجَلَّ؛ أن أَهْلَ

(١) الصَّارِمُ: السيف، ونبا السيف عن الهدف أي تجافى وبعد عنه. ويستعار هذا التركيب لمن يخطئ وليس من شأنه أن يخطئ ولا من عادته.

النَّارِ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، فهل يَحِقُّ لنا أن نقول: إن عذابَ النَّارِ مؤقتٌ؟!

لا والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لا يَحِقُّ لنا هذا. وهؤلاءِ جزاؤهم الخلودُ المؤبَّدُ؛ لأنهم أَفَنُوا حياتهم كلها بالتَّكْذِيبِ والاستِكْبَارِ، بعد أن جاءتهم الرُّسُلُ، وقامت عليهم الحُجَّةُ، فخيرُوا الدُّنْيَا، فأضَلَّهم اللهُ عن الآخِرَةِ، وخسِرُوا الآخِرَةَ، ولا إشكال. يعني الأثر والنظر كِلَاهُمَا يدلُّ على أن الكَافِرِينَ مُسْتَحِقُّونَ للعذابِ المؤبَّدِ، أَجَارَنِي اللهُ وإياكم من النَّارِ. اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ.



الدَّرْسُ الْحَادِي عَشَرَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩] كَانَ الْمَنَافِقُونَ فِي الْمَدِينَةِ إِذَا مَرَّتْ بِهِمُ الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ سَخِرُوا مِنْهَا إِذَا كَانَتْ لَمْ تَسْتُرْ وَجْهَهَا بِالْجَلَابِيبِ، وَقَالُوا: هَذِهِ أُمَةٌ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ حَكْمَ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تُدْنِيَ عَلَيْهَا مِنْ جَلَابِيبِهَا، وَالْجَلَابِيبُ عِبَارَةٌ عَنْ لِفَافَةٍ تَشْمَلُ الْمَرْأَةَ كُلَّهَا، فَإِذَا خَرَجَتِ الْمَرْأَةُ الْحُرَّةُ وَعَلَيْهَا جَلَابِيبُ احْتَرَمُوهَا، وَعَرَفُوا أَنَّهَا حُرَّةٌ، وَلَمْ يُؤْذَوْهَا، وَلَمْ يُلَاحِظُوهَا، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَتْ غَيْرَ مُسْتَتْرَةٍ بِجَلَابِيبٍ.

وَلِهَذَا لَمَّا حَتَّ النَّبِيُّ ﷺ النِّسَاءَ عَلَى حُضُورِ صَلَاةِ الْعِيدِ، قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْمَرْأَةُ لَيْسَ لَهَا جِلْبَابٌ؟ قَالَ: «لِتُلْبِسْهَا أُخْتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا»^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْتَرَّ جَمِيعَ بَدْنِهَا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَهَا بِذَلِكَ.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ مَا ابْتُلِيَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النِّسَاءِ الْيَوْمَ مِنْ مَحَبَّةِ التَّبَرُّجِ وَالِدَعْوَةِ إِلَيْهِ مُخَالَفٌ لِمَا تَقْتَضِيهِ الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي نَفْسِهَا أَوَّلًا، وَفِي بَنَاتِهَا ثَانِيًا، وَأَنْ تَحْتَّ عَلَى التَّسْتَرِّ وَعَدَمِ التَّبَرُّجِ بِالزَّيْنَةِ، لَا مِنْ جِهَةِ الطَّيِّبِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ لَوْنِ الثِّيَابِ، وَلَا مِنْ جِهَةِ التَّجْمِلِ بِالْكَحْلِ وَغَيْرِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَحْصَنُ لَهَا فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ، بَابُ ذِكْرِ إِبَاحَةِ خُرُوجِ النِّسَاءِ فِي الْعِيدَيْنِ، رَقْمُ (١٤٨١).

وَمَا هَذِهِ الْحَمْلَةُ الَّتِي يَشْنُهَا الْيَوْمَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي تَبْرِجِ الْمَرْأَةِ وَاتِّسَاعِهَا إِلَّا مُخَالَفَةٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمَرْأَةِ أَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَلَّا تَخْرُجَ بِجَمَالٍ يَفْتِنُهَا وَيَفْتِنُ غَيْرَهَا، فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ تَكُونَ الْمَرْأَةُ حَيَّةً؛ لِأَنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ^(١)، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ وَلِهَذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَضْرَبَ الْمَثَلِ فِي الْحَيَاءِ، فَتَرَاهُمْ يَقُولُونَ: هَذَا الرَّجُلُ أَشَدُّ حَيَاءً مِنَ الْمَرْأَةِ فِي خِذْرِهَا.

كَذَلِكَ أَيْضًا يَتَطَلَّعُ بَعْضُ النِّسَاءِ الْآنَ إِلَى قِيَادَةِ السَّيَّارَةِ فِي الْبَرِّ وَفِي الْبَلَدِ، وَهَذَا غَلْطٌ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَتَرْتَبُ عَلَى تَمْكِينِهَا مِنْ ذَلِكَ مَفَاسِدُ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ كَتَبَ فِي هَذَا بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَبَيْنَ مَفَاسِدِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَجَابَ الْمَرْأَةُ إِلَى قِيَادَةِ السَّيَّارَةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ الرِّزْقَ عَلَى الْعِبَادِ فِي هَذَا الْوَقْتِ، كُلُّ امْرَأَةٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْتِيَ بِمَنْ يَقُودُ لَهَا سَيَّارَتَهَا، إِمَّا مِنْ أَقَارِبِهَا وَمَحَارِمِهَا، وَإِمَّا مِنْ الْأَجَانِبِ بِشَرْطِ أَلَّا يَخْلَوْا بِهَا؛ لِأَنَّ الْخُلُوءَ بِالْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيَّةِ مُحَرَّمَةٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ الْحَمُومَ؟ قَالَ: «الْحَمُومُ الْمَوْتُ»^(٢)، وَالْحَمُومُ هُوَ قَرِيبُ الزَّوْجِ، وَإِنَّمَا قَالَ ﷺ: «هُوَ الْمَوْتُ»؛ لِأَنَّ الْحَمُومَ إِذَا دَخَلَ عَلَى بَيْتِ حَمِيمِهِ لَمْ يُسْتَنْكَرْ وَلَمْ يُعْتَبَرْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَقَارِبِ، فَصَارَ هُوَ الْمَوْتُ، أَيُّ: صَارَ أَشَدَّ مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي يَمِيتُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم، رقم (٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها، رقم (٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، رقم (٤٨٥٧)، ومسلم: كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها، رقم (٤٠٤٤).

كذلك أيضًا في اللباسِ بعضُ النساءِ الآنَ تُحاولُ أن يكونَ لباسُها فوقَ رُكبتها، فتكونُ كنساءِ الكفارِ الذينَ نزعَ منهمُ الحياءُ، ولم يُبالوا بعدمِ السَّترِ والحجابِ، وهذا من المنكراتِ الظَّاهرة.

واللباسُ المشروعُ للمرأةِ من رأسها إلى إِبْهامها، هذا هو المشروعُ، وهذا هو الذي يكونُ فيه السَّترُ، والسَّلامةُ من الإثمِ، والبعدُ عن الفاحشةِ، فعلى النساءِ أن يتقينَ اللهَ، وألا يستمعنَ إلى ما يدعو إليه بعضُ الناسِ اليومَ من تساهلِ المرأةِ في لباسها، وتوسعها فيه، وفي مُعاملاتها، وما أشبه ذلك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ سَدَّ هَذَا الْبَابَ، أَي: بَابَ تَبَرُّجِ النِّسَاءِ، وَتَوَسُّعِهِمْ فِي اللَّبَاسِ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى إِنَابَةٍ وَتَوْبَةٍ، وَإِذَا تَابَتِ الْمَرْأَةُ إِلَى اللَّهِ وَغَفَرَ اللَّهُ لَهَا زَالَ عَنْهَا الْإِثْمُ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا أَي شَيْءٌ مِمَّا فَعَلْتَهُ مِنَ الْمَحْظُورَاتِ.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ تَسَبَّبَ لِشَخْصٍ بِذَنْبٍ؛ فَإِنَّ لِهَذَا الْمَتَسَبِّبِ فِي الْإِثْمِ نَصيبًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أَخَذُوا وَقَتِلُوا قَتِيلًا﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ يَعْنِي عَنْ إِيدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَنَافِقُ أَشَدُّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ فَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني وَيَنْتَهِي الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ، مَنْ لَيْسَ مُنَافِقًا، وَقَدْ تَوَعَّدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِينَ الصَّنَفِينَ: الْمُنَافِقِينَ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أَي: لَنَشْدَنَّكَ عَلَيْهِمْ حَتَّى تُخْرِجَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٦٠ ﴿يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا﴾، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ التَّحْذِيرُ مِنْ إِيْدَاءِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَلَّا يَنْخَدَعَ الْإِنْسَانُ فِي أَقْوَالِهِمْ، وَحُسْنُهُمُ الْمُتَغِيرِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ مِنْ حُسْنِ نَظَرِهَا وَهَيْئَتِهَا، حَتَّى يَقُولَ قَائِلٌ: هَذَا مِنْ أَفْضَلِ عِبَادِ اللَّهِ، ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ مِنْ حَسَنِ بَيَانِهِمْ، وَطَلَاقَةِ أَلْسِنِهِمْ، فَيَغْتَرُّ فِيهِمُ الْمُغْتَرُّ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي يَظُنُّونَ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، فَتَجِدُهُمْ فِي ذَعْرِ وَخَوْفٍ دَائِمًا ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ فَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنِّي يُؤَفِّكُونَ ﴿اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ النِّفَاقِ وَالشَّقَاقِ، وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ يَقِينًا لَا شَكَّ مَعَهُ، وَإِيمَانًا لَا كُفْرَ مَعَهُ، وَإِخْلَاصًا لَا إِشْرَاقَ مَعَهُ، وَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ.



الدَّرس الثَّاني عشر:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْمُؤْمِنُونَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، بَعَثَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَانْطِمَاسٍ مِنَ السُّبُلِ، فَبَصَّرَ اللَّهُ بِهِ أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَفَتَّحَ بِهِ آذَانًا صُمًّا، وَقَلُوبًا غُلْفًا، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينُ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ - هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ كُلُّهُمْ.

وَمَعْنَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ: أَنَّ اللَّهَ يُشْنِي عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى؛ كَمَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ الرَّيَّاحِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: «صَلَاةُ اللَّهِ: ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ»^(١). وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا مِنْ رَفْعِ الذِّكْرِ الَّذِي خَصَّ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ۖ وَالَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١ - ٤].

وَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ هَذِهِ الْمَنْقِبَةِ الْعَظِيمَةِ لِرَسُولِهِ ﷺ وَجَّهَ النِّدَاءَ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيْقًا: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ ﴿[الأحزاب: ٥٤ - ٥٥].

واعلم يا أخي المؤمن أن الله تعالى إذا قال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإن الأمر كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: «إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَصْغِ لَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تَوَمَّرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ تُصَرِّفُ عَنْهُ»^(١).

ويُصدِّر الله عَزَّوَجَلَّ ما يُصدِّره من الأحكام أو الأخبار بهذا النداء: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ إشارة إلى الاعتناء به والاهتمام به؛ لأنَّ توجيه الخطاب إلى المخاطب بالنداء يعني أن المتكلم يريد من المخاطب أن ينتبه.

ولهذا تجد الفرق بين أن أقول لك: مُحَمَّدٌ قائمٌ، وبين أن أقول لك: يا فلان، مُحَمَّدٌ قائمٌ، فإن هذه الجملة الأخيرة أشدُّ من الأولى؛ لأنَّ ندائي إياك يعني أنني أطلب منك الانتباه.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: آمنوا بما يجب الإيمان به، وقد بين رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- الإيمان حين سأله عنه جبريل؛ قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(٢). فهذه ستة أصول، فمن لم يؤمن بهذه الأصول الستة فإنه لا إيمان له.

يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ صلوا عليه يعني قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا يعني قولوا: اللَّهُمَّ سَلِّمْ عَلَى

(١) أخرجه أحمد في الزهد (١/ ١٣٠، رقم ٨٦٦)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ٢١١، رقم ٥٠).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام والقدر وعلامة الساعة، رقم (٨).

مُحَمَّدٍ، أَوْ قُولُوا كَمَا عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»^(١).

وَالْإِنْسَانُ إِذَا سَلَّمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ فَإِنَّ تَسْلِيمَهُ يَبْلُغُ النَّبِيَّ ﷺ فِي أَيِّ مَكَانٍ، سَوَاءَ سَلَّمْتَ عَلَيْهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، أَوْ فِي مَسْجِدِهِ، أَوْ فِي مَكَّةَ، أَوْ فِي أَيِّ بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَإِنَّ تَسْلِيمَكَ يَبْلُغُ النَّبِيَّ ﷺ، وَهَنَاكَ مَلَائِكَةُ سَيَّاحُونَ فِي الْأَرْضِ إِذَا سَمِعُوا مَنْ يُسَلِّمُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ نَقَلُوهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وَهَذَا الْأَمْرُ لِلْجُوبِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَصَلِّيَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فَرَضٌ عَلَيْنَا فِي كُلِّ صَلَاةٍ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»^(٢).

وَالسَّلَامُ إِنَّمَا يُدْعَى بِهِ مَنْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَاقِصًا، وَاللَّهُ عَزَّوَجَلَّ سَالِمٌ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَسْمَائِهِ السَّلَامُ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٢ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴿[الحشر: ٢٢-٢٣].

«وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، رقم (٨٣٥)، ومسلم: كتاب الصلوة، باب التشهد في الصلوة، رقم (٤٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب صفة الصلوة، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب، رقم (٨٣٥).

وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمْ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

إذن نقول: السَّلَامُ عليك أيها النبي. والمعنى: ندعو بالسَّلَامِ عَلَى الرَّسُولِ بأن يَسْلَمَ من كُلِّ آفَةٍ، ومن كُلِّ نَقْصٍ، ومن كُلِّ أذى في الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ. والنَّاسُ في الآخِرَةِ يحتاجون إِلَى السَّلَامِ والسَّلَامَةِ؛ كما جاء في الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حين تَكَلَّمَ عن عبورِ الصَّرَاطِ: قال: «وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١).

كذلك من السَّلَامِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ سَلَامَةٌ شَرِيعَتِهِ من أن يُنْقِصَهَا أَحَدٌ أو يَزِيدُ فِيهَا أَحَدًا، فإنك إذا قلت: السَّلَامُ عليك أيها النبي لا تعني السَّلَامَ عَلَى شَخْصِهِ فَحَسَبَ، بل حَتَّى عَلَى سُنَّتِهِ؛ فإن سَنَةَ الرَّسُولِ ﷺ لها أعداءٌ كثيرون؛ أعداءٌ يَصْرِّحُونَ بِالْعَدَاوَةِ وإنكارِ السُّنَّةِ، وأعداءٌ لا يَصْرِّحُونَ بذلك، لكن مُقْتَضَى أَعْمَالِهِمْ وَمُسْتَلْزَمَاتِ أَعْمَالِهِمْ تَعْنِي أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ هَذِهِ السُّنَّةَ.

قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ قال بعض العلماء: إِنَّهُ تَجِبُ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي مَوَاضِعَ:

منها: إذا ذُكِرَ اسْمُهُ، فإذا ذُكِرَ اسْمُ الرَّسُولِ عِنْدَكَ فَصَلِّ عَلَيْهِ؛ لأنَّ جَبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ امْرِئٍ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ» قال ﷺ: «فَقُلْتُ: آمِينَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلَاة، باب فضل السجود، رقم (٨٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص: ٣٣٨، رقم ٦٤٦).

فإذا ذكر الرسول ﷺ عندك فصل عليه، فإن لم تفعل فإن جبريل قد دعا عليك بأن يرغم أنفك وأمن على هذا رسول الله ﷺ.

والثاني من المواضع التي تجب فيها الصلاة على النبي ﷺ: التشهد الأخير، فإن الصلاة على النبي ﷺ في التشهد الأخير ركن عند بعض العلماء؛ ركن من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا به، وواجب من واجبات الصلاة عند آخرين، لا تصح الصلاة إلا به ما لم يسه الإنسان عنه، وسنة من السنن عند آخرين؛ ففي المسألة ثلاثة أقوال:

والفرق بين الركن والواجب في الصلاة أن الركن لا تصح الصلاة إلا به، حتى لو سهوت عنه وجب عليك أن تأتي به، وتسجد للسهو، والواجب إذا تركته سهواً لم يجب عليك الإتيان به، ووجب عليك سجود السهو، هذا هو الفرق بينهما. ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ هل أحد يستطيع أن يؤذي الله ورسوله؟ الجواب: نعم؛ لأن الله أثبت ذلك فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

وكيف هي أذية الله؟ استمع إليها من كلام الله؛ قال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»^(١). فقال الله تعالى في الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر».

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُلْكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

أما أذية الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد أُوذِيَ ﷺ من المشركين، ومن المنافقين أذى عظيمًا، فسُبَّ، ووصف بأنه ساحرٌ، وشاعرٌ، وكاهنٌ، ومجنونٌ، وأُوذِيَ حتَّى في الأمور التي لا يُؤذَى بها أحدٌ دونه؛ كما كانت قُرَيْشٌ يَضَعُونَ القاذوراتِ عند عتبةِ بابِهِ، وكما وَضَعُوا عليه سَلَى^(١) الجزور^(٢) وهو ساجدٌ تحت الكعبة. فهم بلا شكَّ يُؤذُونَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وأذية الله ذكرتُ لها مثالًا، وهو سبُّ الدهرِ، يقول الإنسانُ مثلاً: ما أقبحَ هذا الدهرُ، ويسبُّه ويلعنه فيقول: لعنةُ الله على هذا الدهرِ، وما أشبهَ ذلكَ، وما يدري المسكينُ أنه بسبِّه هذا قد سبَّ الله؛ لأنَّ مدبرَ الدهرِ هو الله، فالدهرُ زمنٌ من الأزمانِ مخلوقٌ لله، يفعل الله فيه ما يشاء، فإذا سببتَ الدهرَ فقد سببتَ ربَّكَ. ولهذا قال الله تَعَالَى: «يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ».

ومعنى قوله: «أَنَا الدَّهْرُ» ما ذكره بقوله: «بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، وإلا فإن الله لَيْسَ هو الدهرُ؛ لأنَّ الدهرَ هو الزمنُ والوقتُ، ولكن الله ربُّ الدهرِ الَّذِي يتصرَّف فيه كما يشاء ويدبِّره كما يشاء، ولهذا قال: «بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

فإن قال قائلٌ: كيف تجمعُ بين إثباتِ الأذيةِ وبين قوله تَعَالَى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ

(١) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه، وقيل: هو في الماشية السلى، وفي الناس: المشيمة. النهاية (سلا).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على ظهر المصلي قدر أو جيفة، لم تفسد عليه صلاته، رقم (٢٤٠)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (١٧٩٤).

لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي»^(١) فنفى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يبلغَ أحدٌ ضرره، وقال الله عزَّوجلَّ: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فنفى الله الضررَ عن نفسه، وأثبت الأذية، فهل بين هذا وهذا تناقض؟

فالجواب: لا؛ لأنه لا يلزم من الأذية الضرر، فقد تحصل الأذية ولا يحصل الضرر، أريت لو أن شخصًا صلى إلى جنبك وقد أكل ثومًا أو بصلاً، فإنك تتأذى برائحته، ولكن لا تتضرر.

ولهذا قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فيمن أكل بصلاً أو ثومًا: «فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»^(٢)؛ لأنَّ الَّذِي أَتَى إِلَى الْمَسْجِدِ وقد أكل بصلاً أو ثومًا ولم تذهب رائحته فإنه يؤذي الملائكة؛ لأنَّ الملائكة في مساجد الله، ولهذا نهى النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْمَسْجِدَ وفيه رائحة البصل والثوم والكراث وما أشبهها؛ لئلا تتأذى منه الملائكة.

يقول الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ قال العلماء: اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، فإذا قلت: لعن الله فلانًا فقد دعوت الله أن يطرده عن رحمته، وهذا من أعظم ما يكون على المدعو عليه، ولهذا جاء في الحديث «لَعَنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ»^(٣) يعني أن اللعن يؤذي

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا أو نحوها، رقم (٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (٦١٠٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١١٠).

إِلَى هَلَاكِ الْمَلْعُونِ، وَإِلَى فُسَادِ أَمْرِهِ؛ كَمَا أَنَّ الْقَتْلَ يُوْدِّي إِلَى هَلَاكِهِ وَفُسَادِ أَمْرِهِ.

إِذْنُ لَعْنِهِمُ اللَّهُ يَعْنِي طَرْدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِهَذَا مَنْ آذَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ أَلَّا يَهْتَدِيَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَمَنْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِ أَلَّا يَهْتَدِيَ، وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ قَدْ يَهْتَدِي، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ كَمَا هَدَى اللَّهُ تَعَالَى أَقْوَامًا كَثِيرِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالْقُلُوبُ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

مَا حُكْمُ لَعْنِ الْمُؤْمِنِ؟

لَعْنُ الْمُؤْمِنِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ اللَّعْنَةَ إِذَا وُجِّهَتْ لِشَخْصٍ فَإِنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا فَهُوَ أَهْلٌ لَهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لَهَا عَادَتْ إِلَى قَائِلِهَا^(١)، فَاحْذَرُ أَنْ تَلْعَنَ شَخْصًا لَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْعِنِ.

وَلَعْنُ الْمَعِينِ حَرَامٌ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لَكَ أَنْ تَلْعَنَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَرْحَمُهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

وَلَمَّا لَعَنَ النَّبِيُّ ﷺ أَبَا جَهْلٍ وَغَيْرَهُ مِنْ أُمَّةِ الْكُفْرِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَعِينُ قَدْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، فَلَا بَأْسَ بِلَعْنِهِ، كَمَا لَوْ عَلِمْتَ أَنَّ شَخْصًا مِنَ النَّاسِ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَإِنَّ لَعْنَهُ جَائِزٌ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ لَيْسَ مِنَ الْأَفْضَلِ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ فِي اللَّعْنِ، رَقْمُ (٤٩٠٥)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا».

أَنْ تَلْعَنَهُ؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيْسَ بِاللَّعَّانِ وَلَا بِالطَّعَّانِ^(١)، وَقَدْ كَفَاكَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَإِنْ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ٦٤ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجْدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

أَذِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ تَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَتَكُونُ بِالْفِعْلِ.

فَأَذِيَّةُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ مِثْلُ: السَّبِّ، وَالشَّتْمِ، وَاللَّعْنِ، وَالرَّمْيِ بِالْكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهَذَا مِنَ الْأَذِيَّةِ الْقَوْلِيَّةِ.

وَالْأَذِيَّةُ الْفِعْلِيَّةُ مِثْلُ: الضَّرْبِ بِالْيَدِ، أَوْ بِالرَّجْلِ، أَوْ بغيرِ ذَلِكَ مِمَّا تُؤْذِيهِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا: أَخْذُ مَالِهِ، وَكُتْمُ حَقِّهِ، وَغَيْرِ هَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذِيَّةِ، فَمَنْ آذَى الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.

وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمَتَّعِظِينَ بِكَلَامِهِ.



(١) أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ: أَبْوَابَ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ، بَابَ مَا جَاءَ فِي اللَّعْنَةِ، رَقْمَ (١٩٧٧)، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ».

الدرس الثالث عشر:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المؤمنين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
الرَّسُولَ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ يعني الكافرين، ويقلَّبُ وجوههم خزنه
النَّارِ، وليس الأمرُ باختيارهم إن شاؤوا صدُّوا وإن شاؤوا أقبلوا.

قوله: ﴿يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ولكن فات الأوان، يقولون:
﴿يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿بَلْ
بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ (٦٧) رَبَّنَا
ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

المشركون لهم رءوساء يأمرُونهم بالمنكر، وينهونهم عن المعروف، وهؤلاء
الكافرون في النار يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾، والكبراء: الأمراء
ومشايخ الضلال، والسادةُ الأشرافُ، فكل قوم لهم شريفٌ، ولهم سيّدٌ، والكبراءُ
علماء الضلالِ وأمراء الضلالِ، ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾.

فكان الجزاء أن قال المتبعون: ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنِّمْ
لَعْنَا كَبِيرًا﴾ هذا يقوله التابعون يوم القيامة للمتبعين، لكن الآن ما ينفعهم، فلو قالوا

لِكُبرائِهِمْ وَسَادَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا هَذَا الْقَوْلُ، وَتَرْكُوهُمْ وَتَجَنَّبُوهُمْ، وَاتَّبِعُوا الْهَدَى دُونَ
الْهَوَى؛ لَسَعِدُوا، لَكِنْ فَاتِ الْأَوَانُ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُحَسِّنَ لِي وَلَكُمْ الْخَاتِمَةَ، وَأَنْ يَجْعَلَ الْعَاقِبَةَ لِلْمُسْلِمِينَ عُمُومًا
حَمِيدَةً، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى
آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ الرَّابِعُ عَشَرَ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَيُّ: أَقْرَبُ بِلِسَانِي وَأَوْمَنُ بِقَلْبِي أَنَّهُ لَا إِلَهَ -أَيُّ لَا مَعْبُودَ حَق- إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْعَالَمِينَ كَافَّةً بَشِيرًا وَنَذِيرًا، فَبَشَّرَ وَأَنْذَرَ، وَبَلَّغَ وَبَصَّرَ، وَتَرَكَ أُمَّتَهُ عَلَى بَيضَاءِ نَقِيَّةٍ، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَصَلَّوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَتَّبِعُونَ بِإِحْسَانٍ.

قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَبْرًا مُؤَكَّدًا، وَطَرِيقُ التَّوَكُّيدِ فِيهِ كَلِمَةُ (إِنْ)؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (إِنْ) تَفِيدُ التَّوَكُّيدَ، وَأَتَى بِـ(إِنَّا) بِضَمِيرِ الْجَمْعِ الدَّالِّ عَلَى الْعِظَمَةِ لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ، وَسُلْطَانُهُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَرْضًا حَقِيقِيًّا، وَإِنْ كَانَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ جَمَادًا لَيْسَ لَهَا عَقُولٌ، لَكِنَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْخَالِقِ لَهَا عَقُولٌ وَإِدْرَاكٌ، فَتَدْرِكُ وَتَعْقِلُ وَتَفْهَمُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نُصَيِّحُ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَيِّحُ بِحَمْدِهِ

وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ ﴿[الإسراء: ٤٤].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿[فصلت: ١١].

فخاطبهما الله عَزَّوَجَلَّ بخطابٍ واضحٍ بَيِّنٍ: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا، فقالتا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ لله عَزَّوَجَلَّ متذللين له.

وقال النبي صلى الله عليه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟» فخاطبَ اللهُ تعالى الجَمَادَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ، ورد الجوابُ بقوله: ماذا أَكْتُبُ؟ يعني أنه مستعدٌّ للكتابةِ لكنه لا يَدْرِي ماذا يَكْتُبُ، قَالَ اللهُ تعالى «اَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»^(١). فَجَرَى في تلك السَّاعَةِ بها هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ.

والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا؛ أن الله تعالى يخاطبُ مَنْ لَيْسَ لَهُ عقلٌ وإدراكٌ، لكنه بالنسبةِ لخطابِ الله عَزَّوَجَلَّ يكونُ عاقلًا مُدرِّكًا، ممثلاً مطيعًا.

الأمانةُ في حقِّ الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴿، وَالسَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مخلوقاتٌ عظيمةٌ، عرضَ اللهُ عليها الأمانةَ لتَحْمِلَهَا، ولكنها أَبَتْ لأنها لا تستطيعُ، ولهذا قال اللهُ: ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴿؛ لعدمِ استطاعتهنَّ لحملِ الأمانةِ، ولكن حملها الإنسانُ الضعيفُ: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿ أي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في القدر، رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ن، رقم (٣٣١٩).

ظلومًا لنفسه، جهولًا بحقّ ربّه، فالإنسانُ في الأصلِ ظلومٌ، والإنسانُ في الأصلِ جهولٌ، لكن اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفِّقُ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ حتى يكونَ عدلاً في حكمه، عليماً بفعله، وإلا فإن الأصلَ في الإنسانِ أنه ظلومٌ جهولٌ.

فما هذه الأمانة؟ الأمانةُ تتعلقُ بحقّ الله، وتتعلّقُ بحقّ المخلوق:

من الأمانة في حقّ الله أن تعبدَ اللهَ تعالى بشرعه:

أما تعلّقُها بحقّ الله عَزَّوَجَلَّ فالأمانةُ في حقّ الله أن تعبدَ اللهَ تعالى بشرعه، مخلصاً له الدين؛ فمن ابتدَعَ في الدينِ فإنه لم يَقمْ بالأمانة، ومن ابتدَعَ في دينِ الله ما ليسَ منه فإنه لم يتحمّلِ الأمانة، ولم يَقمْ بحقّ الأمانة، ولم يَقمْ بمسؤوليّتها؛ لأن الواجبَ على العبدِ ألا يمشيَ إلا على الطّريقِ الذي رُسمَ له، أما أن يعبدَ اللهَ بهواهُ فإنه ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ولو اتبعَ الحقُّ أهواءَهُم لتنازعَ النَّاسُ، ولتفرّقوا في دينِ الله، ولكانَ هذا يختارُ هذا، وهذا يختارُ هذا، ولم يكنْ للناسِ دينٌ قويمٌ.

ولذلك شدّدَ النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم في التحذيرِ من البدعة؛ حتى إنه ليقولُ ذلكَ في خطبِ الجمعة، يقولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا»^(١).

فلا يوجدُ في الأمورِ شيءٌ أشدُّ من البدعِ شراً، هكذا قالَ المعصومُ ﷺ: «شَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا» يقولها إعلاناً على المنبرِ في كلّ جمعة، تحذيراً منها؛ لأن البدعةَ ضلالةٌ كما قالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، حتى وإن استحسنَ المبتدعُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

بدعته، ولو لأن لها قلبه، ولو دمعت لها عينه، فإنها باطلة، لا تزيده من الله إلا بعداً، ألم تروا أن المبتدع حقيقة فعله أنه لم يصدق بقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [البائدة: ٣]؛ لأنه اتخذ ديناً لم يأت به الله ورسوله، وإذا اتخذ ديناً لم يأت به الله ورسوله، فمقتضى ذلك أن الدين لم يكمل إلا ببدعة، وهذا يتضمن أن قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ليس كذلك، وهذا أمرٌ خطيرٌ.

ألم تروا أن البدعة خروجٌ عن سبيل رسول الله ﷺ وعن سبيل الصحابة رضي الله عنهم؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة لم يفعلوها، إذن إذا فعلتها متقرباً بها إلى الله عز وجل فإنك خارجٌ عن سبيل الله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَٰهُ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ولكن الشيطان يزين لأهل البدعة بدعتهم، ويحسّنها في قلوبهم، ويركن إليها، ويطمئنون إليها، كما يزينون الفسوق والفجور لأهل الفسق والفجور ولا فرق، بل إني أقول: إن ضرر الفتنة وشر الفتنة أعظم من شر الفجور والفسوق؛ لأن البدعة يتخذها صاحبها ديناً، ويغتر بها من يغتر بها من الناس، وتبقى سنة متبوعة إلى ما شاء الله عز وجل.

لذلك يا أخي المسلم احذر البدعة؛ فإن البدعة تُخل بمسؤولية الأمانة.

من الأمانة في حق الله: الإخلاص؛

كذلك أيضاً من الأمانة في حق الله عز وجل الإخلاص له، فلا تعبد الله عز وجل من أجل أن يراك الناس، فيمدحوك، فالمخلص لا يهتم الناس مدحوه أو ذمّوه،

وإنما يعتني بما يُرضي الله عَزَّوَجَلَّ سواءَ مَدَحَهُ النَّاسُ أو لم يمدحوه، وسواءَ ذَمَّهُ النَّاسُ أو لم يذمُّوه، فهو لا يريدُ إلا شيئاً واحداً، وهو رضا الله عَزَّوَجَلَّ، والوصولُ إلى كرامته تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فالمخلصُ لا يهْمُهُ النَّاسُ، فيصلِّي حيثُ يراه النَّاسُ ويصلِّي حيثُ لا يراه النَّاسُ، ويقتنُ في صلاته ويخشعُ ويطمئنُّ، سواءَ رآه النَّاسُ أو لم يَرَوْهُ. والمخلصُ يتصدقُ ويتقربُ إلى الله تعالى ببذلِ ماله المحبوبِ إليه، سواءَ رآه النَّاسُ أو لم يره النَّاسُ. والمخلصُ يصومُ سواءَ علِمَ النَّاسُ بصيامه أو لم يعلموا.. إلى آخر ما يكونُ من العباداتِ؛ لأن المخلصَ لا يريدُ بعمله إلا وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ ورضوانه.

واستمعْ إلى وصفِ الرَّسولِ ﷺ وأصحابه؛ يقولُ الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لماذا؟ ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩]، لا يريدون سِوَى ذلك.

وهذا الإخلاصُ صعبٌ على النفوسِ، أعانني الله وإياكم على تحقيقه، قال بعضُ السَّلفِ: «ما جاهدتُ نفسي على شيءٍ مجاهدتها على الإخلاصِ».

فيستطيعُ الإنسانُ أن يقومَ ويصليَ ولا يتحركَ إلا بحركاتِ الصَّلَاةِ، ويستطيعُ أن يتصدقَ ويبذلَ المالَ، ولكن الإخلاصُ محلُّ القلبِ، والإخلاصُ صعبٌ، ولذلك كانَ الحسابُ يومَ القيامةِ على ما في القلبِ: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ [الطَّارِق: ٨-٩].

فالحسابُ يومَ القيامةِ على ما في القلبِ، والحكمُ في الدُّنيا على ما في الجوارحِ، ولهذا عاملُ النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم المنافقينَ معاملةً المسلمينَ، مع

أَتَمُّ مُنَافِقُونَ، وَيَعْلَمُ بِنِفَاقِهِمْ، لَكِنْ ظَاهِرُهُمُ الْإِسْلَامُ، فَتَرَكَهُمْ عَلَى الظَّاهِرِ، أَمَّا يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَالْعَمَلُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطَّارِق: ٨-٩]، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝١ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العَادِيَات: ٩-١١]. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَ سِرِّي وَسِرِّيَتَكُمْ.

فَالْمَدَارُ عَلَى الْإِخْلَاصِ صَعْبٌ، لَكِنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. إِذَنْ مِنَ الْأَمَانَةِ فِي حَقِّ اللَّهِ الْإِخْلَاصُ، فَلَا تَبْتَغِي فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ شَيْئًا مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا، فَعَمَلُ الْآخِرَةِ لِلْآخِرَةِ، وَعَمَلُ الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا.

الْأَمَانَةُ فِي حَقِّ الْخَلْقِ:

أَمَّا الْأَمَانَةُ فِي حَقِّ الْخَلْقِ فَمَا أَكْثَرُهَا؛ فَمِنْهَا مِثْلًا الْأَمَانَةُ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَالْأَمَانَةُ فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَادِقًا، وَأَنْ يَكُونَ مُبِينًا صَادِقًا فِيمَا يَنْجُرُ بِهِ عَنْ صِفَاتِ الْمُبِيعِ، مُبِينًا مَا فِي الْمُبِيعِ مِنْ صِفَاتِ الْعَيْبِ حَتَّى يَكُونَ الْمُشْتَرِي عَلَى بَصِيرَةٍ مِنَ الْأَمْرِ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»^(١).

فَعَلَيْكَ بِالصَّدَقِ، وَعَلَيْكَ بِالْبَيَانِ، فَإِذَا قَالَ لَكَ قَائِلٌ: هَذِهِ السَّلْعَةُ بِكُمْ سِيَمَتٌ؟ وَقَدْ سِيَمَتُ بِمِئَةٍ، فَلَا تَقُلْ: سِيَمَتُ بِمِئَةٍ وَعِشْرَةٍ، بَلْ قُلْ: سِيَمَتُ بِمِئَةٍ، فَاصْذُقْ، وَالرِّزْقُ الْحَلَالُ وَإِنْ قَلَّ خَيْرٌ مِنَ الْحَرَامِ وَإِنْ كَثُرَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، رَقْمُ (٢١١٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ الصَّدَقِ فِي الْبَيْعِ وَالْبَيَانِ، رَقْمُ (١٥٣٢).

وإن قال لك رجل وأنت تعرض السلعة: هل فيها عيب؟ وأنت تعلم أن فيها عيباً، ولكنك قلت له: هذا المنظور ولا تسألني، فهذا حرام عليك؛ لأنك لم تبين، فيجب عليك البيان.

ولهذا يُخطئ كثير من باعة السيارات في المعارض تحت الميكروفون كما يقولون، فتجده تعرض السيارة ويعرف أن فيها العيب الفلاني ثم يسوم عليها، فإذا قال الزبون: هل فيها عيب؟ قال: أبداً، أنا ما أبيع لك إلا الكفرات^(١) الأربعة فقط، أو الكبوت، أو الهیکل، وهو يعلم أن فيها عيوباً، لكنه يكتمها عن المشتري.

فهذا لا شك أنه حرام، وللمشتري الخيار فيما بعد إذا علم أن البائع قد علم بالبيع وكتمه؛ لأنه مغرورٌ مخدوعٌ، لكن لو قال البائع: أنا ما قلت شيئاً، أنا قلت: أنا بعت عليك الكفرات، فيقول: لو أنك بينت العيب لوجدت أن القيمة سوف تهبط بلا شك، فالمشتري إذا لم تبين له العيب سيشتري وهو مخاطرٌ، ويزيد في الثمن، لكن إذا تبين العيب له لا بد أن يعطي هذه السلعة ما تستحقه من قيمة.

ومن الأمانة أيضاً أن الإنسان إذا اشترى شيئاً بعشرة مثلاً وقيل له: بكم اشتريته؟ فقال: بعشرين، لأجل أن يكسب، فهذا حرام، وهذا خلاف الأمانة.

ومن ذلك أيضاً أن البائع يكون له عند البيع ثمان، ثمن للشاطر الذين يماكسونه، وثمان للبطاء، فإذا سأله الغلام أو المرأة: كم قيمة هذه السلعة؟ قال: مئة، وإذا أتاه الرجل الشاطر يقول: كم قيمة هذه السلعة؟ قال: مئة، ثم لا يزال به حتى يبيعها عليه بخمسين أو بستين، وقد باعها على الغلام والمرأة بمئة، فهذا من

(١) أي إطارات السيارة.

الحرام، ولا يحلُّ له أن يستغلَّ غفلة النَّاسِ وجهلَهُم.

نعم لو فرض أن شخصاً قال للمشتري: هذه بمئة، وهو سبيغها بثمانين، لكن قال: بمئة لأن بعض النَّاسِ يماكس حتى تصل إلى ثمانين، فهنا إذا قال: بمئة بناءً على أن أكثر النَّاسِ يماكس، يعني ينزل وينزل، ثم تهباً المشتري لشرائها بمئة، فهنا يجب عليه أن يقول: يا أخي، أنا قلت لك: بمئة لأن بعض النَّاسِ إذا حددت له الثمن نازلني في الثمن حتى يصل إلى ثمانين، وأنا أبيعها عليك بثمانين، فهذا جائز ولا بأس به، أما أن يستغلَّ غفلة النَّاسِ وجهلَهُم بالثمن، ويبيع عليهم ما يساوي ثمانين بمئة، فهذا لا يجوز، فعليك بالأمانة.

الأمانة في الولاية:

ومن الأمانة العظيمة أداء الأمانة بالنسبة للولاية، ومن المعلوم أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «لا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ»^(١)، وأن المرأة مهما بلغت من العقل والذكاء فإنه لا يمكن أن تزوج نفسها، سواء كانت بكرًا أم ثيبًا، فلا بد من أن يتولى عقد النكاح عليها وليٌّ من أوليائها، وبعض النَّاسِ -والعياذُ بالله- يخون الأمانة في هذا الأمر، فيأتيه الرَّجُلُ الكفء في دينه وخُلُقِه، وترضاهُ المرأةُ، ولكنه يحجزها ويقول لهذا الخاطب: إنها قد فاتت، وهو يريدُها لابن صديقه، أو لابن عمه، أو لأحد يزيده مالا؛ لأنه يعلم أن هذا الخاطب صاحب الخلق والدين إذا أعطاه مهرًا سيعطيه مهرًا متواضعًا، لكنه ينتظر شخصًا يعطيه مهرًا عاليًا رفيعًا، فيريد

(١) أخرجه أبو داود: كتاب النكاح، باب في الولي، رقم (٢٠٨٥)، والترمذي: أبواب النكاح، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، رقم (١١٠١)، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (١٨٨١).

شخصاً يعطيه مئة ألف، ويعطيه سيارة كاديلاك، وما أشبه ذلك، فهذا لا يريد أن يزوج ابنته صاحب الخلق والدين لأنه يريد أن يبيعها كأنها سلعة.

فهذا -والله- من الخيانة العظيمة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٧-٢٨].

خيانة الوظيفة:

ومن الخيانة ما يفعله بعض الناس بالنسبة لوظائف الدولة، فتجده موظفاً حُدِّدَ له زمنُ العمل من الساعة الفلانية إلى الساعة الفلانية، ثم يتأخر في المجيء، ويكتب في زمن الحضور أنه أتى في الوقت المحدد، وليكن الوقت المحدد الساعة السابعة والنصف صباحاً، فيأتي الساعة العاشرة والنصف، فيكون بخس^(١) من الوقت ثلاث ساعات، ومع ذلك يقيّد أنه أتى في الساعة السابعة والنصف، فتضمّن هذا كذباً وخيانةً وأكلاً للمال بالباطل؛ لأنه سوف يأخذ راتبه تاماً، مع أنه ناقص، فيكون أخذَ مالا بغير حق، ومع ذلك لا يهتم بهذا الأمر، ولو نقص من راتبه ريال واحد لطالب به، وهو يُنقص من وظيفته الساعات الكثيرة ولا يهتم بذلك، فهذا ليس من الأمانة، بل إنه -والله- مسؤول عن ذلك يوم القيامة، وما اكتسبه من المال بغير الحق فإنها يأكله سحتاً والعياذُ بالله.

كذلك أيضاً من الموظفين من يخون الأمانة في التوظيف، فتجده يتقدم إلى الوظيفة عدد من الناس، فينظر ابن صديقه، أو ابن قريبه، أو ينظر من يعطيه مالا

(١) بخس: نقص.

فيقدمه في الوظيفة، مع أن غيره قد تقدم قبله لكن يحابي هذا ويُراعي قرابته أو صداقته أو غناه، أو ما أشبه ذلك، فهذا -والله- ليس من الأمانة، بل هذا من الخيانة العظمى، وهو في الحقيقة ظلم للدولة، وظلم لنفس المتقدم؛ لأنه تبوأ مكاناً لا يستحقه وحرّم منه من يستحقه، وهذا لا شك من أعظم الخيانة. وقد ورد الوعيد الشديد في من ولاه الله أمراً فولى عليه من ليس أهلاً له^(١).

حفظ الأسرار:

كذلك أيضاً من الأمانة في معاملة الخلق الرجل يُفضي إليك بكلام ويقول: هذا بيني وبينك، يعني سرّاً، فيصبح الرجل يتحدث بهذا الكلام؛ قال لي فلان وقال لي فلان، وبعض الناس يتحدث بمثل هذا فيتزين به عند الناس، كأنه يقول للناس: أنا رجل يأتيني الناس ويستشيرونني ويخبروني، أنا أتصل بالمسؤولين وأقول لهم كذا ويقولون لي كذا، وما أشبه ذلك، لكن المسكين قد خان الأمانة، وليس من الحكمة أبداً أن يتكلم أحد مع المسؤولين في أمر من الأمور ثم يصبح يحدث به الناس، فهذا ليس من الأمانة، وليس من الحكمة، وليس من طريق السلف.

ولهذا لما قيل لأسماء بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ألا تحدث فلاناً من ولاية الأمور بكذا وكذا، فقال: «أترُونَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٦/١)، وفيه: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحَدًا مُحَابَاةً فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا حَتَّى يُدْخِلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى أَحَدًا حِمَى اللَّهِ فَقَدْ انْتَهَكَ فِي حِمَى اللَّهِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، أَوْ قَالَ: تَبَرَّأْتُ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، رقم (٢٩٨٩).

وهذه هي الحكمة، فاجعل الكلام بينك وبين ولاية الأمور سرًا، سواء رضي الناس أم لم يرضوا، فقد يلقي بعض الناس باللائمة على شخص من الناس يقول: إنك ما تكلمت، ولا أنكرت، ولا فعلت، ولا تركت، نقول: سبحان الله! أتريدون كل من كلم المسؤولين في مسألة أن يعلنها للناس، فهذه مفسدة، وليس من المصلحة في شيء، فالمصلحة والحكمة هي الوصول إلى المقصود بأي وسيلة، أما الإعلان والإشهار وما أشبه ذلك فهذا ليس من الحكمة، بل قد تكون النتيجة عكسية.

من يحدث الناس بما كان بينه وبين أهله:

كذلك من الأمانة ما يكون بين الرجل وبين أهله، وقد جعل النبي ﷺ ذلك من شر المنازل يوم القيامة: «إِنَّ مِنْ أَسْرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»^(١).

وهذا قد يفعله بعض السفهاء ويتبجح به، يقول: فعلت في امرأتي كذا وكذا بين أصحابي؛ تبجحًا واستهتارًا، وهذا -والعياذُ بالله- من شر الناس منزلة يوم القيامة، فلا يحل للإنسان أن يتحدث بما يجري بينه وبين أهله مهما كانت الظروف؛ لأنه من الأمور السرية التي لا يجوز لأحد أن يطلع عليها، لذلك لا يجوز للإنسان أن يحدث بما صنعه مع أهله.

الفش في الاختبارات:

ومن الأمانة العظيمة مسألة الاختبارات في وضع الأسئلة، وفي المراقبة، وفي التصحيح، فهذه ثلاثة مواضع: في وضع الأسئلة.

(١) أخرجه مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم (١٤٣٧).

الأمانة في وضع الأسئلة:

فيجبُ على واضعِ الأسئلة أن يختارَ من الأسئلة ما كانَ مُتوسطاً، لا صعباً فيعجز التلاميذُ، ولا سهلاً فينجح به مَنْ لا يستحقُّ النجاحَ. ومنَ الأمانةِ في وضعِ الأسئلة ألا يشيرَ المدرسُ إلى مواضعِ الأسئلة من الكتابِ، فإن بعضَ المدرسينَ -نسألُ اللهَ لنا ولهمُ الهدايةَ- يقولُ: هذا مهمٌّ، هذا غيرُ مهمٍّ، يعني الأسئلة تكونُ منَ هذا المهمِّ، وغيرُ المهمِّ ليس فيه أسئلةٌ، فهذا حرامٌ، ولا يجوزُ؛ لأن هذا إشارةً إلى موضعِ السؤالِ.

الأمانة في المراقبة:

كذلك أيضاً في حينِ المراقبة بعضُ الناسِ يتغافلُ عن بعضِ التلاميذِ؛ إما لقربته منه، أو لصداقته لأبيه، أو لغناه ويرجو من وراءه شيئاً، أو لفقره؛ فقد يرحمُ الطالبَ لفقره، يقولُ: دعوه ينجحُ. واستمعْ إلى قولِ الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: ١٣٥]، فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقيرَ لفقره، والله أولى بهما.

إذن في المراقبة يجبُ على الإنسان أن يكونَ فطنًا قويَّ الملاحظة، وليعلم أن للتلاميذ طرقاً كثيرةً في مسألة الغشِّ، ولا أحبُّ أن أشرحها الآن، أو أشيرَ إليها؛ لأنني أخشى أن يعلمَ بها مَنْ لا يعلمُ ثم يأتي بها.

قيلَ: إن بعضَ المراقبين سألَهُ أحدُ التلاميذِ فقالَ له: يا أستاذُ، ما تقولُ في جوابِ هذا؟ فقالَ المراقبُ: انتبه، ليس هناك غشٌّ. فقالَ التلميذُ: أعوذُ بالله! «مَنْ

سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١). ما شاء الله! التلميذ في هذا الموضع يعرف كيف يستدل، ولا يجب على المراقب في هذه الحال إذا سُئِلَ عن مسألة أن يجيب، بل يقول له: أهلا وسهلا، أنا أجيبك ولكن فقط سلم الورقة، فإذا سلم الورقة فإنه يجيبه، لكن في حال كتابة الجواب لا يجيبه أبداً، ولا يحل له أن يجيبه، وإذا أورد عليه هذا الحديث يقول: مرحباً، أنا أخبرك بهذا بعد تسليم الورقة.

الأمانة في التصحيح:

كذلك أيضاً الموضع الثالث في مسألة الأسئلة: التصحيح، فيجب على المصحح أن يعلم أنه كالقاضي بين يدي الخصمين؛ لأن أوراق الطلبة كحجج الخصوم، فانت بين هذه الأوراق كالقاضي بين أيدي الخصوم، فيجب عليك ألا تراعي أحداً، فمن أجاب بالصواب قيد مُصيباً، ومن أجاب بالخطأ قيد خطأ.

أحياناً يعرف المصحح الطالب وأنه جيد، ويعرف أنه أجاب بالصواب، لكنه فهم السؤال على غير المراد، وأجاب جواباً صواباً مئة بالمئة لكن بناءً على فهمه للسؤال الفهم الخاطئ، فهل يعطيه درجة كاملة، أو يعطيه ما يستحق؟

مثال ذلك: جاء في السؤال: كم أقسام الحديث باعتبار وصوله إلينا؟ وأقسام الحديث باعتبار وصوله إلينا متواتر وآحاد، والآحاد إما مشهور أو عزيز أو غريب، فالطالب كتب أقسام الحديث باعتبار المرتبة، وهو باعتبار المرتبة صحيح وحسن وضعيف، والصحيح صحيح لذاته ولغيره، والحسن حسن لذاته وحسن لغيره،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب، باب من سئل عن عمل فكتمه، رقم (٢٦٦)،

والضعيفُ ما ليسَ بصحيحٍ ولا حسنٍ.

فهل يُعطى هذا الطالبُ الذي أجابَ بالصَّوابِ مئةً بالمئةٍ من جهةٍ مرتبةِ الحديثِ، أو لا يُعطيه شيئاً؟ والسؤالُ: كم أقسامُ الحديثِ باعتبارِ طُرُقِهِ، وهنا أجابَ الطالبُ باعتبارِ المرتبةِ، لكنه أجابَ باعتبارِ المرتبةِ مئةً بالمئةِ، فهل يُعطيه درجةً كاملةً؟

الجوابُ: لا يُعطيه؛ لأن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «إِنَّمَا أَقْضِي لَكُمْ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْكُمْ»^(١). فهذا أيضاً يَقْضِي بنحوٍ مما أَمَامَهُ مما كَتَبَ، فلا يُعطيه شيئاً، وإن كان يعلمُ أن هذا التلميذَ جيدٌ، وأن جوابَهُ صوابٌ لكن أخطأ في فهمِ السؤالِ.

ونقولُ: اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي حَرَّمَهُ، حيثُ فهمَ السؤالَ على غير وجهه، ولعلَّ هذا يكونُ سبباً لكونه يتفهمُ السؤالَ قبلَ أن يجيبَ؛ لأن بعضَ التلاميذِ تأخذه السرعةُ والعجلةُ والدهشةُ فيجيبُ فوراً بدونِ أن يتأملَ.

فعلى كُلِّ حالٍ يجبُ أداءُ الأمانةِ حينَ التصحيحِ، وأن يكونَ المصححُ مدققاً، وأن يُصححَ على حسبِ ما أَمَامَهُ مما كَتَبَ، دونَ ما يعلمُهُ من حالِ التلميذِ.

والأمانةُ أمرٌ واسعٌ، ولعلَّ ما ذكرناه فيه الكفايةُ إن شاء اللهُ تعالى.

والحمدُ لله الذي بنعمتهِ تتمُّ الصَّالحاتُ، وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى

آلهِ وصحبِهِ.



(١) أخرجه النسائي: كتاب آداب القضاة، باب ما يقطع القضاء، رقم (٥٤٢٢)، وابن ماجه: كتاب الأحكام، باب قضية الحاكم لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، رقم (٢٣١٧).

سورة فاطر

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبيِّنا محمدٍ خاتم النبيِّين، وإمامِ
المُتقين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعدُ:

فقد قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. (السَّمَاوَاتِ) جمع، و(الأرض) مفرد، فعددُ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ، وَذَلِكَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، وَعَدَدُ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَذَلِكَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. أَيِ مِثْلَهُنَّ فِي الْعَدَدِ، لَا فِي الْكَيْفِيَّةِ وَالْوَصْفِ، لِأَنَّ السَّمَاءَ أَكْثَرُ مِنَ الْأَرْضِ، وَقَدْ جَاءَتْ السُّنَّةُ صَرِيحَةً فِي ذَلِكَ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(١).

وقوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] أَيِ: مُصَيِّرِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا، وَاعْلَمْ أَنَّ (جَعَلَ) إِنْ تَعَدَّتْ إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَهِيَ بِمَعْنَى (صَيَّرَ)، وَإِنْ تَعَدَّتْ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ فَهِيَ بِمَعْنَى (خَلَقَ). قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. (جعل) هُنَا تَعَدَّتْ إِلَى مَفْعُولَيْنِ، فَتَكُونُ بِمَعْنَى (صَيَّرَ) أَيِ: صَيَّرْنَا الْقُرْآنَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَيْسَتْ هُنَا بِمَعْنَى (خَلَقَ) كَمَا قَالَ الْجَهْمِيَّةُ، فَقَدْ جَعَلُوا كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقًا كَالصُّخُورِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَلَيْسَ هَذَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠).

صحيحًا، بل (جعله) أي: صيَّره قرآنًا عربيًّا، والقاعدة ما ذكرتُ من أن (جعل) إذا تعدَّت إلى مفعولين تكون بمعنى (صيَّر)، وإذا تعدَّت إلى مفعول واحد تكون بمعنى (خلق).

إذن، قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] أي: مُصَيِّرِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا، كما قال عز وجل: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقوله: ﴿أُولَىٰ أجنحة﴾ [فاطر: ١]، يعني: لهم أجنحة يطرون بها. ﴿مثنى وثلاث وربع﴾، يعني: اثنين وثلاثة وأربعة، ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ [فاطر: ١]، أي: يزيد على الأربعة ما يشاء، وقد جاء في الحديث: «أن النبي ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين: مرة عند سدره المنتهى، ومرة في جياذ، له ست مئة جناح، قد سد الأفق»^(١)، حدَّثنا بذلك الصادق المصدوق محمد -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

وهم يطرون بتلك الأجنحة، وليست السرعة كالسرعة التي نعهد في الطائرات والصواريخ، بل هي أعظم وأعظم، ولهذا قال سليمان عليه السلام لما جاءه الهدهد الطائر المعروف بخبر من اليمن وسليمان آنذاك بالشام، وقال له: ﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء﴾ [النمل: ٢٣]، أي: كل مقومات الملك عندها، ﴿ولها عرش عظيم﴾ [النمل: ٢٣]، أي: كرسي عظيم، والكرسي الذي يجلس عليه الملك يسمى عرشًا، ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ [النمل: ٢٤] إلى آخر القصة، وفيها قال سليمان: ﴿يتأينها أملؤا أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ [النمل: ٣٨] توجهت إلى سليمان الآن

(١) أخرجه الترمذي، تفسير القرآن، سورة والنجم، برقم (٣٢٧٨).

مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ، فَقَالَ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرِشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴿[النمل: ٣٨-٣٩]، أَي: شديدٌ عاتٍ: ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، وَكَانَ سُلَيْمَانُ قَدْ رَتَّبَ الْوَقْتَ، فَكَانَ لَهُ وَقْتُ مُعَيَّنٍ يَجْلِسُ فِيهِ، وَوَقْتُ مُعَيَّنٍ يَقُومُ فِيهِ، قَالَ: ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]، فِي الْآيَةِ وَصْفَانِ لِلْعِفْرِيتِ:

الأول: قَوِيٌّ لَا يَعْجِزُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْعَرْشِ.

الثاني: أَمِينٌ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئًا. وَضِدُّ الْقُوَّةِ وَالْأَمَانَةِ الْعَجْزُ وَالْخِيَانَةُ.

فَقَوْلُهُ: ﴿أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩].
 أَي: لَا أَخْذُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا أَفْقِدُ مِنْهُ شَيْئًا، ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. فَكَانَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَسْرَعَ، لِقَوْلِهِ: ﴿ءَانِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. وَقَدْ جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ.

﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ﴾ [النمل: ٤٠]. قَالَ هُنَا: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾، مَعَ أَنَّ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ يَتَعَلَّقُ بِمَحذُوفٍ تَقْدِيرُهُ مُسْتَقَرٌّ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: لِأَنَّهُ جَاءَ بِهِ مُسْتَقِرًّا، أَي: ذَا قَرَارٍ، لَمْ يَتَحَرَّكَ، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ، قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠].

ولماذا أَتَى بِهِ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ الْعِفْرِيتُ مِنَ الْجِنِّ؟
 قَالَ الْعُلَمَاءُ: لِأَنَّ هَذَا دَعَا اللَّهَ تَعَالَى بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ أَنْ يُخْضِرَ هَذَا الْعَرْشَ، فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَجَاءَتْ بِهِ، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ قُوَّةَ الْمَلَائِكَةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ الْجِنِّ بَلَا شَكٍّ، فَالْمَسَافَةُ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ مَسَافَةٌ طَوِيلَةٌ، وَقَدْ جَاءَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ فِي لَحْظَةٍ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إِذْنِ، الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لَهُمْ أَجْنَحَةٌ مُنَوَّعَةٌ ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ وَاضِحٌ دَامِغٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَجْسَامٌ، لِأَنَّا لَا نَعْقِلُ الْأَجْنَحَةَ إِلَّا بِأَجْسَامٍ، فَالْمَلَائِكَةُ أَجْسَامٌ، وَالْأَصْلُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُرَوْنَ، لِأَنَّهُمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، لَكِنْ قَدْ يُرَوْنَ عَلَى خَلْقَتِهِمُ الَّتِي خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا، كَمَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ، أَوْ مُتَمَثِّلِينَ بِصُورٍ أُخْرَى، كَمَا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلَ عَلَى صُورَةِ دَحْيَةِ الْكَلْبِيِّ، وَكَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الطَّوِيلِ: «بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ». وَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَسْئَلَةً، وَفِي النِّهَايَةِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟». قَالَ عُمَرُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»^(١). فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ جَاءَ بِصُورَةِ رَجُلٍ.

إِذْنِ، عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالْمَلَائِكَةِ وَأَنَّهُمْ أَجْسَامٌ، وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقًا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ هِيَ قُوَى الْخَيْرِ، وَالشَّيَاطِينُ قُوَى الشَّرِّ. بَلِ الْمَلَائِكَةُ أَجْسَامٌ، وَالشَّيَاطِينُ أَجْسَامٌ أَيْضًا، وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا فِي قِصَّةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ الشَّيْطَانِ، قَالَ: وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، برقم (٨).

شَدِيدَةً. قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ». فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زَفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ. فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ».

فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْتَوِي مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَا زَفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنْكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ: دَعْنِي أَعْلَمَكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: «مَا هِيَ؟». قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ يُخَاطَبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟».

قَالَ: لَا. قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»^(١).

فَآيَةُ الْكُرْسِيِّ هَذِهِ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ، إِذَا قَرَأْتَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَانْظُرْ لَوْ أَنَّكَ اسْتَأْجَرْتَ شَخْصًا يَحْرُسُكَ فِي اللَّيْلِ حَتَّى مِنَ الشَّيَاطِينِ الَّتِي لَا تُرَى فَكَمْ كُنْتَ تُعْطِيهِ؟! فَهَذِهِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ اقْرَأْهَا كُلَّ لَيْلَةٍ يَحْفَظَكَ اللَّهُ بِهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ». فَمَعْنَاهُ: أَخْبَرَكَ بِالصِّدْقِ، فَاقْرَأِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- قَوْلَ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُهُ الشَّيْطَانُ حَتَّى يُصْبِحَ، فَاللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ.

تَبَيَّنَ إِذْنُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ أَجْسَامٌ تُرَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ تُسَمَّ اللَّهُ عَلَى الْأَكْلِ أَوْ عَلَى الشَّرْبِ يَأْكُلُونَ مَعَكَ، أَفْتَرَضَى أَنْ يَكُونَ عَدُوُّكَ شَرِيكًا لَكَ فِي أَكْلِكَ وَشُرْبِكَ؟! لِذَلِكَ أَقُولُ: إِنَّ الْقَوْلَ الرَّاجِحَ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ التَّسْمِيَةَ عَلَى الْأَكْلِ وَاجِبَةٌ، وَأَنْ مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَنَّهُ يُفْسِحُ الْمَجَالَ فِي أَنْ يُشَارِكَهُ عَدُوُّهُ.

وَأَمَّا كَوْنُهُ عَصَى الرَّسُولَ فَوَاضِحٌ، لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ: «يَا غُلَامُ، سَمَّ اللَّهُ»^(٢). فَهَذَا أَمْرٌ، وَكُلُّ مَنْ عَصَى الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النِّسَاءُ: ٨٠]، يَعْنِي: وَمَنْ يَعْصِ الرَّسُولَ فَقَدْ عَصَى

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلاً، فترك الوكيل شيئاً فأجازاه الموكل فهو جائز، وإن أقرضه إلى أجل مُسَمًّى جاز، رقم (٢٣١١).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٠٦١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٢).

الله، وَجَاءَ ذَلِكَ صَرِيحًا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ»^(١). لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا سَمِعْنَا أَمْرًا مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَعْتَقِدَ بِأَنَّ مَخَالَفَةَ هَذَا الْأَمْرِ مَخَالَفَةُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَبِهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ السُّنَّةَ دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْنَا مُسْتَدِلٌّ بِالسُّنَّةِ أَنْ نَقُولَ: أَيْنَ الدَّلِيلُ فِي الْقُرْآنِ؟ وَلِهَذَا لَهَا حَدَّثَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ الْمُتَمَنِّصَاتِ وَالنَّامِصَاتِ مَلْعُونَاتُ جَاءَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: «أَشْيْءٌ مَجْدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَمْ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَجْدُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ تَصَفَّحْتُ مَا بَيْنَ دَفْتَيْ الْمُصْحَفِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ الَّذِي تَقُولُ. قَالَ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهِ: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وَمَا نَهَكُمْ عَنْهُ فَانتهوا﴾ [الحشر: ٧]؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنِ النَّامِصَةِ وَالْوَاشِرَةِ^(٢) وَالْوَاشِمَةِ^(٣).

وقولُ الله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١] الزيادة هنا زيادةٌ كَيْفِيَّةٌ وَكَمِّيَّةٌ، فِي الْقُوَّةِ، وَفِي ضَخَامَةِ الْجِسْمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَالْأَمْرُ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، قَدِيرٌ بِلا عَجْزٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأحكام، باب قوله الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، رقم (٧١٣٧)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٥).

(٢) هي التي تحدد أسنانها وترقق أطرافها. (النهاية وشر).

(٣) أخرجه أحمد (٤١٥ / ١)، (٣٩٤٥) واللفظ له، والنسائي: كتاب الزينة، باب المستوصلة، رقم (٥٠٩٨).

فَلَا تَسْتَكْثِرُ شَيْئًا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَلَا تَسْتَغْظِمُ شَيْئًا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

قالت جنود الشَّيْطَانِ لِلشَّيْطَانِ: مَا بِأَلَاكَ تَفْرَحُ فَرَحًا عَظِيمًا إِذَا مَاتَ الْعَالِمُ، وَإِذَا مَاتَ الْعَابِدُ لَا تَفْرَحُ كَمَا تَفْرَحُ فِي فَقْدِ الْعَالِمِ؟ قَالَ: لِأَنَّ الْعَالِمَ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنَ الْعَابِدِ، الْعَالِمُ مُتَحَصِّنٌ بِعِلْمِهِ فِي نَفْسِهِ، وَمُعَلِّمٌ لِغَيْرِهِ، فَمَوْتُهُ أَشَدُّ عِنْدِي فَرَحًا مِنْ مَوْتِ الْعَابِدِ، وَسَأَرِيكُمْ. فَقَالَ لِرَاحِدٍ مِنْهُمْ: اذْهَبْ إِلَى الْعَابِدِ الَّذِي فِي مَكَانِ عِبَادَتِهِ لَا يَبْرَحُ، وَاسْأَلْهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ: هَلْ يَسْتَطِيعُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كُلَّهُنَّ فِي بَيْضَةٍ؟ فَقَالَ الْعَابِدُ: لَا يَسْتَطِيعُ. فَرَجَعَ مَدْنُوبُ الشَّيْطَانِ -وَبِئْسَ النَّادِبُ وَالْمَدْنُوبُ- إِلَى مَنْ نَدَبَهُ، وَقَالَ لَهُ: هَكَذَا قَالَ الْعَابِدُ، قَالَ: لَا يَسْتَطِيعُ. وَذَهَبَ الْمَدْنُوبُ إِلَى الْعَالِمِ، وَقَالَ لَهُ: هَلْ يَسْتَطِيعُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي بَيْضَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾.

فَرَجَعَ الْمَدْنُوبُ إِلَى الشَّيْطَانِ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْطَانُ: مَا الْجَوَابُ؟ قَالَ: الْجَوَابُ أَنَّهُ قَالَ: نَعَمْ يَسْتَطِيعُ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. فَقَالَ: انْظُرُوا كَيْفَ تَخْلَصُ الْعَالِمُ، وَكَيْفَ قَاسَ الْأُمُورَ بِعَقْلِهِ هَذَا الْعَابِدُ الْمُسْكِينُ^(١).

فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَمَنْ قُدْرَتُهُ إِذَا مَاتَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، وَمِنْهُمْ الْمَدْفُونُ فِي الْأَرْضِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ الْحَيَاتَانُ فِي الْبَحْرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَكَلَتْهُ الذَّيَّابُ فِي الْبَرِّ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَبْعَثَهُمْ فَلَا يَنْتَظِرُ أَيَّامًا أَوْ ذُهُورًا لِبَعْثِهِمْ، بَلْ يَفْعَلُ

(١) ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٦٩) عن ابن عباس.

ذَلِكَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ: كُنْ. فَيَكُونُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[النَّازِعَات: ١٣-١٤] أَيْ: عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَكُلُّ الْخَلْقِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يَخْرُجُونَ وَيَحْضَرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَاحِدَةٍ﴾ [القمان: ٢٨]. فَاللَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَلَا تَسْتَكْثِرُ شَيْئًا عَلَى قُدْرَتِهِ وَلَا تَسْتَعْظِمُهُ.

ولما خَرَجَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ -وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَكَانَتْ عِدَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ اثْنِي عَشَرَ أَلْفًا- قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ. يَتَفَاخَرُونَ بِكَثْرَتِهِمْ، فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يُرِيَهُمُ الْأَمْرَ، فَكَمَنْتَ لَهُمْ ثَقِيفٌ وَهَوَازِنٌ فِي بَطْنِ وَادِي حُنَيْنٍ، وَكَانُوا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مِائَةِ جُنْدٍ كَافِرٍ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ جُنْدٍ مُسْلِمٍ، بِقِيَادَةِ أَشْرَفِ قَائِدٍ، وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ فَلَمَّا كَمَنَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ حَصَلَتِ الْهَزِيمَةُ، وَفَرُّوا جَمِيعُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا نَحْوُ مِائَةِ رَجُلٍ مِنَ الْإِثْنِي عَشَرَ أَلْفًا، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ أَنْ يُنَادِيَ: «يَا أَهْلَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، يَا أَصْحَابَ السَّمُورَةِ»^(١). يَعْنِي الشَّجَرَةَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهَا بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ، فَتَرَجَعَ النَّاسُ سَرِيعًا، وَتَوَائَبُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفِي النِّهَايَةِ كَانَتْ الْغَلْبَةُ لِرَسُولِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢٩٦، رقم ١٧٧٥).

مَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿[التوبة: ٢٦: ٢٥]﴾.

هَكَذَا الْقُدْرَةُ، كَانَتْ الْغَلْبَةُ أَوْ لَا لِلْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ صَارَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقَدْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَقُدْرَتِهِ، فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ فَدَعَا اللَّهَ أَوْ دَعَا لَهُ أَهْلُهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ، وَهَذَا يَقَعُ كَثِيرًا، فَلَا تَسْتَكْثِرُ شَيْئًا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ، وَلَا تَسْتَغْظِمُ شَيْئًا عَلَى قُدْرَتِهِ - سُبْحَانَهُ - فَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَنَا وَلَكُمْ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ، وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ، وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.



سورة يس

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ الضَّمِيرُ يَعُودُ عَلَى اللَّهِ، وَصِيغَةُ الْجَمْعِ تُفِيدُ التَّعْظِيمَ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَكِنَّهُ يُسَيِّدُ الشَّيْءَ إِلَى نَفْسِهِ بِصِيغَةِ التَّعَدُّدِ؛ إِشَارَةً إِلَى التَّعْظِيمِ.

﴿نَحْيِي الْمَوْتَى﴾ نُحْيِيهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى إِنْشَاءِ الْخَلْقِ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، يَعْنِي: إِعَادَتَهُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ ابْتِدَائِهِ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْحَسِّ وَالْعَقْلِ، فَالْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ الْخَلْقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ؛ وَلِهَذَا لَمَّا قَالَ الْخَصْمُ الْمُبِينُ: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً﴾ يَعْنِي: الْإِنْسَانُ، ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُتْنَى﴾ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ٣٨ فَعَمِلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٧-٤٠]، فَالْجَوَابُ: بَلَى - وَاللَّهِ.

وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

فَيَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَيَمُوتُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا قَالَ: إِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ لَعُدَّ مِنَ الْمَجَانِينَ، فَنَحْنُ الْآنَ نُصَلِّي عَلَى الْمَوْتَى وَغَدًا سَيَصْلُونَ عَلَيْنَا، فَاسْتَعِدْ لِهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي تَنْتَقِلُ فِيهِ مِنْ دَارِ الْعَمَلِ إِلَى دَارِ الْجَزَاءِ، الَّذِي تُفَارِقُ فِيهِ الْأَهْلَ وَالْأَصْحَابَ وَالْأَمْوَالَ، فَتَفْرُدُ بِعَمَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(١)، فَإِذَا مَاتَ الْمَيِّتُ دَفَنَهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَشْفَقُهُمْ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ، وَيَبْقَى الْمَيِّتُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا عَمَلُهُ.

وَإِذَا دُفِنَ الْمَيِّتُ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَنَاهُ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ ثَلَاثَةِ أَصُولٍ، يَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، وَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَقْتُ بِهِ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي»^(٢)، وَيَكُونُ وُجُودُهُ فِي الْقَبْرِ أَسْرَّ عَلَيْهِ مِنْ بَقَائِهِ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ يَنْتَقِلُ مِنْ دَارِ الدُّنْيَا، الَّتِي كُلُّهَا نَكَدٌ وَتَنَغِيصٌ، وَإِذَا سُرَّ الْإِنْسَانُ فِيهَا يَوْمًا سَاءَتْهُ أَيَّامٌ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب سكرات الموت، رقم (٦٥١٤)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٠).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم (٤٧٥٣).

مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ

.....

وَقَالَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ^(١):

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ

وبعد القبر يأتي البعث، الذي جاء في وصفه في الكتاب والسنة ما تنخلع له القلوب، وباب السَّمْعِيَّاتِ في كتب العقائد، فيه الشيء الكثير.

قَوْلُهُ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾.

﴿مَا قَدَّمُوا﴾ من العمل الصالح، فكلُّ ما قَدَّمتَ من العمل الصالح مكتوب ولن يضيع عليك، يقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فكلُّ ما قَدَّمتَ من خير أو شرٍّ فإنه سيكتب، وكَلِمَةٌ: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ هذه للعموم؛ لأنَّ (ما) اسمٌ مَوْصُولٍ يُفِيدُ العموم، كُلُّ ما قَدَّمتَ من خيرٍ وشرٍّ.

فإن كان العمل الذي قَدَّمتَه عملاً خاصاً بك لا يتعدى إلى غيرك، فلك أجره إن كان خيراً، وعليك وزره إن كان سوءاً.

قَوْلُهُ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ﴾.

أَيُّ: نَكْتُبُ الآثارَ الَّتِي تَتَرْتَّبُ عَلَى مَا قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ قَدَّمَ خَيْرًا، وَاقْتَدَى بِهِ النَّاسُ، كُتِبَ لَهُ أَجْرُهُمْ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ، لَكِنَّهُ صَارَ أُسْوَةً وَإِمَامًا فَيَكْتُبُ لَهُ، وَإِذَا كَانَ قَدَّمَ سُوءًا وَابْتَدَعَ فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَاتَّبَعَهُ النَّاسُ عَلَى

(١) البيت للنمير بن تُولَب؛ ينظر: «ديوانه» (ص: ٥٧).

ذلك، كُتِبَ له سُوءُ هَذِهِ الْبَدْعَةِ، وَيَدُلُّ لِهَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَى وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(١).

وَمَا أَثْقَلَ الْحِمْلَ عَلَى الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يُهْتَدَى بِهِمْ إِنْ كَانُوا عُلَمَاءَ رَبَّانِينَ صَالِحِينَ، اقْتَدَى النَّاسُ بِصَلَاحِهِمْ، وَإِنْ كَانُوا بِالْعَكْسِ اقْتَدَى النَّاسُ بِسَيِّئَاتِهِمْ، فَالْحِمْلُ ثَقِيلٌ عَلَى كُلِّ مَنْ لَهُ إِمَامَةٌ فِي قَوْمِهِ، إِنْ دَلَّاهُمْ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ دَلَّاهُمْ عَلَى شَرٍّ فَلَهُ شَرٌّ.

وَمَا يُكْتَبُ مِنَ الْآثَارِ، مَا أَشَارَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٢).

فَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِلَى أَعْمَالٍ ثَلَاثٍ يَبْقَى أَثَرُهَا وَنَفْعُهَا لِلْمَيِّتِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهِيَ:

أَوَّلًا: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ: يَضَعُهَا الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ، مِثْلُ أَنْ يَبْنِيَ لِطَلْبَةِ الْعِلْمِ مَسَاكِنَ، أَوْ يَغْرِسُ نَخْلًا عَلَى طَلْبَةِ الْعِلْمِ، أَوْ عَلَى سُبُلِ الْخَيْرِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَتَبْقَى بَعْدَ مَوْتِهِ، هَذِهِ الصَّدَقَةُ الْجَارِيَةُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الكسوف، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، رقم (١٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم (١٦٣١).

ثَانِيًا: عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ: أَيَّ أَنَّهُ يُعَلِّمُ النَّاسَ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِعِلْمِهِ، يَنْتَفَعُ مِنْهُ وَاحِدٌ، وَالوَاحِدُ يَكُونُ فِي مَجْلَسٍ فَيَنْشُرُ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْعَالَمِ، فَيَنْتَفَعُ بِهِ كُلُّ مَنْ فِي الْمَجْلَسِ، ثُمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ فِي الْمَجْلَسِ يَكُونُ أَحَدُهُمْ فِي مَجْلَسٍ، فَيُحَدِّثُ بِمَا سَمِعَهُ، فَيَنْتَفَعُ بِهِ أَهْلُ الْمَجْلَسِ، وَإِذَا كَانَ الَّذِينَ فِي الْمَجْلَسِ الْأَوَّلِ عَشْرَةً، وَكُلُّ وَاحِدٍ جَلَسَ فِي مَجْلَسٍ وَنَشَرَ الْعِلْمَ، فَيَنْتَفَعُ مِئَةً، وَإِذَا كَانَ الْمِئَةُ كُلُّ وَاحِدٍ نَشَرَ الْعِلْمَ فِي عَشْرَةِ صَارُوا أَلْفًا.

وَلِذَلِكَ مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِعِلْمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ نَشَرُوا الشَّرِيعَةَ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِعِلْمِ الْأَئِمَّةِ كَالِإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَمَالِكٍ، وَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِأَئِمَّةِ أَصْحَابِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ الَّذِي يَدْعُو لَهُ.

فَالْعِلْمُ لَا مُنْتَهَى لِفَائِدَتِهِ إِذَا صَدَرَ عَنْ قَلْبٍ مُخْلِصٍ يُرِيدُ بِنَشْرِ الْعِلْمِ أَنْ تَنْتَشِرَ شَرِيعَةُ اللَّهِ، لَا يُرِيدُ بِنَشْرِ الْعِلْمِ أَنْ يَكُونَ وَجِيهًا فِي قَوْمِهِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ رَأْسَ فِتْنَةٍ، «فَمَنْ طَلَبَ عِلْمًا وَهُوَ يَتَغَنَّى بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، لَا يُرِيدُ إِلَّا أَنْ يَنَالَ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَرْخَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١).

فَيَجِبُ إِخْلَاصُ النِّيَّةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، حَتَّى نَنَالَ إِرْثَ النَّبِيِّينَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب الدنيا بعلمهن، رقم (٢٦٥٤)، وقال: غريب. وابن ماجه: المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٩، ٢٦٠).

الثالث: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ: فَإِذَا يَسَّرَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ وَلَدًا صَالِحًا، يَدْعُو لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ، كُتِبَ لَهُ، وَتَأْمَلُوا قَوْلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، وَلَمْ يَقُلْ: «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَعْتَمِرُ لَهُ، أَوْ يَحْجُّ لَهُ، أَوْ يَصُومُ لَهُ، أَوْ يُصَلِّي لَهُ»، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَتَحَدَّثُ عَنِ الْأَعْمَالِ، فَعَدَلَ عَنْ قَوْلِهِ: «يَعْمَلُ لَهُ» إِلَى قَوْلِهِ: «يَدْعُو لَهُ».

وَلِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى الْمُعْتَمِرِينَ وَغَيْرِهِمْ، أَنْ يَجْعَلُوا الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ لِأَنْفُسِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي حَاجَةٍ لَهَا، وَأَنْ يَجْعَلُوا لِآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمُ الدُّعَاءَ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَرْشَدَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ وَلِذَلِكَ تَحَدَّثُ الْعَاطِفِينَ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ مِنَ الشَّرْعِ، يَعْتَمِرُونَ عَنْ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ، فَأَوَّلُ مَا يَقْدُمُ يَعْتَمِرُ عَنْ نَفْسِهِ، وَثَانِي يَوْمٍ عَنْ أُمِّهِ، وَثَالِثُ يَوْمٍ عَنْ أَبِيهِ، وَرَابِعُ يَوْمٍ عَنْ جَدَّتِهِ، وَخَامِسُ يَوْمٍ عَنْ جَدِّهِ، وَهَكَذَا، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَرِدْ بِهِ الشَّرْعُ.

وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اعْتَمَرَ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ، فَهَلْ أَنْتَ أَخْرَصُ عَلَى الْخَيْرِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَوْ كَانَ هَذَا خَيْرًا لَكَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفْعَلُهُ أَوْ يَأْمُرُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ خَيْرًا كَانَ مِنَ الشَّرْعِ، وَالشَّرْعُ وَاجِبٌ عَلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يُبَلِّغَهُ لِلنَّاسِ، فَهَلْ قَالَ لِلنَّاسِ: «كَرَّرُوا الْعُمْرَةَ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ»، لَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ ذَلِكَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فَتَحَ مَكَّةَ، وَانْتَصَرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَطَابَ لَهُ الْمَقَامُ، وَبَقِيَ فِي مَكَّةَ تِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا، مِنْهَا عَشْرَةٌ فِي رَمَضَانَ، وَلَمْ يَعْتَمِرْ، مَعَ أَنَّهُ يَقُولُ: «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ، تَعْدِلُ حَجَّةً»^(١)، وَمَنْ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ جَدًّا أَنْ يَرْكَبَ نَاقَتَهُ إِلَى التَّنْعِيمِ وَيَأْتِيَ بِعُمْرَةٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب أبواب العمرة، باب العمرة في رمضان، رقم (١٦٩٠)، ومسلم: كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان، رقم (١٢٥٦).

وَلَمْ يَعْتَمِرْ، وَلَا اعْتَمَرَ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ، مَعَ أَنَّهُ يَسِيرُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْعُمْرَةِ، لَا سِيَّامًا أَنَّهُمْ انْتَصَرُوا وَاطْمَأَنَّنُوا، وَالزَّمَنُ زَمَنٌ فَاضِلٌ - الْعَشْرُ الْوَاحِدُ مِنْ رَمَضَانَ - وَمَعَ ذَلِكَ مَا أَتُوا بِعُمْرَةٍ مِنْ مَكَّةَ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ السُّنَّةِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَّ عَائِشَةَ كَرَّرَتِ الْعُمْرَةَ؟

قُلْنَا: إِنَّ عَائِشَةَ لَمْ تُكَرِّرِ الْعُمْرَةَ، وَقِصَّةُ عَائِشَةَ قِصَّةٌ مُنْفَرَدَةٌ وَلَيْسَ فِيهَا تَكَرُّارٌ عُمْرَةً، وَالْقِصَّةُ هِيَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ، وَكَانَ خُرُوجُهُ لِحَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، وَأَحْرَمَ بِالْحَجِّ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: قُلْ عُمْرَةً وَحِجَّةً، فَقَرَنَ، وَقَالَ: «لَبَّيْكَ عُمْرَةً، وَحِجَّةً»، وَأَصْحَابُهُ مِنْهُمْ مَنْ أَحْرَمَ بِحَجٍّ وَبَقِيَ عَلَى الْحَجِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ يَرِيدُ أَنْ يَتَمَتَّعَ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَحْرَمَ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ كَالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ حَاضَتْ عَائِشَةُ، قَالَتْ: «فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي، قَالَ: «مَا لَكَ أَنْفَسَتْ؟». قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ»، أَرَادَ بِذَلِكَ تَسْلِيَتَهَا، ثُمَّ أَمَرَهَا أَنْ تُحْرِمَ بِحَجٍّ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمَكَّنُ أَنْ تُؤَدِيَ الْعُمْرَةَ، حَيْثُ إِتَّهَا إِذَا وَصَلَتْ مَكَّةَ سَتَكُونُ حَائِضًا، وَالْحَائِضُ لَا تَطُوفُ وَلَا تَسْعَى، ثُمَّ أَمَرَهَا أَنْ تُحْرِمَ بِحَجٍّ، وَقَالَ: «فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ (الْمَوْطَأُ): «وَلَا بَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرْوَةِ، حَتَّى تَطْهَرِي»^(٢) فَفَعَلْتُ، وَصَارَ نُسْكُهَا قِرَانًا؛ لِأَنَّهَا أَدْخَلَتْ الْحَجَّ عَلَى الْعُمْرَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْحَيْضِ، رَقْمُ (٢٩٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْحَجِّ، بَابُ بَيَانِ وَجْهِ الْإِحْرَامِ، رَقْمُ (١٢١١).

(٢) أَخْرَجَهُ مَالِكٌ: كِتَابُ الْمَنَاسِكِ، بَابُ دُخُولِ الْحَائِضِ مَكَّةَ وَالْعَمَلِ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ، رَقْمُ (١٣٢٥).

عليه وعلى آله وسلم: «يُجْزَى عَنْكَ طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، عَنْ حَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ»، فصارت قارئةً، والقارنُ لا يأتي بعُمْرَةٍ مُسْتَقْلَةٍ فَمَشَتْ مَعَهُمْ وَصَارَ عَمَلُهَا كَعَمَلِ الْمُفْرَدِ تَمَامًا.

أَلَحَّتْ عَائِشَةُ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَرْجِعُ النَّاسُ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ، وَأَرْجِعُ بِحَجٍّ، خَافْتُ مِنَ الْغَيْرَةِ، فَنَسِئُ النَّبِيَّ ﷺ كُلَّهِنَّ أَتَيْنِ بِعُمْرَةٍ مُسْتَقْلَةٍ، وَحَجٍّ مُسْتَقِلٍّ، وَعَائِشَةُ بِأَفْعَالِ الْحَجِّ فَقَطُ، فَلَمَّا رَأَاهَا النَّبِيُّ ﷺ قَدْ أَلَحَّتْ قَالَ لِأَخِيهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «اخْرُجْ بِأَخْتِكَ مِنَ الْحَرَمِ، فَلْتَهْلَ بِعُمْرَةٍ»، فَخَرَجَ بِهَا إِلَى التَّنْعِيمِ؛ لِأَنَّ التَّنْعِيمَ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَحْصَبِ أَقْرَبَ الْحَلِّ، فَخَرَجَ بِهَا إِلَى التَّنْعِيمِ فَأَحْرَمَتْ بِعُمْرَةٍ^(١).

فَعَبَدُ الرَّحْمَنِ أَخُو عَائِشَةَ مَعَهَا، وَلَمْ يُحْرَمِ بِعُمْرَةٍ، مَعَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَيْهِ سَهْلٌ، فَالرَّجُلُ خَرَجَ لِلتَّنْعِيمِ وَلَمْ يُحْرَمِ بِعُمْرَةٍ، وَإِنَّمَا أَحْرَمَتْ عَائِشَةُ فَقَطُ، بِمَا يَدُلُّ دِلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَذِي الصَّحَابَةِ أَنْ يَأْتُوا بِعُمَرَتَيْنِ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ.

فَنَقُولُ: إِذَا وَقَعَ لَامْرَأَةٍ مِثْلُ مَا وَقَعَ لِعَائِشَةَ، وَأَحَبَّتْ أَنْ تَأْتِيَ بَعْدَ الْحَجِّ بِعُمْرَةٍ مِنَ التَّنْعِيمِ، فَلَهَا ذَلِكَ وَلَا يُعَدُّ بِدْعَةً.

لَكِنَّ مَا نُنبِئُهُ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ يَأْتِيَ رَجُلٌ بِعُمْرٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي سَفَرٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ مَا لَمْ يَسْنَهُ مَنْ بَلَغَ الْبَلَاحَ الْمُبِينَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ أَوْ تَقْرِيرٍ.

وَلِذَلِكَ كَانَ الاسْتِدْلَالُ بِقِصَّةِ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا- عَلَى تَكَرُّارِ الْعُمْرَةِ اسْتِدْلَالًا لَا غَيْرَ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ أَخْصَصَ مِنَ الْمَدْلُولِ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب التمتع والإقرا ن والإفراد بالحج، رقم (١٥٦١)، ومسلم: كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (١٢١١).

الدَّلِيلُ مساوياً لِلْمَدْلُولِ، أَوْ أَعَمَّ مِنْهُ.

قَوْلُهُ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ، وَأَجْيَالِ النَّاسِ، وَأَرْزَاقِهِمْ، وَمَا يَحْدُثُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ الإِحْصَاءُ هُوَ ضَبْطُ الْعَدَدِ، وَهُوَ مُسْتَقٌّ مِنَ الْحَصَى؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا يَكْتُبُونَ، فَهَمُ أُمِّيُونَ، لَكِنْ يُحْصُونَ الشَّيْءَ بِالْحَصَى؛ وَلِهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَائِرِ

بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى، يَعْنِي: بِأَكْثَرِهِمْ عَدَدًا؛ لِأَنَّ الْعَدَدَ إِذَا أُريدَ أَنْ يُضَبَّطَ ضُبَّطَ بِالْحَصَى، فَتَجَدُّ الْإِنْسَانُ مِنْهُمْ أَخَذَ كَيْسًا مِنَ الْحَصَى يَعْدُدُ بِهِ، فَمَعْنَى ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أَيُّ: ضَبَطْنَا عَدَدَهُ.

﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ أَيُّ: فِي كِتَابٍ، وَسُمِّيَ الْكِتَابُ إِمَامًا؛ لِأَنَّهُ يُؤْخَذُ بِهَا فِيهِ، وَيُقْتَدَى بِهِ، وَيَتَّبَعُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

وَهَذِهِ الْآيَةُ رُبَّمَا تَكُونُ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْأَوْقَافِ الْخَيْرِيَّةِ، فَالْأَوْقَافُ الْخَيْرِيَّةُ يُوقَفُهَا الْإِنْسَانُ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَتُكْتَبُ لِلْإِنْسَانِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَتَكُونُ مِنَ الْآثَارِ.

وَلِذَلِكَ نُشِيرُ عَلَى إِخْوَانِنَا الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ مَالًا، وَلَهُمْ وَرَثَةٌ أَغْنِيَاءُ لَا يَحْتَاجُونَهُ، أَنْ يُوقِفُوا جُزْءًا مِنْهُ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَلِيَكُنَ الْجُزْءُ هُوَ الْخُمْسَ، خِلَافًا لِمَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ الْيَوْمَ، فَيُوقِفُونَ الثَّلْثَ.

وَالثَّلْثُ قَالَ فِيهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الثَّلْثُ كَثِيرٌ»، وَكَأَنَّهُ ﷺ يُشِيرُ إِلَى

أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَنْقُصَ الْإِنْسَانُ فِي وَصِيَّتِهِ عَنِ الثَّلَاثِ، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثَّلَاثِ إِلَى الرَّبْعِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الثَّلَاثُ كَثِيرٌ»^(١).

وَيُذَكِّرُ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَوْصَى بِالْخُمْسِ، وَقَالَ: أَرْضَى بِمَا رَضِيَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١]، فَيَكُونُ أَفْضَلُ مَا يُوصِي بِهِ الْإِنْسَانُ هُوَ الْخُمْسُ، وَإِنْ زَادَ إِلَى الرَّبْعِ فَلَا بَأْسَ، وَإِنْ زَادَ إِلَى الثَّلَاثِ فَلَا بَأْسَ، وَلَكِنَّهُ مَرْجُوحٌ.

وَالنَّاسُ يُوصُونَ بِالثَّلَاثِ إِذَا فَارَقُوا الدُّنْيَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الصَّدَقَةَ وَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا لَكِنَّهَا لَيْسَتْ كَالصَّدَقَةِ فِي حَالِ الْحَيَاةِ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟ فَقَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُثْمِلَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، أَلَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ».

أَيُّ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحُ الْبَدَنِ، حَرِيصًا عَلَى الْمَالِ، فَالشَّابُّ إِذَا كَانَ لَهُ عِشْرُونَ سَنَةً فَيُؤَمِّلُ الْبَقَاءَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَإِنْسَانٌ آخَرُ لَهُ تِسْعُونَ سَنَةً، فَلَا يُؤَمِّلُ الْبَقَاءَ كَثِيرًا.

وَلَا تَنْتَظِرُ إِذَا قَرُبَ الْأَجَلُ قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ، فَاكْثُرِ النَّاسُ لَا يَتَصَدَّقُ وَلَوْ بِقَرَشٍ وَاحِدٍ فِي حَالِ حَيَاتِهِ، وَلَكِنْ يُوصِي بِالثَّلَاثِ؛ لِأَنَّ الثَّلَاثَ مَضَرَّتُهُ عَلَى الْوَرِثَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، رقم (٢٥٩٢)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (١٦٢٩).

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ الْخَيْرَ بِمَا لَهُ، أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أَعْمَالِ الْخَيْرِ الْعَامَّةِ، وَأَفْضَلُ ذَلِكَ الْمَسَاجِدُ، فَالْمَسَاجِدُ بُيُوتُ اللَّهِ، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، فَالْمَسَاجِدُ مَأْوَى لِكُلِّ مِنَ الْعَابِدِينَ، وَالْمُصَلِّينَ، وَالْعَاكِفِينَ، وَالِدَّارِسِينَ، وَقَارِئِي الْقُرْآنِ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ، وَمَأْوَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَأْوَى فِي صَيْفٍ أَوْ شِتَاءٍ، فَهِيَ مِنْ أَفْضَلِ أَعْمَالِ الْبِرِّ، فَالْمَسْجِدُ ثَوَابُهُ دَائِمٌ كُلِّ وَقْتٍ، لَا يَأْتِي دَاخِلٌ وَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ إِلَّا كَانَ لِعَامِرِ الْمَسْجِدِ مِنْ ثَوَابِهَا.

وَإِذَا جَعَلْتَ عَمَلَ الْخَيْرِ لِلْمَسَاجِدِ اسْتَرَحْتَ وَأَرَحْتَ؛ لِأَنَّكَ سَوْفَ تُسَلِّمُ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ إِلَى جِهَةِ مَسْئُولَةٍ فِي الدَّوْلَةِ تَتَوَلَّى شُؤْنَهُ، وَأَرَحْتَ مَنْ خَلْفَكَ؛ لِأَنَّا نَجِدُ الَّذِينَ يُوقِفُونَ عَلَى الذُّرِّيَّةِ يُوجِدُونَ مَشَاكِلَ لِلذُّرِّيَّةِ، فَكَمْ مِنْ أَبْنَاءِ عَمِّ تَقَاطَعُوا بِسَبَبِ الْوَقْفِ، وَحَدَّثَتْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ بِسَبَبِ الْوَقْفِ، فَتَجَدُّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ غَنِيًّا وَالْوَقْفُ لَهُ مِئَةُ رِيَالٍ فِي السَّنَةِ، وَهُوَ غَنِيٌّ عِنْدَهُ مَلَائِينَ، لَكِنْ إِذَا أَخَذَ ابْنُ عَمِّهِ مِئَةَ رِيَالٍ الَّتِي هِيَ نَصِيبُهُ فِي الْوَقْفِ، غَضِبَ عَلَيْهِ، وَنَازَعَهُ، وَحَصَلَتْ بِذَلِكَ عَدَاوَةٌ وَبَغْضَاءٌ.

وَالْأَوْقَافُ الْخَاصَّةُ قَدْ يَكُونُ ضَرُّهَا أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهَا، وَقَدْ يَكُونُ فِيهَا نَفْعٌ، أَمَّا الْأَوْقَافُ الْعَامَّةُ: كَالْمَسَاجِدِ، وَالْمَدَارِسِ، وَطِبَاعَةِ الْكُتُبِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ فَهَذِهِ أَعْمُ نَفْعًا، وَأَبْعَدُ مِنَ الضَّرَرِ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ (٥١) قَالُوا يَنْوِيلُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ ﴿[يس: ٥١-٦٥].

فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ يُذَكِّرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ، وَالنَّافِخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَحَدُ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، يَنْفُخُ فِيهِ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ، فَإِذَا نَفَخَ فِيهِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةَ، يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ مَرَّةً وَاحِدَةً.

قَوْلُهُ: ﴿مَنْ الْأَجْدَاثِ﴾ أَي: الْقُبُورُ، ﴿يَنْسِلُونَ﴾ يَخْرُجُونَ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، فَيَقُولُونَ إِذَا رَأَوْا هَذَا الْمَشْهَدَ الْعَظِيمَ، ﴿يَنْوِيلُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ أَي: مَنْ مَنَامِنَا، ثُمَّ يَقَالُ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ وَهَذَا أَتَى بِالرَّحْمَنِ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَتَضَاعَفُ تَضَاعُفًا كَبِيرًا، وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ حَيْثُ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَاخَمُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ، وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١)، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الرَّجَاءِ مَعَ الْخَوْفِ، رَقْمُ (٦٤٦٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ التَّوْبَةِ، بَابُ فِي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهَا سَبَقَتْ غَضَبَهُ، رَقْمُ (٢٧٥٢).

المرسلون الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ فَبَلَّغُوا عِبَادَ اللَّهِ بِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، يَوْمِ الْجَزَاءِ، يَوْمَ يُجْزَى فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، صَبْحَةً وَاحِدَةً بِالْخَلَائِقِ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ فَيُخْرَجُونَ بِصَبْحَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَات: ١٣-١٤]، لَأَنَّ هَذِهِ الصَّبْحَةَ، وَهَذِهِ الزَّجْرَةَ، مِنْ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَرَّةً وَاحِدَةً أَنْ يُخْرَجُوا فَيُخْرَجُوا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مُحْضَرُونَ عِنْدَ اللَّهِ، لِيُجَازِيَ كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا عَمِلَ، هَذَا الْمَشْهَدُ الْعَظِيمُ حِينَ تُحْشَرُ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا، إِنْسِيَّهَا وَجَنِّيَّهَا، بَهِيمُهَا وَنَاطِقُهَا، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَبْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

قوله تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، الْيَوْمَ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا، لَا فِي الْمَعَامَلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ، وَلَا فِي الْمَعَامَلَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَقَدْ أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ: «يَقْتَصَّرُ لِلشَّاةِ الْجُلُحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»^(١) حَتَّى لَا تَبْقَى مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ عِنْدَ أَحَدٍ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

وأخبر النبي ﷺ فيما صح عنه حين قال لأصحابه: «مَنْ تَعْدُونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ مَنْ لَا دِرْهَمَ عِنْدَهُ وَلَا مَتَاعَ قَالَ: «الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ، فَيَأْتِي وَقَدْ ضَرَبَ هَذَا، وَشَتَمَ هَذَا، وَأَخَذَ مَالَ هَذَا، فَيَأْخُذُ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْءٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

فالمسلم المؤمن بالله وباليوم الآخر، يعلم أن هذا الوعد حق مثل ما أنكم تنطقون، وسوف تلاقون ربكم فيجازيكم بدون ظلم.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى انْقِسَامَ الْخَلَائِقِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِسْمَيْنِ:-

القِسْمُ الْأَوَّلُ: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾، فَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ عَمِلُوا لَهَا فِي الدُّنْيَا؛ فَاْمَنُوا بِاللَّهِ وَقَامُوا بِطَاعَتِهِ، وَأَدَّوْا حُقُوقَهُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، هَؤُلَاءِ هُمْ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، هَؤُلَاءِ هُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهِونَ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِونَ ﴿قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: «المرادُ بالشُّغْلُ هنا أن يَتَمَتَّعَ بِزَوْجَاتِهِ فِي ظِلَالٍ وَارِفٍ، وَبِنَعِيمٍ وَافِرٍ».

قوله: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِونَ﴾ هُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ، وَهَذِهِ الْفَاكِهَةُ كَمَا قَالَ رَبُّنَا عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرَّحْمَن: ٥٢]، كُلُّ مَا يَتَفَكَّهُ بِهِ الْمَرْءُ فَإِنَّ فِيهِ زَوْجِينَ أَي: صِنْفَيْنِ، لَمْ تَرَهُمَا عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ بِهِمَا أُذُنٌ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

ولم تَخْطُرْ لَدَيْهِمَا وَسْرُورُ الْعَيْنِ بِرُؤْيَيْهِمَا عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرْآئِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ لَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ، كُلُّ مَا تَمَنَّوْا مِنَ النَّعِيمِ فَإِنَّهُمْ يُعْطَوْنَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾، سلامٌ أي ليس فيها تنغيصٌ ولا كَدَرٌ، ولا مَرَضٌ، ولا هَرَمٌ، ولا مَوْتٌ، ولا نَقْصٌ، وليس فيها أي شيء من المُنْكَدَاتِ، والمُنْغَصَاتِ، سلامٌ بكل معنى السَّلامِ، من كلِّ نَقْصٍ، ومن كلِّ آفَةٍ، ولهذا تُسَمَّى الْجَنَّةُ دَارَ السَّلامِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا، فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا، فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهَرُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا، فَلَا تَبْأْسُوا أَبَدًا»^(١)، هذا والله كَمَا لَ النَّعِيمِ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ وما وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ الْمَنَازِلِ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ لَهُمْ ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾.

القسم الثاني: أما الصَّنْفُ الثَّانِي فَهُمْ الْمَجْرُمُونَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ تَمَيَّزُوا وَانْفَصَلُوا وَابْتَعَدُوا عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّهُ هَؤُلَاءِ الْمَجْرُمُونَ يُسَاقُونَ إِلَى النَّارِ، ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَلَكِنَّهُمْ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مَا وَفُّوا بِهَذَا الْعَهْدِ، وَلَا قَامُوا بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم (٢٨٣٧).

بل أَضَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَضَلَّ قَبْلَهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِاللَّهِ، وَغَفَلَتِكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَتَكْذِيبِكُمْ لِرُسُلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، فلا يَسْتَطِيعُونَ الجواب، ولا يَسْتَطِيعُونَ الدِّفَاعَ عن أَنفُسِهِمْ، ولا يَسْتَطِيعُونَ التَّكْذِيبَ، ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فالأَيْدِي تَنْطِقُ بِمَا كَسَبَتْ، والأَرْجُلُ تَنْطِقُ بِمَا كَسَبَتْ، وحينئذٍ لا يُمكنُهُمُ التَّكْذِيبُ، فلا يُمكنُ للواحدِ مِنْهُمْ أن يَقُولَ لِيَدِيهِ كَذَبَتْ، ولا لِرَجْلِيهِ كَذَبَتْ، وإنما هو مُسْتَسْلِمٌ؛ ولكن حينَ لا يَنْفَعُ الاستِسْلَامُ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

فتأمَّلُوا أيها المُسْلِمُونَ هذا المُشْهَدَ، تأمَّلُوا هذا الأَمْرَ العَظِيمَ واستَعِدُّوا لَهُ، وقومُوا بطاعةِ اللهِ، واسألُوا اللهَ تَعَالَى العَوْنَ والسَّدَادَ والتَّوْفِيقَ، فإنَّ المُسْلِمَ يَقُولُ في كُلِّ صَلَاةٍ، قَوْلًا مَفْرُوضًا عَلَيْهِ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إِن الْحَمْدَ لِلّٰهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنُتَوِّبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنْ شُرُورِ
 أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللّٰهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ،
 وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللّٰهُ
 عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
 مُّبِينٌ ۝۷۷﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿[يس: ٧٧-٧٨].

المرادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرُ لِلْبَعْثِ، سواءٌ كَانَ مُعَيَّنًا بِشَخْصِهِ،
 أَوْ مُعَيَّنًا بِوَصْفِهِ. واعلم أن ما جاءَ فِي كِتَابِ اللّٰهِ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ مُعَيَّنٌ بِوَصْفِهِ غَالِبًا،
 وَإِنْ جَاءَ ذِكْرُ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِمَعْنَى يَقْتَضِيهِ.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] أي: بعد أن خُلِقَ مِنْ هَذِهِ
 النُّطْفَةِ الْجَامِدَةِ، الَّتِي لَيْسَ فِيهَا إِحْسَاسٌ، وَلَيْسَ فِيهَا بَيَانٌ وَلَا نُصْحٌ، ﴿فَإِذَا هُوَ
 خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] أي: يُخَاصِمُ خُصُومَةً بَلِيغَةً، وَمِنْ جُمْلَةٍ مَا يُخَاصِمُ فِيهِ أَنَّهُ
 يَقُولُ: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]!! وَالرَّمِيمُ: هُوَ الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ النَّخْرَةُ.

فَيَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرُ لِلْبَعْثِ: كَيْفَ تُحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ الَّتِي رَمَتْ وَبَلَيْتَ
 وَتَلَفْتَ، مَنْ الَّذِي يُحْيِيهَا؟ وَجَاءَ الْجَوَابُ، اسْتَمِعْ إِلَى الْجَوَابِ، ثُمَّ اسْتَمِعْ إِلَى
 مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْجَوَابُ مِنَ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْبُرْهَانِيَّةِ:

الدَّلِيلُ الْأَوَّلُ: دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ بُرْهَانِيٌّ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْكَرَهُ أَحَدٌ، يَقُولُ اللّٰهُ تَعَالَى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

فيقال لهذا الذي يقول: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]: مَنْ الذي أنشأها أَوَّلَ مَرَّةٍ؟ فيقول: الله عَزَّوَجَلَّ. فُقِلَ: ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]؛ لأنَّ القادرَ على ابتداءِ الخلقِ قادرٌ على إعادته من بابِ أَوَّلَى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] أي: إعادته أهونُ عليه.

وهذا الدليل هو دليلٌ معقولٌ، لا يُمكنُ أن يجادلَ فيه المجادلُ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الإعادةَ أهونُ من الابتداءِ. أُرِيتَ لو بنيتَ قصرًا فخماً مشيداً، ثم انهدمَ هذا البناءُ، ثم أرادَ أحدٌ أن يُعيدَهُ، أليستِ الإعادةُ أهونُ من الابتداءِ؟ بلى؛ لأنها لا تحتاجُ إلى تخطيطٍ ولا إلى إنشاءٍ من جديدٍ، وإنما تحتاجُ إلى إعادةٍ، والإعادةُ أهونُ، ولهذا قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وهذا دليلٌ.

الدليلُ الثاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] فالعليمُ بكُلِّ خَلْقٍ، الذي لا يخفى عليه كيفَ يَخْلُقُ، ولا كيفَ يُنْشِئُ، ﴿عَلِيمٌ﴾ بإعادةِ الخلقِ، وكيفَ يُعادُ هذا الخلقُ، وهذا استدلالٌ بعمومِ عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ بِكُلِّ خَلْقٍ. ولا يمكنُ أن يكونَ العجزُ عن الشيءِ إلا لأحدِ أمرين؛ إما الجهلُ وإما العجزُ.

ولهذا لو قيلَ لشخصٍ: اصنعَ لنا مُسَجَّلاً، وهو لا يَدْرِي كيفَ يصنعُ، فلا يمكنُ أن يصنعَ المسجَّلَ، فهو لم يَدْرُسْ كيفَ يُنْشِئُ هذا المسجَّلَ، فلا يَعْلَمُ كيفَ يصنعُ هذا المسجَّلَ. وكذلك لو قيلَ لإنسانٍ عالمٍ بهذه الصَّنعةِ، لكنه غيرُ قادرٍ عليها، كأن يكونَ أَشَلَّ مثلاً، لو قيلَ له: اصنعَ هذا المسجَّلَ. فلنَ يَسْتَطِيعَ، فهو دَرَسَ كيفَ تُصنَعُ هذه المسجَّلاتُ، لكنه لا يَسْتَطِيعُ أن يعملَ بيديهِ، لذلك لن

يستطيع أن يفعل ذلك؛ لأنه ليس بقادر، فالتَّوَجَّلْ ﴿بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] وهو قادرٌ عليه. فهذا دليلٌ آخرٌ على إمكانِ إعادةِ العظامِ الرَّمِيمَةِ.

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، ولم يَقُلْ: بِهِ. بَلْ قَالَ: ﴿مِّنْهُ تُوقَدُونَ﴾، وذلك أن هناك شَجَرًا مَعْرُوفًا كَانَ النَّاسُ يَسْتَعْمِلُونَهُ قَبْلَ إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الْآخِرَةِ؛ شَجَرٌ يُضْرَبُ بِالزُّنْدِ - الزُّنْدُ: نَوْعٌ مِنَ الْحَدِيدِ يُضْرَبُ بِهِ هَذَا الشَّجَرُ هَكَذَا - ثُمَّ يَنْقَدِحُ نَارًا، فَيُوقَدُ النَّاسُ بِهَا. مَعَ أَنَّ الشَّجَرَ الْأَخْضَرَ يَنَافِي النَّارَ؛ لِأَنَّ النَّارَ حَارَّةٌ وَيَابِسَةٌ، وَالشَّجَرُ الْأَخْضَرُ رَطْبٌ بَارِدٌ، وَمَعَ ذَلِكَ يُخْرِجُ اللَّهُ هَذِهِ النَّارَ الْحَارَّةَ الْيَابِسَةَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الرَّطْبِ الْبَارِدِ، وَالْقَادِرُ عَلَى إِيجَادِ الشَّيْءِ مِنْ ضِدِّهِ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ هَذِهِ الْعِظَامِ الرَّمِيمَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ رَمِيمَةً.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، فَالَّذِي قَدَّرَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَلَى إِيجَادِهِمَا، وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، وَالْكَوَاكِبِ الْعَظِيمَةِ الْهَائِلَةِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَ هَذِهِ الْعِظَامَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ رَمِيمَةً، ثُمَّ يَأْتِي الْجَوَابَ وَهُوَ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الدَّلِيلُ الْخَامِسُ: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وَ﴿الْخَلَّاقُ﴾ مِنَ النَّاحِيَةِ اللَّغَوِيَّةِ صِيغَةٌ مَبَالِغَةٌ تَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ

تَدُلُّ عَلَى اتِّصَافِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ بِالْخَلْقِ اتِّصَافًا لَا يَنفَكُ مِنْهُ، وَلِهَذَا لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَلَا يَزَالُ خَلَّاقًا عَلِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فَالْخَلَّاقُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِبْجَادِ، الْعَلِيمُ بِذَلِكَ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ حَتَّى تَكُونَ خَلْقًا جَدِيدًا.

الدَّلِيلُ السَّادِسُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ هَذِهِ الْجُمْلَةُ جُمْلَةٌ حَضَرٍ، يَعْنِي مَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِذِهِ الْكَلِمَةِ: (كُنْ)، فَيَكُونُ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِدُونِ أَنْ يُعَيِّنَ اللَّهُ لَهُ مَا يَكُونُ، وَلَكِنَّهُ إِذَا قَالَ: كُنْ فَإِنَّمَا يَكُونُ الشَّيْءُ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَعَلَى حَسَبِ إِرَادَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

إِذْنُ لَيْسَ هُنَاكَ تَعَبٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَشَقَّةٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مُحَاوَلَةٌ فَعَلٍ فِيهَا يَرِيدُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَات: ١٣-١٤]؛ يَزْجُرُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَلْقَ فَيُخْرِجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ هَذِهِ الزَّجْرَةَ الْوَاحِدَةَ، فَإِذَا هُمْ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ قِيَامًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَكَلِمَةُ (شَيْئًا) نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، وَالنَّكَرَةُ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تَفِيدُ الْعُمُومَ، إِذْنُ أَيُّ شَيْءٍ يَرِيدُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، عَلَى مُرَادِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ السَّادِسُ عَلَى إِثْبَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى إِعَادَةِ الْخَلْقِ.

الدَّلِيلُ السَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَسُبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾. وَ(مَلَكُوت) أَيُّ: مُلْكٌ، وَزِيَادَةُ الْوَاوِ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا مُلْكَ أَتَمُّ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَلَا أَبْلَغُ مِنْ مُلْكِهِ، لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى مَا أَضَافَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا مِنْ

المملوكات، فإننا لا نملكه ملكًا مطلقًا، وإنما نملكه ملكًا مقيدًا، فتصرف فيه حسب شريعة الله. حتى ما تملكه أيها العبد من المال، ومن الأرقاء، ومن الحيوان، فإنك لا تملكه ملكًا مطلقًا، إنما ملكك إياه ملك مقيد بحسب شريعة الله تبارك وتعالى، فالملك المطلق لله عز وجل ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، فكل شيء فملكه بيد الله عز وجل.

الدليل الثامن: نأخذ من قوله: ﴿فَسُبْحَنَ﴾ أيضًا دليلًا على إمكان قدرة الله عز وجل على إعادة الخلق؛ ذلك لأن كلمة (سبحان) معناها: تنزيهاً لله، وتنزيه الله تبارك وتعالى يكون عن أمرين: عن كل نقص في صفاته، وعن مماثلة المخلوقين ومشابهمهم، فهو منزّه عن كل نقص، ومنزّه عن مماثلة المخلوقين ومشابهمهم، وإذا كان منزّهًا عن كل نقص، فإن عدم القدرة نقص، وعلى هذا فيكون في كلمة (سبحان) دليل على إمكان إعادة الخلق، وأن ذلك لا يعجز الله عز وجل؛ لأنه لو كان يعجزه لكان نقصًا، والله تعالى منزّه عن النقص.

الدليل التاسع: قوله تعالى: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ فإن هذا دليل على أن البعث لا بد منه، وهو دليل ليس على إمكان البعث فقط، ولكن على وجوب البعث، وأنه لا بد لهذه الخليقة أن تبعث، وتجازى على أعمالها؛ لأنها لو لم تبعث، وكانت أرحامًا تدفع وأرضًا تبلع؛ لم يكن لهذا الخلق من حكمة، والله تبارك وتعالى منزّه عن السفه في فعله؛ لأنه - جل في علاه - كامل الحكمة.

وعلى هذا فيكون في قوله: ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ دليل على إمكان البعث، وعلى وجوب البعث، وأنه لا بد أن يكون البعث حتى يجازى كل إنسان بما عمل؛ إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

المهمُّ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَّ فِي كِتَابِهِ الْأَدْلَةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالْحِسِّيَّةَ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ، وَأَنَّهُ أَمْرٌ لَا بَدَّ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا آمَنَ الْإِنْسَانُ بِهِ، وَتَقَرَّرَ فِي ذِهْنِهِ فَلَا بَدَّ أَنْ يَعْمَلَ لِهَذَا الْيَوْمِ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ، وَيُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٍ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ.

وهذه الجملة ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُوجِبَةٌ لِلْبَعْثِ، فَضْلًا عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى إِمْكَانِ الْبَعْثِ.

وَإِذَا شِئْنَا أَنْ نَكْمَلَ الْعُقْدَ الْعَشْرَةَ أَمْكِنَّا أَنْ نَضِيفَ مَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُوَ ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ فَإِنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ هَذَا الْمَاءِ الْمَهِينِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَ خَلْقَهُ مِنْ عِظَامٍ هِيَ رَمِيمٌ، فَتَكُونُ الْأَدْلَةُ هُنَا عَشْرَةً أَدْلَةٍ مَعْقُولَةٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدرس الرابع:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ تَعَالَى؛ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّدًا عبده ورسوله، بَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وأدى الأمانة، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وتركها على بَيضَاءِ نَقِيَّةٍ، لا يَزِيغُ عنها إِلَّا هَالِكٌ، فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢﴾
 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿[يس: ٥١-٥٤].

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هَذَا الْفِعْلُ (نُفِخَ) مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَالْفَاعِلُ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ هُوَ إِسْرَافِيلُ؛ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ الْعِظَامِ، وَكَلَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِنَفْخِ الصُّورِ، وَهُوَ يَنْفُخُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ. وَالنَّفْخُ فِي الصُّورِ مَرَّتَانٍ؛ الْمَرَّةُ الْأُولَى: يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَفْزَعُ الْخَلَائِقُ، ثُمَّ تَصْعَقُ؛ لِأَنَّهُ يُحْدِثُ صَوْتًا عَظِيمًا يَفْزَعُ مِنْهُ النَّاسُ، ثُمَّ تَقْطَعُ الْقُلُوبُ، فَيَصْعَقُ النَّاسُ جَمِيعًا، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾

و(الصُّور) ذكر العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُ قَرْنٌ عَظِيمٌ وَاسِعٌ؛ سَعَتُهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، تَجْتَمِعُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ، فَإِذَا نَفَخَ فِيهِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةَ خَرَجَتِ الْأَرْوَاحُ مِنْهُ، وَحَلَّتْ كُلُّ رُوحٍ فِي جَسَدِهَا الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ فِي الدُّنْيَا لَا تُخْطِئُهُ؛ لِأَنَّهَا أُمِرَتْ بِهَذَا؛ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾؛ (الأجداث) جمعُ جَدَثٍ، وَهُوَ الْقَبْرُ؛ أَيِ إِذَا النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ يُسْرِعُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، يُسْرِعُونَ لِأَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى الْمَحْشَرِ لِيُقْضَى بَيْنَهُمْ، يَقْضِي بَيْنَهُمُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَضَاءً دَائِرًا بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، بَيْنَ الْعَدْلِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكَافِرِينَ، وَالْفَضْلِ بِالنِّسْبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ الْكَافِرَ يُجْزَى عَلَى حَسَبِ سَيِّئَاتِهِ، وَالْمُحْسِنُ الْمُؤْمِنُ يُجْزَى الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضَعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

﴿قَالُوا﴾ أَيِ: الْمَكْذُوبُونَ بِالْبَعْثِ ﴿يَوَيْلَنَا مِنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ مِنَ الَّذِي بَعَثَنَا مِنَ الْمَرْقَدِ؛ وَهُوَ مَكَانُ أَجْدَاثِهِمْ؟ فَيُقَالُ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْجَوَابُ مِنْ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، أَوْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَحَدِ الْمَلَائِكَةِ، إِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ يُقَالُ لَهُمْ.

وَبَعَثُ هَذِهِ الْأُمَمِ الْعَظِيمَةِ؛ الَّتِي لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا خَالِقُهَا جَلَّوَعَلَا لَنْ يَسْتَغْرُقَ وَقْتًا كَثِيرًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً يُصَاحُّ بِهِمْ، فَيُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ، وَيُحْضَرُونَ جَمِيعًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[النَّازِعَات: ١٣-١٤]، أَيِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، صِيحَةً وَاحِدَةً يُصَاحُّ بِهِمْ،

فَيَخْرُجُونَ أَحْيَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا الْبَعْثُ لَيْسَ بِصَعْبٍ، وَلَا بِعَسِيرٍ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّوْا الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، فَبِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ يُحْيَا النَّاسُ، وَيُبْعَثُونَ، وَيَأْتُونَ إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ. نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَخَفِّفَ عَنَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ.

وَهَذَا الْيَوْمُ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرٌ يَسِيرٌ﴾ [المدثر: ١٠]، فَلَيْسَ فِيهِ يُسْرٌ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، بَلْ هُوَ عَسِيرٌ فِي جَمِيعِ الْمَوَاقِفِ. نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، لَا تُظْلَمُ بِنَقْصٍ وَلَا زِيَادَةٍ؛ بِنَقْصٍ مِنَ الْحَسَنَاتِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي السَّيِّئَاتِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، حَتَّى الْكَافَرُ يُعَذِّبُونَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُظْلَمُونَ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْبَعْثِ وَعَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَذَكَرَ أُدْلَى حَسْبِيَّةً وَأَدْلَى عَقْلِيَّةً، وَذَكَرَ وَقَائِعَ مُحْسُوسَةً شُوْهِدَتْ بِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى.

وفي سورة البقرة خمس قصص فيها إحياء الموتى:

القصة الأولى: قصة بني إسرائيل؛ حين قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، فأخذتهم الصاعقة وماتوا، ثم بعثهم الله تعالى بعد موتهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦].

القصة الثانية: قصة قتل بني إسرائيل في قصة البقرة؛ قبيلتان من بني إسرائيل قتل من أحدهما رجل، فاتهموا القبيلة الأخرى، وادَّارُوا فيها، ثم أمرهم موسى ﷺ أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا هذا القتل بجزء منها، فيحيا القتل بإذن الله، ويقول: الَّذِي قَتَلَنِي فَلَانٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا قَالْ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فعجبوا من ذلك؛ كيف نذبح بقرة لنستدل بذبحها على قاتل القتل؟! وقالوا لموسى: ﴿أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا﴾؛ أي: أتستهزئ بنا؟ ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]؛ لأن من اتخذ عباد الله هُزُؤًا فهو جاهل، ظالم، معتد.

فلو أنهم ذبحوا أي بقرة لحصل المقصود؛ لأن موسى قال: ﴿تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾؛ فلو ذبحوها من أول الأمر لكفاهم أي بقرة يذبحونها، ولكنهم قالوا تعنتا وتشدداً، فشدد الله عليهم: ﴿قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ أي ما سنُّها أكبرة هي أم صغيرة؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]؛ ولو ذبحوا أي بقرة لأجزأت، على أي لون، لكنها بهذا السن؛ سن وسط؛ لا فارض كبيرة، ولا بكر صغيرة.

لكنهم لم يكتفوا بهذا ﴿قَالُوا آدُعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿البقرة: ٦٩﴾؛ شَدَّدَ عَلَيْهِمْ حَتَّى فِي اللَّوْنِ؛ ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ يعني أن صُفْرَتَهَا شديدة، فاقعة، الثالث: ﴿تَسُرُّ النَّظِيرِينَ﴾ فليست صفراء تَسُوءُ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا، وَهَذَا فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّشْدِيدِ.

وَلَكِنَّهُمْ مَا اكْتَفَوْا بِذَلِكَ؛ بَلْ طَلَبُوا أَيْضًا تَعْنُتًا وَتَشَدُّدًا أَوْصَافًا أُخْرَى، ف ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠]، كلام عَجْرَفَةٍ، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا أَأَلْئِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] أوصاف ثلاثة: (لا ذلول) يعني ليست مُذَلَّلَةً، مُهَانَةً، (تثير الأرض) فيُحَرِّثُ عَلَيْهَا، (تسقي الحرث) فيُسْتَقَى بِهَا، (مُسَلِّمَةٌ) يعني سليمة من كل عيب، (لا شية فيها) لا عيب فيها إطلاقًا.

بعدها قالوا: ﴿أَلْئِنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ كلامٌ كبرياء والعياذُ بالله، وكأنَّه قَبْلُ لَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: ذَبَحُوهَا بَعْدَ أَنْ بَعُدَ فِعْلُهُمُ الذَّبْحَ، (وما كادوا) أي ما قربوا أَنْ يَفْعَلُوا إِلَّا بَعْدَ أَلَّتِي وَاللَّتِيَا.

قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، فضرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، هَذَا الْبَعْضُ لَيْسَ لَنَا حَاجَةٌ فِي أَنْ نَعْرِفَ مَا هَذَا الْبَعْضُ أَهْوِ الرَّجُلُ أَوِ الْيَدُ أَوِ الضِّلَعُ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

فضرِبُوهُ، فَأَحْيَا اللَّهُ هَذَا الْمَيِّتَ الْقَتِيلَ، وَقَالَ: إِنَّ الَّذِي قَتَلَنِي فَلَانٌ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

القصة الثالثة: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف؛ لأنه نزل في ديارهم وباء، فقالوا: اخرجوا، فخرجوا حذر الموت، فقال الله لهم: موتوا، فماتوا.

فإن قال قائل: هل هذا القول كوني أو شرعي؟

فالجواب: أولاً الأقوال الإلهية ثلاثة: كوني، وشرعي، وكوني شرعي، وهذه القسمة ليس لها رابع.

فهذا الأمر أمر كوني؛ لأن الإنسان لا يملك أن يميت نفسه، لكن يملك أن يقتل نفسه؛ ولهذا كانت توبة بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، قال الله لهم: موتوا؛ وهذا أمر كوني، فماتوا، ثم أحياهم الله ليتبين لهم أنه لا مفر من قضاء الله وقدره، وأن الإنسان مهما فر من قضاء الله وقدره فالله مذكره، ولا محالة، فعرفوا الآن أنه لا مفر من قضاء الله وقدره، وأن الذي يريد أن يفر من قضاء الله وقدره جاهل.

ولهذا قال النبي ﷺ فيمن وقع في أرضهم الطاعون: «إِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ، وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا فِرَارًا مِنْهُ» لأنكم لا تفرون من قضاء الله وقدره «وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ فِي أَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِ»^(١).

وفي هذا قصة وقعت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج متوجهاً إلى الشام، وفي أثناء الطريق بلغه أن الطاعون وقع في الشام، وهو طاعون عظيم يسمى طاعون عمواس، فتوقف عن السير؛ لأنه بين أمرين؛ إما أن يقدم على هذه البلاد الوبيئة، فيهلك الناس بذلك، أو يرجع فيكون في هذا شيء من نقص التوكل على الله.

وكان من عادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سدادِ رأيه وموافقته للصواب؛ أن يستشير الصحابة في الأمور المهمة، فاستشار الصحابة، فاختلَفوا على رأيين؛ منهم مَنْ قَالَ: نَعْتِمِدُ عَلَى اللَّهِ وَنَقْدُمُ، ومنهم مَنْ قَالَ: نَرْجِعُ لَيْلًا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا لِلْهَلَاكِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فاختلَفوا على قولين، فجمع المهاجرين الأولين لأنه كان يَنْتَخبُهُمُ الْأَفْضَلَ فَالْأَفْضَلَ، وَالْأَمْثَلَ فَالْأَمْثَلَ، فَاتَّفَقَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى أَنْ يَرْجِعَ، فَوَفَّقُوا لِلصَّوَابِ، فَقَرَّرَ الرُّجُوعَ.

فأتى إليه أبو عبيدة عامر بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ (أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)، فَقَالَ: «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟». وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُجِلُّ أَبَا عُبَيْدَةَ إِجْلَالًا عَظِيمًا حَتَّى قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ: «لَوْ أَدْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ فَاسْتَخَلَفْتُهُ وَمَا شَاوَرْتُ فِيهِ فَإِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ، قُلْتُ: اسْتَخَلَفْتُ أَمِينَ اللَّهِ وَأَمِينَ رَسُولِهِ»^(١)؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»^(٢).

فقال له عمر: «لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفَرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ»؛ يَعْنِي: أَتَمْنَى أَنْ غَيْرَكَ هُوَ الَّذِي قَالَهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهَا أَنَّهَا فِقْهٌ، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ فِقْهًا فِي الْوَاقِعِ؛ فَالْفِقْهُ فِي الْوَاقِعِ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ، وَوَأَفَقَهُمْ عَلَيْهِ سَدِيدُ الرَّأْيِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه ابن الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٧٤٢)، رقم (١٢٨٥)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٤١٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، رقم (٤٣٨٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، رقم (٢٤١٩).

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا؛ قَالَ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطْتَ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ»
 أَيِ شَعْبَتَانِ «إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَذْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا
 بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَذْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ». فَأَقْنَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 أَبَا عُبَيْدَةَ بِهَذَا الْمَثَالِ الْحَيِّ، وَبَيْنَمَا هُم كَذَلِكَ إِذْ جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 وَكَانَ قَدْ تَغَيَّبَ فِي حَاجَةٍ لَهُ، وَسَمِعَ بِالْخَبَرِ، فَحَدَّثَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:
 «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ، فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا
 فِرَارًا مِنْهُ». فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثُمَّ انْصَرَفَ^(١).

إِذْ صَارَ رَأْيُ الْمُهَاجِرِينَ وَعُمَرُ هُوَ الرَّأْيُ السَّيِّدُ؛ الْمَوَافِقُ لِلسَّنَةِ. فَهَذِهِ
 مَصْلَحَةُ الْمَشُورَةِ، وَالنَّاسُ إِذَا تَشَاوَرُوا بِقَصْدٍ حَسَنٍ، مَعَ كِمَالِ الرَّأْيِ، فَإِنَّهُمْ يُوَفِّقُونَ
 لِلصَّوَابِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ هَذَا يُعَارِضُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا
 مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]؟

فَالْجَوَابُ: لَا مُعَارَضَةَ؛ لِأَنَّ الصُّورَةَ مُخْتَلِفَةٌ، فَالَّذِينَ فِي الْآيَةِ خَرَجُوا مِنَ الْبِلَادِ
 بَعْدَ أَنْ وَقَعَ فِيهَا الْوَبَاءُ، وَأَمَّا قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ الصَّحَابَةِ فَامْتَنَعُوا عَنْ دُخُولِ أَرْضٍ فِيهَا
 الْوَبَاءُ.

وَلِهَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الْفَقْهِ الَّتِي يَنْبَغِي لِكُلِّ فَاقِهِ أَنْ يَعْرِفَهَا، وَهِيَ قَاعِدَةٌ مَعْرُوفَةٌ:
 الدَّفْعُ أَسْهَلُ مِنَ الرَّفْعِ، يَعْنِي دَفْعُ الشَّيْءِ قَبْلَ وَقُوعِهِ أَسْهَلُ مِنْ رَفْعِهِ بَعْدَ وَقُوعِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الطَّبِّ، بَابُ مَا يَذْكَرُ فِي الطَّاعُونَ، رَقْمُ (٥٧٢٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ
 السَّلَامِ، بَابُ الطَّاعُونَ وَالطَّيْرَةِ وَالْكَهَانَةِ وَنَحْوَهَا، رَقْمُ (٢٢١٩).

وهناك قاعدةٌ طبيةٌ: يقولون: الوقايةُ خيرٌ من العلاج.

القصةُ الرَّابعةُ: قصةُ الَّذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عُروشها.

فهذا رجلٌ مرَّ على قريةٍ، والقريةُ في اللُّغة العَرَبِيَّةِ ليستُ هي القريةُ في العُرفِ، فعندنا القريةُ هي البلدةُ الصغيرةُ، لكنَّها في اللُّغة العَرَبِيَّةِ تُطلقُ على أكبرِ المُدنِ ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، وعلى هَذَا إِذَا قَالَ لَكَ إِنْسَانٌ: يَا ابْنَ الْقَرْيَةِ، فَلَا تَغْضَبْ؛ لَأَنَّهُ إِذَا قَالَ: يَا ابْنَ الْقَرْيَةِ، فربما تكون هذه القريةُ مدينةً كبيرةً.

فَهَذَا الرَّجُلُ مرَّ على قريةٍ، وهي خاويةٌ على عُروشها، ميتةٌ، هامدةٌ، أوراقيها يابسةٌ، وأشجارُها مُحترقةٌ، فقال إمَّا بلسانه أو بحاله؛ يعني أَنَّهُ قَدَّرَ في نفسه أو قال بلسانه: ﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والقولُ في الآيةِ يُحمَلُ على القولِ باللسانِ؛ لأنَّ الأصلَ حملُ الكلامِ على ظاهره، وأنه قال بلسانه، لا بحاله.

فإذا قال إنسانٌ: كيف تقولون: قال بلسانه، هل معه أحدٌ؟

قلنا: نعم، معه أحدٌ، فقد يكونُ مع جماعةٍ ومروا وتحدثوا، وقال: كيف يحيي

الله الأرض بعد موتها؟

أَرَادَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِهَذَا الرَّجُلِ الْخَيْرَ ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴿[البقرة: ٢٥٩]﴾ اللَّهُ أَكْبَرُ! قال العلماءُ: إِنَّمَا قَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ؛ لَأَنَّ اللَّهَ أَمَاتَهُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ ثُمَّ بَعَثَهُ فِي آخِرِهِ، فَظَنَّ أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ هُوَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَقَالَ: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

وفي هذا دليلٌ على أن الموتى في قبورهم؛ الذين لهم ملايين السنين لا يحسبون أنهم أقاموا إلا يوماً أو بعض يوم. ونظير ذلك في المحسوس أن الإنسان النائم إذا كان نومه لذيذاً، ربما ينام اثنتي عشرة ساعة، وإذا قام ظنَّ أنه لم ينام إلا خمس دقائق، أما إذا كان نومه غير لذيذ، وكانت المرائي تروح وتجيء في نومه، ويتقلب في فراشه، فسيكون النوم طويلاً.

على كل حال الإنسان إذا غاب بنوم أو موت، فإن الأيام ستمرُّ به سريعة كأنها ساعة واحدة، انظر إلى أصحاب الكهف؛ لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعاً، ولما استيقظوا قال بعضهم لبعض: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فهذا الرجل قال: لبثت يوماً أو بعض يوم، فقال الله له: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهنا فائدة: التاء في قوله: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ بالفتح للمخاطب، وفي قوله: ﴿لَبِثْتُ﴾ يَوْماً بالضم للمتكلم؛ فالتاء إذا كنت مخاطب أحداً افتحها، وإذا كنت تتحدث عن نفسك ضمها.

إذن ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ يخاطبه الله عز وجل ﴿قَالَ لَبِثْتُ﴾ يتحدث عن نفسه ﴿يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةً عَامٍ ﴿[البقرة: ٢٥٩].

ثم أراه الله تعالى آية من آيات الله: ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ يعني عظام الحمار ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

يقول الله عزَّوجلَّ: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغيَّر، والهَاءُ في قوله: (يتسنَّه) للسَّكْت؛ وهَاءُ السَّكْتِ هي الَّتِي يُؤْتَى بِهَا فِي آخِرِ الْكَلَامِ سَاكِنَةً. وفي سُورَةِ الْحَاقَّةِ: ﴿فَيَقُولُ يَلِّتَنِي لِمَ أُوتِ كِتَابِيَّةً﴾ [الحاقة: ٢٥] فالهَاءُ هُنَا لِلْسَّكْتِ، وليست ضميرًا.

أما قوله: ﴿يَلِّتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧] فليست هَاءُ السَّكْتِ، بل هي تَاءٌ لِلتَّأْنِيثِ، و﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ [الحاقة: ٢٨] لِلْسَّكْتِ، و﴿هَلَاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةً﴾ [الحاقة: ٢٩] لِلْسَّكْتِ.

إِذْنُ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ الهَاءُ لِلْسَّكْتِ؛ أي لم يتغيَّر؛ فالطَّعَامُ وَالشَّرَابُ بَقِيَ مِئَةَ سَنَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَلَمْ يَجِفَّ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ لَوْنُهُ وَلَا طَعْمُهُ، وَلَا رِيحُهُ، مَعَ أَنَّ الطَّعَامَ عَادَةً إِذَا بَقِيَ يَوْمًا وَلَيْلَةً يَفْسَدُ، وَالْمَاءُ كَذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُن جَارِيًا يَفْسَدُ، يَكُونُ آجِنًا^(١)، وَهُنَا مِئَةَ سَنَةٍ وَلَمْ يَتَغَيَّرْ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! مِئَةَ سَنَةٍ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلشَّمْسِ وَالرِّيَّاحِ وَالْغُبَارِ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ هَذَا الطَّعَامُ!

قال بعض العلماء: «إِنَّ الطَّعَامَ كَانَ مِنَ الْعَنِيبِ»، وَلَكِنْ هَذَا لَا يُهِمُّنَا مِنْ عَنِيبٍ أَوْ مِنْ غَيْرِ الْعَنِيبِ، الْمَهْمُ أَنَّ طَعَامًا، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ.

قال: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾، نَظَرَ إِلَى الْحِمَارِ فَإِذَا الْحِمَارُ قَدْ مَاتَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْحِمَارِ إِلَّا عِظَامُهُ تَلُوحُ -سَبْحَانَ اللَّهِ- الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَالْحِمَارُ تَغَيَّرَ تَغْيِيرًا عَظِيمًا، فَمَا بَقِيَ إِلَّا عِظَامُهُ.

قال: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾؛ فَنَظَرَ

(١) الماء الآجن: هو المتغير الطعم واللون. النهاية في غريب الحديث (أجن).

إلى العظام يركب بعضها ببعض، ويخلق الله العصبَ فينشز بعضها ببعض، وهو يشاهد، ثم يكسوها اللحم حتى تم الحمار؛ فهذه من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته جلَّ وعلا.

فهنا مُتناقضان عظيمان؛ طعامٌ وشرابٌ لم يتغير، وحمارٌ تغير، ويشاهده وهو يُحييه الله عزَّ وجلَّ أمام عينه.

قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فمن الله على هذا الرجل بأن أراه آيةً يصلُّ بها إلى اليقين، وهذه من نعمة الله عليك أيها الإنسان، فإذا منَّ الله عليك بشيءٍ يوصلُك إلى اليقين فاحمدِ الله، فكم من أناسٍ كانوا في شكٍّ وقلقٍ وريبٍ ولم يؤمنوا بالغيب، فإذا منَّ الله عليك بالإيمان بالغيب، وكأنها تشاهد ما أخبر الله به ورسوله، فاعلم أن هذا من نعمة الله عليك.

القصة الخامسة: قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إبراهيم عليه الصلاة والسلام إمام الحنفاء، حتى قال الله لنبيه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال إبراهيم يوماً من الأيام: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ لأنَّ الإنسان يطمئنُّ إلى ما شاهد أكثر ممَّا يطمئنُّ إلى ما أخبر به، ولا شكَّ، كما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَانَةِ»^(١).

وإبراهيمُ والله ما شكَّ، بل قد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ

مِنْ إِبْرَاهِيمَ»^(١). يعني إن كان شكُّ من إبراهيم فنحن أولى مع أننا لم نشكَّ، ولكن إبراهيم أراد ذلك حتى يستقرَّ الإيمان في قلبه استقرارًا بطمأنينة تامّة، ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لَّيَطْمِئَنَّ قَلْبِي﴾، فأمره الله فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ أي ضُمَّهُنَّ إِلَيْكَ؛ يعني بعد أن يذبحهنَّ، ويخلط اللحم والريش والعظم ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وكان حوله جبال أربعة، فجعل على كل جبل جزءًا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ يعني أيتها الطيور أقبلي، فدعاهنَّ، فجاءت تسعى، الله أكبر! لحم وعظم وريش ودم مخلوطة، ثم اجتمع كل جزء إلى أصله وجاءت تسعى إلى إبراهيم ﴿وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فهذه خمس قصص في سورة واحدة؛ وهي سورة البقرة، وقعت بالفعل، حيث أحيى الموتى في الدنيا.

أما الأدلة العقلية والحسية على إثبات البعث فإنها كثيرة في القرآن، فمنها مثلاً أن الله استدللَّ على قدرته على إحياء الموتى بالأرض: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وهذا دليل حسيٌّ مُشاهد، وأمّا الأدلة العقلية فسبق لنا ذكر شيء منها فيما سبق.



(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبِّئُهُم عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٥١) إذ دخلوا عليه ﴿[الحجر: ٥١ - ٥٢]، رقم (٣٣٧٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، رقم (١٥١).

الدَّرْسُ الْخَامِسُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١-٧٣]؛ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ يَقَرِّرُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مَا خَلَقَهُ لِعِبَادِهِ وَسَخَّرَهُ لَهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ؛ وَهِيَ الْإِبِلُ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا وَيَشْرَبُونَ مِنْهَا، وَهِيَ مَذَلَّلَةٌ لَهُمْ غَايَةَ التَّذْلِيلِ، تَجِدُ الصَّبِيَّ الصَّغِيرَ مِنَ الْبَادِيَةِ أَوْ غَيْرِ الْبَادِيَةِ يَقُودُ هَذَا الْبَعِيرَ الْكَبِيرَ فِي السَّنِّ إِلَى مَا يُرِيدُ؛ يَقُودُهُ لِيَذْبَحَهُ وَيَأْكُلَ مِنْهُ، يَقُودُهُ لِيَشْرَبَ لَبَنَهُ، يَقُودُهَا لِيَتَفَعَ بِشُعُورِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَنَافِعِ الْكَثِيرَةِ، فَمَنِ الَّذِي ذَلَّلَ لَنَا هَذِهِ الْأَنْعَامَ؟ إِنَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧٢-٧٣].

وَقَدْ اسْتَمَعْنَا إِلَى تَقْرِيرِ الْبَعْثِ وَجَوَازِهِ حَسًّا وَعَقْلًا، بِمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٨]؛ يَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْمُنْكَرُ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ يَعْنِي: فَتِيَتْ، لَا رُوحَ فِيهَا، وَلَا مَاءَ، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ، أَجَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٩]؛ يَعْنِي: اسْأَلْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ نَفْسَكَ؛ مِنَ الَّذِي أَنْشَأَ هَذِهِ الْعِظَامَ؟ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، فَمَنْ هُوَ إِلَّا اللَّهُ؟! وَالَّذِي أَنْشَأَهَا

أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهَا كَمَا كَانَتْ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، هذا الدليل أن الله تعالى قادرٌ على إحياء الأموات؛ أَنَّهُ أَنْشَأَ الْعِظَامَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ؛ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهَا فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، هذا دليل آخر؛ يعني: أَنَّهُ عَزَّجَلَّ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ كَيْفَ يَخْلُقُ حَتَّى نَقُولَ: إِنَّهُ عَاجِزٌ، بَلْ يَخْلُقُ مَا شَاءَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

وَمِنَ الْأَدِلَّةِ أَيْضًا قَوْلُهُ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]؛ الشَّجَرُ الْأَخْضَرُ شَجَرٌ مَعْرُوفٌ بِالْحِجَارِ، يُوقِدُ النَّاسُ مِنْهُ النَّارَ؛ يَضْرِبُونَهُ بِالزُّنْدِ، ثُمَّ يَشْتَعِلُ، ثُمَّ يُوْقِدُونَ، فَالَّذِي أَخْرَجَ النَّارَ الْحَارَّةَ الْيَابِسَةَ مِنْ هَذَا الشَّجَرِ؛ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَا يَعْجِزُهُ؛ لِأَنَّ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ رَطْبٌ وَبَارِدٌ، وَالنَّارُ بِالْعَكْسِ، فَالْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ النَّارَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَعْدَ الْمَوْتِ.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: ٨١]؛ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ؛ يَعْنِي: الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ؛ لِأَنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ ﴿[يس: ٨١-٨٢]﴾؛ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ مَهْمَا كَانَ، انْظُرْ إِلَى الْبَعْثِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]؛ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَيَحْضُرُ الْعَالَمُ كُلُّهُ، وَقَالَ عَزَّجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿[النَّازِعَات: ١٤]﴾ أَي: عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ.

﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]؛ أي: إِنَّ اللَّهَ نَزَّهَ
نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، فَقَالَ: ﴿فَسُبْحَنَ الَّذِي يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ﴾، إِذْ بَعَثَ حَقُّ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، فَمَنْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ
مُرْتَدٌّ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].



سورة ﴿ص﴾

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاقِي ﴿

[ص: ١-٢].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿صَّ﴾، صَادَ حَرْفٌ مِنَ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ، وَالْحُرُوفُ الْهَجَائِيَّةُ هِيَ: أَلِفٌ، بَاءٌ، تَاءٌ، ثَاءٌ، إِلَى آخِرِهِ، وَهِيَ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفًا، فَكُلُّ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ تَتَكُونُ مِنْ ثَمَانِيَّةٍ وَعِشْرِينَ حَرْفًا، وَصَادُ أَحَدُ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْحُرُوفِ هَلْ لَهَا مَعْنَى، أَوْ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: ذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ لَهَا مَعْنَى، وَأَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ الَّتِي فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّورِ رَمُوزٌ لِمَعَانٍ عَيْنُوهَا.

الْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَهَا مَعْنَى، لَكِنَّهُ لَيْسَ مَعْلُومًا لَنَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أَرَادَ.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا، ذَكَرَهُ ابْنُ كَثِيرٍ

عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ الْأَقْرَبُ لِلصَّوَابِ، والدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنُزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وهذه الحروف الهجائية بِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى، وَهَذَا قَوْلٌ قَوِيٌّ وَمُنَاسِبٌ تَمَامًا لَكُونَ الْقُرْآنَ عَرَبِيًّا.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَأْتِي الْحُرُوفُ وَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى؟

الْجَوَابُ: هِيَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا، وَلَكِنْ لَهَا مَغْزَى عَظِيمٌ جَدًّا، وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَعْجَزَكُمْ أَيُّهَا الْعَرَبُ الْفَصَحَاءُ الْبُلْغَاءُ لَمْ يَأْتِ بِأَشْيَاءَ جَدِيدَةٍ مِمَّا تُرَكِّبُونَ مِنْهُ كَلَامَكُمْ، وَإِنَّمَا أَتَى بِالْحُرُوفِ الَّتِي تُرَكِّبُونَ مِنْهَا كَلَامَكُمْ، فَلَوْ أَتَى بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ لَيْسَتْ مَعْهُودَةٌ فِي كَلَامِكُمْ لَقُلْتُمْ هَذَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ؛ لَكِنَّهُ أَتَى بِالْحُرُوفِ الَّتِي تُرَكِّبُونَ مِنْهَا كَلَامَكُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْجَزَكُمْ؛ وَلِهَذَا لَا تَرَى سُورَةً مَبْدُوءَةً بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ إِلَّا وَبَعْدَهَا ذِكْرُ الْقُرْآنِ، أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ:

فَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة: ١-٢].

وَفِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ

الْكِتَابُ﴾ [آل عمران: ١-٢].

وفي سورة الأعراف: ﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴿[الأعراف: ١-٢].

وفي سورة يونس: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١].

وفي سورة هود: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وفي سورة يوسف: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١].

وفي سورة الرعد: ﴿الْمَرْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: ١].

وفي سورة إبراهيم: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وفي سورة الحجر: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

وفي سورة مريم: ﴿كَهَيْعَصَ ١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ﴿[مريم: ١-٢]، وهذا لا يكون إلا بالوحي.

وفي سورة طه: ﴿طه ١﴾ مَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿[طه: ١-٢].

وفي سورة الشعراء: ﴿طسَمَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿[الشعراء: ١-٢].

وفي سورة النمل: ﴿طسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١].

وفي سورة القصص: ﴿طسَمَ ١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿[القصص: ١-٢].

وفي سورة العنكبوت: ﴿الْمَ ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿

[العنكبوت: ١-٣]، هذه ليس فيها ذكرٌ للقرآن، لكن فيها الجهادُ في سبيلِ الله الذي به إعزازُ القرآن، وإرغامُ الناسِ لأحكامه.

وفي سورة الروم: ﴿الْم ۝ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ۝﴾ [الروم: ١-٣]، ليس فيها ذكرُ القرآن، لكن فيها ما يتعلقُ بأمورِ الغيبِ في المستقبل، وهذا لا يكونُ إلا بالوحي. وهلمَّ جَرًّا.

فهذه الحروفُ الهجائيةُ لها مغزى عظيمٌ، وهو أن هذا القرآن الذي أعجزكم معشر العرب لم يأت بحروفٍ جديدةٍ، وإنما أتى بحروفٍ تُركبون منها كلامكم، ومع ذلك عجزتم عن الإتيان بمثله.

قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝﴾ [١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ [ص: ١-٢].

أقسمَ الله بالقرآن لعظمته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْسِمُ بكلماته، ويقسمُ بمخلوقاته؛ لأنها دالةٌ على عظمته عَزَّجَلَّ، فمن الإقسامِ بمخلوقاتِ الله قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشَّمْس: ١]، فأقسمَ بالشَّمْسِ وبالضحى، ومن الإقسامِ بالآياتِ مثل هذه الآية: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]، ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾، والله تعالى يُقسمُ بما شاء من خلقه، ونحن لا نُقسمُ بالمخلوقاتِ، لقولِ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»^(١)، وقال: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (١٢٥ / ٢)، (٦٠٧٢)، وأبو داود: كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء، رقم (٣٢٥١)، والترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم (١٥٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، رقم (٧٤٠١).

ولا يجوز أن نحلف بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يجوز أن أحلف بالنبىِّ فأقول: والنبىِّ لأفعلن، فلا يجوز لنا أن نقسم بالمخلوقات مهما عظم قدرها وشرفها؛ لأن ذلك من الشرك.

فإن قال قائل: أليس النبىُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنَّ صَدَقَ»^(١)، في الرجل الذي ذكر عن نفسه أنه يقوم بشرائع الإسلام قال: «أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنَّ صَدَقَ»، فحلف بأبي الرجل، وأبو الرجل مخلوق، والنبىُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعظم الناس إخلاصاً لله وأبعدهم عن الشرك به؟

فالجواب على ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا قبل النهي.

الوجه الثاني: أن هذا القسم خاص بالرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لأنه وإن حلف بغير الله لا يمكن أن يقع في قلبه تعظيم هذا المحلوف به، كما يعظم الله بخلاف غيره.

الوجه الثالث: أن هذا القسم مما يجري على اللسان بغير قصد، فهو من لغو اليمين، والذي يجري على اللسان بغير قصد لا يثبت له حكم مدلوله.

ولهذا لما قال معاذ بن جبل للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟» قَالَ: «تَكَلَّمْتُ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسُ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»^(٢)، فقوله: «تَكَلَّمْتُ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ» تكلمت أي: فقدتك،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإيمان، رقم (١١).

(٢) أخرجه أحمد (٣٦ / ٣٤٥)، رقم (٢٢٠١٦)، والترمذي أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة

الصَّلَاة، رقم (٢٦١٦)، وابن ماجه كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (٣٩٧٣).

وهل الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعو على معاذٍ بالموت والهلاكِ قاصداً ذلك، فيكونُ هذا مما يجري على اللسانِ بلا قصدٍ فلا يكونُ مترتباً عليه الحكمُ.

الوجهُ الرَّابِعُ: أن في الكلمة تحريفاً وأن أصلها أفلحَ والله، لما كانوا في أول الأمر لا يُشكّلون الكتابة، ولا يَنقُطُونها، فإن كتابة: والله، و أبيه متقاربة، ولكن هذا القول ضعيفٌ جداً، والصوابُ أن يقال هذا الحديث من المُشكلات، والنهي عن الحلف بالآباء، أو بغير الله من الأمور المُحكّمات الواضحات، والواجبُ على المؤمن عند إيراد الأدلة المحكّمة والمتشابهة، أن يأخذ بالمُحكّمة، كقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، فيردون المتشابهة إلى المُحكّم ليبقى كله مُحكّماً، فنخلص من هذا البحث والمناقشة إلى أن الحلف بغير الله شركٌ ولا يجوزُ.

فإن قال قائل: الحلف بالقرآن حلفٌ بغير الله، ويجوزُ للإنسان أن يحلف بالقرآن، فيكونُ حلفاً بغير الله؟

فالجواب: أن القرآن كلامُ الله، وكلامُ الله صفةٌ من صفاته، وصفاتُ الله تعالى يجوزُ القسمُ بها، كما يجوزُ القسمُ بذاتِ الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾.

ذي: بمعنى صاحب، أي صاحبِ الذكر، والمرادُ بالذكرِ التذكيرُ، فكأن القرآن يذكرُ الناسَ ويعظُهم.

وهناك معنى آخر: وهو الثناء والرفعة، كما قال تعالى: ﴿وَلِئِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، فمن أخذ بهذا القرآن فإنه ينال الذكر الحسن، والثناء الحسن، ويرفعه الله تعالى به درجات.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فالقرآن ذو ذكرٍ وعظمةٍ وتذكيرٍ وموعظةٍ، ولكن الذين كفروا لا ينتفعون به بل هم في عزةٍ وأنفةٍ عنه، يحتقرونه ولا يرجعون إليه ويشاققون فيه.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى الله على نبيِّنا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وأسألُ الله تعالى بمَنِّه وكرمه أن يجعلنا وإياكم ممن اتبعوهم بإحسانٍ، وأن يحشُرنا معهم يومَ الدِّينِ، وأن يَجْمَعَنَا بهم في جنَّاتِ النعيمِ، أمَّا بعدُ:

فنحنُ في أَفْضَلِ بُقْعَةٍ على وَجْهِ الأَرْضِ؛ في المَسْجِدِ الحَرَامِ، الذي جعله اللهُ تعالى مَثَابَةً للناسِ وأَمْنًا، الذي يَأْمَنُ فيه حَتَّى الجَمَادُ، فالأشجارُ لا تُقَطَّعُ، والشُّوكُ لا يُعْضَدُ.

نَتَنَاولُ قِصَّةَ نَبِيٍِّّ من الأنبياءِ، افترى عليه اليَهُودُ كَذِبًا، وما أيسَرَ الكَذِبَ عندَ اليَهُودِ والخِيَانَةِ، فهم أَهْلُ غَدْرٍ، وَأَهْلُ خِيَانَةٍ، وَأَهْلُ بُهْتٍ، كلما عَاهَدُوا عهدًا نبَّذَهُ فريقٌ منهم؛ ولهذا لا يُؤْمَنُ شَرُّهُمْ إِلَّا بالقضاءِ عليهم، ونسألُ الله تعالى أن يُذِلَّهُمْ ويَحْذِلَّهُمْ، وَيَكْبِتَ دَوْلَتَهُمْ، إنه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

وَلِنَعْرِفَ هَذَا النَّبِيَّ نَسْتَمِعُ إِلَى قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وهذا هو دَاوُدُ، وهم لا يَعْتَرِفُونَ له بنبوَّةٍ ولا رسالةٍ، ولكنه عندهم مَلِكٌ.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ﴾ الاستفهامُ هنا للتشويقِ، أي يُشَوِّقُكَ إلى استماعِ هذا النِّبَأِ، والخَضَمُ أي الخُصُومُ، ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ المِحْرَابُ: هو مكانُ الصَّلَاةِ، وليس طَوَقَ القِبْلَةِ كما يَتَوَهَّمُهُ بعضُ الجُهَّالِ، فيظُنُّونه طَوَقَ القِبْلَةِ الذي يُجْعَلُ في القِبْلَةِ علامةً عليها. ولذلك نَجِدُ في بعضِ المَسَاجِدِ يُكْتَبُ على

هذا الطُّوقُ: ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، وهذا من الجهل.

﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ أي مكانَ صَلَاتِهَا، وليس طَوْقَ الْقِبْلَةِ، فانتبه أخِي المسلم حَتَّى تَعْرِفَ أَنَّ بَعْضَ الْمُهَنْدِسِينَ يَلْعَبُونَ بِعُقُولِ النَّاسِ، وَيَكْتُبُونَ مَا لَا صِلَةَ لَهُ بِذَلِكَ، عَلَى أَنَّ كِتَابَةَ الْقُرْآنِ عَلَى الْجُدْرَانِ أَمْرٌ بَدْعِيٌّ، لَا يَنْبَغِي أَبَدًا، وَفِيهِ نَوْعٌ ابْتِدَالٍ لِكَلَامِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، حَتَّى رَأَيْنَا بَعْضَ النَّاسِ يَكْتُبُ سُورَةَ الْإِحْلَاصِ، الَّتِي تُعَدُّ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، عَلَى لَوْحَةٍ عَلَى الْجُدْرَانِ تَرَاهَا كَأَنَّهَا رُمُوزٌ، فَيَجْعَلُ كَلَامَ الْعَظِيمِ نُقُوشًا عَلَى الْجُدْرَانِ.

فَإِنْ كَانَ يَكْتُبُ الْآيَاتِ عَلَى الْجِدَارِ لِيَتَبَرَّكَ بِهَا، قُلْنَا: هَذَا لَيْسَ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ، وَإِنْ كَانَ يَكْتُبُهَا يُرِيدُ أَنْ يَتْلُوَهَا النَّاسُ إِذَا جَلَسُوا، وَجَدْنَا أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَتْلُونَهَا، وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عِظَةً لِلنَّاسِ يَتَّعِظُونَ بِهَا إِذَا جَلَسُوا فِي هَذَا الْمَكَانِ، نَجِدُ النَّاسَ لَا يَتَّعِظُونَ.

فَنَرَى الرَّجُلَ يَكْتُبُ فِي مَجْلِسٍ ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٣]، وَنَجِدُ النَّاسَ يَغْتَابُونَ عِبَادَ اللَّهِ تَحْتَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، كَأَنَّهُ تَحَدُّ لِلْقُرْآنِ، وَيَكْفِي أَنْ يَكُونَ هَذَا لَيْسَ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَهُمْ أَشَدُّ مِنَّا تَعْظِيمًا لِكِتَابِ اللَّهِ، لَكِنَّهُمْ وَاللَّهُ يَرَوْنَ أَنَّ التَّعْظِيمَ فِي الْقَلْبِ، وَلَيْسَ عَلَى الْجُدْرَانِ.

وَلِذَا أَنَا أَحَدُ مَنْ كِتَابَةُ الْآيَاتِ عَلَى الْجُدْرَانِ، وَيَكْفِي أَنْ ذَلِكَ لَيْسَ مِنْ هَدْيِ السَّلَفِ، وَاللَّهُ عَزَّجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وَلَيْسَ مُجَرَّدَ اتِّبَاعٍ وَانْتِمَاءٍ إِلَى التَّابِعِينَ، ﴿وَالَّذِينَ

اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ ﴿ حَذَوْ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ، وَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ عَاطِفِيَّةً، وَمِيلًا إِلَى السَّلَفِ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُ كَيْفَ هَذِي السَّلَفِ.

نَعُودُ إِلَى قِصَّةِ دَاوُدَ، ﴿سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ أَي دَخَلُوا عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ فِي مِحْرَابِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، ﴿فَفَرَّغَ مِنْهُمْ﴾ لِأَنَّ الْبَابَ مُغْلَقٌ، وَلِهَذَا جَاءُوا مِنْ عَلَى الْجِدَارِ، فَفَرَّغَ مِنْهُمْ كَعَادَةِ الْبَشَرِ، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾ أَي نَحْنُ خَصْمَانِ، ﴿بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ لَا تُشْطِطْ، أَي: لَا تَشُقَّ عَلَيْنَا، ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً﴾.

وَهَذَا مِنْ أَدَبِ الْخَصْمِ، يَقُولُ: إِنَّ هَذَا أَخِي. أَمَّا خُصُومُنَا الْآنَ - وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، وَقَدْ نَتَخَصَّمُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا - يَقُولُ أَحَدُهُمْ: هَذَا الرَّجُلُ الْفَاجِرُ أَكَلَ مَالِي، ظَلَمَنِي فَعَلَ وَفَعَلَ. وَلَكِنَّ هَذَا يَقُولُ: هَذَا أَخِي.

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً﴾ وَالنَّجْمَةُ: الشَّاةُ، أَوِ الْأُنْثَى مِنَ الضَّأْنِ، ﴿وَلِيَ نَجْمَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا﴾، أَي: اجْعَلْنِي كَافِلًا لَهَا، أَي أَضْمَمَهَا إِلَى غَنَمِي حَتَّى تَبْتِمَ مِئَةٌ. وَلَكِنْ هَذَا لَا يَبْقَى عِنْدَهُ وَلَا شَاةٌ وَاحِدَةٌ، وَهَذَا يَكُونُ عِنْدَهُ مِئَةٌ، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فَصِيحٌ، وَ(عَزَّنِي) أَي غَلَبَنِي فِي الْخِطَابِ، أَي أَتَى بِتَعْلِيلَاتٍ أَوْجَبَتْ أَنْ أَنْقَادَ لَهُ.

فَقَالَ دَاوُدُ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾. فَصَدَّقَ الْخَصْمَ دُونَ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى خَصْمِهِ، بِقَوْلِهِ: لَقَدْ ظَلَمَكَ. وَإِنَّمَا حَمَلَ دَاوُدَ عَلَى ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى عِبَادَتِهِ؛ لِأَنَّهُ أَغْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ مِحْرَابَهُ لِيَتَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ، فَكَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ سَرِيعًا.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾

فإنه لَيَبْغِي بعضُهم على بعضٍ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يقول الحقَّ ولو على رأسه.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ و(ظَنَّ) بمعنى تيقَّن؛ لأنَّ الظنَّ يأتي بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] وقال عزَّ وجلَّ في المُجْرِمِينَ حين عُرِضُوا عَلَى النَّارِ: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، أي: أيقنوا، ﴿أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

إذن ظَنَّ داود: تيقَّن، أَنَّمَا فَتَنَّا هَذِهِ الْقِصَّةَ، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ٢٤ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّعَاقِبٍ﴾، هذه الْقِصَّةُ واضحةٌ لَيْسَ فِيهَا إِشْكَالٌ، فداوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَكَمَ بَيْنَ النَّاسِ، فَهُوَ قَاضٍ بَيْنَهُمْ، فَكَوْنُهُ يُغْلِقُ عَلَى نَفْسِهِ مُحَرَّابَهُ، وَلَا يَبْقَى مَعَ النَّاسِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، فَهَذَا قَدْ لَا يَكُونُ جَيِّدًا.

أَيْضًا لَا يَنْبَغِي لِلْحَكَمِ الْقَاضِي أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ الْخَصْمِ دُونَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى خَصْمِهِ، فَمَثَلًا إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا أَطَالِبُ هَذَا الرَّجُلَ بِأَلْفِ رِيَالٍ، وَلَكِنَّهُ يَأْبَى أَنْ يُعْطِيَنِي إِيَّاهَا، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْوَفَاءِ. فَإِنْ قُلْتَ: هُوَ ظَالِمٌ لَكَ. فَقَدْ أَخْطَأْتَ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَسْمَعَ كَلَامَ الْخَصْمِ قَبْلَ الْحُكْمِ وَتَسْأَلَهُ عَمَّا ادَّعَاهُ صَاحِبُهُ.

فهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعَجَّلَ لِيَتَفَرَّغَ لِلْعِبَادَةِ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْ وَسَائِلِ الْحُكْمِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْخَصْمِ، وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فَعَلِمَ دَاوُدُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَبَرَهُ فَتَفَطَّنَ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْتَحَ بَابَهُ لِلنَّاسِ لِيَقْضِيَ حَوَائِجَهُمْ إِذَا كَانَ مُلْزَمًا بِذَلِكَ، وَأَلَّا يَحْكُمَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ اخْتِزَاجِ الْحُجَّةِ.

﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ ٢٤ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ

مَتَابٍ ﴿الرَّبُّ الْكَرِيمُ عَزَّوَجَلَّ يَبَيِّنُ أَنَّهُ غَفَرَ لَهُ، وَإِذَا غَفَرَ كَانَ لَمْ يُذْنِبْ.

ثَانِيًا: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَتَابٍ﴾، أَيِ إِنْ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُصْهُ؛ لِأَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ، فَلَهُ عِنْدَ اللَّهِ حُسْنُ مَتَابٍ؛ لِذَلِكَ انْطَوَى ذِكْرُ هَذِهِ الْقَضِيَةِ تَمَامًا، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ -عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ- قَالُوا: إِنْ دَاوُدَ عَشِقَ امْرَأَةً أَحَدَ الْجُنُودِ، فَفَكَّرَ مَاذَا يَصْنَعُ، فَهُوَ لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْهُ قَهْرًا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقْتَلَ، فَيَأْخُذَ زَوْجَتَهُ، وَكَانَ عِنْدَ دَاوُدَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَهَذَا الرَّجُلُ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ!

هَكَذَا قَالَ الْيَهُودُ، وَهَذَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَقَعَ مِنْ أَحَادِ النَّاسِ، فَكَيْفَ يُمَكِّنُ لِنَبِيٍِّّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا، فَهُمْ وَاللَّهُ قَدْ كَذَّبُوا، وَكَذَّبُوا، فَالرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- مُبَرِّءُونَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ، لَكِنْ مَاذَا نَصْنَعُ بِأَعْدَاءِ الرُّسُلِ؟ إِنْهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّهَمُوا الرُّسُلَ بِكُلِّ سَيِّئَةٍ: بِالْكَذِبِ، وَبِالسَّحْرِ، وَبِالْجُنُونِ، وَبِالْكُفَّانَةِ، وَلَا يُبَالُونَ.

وَهَذِهِ الْقِصَّةُ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهَا فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ، قِصَّةٌ مَكْذُوبَةٌ، فَإِذَا قُدِّرَ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَقْرَأَهَا فِي كِتَابٍ مَا فَلْيُعَلِّقْ عَلَيْهَا قَائِلًا: هَذِهِ قِصَّةٌ مَكْذُوبَةٌ عَلَى نَبِيِّ اللَّهِ. حَتَّى يُبَرِّئَ الرُّسُلَ مِمَّا اتُّهَمُوا بِهِ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



الدرس الثالث:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام
المؤمنين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ

﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّنَّا لَهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ
فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً
وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى
نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا
هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

إن داود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام- نبيان رسولان من بني إسرائيل،
وداود هو أبو سليمان، يقول الله عز وجل في قصة داود: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ
إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وصفه الله تعالى أنه عبد، وإن الوصف الإنساني بكونه عبداً لله لمن أجل
أوصافه، فمن أجل أوصاف المرء أن يكون عبداً لله عز وجل؛ فإن العبودية لله أفضل
وصف يتصف به الإنسان؛ لأن الإنسان إما أن يكون عبداً لله، وإما أن يكون عبداً
للسيطان ولا بد، وما أحسن بيتاً قاله ابن القيم رحمه الله في كتابه (النونية)، قال^(١):
هَرَبُوا مِنَ الرِّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ وَبُلُوا بِرِقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

(١) متن القصيدة النونية لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ط مكتبة ابن تيمية.

يتكلم عن أهل التعطيل من الجهمية وغيرهم، فما هو الرقُّ الذي خلقنا له؟
هو الرقُّ لله عزَّوجلَّ؛ أن نكون عباداً لله، ومن لم يكن عبداً لله فإنه عبدٌ للشيطان
وهو أهو، والعبادُ بالله، ولهذا قال: «بُلُّوا بَرَقَ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ».

أقول: إن وصف الإنسان بكونه عبداً لله عزَّوجلَّ لمن أحسن وأفضل أوصافه.
قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أي ذا القوة في عبادة الله عزَّوجلَّ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾
أي رجَّاعٌ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ
أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مَعَهُ الْجِبَالَ تَسْبِيحُ لَهُ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ؛ لَأَنَّ
اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُ صَوْتًا حَسَنًا جَمِيلًا، وَأَدَاءً فَائِقًا، حَتَّى إِنْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَسَلَّمَ لَمَّا سَمِعَ أَبَا مُوسَى يَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَالَ: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ
مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»^(١) لِحُسْنِ صَوْتِهِ وَأَدَائِهِ.

فداودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى صَوْتًا وَأَدَاءً حَسَنًا، فَكَانَتِ الْجِبَالُ تَسْبِيحُ
مَعَهُ، وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ أَيْضًا تَأْوِي إِلَى صَوْتِهِ وَتَسْبِيحُ مَعَهُ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عزَّوجلَّ
وَمِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ عزَّوجلَّ لِنَبِيِّهِ دَاوُدَ.

قَالَ: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَسْبِيحُ لَهُ كُلُّ
شَيْءٍ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وَمَا شَيْءٌ ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] لَا نَفْقَهُهُ لَكِنْ اللَّهُ عزَّوجلَّ يَعْلَمُ ذَلِكَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، رقم (٥٠٤٨)،
ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٣).

أقول: إن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سخرَ اللهُ لَهُ الجبالَ تسبحُ معه والطيورَ.

قوله: ﴿كُلُّ لَهْ﴾ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاعٌ إلى الله عزَّ وجلَّ.

قوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي قوينا ملكه بما أعطاهُ اللهُ تعالى من السلطانِ والحكمِ بينَ الناسِ والجنودِ، وغير ذلك.

قوله: ﴿وَأَيَّنَّهٗ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ آتيناهُ الحكمةَ وهي وضعُ الأشياءِ في مواضعِها، وفصلَ الخطابِ أي الخطابَ الفصلَ الفاصلَ بينَ الذي يقتنعُ به كلُّ من الخصمين.

قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصِمِ﴾: (هل) هنا استفهاميةٌ، والاستفهامُ هنا للتشويق، واستعدادِ الفكرِ لما يُلقى إليه.

والخطابُ في قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ هل للرسولِ صلى اللهُ عليه وعلى آله وسلم أو لكلِّ من يتأتى خطابه؟ يعني هل الخطابُ خاصٌّ بالرسولِ أو لكلِّ أحدٍ؟

الجوابُ: لكلِّ أحدٍ، يعني هل أتاك أيها المخاطبُ نبأُ الخصمِ، ويجوزُ أن يُراد: هل أتاك يا محمدُ نبأُ الخصمِ.

قوله: ﴿نَبَأُ الْخَصِمِ﴾ أي خبرُ الخصمِ.

قوله: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ والخصمُ مفردٌ وليس جمعًا، فكيف يكونُ مفردًا ويعودُ الضميرُ عليه جمعًا: ﴿إِذْ سَوَّرُوا﴾؟

الجوابُ: إنما كانَ كذلكَ لأنَّ الخصمَ صالحٌ للواحدِ والجماعةِ، ولأنَّهُ لا بدَّ من خاصِمٍ ومخصومٍ، فلا بدَّ من جمعٍ، ولهذا قال: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾.

ونظير ذلك من بعض الوجوه قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْيِسْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلنا؛ لأن الطائفة تُطلق على الجماعة، فطائفتان مكونتان من جماعة يصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً.

قوله: ﴿سَوِّرُوا الْمَحْرَابَ﴾ يعني دخلوا من السور، والسور: الجدار، وكان داود عليه الصلاة والسلام قد دخل محرابه - يعني موضع صلاته - وأغلق الباب؛ لأنه يريد أن يتفرغ لعبادة ربه، فجاء الخصم ووجدوا الباب مغلقاً فقفزوا من الجدار.

قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ﴾ وهو يُصلي ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾ خاف؛ لأنهم جماعة تسوروا المحراب، وهو خالٍ ووحيد، والإنسان بطبيعته البشرية في مثل هذه الصورة لا بد أن يلحقه الخوف، وإن كان نبياً رسولاً، أليس موسى عليه الصلاة والسلام لما ألقى السحرة سحرهم أوجس في نفسه خيفة، فالخوف الطبيعي البشري ليس مذموماً؛ لأنه أمر تفرضه طبيعة الإنسان التي أودعها الله تعالى فيه.

فلما خاف منهم وفزع ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾. وهنا إشكال: كيف قال: ﴿خَصْمَانِ﴾ وقبلها: ﴿لَا تَخَفْ﴾ والمعروف أن المثنى يُنصب بالياء، وهذا المثنى هنا بالالف.

والجواب: أن (خصمان) ليست مفعولة لـ (لا تخف)، ولهذا ينبغي الوقوف هنا، فإذا قرأت قل: ﴿لَا تَخَفْ﴾ ثم استأنف وقل: ﴿خَصْمَانِ﴾ أي: نحن خصمان.

قال: ﴿خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تَشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ ثم عرَضوا القضية، وهي: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً﴾ هو خصم ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، وهذه جملة رقة ولطف، وليس كالخصومة التي تقع ما بين

كثير من الناس فإذا جاء الخصم إلى القاضي قال: هذا السارق المعتدي الغشاش أكال المال بالباطل، وهذا ما يصلح.

قال: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ يعني مئة إلا واحدة ﴿وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أعطني إياها ليغلق المئة، وغلبه في الخطاب؛ قال: أنت عندك واحدة تُتعبك، وأنا عندي غنم كثير تسع وتسعون نعجة، فأعطني هذه أكمل بها المئة؛ حتى يكمل العدد مني، وأنت تسلم من هذه النعجة التي ستُعبك، وغلبه في الحجة فهو صاحب بيان، قال: ﴿وَعَزَّزْنِي﴾ أي غلبني ﴿فِي الْخُطَابِ﴾ بأن قال: أنا عندي تسع وتسعون، وأنت عندك واحدة، وهذه الواحدة ستُعبك لكن أعطنيها أضُمَّها إلى غنمي حتى تُتَمَّ المئة.

﴿قَالَ لَهُ دَاوُدُ﴾ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴿ظَلَمَكَ أَي: نَقَصَكَ حَقَّكَ أَنْ تَلْبَّ أَنْ يَضُمَّ نَعَجَتَكَ إِلَى نِعَاجِهِ، وَتَبْقَى أَنْتَ بِدُونِ نَعْجَةٍ، فَهَذَا ظَلَمٌ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ وانتهت القضية.

لكن هذه القضية إذا تأملتها وجدت فيها نقصاً من بعض الوجوه:

أولاً: داود عليه الصلاة والسلام جعله الله تعالى خليفة يحكم بين الناس بالحق، والإنسان الذي بوأه الله تعالى منزلة الخلافة ليحكم بين الناس لا ينبغي أن ينفرد في وقت الحكم بين الناس ليعبد الله عبادة خاصة، وهذه نقطة مهمة، فالإنسان الذي جعله الله تعالى على عمل عام للمسلمين لا ينبغي أن ينفرد في عبادة خاصة.

ثانياً: أنه عليه الصلاة والسلام لم يأخذ حجة الخصم، بل حكم للمدعي دون أن

يسأل المدعى عليه، ودون أن يكون هناك بينة، وهذا نوعٌ من التقصير. والحامل لهذا حبُّ داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للتفرغ للعبادة، ولذلك أنهى القضيةَ فحكمَ للخصمِ بمجردِ دعواه، دونَ أن يأخذ حجةَ الآخر.

ثم إن كونَ الثاني قد سكتَ ولم يعارض هذا ليبررَ الحكمَ الذي صدرَ من داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففيه مسألةٌ تأويل.

يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي أننا اختبرناه في هذه القصة؛ أن الله ساقَ إليه هذينِ الخصمينِ فاختصما على الصفةِ التي ذكرناها ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ﴾ أي طلبَ مغفرةَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ راکعًا هنا بمعنى ساجدًا؛ لأن الخورَ إنما يكونُ من أعلى إلى أسفل؛ كخورِ الماءِ في السَّاقِيَةِ.

فهذه هي القصة، وهذا هو ظاهرُ القرآن، وأما ما ذكرَ من أخبارِ بني إسرائيل في هذه القصةِ من أن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَشِقَ امرأةَ أحدِ الجنودِ، وأرسلَ زوجها لصفِّ القتالِ لعلَّه يُقتلُ فيخلفه داودُ على هذه المرأة^(١)، فهذا والله كذبٌ، وهذا من أكذبِ الكذبِ، وأبطلِ الباطلِ، وهذا لا يُستساغُ من رجلٍ عاميٍّ من سائرِ النَّاسِ، فكيفَ بنبيٍّ من المرسلين، لكن تعلمون أن اليهودَ أصحابُ بهتٍ وكذبٍ وتلفيقٍ، وهم يدعون أن داودَ نبيٌّ وليسَ رَسُولًا، ولذلك ألصقوا به هذه التهمةَ التي لا تصدرُ من أيِّ إنسانٍ له عقلٌ ولُبٌّ، فضلًا عن نبيٍّ من الأنبياءِ، فالقصةُ واضحةٌ.

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ: احترسوا احتراسًا تامًّا من كلِّ قصةٍ تخالفُ ظاهرَ القرآن؛

(١) تفسير الطبري (٢١/١٨٢).

لأن الأمم السابقة من يعلمهم هو الله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩]. فلا مصدرَ لعلم من سبق إلا الوحي من الله عزَّ وجلَّ.

وإياكم أن تغتروا بما يوجد في بعض كتب التفسير من القصص الإسرائيلية التي تخالف ظاهر القرآن، فإنها باطلة، ويجب علينا أن نبطلها، وألا نصدق بها؛ لأن أخبار بني إسرائيل تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما شهد الوحي بصحته، فهذا مقبول؛ لأن الوحي شهد به.

والثاني: ما شهد الوحي بكذبه، فيجب علينا تكذيبه وردّه.

والثالث: ما لم يرد الوحي بتصديقه ولا تكذيبه، فهذا نتوقف فيه، ولكن لا بأس أن نقصّه؛ لأن النبي ﷺ يقول: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»^(١).

وهذه القصة التي ذكرت في بني داود هل القرآن يكذبها أو لا؟

الجواب: نعم؛ لأن القرآن ما قصّها على هذا الوجه، ثم إن مقام النبي داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أيضًا منزه عنه؛ لأنه نبيُّ رسول.

يقول تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ﴾ [ص: ٢١-٢٢]، والاستفهام قد يكون استخبارًا واستعلامًا، وقد يكون -كما في هذه الآية- للتشويق، وإثارة الذهن؛ لأنَّ الإنسان إذا أُلقيَ إليه الكلام على صيغة الاستفهام اشتاق إليه وانفتح ذهنه له، ولهذا لما سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عن بيع

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

الرُّطْبِ بِالتَّمْرِ، قال: «أَيَنْقُصُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نَعَمْ. فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ^(١).

وهذا الحديث له قِصَّة، فبيع التَّمْر بالتَّمْرِ لا بُدَّ فيه مِنْ شَرْطَيْنِ:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: التَّسَاوِي.

والشَّرْطُ الثَّانِي: الْقَبْضُ فِي مَجْلِسِ الْعَقْدِ.

فَإِذَا بَعْتَ رَطْبًا بِتَمْرٍ - والتَّمْرُ هُوَ الْيَابِسُ - فَإِنَّ الرُّطْبَ يَنْقُصُ إِذَا جَفَّ، وَيَصْغُرُ وَيَنْقُصُ وَزْنُهُ أَيْضًا، يَخْفُ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا سَأَلَهُ الصُّحَابَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ يُبَاعُ التَّمْرُ بِالرُّطْبِ؟ لَمْ يَقُلْ: لَا، لَكِنْ قَالَ: «أَيَنْقُصُ إِذَا جَفَّ؟» قالوا: نَعَمْ. فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ. وَالرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّطْبَ يَنْقُصُ إِذَا جَفَّ بِلَا شَكٍّ، لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ الْعِلَّةَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي يَشَوِّقُ السَّامِعَ.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضِمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، وَهَذَا جَازٍ أَنْ يَقُولَ: ﴿سَوَّرُوا﴾ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ بِالْعَوْدِ إِلَى ﴿الْخَضِمِ﴾ وَهُوَ مُفْرَدٌ، لَكِنَّهُ هُنَا مُفْرَدٌ فِي اللَّفْظِ جَمْعٌ فِي الْمَعْنَى، وَقَدْ يَكُونُ اللَّفْظُ مُثْنًى فِي اللَّفْظِ، وَجَمْعًا فِي الْمَعْنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْ بِلَفْظَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتُلُوا﴾ [الحجرات: ٩] فَرَاعَى الْجَمْعَ، ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] رَاعَى اللَّفْظَ، وَلَمْ يَقُلْ: بَيْنَهُمْ. إِذِنْ: الْخَضِمُ مُفْرَدٌ لَفْظًا، جَمَاعَةٌ مَعْنَى.

﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]، ﴿سَوَّرُوا﴾ أَي: صَعِدُوا السُّورَ، وَلَمْ يَدْخُلُوا مِنْ الْبَابِ، وَالْمِحْرَابُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهِ مِحْرَابُ الْمَسْجِدِ، إِنَّمَا الْمِحْرَابُ مَكَانُ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ فِي التَّمْرِ بِالتَّمْرِ، رَقْمُ (٣٣٥٩)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْمَحَاقِلَةِ وَالْمِزَابَةِ، رَقْمُ (١٢٢٥)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْبَيْعِ، بَابُ اشْتِرَاءِ التَّمْرِ بِالرُّطْبِ، رَقْمُ (٤٥٤٥)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ التَّجَارَاتِ، بَابُ بَيْعِ الرُّطْبِ بِالتَّمْرِ، رَقْمُ (٢٢٦٤).

العبادة، ولهذا رأيتُ في بعض المساجد كتبوا على طاقِ المخرابِ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] لكن ما كتبوا: ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يخافون أن يطالبوهم برزقٍ في هذا المكان!! ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧] فقط!! يظنون أن المخراب هو القبلة، وليس كذلك، فالمحراب موضعُ العبادة.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٢٢] وَوَجْهَ فَرَعِهِ أَنْ هَؤُلَاءِ دَخَلُوا مِنْ غَيْرِ الْبَابِ، وَتَسَوَّرُوا عَلَيْهِ وَهُوَ مُشْتَغِلٌ بِعِبَادَتِهِ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ، ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٢٢] كعادةِ الإنسانِ النَّفْسِيَّةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- لَا يَخْتَلِفُونَ عَنِ النَّاسِ فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنَسَى كَمَا تَنْسُونَ»^(١).

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]: أَي: لَيْسَ هُنَاكَ دَاعٍ لِلْفَزَعِ، ﴿خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢] الْمَعْنَى وَاضِحٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢] أَي: لَا تَمَلْ وَلَا تَجْرُ، ﴿وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢] أَي: دُلَّنَا إِلَى الطَّرِيقِ السَّوِيِّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ وَلَا جَوْرٌ. ثُمَّ بَدَّعُوا الْقِصَّةَ، فَقَالَ أَحَدُ الْخَصَمَيْنِ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] وَالنَّجَّةُ هِيَ الشَّاةُ.

﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣] أَي: خُصِّنِي بِهَا، وَأَعْطِنِي إِيَّاهَا، فَإِذَا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ، صَارَ لَهُ مِئَةٌ، وَالْآخِرُ لَا شَيْءَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

له. فَطَلَبَ هَذَا الَّذِي عِنْدَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مِنْ صَاحِبِ الْوَاحِدَةِ أَنْ يُعْطِيَهُ شَاتَهُ؛ لِيُكْمِلَ بِهَا الْمِئَةَ، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أَي: غَلَبَنِي فِي الْخِطَابِ؛ لِأَنَّهُ رَجُلٌ فَطِنٌ، جَيِّدٌ فِي الْخُصُومَةِ، وَذَاكَ لَيْسَ بِحَسَنِ، فَقَالَ دَاوُدُ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤].

وهنا إشكال، ف (سأل) لا تتعدى بـ (إلى)، وهنا حدث هذا، ولكن ما تم هنا هو التضمين، أي أن الكلمة تُضم إلى معنى كلمة أخرى يدل على هذا المعنى المتعلق، فُضِمَ معنى السؤال: الضم. فهذا قوله: ﴿سُؤَالِ نَعَجِكَ﴾ [ص: ٢٤] أي: سَأَلَكَ لِيُضَمَّ نَعَجَتَكَ إِلَى نِعَاجِهِ.

﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] وهذا القول قال عنه بعض المفسرين: إنها من كلام الله. وقال بعضهم: إنها من كلام داود.

ثم قال: ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، ﴿فَتَنَّاكَ﴾ بمعنى: اخْتَبَرْنَاهُ، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ يعني: سَجَدَ وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ. وهنا سجدة نبيين حكمها:

المشهور عند الفقهاء أنه لا يُسجد في الصلاة في هذه السجدة؛ يقول: لأنها سجدة شكر، وسجدة الشكر إذا سجدها الإنسان وهو يُصلي بطلت صلاته، والصحيح أنها سجدة تلاوة؛ لأنه لو لا تلاوتنا لكتاب الله ما سجدناها، فهي سجدة تلاوة إذا تلاها الإنسان ولو في الصلاة؛ فإنه يسجد.

والاختبار في هذه القصة، حتى نعرف لماذا استغفر داود وخر راكعًا وأَنَابَ

إلى الله، أن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَكَمَ بِدَعْوَى الْخَصْمِ بِدُونِ أَنْ يَسْأَلَ الْخَصْمَ الْآخَرَ، وَكَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَعَلَ ذَلِكَ لِيَعُودَ إِلَى عِبَادَتِهِ الْخَاصَّةِ؛ لِأَنَّهُ مَا أَغْلَقَ الْبَابَ عَلَى نَفْسِهِ، وَخَلَا بِمِخْرَابِهِ، إِلَّا لِيَتَعَبَّدَ عِبَادَةً خَاصَّةً، وَدَاوُدُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ وَظِيفَةٌ عَظِيمَةٌ، وَهِيَ الْحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ [ص: ٢٦] فَهُوَ خَلَا بِعِبَادَتِهِ الْخَاصَّةِ وَتَرَكَ أَمْرَ النَّاسِ، فَاخْتَبَرَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ. وَقَدْ حَكَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَحَدِ الْخَصْمَيْنِ دُونَ أَنْ يَسْأَلَ الْخَصْمَ الْآخَرَ، وَهَذَا غَيْرُ جَائِزٍ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ تَسْمَعَ مِنَ الْخَصْمِ.

ولهذا كثيرا ما يأتي رَجُلٌ فيقول: فَعَلَ فُلَانٌ فِي كَذَا وَكَذَا. لَا سِيَّما ما يَقَعُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، فَتَأْتِي الْمَرْأَةُ وَتَشْكُو زَوْجَهَا حَتَّى تَقُولَ: إِنَّ هَذَا الزَّوْجَ قَدْ جَارَ عَلَيْهَا جَوْرًا عَظِيمًا! ثُمَّ عِنْدَمَا تَسْأَلُ الزَّوْجَ تَجِدُ الْأَمْرَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، أَوْ بِالْعَكْسِ، يَأْتِي الزَّوْجُ وَيَشْكُو زَوْجَتَهُ حَتَّى تَقُولَ: هَذِهِ الزَّوْجَةُ أَضَاعَتْ حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ زَوْجِهَا! وَعِنْدَ السُّؤَالِ يَكُونُ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَسْأَلَ الْخَصْمَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَةَ عَلَى الْمُدَّعِي، وَالْيَمِينَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ»^(١). هَذَا وَجْهٌ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَلَا فِي عِبَادَةٍ خَاصَّةٍ، وَأَغْلَقَ الْمِخْرَابَ عَلَى نَفْسِهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أَغْلَقَهُ أَنَّهُمْ تَسَوَّرُوا الْمِخْرَابَ، فَلَمْ يَدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ، وَالْإِنْسَانُ الْمَكْلَفُ بِالْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُفَرَّغًا نَفْسَهُ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَنَ بِهِمْ ثُمَّ قَلِيلًا أُؤْتُوا﴾ لَا خَلْقَ لَهُمْ ﴿[آل عمران: ٧٧]، رقم (٤٥٥٢)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب اليمين على المدعى عليه، رقم (١٧١١).

هذا أيضًا فيه شيءٌ من الإخلالِ باستقبالِ أحكامِ النَّاسِ، ولهذا رآه داودُ ذنبًا، فقال: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبَّهُ، وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، ولا يُلامُ داودُ على فزعِهِ مِنَ النَّاسِ، مع أَنَّهُ نَبِيٌّ، فالخوفُ من طَبِيعَةِ الْبَشَرِ، ولا يُلامُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ.

فهذا موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قُوَّتِهِ وَشِدَّتِهِ فِي ذَاتِ اللَّهِ، خَرَجَ مِنْ مِصْرَ وهو خائفٌ يَتَرَقَّبُ.

الأمرُ الثالثُ: أن القِصَّةَ واضحةً في القرآن، لكن مع ذلك يوجد في كُتُبِ المفسِّرينَ التي تُعْنَى بنقلِ الإسرائيليات، أن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَهُ رَجُلٌ مَعَ الْجُنْدِ، ولهذا الرَّجُلِ زَوْجَةٌ حَسَنَاءُ جَمِيلَةٌ، وعندَ داودَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، فَفَكَّرَ داودُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَيْفَ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلَةِ، فَدَبَّرَ حِيلَةً وَكَيْدًا، فَبَعَثَ هَذَا الرَّجُلَ فِي جَيْشٍ لِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ حَتَّى يُقْتَلَ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ داودُ زَوْجَتَهُ!!

ولكن هذا لَا يُنْسَبُ إِلَى نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، هذا لَا يُمْكِنُ لِأَيِّ عَاقِلٍ، ولو لم يكن مؤمنًا أن يتصَرَّفَ هذا التَّصَرُّفَ. كُلُّ إِنْسَانٍ يَرَى أَنَّ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنْ أَشَدِّ الْأُمُورِ نُكْرًا وَخِدَاعًا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ مِنْ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ الْيَهُودَ -عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ- يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُدَبِّرُوا مِثْلَ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَأَنْ يَقْدَحُوا فِي الْأَنْبِيَاءِ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَقَدْ عَلِمَ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ، وَلَيْسَ بِغَرِيبٍ عَلَيْهِمْ أَنْ يُدَبِّرُوا هَذِهِ الْقِصَّةَ -الْكَذِبَ- عَلَى دَاوُدَ، وَلِهَذَا يُسَمُّونَ دَاوُدَ مَلِكًا!! يَرُونَ أَنَّهُ مَلِكٌ وَلَيْسَ نَبِيٌّ، حَتَّى إِنَّهُمْ يَسَمُّونَ نَجْمَةً عِنْدَهُمْ بِاسْمِ: نَجْمَةِ الْمَلِكِ دَاوُدَ، فَلَا يُقَرُّونَ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولكن داودَ أظْهَرُ وأزكى، وأحسنُ أخلاقًا مِنْ أن يُدَبَّرَ هذه المكيَدة العظيمة،
فعلينا أن نعرفَ للأنبياءِ حقَّهم، وأن نقولَ: إن داودَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اجتهدَ، وهذا
الاجتهادُ الذي وقعَ منه على هذا النحو الَّذي سَمِعْتُمُوهُ، والقِصَّةُ واضحةٌ - والله
الحمد-.



الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لَيْدَبَرُوا ءَايَاتِهِ وَلِتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

[ص: ٢٩].

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ فِيهَا بَيَانُ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُوَ أَفْضَلُ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى أَفْضَلِ نَبِيٍّ، وَآخِرُ كِتَابٍ نَزَلَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ وَلِهَذَا كَانَتْ شَرِيعَةُ النَّبِيِّ ﷺ صَالِحَةً لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، مِنْذُ بُعِثَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلَوْ لَا هَذَا لَكَانَ النَّاسُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَسُولٍ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ صَارَتْ شَرِيعَتُهُ صَالِحَةً لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ.

الشَّرِيعَةُ صَالِحَةٌ لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ:

وَجُمْلَةُ: «أَنَّ الشَّرِيعَةَ صَالِحَةً لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ»؛ بَعْضُ النَّاسِ أَوَّلَهَا عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا الصَّحِيحِ، فَظَنُّوا أَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ خَاضِعَةٌ لِّكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ يَعْنِي أَنَّهَا تُطَوَّرُ لِلْعَصْرِ وَلا خِلَافَ النَّاسِ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ لَزِمَ أَنْ تَخْتَلِفَ الشَّرِيعَةُ تَبَعًا لِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ النَّاسِ، وَتَمَسَّكَ بِقَوْلِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ الْأَجْلَاءِ الْمُحَقِّقِينَ: إِنَّ الْفَتْوَى تَتَغَيَّرُ بِتَغْيِيرِ الزَّمَانِ، وَظَنُّوا أَنَّ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَتَلَاعَبَ

بالشَّرع، فنقول: هَذَا الشَّيْءُ حَرَامٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ، حَلَالٌ فِي مَكَانٍ آخَرَ، أَوْ حَرَامٌ فِي هَذَا الزَّمَنِ، حَلَالٌ فِي زَمَنِ آخَرَ، أَوْ حَلَالٌ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ النَّاسِ حَرَامٌ لِلطَّائِفَةِ الْآخَرَى.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي قَالَ هَذَا الْكَلَامَ غَفَلَ أَوْ تَغَافَلَ عَنِ الْمَعْنَى الصَّحِيحِ لِهَذَا الْكَلَامِ الَّذِي صَدَرَ مِنْ بَعْضِ الْمُحَقِّقِينَ، وَأَنَّ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ تَحْقِيقَ الْمَنَاطِ الَّذِي عُلِّقَ بِهِ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ هُوَ الَّذِي يَخْتَلِفُ، فَإِذَا اخْتَلَفَ فَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْحُكْمُ تَابِعًا لِلْعَلَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا شُرِعَ وَيَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْعَلَّةِ الْمَوْجِبَةِ لِلْحُكْمِ، وَلِهَذَا أَمْثَلُهُ:

المثال الأول: تحريم الخمر، لم ينزل في الشريعة الإسلامية مرة واحدة، وَلَكِنَّهُ تَدَرَّجَ تَدَرُّجًا انْتَهَى إِلَى تَحْرِيمِهِ تَحْرِيمًا بَاتًا، وَتَدَرَّجَ هَذَا الْحُكْمُ بِالنِّسْبَةِ لِلخَمْرِ، إِلَى مَرَاكِلَ.

المرحلة الأولى: نصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّهُ حَلَالٌ، وَآيَةُ التَّحْلِيلِ هِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧]، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ سَبَقَتْ مَسَاقَ الْمِنَّةِ؛ بِمَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ السُّكْرَ مِمَّا يَكُونُ مِنَ الثَّمَرِ أَوْ مِنَ الْعَنْبِ جَائِزٌ.

المرحلة الثانية: التَّحْذِيرُ بِدُونِ تَحْرِيمٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى أَنَّ الْخَمْرَ وَالْمَيْسَرَ فِيهِمَا إِثْمٌ، وَفِيهِمَا مَنْفَعٌ، وَلَكِنْ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نفعيهما، وهذا يقتضي للعاقل أن يتجنبهما؛ لأنَّ كُلَّ عاقلٍ يعرضُ عليه شيءٌ فيه إثمٌ ومنافعٌ، ويُقال له: إنَّ الإثمَ أكبرُ من المنافعِ سوفَ يتجنبه، فالعاقلُ يُوازنُ بينَ الأشياءِ، بينَ مضارِّها ومنافعِها، فإذا كانَ الضررُ أكبرَ من النفعِ فلا بدَّ أن يتجنبه بمقتضى العقلِ، وبمقتضى الشرعِ، وهذه الآيةُ التحريمُ فيها ليسَ باتًا.

المرحلةُ الثالثة: النهي عن الصَّلَاةِ وقتَ السكرِ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، والنهي عن قربانِ الصَّلَاةِ في حالِ السكرِ يستلزمُ ألا يشربَ المسلمُ الخمرَ في وقتٍ قريبٍ من وقتِ الصَّلَاةِ؛ لئلا يحضرَ الصَّلَاةَ وهو سكرانٌ، وهذا يعني أنَّهم ستركُون الخمرَ في وقتٍ كبيرٍ من أوقاتهم.

المرحلةُ الرَّابعةُ: التحريمُ الباتُ في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ [البقرة: ٩٠-٩١]. وبهذه الآية حُرِّمَ الخمرُ تحريمًا قاطعًا.

فنقول: إنَّ الشرعَ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإنَّ الفتوى تختلفُ باختلافِ الأحوالِ، ولكنَّ هذا تابعٌ لتحقيقِ المناطِ، وليسَ تابعًا للهوى، وإلا لسَلَمْنَا لقولِ بعضِ النَّاسِ: إنَّ الرِّبَا في هذا الزمانِ جائزٌ إذا كانَ للتنميةِ والاستثمارِ، وجائزٌ إذا كانَ للاستغلالِ والظلمِ، ونحنُ لا نُسلمُ بهذا، فلا يُمكنُ لأحدٍ أن يقولَ: إنَّ الرِّبَا جائزٌ ولو كانَ للاستثمارِ ولو كانَ للتنمية، بل الرِّبَا حرامٌ بكلِّ حالٍ، سواءً تضمَّنَ الظلمَ أم لم يتضمَّنْه.

القرآن الكريم أشمل كتاب نزل من الكتب السماوية:

القرآن الكريم أفضل كتاب نزل على أفضل نبي أرسل، وهذا القرآن الكريم أشمل كتاب نزل من الكتب السماوية؛ شامل لجميع ما يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم، فإنه مذكور في القرآن، لكن ذكره قد يكون بالنص، وقد يكون بالتعميم، وقد يكون بالإشارة والتنبيه، فلازم إذا قلنا إن القرآن بين كل ما يحتاج الناس إليه في معاشهم ومعادهم أن تكون كل مسألة وكل قضية ذكرت بخصوصها في القرآن الكريم، ولننظر إلى مثال كوني، ومثال شرعي، فيه التعميم الصالح لكل ما يمكن أن يدخل في هذا العموم.

المثال الكوني:

قال الله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]، فجملة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تشمل كل ما يمكن حدوثه، بل كل ما يحدث مما يركب ويزدان الناس به.

فإذا وجدنا السيارات، والطائرات النفاثة، والمروحية، وغيرها فهو داخل في هذه الآية: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وسيحدث أيضًا أشياء أشد مما رأينا الآن مما يخلقه الله عز وجل من المركوبات، التي يركبها الناس ويزدانون بها: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

المثال الشرعي:

أما في الأمور الشرعية، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فهذه الآية تبيان لكل شيء

لَا يَشْدُ عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ إِلَّا وَهُوَ مُبَيَّنٌّ، وَلَكِنْ كَمَا قُلْتُ لَكُمْ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ وَالْعُمُومِ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْإِشَارَةِ وَالْتَنْبِيهِ.

ومما يُذكر أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْعِلْمِ كَانَ فِي مَطْعَمٍ مَعَ رَجُلٍ نَصْرَانِيٍّ، فَقَالَ النُّصْرَانِيُّ لِلْعَالِمِ: إِنَّ كِتَابَكُمْ يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فَهَلْ فِي كِتَابِكُمْ بَيَانٌ كَيْفَ صُنِعَ هَذَا الطَّعَامُ؟ فَقَالَ الْعَالِمُ: هَذَا موجودٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، ثُمَّ دَعَا بِصَاحِبِ الْمَطْعَمِ، فَسَأَلَهُ: كَيْفَ يُصْنَعُ هَذَا الطَّعَامُ، فَشرح لَهُم صَاحِبُ الْمَطْعَمِ كَيْفَ يُصْنَعُ هَذَا الطَّعَامُ، فَقَالَ الْعَالِمُ الْمُسْلِمُ: هَكَذَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ النُّصْرَانِيُّ أَيْنَ هُوَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. فَهَذَا فِيهِ إِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي تَجْهَلُهُ سَلْ عَنْهُ أَهْلَ الْعِلْمِ.

فَإِذَا كُنْتَ جَاهِلًا بِالْحُكْمِ فِي مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ، فَسَلْ عُلَمَاءَ الشَّرْعِ عَنْهَا، وَإِنْ خَفِيَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فِي الْبِنَاءِ، فَسَلْ مَهْنَدِسَ الْبِنَاءِ، وَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْفَلَكَ، فَاسْأَلْ عُلَمَاءَ الْفَلَكَ، كُلُّ يُسْأَلُ فِي اخْتِصَاصِهِ، وَذَلِكَ مَأْخُودٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

القرآن مبين لكل شيء:

إِذِنَّ الْقُرْآنُ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، لَكِنْ تَخْفَى عَلَيْنَا بَعْضُ الْمَسَائِلِ؛ لِلْعَوَاقِبِ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ فَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ:

العائق الأول: القصور.

العائق الثاني: التقصير.

العائق الثالث: سوء القصد.

أما القصور؛ فهو أن يكون الإنسان جاهلاً لا يتمكن من فهم المعنى واستنباط الأحكام منه؛ مثل أحوال العامة، فهو لا عندهم قصور، ولا يمكن أن يستنبطوا من كتاب الله ما يستنبطه العلماء.

وأما التقصير فرجل عنده فهم وقدر على العلم، لكنه مقصّر يريد أن يأتيه العلم، ولا يريد أن يطلب العلم، وهذا يوجد كثيراً في بعض طلبة العلم، ويجب أن يعلم أن العلم لا يأتي إلى الناس، وإنما يطلبه الناس، وقد قيل: «أعط العلم كلك يعطيك بعضه، وأعطه بعضك يفتك كله»، فلا بد من مثابرة ولا بد من حرص ولا بد من تعب.

أما سوء القصد، فهذا يقع من أهل البدع، فالله سبحانه وتعالى حال بينهم وبين فهم كتابه؛ وذلك من أجل سوء قصدهم، وعدم إرادة الحق، فتجد الإنسان يكابر في معنى الآية الكريمة من أجل الانتصار لما هو عليه من البدعة، أو ما هو عليه من الرأي المخالف لشريعة الله عز وجل، وإلا فإن القرآن فيه بيان كل شيء.

يقول الله في الآية الكريمة: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ﴾ [ص: ٢٩] سَمَّى اللهُ الْقُرْآنَ كِتَابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب في الصحف التي بأيدينا.

أما الأول؛ فدليله قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) في كتب مكنون ﴿

[الواقعة: ٧٧-٧٨].

والدليل الثاني: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (١١) مَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ

﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿عَبَسَ: ١١-١٦﴾.

وَالدَّلِيلُ الثَّلَاثُ: هَذَا الْوَاقِعُ، فَإِنَّا نَشَاهِدُ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ موجودٌ مكتوبٌ بين أيدينا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾؛ قَالَ الْعُلَمَاءُ: يُسْتَفَادُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ فائدتان عظيمتان:

الفائدة الأولى: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ مِنْهُ، وَالنُّزُولُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَعْلَى.

الفائدة الثانية: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامٌ، وَالْكَلَامُ وَصْفُ الْمُتَكَلِّمِ، وَوَصْفُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، هَلْ تَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْأَزْوَاجَ الثَّمَانِيَةَ مِنَ الْأَنْعَامِ هَلْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا؟

فَالْجَوَابُ: لَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُرْآنِ أَنَّ هَذِهِ الْأَزْوَاجَ؛ أَيِ الْأَصْنَافِ مَخْلُوقَةٌ نُشَاهِدُهَا؛ وَهِيَ: الْإِبِلُ، وَالْبَقَرُ، وَالضَّأْنُ، وَالْمَاعِزُ، الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٣] يَعْنِي ذَكَرًا وَأُنْثَى ﴿وَمِنَ الْمَعِزِّ اثْنَيْنِ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٤] هَذِهِ ثَمَانِيَّةٌ.

فَنَقُولُ: الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُرْآنِ أَنَّ الْقُرْآنَ صِفَةٌ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ وَالصِّفَةُ تَابِعَةٌ لِلْمَوْصُوفِ، فَصِفَةُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَصِفَةُ الْمَخْلُوقِ مَخْلُوقَةٌ، أَمَّا الْأَنْعَامُ فَإِنَّهَا

أعيان قائمة بنفسها مخلوقة مشاهدة يحدث الولد من أمّه وأبيه، وهكذا نشأه في كل وقت وحين، وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾؛ يعني إلى النبي ﷺ.

وهنا يرد سؤال: الله تعالى أحياناً يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النحل: ٨٩]، وأحياناً يقول: ﴿أَنزَلْنَا﴾ [النساء: ١٠٥]، فهل بينهما فرق؟

الجواب: نعم بينهما فرق، ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ بالتشديد؛ تدل على نزوله شيئاً فشيئاً، و﴿أَنزَلْنَا﴾؛ تدل على نزوله جملة باعتبار النهاية، فإن القرآن الكريم عند انتهائه يُقال إنه أنزل؛ لأن جملة كلها نزلت، أمّا مادام ينزل شيئاً فشيئاً فإنه يُقال يُنزل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فقال الله تعالى رداً عليهم: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿مُبْرَكٌ﴾ فمن بركات القرآن: أولاً: من بركة هذا القرآن أن من قرأه فله بكل حرفٍ منه حسنة، والحسنة عشر أمثالها، فإذا قرأت: ﴿رَبِّ الْمَلَمِيتِ﴾ [الفاتحة: ٢]، فكلمة (رب) بها ثلاثة أحرف، وهي: الراء، والباء المشددة بحرفين، كل حرفٍ منها عشر حسنة، فالجميع ثلاثون حسنة.

ثانياً: ما رتب عليه من الثواب في المنزلة لا في كثرة الأجر، فإن النبي ﷺ قال: «الماهرُ بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاق، له أجران»^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب سورة عبس، رقم (٤٥٨١)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر في القرآن والذي يتتعتع، رقم (١٣٣٥).

ثالثًا: أَنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، وَمَا أَحْوَجَ الْإِنْسَانَ لِلشُّفَعَاءِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَحَلُّ قُصُورٍ، فَيَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَشْفَعَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رابعًا: مِنْ بَرَكَتِهِ بَيَانُ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ، وَهِيَ الْأَحْكَامُ الَّتِي يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهَا فِي حَيَاتِهِمْ.

خامسًا: مِنْ بَرَكَتِهِ مَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الشِّفَاءِ؛ وَالشِّفَاءُ الْحَاصِلُ بِالْقُرْآنِ نَوْعَانِ: النَّوعُ الْأَوَّلُ: شِفَاءٌ مَعْنَوِيٌّ.

النوع الثاني: شِفَاءٌ حِسِّيٌّ.

أما الشِّفَاءُ الْمَعْنَوِيُّ: فَهُوَ الشِّفَاءُ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ؛ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ؛ فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهِ الْعِلْمُ؛ الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ مِنَ الشُّبُهَةِ، وَبِهِ الْإِخْلَاصُ؛ الَّذِي هُوَ شِفَاءٌ مِنَ الشَّهْوَةِ، وَهَذَا مِنْ بَرَكَتِهِ وَكَمٍ مِنْ إِنْسَانٍ صَلَحَ قَلْبُهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ إِمَّا بِنَفْسِهِ، وَإِمَّا بِسَمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ.

رُبَّمَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ أحيانًا يَسْتَمِعُ لِلْقُرْآنِ مِنْ غَيْرِهِ فَيَخْشَعُ فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا لَوْ قَرَأَهُ بِنَفْسِهِ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْحِكَمِ وَالْأَسْرَارِ أَكْثَرُ مِمَّا لَوْ قَرَأَهُ بِنَفْسِهِ؛ «فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»^(١).

أما الشِّفَاءُ الْحِسِّيُّ: فَمِنْ بَرَكَتِهِ أَنَّهُ شِفَاءٌ لِلْأَمْرَاضِ الْحَسِيَّةِ؛ أَمْرَاضِ الْبَدَنِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، رقم (٤٦٨٧).

وَهَذَا شَيْءٌ مُّشَاهِدٌ مُّجَرَّبٌ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ مَرِيضٍ عَجَزَ عَنْهُ الْأَطْبَاءُ شَفَاهُ اللَّهُ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ!

وَمِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى بَرَكَةِ الْقُرْآنِ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَرِيَّةً، فَنَزَلُوا ضُيُوفًا عَلَى جَمَاعَةٍ، عَلَى أَنَّ يُضَيِّفُوهُمْ وَيُطْعِمُوهُمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً، لَكِنْ هَذِهِ الْجَمَاعَةُ لَمْ يُوفِّقُوا، وَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً، فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَى رَئِيسِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ لَمْ يُضَيِّفُوهُمْ عَقْرَبًا، فَقَالُوا: ابْحَثُوا مَنْ يَقْرَأُ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَزَلُوا فِيهِمْ مَنْ يَقْرَأُ، فَاتَّوَا إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: إِنَّ سَيِّدَهُمْ لُدِغٌ، فَهَلْ فِيكُمْ قَارِئٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ فِينَا قَارِئٌ، وَلَكِنَّا لَنْ نَقْرَأَ عَلَى سَيِّدِكُمْ إِلَّا بِقَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ، فَقَالُوا: نَعَمْ، خُذُوا قَطِيعًا مِنَ الْغَنَمِ.

فَذَهَبَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، وَجَعَلَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ، وَلَكِنْ يَنْفُثُ^(١) عَلَيْهِ، وَهَذَا الرِّيقُ الْيَسِيرُ إِذَا تَسَلَّطَ عَلَى حَلٍّ الْأَلَمِ، شَفَاهُ اللَّهُ، فَقَامَ سَيِّدُ الْقَوْمِ اللَّدِغُ، كَأَنَّمَا نَشِطَ مِنْ عِقَالٍ^(٢)، فَأَخَذُوا الْقَطِيعَ مِنَ الْغَنَمِ، فَلَمَّا أَخَذُوهُ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ، كَيْفَ يَأْخُذُونَ أَجْرًا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وَأَخْبَرُوهُ بِالْقِصَّةِ، قَالَ: «اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهُمْ»^(٣)، تَطْيِيبًا مِنْهُ ﷺ لِقُلُوبِهِمْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ، فَأَخَذُوا وَضَرَبُوا لَهُ مَعَهُمْ بِسَهُمْ.

فَكَانَتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ رُقِيَّةً، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي قَرَأَهَا: «وَمَا يُذْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟»^(٤) «وَمَا يُذْرِيكَ» يَعْنِي: مَا يُعْلِمُكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟

(١) نفث نفثًا ونفثانًا: نفخ، يقال: نفث الرّاقى في العقدة. المعجم الوسيط (٢/ ٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٤١٧).

(٤) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب النفث في الرقية، رقم (٥٧٤٩).

ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ»^(١).

خامساً: مِنْ بَرَكَتِهِ أَنَّهُ حِصْنٌ حَصِينٌ لِقَارِيئِهِ؛ قَالَ ﷺ «إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»^(٢)، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَرَدَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، فَلَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ.

سادساً: مِنْ بَرَكَتِهِ أَنَّهُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ؛ أَيِ الْخِصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَهَذِهِ تَعْتَبَرُ قَاعِدَةً فِيمَا يَهْدِي الْقُرْآنُ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَلْقَى فِيهَا الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الشَّنْقِيطِيُّ -رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ- مُحَاضَرَةً كَامِلَةً وَشَرَحَهَا شَرْحًا وَافِيًا، فَمَنْ أَرَادَ الْاطْلَاعَ عَلَيْهَا فَهِيَ مَنْشُورَةٌ.

سابعاً: وَمِنْ بَرَكَتِهِ مَا حَصَلَ بِهِ مِنَ الْمَعَارِفِ الْعَظِيمَةِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَمِنَ الْآثَارِ الْحَمِيدَةِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ كَانَتْ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ فِي جَهْلٍ أَعْمَى، وَفِي ذُلٍّ، وَفِي ضَعْفٍ، وَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَأَخَذَتْ بِهِ فَاقَتِ الْأُمَمَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم، رقم (٥٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٠٥٢).

مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿[آل عمران: ١٦٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ثامناً: ومن بركته أيضاً، أنه حفظ لسان العرب؛ يعني اللغة العربية، فإن القرآن الكريم أفصح الكلام العربي لا شك، وهو باقٍ إلى يوم القيامة؛ لأن الله تكفل بحفظه، فحفظه يستلزم حفظ اللغة العربية، ولهذا يجب علينا -نحن المسلمين العرب- أن نفتخر بلغتنا؛ وأن نكون ضد كل شخص يحاول أن يسلب الأمة العربية لغتها؛ التي هي لغة القرآن والحديث.

ومن العجب أن بعض السخفاء المبهورين بتقدم الغرب المادي يريدون أن يمحوا اللغة العربية من الإسلام والعرب، فتوجد في البلدان الإسلامية لافتات على بعض المطاعم، والمتاجر، ولافتات لتوجيه الناس في الطرُق باللغة الإنجليزية المحضبة ليس معها لغة عربية، وهذا يدل على ضعف شخصية الذي وضع هذه اللافتة، وعلى سفهه أيضاً، وعلى عدم اهتمامه واكتراثه بلغته العربية؛ التي هي لغة القرآن والحديث.

والواجب أن يتبع هؤلاء، وأن يمنعوا من كتابة اللافتات باللغة الإنجليزية إذا لم يصحبها كتابة باللغة العربية، نحن لا نقول: لا تكتب اللغة الأجنبية إطلاقاً؛ لأن الناس اختلطوا بنا وكثير منهم لا يعرف إلا الحروف اللاتينية، لكننا نقول: لا يمكن إطلاقاً أن يُسمح لأناس يكتبون لافتات على متاجرهم وعلى مطاعمهم بلغة غير العربية غير مصحوبة باللغة العربية.

وَمِنَ الْمُؤَسَّفِ أَنَّ الْمَرِيضَ يُعْطَى وَصْفَةً لِلدَّوَاءِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَسْتَعْمَلَهُ
بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، وَرُبَّمَا لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ، وَيُعْطَى بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، فَرُبَّمَا
يَكْتُبُ رَقْمَ اثْنَيْنِ وَهُوَ يَحْسَبُهُ رَقْمَ أَرْبَعَةٍ أَوْ رَقْمَ خَمْسَةٍ ثُمَّ يَأْخُذُ خَمْسَ حَبَّاتٍ دَفْعَةً
وَاحِدَةً وَيَهْلِكُ.

يَذْكُرُ أَنَّ عَرَبِيًّا أَعْطَاهُ الطَّبِيبُ حَبَّاتٍ يَسْتَعْمَلُهَا كُلَّ سِتِّ سَاعَاتٍ حَبَّةً وَاحِدَةً،
فَالْأَعْرَابِيُّ قَالَ: آخُذِ السِّتَّ حَبَّاتٍ مَرَّةً وَاحِدَةً لِأَطِيبَ فِي الْحَالِ، فَأَخَذَهَا مَرَّةً وَاحِدَةً،
فَقَضَتْ عَلَيْهِ.

فَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ أَنَّ تَكْتُبَ الْوَصْفَاتِ الطَّبِيعَةَ لِقَوْمٍ عَرَبٍ بِاللُّغَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ،
لَمَّاذَا لَا تَكْتُبُ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَنَعْتَزُّ بِلُغَتِنَا وَنَخْدُمُ قَوْمَنَا بِالتَّسْهِيلِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا
الَّذِي لَا يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ إِذَا نَسِيَ مَا قَالَ لَهُ الطَّبِيبُ، فَسَوْفَ يَمُرُّ عَلَى كُلِّ
أَهْلِ الْبَيْتِ، فَإِذَا كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ اللُّغَةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُرْشِدُوهُ لَمَّا قَالَ
الطَّبِيبُ.

فِيذْهَبُ إِلَى الْجِرَانِ، وَإِلَى جِرَانِ الْجِرَانِ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ فَيَذْهَبُ إِلَى
الْكَلِّيَّاتِ فِي الْجَامِعَاتِ حَتَّى يُبَيِّنُوا لَهُ مَعْنَى هَذِهِ الْوَصْفَةِ الطَّبِيعَةِ، فَمِنْ بَرَكََةِ هَذَا
الْقُرْآنِ حِفْظُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ لِسَانُ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ ﷺ.

تَاسِعًا: وَمِنْ بَرَكَاتِ هَذَا الْقُرْآنِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَتَحَ بِهِ الْبِلَادَ فِي مَشَارِقِ
الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا؛ فَكَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهِ، فَصَارُوا يَفْتَحُونَ الْبِلَادَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ،
وَيَدْخُلُ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا، وَلَمَّا أَعْرَضُوا عَنْهُ حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الذَّلِّ وَالْخَلَلِ
بِمَقْدَارِ مَا أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

ثم بين الله سبحانه وتعالى الحكمة من إنزال هذا القرآن، فقال: ﴿لِيَذَّبَرُوا عَابَتِهِمْ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾؛ هذه الحكمة من إنزاله، بل هذه أعظم الحكم من إنزاله أن يدبروا آياته، ومعنى يدبروها؛ أي يتأملوها ويرددوها في نفوسهم، حتى يعرفوا معناها، وفي قوله: ﴿لِيَذَّبَرُوا عَابَتِهِمْ﴾ دليل على أن آيات الكتاب العزيز يمكن الوصول إلى معناها، وأنه ما من شيء في القرآن إلا وله معنى، فيكون في هذه الآية رد واضح على من قال: إن معاني أسماء الله وصفاته التي في القرآن غير معلومة لنا.

فإذا سألتهم: ما معنى قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] يقول: لا أدري معناها ولا أحد يعلم معناها إلا الله، فيكون على قولهم هذا القرآن الكريم مجهول المعنى في أعظم شيء نزل من أجله، وهو معرفة أسماء الله وصفاته، ويقولون: إن مذهب السلف هو عدم معرفة معاني أسماء الله وصفاته، ولا شك أن هذا كذب على السلف، أو جهل بمذهبهم؛ فإن السلف يفهمون معاني أسماء الله وصفاته، لكنهم يجهلون حقائقها وكيفياتها.

ولهذا سئل الإمام مالك رحمه الله عن قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، كيف استوى؟ فأطرق برأسه وعرق عرقاً عظيماً، ثم رفع رأسه، وقال للسائل: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

فالاستواء غير مجهول؛ يعني معلوم المعنى، والكيف غير معقول؛ يعني لا تدركه عقولنا، ولا يمكن أن نصل بعقولنا إلى معرفة كيف استواء الله على

العرش، وإذا لم يكن بالعقل مجال في كيفية صفات الله، ولم يأت به الشرع صارت مجهولة لنا، ولهذا لا يمكننا أن نعرف كيف استوى الله على العرش.

والإيمان به؛ أي بالاستواء واجب؛ لأن الله أخبر به عن نفسه، والسؤال عنه بدعة؛ فالذي يسأل كيف استوى الله على العرش فهو مبتدع لسببين:

السبب الأول: أنه لم يكن من شأن السلف الصالح أن يسألوا عن كيفية الاستواء.

السبب الثاني: أنه لا يسأل هذا السؤال إلا أهل البدع؛ لأنهم هم الذين يأتون بهذه الأسئلة ليشتكوا أهل السنة فيما ذهبوا إليه.

فيقولون مثلاً: هل تعلم كيف استوى الله على العرش؟

السلفي سيقول: لا أعلم كيف استوى، لكن أعلم أنه استوى، أي علا عليه عز وجل علواً يليق بجلاله وعظمته، وليس كاستواء الإنسان على الفلك، أو على البعير، بل هو استواء يليق به لا يتضمن نقصاً بوجه من الوجوه.

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَذَّبَرُواْ عَنِتْهِ﴾ دليل على أن آيات الصفات معلومة المعنى؛ لأنه لا يمكن أن يتدبر الشيء الذي لا يمكن الوصول إلى معناه، أما حقائقها فإنها مجهولة لنا.

يتذكر؛ أي يتعظ، فالإنسان العاقل يتعظ بما يعلم من معاني آيات هذا القرآن الكريم، والإنسان السفیه هو الذي لا يتعظ، فمن قرأ القرآن وتذكر، فهو من أولي الأبواب، ومن قرأ القرآن وقسا قلبه، فليس من ذوي الأبواب.



الدَّرْسُ الْخَامِسُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾

[ص: ٢٩].

إِنْ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يُرَادُّ بِهِ مَجْرَدَ التَّلَاوَةِ فَقَطْ، بَلْ يُرَادُّ بِهِ مَعَ أَجْرِ التَّلَاوَةِ وَثَوَابِهَا أَمْرَانِ عَظِيمَانِ، ذَكَرَهُمَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وَاللَّامُ هُنَا لِلتَّعْلِيلِ، وَبَيَانِ الْحِكْمَةِ مِنْ أَنْزَالِ هَذَا الْقُرْآنِ الْمُبَارَكِ، وَهُوَ التَّدَبُّرُ، وَالتَّذَكُّرُ.

وَالتَّدَبُّرُ: هُوَ التَّفَكُّرُ فِي مَعَانِي الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ، إِنْ كَانَتْ خَبْرًا أَوْ طَلَبًا، أَوْ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا، خَبْرًا عَنْ شَيْءٍ مِمَّا غَابَ عَنَّا سَابِقًا، وَمِمَّا يَأْتِي لَاحِقًا، فَالْمَهْمُ أَنْ يَتَفَكَّرَ الْإِنْسَانُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ.

وَالْإِنْسَانُ إِذَا تَفَكَّرَ فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْسَرَ الْآيَةَ بِحَسَبِ مَا أَدَاهُ إِلَيْهِ تَفْكِيرُهُ، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَرْجِعَ فِي تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ نَفْسِهِ، ثُمَّ إِلَى مَا فَسَّرَهُ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِلَى مَا فَسَّرَهُ بِهِ الصَّحَابَةُ، وَلَا سِيَّما الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ بِالتَّفْسِيرِ: كَابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ إِلَى مَا قَالَهُ التَّابِعُونَ، الَّذِينَ اسْتُهْرُوا بِالْأَخْذِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَهَذِهِ أَرْبَعُ مَرَاتِبَ:

الْمَرْتَبَةُ الْأُولَى: أَنْ يُفْسَرَ كَلَامُ اللَّهِ بِكَلَامِ اللَّهِ.

المرتبة الثانية: أن يُفسر كلام الله بكلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

المرتبة الثالثة: أن يُفسر كلام الله بكلام الصحابة رضي الله عنهم، ولا سيما من اشتهر منهم بعلم التفسير.

المرتبة الرابعة: أن يُفسر كلام الله، بما فسر به التابعون الذين اشتهروا بالأخذ عن الصحابة رضي الله عنهم.

أما المرتبة الأولى: وهي تفسير كلام الله بكلام الله، فمثالها:

قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۚ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨]، فهذا استفهام، وجوابه، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

ومن ذلك، أيضاً، أن يُذكر الشيء، ثم يُذكر ما يُقابله، فنعرف تفسير المقابل، بذكر ما قابله، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١]، فلو سألك سائل ما معنى ﴿ثُبَاتٍ﴾، قلنا: يُفسرها ما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ فمعنى: ﴿فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ يعني فرادى متفرقين أو ﴿أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ حسب ما تقتضيه المصلحة في الخروج والنفور إلى الجهاد.

أما المرتبة الثانية: وهي تفسير القرآن بقول الرسول ﷺ فمثالها:

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فكلمة: ﴿قُوَّةٍ﴾، نكرة لم تُبين ما هذه القوة؟ هل هي القوة الكلامية؟ أو القوة البدنية؟

أَوِ الْقُوَّةُ الْمَالِيَّةُ؟ أَوِ الْقُوَّةُ الدَّعَائِيَّةُ؟ فَبَيَّنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَعْنَى الْقُوَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»^(١)، ففَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْقُوَّةَ الْمَذْكُورَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِأَنَّهَا الرَّمْيُ.

وَكَلِمَةُ الرَّمْيِ لَا يُرَادُّ بِهَا الرَّمْيُ الْمَعْرُوفُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْقَوْسِ وَالسَّهْمِ، وَلَكِنَّهَا عَامَةٌ وَتَشْمَلُ: رَمِيَ كُلِّ وَقْتٍ بِحُسْبِهِ، فَالرَّمْيُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ رَمِيٌّ دَاخِلٌ فِي الْآيَةِ، وَالرَّمْيُ فِي وَقْتِنَا الْحَاضِرِ بِالصَّوَارِيخِ الْعَابِرَةِ لِلْقَارَاتِ، وَالْقَذَائِفِ الْمَوْجَّهَةِ دَاخِلٌ فِي الرَّمْيِ.

وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ هَذِهِ الْأَسْلِحَةِ مَا يَكُونُ بِهِ الدِّفَاعُ عَنْ دِينِهِمْ وَبِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، بَلْ مَا يَكُونُ بِهِ الْهَجُومُ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ نَقَاتِلَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ؛ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ، حَتَّى يُسَلِّمُوا أَوْ يُدْعِنُوا لِلْإِسْلَامِ، كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ وَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يَدْعُوا عَدُوَّهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَبَوْا فَالْجَزِيَّةُ، فَإِنْ أَبَوْا فَلِيقَاتِلَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَمَرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»^(٢)،

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه، رقم (١٩١٧).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب «فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» [التوبة: ٥]، رقم (٢٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، رقم (٢١).

وما ضَرَّ المسلمينَ اليومَ إلا تخلفُهم عن هذا الأمرِ الإلهيِّ، وهو إعدادُ القوةِ والمقاتلةِ، حتى تكونَ كلمةُ الله هي العليا.

ومن تفسير القرآن بالسُّنة أيضًا، قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالْحُسْنَى هي الجنة، والزيادة فَسَّرَهَا النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم: بأنها النظرُ إلى وجهِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك أن المؤمنينَ في الجنة ينظرونَ إلى الله تعالى بأبصارهم نظرًا حقيقيًّا كما يرونَ الشَّمْسَ صَحْوًا ليسَ دونها سحابٌ، وكما يرونَ القمرَ ليلةَ البدرِ لا يُضامُونَ في رؤيته، قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»^(١).

وهذه الرؤيةُ أفضلُ شيءٍ، وأنعمُ شيءٍ لأهلِ الجنة، لم يُعطوا من النِّعيمِ أكثرَ مما يحصلُ لهم بالنَّظرِ إلى وجهِ الله، وقد جاءَ ذِكرُ هذه المسألةِ في القرآنِ في عدةِ آياتٍ منها هذه الآيةُ، حيثُ فسَّرَهَا النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهو أعلمُ النَّاسِ بمرادِ الله، بأنها النظرُ إلى وجهِ الله، وثبتتُ بها السنةُ بل تواترتُ عن رَسولِ الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ومَن أنكرها فإنه يوشِكُ أن يُحَرِّمَهَا يومَ القيامةِ والعيادُ بالله، ويقالُ له: أنتَ لم تُصدِّقَ بهذا، فلا نصيبَ لك فيه في الدَّارِ الآخرةِ.

والمرتبةُ الثالثةُ من التفسيرِ: أن نرجعَ إلى تفسيرِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، ومثالُ تفسيرِ الصحابيِّ قولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَخَذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ فِي

(١) أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصَّلَاة، باب فضل صلاة العصر، باب (٥٥٤)، مسلم: كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، رقم (٦٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ: «هُوَ وَاللَّهُ الْغِنَاءُ»^(١)

وكتبُ التفسير التي تعني بالآثار كثيرة: كتفسير ابن جرير، وابن كثير، وغيرهما مملوءة بهذا.

وإذا اختلفت آراء الصحابة في تفسير آية من كتاب الله، فارجع إلى من هو أعلم بكتاب الله، ولا شك أن الخلفاء الراشدين أعلم الصحابة بتفسير كتاب الله عز وجل، ثم يليهم من اشتهر عنه العناية بتفسير كتاب الله، ما لم يوجد مرجح للمفضول من القرآن أو السنة، فإن وجد مرجح فلا شك أن القول مع المرجح.

أما المرتبة الرابعة فهي تفسير التابعين، الذين اشتهروا بالأخذ عن الصحابة رضي الله عنهم، كمجاهد بن جبر، الذي أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقد عرّض عليه المصحف من أوله إلى خاتمته، يوقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها، وأما عامة التابعين الذين لم يشتهروا بالعناية بالتفسير، فهؤلاء لا يرجع إلى قولهم؛ لأنهم كغيرهم من العلماء.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، هذه هي الحكمة الثانية من إنزال القرآن، أن يتذكر ويتعظ أولو الأبواب، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، أي عظوا الناس حين ينتفعون بالموعظة، وقوله: ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ يعني أولو العقول؛ لأن اللب هو العقل، وغير ذوي العقول لا يتذكرون بالقرآن،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٤٤٥) رقم (٣٥٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٠٦) رقم (٤٧٤٣).

وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَلَا يَهْتَدُونَ بِهِ، بَلْ إِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَإِنهَا تَزِيدُهم رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِم - والعياذُ بالله -، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

فهذه هي الحكمة من إنزال القرآن، أن تتفكر في معناه حتى تفهمه، ثم تتعظ بما فيه، وبهذا تكون منتفعًا بالقرآن الكريم.

أما مجرد التلاوة فقط فلا شك أن فيها خيرًا، وفيها بركة، والحرف بعشر حسنة، لكن ذلك ليس هو الغاية من إنزال القرآن، وكان الصحابة الذين تعلموا القرآن في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام، لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها، وما فيها من العلم والعمل، فعلينا أن نحث بعضنا بعضًا على تعلم كتاب الله، وفهم معناه، والعمل به، حتى يكون نافعًا لنا في الدنيا والآخرة.

ثم قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

أما سليمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نَّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] أي أعطيناه إياه هبة، والهبة هي بذل الشيء بدون أخذ عوض، وكل ما أعطانا الله تعالى فإنه هبة من هبات الله؛ لأنه بدون عوض، ولا يريد منا الله

عَزَّوَجَلَّ إِذَا أَعْطَانَا عَطَاءً إِلَّا أَنْ نَشْكُرَ، وَالشُّكْرُ يَكُونُ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢] واللَّهُ غَنِيٌّ عَنَا عَزَّوَجَلَّ، سِوَاءُ أَطْعَمَنَا أَمْ عَصَيْنَا.

قوله: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾ ثناءً مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ نِعَمَ الْعَبْدُ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

قوله: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ يعني فِي آخِرِ النَّهَارِ ﴿الصَّافِنَتُ الْجِيَادُ﴾ يعني الخَيْلَ الْجَيِّدَةَ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُحِبُّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْجِهَادُ عَلَى الْخَيْلِ فِيهِ الْخَيْرُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١).

قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ وَهُوَ بَشَرٌ، فَلَهَا عَنِ الصَّلَاةِ ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أَيِ الشَّمْسِ ﴿بِالْحِجَابِ﴾ فَلَمَّا أَهْنَتْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَرَادَ أَنْ يُتْلَفَ هَذَا الْمَالُ الَّذِي أَلْهَاهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ فَرَدُّوَهَا، وَعَرَفْنَا أَنَّهُمْ رَدُّوَهَا لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ السُّوقُ جَمْعُ سَاقٍ، وَالْأَعْنَاقُ جَمْعُ عُنُقٍ، أَيِ بَعْضُهَا عَقَرَهُ، وَبَعْضُهَا قَطَعَ رَقَبَتَهُ.

هَكَذَا وَقَعَ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَتْلَفَ الْمَالُ الَّذِي أَلْهَاهُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَنَظِيرُ ذَلِكَ مَا جَرَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَكُنْهُ لَيْسَ مُشَابِهًا لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَقَدْ أَهْدَى إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ خَمِيصَةً، وَالْخَمِيصَةُ كِسَاءٌ مُرَقَّعٌ لَهُ أَعْلَامٌ، وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّرْكَشَةِ، فَصَلَّى بِهَا وَأَثْنَاءَ الصَّلَاةِ نَظَرَ إِلَى أَعْلَامِهَا -يعني الخطوط التي فيها- نَظْرَةً وَاحِدَةً، فَلَمَّا صَلَّى قَالَ: «اذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (٢٨٥٠)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، رقم (١٨٧٣).

إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأُتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ^(١) أَبِي جَهْمٍ؛ فَإِنَّهَا أَلْهَتْنِي أَنْفًا عَنْ صَلَاتِي^(٢)

فَأَخْرَجَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مُلْكِهِ لِأَنَّهُ انْشَغَلَ بِنَظَرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي صَلَاتِهِ، فَأَبْعَدَهَا عَنْهُ، وَقَدْ طَلَبَ أَنْبِجَانِيَّةَ أَبِي جَهْمٍ لِأَنَّ أَبَا جَهْمٍ هُوَ الَّذِي وَهَبَ لَهُ الْخَمِصَةَ، وَمِنْ حَسَنِ خَلْقِ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ لَمَّا رَدَّ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ أَرَادَ أَنْ يَجْبِرَ قَلْبَ صَاحِبِهَا بِطَلَبِ أَنْبِجَانِيَّةٍ، وَأَعْطَاهُ الْخَمِصَةَ.

فَأَقُولُ: إِذَا رَأَيْتَ فِي مَالِكَ إِشْغَالًا لَكَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَمَا أَحْسَنَ التَّخَلِّي عَنْهُ؛ إِمَّا بَبَيْعِهِ أَوْ بِهَبْتِهِ، أَوْ بِالصَّدَقَةِ بِهِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ حَتَّى لَا يَعُودَ الْإِنْشِغَالُ مَرَّةً أُخْرَى، وَهَذِهِ طَرِيقُ الرِّسْلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



(١) الأنبجانية: كساء غليظ لا علم فيه.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصَّلَاة، باب إذا صلى في ثوب له أعلام ونظر إلى علمها، رقم (٣٧٣)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب كراهة الصَّلَاة في ثوب له أعلام، رقم (٥٥٦).

سورة الزمر

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّيَ وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيِّينَ وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، والمرادُ بأحسن الحديث هو هذا الكتابُ العزيزُ القرآنُ؛ لأنَّ الله قال لرسوله ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فأحسنُ الحديثِ هو هذا القرآنُ، الله تعالى نَزَّلَهُ على محمدٍ ﷺ بِوَاسِطَةِ الرُّوحِ الْأَمِينِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

فهذا القرآنُ هو أحسنُ الحديثِ بلا شكٍّ لفظًا ومعنى، قصصًا وخبرًا وأحكامًا، وفي هذه الآية الكريمة وَصَفَ اللهُ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ مُنَزَّلٌ، ﴿نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فاستدلَّ القرآنُ بذلك على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ولا شكٍّ

في هذا؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

القرآن كلام الله عزَّوجلَّ:

وهل هو كلام الله لفظاً ومعنى، أو هو كلام الله معنى والألفاظ مخلوقة لتعبر عن ذلك المعنى القائم بنفس الله عزَّوجلَّ؟

نقول: هو كلام الله لفظاً ومعنى، كلام الله تعالى مسموع، سمعه جبريل، ونزل به على محمد ﷺ وليس هو المعنى القائم بنفس الله المعبر عنه بالأصوات المخلوقة التي سمعها جبريل، لأنه لو كان كذلك لم يكن كلام الله، بل كان كلاماً مخلوقاً، وكلام الله عزَّوجلَّ صفة من صفاته، وليس بمخلوق، وهذا الذي نقوله هو مذهب السلف الذين هم أهل السنة والجماعة.

وفي هذا أيضاً دليل على أن القرآن غير مخلوق، لأن الله قال: ﴿نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وقلنا: إن الحديث كلام الله عزَّوجلَّ فهو غير مخلوق.

فإذا قال قائل: كيف يكون غير مخلوق والله تعالى يقول: ﴿نَزَلَ﴾ والتنزيل يكون في المخلوقات، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، وكل هذه الأشياء مخلوقة، فالحديد مخلوق، والغيث مخلوق، والهواء الذي ينزل من المطر مخلوق، وكذلك الأنعام ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَجٍ﴾ [الزمر: ٦] مخلوقة، فكيف تقول: إن القرآن غير مخلوق وهو مُنَزَّلٌ؟

فالجواب: لأنَّ القرآنَ وَصَفُ الكَلَامِ، والكَلَامَ وَصَفُ الْمُتَكَلِّمِ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ بِصِفَاتِهِ هو الخالقُ، وما سواه مخلوقٌ؛ ولأنَّ المَخْلُوقَ شيءٌ زائدٌ عن الخالقِ -لأنه مَفْصُولٌ، والمفصولُ دائمُ النقصانِ- ومُنْقَسِمٌ منه، ولهذا إذا صَنَعَ الحدادُ القِدْرَ مثلاً فلا يكونُ من أوصافِهِ، بل مُنْفَصِلٌ عنه، وكذلك البناءُ إذا بَنَى القَصْرَ، فالقَصْرُ مُنْفَصِلٌ عنه، فالْمَخْلُوقُ شيءٌ مُنْفَصِلٌ عن الخالقِ بائنٌ منه، بخلافِ الكلامِ، فإنَّ الكلامَ وَصَفُ الْمُتَكَلِّمِ، والخالقُ عَزَّوَجَلَّ بِصِفَاتِهِ كاملٌ ليسَ شيءٌ من صِفَاتِهِ مخلوقاً.

وفي هذه الآية الكريمة وصف القرآن بأنه مُتَشَابِهٌ ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾، ولكن نجد أنَّ القرآنَ الكريمَ وَصِفَ في بعضِ الآياتِ بأنه مُحْكَمٌ، وفي بعضِ الآياتِ بأنَّ بعضه مُحْكَمٌ، وبعضه مُتَشَابِهٌ، قال تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فجعل الله بعضَ القرآنِ مُحْكَمًا، وبعضه مُتَشَابِهًا، وَحِينَئِذٍ يَقِفُ الإنسانُ مَوْقِفَ الْمُتَأَمِّلِ في هذه الآياتِ، هل هي مُتَعَارِضَةٌ ومُتَنَاقِضَةٌ أم هي مُتَّفِقَةٌ؟ فإن كان الأولُ، ففيه إشكالٌ، لأنَّ الله يقولُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وإن كان الثاني فما وجهُ الجمعِ بين هذه الأوصافِ الثلاثة؟

أقول: يَجِبُ أنْ تَعْلَمَ قاعدةً مُهِمَّةً فيما يَتَعَلَّقُ بالنُّصوصِ الشرعية: وهي أنَّ النُّصوصَ الشرعيةَ لا يُمكنُ أنْ تَتَنَاقَضَ أَبَدًا، لأنَّ التَّنَاقُضَ يعني الاختلافَ، فإن كان في الخبرِ، فهذا يَسْتَلْزِمُ أن يكونَ أَحَدُ الْخَبَرَيْنِ كَذِبًا، وكلُّ الْأَخْبَارِ في النُّصوصِ

الثابتة لا يُمكن أن يُكذَّب بعضها بعضًا، وإن كان في الأحكام فإنه لا بُدَّ أن يكون أحد الحكمين المناقض للآخر منسوخًا، أو أنه ليس هناك مناقضة والخطأ من الفهم. وكذلك أيضًا لا يُمكن أن يكون في النصوص الثابتة ما يُخالف الواقع المحسوس أبدًا، فإن وجدت أو توهمت أن في النصوص تناقضًا أو مخالفة للواقع، فاعلم أن ذلك من قصور فهمك، أو من تقصير بحثك ونظرك في الأدلة، وإلا فلا يُمكن أن يكون في الأدلة الصحيحة تناقض ولا مخالفة للواقع.

وحينئذ نقول في الجمع بين هذه الأوصاف الثلاثة التي وُصف بها القرآن: أمَّا وَصْفُهُ بأنه مُتَشَابِهٌ فالمرادُ به أن بعضه يُشبه بعضًا في الكمال والجودة والإعجاز وغير ذلك من المعاني التي يشتمل عليها القرآن.

ونحن نقول: يُشبه بعضه بعضًا، ولا نقول: يُماثل بعضه بعضًا؛ لأنَّ بعض القرآن أَفْضَلُ من بعض لا باعتبار المتكلم به؛ لأن المتكلم به واحد، ولكن باعتبار ما تحمله بعض الآيات من المعاني العظيمة الجليلة، ولهذا قال النبي ﷺ لأبي ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّ آيَةٍ مَعَكَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ؟» يَسْأَلُهُ، فَقَالَ أَبِي بْنُ كَعْبٍ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: «لِيَهْنَنَّ لَكَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ الْعِلْمُ»^(١)، فَأَقْرَهُ عَلَى أَنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ هِيَ آيَةُ الْكَرْسِيِّ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ^(٢)، وَأَعْظَمُ سُورَةٍ فِي

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الوتر، باب ما جاء في آية الكرسي، رقم (١٤٦٠).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد رقم (٥٠١٣)، ومسلم:

كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم (٨١١).

كتاب الله هي سورة الفاتحة^(١).

فالقُرْآنُ يُفَاضِلُ من هذا الوجه، لكنّه لا يَتَفَاضِلُ باعتبارِ المُتَكَلِّمِ به؛ لأنَّ المُتَكَلِّمَ به هو الله عَزَّوَجَلَّ.

إذن معنى وَصَفِ الْقُرْآنِ بِالتَّشَابُهِ: أَنَّ بَعْضَهُ يُشَبِّهُ بَعْضًا فِي الْكَمَالِ وَالْجُودَةِ وَالْإِعْجَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ.

ومعنى وَصَفِهِ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ أَوْ أَنَّهُ حَكِيمٌ كُلُّهُ: أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَتَنَاقِضُ وَلَا يَتَعَارِضُ، وَهُوَ مُحْكَمٌ فِي أَخْبَارِهِ، مُحْكَمٌ فِي أَحْكَامِهِ، مُحْكَمٌ فِي أَخْبَارِهِ لَكُونِهَا خَاوِيَةً مِنَ الْكَذِبِ، بَلْ هِيَ غَايَةُ الصِّدْقِ وَالْبَيَانِ، مُحْكَمٌ فِي أَحْكَامِهِ لَكُونِهَا خَالِيَةً مِنَ الْجَوْرِ وَالْفَسَادِ، بَلْ كُلُّهَا عَدْلٌ، وَكُلُّهَا صِلَاحٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

أَمَّا مَعْنَى وَصَفِهِ بِأَنَّهُ بَعْضُهُ مُحْكَمٌ وَبَعْضُهُ مُتَشَابِهٌ، فنقول: الإِحْكَامُ غَيْرُ التَّشَابُهِ، الْمُحْكَمُ مَا اتَّضَحَ مَعْنَاهُ وَعَلِمَهُ الْعِبَادُ، وَالتَّشَابُهِ مَا اخْتَلَفَ مَعْنَاهُ، بَحِثُ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَلِهَذَا أُمِثِلُهُ كَثِيرَةً فِي الْقُرْآنِ:

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لِقَوْمِهِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١) قَالَ يَقَوْمُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿[نوح: ١-٤]، أليس في هذه الآية شيءٌ من الإشكال، لأنه قال: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (٤٤٧٤).

﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾، وهذا يدلُّ على أن الإنسان قد يُؤَخَّرُ إلى أجلٍ مُّسَمًّى، ثم قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، فكيف يتَّفَقُ الكلامُ الثاني مع الأول؟ هنا يقعُ اشتباهُ عند العامة، كيف يقول: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٢﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾، ثم يقول: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، إذن كيف يُؤَخَّرُ الأجلُ المُسمَّى؟

نحتاجُ إلى جمعٍ بين هذين النّصّين، ووجهُ الجمع أنَّ أجلَ الله بالعقوبة إذا جاء لا يُؤَخَّرُ، إذا نَزَلَ العذابُ بنزولِ أسبابه فإنه لا يُؤَخَّرُ، لأن الإيمانَ بعدَ نزولِ العذاب لا ينفعُ، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴿٨٤﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

وقال في آيةٍ أخرى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فَكْتُمُوا ﴿٢٣﴾ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَي مَا أَقْرُوا بِشْرِكِهِمْ، وفي الآية الأولى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، فيقعُ الإنسانُ بين هاتين الآيتين، ويقول: كيف قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وقال: إِنَّهُمْ ﴿قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ فيقعُ الإنسانُ في وهمٍ أن في ذلك تعارضًا، ويقول: الذي ليس واضحَ المعنى، لكن يعلمه الراسخون في العلم، يعلمون أنه لا تناقض ولا تعارض.

ووجهُ الجمع بين هاتين الآيتين بأنَّ يومَ القيامة ليس وقتًا قصيرًا بل مقداره خمسون ألف سنة، ففي حالٍ يقولون: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وفي حالٍ: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، ولو أرادوا أن يَكْتُمُوا ما استطاعوا ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾

وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ [يس: ٦٥]، حتى لو أنهم كتموا بأفواههم لحتم الله عليها، وشهدوا جَوَابًا.

فإذن نقول في الجمع: إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ طَوِيلٌ تَخْتَلِفُ فِيهِ الْأَحْوَالُ، وَتَخْتَلِفُ فِيهِ الْأَقْوَالُ أَيْضًا بِنَاءً عَلَى اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ.

إذن في هذا الجمع صار القرآن مُحْكَمًا؛ لأننا إذا حملنا المُتَشَابِهَ على المُحْكَمِ صارَ الْجَمِيعُ مُحْكَمًا، والأمثلة على هذا كثيرة لا نطيل بها.

وهنا اشتباه في الإعراب في القرآن مرَّ علينا في قوله تعالى: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ﴾ (١١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴿[ص: ٢١-٢٢]، فهذه الآية يَشْتَبِهُ إعرابها على طالب العلم، يقول كيف قال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ﴾، والمعروف أن المُشْنَى يُنْصَبُ بالياء، فلماذا قال: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ﴾، فصار بالألف هذا إشكال؟

نقول: الفعل هنا لم يُسَلِّطْ على قوله: ﴿خَصَمَانِ﴾ حتى يَنْصِبَهُ، بل ﴿خَصَمَانِ﴾ خبرٌ لمُبْتَدَأٍ محذوفٍ، والتقدير: نحن خصمان، وهذا من المُشْتَبِهِ الَّذِي لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا طَلَبَةُ الْعِلْمِ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ بِالْعَرَبِيَّةِ، أما الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِالْعَرَبِيَّةِ فهُمْ نَوْعَانِ:

■ نَوْعٌ لَا يَعْلَمُ الْمَرْفُوعَ وَالْمَنْصُوبَ، وَكُلُّهُ سِوَاءٌ عِنْدَهُ.

■ نَوْعٌ آخَرُ يَعْلَمُ الْمَرْفُوعَ وَالْمَنْصُوبَ، فَيَقِفُ حَيْرَانًا أَمَامَ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَذَرِي أَنَّ الْفِعْلَ غَيْرُ مُسَلِّطٍ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿خَصَمَانِ﴾، فيقول: كيف رَفَعَ الْمُشْنَى وهو مَنْصُوبٌ؟

نقول: هذا غير منصوب، فإنَّ الخبر منه محذوفٌ.

لكن مع ذلك هناك لغةٌ للعربِ يجعلون المثنى بالالف دائماً، سواءً كان مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً، فيقولون: قام الرجلان، ورأيتُ الرجلين، ومَرَرْتُ بالرجلان.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الحمد لله ربَّ العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال الله تبارك وتعالى مخاطب نبيه محمدًا صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ ﴿[الزمر: ٣٠-٣١].

والخطاب في قوله: ﴿إِنَّكَ﴾ للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا إشكال في هذا، وقوله: ﴿مَيِّتٌ﴾ أي: ستموت؛ لأنه مخاطبه في حال حياته، ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المكذبون لك ﴿مَيِّتُونَ﴾ أي: سيموتون.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُّمُونَ﴾ من المعلوم أنَّ الغالب في هذه الخصومة هو النبي ﷺ كما قال الله تبارك وتعالى في سورة النساء: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١] فالغالب يوم القيامة في الاختصاص عند الله عز وجل هم أهل الإيمان، وأهل الصلاح، أما أهل الكفر وأهل الفساد، فإنهم لا شك مخصومون، مغلوبون.

الرَّسُولُ ﷺ بَشَرٌ:

وفي هذه الآية الكريمة دليل واضح على أنَّ محمدًا رسول الله عليه الصلاة والسلام بشر يعتريه ما يعترى البشر، حتى إنه عليه الصلاة والسلام قال عن نفسه: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسُونَ» (١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، رقم (٤٠١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٢).

فجميعُ خصائصِ البشرِ كلها لائحةٌ بالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ولكنه يمتازُ عن البشرِ بأمرٍ لا يشركه فيه غيره، إلا إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ألا وهو الرسالة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، بل هو بشرٌ، كغيره من البشر، ولكنه عليه الصلاة والسلام عبدٌ مأمورٌ يتبع ما أنزل إليه من ربه، كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] هذه حقيقة النبي ﷺ أنه بشرٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا، وإنما هو موحي إليه، ويمتاز بهذا الوحي، ونعم هذه الميزة.

وفاة النبي ﷺ:

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ دليلٌ على ما أعلنه أبو بكر رضي الله عنه حينما جاء إلى المدينة وكان رضي الله عنه قد خرج إلى نخلٍ له في السُّنح؛ لأنَّ النبي ﷺ صبيحة موته كان أحسنَ وأنشطَ عما كان من قبل، فاطمئنَّ رضي الله عنه على صحة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ثم خرج إلى مكانه في السُّنح، ولما جاءه الخبرُ دخلَ إلى المدينة، وكان الناس قد اجتمعوا في المسجد؛ لأنَّ الأمر الذي دهمهم أمرٌ عظيمٌ، قال أنس بن مالك: «لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ»^(١)، لأنها فقدت نور محمد ﷺ وما جاء به من الوحي انقطع بموته.

(١) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، بعد باب في فضل النبي ﷺ، رقم (٣٦١٨)، وابن ماجه: كتاب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ، رقم (١٦٣١).

فجاء أبو بكرٍ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ووجده مُسَجًى مُغَطًى مَيْتًا، فَكَشَفَ الْغِطَاءَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طُبْتُ حَيًّا وَمَيْتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ فِي الْمَسْجِدِ، وَبَيْنَهُمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَخْطُبُ النَّاسَ وَهُوَ يُنْكِرُ مَوْتَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِي رِجَالٍ وَأَرْجُلُهُمْ. هَكَذَا ظَنُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَكِنْ أَبَا بَكْرٍ آمَنَ بِمَوْتِهِ بِقَلْبٍ مُوقِنٍ.

ثم دخلَ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا عُمَرُ يَقُولُ هَذَا الْكَلَامَ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ. سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، هَذِهِ كَلِمَاتٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْهُ شَيْئًا، أَمَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ رَبَّ مُحَمَّدٍ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَيٌّ لَا يَمُوتُ^(١).

ثم قرأ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمَيِّتُونَ﴾، قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقَلِّنِي رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ»^(٢)، وَجَلَسَ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ حَقٌّ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاتَ.

وبهذا نعرف ضلالَ مَنْ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ حَيٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ، وَلِأَنَّهُ قَدْ حُتَّ تَامٌ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَيْفَ يَدْفِنُونَ نَبِيَّهُمْ وَهُوَ حَيٌّ! لَكِنَّهُ ﷺ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، رقم (٣٦٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته، رقم (٤٤٥٢).

وَإِخْوَانَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أَحْيَاءٌ فِي قُبُورِهِمْ حَيَاةَ بَرْزَخِيَّةٍ أَعْلَى مِنْ حَيَاةِ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وهذه حَيَاةُ بَرْزَخِيَّةٍ تُخَالِفُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا تَحْتَاجُ إِلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَهَوَاءٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا هُوَ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْحَيَاةِ، أَمَّا الْحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ، فَعِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، لَا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ كَيْفِيَّتِهَا، لَكِنَّا نَوْمِنُ بِهَا حَسَبَ مَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، فَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَيِّتٌ لَا شَكَّ، قَدْ فَارَقَتْ رُوحُهُ جَسَدَهُ، وَلَكِنَّهُ حَيٌّ فِي قَبْرِهِ حَيَاةَ بَرْزَخِيَّةٍ.

فَالْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَبْقَى اللَّهُ أَجْسَادَهُمْ فِي الْأَرْضِ، فَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، أَمَّا غَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، فَقَدْ تَأْكُلُهُمُ الْأَرْضُ، وَقَدْ لَا تَأْكُلُهُمْ، لَكِنِ الَّذِينَ يُتَحَقَّقُ أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَأْكُلُهُمْ هُمُ الْأَنْبِيَاءُ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ»^(١)

مِنْ مَوَاقِفِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخَالِدَةِ:

وَفِي هَذَا الْمَقَامِ الْعَظِيمِ الَّذِي قَامَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْوَى الصَّحَابَةِ قَلْبًا، وَأَرْبَطُهُمْ جَأَشًا، حَيْثُ إِنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْمَوَاقِفِ الْعَظِيمَةِ الْكَبِيرَةِ، يَكُونُ هُوَ أَثْبَتَ الصَّحَابَةِ.

وَنَحْنُ نَضْرِبُ لَذَلِكَ أَمْثَالَ:

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١٠٤٧)، وَالنَّسَائِيُّ: كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ إِكْثَارِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١٣٧٤)، وَابْنُ مَاجَةٍ: كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالسُّنَّةِ فِيهَا، بَابُ فِي فَضْلِ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (١٠٨٥)، وَأَحْمَدُ (٨/٤)، رَقْمُ (١٦٢٠٧).

الموقف الأول: صلح الحديبية؛

تعلمون ما وقع في صلح الحديبية من الشروط القاسية على المسلمين، الهينة على الكافرين، صلح الحديبية سببه أن رسول الله ﷺ اتجه من المدينة بنحو ألف وأربع مئة رجل معهم الهدى من إبل وبقر وغيرهما، يريد العمرة، لا يريد قتالاً، ولكنه لما وصل إلى حدود الحرم في الحديبية -والحديبية مكان بعضه من الحل، وبعضه من الحرم- لما وصل إلى ذلك، بركت ناقته، وأبت أن تتجه إلى مكة، فقال الصحابة: خلأت القصواء. خلأت بمعنى: حرنت، وبركت، والقصواء: اسم لناقته عليه الصلاة والسلام.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق». حتى البهائم يدافع عنها النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام فليس من عادتها أن تحرن وتبرك، «ولكن حبسها حابس الفيل».

وحابس الفيل هو الله عز وجل حبس الفيل الذي قدم به أبرهة من أجل أن يهدم الكعبة المشرفة -زادها الله تعالى شرفاً، وحماها من كل شر- لكن الفيل أبى أن يتجه إلى مكة، فكانوا إذا وجهوه إلى اليمن هزول وأسرع، وإذا وجهوه إلى مكة برك، وأبى أن يدخل إلى مكة، أو أن يتجه إلى مكة، كذلك ناقة النبي ﷺ عليه الصلاة والسلام.

فعلم النبي ﷺ ببروكها أن الأمر وراءه شيء، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهم إياها». اللهم صل وسلم عليه، لا يريد أن ينتقم لنفسه، ولو شاء أن يدخل مكة بألف وأربع مئة رجل لدخل، لكنه عليه الصلاة والسلام عنده من خشية الله ما يمنعه من ذلك.

حَصَلَتِ الْمَفَاوِضَةُ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ، جَاءَ رَسُولُ قُرَيْشٍ لِيَكْتُبَ الْكِتَابَ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ مَسْدُوبُ قُرَيْشٍ: أَمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا هُوَ وَلَكِنْ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فَأَبَوْا. هَذِهِ وَاحِدَةٌ، تَنَازَلُ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ لِأَنَّهُ أَقْسَمَ أَلَّا يَسْأَلُوهُ خُطَّةً يُعَظِّمُونَ بِهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَابَهُمْ.

ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ». فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنْ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، أَمَا أَنْ نُقَرِّ بِوَصْفِهِ بِالرَّسَالَةِ، فَهَذَا حُجَّةٌ عَلَيْنَا، وَلَا يُمْكِنُ.

وَأَقِفْ عِنْدَ هَذِهِ النُّقْطَةِ لِأَنَّهُ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْكُتَّابِ الْآنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ لَكِنْ أَتِيهَا أَفْضَلُ أَنْ نَنْسِبَهُ إِلَى أَبِيهِ كَغَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، أَمْ أَنْ نَنْسِبَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ؟ الثَّانِي بَلَا شَكٍّ.

ولهذا نقول: بدلاً من أَنْ تقولَ: «قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ». قل: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هَذِهِ الْمَسَائِلُ - يَا إِخْوَانِي - يَجِبُ عَلَى طَلَبَةِ الْعِلْمِ أَنْ يَتَّبِعُهَا لَهَا؛ لِأَنَّهَا قَدْ يَدُسُّهَا بَعْضُ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ بِمَعْنَاهَا أَوْ مَغْزَاهَا، لَكِنْ نَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ مُحَمَّدُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المهمُّ أَنَّهُمْ أَبَوْا أَنْ يَكْتُبَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ»، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ. ثُمَّ ذَكَرَ الشُّرُوطَ أَنْ تُوضَعَ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ عَشْرَ سِنِينَ، وَأَلَّا يَدْخُلُوا

مَكَّةَ هَذَا الْعَامَ، يَعْنِي: الرَّسُولَ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَكَانُوا مُحْرَمِينَ مَعَهُمُ الْهَدْيُ، يَقُولُ: لَبَيْكَ عُمْرَةَ، وَصُدُّوا عَنِ الْبَيْتِ.

شُعُورٌ عَظِيمٌ حِينَ يَصُدُّكُمْ صَادٌّ عَنِ الْبَيْتِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ، ثَقِيلٌ عَلَى النَّفْسِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَافَقَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هَذَا الشَّرْطِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَنْ يَأْتِيَ مِنَ الْعَامِ الْقَادِمِ، وَأَيْضًا يَدْخُلُ مَكَّةَ بغير السُّيُوفِ الْمُسَلَّاتَةِ، بِالسُّيُوفِ فِي غِمْدِهَا، وَأَلَّا يَبْقَى فِي مَكَّةَ إِلَّا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ، وَوَافَقَ عَلَى هَذَا، مَعَ أَنَّ فِيهِ تَنَازُلًا عَظِيمًا، لَكِنْ لِأَجْلِ تَعْظِيمِ حُرْمَاتِ اللَّهِ.

وَمِنَ الشُّرُوطِ: مَنْ جَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ مُسْلِمًا وَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ رَدُّهُ، وَمَنْ ذَهَبَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشٍ، لَمْ يَجِبْ رَدُّهُ، وَهَذَا الشَّرْطُ صَعْبٌ جِدًّا، لَيْسَ فِيهِ مُسَاوَاةٌ، كَانَ الْمَفْرُوضُ أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَا يُرَدُّ، كَمَا أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشٍ لَا يُرَدُّ، أَوْ يُرَدُّ الْجَمِيعُ، لَكِنْ قُرَيْشًا بِاسْتِكْبَارِهَا وَعَلَيَائِهَا أَبَتْ إِلَّا أَنْ مَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى قُرَيْشٍ لَا يُرَدُّ، وَمَنْ جَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يُرَدُّ، وَوَافَقَ عَلَى هَذَا.

هَذِهِ الشُّرُوطُ قَاسِيَةٌ. رَاجِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيهَا، وَقَالَ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُّونَا عَلَى الْبَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى». قَالَ: فَلِمَ نُعْطِي الدِّينَةَ فِي دِينِنَا إِذْ نَ؟ حَتَّى قَالَ لَهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». فَلَمَّا أَيْسَ عُمَرُ مِنْ أَنْ يَتَرَاجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ذَهَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَسْتَنْجِدُهُ، فَكَانَ جَوَابُ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَجَوَابِ النَّبِيِّ ﷺ تَمَامًا، حَرْفًا بِحَرْفٍ^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الشُّرُوطِ، بَابُ الشُّرُوطِ فِي الْجِهَادِ وَالْمَصَالِحَةِ مَعَ أَهْلِ الْحَرْبِ وَكِتَابَةُ الشُّرُوطِ، رَقْمُ (٢٧٣١).

عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَقْوَى مِنْ عُمَرَ وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي الْمَقَامِ الضَّنْكِ، وَأَنَّهُ فِي الْمَقَامِ الضَّنْكِ يُوفَّقُ لِلصَّوَابِ تَمَامًا أَكْثَرَ مِمَّا يُوفَّقُ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه واحدة ثبتت فيها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثبوت الجبال.

الموقف الثاني: في موت الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

فَالصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ فَزَعُوا حَتَّى سَمِعُوا الْآيَةَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، وَكَأَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ مِنْ قَبْلُ، وَثَبَّتَ أَبُو بَكْرٍ، مَعَ أَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ أَشَدُّ الصَّحَابَةِ مُصِيبَةً بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِأَنَّهُ صَاحِبُهُ، وَلَأنَّهُ كَانَ خَلِيلَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ اتَّخَذَ الرَّسُولَ ﷺ خَلِيلًا، أَمَا الرَّسُولُ ﷺ فَلَمْ يَتَّخِذْهُ خَلِيلًا، لِأَنَّهُ قَالَ: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَأَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا»^(١).

الموقف الثالث: في إنفاذ جيش أسامة بن زيد:

مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ قُتِلَ فِي غَزْوَةِ مُوتَةَ، فَجَهَّزَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا بِقِيَادَةِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهُوَ صَغِيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَتُوفِيَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْجَيْشُ فِي ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ لِيَتَّجِهَ إِلَى الرُّومِ، فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاضْطَرَبَ النَّاسُ، وَارْتَدَّ مَنْ ارْتَدَّ مِنَ الْعَرَبِ عَزَمَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى إِنْفَازِ هَذَا الْجَيْشِ، فَجَاءَهُ أَنَاسٌ - وَمِنْهُمْ عُمَرُ - يُشِيرُونَ عَلَيْهِ أَلَّا يُنْفِذَ الْجَيْشَ، وَأَنَّ يُبْقِيَ الْجَيْشَ فِي الْمَدِينَةِ؛ لِئَلَّا يَأْتَمَّهَا أَحَدٌ، فَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا كُنْتُ لَأَرُدَّ أَمْرًا أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٤٨٢، رقم ٩٧٧٧).

وَنَفَذَ الْجَيْشُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الشَّدِيدَةِ، فَكَانَ فَتْحًا وَنَصْرًا، حَيْثُ قَالَ الْعَرَبُ الْمُزْتَدُّونَ: إِنْ هَؤُلَاءِ لَدَيْهِمْ قُدْرَةٌ وَقُوَّةٌ، إِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَغْزُوا الرُّومَ. فَلَحِقَهُمْ مِنَ الرُّعْبِ وَالْخَوْفِ مَا أَوْجَبَ أَنْ يَكْبَحَ جَمَاحُهُمْ فِي الرَّدَّةِ، فَكَانَ ذَلِكَ نَصْرًا وَفَتْحًا.

الموقف الرابع: في حروب الردة:

ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَقَالُوا: إِنَّا نُؤْمِنُ بِهِ، وَنَسْتَجِيبُ لَهُ مَا دَامَ حَيًّا، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَلَا، أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِقِتَالِهِمْ، وَرَاجِعَهُ مَنْ رَاجِعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنْ أَبِي، وَقَالَ: «وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ». وَعَزَمَ عَلَى قِتَالِهِمْ، وَفِعَلًا نَفَّذَ ذَلِكَ، فَقَالَ عُمَرُ: «فَوَاللَّهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ»^(١).

عَلَى كُلِّ حَالٍ، نَحْنُ أَتَيْنَا بِأَمِثْلَةٍ عَلَى قُوَّةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقُوَّةِ جَاشِيهِ، وَأَنَّهُ أَصْبَرَ الصَّحَابَةَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَأَشَدَّهُمْ عَزْمًا.

أَمَّا مَوْتُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَكَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاتَ كَمَا يَمُوتُ الْبَشَرُ، كَمَا أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَغَيْرِهَا، وَأَنَّ جَمِيعَ الْخَصَائِصِ الْبَشَرِيَّةِ ثَابِتَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ يَمْرُضُ، وَيَجُوعُ، وَيَعْطَشُ، وَيَبْرُدُ، وَيَحْتَرِزُ مِنَ الْعَدُوِّ، وَيَلْبَسُ الدَّرْعَ فِي الْقِتَالِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْخَصَائِصِ الْبَشَرِيَّةِ، لَكِنَّهُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم (٢٠).

فُضِّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالرَّسَالَةِ؛ لِأَنَّهُ أَهْلٌ لَهَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فَصَلُّوا تُ اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى الْعَالَمِينَ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ مُبَلِّغًا عَنَّا: ﴿يَعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾،
وَالْعِبَادُ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ، وَلْيُسُوا عِبَادَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَبْدُ اللَّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾
[الفرقان: ١]، وَقَالَ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]. وَقَالَ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ
فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبُودِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا فِي مَقَامَاتِ الشَّرَفِ، فِي مَقَامِ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ، فِي مَقَامِ
الْإِسْرَاءِ، فِي مَقَامِ التَّحْدِي؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَفْضَلَ وَصْفٍ يَتَّصِفُ بِهِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَكُونَ
عَبْدًا لِلَّهِ - نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ - فَهَذَا أَشْرَفُ وَصْفٍ يَتَّصِفُ
بِهِ، أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ.

وَاسْتَمِعُوا إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ الْعَاشِقِ، يَقُولُ^(١):

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِمَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٥ / ١٠)، تفسير ابن كثير (١٣٦ / ١).

يقول: إذا ناديتني فلا تُنادني إلا بقول: يا عبد فلانة!! فإنه أشرف أسمائي، لكن أشرف أوصاف الإنسان أن يكون عبداً لله.

الإسراف على النفس:

﴿الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: تجاوزوا الحد، وذلك بانتهاك حُرْمَاتِ الله، أو بتهاون بأوامر الله؛ لأن الإسراف مجاوزة الحد، ويكون هذا بأمرين:

الأمر الأول: التهاون بالواجب.

الأمر الثاني: انتهاك المحرم.

فمن لم يُقِمِ الصَّلاةَ، فهذا من التهاون بالواجب، ومن زنى فهو من انتهاك الحُرْمَاتِ، وكلاهما إسراف؛ لأن الإسراف تجاوز الحد، والإنسان المخالف لأوامر الله متجاوز للحد، إذن: أسرفوا على أنفسهم بترك الواجب، أو انتهاك المحرم.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ والقنوط أشدُّ اليأس، ولا يقنط من رحمة الله إلا من لم يُقدِّرِ الله حقَّ قدره، كما قال إبراهيم عليه الصَّلاة والسلام للملائكة حين قالوا له: ﴿بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِيطِينَ﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿[الحجر: ٥٥-٥٦] أي: لا يقنط من رحمة الله ويأس منها إلا الضالُّ، الذي لم يُقدِّرِ الله حقَّ قدره.

ووجه ذلك أن كلَّ قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، يُقلِّبها كيف يشاء، فإن شاء أزاغ القلب وإن شاء هداه، وكم من إنسان كان زائغاً فهذه الله، وكم من إنسان كان مهتدياً فأزاغه، لكن لا يمكن أن يُزيغ الله من كان مهتدياً

إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ بَلَاءٌ، أَمَا إِنْ كَانَ سَلِيمًا، فَإِنَّهُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُزِيغَهُ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وَالْقَلْبُ السَّلِيمُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُزِيغَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْرَمَ مَنْ أَنْ يُزِيغَ هَذَا الْقَلْبَ السَّلِيمَ.

وَلِهَذَا أَقُولُ لَكَ - وَلِنَفْسِي قَبْلَكَ -: فَتَشْ قَلْبَكَ، هَلْ فِيهِ شَكٌّ، هَلْ فِيهِ حَقْدٌ، هَلْ فِيهِ كَرَاهَةٌ لِبَعْضِ شَرَائِعِ اللَّهِ، هَلْ فِيهِ حَسَدٌ؟ هَذِهِ الْأُمُورُ قَدْ تَبَدُّو سَهْلَةً، لَكِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ كَالسُّوسَةِ فِي التَّمْرَةِ تَقْضِي عَلَيْهَا، فَتُعْدِمُهَا. طَهَّرْ قَلْبَكَ مِنَ الشَّرِّكَ، مِنَ الرِّيَاءِ، مِنَ الشَّكِّ، مِنَ النِّفَاقِ، مِنَ الْغِلِّ، مِنَ الْحَقْدِ، مِنَ كَرَاهَةِ شَيْءٍ مِمَّا شَرَعَ اللَّهُ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّكَ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا جَمِيعًا.

وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ قَلْبُهُ سَلِيمًا فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ لِيَحْرِفَهُ، وَقَدْ يَكُونُ قَلْبُهُ صَحِيحًا فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ لِيُفْسِدَهُ، وَقَدْ يَكُونُ الْقَلْبُ مُضْمِتًا قَوِيًّا فَيَأْتِي الشَّيْطَانُ لِيَحْرِقَهُ، وَذَلِكَ بَأَنْ يُلْقِيَ الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ الشَّكَّ. فَدَائِمًا تَطَرُّ عَلَى الْإِنْسَانِ هَوَاجِسُ رَدِيئَةٍ، لَوْ نَطَقَ بِهَا بِلِسَانِهِ أَوْ أَقْرَهَا بِقَلْبِهِ لَكَانَ كَافِرًا بِاللَّهِ، لَكِنْ إِذَا طَرَدَهَا وَلَمْ يَبَالِ بِهَا، وَأَعْرَضَ عَنْهَا، وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، فَسَرَّعَانَ مَا تَرُؤُلُ.

وَلِهَذَا شَكَا الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَوْجَدْتُمْ ذَلِكَ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»^(١). أَي: خَالِصُ الْإِيمَانِ، فَقَدْ يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مَا يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ فَحَمَّةَ مُحْرِقَةٍ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَمَا يُحِبُّ أَنْ يَسْقُطَ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَا يَتَكَلَّمُ بِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٢).

وليس معنى هذا أن الإنسان كفر، لكن إياك أن تُقرّ ذلك بقلبك، أو تُثبتهُ.
فاطرُده، وانفضهُ.

وقَدْ أَعْطَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَوَاءً نَاجِعًا نَافِعًا، فَقَالَ: «إِذَا وَجَدَ ذَلِكَ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَلْيَتَّهِ»^(١)، استعاذةً بالله فيما لا تُقَدِّرُ عليه، وذلك بطرد الشَّيْطَانِ، «وَلْيَتَّهِ» أي: فيما تُقَدِّرُ عليه، فَتَقْدِرُ أَنْ تَنْتَهِيَ عَنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ وتُعْرِضَ عَنْهَا، وَتَشْتَغِلَ بِعَمَلِكَ، وَقُلْ لِنَفْسِكَ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْوَسَاوِسُ: أَلَمْ أَتَوَضَّأْ فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ، فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَأَخْرُجُ إِلَى الْمَسْجِدِ فِي الرِّيحِ الْبَارِدَةِ، وَأُصَلِّي؟ فَسَقُولُ النَّفْسُ: بَلَى.
إِذَنْ، لِمَاذَا أَفْعَلُ هَذَا الشَّيْءَ؟ لِمَاذَا أَشُقُّ عَلَى نَفْسِي هَذِهِ الْمَشَقَّةَ، إِلَّا لِأَنِّي أَوْمِنُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَيَكُونُ مَا يُلْقِيهِ الشَّيْطَانُ مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالشُّكُوكِ مَطْرُودًا بِهَذَا، أُعْرِضُ عَمَّا وَقَعَ فِي قَلْبِي مِنَ الشَّكِّ، وَأَنْظُرُ مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلَا يَهْمُنِي ذَلِكَ الشَّكُّ.
وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ يُبْتَلَى بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْإِخْوَةِ إِذَا التَزَمُوا، فَإِذَا التَزَمُوا وَرَأَى الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ مُلتَزِمُونَ، ذَهَبَ يُلْقِي الشُّكُوكَ وَالْكَفَرِيَّاتِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُوَفِّقُ لَشَخْصٍ يَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ، وَيَهْدِيهِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُوَفِّقُ، فَيَتَكَبَّرُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-.

التَّوْبَةُ وَشُرُوطُهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]. أي: لَا تَيَاسُؤُوا، فَالْيَأْسُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٧٦)، وأخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، رقم (١٣٤).

مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ضَلَالٌ وَكُفْرٌ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ ^(١):

وَلَا تَقْنُطَنَّ إِذَا أَوْجَعَتْكَ الذُّنُوبُ فِدَاوِيهَا بَرِّفِ يَدِي فِي اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ مُظْلِمٌ
وَلَا تَقْنُطَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّمَا قُنُوطُكَ مِنْهَا مِنْ خَطَايَاكَ أَعْظَمُ

وَصَدَقَ الشَّاعِرُ؛ فَالْقُنُوطُ ضَلَالٌ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ كُفْرٌ، فَلَا تَقْنُطْ.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الذُّنُوبُ مِنْ صِيغِ الْعُمُومِ، أَي: كُلُّ الذُّنُوبِ، وَالْعُمُومُ كَانَ بَدْخُولِ (ال)، فَهِيَ إِنْ لَمْ تَكُنْ لِبَيَانِ الْحَقِيقَةِ، وَلَمْ تَكُنْ لِلْعَهْدِ، فَإِنَّمَا تُفِيدُ الْعُمُومَ وَالِاسْتِغْرَاقَ، وَاسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [العصر: ١-٣] الْإِنْسَانُ هُنَا مُفْرَدٌ، وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ (ال) فَيَكُونُ عَامًّا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَالِاسْتِثْنَاءُ -كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ-: مِعْيَارُ الْعُمُومِ. إِذَنْ: يَغْفِرُ كُلَّ الذُّنُوبِ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْعُمُومَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَمِيعًا﴾، فَكُلُّ الذُّنُوبِ يَغْفِرُهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَا الْجَمْعُ بَيْنَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿[النساء: ٤٨]﴾ فَهَذَا نَفَى أَنْ يَغْفِرَ الشُّرْكَ، وَالْآيَةُ الَّتِي نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا يَقُولُ: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾؟

وَالْجَوَابُ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿[النساء: ٤٨]﴾ فِي غَيْرِ التَّائِبِينَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فَهَذِهِ فِي التَّائِبِينَ.

فَمَنْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ فَاللهُ يُغْفِرُ ذَنْبَهُ مَهْمَا عَظُمَ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ، وَمَاتَ عَلَى إِصْرَارِ الذَّنْبِ، فَإِنْ كَانَ شُرْكَاءَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ، وَإِنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنْ شَاءَ غَفَرَهُ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَغْفِرْهُ.

وإنما نحتاجُ إلى بيانِ الجَمْعِ بينَ الآيتينِ؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَنَاقُضًا، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَيْسَ بِهِ تَنَاقُضٌ أَبَدًا، وَإِذَا ظَنَنْتَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ تَنَاقُضًا فَاتَّهِمِ نَفْسَكَ، إِنَّمَا ظَنُّ التَّنَاقُضِ لِسُوءِ فَهْمِكَ، أَوْ قِلَّةِ عِلْمِكَ، أَوْ سُوءِ نِيَّتِكَ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَكُونُ سَيِّئَ النِّيَّةِ يَتَّبِعُ الْآيَاتِ الَّتِي ظَاهِرُهَا التَّعَارُضُ فِي الْقُرْآنِ؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُشَكِّكَ بِهَا النَّاسُ، وَهَذَا لَا يَمَكِّنُ أَنْ يَهْتَدِيَ لِلصَّوَابِ، أَوْ إِنْسَانًا يَكُونُ قَاصِرَ الْعِلْمِ، أَوْ إِنْسَانًا قَاصِرَ الْفَهْمِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمَكِّنُ أَنْ يُوجَدَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَتَنَاقَضُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فَإِذَا ظَنَنْتَ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ تَنَاقُضًا فَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ، وَفَكِّرْ فِي الْمَعْنَى مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ.

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُهُ مِنْ الْكُتُبِ الَّتِي تَبْحَثُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ، كِتَابُ (دَفْعِ إِيهَامِ الْأَضْطِرَابِ عَنْ آيِ الْكِتَابِ) لِلشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - صَاحِبِ أَضْوَاءِ الْبَيَانِ، فَهُوَ كِتَابٌ جَيِّدٌ فِي بَابِهِ.

وَالتَّوْبَةُ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهَا سَهْلَةٌ، وَلِهَذَا إِذَا قُلْتَ لَهُ مَرَّةً مِنَ الْمَرَّاتِ: عَلَيْكَ بِهَذَا الذَّنْبِ أَنْ تُتُوبَ إِلَى اللَّهِ، وَتَسْتَغْفِرَ. قَالَ: مَا عَلَيَّ إِلَّا هَذَا؟ قُلْنَا: نَعَمْ، وَلَيْسَ فِيهِ كَفَّارَةٌ. فَيَظُنُّ أَنَّ الْكَفَّارَةَ مُدٌّ مِنْ طَعَامٍ أَصْعَبَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَهَذَا خَطَأٌ، فَالتَّوْبَةُ لَيْسَتْ

بالأمر السَّهْل، فالتَّوبَةُ تَحْتَاجُ إِلَى شُرُوطٍ خَمْسَةٍ لَا بُدَّ مِنْهَا:

الأَوَّل: الإِخْلَاصُ.

والثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ.

والثَّالِثُ: الإِقْلَاعُ عَنْهُ فَوْرًا.

والرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ.

والخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ فِي وَقْتٍ تُقْبَلُ فِيهِ التَّوبَةُ.

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ:

ومعناه: أَلَّا يَكُونَ الْحَامِلُ عَلَى التَّوبَةِ مُرَاءَاةَ النَّاسِ، أَوْ ابْتِغَاءَ مَالٍ، أَوْ ابْتِغَاءَ مَرْتَبَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَوْ مَا أَشَبَّ ذَلِكَ، فَلَا يَحْمِلُهُ عَلَى التَّوبَةِ إِلَّا خَوْفُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَابْتِغَاءُ مَرْضَاتِ اللَّهِ، فَلَا يُرِيدُ بِتَوْبَتِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِطْلَاقًا، فَمَنْ تَابَ أَمَامَ النَّاسِ رِثَاءً، فَإِنْ تَوْبَتُهُ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى سَفَاهَتِهِ، وَعَلَى نَقْصِ دِينِهِ؛ إِذْ كَيْفَ يَتُوبُ أَمَامَ النَّاسِ وَلَا يَتُوبُ أَمَامَ اللَّهِ؟! فَالْأَوْجَبُ مُرَاءَاةُ الْخَالِقِ، وَلَيْسَ الْمَخْلُوقُ، فَالْمَخْلُوقُ لَا يَنْفَعُهُ، وَلَا يَنْفَعُكَ إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَارْقِبِ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَى اللَّهِ، مُخْلِصًا لَهُ التَّوبَةَ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ عَلَى مَا فَاتَ:

أَي: يَتَأَثَّرُ، وَيَقُولُ فِي قَلْبِهِ: لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ. لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَفْعَلُ الذَّنْبَ، وَلَكِنْ لَا يَنْدَمُ، أَي: فِعْلُهُ وَعَدَمُهُ سِيَانٌ عِنْدَهُ، لَكِنْ يَنْدَمُ وَيَتَأَسَّفُ وَيَتَحَسَّرُ، وَيَقُولُ فِي قَلْبِهِ: لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ. وَهَذَا هُوَ النَّدَمُ.

وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى بَعْضِ الْعُلَمَاءِ كَيْفَ يَكُونُ النَّدَمُ شَرْطًا وَالنَّدَمُ انْفِعَالٌ نَفْسٌ

لا يمكن تطلبه؟ فيقال: المراد بالندم أن يظهر على الإنسان أثر فعل الذنب، أي: إنه يتأسف، ويقول: ليتني لم أفعله.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الإِفْلَاحُ عَنِ الذَّنْبِ؛

فإن كان الذنب ترك واجب بادر إلى فعله، وإن كان فعل محرم بادر إلى تركه، وإن كان يتعلق بحقوق الناس بادر إلى استئصال الناس من هذا الذنب. فمثلاً رجل يتعامل بالربا، يأخذ الربا، وهو يعلم أنه حرام، فتأب وندم، ويُقْلَعُ عنه بأن يتصدق بما اكتسبه من الربا تخلصاً منه؛ لأنه لو تصدق بما اكتسب من الربا تقرباً إلى الله لم يقبل منه، ولم تبرأ ذمته من الربا لم يقبل منه، لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(١)، وكَسِبُ الربا ليس بطيب، ولا تبرأ الذمة بذلك، لأنه تصدق به على أنه ملكه لا على أنه مُتَبَرِّئٌ منه.

ويتصدق به تخلصاً منه بأن ينوي بذلك أنه يريد السلامة من الإثم، لا التقرب إلى الله بالصدقة، وحينئذ يسلم من الإثم.

أرأيتم لو كانت عنده أموال كثيرة من الربا، وقد تعامل بها وهو يعلم أنها ربا، ثم هداه الله، فبنى بذلك مساجد بما اكتسبه من الربا؛ تخلصاً من هذا الربا، فالصلاة في هذه المساجد جائزة وصحيحة، فما ذنب المسجد والرجل قد أخرج هذا المال؛ تخلصاً منه حتى يسلم منه.

ولو أعان به شخصاً على الزواج، وقال: إنه يريد أن يتصدق بهذا الربا؛ تخلصاً منه، فيجوز للمعان أن يقبله وهو فقير محتاج، فهذا يجوز، كبناء المساجد؛ لأن

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتبريتها، رقم (١٠١٥).

هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنْ اسْمِ الرَّبِّ إِلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، فَأُخْرِجَ الرَّبَّ لِأَجْلِ التَّخَلُّصِ مِنْ إِثْمِهِ.

فلو أن هذا الرجل الذي اكتسب الربا اكتسبه قبل أن يعلم أنه رباً، ثم من الله عليه وتاب، فلا يلزمه أن يُخرج ما اكتسبه بإجماع الفقهاء، والدليل قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ﴾ بعد أن جاءته الموعظة ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولو أن رجلاً سرق من شخص مالا، وتاب إلى الله، فلا تتم توبته إلا برده إلى صاحبه، فإن لم يعلم صاحبه فإنه يتصدق به لصاحبه والله يعلمه، ثم إن جاء صاحبه يوماً من الدهر، فإنه يُخبره يقول: أنا أخرجتُ هذا صدقةً عنك، فإن شئت فهو لك، وإلا فهذا مالك، وأجر الصدقة لي.

ولو أن رجلاً سرق من شخص مالا، وتاب إلى الله، ولكن الذي سرقه مات، فعليه أن يرده إلى ورثته، فإن لم تكن له ورثة رده إلى بيت المال؛ لأن الأموال التي تورث ممن لا وراث له، تكون لبيت المال، ولكن بعض الناس يقول: أنا الآن تائب من السرقة، وأنا سرقْتُ من فلان، وأعرفُ أني سرقْتُ منه، لكن يشقُّ عليَّ أن أذهب إليه، وأقول: إني سرقْتُ منك. أخشى إذا قلتُ: أنا سرقْتُ منك ألفَ ريال، وهذا ألفُ ريال. فإذا به يقول: أنا فقدتُ من مالي مليونَ ريالٍ! فيتهمه بها، فهذا عليه أن ينظر إلى شخص من أصحابِ الأمان، ويقول له: يا فلان، في حالِ سفهِي وجهالتي سرقْتُ من فلانٍ ألفَ ريال، وأنا الآن تائبٌ إلى الله، وهذه الألفُ ريال. فالمُحْسِنُ المصلحُ يذهبُ إلى صاحبِ الدراهم، ويقول: هذه دارهم مسروقةً منك، وقد أتاني

السَّارِقُ تَائِبًا، وَهَذِهِ دَرَاهِمُكَ، وَبِذَلِكَ يَسْلَمُ مِنْهُ.

وَإِذَا سَرَقَ رَجُلٌ مِنْ إِنْسَانٍ شَيْئًا مُعَيَّنًا، كَسَاعَةٍ مَثَلًا، وَتَابَ إِلَى اللَّهِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ، فَإِذَا قَالَ: أَنَا أَخْشَى إِذَا رَدَدْتُهَا إِلَيْهِ أَنْ يُقِيمَ دَعْوَى. فَنَقُولُ كَمَا قُلْنَا فِي الْأَوَّلِ: اذْهَبْ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَأَخْبِرْهُ بِالْوَاقِعِ، وَالرَّجُلُ الْمَصْلُحُ النَّاصِحُ يَرُدُّهَا إِلَى صَاحِبِهَا، وَيَقُولُ: هَذِهِ سُرِقَتْ مِنْكَ، وَالْآنَ السَّارِقُ تَابَ، فَهِيَ لَكَ.

وَلَوْ كَانَ الْمَسْرُوقُ قَدْ نَقَصَ عِنْدَ السَّارِقِ، فَالسَّاعَةُ حِينَ سَرَقَهَا جَدِيدَةً، ثُمَّ أَصْبَحَتْ الْآنَ قَدِيمَةً، وَنَقَصَتْ بِالِاسْتِعْمَالِ، فَالسَّارِقُ يَضْمَنُ نَقْصَهَا، وَلَا تَتِمُّ تَوْبَتُهُ إِلَّا إِذَا ضَمِنَ النَّقْصَ؛ لِأَنَّهَا نَقَصَتْ تَحْتَ يَدِهِ، وَيَدُهُ يَدٌ سَارِقَةٌ لَيْسَتْ مُحْتَرَمَةً، فَتَضْمَنُ مَا نَقَصَ تَحْتَ يَدِهَا.

المهم: أَنَّ التَّوْبَةَ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ لَا تَتِمُّ إِلَّا إِذَا وَصَلَ الْحَقُّ إِلَى مُسْتَحِقِّهِ. وَإِذَا كَانَ الذَّنْبُ فِي غَيْرِ الْمَالِ، وَهُوَ حَقُّ آدَمِيٍّ، مِثْلُ أَنْ يَكُونَ رَجُلٌ اغْتَابَ شَخْصًا فِي مَجْلِسٍ، سَوَاءٌ اغْتَابَ عَالِمًا مِنَ الْعُلَمَاءِ، أَوْ اغْتَابَ إِمَامًا مِنْ أئِمَّةِ الْمَسَاجِدِ، أَوْ اغْتَابَ تَاجِرًا مِنَ التُّجَّارِ، أَوْ اغْتَابَ دَاعِيَةً مِنَ الدُّعَاةِ، الْمَهْمُ أَنَّهُ اغْتَابَ شَخْصًا، وَالْغِيْبَةُ اعْتِدَاءٌ عَلَى حَقِّ الْغَيْرِ، فَلْيُكَلِّمُهُ، إِذَا كَانَ الَّذِي اغْتَابَ قَدْ عَلِمَ بِالْغِيْبَةِ، فَيَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَيَقُولُ: لَا بُدَّ أَنَّكَ سَمِعْتَ عَنِّي فَيْكَ كَذَا وَكَذَا، وَأَنَا الْآنَ جِئْتُ مُعْتَذِرًا تَائِبًا. وَنَقُولُ لِصَاحِبِهِ: إِنْ مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَعْفُو عَنْهُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ التَّائِبَ الَّذِي جَاءَ مُعْتَذِرًا يَنْبَغِي أَنْ يُقَابَلَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ، وَأَنْ تَعْفُو عَنْهُ، أَمَا إِذَا كَانَ لَمْ يَعْلَمْ وَأَنْتَ عَالِمٌ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ بِاِغْتِيَابِكَ إِيَّاهُ، فَيَكْفِي أَنْ تَدْعُو لَهُ، وَأَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُ، وَأَنْ تُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ مِنْ وَضْفِهِ فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي اغْتَابَتْهُ فِيهِ، وَلَا حَاجَةَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّكَ

رُبَّمَا لَوْ ذَهَبَتْ إِلَيْهِ بَقِيَّةُ نَفْسِهِ شَيْءٌ وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ الْآنَ أَنَّكَ اغْتَبَبْتَهُ، فَلَا حَاجَةَ لِأَنْ تَذَهَبَ إِلَيْهِ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى الْإِعْدَادِ

أي: أن يعزم بقلبه أنه لا يعود لهذه المعصية، فإن تاب، وندم، وأقلع، لكن في نفسه أنه لو سَنَحَتْ له الْفُرْصَةُ لَعَادَ لِهَذَا الذَّنْبِ، فَإِنْ تَوْبَتُهُ لَا تُقْبَلُ، فَإِذَا عَزَمَ إِلَّا يَعُودَ، ثُمَّ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَادَ، فَإِنْ تَوْبَتُهُ الْأُولَى تَبَطَّلَ، فَيَجِبُ أَنْ يَشْتَرِطَ أَنْ يَعْزِمَ إِلَّا يَعُودَ، فَلَوْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَعَادَ، فَتَوْبَتُهُ الْأُولَى صَحِيحَةٌ، بَاقِيَةٌ عَلَى صِحَّتِهَا، لَكِنْ يُحْدِثُ لِلذَّنْبِ الثَّانِي تَوْبَةً.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ فِي زَمَنِ قَبُولِ التَّوْبَةِ:

وَزَمَنُ قَبُولِ التَّوْبَةِ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ حُضُورِ الْمَوْتِ بِالنِّسْبَةِ لِكُلِّ فَرْدٍ، وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْعُمُومِ، فَلَوْ لَمْ يَتُبِ الْإِنْسَانُ إِلَّا حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَإِنْ تَوْبَتُهُ لَا تُقْبَلُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِثْمَ﴾ [النساء: ١٨] لَا يَنْفَعُهُ هَذَا، وَقَدْ تَابَ فِرْعَوْنُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، فَلَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، بَلْ قِيلَ لَهُ: ﴿إِنِّي لَأَكُنَّ وَاقِدًا لَّعَنَتٍ لِّكُفَّارٍ﴾ [يونس: ٩١].

وَلَا تُقْبَلُ التَّوْبَةُ إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَهَذَا فِي آخِرِ الزَّمَانِ، فَالْشَّمْسُ الْآنَ تَطْلُعُ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ كُلِّ يَوْمٍ، فَإِذَا قَرَّبَ الزَّمَانُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُهَا أَنْ تَرْجِعَ، فَتَخْرُجُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا رَأَاهَا النَّاسُ آمَنُوا كُلُّهُمْ، حَتَّىٰ إِنْ الْكُفَّارِ سَيُضْبِحُونَ مُسْلِمِينَ، وَالْمُذْنِبُونَ مُسْتَقِيمِينَ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ تَوْبَةٌ قَبْلَ طُلُوعِ

الشمس من مغربها، فإنه لا ينفعه.

ويجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة؛ لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، ولأن الإنسان لا يأمن، فالإنسان ربما يموت بغتة، وربما يخرج ولا يرجع لبيته، ينام ولا يقوم من فراشه، فالواجب المبادرة بالتوبة.

وبهذه المناسبة، أقول لإخواني الذين عليهم حقوق لغيرهم: بادروا بالتوبة منها.

فمما يستحق التوبة: ما يفعله بعض الأغنياء، يماطل بقضاء ما عليه مع قدرته على ذلك، فتجد صاحب الحق الذي باع عليه السلعة، يأتي إليه، ويقول: يا فلان، أعطني حقي. فيقول: غدا، فيأتي غدا، فيقول: بعد غد، ويجيء بعد غد يقول: في الأسبوع الثاني، فيجيء في الأسبوع الثاني يقول: في الشهر الثاني! وهذا حرام، فكل من كان قادراً على الوفاء فإن تأخيرهُ للوفاء ولو لحظة، لا يزداد به إلا إثماً وظلماً؛ لقول النبي ﷺ: «مطلُ الغني ظلم»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ومعنى قوله: ﴿يَغْفِرُ﴾: يتجاوز ويسرُ الذنوب كلها، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] والغفور الرحيم اسمان من أسماء الله، أحدهما يتضمن المغفرة، والثاني يتضمن الرحمة، فالمغفرة للمذنبين، والرحمة للمطيعين، فالمذنبون يغفر لهم، والمطيعون يرحمون بمضاعفة

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحوالات، باب الحوالة، وهل يرجع في الحوالة؟ رقم (٢١٦٦)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة، رقم (١٥٦٤).

الجزاء: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] أي: ارجعوا إليه، والرجعوا إليه، واجعلوه مرجعكم في كل شيء، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: لله عز وجل أي: انقادوا له أتم الانقياد. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] أي: لا بد أن تتوبوا إليه، وتنبؤوا إليه، وتلجؤوا إليه، وتعتصموا به.

وقد هدّد الله عز وجل العصاة بأن يأتيهم العذاب إما وهم نائمون، وإما أن يأتيهم ضحى وهم يلعبون، قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٧) ﴿أَوْ أَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١٨) ﴿أَفَأَمِنْهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا مِنْ غَيْرِ مَكْرٍ أَلَمْ يَكْفِ بِهَذَا الْقَوْمِ الْمَكْرُ الْفَاسِدُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨-٩٩].

يقول الله عز وجل: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] أي: لا أحد يمنعكم من عذاب الله؛ لأنّ الناس إذا لم يتوبوا إلى الله، واستمروا في معاصيهم، فإنّ الله تعالى ينزل بهم بأسه، الذي لا يردّ عن القوم المجرمين، نسأل الله تعالى أن يوفّقنا وإياكم للتوبة.



الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الحمدُ لله ربَّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّد خاتم النبيِّين، وإمام المُتَّقِينَ، وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

قَوْلُهُ: ﴿قُلْ﴾ خطابٌ مُوجَّهٌ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وكونُهُ يُوجَّهُ إِلَيْهِ خطابٌ في شيءٍ معينٍ، يَدُلُّ على أهمية هذا الشيء، وإلاَّ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَأْمُورٌ أَنْ يُبَلِّغَ الْأُمَّةَ كُلَّ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ تَأْتِي بَعْضُ الْآيَاتِ وَبَعْضُ الْأَحْكَامِ مُصَدَّرَةً بِـ ﴿قُلْ﴾ بِخُصُوصِهَا؛ لِلْعِنَايَةِ بِهَا.

قَوْلُهُ: ﴿يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أَسْرَفُوا أَي: تَجَاوَزُوا الْحَدَّ إِمَّا بِالتَّفْرِيطِ بِتَرْكِ الْوَاجِبِ، وَإِمَّا بِإِتْهَاكِ الْمُحَرَّمَ، التَّفْرِيطُ بِتَرْكِ وَاجِبٍ كَتَرْكِ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ - مثلاً - وإِتْهَاكِ الْمُحَرَّمَ كَالزَّنا وَشَرْبِ الْخَمْرِ.

قَوْلُهُ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ الْقُنُوطُ أَشَدُّ الْيَأْسِ، أَي: لَا تَيَاسُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ عِبَادِهِ إِذَا تَابُوا إِلَيْهِ.

أقسامُ النَّاسِ بِالنِّسْبَةِ لِلذُّنُوبِ:

وَالنَّاسُ أَمَامَ الذُّنُوبِ يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ.

الثَّانِي: مَنْ قَنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

الثَّالِثُ: مَنْ كَانَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا.

القسم الأول: مَنْ آمَنَ مَكَرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛

بأن كَانَ يَنْتَهِكَ المحارمَ، وَيَتْرَكَ الواجباتِ وَلَا يُبَالِي، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْعِمُ عَلَيْهِ بِالنِّعَمِ مَعَ إِقَامَتِهِ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَهَذَا آمَنَ مَكَرَ اللَّهِ، يَظُنُّ أَنَّهُ رَابِحٌ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ خَاسِرٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وَلَنَضْرِبَ لِهَذَا مَثَلًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]، فَهُمْ نَائِمُونَ لَا يَهْتَمُونَ بِوَاجِبَاتِ، وَلَا بِصَلَاةِ لَيْلٍ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، بَلْ هُمْ مُتْرَفُونَ آمِنُونَ، نَائِمُونَ، ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ بِأَسْنَا أَي: عَذَابُنَا، ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨]، إِذَنْ، هُوَ فِي النَّهَارِ وَنَوْمٌ فِي اللَّيْلِ.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكَرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ لِأَنَّ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ، مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، غَافِلٌ عَنْ طَاعَتِهِ، قَدْ آمَنَ مَكَرَ اللَّهِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ يَمْكُرُ بِالْعَبْدِ فَيُغْدِقُ عَلَيْهِ النِّعَمَ، مَعَ إِقَامَتِهِ عَلَى مَعْصِيَتِهِ؛ اسْتِذْراجًا لِلإِنْسَانِ حَتَّى يَقَعَ فِي عَذَابِ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِنَفْسِهِمْ إِنََّّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمَلِّي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(١) [هود: ١٠٢].

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، رقم (٤٤٠٩)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٣).

فلا تَغْتَرِ بِالنَّعَمِ إِذَا تَوَالَتْ عَلَيْكَ وَأَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنَ اللَّهِ لَكَ.

القِسْمُ الثَّانِي: مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ:

وَيَسْتَبْعِدُ أَنْ يَغْفَرَ اللَّهُ لَهُ، وَيَسْتَبْعِدُ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُ، وَيَسْتَبْعِدُ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ عِبَادَتَهُ، هَذَا أَيْضًا ضَالٌّ لَمْ يَقْدِرِ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] التَّائِهُونَ، الْجَاهِلُونَ، فَلَا تَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ بَلَغَ فِي الْكُفْرِ مَا بَلَغَ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِالْهِدَايَةِ، وَصَارَ مِنْ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ.

انظُرُوا إِلَى أَيْمَةٍ فِي الْكُفْرِ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمَ بِالْإِسْلَامِ، فَكَانُوا أَيْمَةً فِي الْإِيمَانِ مِنْهُمْ: خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ كَانَ حَرْبًا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْنَا جَمِيعًا، مَا حَدَثَ مِنْهُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ.

كَذَلِكَ عَكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ كَانَ حَرْبًا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَهَذَانِ الرَّجُلَانِ الشُّجْعَانِ صَارَا مِنْ آسَادِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى الْكُفَّارِ.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ كَانَ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنْ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ الْخَلِيفَةُ الثَّانِي فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَحَتَّى كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ دَائِمًا: أَتَيْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ حَتَّى صَارَا صَاحِبَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَا يُوجَدُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ كَانَ قَبْرُهُ إِلَى جَنْبِ قَبْرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

القسم الثالث: الذين لا يأمنون مكر الله؛

بَلْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ وَلَا يَقْنَطُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْخُلَصُّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يُغْلِبُ الْإِنْسَانُ جَانِبَ الرَّجَاءِ أَمْ جَانِبَ الْخَوْفِ، أَمْ فِي ذَلِكَ
تَفْصِيلٌ؟

قُلْنَا: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُغْلِبَ جَانِبَ الْخَوْفِ،
فَيَكُونَ دَائِمًا خَائِفًا حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْمَخَالَفَاتِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ،
بَلْ يَرْجُو اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا،
فَأَيُّهَا غَلَبَ عَلَى الْآخِرِ هَلَكَ صَاحِبُهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّيْرُ إِلَى اللَّهِ كَالطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ،
إِذَا تَسَاوَى الْجَنَاحَانِ اسْتَقَامَ طَيْرُهُ، وَإِذَا اخْتَلَفَا اخْتَلَّ سَيْرُهُ.

وَفَصَّلَ آخَرُونَ، فَقَالُوا: يَنْبَغِي إِذَا فَعَلَ الطَّاعَةُ أَنْ يُغْلِبَ جَانِبَ الرَّجَاءِ،
وَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ سَيَقْبَلُ الْعِبَادَةَ وَيُشِيبُهُ عَلَيْهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ أَلْهِمَ الدُّعَاءَ
فَلْيُثِقْ بِالْإِجَابَةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وَإِذَا
هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ فَيُغْلِبُ جَانِبَ الْخَوْفِ؛ لِئَلَّا يُقَدِّمَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي الْمَرَضِ، وَجَانِبَ الْخَوْفِ فِي الصَّحَّةِ؛
لِأَنَّ الْمَرِيضَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى الْآخِرَةِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ، فَيُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ حَتَّى يَمُوتَ
وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ

الظَنِّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ»^(١).

قَالَ الْحَكِيمُ فِي نَظْمِهِ: إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْجِدَّةَ مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ.

وَالْإِنْسَانُ طَبِيبُ نَفْسِهِ، فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يُغْلَبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ، وَيَتَهَاوَنُ فِي الطَّاعَاتِ، وَيَقُولُ: اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فَلْيُحْجِمْ عَنْ هَذَا الرَّجَاءِ وَيُغْلَبْ جَانِبَ الْخَوْفِ، وَإِذَا كَانَتْ عِنْدَهُ وَسَاوِسٌ، وَخَوْفٌ أَنْ لَا يُقْبَلَ عَمَلُهُ، فَلْيُغْلَبْ جَانِبَ الرَّجَاءِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي الصَّحَّةِ أَوْ فِي الْمَرَضِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ هَذِهِ الْآيَةُ تَعُمُّ جَمِيعَ الذُّنُوبِ حَتَّى الشَّرْكَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ بِدُونِ اسْتِثْنَاءٍ، لَكِنَّهَا -كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ- فِي التَّائِبِينَ لَا فِي الْمُصِرِّينَ، فَالْمُصِرُّ لَوْ أَصَرَ عَلَى الشَّرْكِ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، لَكِنَّ التَّائِبَ إِذَا تَابَ وَلَوْ كَانَ مُشْرِكًا بِاللَّهِ، وَلَوْ كَانَ قَاتِلًا لِلنَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَلَوْ كَانَ زَانِيًا، فَإِنَّهُ إِذَا تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فَيَمَنْ تَابَ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ، أَمْ فَيَمَنْ تَابَ فَقَطْ؟ قُلْنَا: فِي التَّائِبِينَ فَقَطْ، فَمَتَى تَابَ الْإِنْسَانُ إِلَى رَبِّهِ وَلَوْ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْهِ، وَيَغْفِرُ ذَنْبَهُ، اسْتَمِعْ إِلَى سُورَةِ الْفُرْقَانِ مَاذَا قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فَذَكَرَ انْتِفَاءَ الشَّرْكِ مِنْهُمْ، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فَذَكَرَ أَنَّ قَتْلَ النَّفْسِ مُتَنَفٍ، ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾، فَذَكَرَ أَنَّ الزَّنا مُتَنَفٍ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ٦٨

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ الْأَمْرِ بِحَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْمَوْتِ، رَقْم (٢٨٧٧).

يُضَعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴿[الفرقان: ٦٨-٧٠].

ومهما كَانَ الذَّنْبُ إِذَا تُبِتَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتُوبُ عَلَيْكَ، وَلَا تَيْأَسُ وَلَا تَقْنَطُ.

شُرُوطُ التَّوْبَةِ؛

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الْإِقْلَاعُ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ تَكُونَ قَبْلَ إِغْلَاقِ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ.

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: الْإِخْلَاصُ، فَالْإِخْلَاصُ ضِدُّهُ الرِّيَاءُ، بَأَنْ لَا يَحْمِلَ الْإِنْسَانُ عَلَى التَّوْبَةِ إِلَّا التَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَابْتِغَاءَ ثَوَابِهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: النَّدَمُ، وَالنَّدَمُ يَعْنِي: الْأَسْفُ وَالْأَسَى أَنْ وَقَعَ مِنْهُ هَذَا الذَّنْبُ.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: الْإِقْلَاعُ، وَالْإِقْلَاعُ، أَنْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ، فَأَمَّا مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ فَهُوَ اسْتِهْزَاءٌ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَا تَصَحُّ التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُقْلَعَ عَنِ الذَّنْبِ، وَلِذَلِكَ أَمْثَلُهُ:

الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: رَجُلٌ قَالَ: إِنِّي تَائِبٌ مِنَ الرَّبَا، وَلَكِنَّهُ يُحَاسِبُ كُلَّ يَوْمٍ عَمَلَهُ

عَلَى الرَّبَا، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنَ الرَّبَا.

المِثَالُ الثَّانِي: إِنْسَانٌ يَغْتَابُ النَّاسَ، وَالْغِيْبَةُ هِيَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»^(١) بَأَنْ تَقُولَ: هُوَ أَعْوَرٌ، أَوْ أَعْمَى، أَوْ أَعْرَجٌ، أَوْ هُوَ قَبِيحُ الْوَجْهِ، أَوْ هُوَ أَحْمَقُ، أَوْ هُوَ غَشَّاشٌ، أَوْ هُوَ كَذَّابٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَهَذَا الرَّجُلُ يَقُولُ: إِنِّي تُبْتُ مِنَ الْغِيْبَةِ، وَلَكِنْ بِمُجَرَّدِ مَا يَجِدُ رَجُلًا يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ بِغِيْبَةِ أَحَدٍ، يَفْرَحُ، وَيَغْتَابُ.

المِثَالُ الثَّالِثُ: إِنْسَانٌ غَضِبَ ثَوْبًا، وَقَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ غَضَبِ أَمْوَالِ النَّاسِ، ثُمَّ لَبَسَ هَذَا الثَّوْبَ الْمَغْضُوبَ.

المِثَالُ الرَّابِعُ: رَجُلٌ غَضِبَ أَرْضًا، وَبَيْنَمَا هُوَ فِي الْأَرْضِ الْمَغْضُوبَةِ كَانَ مَعَهُ جَلِيسٌ صَالِحٌ، فَنَصَحَهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْغَضَبَ شَدِيدٌ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ»^(٢)، وَجَعَلَ يَنْصَحُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ: اللَّهُمَّ إِنِّي تَائِبٌ إِلَيْكَ، وَيُخْرِجُ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ الْمَغْضُوبَةِ، وَمَا دَامَ يَخْطُو هَذِهِ الْخَطَوَاتِ، فَيُقَالُ: إِنَّهُ مُقْلِعٌ عَنِ الذَّنْبِ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَ لِيَتَخَلَّصَ مِنْهَا، فَيَكُونُ سَيْرُهُ عَلَى الْأَرْضِ دَاخِلًا فِي مَضْمُونِ التَّوْبَةِ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الْعَزْمُ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، فَهُوَ حِينَ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ عَزَمَ بِقَلْبِهِ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَيْهِ مَدَى الدَّهْرِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ نِيَّتِهِ أَنَّهُ لَوْ تَيَسَّرَتِ الْمَعْصِيَةُ لِفَعَلٍ، فَلَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْزَمْ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، فَإِنْ عَزَمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، وَلَكِنْ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ فَعَلَّ، فَلَا تَبْطُلُ التَّوْبَةُ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُجَدِّدَ تَوْبَةً لِلْفَعْلِ الْآخِرِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، رقم (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٠).

بعض الناس يَنْذُرُ أَنْ لَا يَفْعَلَ مَعْصِيَةً، فَمِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، نَذَرَ أَنْ لَا يَفْعَلَهَا، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ، وَهَذِهِ تَجْرِي لِصِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ:

الصنف الأول: بعض الشباب يُتلى بِمَا يُسَمَّى (العَادَةُ السَّرِيَّةَ)، وَيَعْرِفُ أَنَّهَا حَرَامٌ، فَيَتَجَنَّبُهَا، وَيَقُولُ: اللَّهُ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لَا أَفْعَلَهَا، ثُمَّ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ، فَيَفْعَلُ، فَتَوْبَتُهُ الْأُولَى لَا تَبْطُلُ لِفَعْلِهِ لَكِنْ عَلَيْهِ تَجْدِيدُ التَّوْبَةِ، وَكُلَّمَا أَذْنَبَ فَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَيَكْفُرْ عَنْ نَذْرِهِ كَفَّارَةً يَمِينٍ؛ لِأَنَّ هَذَا النَّذْرَ يُقْصَدُ بِهِ الْامْتِنَاعُ، وَكُلُّ نَذْرٍ يُقْصَدُ بِهِ الْامْتِنَاعُ فَإِنَّهُ تَكْفِي فِيهِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ.

الصنف الثاني: الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الدُّخَانَ، بَعْضُ النَّاسِ يَعْرِفُ أَنَّ الدُّخَانَ حَرَامٌ، وَيَعْرِفُ مَضَرَّتَهُ، فَيُنْذِرُ أَنْ لَا يَشْرَبَ الدُّخَانَ وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، فَلَا تَبْطُلُ تَوْبَتُهُ الْأُولَى، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يُجَدِّدَ التَّوْبَةَ ثَانِيَةً، وَيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ شُرْبِ الدُّخَانِ؛ لِأَنَّ شُرْبَ الدُّخَانِ تَبِينَ الْآنَ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ أَنَّهُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ؛ لِضَرَرِهِ الْبَدَنِيِّ، وَالْمَالِيِّ، وَالْاجْتِمَاعِيِّ، وَالِدِّينِيِّ، فَالضَّرَرُ الْمَالِيُّ: لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَصْرِفُ عَلَيْهِ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ، وَرُبَّمَا يَكُونُ فَقِيرًا مُجَوِّعًا أَهْلَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَشْتَرِيَ الدُّخَانَ، فَهَذَا ضَرَرٌ مَالِيٌّ وَاضِحٌ.

أما الضرر البدني: فَهُوَ أَنَّهُ مُضِرٌّ بِالصِّحَّةِ عَامَّةً، فَتَجْدُهُ فِي فُتُورٍ دَائِمًا، وَيُحْدِثُ أَمْرًا صَعْبَةً الشِّفَاءِ، كَالسَّرَطَانِ فِي الرَّثَّةِ، وَاللَّثَةِ، وَالْقَلْبِ.

أما ضرره الاجتماعي: فَإِنَّ هَذَا الدُّخَانَ يَضُرُّ بِالْمَجْتَمَعِ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ الْأُمَمُ الرَّاقِيَةُ طَبِيعًا يَمْنَعُونَ مَنْ شَرِبَ الدُّخَانَ فِي التَّجْمَعَاتِ كَالْأَتُونِيسَاتِ وَالْمَقَاهِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَضُرُّ بِالنَّاسِ.

أَمَّا الضَّرَرُ الشَّرْعِيُّ الدِّينِيُّ: لِأَنَّهُ يُثْقَلُ الْعِبَادَاتِ عَلَى شَارِبِهِ، وَلَا سِيَّما الصَّيَّامُ، فَتَجِدُ الْمُبْتَلَى بِشُرْبِ الدُّخَانِ يَكُونُ الصَّيَّامُ عَلَيْهِ ثَقِيلًا، وَعِنْدَ الْإِفْطَارِ رُبَّمَا يَفْطُرُ عَلَى السَّجَائِرِ دُونَ التَّمْرِ وَالرُّطْبِ، وَهَذَا شَيْءٌ نَعْلَمُهُ بِمَا نَسْمَعُهُ مِنَ النَّاسِ، فَهُوَ بَلَاءٌ، وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ.

الشَّرْطُ الْخَامِسُ: أَنْ يَكُونَ قَبْلَ غَلْقِ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ، وَغَلْقِ أَبْوَابِ التَّوْبَةِ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: عَامٌّ.

الثَّانِي: خَاصٌّ.

أَمَّا الْعَامُّ: فَهُوَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَهَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي نَرَاهَا الْآنَ تَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ وَتَغْرُبُ مِنَ الْمَغْرِبِ، سَيَأْتِي الْيَوْمَ الَّذِي تُشْرِقُ مِنَ الْمَغْرِبِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَإِذَا خَرَجَتِ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَكُلُّ النَّاسِ يُؤْمِنُونَ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَرُدَّ الشَّمْسَ مِنْ مَغِيبِهَا إِلَّا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَيُؤْمِنُونَ، وَيَتُوبُونَ مِنَ الذُّنُوبِ، لَكِنْ لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

أَمَّا الْخَاصُّ: فَهُوَ حُضُورُ الْأَجْلِ، فَإِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨]، فَهَذَا لَيْسَتْ لَهُ تَوْبَةٌ، بَعْدَ أَنْ حَضَرَهُ الْأَجْلُ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت، رقم (٢٤٧٩).

وَأَيْسَ مِنَ الدُّنْيَا، وَتَقَطَّعَتِ الْعَلَائِقُ، فَيَقُولُ: تُبْتُ.

وَمِثَالُ تَطْبِيقِي لِهَذَا فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ، لَمَّا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ تَابَ، وَقَالَ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ﴾ [يونس: ٩٠] يَعْنِي: اللَّهُ، ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاكُنْ﴾ تَتُوبُ وَتَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ، ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، فَلَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ﴾ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴿نُكْتَةُ غَرِيبَةٍ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ غَايَةُ الذَّلِّ لِفِرْعَوْنَ، فَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا يُقَتِّلُهُمْ وَيُذَبِّحُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ، أَصْبَحَ الْآنَ يُقْلَدُهُمْ، وَيَكُونُ تَابِعًا لَهُمْ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ﴾ بَنُو إِسْرَءِيلَ.

وَإِذَا كَانَتِ التَّوْبَةُ تَنْقَطِعُ بِحُضُورِ الْأَجْلِ، فَتَجِبُ التَّوْبَةُ عَلَى الْفَوْرِ، فَمَنْ كَانَ لِأَخِيهِ حَقٌّ عَلَيْهِ، فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْهُ الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْخُلَاصَ مِنْهُ، إِلَّا بِأَخْذِ أَعْلَى شَيْءٍ عِنْدَهُ، وَهِيَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، فَإِنَّ الْحَقُوقَ إِذَا لَمْ تُقْضَ فِي الدُّنْيَا قُضِيَتْ فِي الْآخِرَةِ، وَإِذَا قُضِيَتْ فِي الدُّنْيَا قُضِيَتْ بِالدَّرْهِمِ وَالْدِّينَارِ، أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا تُقْضَى إِلَّا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ: «اتَّذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ» يَعْنِي: مَنْ هُوَ الْفَقِيرُ، الْمَفْلِسُ الَّذِي أَخَذَ الْغَرْمَاءَ مَالَهُ، «قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ

طُرِحَ فِي النَّارِ^(١).

فَيَا أَخِي تَحَلَّلْ مَا دُمْتَ فِي زَمَنِ الْإِمْهَالِ، تَخْلَصْ مَا دُمْتَ فِي زَمَنِ الْخِلَاصِ،
ثُمَّ إِنَّكَ إِذَا لَمْ تَفْعَلْ وَقَدَّرْنَا أَنَّكَ ظَلَمْتَ شَخْصًا فِي مَالِهِ، وَلَمْ تَتَحَلَّلْ مِنْهُ، فَالَّذِي
سَيَخْلُفُكَ فِي هَذَا الْمَالِ هُمُ الْوَرِثَةُ، فَيَكُونُ هَذَا الْمَالُ الْحَرَامُ لَهُمْ غُنْمُهُ، وَعَلَيْكَ
غُرْمُهُ.



(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

الدرس الخامس:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كلُّ خطابٍ مُصَدَّرٍ بـ(قُلْ) فإنه يدلُّ على العناية به والاهتمام به؛ لأن الله أمر نبيه أن يقول، ومن المعلوم أن جميع القرآن قد أمر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يبلغه كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكن إذا جاءت بعض الآيات مُصَدَّرَةً بـ(قُلْ) دلَّ هذا على كمال العناية بها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وقوله الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ يعني العاصين الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعصية؛ إما بترك واجب وإما بفعل محرم ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ يعني لا تقولوا: قد أسرفنا على أنفسنا فلا نرجع إلى ربنا؛ لأننا مُسْرِفُونَ، وعادة إذا كثر عصيان الإنسان لشخص فإنه ينجَل أن يواجهه، فهو لاء الذين أسرفوا على أنفسهم ربما تقول لهم أنفسهم: لا ترجعوا إلى الله؛ لأنكم مُسْرِفُونَ على أنفسكم؛ مفرطون في الواجب، فاعلون للمحرم، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ

رَحْمَةُ اللَّهِ ﴿ وَالْقُنُوطُ هُوَ أَشَدُّ الْيَأْسِ ﴾ [إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا] ، يعني مهما عَمِلْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْإِسْرَافِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُهُ؛ وَلَكِنْ إِنْ كَانَ الذَّنْبُ الْكُفْرَ فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْبَةٍ، وَإِنْ كَانَ دُونَ الْكُفْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَغْفُو عَنْهُ وَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ تَوْبَةٌ، وَالِدَّلِيلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النِّسَاء: ٤٨].

فِيَا أَخِي الْمُؤْمِنُ لَا تَقْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّكَ، مَهْمَا عَمِلْتَ مِنَ الْمَعَاصِي فَإِنَّكَ إِنْ تَبَّتَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْكَ مَهْمَا عَظُمَتِ الْمَعْصِيَةُ، وَإِنْ لَمْ تَتَّبِ إِلَيْهِ نَظَرْنَا إِنْ كَانَتِ الْمَعْصِيَةُ شِرْكًَا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَإِنْ كَانَتْ دُونَ الشَّرْكِ فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يعني مهما عَظُمَتْ؛ إِذَا تَبَّتَ إِلَى رَبِّكَ غَفَرَهَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ السَّادِسُ؛

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٥٣) وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّادِحِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُسْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿[الزمر: ٥٣-٦١]﴾.

هذه آياتٌ كريمةٌ من كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿وَلِنُزِّلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١١٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿[الشعراء: ١٩٢-١٩٥]﴾، فَرَبُّنَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَأَرْحَمُ بِنَا مِنْ وَالِدَيْنَا، يَا مُرُ نَبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أَمْرًا خَاصًّا، أَنْ يُبَلِّغَ عِبَادَهُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾.

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَمْرًا عَامًّا أَنْ يُبَلِّغَ جَمِيعَ الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ،

﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكن بعض آيات القرآن يأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أمراً خاصاً أن يبلغها لعباده؛ وذلك للعناية بها والاهتمام بشأنها.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أسرفوا على أنفسهم بتجاوز حدود الله تعالى، إما بتضييع ما أوجب الله عليهم، أو بالوقوع فيما حرم الله عليهم، فإن كل هذا إسراف؛ لأنه مجاوزة العبد للحد الذي حُدَّ له، فالعبد يجب أن يكون ممتثلًا للأوامر، مجتنبًا للنواهي، فإذا لم يمتثل للأوامر، أو لم يجتنب النواهي فقد تجاوز حده، وصار بذلك مُسْرِفاً على نفسه.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، وتأمل هذا اللطف، وتأمل هذه الرحمة، وتأمل هذا الإحسان، حيث ينادي الله قوماً أسرفوا على أنفسهم، وتجاوزوا الحد، يناديهم بهذا النداء اللطيف: ﴿يَعْبادِي﴾، ولم يقل: يا أيها المسرفون على أنفسهم، بل قال: ﴿يَعْبادِي﴾، ليُحَبِّبَ إليهم العبودية، وليُحَبِّبَ إليهم الرجوع إلى الله عز وجل، وليتبين لهم كمال لطفه، وكمال إحسانه بعباده.

قوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسوا منها، فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء، كما قال الله تعالى عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: ٧]، فما وسعته علم الله، وسعته رحمة الله عز وجل.

من أسباب الرحمة:

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾، يغفر الذنوب والآثام التي تقع من العباد،

يَغْفِرُهَا جَمِيعًا كُلِّهَا؛ لَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ، وَوَاسِعُ الرَّحْمَةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَتِهِ أُمُورًا كَثِيرَةً مِنْهَا:

أولاً: صِيَامُ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا.

ثانياً: قِيَامُ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا.

ثالثاً: قِيَامُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا.

رابعاً: أَنْ مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ وَحَمِدَهُ وَكَبَّرَهُ دُبَرَ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِذَلِكَ يُتِمُّ الْمِئَةَ، فَإِذَا قَالَهَا غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ.

فَإِنْ قِيلَ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وَيَقُولُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّسَاءِ فِي مَوَاضِعٍ مِنْهَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فَهَلْ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ تَعَارُضٌ؟ وَهَلْ نَقُولُ: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ يُسْتَشْنَى مِنْهُ الشُّرْكُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؟

التَّوْبَةُ وَشُرُوطُهَا:

قلنا: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، لَيْسَ فِيهَا اسْتِثْنَاءٌ، بَلْ هِيَ شَامِلَةٌ لِكُلِّ ذَنْبٍ حَتَّى الشُّرْكَ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا جَاءَتْ فِي التَّائِبِينَ الَّذِينَ يُتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنْ مَنْ تَابَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، أَيْ ذَنْبٍ كَانَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُتُوبُ عَلَيْهِ، إِذَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ نَصُوحًا، وَتَمَّتِ الشُّرُوطُ فِيهَا الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، وَدَلَّلْتُ عَلَيْهَا

شريعة الله، وقد ذكر أهل العلم أن من شروط صحة التوبة خمسة شروط:

الشرط الأول: أن يندم الإنسان على ما سلف منه من الذنوب، ومعنى الندم: أن يتمنى أنه لم يفعله، وأن يقع في نفسه أسف وحزن على ما فعل، بحيث يعرف أنه أخطأ، وأنه أثم فيندم على ذلك؛ ولأنه إذا لم يندم فإنه لا يتبين أن توبته كانت تعظيماً لله، ومحبة له، ولهذا لا بد أن يكون في قلبه ندم وحزن على ما سلف من الذنب.

الشرط الثاني: أن يقلع عن الذنب، فإن قال: إنه تائب إلى الله من هذا الذنب، وهو مصر عليه فإن هذه التوبة لا تنفعه، بل هذه التوبة في الحقيقة استهزاء بالله عز وجل، كيف تقول إنك تائب إلى ربك، وأنت مصر على معصية الله، فالذين يقولون: نستغفر الله ونتوب إليه من قول الزور، ومن غيبة الناس، ومن أكل لحوم المؤمنين وهم يغتابون الناس، ويأكلون لحومهم، فإن هؤلاء لم يتوبوا ولا تصح توبتهم؛ لأنه لا بد من الإقلاع عن الذنب.

والذي يقول: استغفر الله وأتوب إليه من أكل الربا، وهو مصر على أكل الربا فإن هذه التوبة لا تنفعه، بل هي في الحقيقة استهزاء بالله عز وجل، والذي يقول: أتوب إلى الله من إضاعة الصلاة، وأتوب إلى الله من ترك الجماعات، وهو مصر على إضاعة الصلاة، مصر على ترك الجماعات، فإن هذا لا تنفعه توبته لأنه مستهزئ بالله عز وجل، فلا بد أن يقلع الإنسان عن الذنب الذي تاب منه، أما أن يقول: استغفر الله وأتوب إليه بلسانه، وهو مصر بفعله على ذنبه، فإن هذا لا ينفعه.

اقسام حقوق العباد:

من شروط التوبة أن يقلع الإنسان عن المعصية التي هو عليها، فإن كان ترك

واجب التزم هذا الواجب، وإن كان فعلٌ مُحَرَّمٌ ترك هذا المُحَرَّم، ويدخل في ذلك ما إذا كانت التوبة من حقوق العباد، فإنه لا تصح التوبة إلا بالبراءة من هذه الحقوق، وحقوق العباد ثلاثة أنواع:

١- حقوق في النفس.

٢- حقوق في المال.

٣- حقوق في العرض.

فحقوق النفس: أن تجني على أحد في نفسه؛ فتضربه أو تجرحه أو ما أشبه ذلك، فهنا يجب عليك أن تمكّنه من القصاص من نفسك، أو أن تصالحه على ما تصالحه عليه، حتى يبرئك من هذا الذنب.

أما حقوق المال: وهي إذا أخذت من إنسان مالا بغير حق، سواء أخذته عن طريق القاضي والمخاصمة، أو أخذته عن طريق القهر والغلبة، أو أخذته عن طريق الخلسة، أو عن طريق السرقة، أو عن أي طريق مُحَرَّم، فإنك لا تبرأ منه حتى توصّل هذا المال إلى صاحبه إن كان حياً، وإلى ورثته إن كان ميتاً، فإن لم تعلمه بأن نسيته مثلاً، أو كنت لا تعرفه فتصدّق به عنه، والله تبارك وتعالى يوصله إليه.

فإذا حاکمت إنساناً في حق من الحقوق، وطلبتَه عند القاضي، وحكم القاضي لك، وأنت تعلم أن الحق عليك، فاعلم أنك لا تبرأ بهذا، وأنت ستحاسب عليه يوم القيامة، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَحْنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ بِنَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ

أَخِيهِ، فَإِنَّمَا يَقْتَطِعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ لِيَذَرْ»^(١)، فَإِنَّ أَكْلَ الْمَالِ بِالِدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ:

تَارَةً يَأْخُذُ الْإِنْسَانُ مَا لَيْسَ لَهُ وَلَكِنْ بِشَهَادَةِ زُورٍ، فَيَحْكُمُ الْقَاضِي لَهُ بِمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ، وَالْقَاضِي قَدْ يَكُونُ مَأْجُورًا إِذَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى خِلَافِ الْوَاقِعِ، وَتَارَةً يُنْكِرُ الْإِنْسَانُ مَا وَجَبَ عَلَيْهِ، وَيَكُونُ الْمَدَّعِي لَا بَيِّنَةً لَهُ، وَحِينَئِذٍ تَتَوَجَّهُ الْيَمِينُ عَلَى الْمُنْكَرِ فَيَحْلِفُ فَإِذَا حَلَفَ فَإِنَّهُ يَبْرَأُ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَى؛ وَلَكِنَّهُ إِنْ كَانَ كَاذِبًا فَإِنَّهُ لَا يَبْرَأُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

لَقَدْ كَثُرَتِ الْحُجُجُ الْبَاطِلَةُ، وَالِدَّعَاوَى الْكَاذِبَةُ فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَلَا سِيَّامَا عِنْدَمَا ارْتَفَعَتْ قِيَمَةُ الْأَرْضِي، فَتَارَةً بَعْضُ النَّاسِ يَدْخُلُونَ عَلَى أُمْلَاكٍ بَعْضِهِمْ، وَيَدَّعُونَ أَنَّهَا لَهُمْ، وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي ذَلِكَ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ هَذَا، فَرُبَّمَا يُحْكَمُ لَهُمْ بِمُقْتَضَى دَعْوَاهُمْ حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ سَمَاعُ الْقَاضِي، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يُبْرِئُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَسَيَأْخُذُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، فَإِنْ لَمْ يَبْقَ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْئًا أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِينَ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ طُرِحُوا فِي النَّارِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٢).

الْأَمْرُ الثَّالِثُ مِنَ الْحُقُوقِ: حُقُوقُ الْآدَمِيِّينَ الْعَرِضِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ فِي الْعَرِضِ،
وَذَلِكَ فِيهَا إِذَا اغْتَبَتَ إِنْسَانًا، أَوْ سَبَبَتُهُ، أَوْ قَذَفَتْهُ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مِمَّا يُدْنِسُ عَرِضَهُ فَإِنَّهُ لَا تَصِحُّ تَوْبَتُهُ حَتَّى تَسْتَحِلَّهُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَحِلَّهُ فَإِنَّهُ سَيَأْخُذُهُ مِنْكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشَّهَادَاتِ، باب من أقام البينة بعد اليمين، رقم (٢٥٣٤)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، رقم (١٧١٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

يومَ القيامةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَتُوبَ تَوْبَةً نَصُوحًا خَالِصَةً، وَتَسْتَغْفَرَ لِمَنْ اغْتَبَتَهُ وَاعْتَدَيْتَ عَلَيْهِ، فَهَذَا قَدْ يَتَحَمَّلُ اللَّهُ عَنْكَ ذَلِكَ، وَيُرْضِي صَاحِبَكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

إِلَّا أَنْ أَهْلَ الْعِلْمِ قَالُوا: إِنَّكَ إِذَا جَنَيْتَ عَلَى إِنْسَانٍ فِي عِرْضِهِ، وَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَخِفْتَ أَنْ أْخْطَرْتَهُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ شَرٌّ؛ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ حِينَئِذٍ أَنْ تَكْتُمَ ذَلِكَ عَنْهُ، وَأَنْ تُكْثِرَ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُ، وَأَنْ تُكْثِرَ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ لَا سِيَّيَا فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي اغْتَبَتَهُ فِيهِ، وَلَعَلَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ.

الشَّرْطُ الثَّلَاثُ: أَنْ يَعِزَّمَ عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَإِنْ قَالَ إِنْ ثُبْتُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَإِنْ هَذِهِ التَّوْبَةُ لَا تَنْفَعُهُ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ هِيَ الرَّجُوعُ، وَالرَّجُوعُ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ الْإِدْبَارِ الْكَامِلِ عَمَّا رَجَعَ عَنْهُ الْعَبْدُ، أَمَّا أَنْ يَقُولَ إِنْ رَاجِعٌ وَلَكِنَّهُ عَازِمٌ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الذَّنْبَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَإِنْ هَذَا لَا يَنْفَعُهُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: رَجُوعُ بَعْضِ النَّاسِ عَنِ الْمَعَاصِي فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، فَإِذَا خَرَجَ شَهْرُ رَمَضَانَ عَادُوا إِلَى الْمَعَاصِي، وَعَادُوا إِلَى الْمُنْكَرَاتِ، وَعَادُوا إِلَى الْفَحْشَاءِ، هَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ لَا تَنْفَعُهُمْ تَوْبَتُهُمْ فِي رَمَضَانَ، مَا دَامُوا يَقُولُونَ لَأَنْفُسِهِمْ: إِنَّا بَعْدَ رَمَضَانَ سَنَرْجِعُ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِتَوْبَةٍ مِنْهُمْ، إِنَّمَا هِيَ تَوْبَةٌ مِنْ يُرِيدُ أَنْ يُنِيبَ إِلَى اللَّهِ فِي وَقْتٍ، وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَنْ عِبَادَتِهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ، أَوْ أَنْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ فِي وَقْتٍ آخَرَ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ لَمْ يُحَقِّقِ التَّوْبَةَ، وَلَمْ يَعِزِّمْ عَلَى الْإِعَادَةِ فَإِنْ تَوْبَتَهُ فِي رَمَضَانَ لَا تَنْفَعُهُ.

ولهذا كان شهرُ رمضانَ أيامًا مَعْدُودَاتٍ، لَكِنَّهُ شَهْرٌ كَامِلٌ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ

مدرسة، وهو في الحقيقة تمرين على الطاعة، فمن تمرن فيه على طاعة الله وأتقضى الله فيه وأحسن عمله، صار ذلك مؤثراً على قلبه، مؤثراً على اتجاهه، مؤثراً على تفكيره، مؤثراً لما أعوجج من منهاجه، ولهذا كان رمضان مدرسة لمن أراد الله هدايته، وأما من كان عازماً أو يحدث نفسه أن يعود إلى الفحشاء والمنكر بعد شهر رمضان فإن هذا لا تنفعه التوبة، وقال أهل العلم: إن من شروط التوبة أن يعزم الإنسان على ألا يعود في المستقبل.

الشرط الرابع: أن تكون التوبة في وقتها، فإن لم تكن التوبة في وقتها فإنها غير مقبولة، وفوات الوقت يكون بأمر عام، ويكون بأمر خاص، أما فوات الوقت بالأمر العام: فهو طلوع الشمس من مغربها، فإن الشمس التي نشاهدُها اليوم هي كما قال رسول الله ﷺ فيما ثبت عنه: حين غابت الشمس، فعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ حين غربت الشمس «أين تذهب؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد ولا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾» قال: «مستقرها تحت العرش»^(١).

فإذا خرجت الشمس من المغرب وراها الناس آمنوا أجمعون حينئذ يعلمون أن مغير هذه الشمس هو الخالق إذ لا يستطيع أحد أن يغير هذه الشمس لا بتقدم ولا بتأخر ولا برجوع ولا بانحراف، ولهذا إذا رآها الناس آمنوا أجمعون، قال

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٩).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَنِهَا خَيْرًا»^(١).

وقال ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢)، هذا هو الوقتُ العام الذي إذا حَلَّ فات وقتُ التَّوْبَةِ، فَلَمْ يَنْفَعِ الْإِنْسَانَ تَوْبَتُهُ حِينَئِذٍ.

أما الوقتُ الخاصُّ فهو حضورُ الأجلِ، فإن الإنسان إذا تابَ عندَ حضورِ أجلِهِ فإن التَّوْبَةَ لَا تَنْفَعُهُ، يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْتَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، ولهذا قال النَّبِيُّ ﷺ لَعَمْرِهِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: «أَيَّ عَمٍّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»، فَلَمْ يَجْزَمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَنْ تَوْبَتُهُ تُقْبَلَ حِينَئِذٍ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَ قَدْ حَضَرَ، فَأَبَى أَبُو طَالِبٍ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(٣)، مِلَّةَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ فَمَاتَ كَافِرًا، فَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

وَأَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: «هُوَ فِي ضَخْضَاخٍ مِنْ نَارٍ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، رقم (٤٦٣٥)،

ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان، رقم (١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٩٩/٤، رقم ١٦٩٥٢)، وأبو داود: كتاب الجهاد، باب في الهجرة هل انقطعت؟ رقم (٢٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ^(١)، فَالتَّوْبَةُ لَا تَنْفَعُ إِذَا حَضَرَ الْأَجْلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

فَيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنْ يُنِيبُوا إِلَى رَبِّهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وَقَالَ أَيْضاً: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤]، أَنِيبُوا إِلَيْهِ أَي: ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِإِنَابَةٍ وَخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ بِتَرْكِ الْمَحْرَمَاتِ، وَأَسْلِمُوا لَهُ بِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ.

من عقوبات المعاصي:

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، لَمْ يُبَيِّنِ اللَّهُ تَعَالَى نَوْعَ هَذَا الْعَذَابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَكِنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا يَعَاقِبُ بِهِ الْعَبْدُ عَلَى ذُنُوبِهِ، وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ عَلَى الْعَاصِي أَنْ يَقْسُوا قَلْبَهُ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنْ قَسَوَ الْقَلْبُ تَوَجَّبَ الْإِعْرَاضُ، وَتَوَجَّبَ الْغَفْلَةُ، وَبِالتَّالِي تَوَجَّبَ مَوْتَ الْقَلْبِ، وَبِالتَّالِي تَوَجَّبَ الْهَلَاكُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيمَا نَقُضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣].

فَالْمَعَاصِي سَبَبٌ لِقَسْوَةِ الْقَلْبِ، وَإِنْ قَسَوَ الْقَلْبُ الَّتِي حَدَّثَ الْيَوْمَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ، وَلَكِنَّا لَا نَشْعُرُ بِهَا، إِنَّا نَنْظُرُ أَنَّ الْعُقُوبَاتِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

هي العُقُوبَاتُ الهَادِيَّةُ، هي الحَظَرُ، والجَهْلُ، والمرَضُ، والموتُ، والخطْفُ، والدمارُ، دمارُ الأموالِ، ودمارُ البلدانِ، هكذا نَظُنُّ أن هذه هي العُقُوبَةُ وهو العذابُ، ولكن هذا ظَنُّ خاطِئٍ.

ومن أعْظَمِ العُقُوبَاتِ، ومن أعْظَمِ العَذَابِ قَسْوَةُ القُلُوبِ، ومرَضُ القُلُوبِ وإِعْرَاضُهَا عَنِ دِينِ اللَّهِ، وكونُهَا تَلَهَتْ وراءَ الدُّنْيَا وحُطَامِهَا، حتى أَصْبَحَتْ غَافِلَةً عما أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا، ولهذا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بل أَقْسَمَ وهو الصَّادِقُ المصدوقُ ﷺ في كُلِّ قَسَمٍ، فَقَالَ ﷺ: «فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسِطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكْتَهُمْ»^(١).

وَصَدَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّهَا لَمَّا فُتِحَتْ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ الْيَوْمَ تَنَافَسُوهَا، وَأَصْبَحَتْ هِيَ غَايَةُ أَمْرِهِمْ، وَهِيَ مَبْلَغُ عِلْمِهِمْ، حَتَّى إِنَّكَ تَجْلِسُ الْمَجَالِسَ الْعَدِيدَةَ لَا تَسْمَعُ فِيهَا إِلَّا التَّحَدُّثَ عَنِ الدُّنْيَا، وَعَنِ الْمَالِ، وَعَنِ الْبَيْنِ، وَعَنِ الرَّفَافِيَّةِ، وَعَنِ الطَّمَأْنِينَةِ، وَعَنِ الْأَمْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنْ يُسْأَلَ الْإِنْسَانُ عَنْ هَذَا؛ فَإِنَّهُ لَا قَوَامَةَ لِلدِّينِ إِلَّا بِالطَّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْنِ، وَلَكِنَّا نَقُولُ: يَجِبُ أَنْ لَا يَكُونَ هَذَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِمَّا وَسِيلَةً نَتَوَسَّلُ بِهَا، وَنَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى إِقَامَةِ دِينِنَا، وَأَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ هَمِّنَا وَمَبْلَغُ عِلْمِنَا هُوَ دِينُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ، وَأَمَرْنَا بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، وَأَمَرْنَا بِالتَّوَاصُلِ فِيهِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب، رقم (٤٠١٥)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

الدَّرْسُ السَّابِعُ:

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على نبينا محمد خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧) ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الزمر: ٦٧-٧٥]﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ الفاعل يعود على المشركين، ودليل ذلك هو قوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يعني أن المشركين لم يُعظِّموا الله تعالى حقَّ تعظيمه، مع أنه جلَّ وعلا أعظم من كل شيء، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بما فيها من أشجارٍ والبحارِ والجبالِ والأنهارِ، وغير ذلك كلها قبضته يوم القيامة، ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ السماوات السبع على عظيمها واتساعها مطوياتٌ بيمينه، والذي طواها هو الله؛ كما قال تعالى ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فانظر إلى عظمته سبحانه وتعالى، وكيف أن مخلوقاً حقيراً لا يستطيع نفعاً ولا ضرراً، ولا غياً ولا رشداً يُشرك به، إن من أشرك بهذا الربِّ العظيم مع كمال قدرته لمن أسفه الناس؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ومِلَّةُ إبراهيم هي ما ذكره الله في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ولهذا قال: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ و(سبحان) مفعول مطلق، وعامله محذوف. وهو اسم مصدر؛ لأنه وافق المصدر في المعنى وخالفه في اللفظ. وكلمة (سبحان) لا يمكن أن يُذكر معها عاملها؛ فكلما جاءت في القرآن والسنة، فهي منصوبة دائماً على المفعول المطلق، ولا يُذكر معها عاملها، ومثالها في السنة: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(١). فكلما ذكرت لا يُذكر معها العامل، وتذكر بمثل هذا اللفظ على أنها مفعول مطلق: سبحانه أي: تنزيهاً له.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤).

وَالَّذِي نُزَّهَ اللَّهُ عَنْهُ ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَوَّلًا: كل صفة نقص فالله منزَّه عنها.

ثانيًا: كل نقص في كمال الله عزَّوجلَّ، فلا نقص في علمه، ولا في قُدْرته، ولا في قوَّته ولا غير ذلك.

ثالثًا: مماثلة المخلوقين، فالله منزَّه عنها.

فما هو الدليل على ذلك؟

الدليل على الأول، قلنا: إِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَيِّ نَقْصٍ، فليس موصوفًا بالعمى عزَّوجلَّ، ولا بالصَّمَم، ولا بالخرس؛ لأنَّ إبراهيمَ أقام الدليلَ العقليَّ على أبيه بأن الصنم ليسَ بربِّ في قوله: ﴿يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] فدلَّ ذلك على أن الربَّ يجب أن يكون سميعًا بصيرًا ليغني عن عابديه شيئًا. إذن الله تعالى منزَّه عن كل نقصٍ في صفاته.

ثانيًا: مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي كِمَالِهِ، مثلاً: القوَّة من الكمال، وهو مُنَزَّهٌ عَنْ نَقْصِ هَذِهِ الْقُوَّةِ، فمهما عظم الفعلُ فَإِنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ نَقْصِ هَذِهِ الْقُوَّةِ، ودليل ذلك قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أي: من تعبٍ وإعياءٍ، وهذا نفى لنقص كماله جلَّ وعلا.

الثالث: مُنَزَّهٌ عَنْ مُمَاطَلَةِ الْمَخْلُوقِينَ، والدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا خبر، وقوله تعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، فنفي المثل، ثمَّ نهى أن نضرب الأمثال له ثانيًا.

إِذْ يُنَزِّلُ اللَّهُ بِهِذِهِ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ، فكلما تلوت (سُبْحَانَ اللَّهِ) فاستحضِرْ هَذَا الْمَعْنَى؛ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ فِي صِفَاتِهِ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ النِّقْصِ بِكَمَالِهِ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ مِمَّاثِلَةِ الْمَخْلُوقِينَ.

قوله: ﴿وَتَعَالَى﴾ يعني: ترفع وتعاظم عن هذه الأصنام؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النَّافِخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ، وَالصُّورُ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ قَرْنٌ عَظِيمٌ سَعَتُهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، يَنْفُخُ فِيهِ نَفْخَةً وَاحِدَةً فَيَسْمَعُ النَّاسُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْمَعُونَ صَوْتًا عَظِيمًا، فَيَسْمَعُ النَّاسُ ثُمَّ يَصْعَقُونَ فَيَمُوتُونَ جَمِيعًا، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وَفِي سُورَةِ النَّمْلِ ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

والجمع بينهما أنها نفخة يحصل بها أَوَّلًا فزع ثم صَعَقٌ.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ أَيِ فِي الصُّورِ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ و(إذا) قَالَ عُلَمَاءُ النُّحُو: إِنَّهَا لِلْمُفَاجَأَةِ، أَيِ تَأْتِي الْمُفَاجَأَةُ، فَهُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ بِمَجَرَّدِ النَّفْخِ؛ كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فَسُبْحَانَ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ! ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] نفخة واحدة فإذا هم قِيَامٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ.

قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

(أشرفت) أي: من نور الله عَزَّوَجَلَّ، ولهذا قَالَ: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يَنْزِلُ للقضاء بين عباده، فتشقق السَّماءُ بالغيَم، والغيَم هو السحابُ الأبيض النير، فيأتي الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ للقضاء بين عباده، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

قوله: ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ وهو الكتابُ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ الْأَعْمَالُ، الَّذِي لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا، فكل ما عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ مُحْصَى مكتوب، فإذا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وُضِعَ هَذَا الْكِتَابُ وَأُعْطِيَ كُلُّ إِنْسَانٍ كِتَابَهُ؛ إِمَّا بِالْيَمِينِ وَإِمَّا بِالشَّامِلِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا.

قوله: ﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ وَيَأْتِي بِالنَّبِيِّينَ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ، يُخْضِرُهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَسْتَشْهِدَهُمْ عَلَى إِبْلَاحِ أُمَمِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فَيُؤْتَى بِالنَّبِيِّينَ فَيَشْهَدُونَ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتَ اللهِ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ قَامَتْ عَلَى عِبَادِ اللهِ، وَيُؤْتَى أَيْضًا بِالشُّهَدَاءِ، وَالشُّهَدَاءُ هُنَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ؛ لِأَنَّ النَّبِيِّينَ شُهَدَاءُ.

وهناك شُهَدَاءُ آخَرُونَ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ؛ فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللهِ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ -جَعَلَنِي اللهُ وَإِيَاكُمْ مِنْهُمْ- وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَوَاللهُ هَذَا الْإِرْثُ الَّذِي يَنْبَغِي التَّسَابُقُ إِلَيْهِ، فَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَوْ سُئِلَ مَنْ وَارِثُ الرَّسُولِ: أَفَاطِمَةُ أَوْ أُمَهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ أَعْمَامُهُ؟ قُلْنَا: لَا، وَرَثَةُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ هُمْ عُلَمَاءُ الْأُمَّةِ، فَالْعُلَمَاءُ شُهَدَاءُ، يَشْهَدُونَ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللهِ لِعِبَادِ اللهِ، فَيَشْهَدُ الْعَالَمُ

ويقول: أشهد يا رب أني بلغت رسالة محمد ﷺ إلى قومه.

ومن الشهداء شهداء يشهدون على الإنسان، وهم من الإنسان، وهي الأعضاء، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٤-٢٥] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] وحينئذ يقولون لجلودهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]

والجواب: ﴿أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والذي خلقكم أول مرة قادر على أن ينطق جلودكم لتشهد عليكم ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

إذن الشهداء هم الأنبياء، ثم العلماء، ثم جوارح الإنسان.

فإذا قال قائل: النبيون عطف عليهم الشهداء، فنقول: هذا من باب عطف العام على الخاص.

قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قُضِيَ بين الخلائق بالحق، والقاضي هو الله عز وجل، يقضي بين الخلائق بالحق في معاملتهم مع الله، وفي معاملتهم مع عباد الله، ولهذا قال النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ

قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١).

فيُقْضَى بين الخلائق بالحق. وهذا بين المُكَلَّفِينَ من بني آدَمَ والجنّ واضح، لكن هل يُقْضَى بين البهائم؟

الجواب: نعم يُقْضَى بين البهائم؛ كما أخبر بذلك النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ بأن البهائم تُحْشَرُ؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير: ٤-٥]، فيُقْضَى للشاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ^(٢)، والجَلْحَاءُ هِيَ الْجَمَاءُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا قُرُونٌ.

وَالْعَادَةُ أَنَّ الشَّاةَ الَّتِي لَهَا قُرُونٌ تَنْطَحُ الشَّاةَ الَّتِي لَيْسَ لَهَا قُرُونٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا.

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ شَيْئًا؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] فَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ بِنَقْصٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا ب_zِيَادَةٍ مِنْ سَيِّئَاتِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَامِلُ الْعَدْلِ، وَهُوَ يَقْضِي بَيْنَ عِبَادِهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْحَقِّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].

قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ يَعْنِي وَفَّى اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الْعِبَارَةَ بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ لِئَلَّا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّهُ سَيَخْفَى شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْإِنْسَانِ،

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨٢).

فلا يخفى شيء من أعمال الإنسان، وكل شيء معلوم عند الله مدون لا يزداد فيه ولا ينقص.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ يُساقون سوق إهانة وإذلال؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣] يُدفعون بعنفٍ وشدة، ولا رافة بهم ولا رحمة لهم، نعوذ بالله!

يُساقون إلى جهنم ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وكأنها سراب، والسراب هو الذي يبدو للإنسان في البرّ وكأنه ماء، ويعطشون عطشاً شديداً، ثم يُسرعون إلى هذا السراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوا الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] يريدون أن يشربوا، فإذا جاؤوا فإذا هي النار تُفتح أبوابها أمامهم، ويدفعون فيها دفعا، كلما دخلت أمة لعنت أختها، فيدفعون في النار فيذوقون الألم والعذاب في أجسامهم، ثم يُوبخون ليدوقوا العذاب في قلوبهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مُقرّرين ومُقرّعين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ والهمزة هنا يقول علماء النحو: إنها للتقرير، فهي بمعنى الفعل الماضي، فمعنى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾: قد أتاكم، ونظيرها في المعنى قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] أي: قد شَرَحنا لك صدرك.

قوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِنْكُمْ﴾ من قومكم، من إنسانيتكم، ليسوا جنًّا أو ملائكة، بل منكم، وكلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه، ومُحمَّد عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بُعثَ إلى سائرِ النَّاسِ، فهو من النَّاسِ باعتبارِه بشرًا مثلهم.

قوله: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ يقرؤونها عليكم ويعلمونكم إياها ويبينونها لكم، ﴿وَنُذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعظونكم ويخوفونكم من هذا اليوم، وقد قامت عليكم الحجة، ولهذا يُقرؤون ويقولون: ﴿بَلَى﴾ أأنا رسل منَّا وأنذرونا لقاء يومنا هذا ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وإذا حَقَّتْ كلمة العذاب على الكافرين فإنهم لا يؤمنون؛ كما قال الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣].

وفي آية أخرى أقروا بأنهم هم السَّبب ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩] إذن هم السَّبب في دخول النار؛ لأنه قد قامت عليهم الحجة، ولكنهم رفضوها والعياذُ بالله.

قال تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا﴾ الفاعل هنا لا يُعلم؛ لأنَّ الفعل هنا مبنيٌّ لما لم يُسمَّ فاعله، فيَحْتَمِلُ أن القائل هو الله، ويَحْتَمِلُ أن القائل الملائكة.

قوله: ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أبواب جمعُ بابٍ، وعددُ أبوابِ جهنم سبعة، والدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) لها سبعة أبوابٍ لكلِّ بابٍ منهم جُزءٌ مَقْسُومٌ [الحجر: ٤٤].

فيدخلون أبواب جهنم داخرين^(١) صاغرين ذليلين والعياذُ بالله، حتى إن الرب عزَّ وجلَّ مع كمال رحمته ورأفته إذا قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧] فإنه يقول: ﴿أَخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكْلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وهذا أشدُّ شيء عليهم أن يقول الرب عزَّ وجلَّ: اخسئوا فيها ولا تكلمون، اندحروا، كونوا أذلةً ولا تكلمون، فحينئذ يئأسون من كل خير، نسأل الله العافية، وأن ينجيننا وإياكم من عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وهل هذا الخلود أبديٌّ أو أمديٌّ؟ والأمدي هو الذي يكون إلى مدة معينة، والأبدي: الدائم؟

الجواب: أبدي، والدليل هو خلودهم في النار؛ أليس الله يقول: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فالقول الراجح الذي لا ينبغي العدول عنه أن أهل النار مخلَّدون فيها أبد الآبدين، ﴿لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، حتى إنهم يقولون لخزنة النار: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]، ما قالوا: يُرفع عنا العذاب يوماً واحداً، بل قالوا: يخفف، ولكن لا يُجابون ولا يُطاعون؛ إذ هم خالِدون فيها أبداً أبد الآبدين.

والدليل ثلاث آيات من كلام الله؛ فقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۖ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩]. فهذا نص صريح.

(١) الدَّاحِر: الدليل المُهان. النهاية (دخر).

وقال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

وقال تعالى في سورة الجن: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وإذا كان الله عز وجل قال ذلك في كتابه في ثلاث آيات من كتاب الله، فلا عُدُول لنا عن ذلك إطلاقاً.

فإن قال قائل: ماذا نجيب عن قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]؟

قلنا: الجواب عن هذا أن قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني أن مكوّنهم كان بمشيئة الله، ولا يمكن أن ندع هذه الآية التي فيها احتمال آخر، وندع آيات صريحة في التأييد.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ - اللهم اجعلنا منهم - السَّوقُ هنا ليس كالسوق الأول للكافرين، فسوق الكافرين سوق إهانة وزجر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ [الطور: ١٣]، وسوق هؤلاء المتقين سوق إكرام، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ وَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦]. فالمتّقون قال فيهم: (نحشر)؛ أي نجمعهم ويفدون إلى الله،

والوفدُ في العادة يُكرم ولا يُهان، فالفرقُ بين السَّيَاقَيْنِ أَنَّ الأوَّلَ - أعني سياق الكافرين - يكون للإهانة والذل، وأما سوق المتقين فإنه للإكرام.

التَّقْوَى:

قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣] وهنا نسأل: ما هي التقوى التي ترد في القرآن كثيرًا؟

الجواب: التقوى: أن يتخذ الإنسان وقايةً من عذاب الله، ولهذا يقول علماء التصريف: إن تقوى أصلها وقى، من الوقاية. والذي بقي من عذاب الله هو امتثال أمره، واجتناب نهيه، وتصديق خبره، فهذه ثلاثة أشياء، وهذا أجمع ما قيل في التقوى: إنها اتِّخَاذُ وَقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ بِفَعْلٍ أَوْ أَمْرِهِ، واجتنابِ نَوَاهِيهِ، وتصديق أخباره.

وقيل في تعريفها: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى الله، على نورٍ من الله، تخشى عقاب الله.

وقيل في تعريفها^(١):

وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقْوَى	خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا
ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى	وَاعْمَلْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ
إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى	لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً

(١) الأبيات لابن المعتز، ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٩/٤٢٣).

ولكن أجمع ما قيل فيها هو ما ذكرناه أولاً: امثال أمر الله، واجتناب نهيه، وتصديق أخباره.

هؤلاء الذين اتقوا ربهم يساقون إلى الجنة زمراً؛ أفواجاً، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر^(١)، أتجدون شيئاً أحسن من ذلك! أبداً، ولهذا يُمثل للمرأة الحسنة بأنها بدر، فلا أحسن من هذا المنظر.

يقول عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: جاؤوا الجنة بعد العبور على الصراط، ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ يا لها من تحية! تحية عظيمة، يقول: ﴿إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي أهل النار قال: ﴿إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتُ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، والقرآن فصاحة وبيان، فلماذا قال في أهل النار: ﴿إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتُ﴾ وفي أهل الجنة: ﴿إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾؟

قال بعض النحويين: إن هذه الواو (واو الثانية)؛ لأن أبواب الجنة ثمانية، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءِ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فَتُحْتُ -أو: فَتُحْتُ- لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(٢).

فقالوا: إن هذه واو الثانية، وواو الثانية تأتي في القرآن كثيراً، واقرأ قول الله

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٦)،

ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب أول زمرة تدخل الجنة، رقم (٢٨٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الطهارة، باب ما يقال بعد الوضوء، رقم (٥٥).

تَعَالَى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ الْمَكْفُوتُونَ
السَّاجِدُونَ لِأَمْرِهِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ
اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢] جاءت الواو عند الوصف الثامن.

وقالوا أيضًا: اقرأ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾
[الكهف: ٢٢].

واقرا أيضًا: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ
قَانِتَاتٍ تَتِلَّبْنَ عِيدَاتٍ سَيَحِبَّنَّ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحریم: ٥] جاءت الواو عند الوصف
الثامن.

ولكن هذا غلط، فليس هناك واو تُسمى واو الثمانية أبدًا؛ لأنَّ قوله: ﴿ثَيِّبَاتٍ
وَأَبْكَارًا﴾ إنما عطف ﴿وَأَبْكَارًا﴾ بالواو على ﴿ثَيِّبَاتٍ﴾ لأنَّه لا يمكن أن تكون المرأة
ثيبًا بكرًا، فالأبكار مغايرات للثيبات، بخلاف الصفات الست الأولى، فإنَّها يمكن
أن تجتمع في امرأة واحدة.

فنقول: إن الواو هنا في أهل الجنة لها معنى أبعد غورًا ممَّا ذكر هؤلاء من أنها
واو الثمانية، فما هو المعنى؟

المعنى أن أهل الجنة إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابًا مفتوحة، فيحبسون قليلًا
حتى يشتدَّ شوقهم إليها؛ لأنَّ الإنسان كلما اشتدَّ شوقه إلى الشيء، صار إتيانه إيَّاه على
شوقٍ أعظم، وانظر للجائع إذا طوَّل عليه الجوع، ثمَّ قدَّم له الأكل، فيكون الأكل
أشهى له بلا شك، وكلما طال الأمد بين الأكلتين صار أشدَّ شوقًا إلى الأكلة الثانية.

فهم يُجْبَسُونَ عند أبواب الجنة ولا يجِدُونَهَا مفتوحةً، بخلاف أهل النار فإنهم يُبَادِرُونَ بِلَفْحِهَا -والعياذُ بالله- وسَمُومِهَا، لكن أهل الجنة يُجْبَسُونَ إلى أن يظهر فضل مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فيشفع النبي ﷺ عند الله جلَّ وَعَلَا أن يفتح أبواب الجنة لأهل الجنة، فتُقبل الشفاعة وتُفتح الأبواب، ويكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أولَ مَنْ يدخل الجنة.

إذن الحكمة من الواو هنا أنهم ليسوا إذا جاؤوها فتحت، بل إذا جاؤوها حَبَسُوا ووقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيَهْدَّبُونَ، ويُنزَع ما في قلوبهم من غِلٍّ، وتُطَهَّر القلوب حتى يدخلوا هذه الدار على أكمل حالٍ، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

أسأل الله تعالى برحمته وفضله أن يجعلنا وإياكم منهم. وهؤلاء لا يدخلون الجنة إلا على أكمل وجه، فجميع الغل الذي كان في قلوبهم في الدنيا فإنه يُنزَع، مع أنه قد اقتصَّ لبعضهم من بعضٍ في عَرَصات القيامة، لكن هذا لإزالة ما في القلوب، أو ما علق بالقلوب من الغل والحقد. ثم يشفع النبي ﷺ حتى تُفتح أبواب الجنة.

الشفاعة:

وللرسول عليه الصلاة والسلام ثلاث شفاعات خاصات به، لا أحد يشفع فيها: الشفاعة الأولى: شفاعته في أهل الموقف أن يقضى بينهم؛ لأن أهل الموقف تدنو منهم الشمس حتى تكون قدر ميلٍ من رؤوسهم، وحتى إنهم يعرقون من شدة الحر، حتى يصل العرق إلى الكعبين، وإلى الركبتين، وإلى الحقوين، وإلى الفم،

وبعضهم يُلجِجه العَرَق، ويلحَقهم من الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقون؛ لأنَّهم يَقفون خمسين ألف سنة، لا طعام، ولا شراب، ولا شيء، يقفون هذا الموقف العظيم، فيلحَقهم من الكَرْبِ ما لا يُطيقون، فيقول بعضهم لبعض: انظروا مَنْ يشفَعُ لنا إلى الله يُرِيحُنَا مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ، فيُلْهِمُون أن يذهبوا إلى آدم أبي البشر، خلَقه الله بيده، وعَلَّمه أسماء كلِّ شيء، وأسجد له الملائكة، فيصِفُون بهذه الأوصاف، ويقولون له: ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تشفعُ لنا عند الله؟ فيقول: لستُ لذاك، ثمَّ يَعْتَذِرُ بِأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ لأنَّ الله تَعَالَى قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] فوسَّوسَ لهما الشَّيْطَانُ فَأَكَلَا مِنْهَا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ اجْتَنَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿طه: ١٢١-١٢٢﴾ فصارت حالُ آدمَ بعد التَّوْبَةِ عليه أكْمَلُ مِنْ حالِهِ قَبْلَ أنْ يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ؛ لأنَّه تَابَ مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ، وتعرِفُون أن الشَّافِعَ إِنَّمَا يَشْفَعُ عِنْدَ الْمَشْفُوعِ عِنْدَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَا يُوجِبُ الْجَفْوَةَ.

فيأتون إلى نوح، يقولون: اثتوا نُوحًا، أوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ، فيطلبون منه أن يشفع، فيذكر أيضًا عذرًا، قال: إِنِّي سَأَلْتُ اللهُ تَعَالَى مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، وَيَعْتَذِرُ.

فيأتون إلى إبراهيم، خليل الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وصلى الله وسلَّم عليه، فيعتذر بأنه كَذَبَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، وهي ليست كذباتٍ في الواقع، لكن لشدة حياؤه من الله عَزَّوَجَلَّ استحيا أن يكون شفيعًا وقد كذب هذه الكذبات، مَعَ أنها تَوْرِيَّةٌ، وليست بكذب.

فيأتون إلى موسى، فيعتذر بأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها، فقد قتل قِبطيًا استغاثه عليه إسرائيل، فقتله موسى، وموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معروف بالشدة، فوكزه بيده ففضى عليه.

فيأتون إلى عيسى، وعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام لا يذكر شيئاً، لكن يعترف بالفضل لأهله، يقول: اتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

الله أكبر! انظروا كيف ألهم الله الخلق أن يأتوا هؤلاء الأنبياء الكرام، فمنهم من يعتذر، ومنهم من يعترف بالحق لأهله، والذين اعتذروا أربعة: آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، ومن اعترف هو عيسى، قال: اتوا محمداً عبداً غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيأتون إلى الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- فيستأذن من الله أن يشفع للناس، فيأذن له^(١).

ومحمد -صلوات الله وسلامه عليه- لا يشفع إلا بإذن الله، فيستأذن من الله عز وجل -ورب العزة والعظمة أعظم من أن يشفع أي إنسان أو مخلوق عنده إلا بإذنه- فيرحم الله الخلق، ويأذن له فيشفع فيهم، وبهذا يظهر إكرام الشافع، ورحمة المشفوع إليه.

مع أن الله قادر على أن يرفع عنهم بدون شفاعته، لكن من أجل أن يظهر فضل الشافع، ورحمة الله تعالى بالعباد وعظمته وسلطانه، أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فيقضي الله بين العباد.

وهذه الشفاعة العظمى خاصة بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- اعتذر عنها أبو البشر وأولو العزم من الرسل حتى وصلت إلى محمد عليه الصلاة والسلام.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَّةُ: شَفَاعَتُهُ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ. وَوَجْهُ خُصُوصِيَّتِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَلَا غَرَابَةَ أَنْ يَمُوتَ عَمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ آزَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، بَلْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى كِمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِ الرُّسُلِ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، وَأَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِ الْكَافِرِ مَنْ هُوَ رَسُولٌ.

وَالَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كَافِرٌ وَهُوَ رَسُولٌ: نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خَرَجَ مِنْ صُلْبِهِ ابْنٌ كَافِرٌ، وَهُوَ مِنْ أُولَى الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.

وَالَّذِي خَرَجَ مِنْ صُلْبِ كَافِرٍ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قَالَ لِأَبِيهِ آزَرَ: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَىٰ أَرْكَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أَبُو طَالِبٍ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «أَمَّا وَاللَّهِ لَا أَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنَّهُ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] ^(١).

ثُمَّ أَجَابَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ هَذَا الَّذِي يَحِبُّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ مَنْ ادَّعَىٰ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ، فَهُوَ كَافِرٌ، ﴿وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

نبينا ﷺ شَفَعَ لعمّه أبي طالبٍ، ولكن هل شَفَعَ له حتّى خرج من النار؟

الجواب: لا والله، شَفَعَ له حتّى صار في ضحضاح من نارٍ، وعليه نعلان من النار يغلي منهما دماغه^(١)، أعوذ بالله! وإنه ليرى أنه أشدُّ النَّاسِ عذابًا، وهو أهونُهم، لكن يُرى أنّه أشدُّ النَّاسِ عذابًا لِئَلَّا يَتَسَلَّى بِمَنْ هُوَ أَشَدُّ.

وذلك أن الإنسان إذا عُدِّبَ وقيل له: فلان عُدِّبَ أكثر منك، فإنه يهُون عليه العذاب؛ لأنَّ من النَّاسِ مَنْ عُدِّبَ أكثر منه، لكن إذا رأى أنّه أشدُّ النَّاسِ عذابًا لم يَتَسَلَّ.

إذن هذا نَفَعَتْ فيه الشَّفاعة، وهذا خاصٌّ بالرَّسُولِ ﷺ؛ لأنَّ الكافر لا تنفع فيه الشَّفاعة، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، والله تعالى لا يَرْضَى الكافر، لكن هذا أذن الله لرسوله ﷺ أن يشفع فيه، فيُخَفِّف عنه العذاب.

وحينئذٍ قد يقول قائل: لماذا خصَّ أبو طالبٍ بجواز الشَّفاعة له وهو كافر؟ فالجواب: لما له من الأيادي البيضاء في الدِّفاع عن مُحَمَّدٍ ﷺ وعن دين الرِّسُولِ ﷺ، نسأل الله السَّلامة، يُدافع عن الرِّسُولِ ﷺ ويقول مخاطبًا قُرَيْشًا^(٢):

لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّا ابْنَا لَا مُكَذِّبٌ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

فليس كذابًا ولا ساحرًا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا، رقم (٢١٢).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

ويقول في الدين الإسلامي^(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ
مِنْ خَيْرِ أَذْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فالذي يقرأ هذه الأبيات يقول: الرَّجُلُ مُسْلِمٌ، لكن العبرة بالنهاية، فقد حضرت أبا طالب الوفاة، وكان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عنده يَعْرِضُ عَلَيْهِ التَّوْحِيدَ، يقول: «يَا عَمَّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» وكان عنده رجلان من قُرَيْشٍ، وَجَلِيسُ السَّوِّءِ كُلِّهِ شَرٌّ وَسُوءٌ، فقالا له: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدٍ الْمُطَّلَبِ؟!!

وعبدُ المطلب أبوه، فما جاؤوا إِلَّا بِأَبِيهِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُوقِدُوا فِي قَلْبِهِ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ أَنَّهُ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٢).
اللَّهُمَّ اخْتِمْ لَنَا بِشَهَادَةِ التَّوْحِيدِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَكُونُ آخِرُ كَلَامِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

المهمُّ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ مِنْ أَجْلِ دِفَاعِهِ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَدِفَاعِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ، أَذِنَ لِلَّهِ لِلرَّسُولِ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ.

الشَّفَاعَةُ الثَّلَاثَةُ: شَفَاعَةُ الرَّسُولِ ﷺ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨)، وبلفظه في مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وخزانة الأدب (٢/ ٧٦).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، رقم (١٣٦٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول: لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

أما الشَّفاعةُ في تخفيفِ العذابِ عن عُصاةِ الْمُؤْمِنِينَ، فهذه ثابتةٌ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره من النَّبِيِّينَ، والشُّهَدَاءِ، والصَّالِحِينَ، حَتَّى الَّذِينَ يَصَلُّونَ عَلَى الْمَيِّتِ يَشْفَعُونَ لِلْمَيِّتِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَعَهُمُ اللَّهُ فِيهِ»^(١) وذلك لأنَّهم يدعون له فيقولون: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، فَإِذَا قَبِلَ اللَّهُ هَذَا الدُّعَاءَ، فهذه هِيَ الشَّفاعةُ المقبولةُ.

وهنا نقطة يقولها بعض النَّاسِ، يقول: تُقَدِّمُ جَنَازَتُكَ فَتُشَكُّ فِي إِسْلَامِ الْمَيِّتِ؛ لَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّي مَثَلًا، فهل يجب علينا أن ننصرفَ ولا نُصَلِّيَ عليه؛ لأنَّ الَّذِي يَمُوتُ وَهُوَ لَا يُصَلِّي لَا يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، أَمْ نُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْمَنَافِقِينَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا نَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٨٤]؟

والجواب أن يقال: إِذَا قُدِّمَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ مَنْ تَشَكُّ فِي إِسْلَامِهِ، أَوْ مَنْ تَشَكُّ فِي رِدَّتِهِ، فَاسْتَشْنِ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَاغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ، وَإِذَا قُلْتَ هَذَا بَرَأْتَ ذِمَّتَكَ؛ لَأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ.

وَأَنَا أَذْكُرُ قِصَّةً فِي هَذَا، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ (إِعْلَامُ الْمَوْقِعِينَ): إِنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ قَالَ: «كَانَ يُشْكِلُ عَلَيَّ أَحْيَانًا حَالُ مَنْ أُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْجَنَازَةُ، هَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ أَوْ مَنَافِقٌ؟ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ مَسَائِلَ عَدِيدَةٍ، مِنْهَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ، فَقَالَ: يَا أَحْمَدُ، الشَّرْطُ الشَّرْطُ. أَوْ قَالَ: عَلَّقَ الدُّعَاءَ بِالشَّرْطِ»^(٢). وَأَحْمَدُ هُوَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب من صلى عليه أربعون شفَعوا فيه، رقم (٩٤٨).

(٢) إعلَامُ الْمَوْقِعِينَ (٣/ ٣٠٠) ط دار الكتب العلمية.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَهَلْ يَجُوزُ الشَّرْطُ فِي الدُّعَاءِ؟

فالجواب: نعم، يجوز الشرط في الدعاء، أليس الله تعالى قال في آية اللعان: ﴿أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٧] وهي تقول: ﴿أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩] وهذا دعاء معلق. وفي الاستخارة: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاقْدُرْهُ لِي...»^(١). وهذا دعاء معلق.

إذن ذكرنا لهذه الرؤية شاهداً من القرآن ومن السنة:

والتعليق جائز حتى في العبادات؛ فضباعة بنت الزبير جاءت تسأل الرسول عليه الصلاة والسلام تقول: إنها أرادت الحج وهي شاكية، قال لها الرسول ﷺ: «حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»^(٢)، وفي رواية: «فَإِنَّ لَكَ عَلَى رَبِّكَ مَا اسْتَشْنَيْتَ»^(٣).

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ جمع: خازن، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلام من كل آفة؛ مثل المرض، والنصب، والهَم، والغم، فأهل الجنة في سرور دائم، وفي نعيم، حتى الواحد الذي يكون أدنى من غيره منزلة لا يرى أن غيره أعلى منه منزلة؛ لأنه قد اطمأن، قال تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨] أي: لا يطلبون تحولا؛ لأنهم ناعمون مُنعمون.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم (٦٣٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٨٩)، ومسلم: كتاب الحج، باب جواز اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه، رقم (١٢٠٧).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب كيف يقول إذا اشترط، رقم (٢٧٦٦).

قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ بعد التَّخْلِيةِ: التَّحْلِيَةُ.

ونضرب مثلاً لتوضيح معنى التَّخْلِيةِ والتَّحْلِيَةِ: زَوَّجْتُكَ عِنْدَمَا تَجَمَّلُ لَكَ فِيهِ
أَوَّلًا تُزِيلُ الشَّعَرَ مِنْ رَأْسِهَا، فَهَذَا يُسَمَّى تَخْلِيَةً، ثُمَّ إِنَّهَا تَلْبَسُ الْحُلِيَّ، وَهَذَا يُسَمَّى
تَحْلِيَةً.

المهم أنهم يقولون بالأوّل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا سلامٌ مِنْ كُلِّ الآفَاتِ،
ثم يقولون: ﴿طِبْتُمْ﴾ وهذا يعني أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ كُلُّ مَا يَطِيبُ لِقُلُوبِهِمْ.

قوله: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ أَبَدًا أَمْ إِلَى أَمَدٍ؟

الجواب: أَبَدًا، كما جاءَ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ
الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ قَالُوا ذَلِكَ حَامِدِينَ لِلَّهِ
عَزَّوَجَلَّ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ؛ وَعَدَنَا الْجَنَّةَ فَحَصَلَتْ ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ
حَيْثُ نَشَاءُ﴾ وَالْأَرْضُ قِيلَ: إِنَّهَا أَرْضُ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَصَرَهُمْ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَ
الْمُشْرِكِينَ وَدِيَارِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَقِيلَ: الْمَرَادُ أَرْضُ الْجَنَّةِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، أَوْرَثَهُمْ
اللَّهُ أَرْضَ الدُّنْيَا، فَكَانَتْ لَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ يَتَبَوَّؤْنَ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ يَشَاؤُونَ، فَكُلُّ
وَاحِدٍ يَذْهَبُ إِلَى الثَّانِي لِزِيَارَتِهِ فِي أُنْسٍ وَسُرُورٍ وَحُبُورٍ.

قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ هَذَا ثَنَاءٌ عَلَى هَذَا الْأَجْرِ الَّذِي حَصَلَ لَهُمْ، وَهَلْ
هُوَ مِنَ اللَّهِ، أَمْ هُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إِقْرَارًا بِهِ؟ يَحْتَمِلُ هَذَا وَهَذَا، وَالْآيَةُ صَالِحَةٌ لِلْجَمِيعِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

قوله: ﴿وَتَرَى﴾ الْخِطَابُ هُنَا هَلْ هُوَ لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ لِلأُمَّةِ؟
نقول: هذا الخطاب لَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،
أَوْ عَلَى أَنَّهُ عَامٌّ.

واعلم أن الْخِطَابَ الْمَوْجَّهَ بِمِثْلِ هَذِهِ الصِّيْغَةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

القِسْمُ الْأَوَّلُ: أن يكون في السِّياقِ ما يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ.

والقِسْمُ الثَّانِي: أن يكون دَلِيلًا عَلَى الْخُصُوصِ.

والقِسْمُ الثَّالِثُ: ألا يكون فيه دَلِيلٌ عَلَى الْخُصُوصِ أَوْ عَلَى الْعُمُومِ.

مثال الأول قول الله تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطَّلَاق: ١]، فهنا
وَجَّهَ الْخِطَابَ أَوَّلًا إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِذَا
طَلَّقْتُمُ﴾، والخطابُ هنا للْعُمُومِ، بِدَلِيلِ الْجَمْعِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْخِطَابُ الْمَوْجَّهَ
لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَهُ وَلِلأُمَّةِ بِالنَّصِّ.

والثَّانِي: أن يكون هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى الْخُصُوصِ، فَهُنَا يَخْتَصُّ الْحُكْمُ بِالرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ
صَدْرَكَ﴾ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. فَهَذَا يَخْتَصُّ
بِالرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

القسم الثالث: ما يكونُ لا دليلَ فيه للخصوصِ أو العموم، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] هل الخطابُ موجّه للرّسول عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام وحده أو لكل من يصحّ خطابه؟

على قولين. واعلم أنّ الخلافَ شبيهٌ باللفظي في هذه المسألة؛ لأنّ الذين يقولون: إنه خاص بالرّسول عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام يقولون: إن أمته يشملها الحكمُ باعتبار الأسوة؛ لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فإذا قال قائل: ما الأصل: الخصوصية أم العموم؟

قلنا: الأصل: العموم، ولهذا لما أراد الله عزّ وجلّ الخصوصية نصّ عليها فقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عِمَمِكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

والدليل على الخصوص قوله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أباح الله له أن يتزوج بالهبة.

إذن هذا يدل على أنّه إذا لم يدلّ دليل على أنّ الحكمَ خاصٌّ بالرّسول وجب التعميم، وخذها قاعدة: كل حكم ثبت للرّسول صلى الله عليه وعلى آله وسلّم فهو ثابت للأمة إلاّ بدليل.

قوله: ﴿حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ يعني بذلك عرش الرحمن جلّ وعلا؛ ذلّا لله عزّ وجلّ وتعظيمًا له.

قوله: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يعني: يُنزهون الله عن كل ما لا يليق به. وسبق أن التنزيه يكون في أمور ثلاثة.

قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: قُضي بين الخلائق، وانتهى كل شيء؛ أهل النار في النار - والعياذ بالله - خالدين مخلدين، وأهل الجنة في الجنة، خالدين مخلدين.

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن تجعلنا من الخالدين في جنات النعيم.

قوله: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من الذي يقول؟

كل يقول: الحمد لله رب العالمين؛ أهل الجنة والملائكة.

وانظر كيف جاء الحمد في ابتداء الخلق، وفي انتهاء الخلق، ففي ابتداء الخلق قال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وفي النهاية عند دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ووالله إن الحمد لله أولاً وآخراً، وهو ذو الشَّاءِ والمجد، ولا نُحصى ثناء عليه سبحانه، هو كما أثنى على نفسه.

والحمد لله الذي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّم على نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ الثَّامِنُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

النَّفْخُ فِي الصُّورِ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾، الصُّورُ: شَيْءٌ يُشَبِّهُ الْقَرْنَ، وَهُوَ وَاسِعٌ جَدًّا، يَنْفُخُ فِيهِ إِسْرَافِيلُ، فَيَحْدُثُ مِنْهُ صَوْتُ عَظِيمٌ يَفْزَعُ مِنْهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَصْعَقُونَ؛ أَيِ يَمُوتُونَ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ؛ أَيِ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْظُرُونَ مَاذَا حَدَثَ.

وَالَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الْعِظَامِ؛ وَهُوَ إِسْرَافِيلُ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يَذْكُرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي دُعَاءِ افْتِتَاحِ صَلَاةِ اللَّيْلِ؛ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ يَفْتَتِحُ صَلَاةَ اللَّيْلِ بِهَذَا الدُّعَاءِ «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(١).

وَذَكَرَ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةَ الثَّلَاثَ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَلِكٍ مِنْهُمْ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةٌ، وَلَكِنَّهَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (١٢٩٥).

حياة من نوع غير النوع الذي وُكِّل به الملك الآخر؛ فجبريل مُوَكَّل بالوحي، وبالوحي حياة القلوب، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسَمَّى الله القرآن رُوحًا؛ لَأَنَّهُ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ.

وإسرافيل مُوَكَّل بما فيه الحياة؛ وهو الصُّور، فَإِنَّهُ يَنْفُخُ فِيهِ، فَتَخْرُجُ مِنْهُ الْأَرْوَاحُ، وَتَحُلُّ فِي أَجْسَادِهَا حُلُولًا أَبَدِيًّا لَا مَفَارِقَةَ بَعْدَهُ؛ لِأَنَّ الرُّوحَ فِي الدُّنْيَا حَالَةً فِي الْبَدَنِ لَكِنَّهَا تُفَارِقُهُ، أَمَّا إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ، فَإِنَّهَا تَحُلُّ فِي الْبَدَنِ حُلُولًا لَا مَفَارِقَةَ بَعْدَهُ.

وميكائيل؛ مُوَكَّل بما فيه الحياة مُوَكَّل بالقَطْرِ؛ أي بالمطر، وَفِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ هَذَا النَّفْخِ فِي الصُّورِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ الَّذِي اسْتِثْنَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الصَّعَقِ يَدْخُلُ فِيهِ الْخُورُ اللَّاتِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِنَّهُمْ خُلِقُوا لِلْبَقَاءِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا وَلَدَانُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فَإِنَّهُمْ خُلِقُوا لِلْبَقَاءِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ بِمَا فِيهَا خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ لَا تَفْنَى أَبَدًا، وَكُلُّ مَا يَدْخُلُهَا بَعْدَ الْبَعْثِ فَإِنَّهُ لَا يَفْنَى أَبَدًا يَكُونُ خَالِدًا فِيهَا مُخْلَدًا أَبَدًا الْآبِدِينَ.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾؛ وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، ﴿هُم﴾؛ أي المبعوثون ﴿قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، تَدْخُلُ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، وَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَهَذِهِ قُدْرَةُ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ يَصْعَقُ فِيهَا مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا مِنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ نَفْخَةٌ أُخْرَىٰ يَحْيَا فِيهَا الْأَمْوَاتُ وَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَات: ١٣-١٤].

فَخَلَقْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا يَتَطَوَّرُ، فَيَمُكُثُ الْإِنْسَانُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، أَوْ أَدْنَىٰ، أَوْ أَكْثَرَ، فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ، فَإِنَّهُ بِلَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يَقُومُ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا أَحْيَاءً، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ تَمَامُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ وَأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] وَاحِدَةٌ بِدُونِ تَكَرُّارٍ، وَبِدُونِ تَأْخِيرٍ كَلَمْحِ الْبَصَرِ.

فَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ أَسْرَعُ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ، فَأَمْرُ اللَّهِ مَهْمَا كَانَ الْمَأْمُورُ مِنَ الْعِظَمَةِ وَالْكَثَرَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، وَالْأَمْرُ الَّذِي يُوجِّهُهُ اللَّهُ لِلْخَلَائِقِ يُوجِّهُهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَنْ لَهُ عَقْلٌ وَإِدْرَاكٌ، وَإِلَى مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ وَلَا إِدْرَاكٌ لَكِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لِأَمْرِ اللَّهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، فَفَهِمَتَا الْخَطَابَ، فَقَالَتَا: أَتَيْنَا طَائِعِينَ، وَامْتَثَلْنَا لِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

أَمَّا النَّارُ الَّتِي أَوْقَدَتْ لِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ اللَّهُ لَهَا: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فَكَانَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا.

وَالْقَلَمُ الَّذِي كَتَبَ اللَّهُ بِهِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ خَلَقَهُ اللَّهُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(١)، فَالْمَخْلُوقَاتُ وَلَوْ كَانَتْ جَمَادًا تَعْبِي أَمْرَ اللَّهِ، وَتُمَثِّلُهُ، وَتُطِيعُهُ عَزَّوَجَلَّ،

(١) أخرجه أحمد (١٧/٢٢٧ رقم ١١١٤٣).

وَيَكُونُ ذَلِكَ فوريًا بدون تأخير.

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾؛ يعني ضياءً بنور الله عز وجل فإن الله تعالى يأتي يوم القيامة للقضاء بين عبادِهِ؛ ليقضي للمظلوم من الظالم؛ وليقيم العدل بين العباد؛ ولتظهر فيه آثار الثواب والعقاب.

كُتِبَ الْأَعْمَالُ:

قوله تعالى: ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾، المراد بالكتاب هو صحائف الأعمال، فإن لكل واحدٍ منّا كتاباً يلقاه يوم القيامة منشوراً، ويقال له: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، ويكتب في هذا الكتاب الحسنات والسيئات.

فإن قيل: هل تُكتب الأعمال التي ليست حسنة ولا سيئة؟

قلنا: اختلف العلماء في ذلك، فمنهم من قال: إنها تُكتب، ومنهم من قال: إنها لا تُكتب؛ لأنه لا يتعلق بها ثواب ولا جزاء، ولقد قال الله تعالى في سورة ق: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ فأني قولٍ يلفظ به الإنسان فإن لديه رقيباً مراقباً، عتيداً حاضراً لا يفارقه، يكتب كل ما يلفظ به.

وظاهر الآية الكريمة أنه يكتب كل قولٍ حسناً كان أم سيئاً، أو الأقوال التي لا حسنة ولا سيئة، ولهذا دخل رجلٌ من أصحاب الإمام أحمد عليه وهو مريض بين من مرضه، فقال له: يا أبا عبد الله إن طاووساً؛ وهو أحد كبار التابعين يقول: إن

الملك يكتبُ أنينَ المريضِ، فأمسكَ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ عَنِ الْأَنِينِ؛ خَشْيَةً أَنْ يُكْتَبَ عَلَيْهِ.

فَلَوْ أَنَّ أَحْصَيْنَا أَقْوَالَنا لوجدنا أَقْوَالَ كثيرةً لغَوْا لَا فائدةَ منها، بَلْ لوجدنا أَقْوَالَ كثيرةً كلها آثامٌ وكلها مما يَكْتَسِبُ بِهِ الْإِنْسَانُ جَرَمًا يَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَيَنْقُصُ مِنْ إِيْمَانِهِ؛ لِأَنَّ الْمَعَاصِي تُوجِبُ نَقْصَ الْإِيْمَانِ.

فَاللَّغْوُ مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، لَا يُدَّ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى الْمَرْءِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»^(١)، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا وَإِلَّا فليصمت.

وَالْخَيْرُ فِي الْكَلَامِ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا لِدَايَةِ، كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالذِّكْرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ.

وَالْكَلَامُ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَكِنْ يَقْصَدُ بِهِ إِدْخَالُ السُّرُورِ عَلَى الْجَلِيسِ وَتَأْنِيسِهِ وَتَأْلِيفُهُ يَكُونُ خَيْرًا لْغَيْرِهِ، فَقَدْ يَتَكَلَّمُ الْإِنْسَانُ بِكَلَامٍ هُوَ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، لَكِنْ يَقْصَدُ بِهِ إِدْخَالَ السُّرُورِ عَلَى جَلِيسِهِ وَإِيْنَاْسَهُ وَتَأْلِيفَ قَلْبِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ يَأْتِي بِهِمُ اللهُ، وَحُذِفَ الْفَاعِلُ لِلْعِلْمِ بِهِ، فَإِنَّ الْفَاعِلَ يُحْذَفُ لِأَسْبَابٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهَا أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النِّسَاءُ: ٢٨]، فَحُذِفَ الْفَاعِلُ لِلْعِلْمِ بِهِ؛

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، رَقْمُ (٥٥٨٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيْمَانِ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى إِكْرَامِ الْجَارِ وَالضَّيْفِ، رَقْمُ (٧٠).

لَآئِهٖ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالنَّبِيِّينَ﴾، فالجائي بهم هو الله عَزَّوَجَلَّ، فيأتي بالنبيين والشهداء.

أَمَّا النَّبِيُّونَ؛ فَإِنَّهُمْ الرُّسُلُ -عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- يُؤْتَى بِهِمْ لِيَشْهَدُوا عَلَى أُمَّهِمْ بِأَنَّهُمْ بَلَّغَتْهُمْ الْحُجَّةُ وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فَالنَّبِيُّونَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بُلَّغُوا، وَقَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَالشُّهَدَاءُ هُمُ الْعُلَمَاءُ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُمْ، وَيَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِأَنَّهُمْ بُلَّغُوا الرِّسَالَةَ، وَلِهَذَا نَقُولُ: أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَالِ الرُّسُلِ هُمُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾؛ أَيُّ بِالْعَدْلِ، وَالْقَاضِي بَيْنَ الْعِبَادِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْضِي بَيْنَ الْعِبَادِ بِالْعَدْلِ؛ هَذَا بِاعْتِبَارِ مَا بَيْنَ الْعِبَادِ مِنَ الْحَقُوقِ، وَيَقْضِي بَيْنَ الْعِبَادِ بِالْفَضْلِ؛ وَهَذَا بِاعْتِبَارِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْزِي الْمُحْسِنَ الْحَسَنَةَ بَعْشَرِ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَيَجْزِي الْمُسِيءَ، إِمَّا بِمِثْلِ إِسَاءَتِهِ، وَإِمَّا بِالْعَفْوِ عَنْهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فَفِي حَقُوقِ الْعِبَادِ يَكُونُ الْقَضَاءُ بِالْعَدْلِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْخَذَ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَذَرُونَ مَا الْمُفْلِسُ» «قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ

هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»^(١)، هَذَا هُوَ الْمَفْلَسُ يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بِهَا قَدْ أُخِذَتْ لِمَنْ ظَلَمَهُ فِي الدُّنْيَا.

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِحَقُوقِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ يَقْضِي بَيْنَ الْخَلْقِ بِالْفَضْلِ وَبِالْعَدْلِ، إِنَّ عَذَابَ الْمَسِيءِ فَقَدْ عَدَلَ، وَإِنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْعَفْوِ وَأَثَابَ الْمُحْسِنَ، فَإِنَّهَا ذَلِكَ بِالْفَضْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ وَهُوَ الدَّائِرُ بَيْنَ الْفَضْلِ وَبَيْنَ الْعَدْلِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ يُظْلَمَ أَحَدٌ فِي جَزَائِهِ، بَلْ يُعْطَى جَزَاءَهُ كَامِلًا، إِمَّا عَدْلًا وَإِمَّا فَضْلًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].

قَوْلُهُ: ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ يَعْنِي أُعْطِيَتْ، وَالْمَوْفِيُّ لَهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ الْمُرَادُ النَّفْسُ الَّتِي تُوفَّى وَتُحَاسَبُ، وَأَمَّا الْبَهَائِمُ وَالْوَحُوشُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهَا لَا تُعْطَى شَيْئًا مِنْ جَزَاءِ الْعَمَلِ، بَلْ تَكُونُ تَرَابًا وَتُضْمَحَلُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يَفْعَلُ الْخَلْقُ.

وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾، أَيْ وَهُوَ عَالِمٌ، فَيُحَوَّلُ اسْمُ التَّفْضِيلِ إِلَى اسْمِ الْفَاعِلِ، وَعِلَّةُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَاعِدَةَ فِي اسْمِ التَّفْضِيلِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١).

أَنَّ الْمُفَضَّلَ وَالْمُفَضَّلَ عَلَيْهِ يَشْتَرِكَانِ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى، وَيَخْتَلِفُ الْمَفْضَلُ بِالزِّيَادَةِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَرِكَ الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى.

وهَذَا خَطَأٌ؛ لِأَنَّ عَالِمَ اسْمٍ فَاعِلٍ، وَيَشْتَرِكُ فِيهَا كُلُّ مَنْ اتَّصَفَ بِالْعِلْمِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: فَلَانٌ أَعْلَمُ مِنْ فَلَانٍ كَانَ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: فَلَانٌ عَالِمٌ وَفَلَانٌ عَالِمٌ، فَاسْمُ التَّفْضِيلِ -إِذَنْ- عَلَى بَابِهِ وَهُوَ أَدْلُّ عَلَى الْكَمَالِ مِنْ اسْمِ الْفَاعِلِ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِمَا يَفْعَلُ الْعِبَادُ، فَيُجَازِيهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَسَبَ مَا يَقْتَضِيهِ الْعَدْلُ أَوْ الْفَضْلُ.



الدَّرْسُ التَّاسِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

(نُفِخَ) هُنَا مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَانْتَبَهُ أَيُّهَا النَّحْوِيُّ فَلَا تَقُلْ: مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ، بَلْ قُلْ: مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: مَبْنِيٌّ لِلْمَجْهُولِ انْتَقَضَ عَلَيْكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] فَإِنْ خَلَقَ هُنَا فَعَلٌ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَهَلْ فَاعِلُهُ مَعْلُومٌ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. إِذَنْ فَالتَّعْبِيرُ السَّلِيمُ أَنْ تَقُولَ بَدَلِ (فَعَلٍ مَبْنِيٍّ لِلْمَجْهُولِ): (فَعَلٌ مَبْنِيٌّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ).

قَوْلُهُ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النَّافِخُ هُوَ مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ، وَهُوَ إِسْرَافِيلُ، يَأْمُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَنْفِخَ فِي الصُّورِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أَيُّ هَلَكَ، فَصَعِقُوا أَيُّ هَلَكُوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]. فَصَعِقَ النَّاسُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، فَمِنْ الَّذِينَ اسْتَنَاهُمُ اللَّهُ؟

أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُمْ الشُّهَدَاءُ؛ لِأَنَّ

الشُّهداء أحياءٌ عندَ اللهِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وذكروا في هذا حديثاً عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم^(١)، فإن صحَّ الحديثُ فلا مجال للقول في مخالفته، وإن لم يصحَّ فحسبنا أن نقول: استثناءُ أہمَّةُ الله، فلا نعلمُ من المستثنى، وكفى بنا أدباً وديناً واتباعاً أن نسكت عما أہمَّةُ الله ورسوله. قوله: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ النفخة الثانية ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ قيامٌ من الأجداث؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١].

وذلك أن الله عزَّ وجلَّ كما جاء في الآثار يُنزلُ مطراً غليظاً كمني الرِّجال، واللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فتنبُتُ الأجسامُ في القبور^(٢)، لكن بلا أرواح، ثم إذا نفخَ في الصورِ تطايرت الأرواحُ منه وحلَّت كلُّ روحٍ بجسديها الذي كانت تعمُرُهُ في الدنيا، فلا تخطئه قيد شعرة، تعالى الله! فلا تزل روحٌ عن جسديها.

قوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ينظرون ماذا حدث، وإلى أي شيء يذهبون.

فعندنا الآن نفختان في هذه الآية: الأولى: نفخة الصعق، والثانية: نفخة القيام لله ربِّ العالمين، وهناك نفخة أخرى ذكرت في سورة النمل في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في المسند (١/ ٨٤، رقم ١٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥/ ١٩١، رقم ٣٨٧٩٢).

فهل هناك ثلاث نفخات أو نفختان؟ في حديث الصور الطويل^(١) الذي فيه نكارة وجهالة لبعض روايته، وساقه ابن كثير^(٢) في صفة القيام على قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَلَأُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] أن النفخات ثلاث، فهناك نفخة فزع، يفرغ الناس ويلحقهم من الفزع والخوف ما ذكره الله في قوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

وقال بعض أهل العلم: بل هما نفختان، النفخة الأولى فيها الفزع والصعق، أي أن الناس يفرعون و ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾، ويمتد النفخ حتى يصعقهم ويهلكهم. والمسألة تحتاج إلى تحرير ليس هذا موضعه.

قوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أشرقت الأرض يعني استنارت بنور الرب عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِيمِ﴾ [الفرقان: ٢٥] لمجيء الرب جل وعلا للفصل بين عباديه.

قوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ وهو كتاب الأعمال. وعلى هذا ف(أل) هنا للعموم، أي وضعت الكتب التي كتبت فيها أعمال العباد.

قوله: ﴿وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ جيء بالنبيين من أجل أن يستشهدوا على

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في المسند (١/ ٨٤، رقم ١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٨٢).

أُمِّهِمْ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ، فيشهدُ الرُّسُلُ على أُمِّهِمْ أَنَّ الرِّسَالَةَ بَلَّغْتُهُمْ واضحةً بينةً، لا حجةَ فيها لأحدٍ.

والشُّهداءُ هنا همُ العلماءُ، ليسَ الَّذِينَ قُتِلُوا في سبيلِ الله؛ لأنَّ المقامَ هنا مقامُ إقامةِ حجةٍ بتبليغِ الرُّسُلِ، وأعلمُ النَّاسِ بتبليغِ الرُّسُلِ للأُممِ ورثتهم، وهمُ العلماءُ، فيؤتَى بالشُّهداءِ - وهمُ العلماءُ - فيشهدونَ أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغُوا البلاغَ المبينَ، واللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بذلكَ كلِّه، لكنَّ من أجلِ إقامةِ الحجةِ الظَّاهرةِ على الخلقِ؛ حتى لا يَبْقَى عذرٌ للمعتذرِ.

قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦١) أي فصلَ بينهم بالحقِّ، وهم لا يُظلمونَ مثقالَ حبةٍ خردلٍ؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ أَلْفٌ يَوْمَئِذٍ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠].
ثم قال تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (ووفيت)
يعني: وفَّى اللهُ تعالى كلَّ نفسٍ ما عملت: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ما أحسنَ هذه العبارةَ بعدَ قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ! لئلا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّهُ سَيَخْفَى شيءٌ من أعمالِ الإنسانِ، فلا يخفى شيءٌ من أعمالِ الإنسانِ، فكلُّ شيءٍ معلومٌ عندَ اللهِ مُدُونٌ لا يُزَادُ فيه ولا يُنْقُصُ.

قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿[الزمر: ٧١].

قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ سيقوا إلى جهنم سيقاً إهانة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣]، يدفعونهم دفعاً، وهم مع ذلك أيضاً يلجئون على جهنم -والعياذ بالله- عطاشاً في أشد ما يكونون حاجةً للماء؛ لأن جهنم تمثل لهم كالسراب يحسبه الظمآن ماءً وليس بهاءً، فيلجئون إليها بشدة وشوق، فإذا بلغوها فإذا هي النار، ولكنهم لو توقفوا فإنهم يدعون دعاً ويلقون فيها إلقاءً.

مثال ذلك: لو كنت في سطح وألقيت الناس من السطح فهذا إهانة لا شك وليس إكراماً.

وكلما ألقى فيها فوج فإنهم يدفعون دفعاً ويلقون في النار إلقاءً ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وهذه الزمر ليست فوضوية، ولكن كل واحد مع جنسه وصنفيه، والدليل قوله تعالى: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ من دون الله فأهدوهم إلى صراطٍ الجحيم ﴿[الصافات: ٢٢-٢٣].

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وهنا فرق بين هؤلاء وبين المتقين؛ فقد قال في المتقين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ﴾، وفي الذين كفروا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ يعني حينما يأتون تفتح الأبواب ويفاجئهم العذاب والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مقررعين وموبخين ومُندمين ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ

مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ ﴿١﴾ رُسُلٌ مِنْكُمْ أَيَّ مِنْ جَنَسِكُمْ، بشرٌ مرسلٌ إلى بشرٍ. ولما اقترح المعاندون المكدبون أن يكون الرَّسُولُ مَلَكًا قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي بصورة رجلٍ؛ إذ لا يُمكنُ أن يتفقَ الملكُ بصورته التي هو عليها مع البشرِ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ وحينئذٍ تأتي المشكلة ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَائِلِيْسُوتَ﴾ [الأنعام: ٩].

إِذْ يَقُولُ لَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي من جنسِكُمْ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ ما قَصَّروا ولا اخْتَفَوْا، بل يعلنون آياتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ويتلونها عليهم ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ أي يخوفونكم ﴿لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾. فكان جوابُ الكافرينَ الإقرارَ وليس الإنكارَ: ﴿قَالُوا بَلَى﴾.

وهذا كقوله في سورة المُلِكِ: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨-٩]، لكنَّهم في الآخرة يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك: ١٠-١١].

فيا أخي، إياك أن تكونَ من هؤلاء، وإياك أن تعترفَ بذنبك حينَ لا ينفعُ الاعترافُ، فالاعترافُ بالذنبِ الآنَ ينفعُ، وتُقبلُ التَّوبَةُ، لكنَّ يومَ القِيَامَةِ لا ينفعُ الاعتذارُ.

هنا يقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي وجبت كلمةُ العذابِ، وهي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدَ الكافرينَ بالنَّارِ، وهؤلاءِ كفروا باللهِ

فَحَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

فكان جوابُ خزنة النار: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا﴾ ربما يكونُ القائلُ خزنة النار، وربما يكون كل الكون، قال ذلك لأن كل الكون يشهد بأن أهل النار أهل للنار مستحقون لها.

ولكن الظاهر أن القائل هم الخزنة.

فإن قيل: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ خالدين أبداً أم إلى أمدٍ؟ قلنا: أبداً، ودليل ذلك في القرآن: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً﴾، نقول ذلك بقول ربنا، لا بقول فلان وفلان، وفي القرآن الكريم ذكر التأييد في ثلاثة مواضع: الموضع الأول في سورة الجن: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً﴾ [الجن: ٢٣].

الموضع الثاني في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعيراً ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٥].

الموضع الثالث في سورة النساء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً﴾ [النساء: ١٦٨-١٦٩].

فهذه ثلاث آيات أخبر الله تعالى فيها بتأييد خلودهم، أفبعد هذا يمكن لقائل أن يقول: إن خلود أهل النار غير مؤيد!

ولهذا كتب المصنّفون في عقائد السلف أن الجنة والنار موجودتان الآن، وأنها مؤبدتان، لا تفنيان، وهذه عقيدة يجب على الإنسان أن يعتقدّها، وليست من رأي فلان وفلان، فهي من ربّ العالمين، ولا يمكن أن يقول قائل: إن الخلود في النار غير مؤبد والله يقول في ثلاث آيات من القرآن: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

إذن يجب أن نعتقد بأن هؤلاء خالدون في النار أبدًا؛ كما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ، ولسنا أرحم من الله بعباده، ومن أصدق من الله قيلاً، فليس هناك من هو أصدق من الله قيلاً.

فإذا قال قائل: كيف يُؤبدون دائماً بالعذاب؟

قلنا: نعم، ألم يُبلِّغوا بذلك في الدنيا أنهم إذا كفروا عذبوا بعذاب خالد؟ بلى، إذن هم الذين جنوا على أنفسهم، والربُّ عزَّ وجلَّ ما أبقي لأحدٍ عذراً ولا حجة، فبين كل شيء، فإذا اختاروا لأنفسهم الكفر فقد اختاروا لأنفسهم العذاب الدائم المؤبد، ولم يظلم الله أحداً شيئاً.

ثم قال في آخر الآية: ﴿فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢)، وهذا قدح في مَثْوَى هؤلاء المتكبرين؛ لأن الكافر متكبر؛ إذ لو كان مُستدلاً مُستصغراً لآمن بربه، لكنه مستكبر.

وفي قوله: ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ إشارة إلى ما سبق أن نبهنا عليه من أنه توجد في الصحف وعلى ألسنة بعض الناس كلمة وهي خطأ؛ حيث نقرأ في الصحف في بعض الأحيان: «فلان انتقل إلى مثواه الأخير»، يعني القبر، وهذا غلطٌ عظيم، وهذا لو اعتقد الإنسان معناه لكان كافراً؛ لأنه إذا اعتقد أن القبر هو المَثْوَى

الأخيرُ فهذا يتضمنُ إنكارَ البعثِ، وهوَ خطيرٌ جدًّا، لكن معَ الأسفِ أن بعضَ الناسِ يأخذُ الكلامَ على علاقتهِ، ولا يتدبَّرُ فيه ولا يتأمَّلُ، وكلُّ إنسانٍ مسلمٍ -والحمدُ لله- لا يمكنُ أن يُقرَّ بهذا، أي لا يمكنُ أن يعتقدَ أن القبرَ هوَ المَثْوَى الأخيرُ، بل يؤمنُ بأن هناكَ بعثًا وراءَ هذا القبرِ، ولهذا قالَ هنا: ﴿فَيْئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

[الزمر: ٧٣]

ثم قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ أي أفواجًا، سيقوا على وجهِ التَّكْرِيمِ والتَّجْجِيلِ، والرفقِ والإكرامِ، وقوله: ﴿اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ أي اتَّقُوا معاصِيَ الله عزَّ وجلَّ فقاموا بما أوجبَ الله عليهم، وتركوا ما حرمَ الله عليهم، وفقهوا في دينِ الله، وأحسنوا في عبادةِ الله، فهؤلاءِ المتقونَ، أسألُ الله تعالى أن يجعلني وإياكم منهم، فهؤلاءِ يُساقونَ يومَ القيامةِ إلى الجنةِ سياقَ إكرامٍ وتبجيلٍ واحترامٍ؛ كما قالَ تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾. المتأمل يقولُ: في هذه الجملةِ فعلُ الشرطِ وليس فيها جوابُ شرطٍ، قالَ: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا﴾ فـ(إذا) أداة شرطٍ، وفعلُ الشرطِ (جاءوها) عطفٌ عليه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، أيضًا عطفٌ على فعلِ الشرطِ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ مقولُ القولِ، فأينَ جوابُ الشرطِ؟

نقول لك جواب الشرط محذوف، وحذف الجواب من أجل أن يذهب الدهن كل مذهب في تقديره، وهذا من بلاغة القرآن، فنحن نعلم أنهم إذا جاءوها وفتحت أبوابها، ورَحَّبَتْ بهم خزنة الجنة، وقالوا لهم: طِبُّم، أي طِبُّم مقالا وفعالا وثوابا وأعمالا، فادخلوها خالدين؛ إذا كان ذلك فإنه سيحصل لهم من السعادة ما لا يخطر بالبال.

وعلى هذا فيكون جواب الشرط محذوفاً، والتقدير: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ حصل لهم من السعادة ما لا يخطر على البال.

ويشهد لهذا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، لا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لها من قرّة العين، أسأل الله أن يُقرّ عيني وعينكم بدخولها.

وقال تعالى في الحديث القدسي: «أَعَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

إذن -يا أخي المسلم- جواب (إذا) محذوف، والتقدير: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ حصل لهم من السعادة ما لا يخطر على البال.

قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ للجنة ثمانية أبواب، ففي حديث عمر بن الخطاب

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (٣٢٤٤)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٢٤).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُسَبِّغُ الْوُضُوءَ» يَعْنِي يَتَوَضَّأُ وَضُوءًا كَامِلًا «ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»^(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرِّيَّانِ». فكلُّ مَنْ كَانَ أَخْصَصَ فِي وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ كَانَ دُخُولُهُ مِنَ الْبَابِ الَّذِي يَكْثُرُ مِنْهُ الْفِعْلُ الَّذِي هَذَا الْبَابُ لَهُ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا حَدَّثَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَذَا الْحَدِيثِ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا؟» يَعْنِي يُمَكِّنُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ مِنَ الصَّائِمِينَ وَيَدْخُلُ مِنْ بَابِ الصَّائِمِينَ، أَوْ مِنْ أَصْحَابِ الصَّدَقَةِ، يَعْنِي يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ كُلِّهَا: يَا صَائِمٌ أَقْبَلْ، يَا مُتَصَدِّقٌ أَقْبَلْ، يَا مُصَلٍّ أَقْبَلْ، يَا مُجَاهِدٌ أَقْبَلْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ، وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»^(٢).

إِذَنْ - يَا إِخْوَانُ - أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ثَمَانِيَّةُ أَبْوَابٍ، وَالنَّارُ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ أَوْسَعُ مِنْ غَضَبِهِ، فَأَبْوَابُ عَذَابِهِ أَقْلُ مِنْ أَبْوَابِ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (٢٣٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب الريان للصائمين، رقم (١٨٩٧)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر، رقم (١٠٢٧).

قوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (٧٢)
خالدين أبد الآبدین.

قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٦) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الزمر: ٧٤-٧٥].

ثم قال عز وجل: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ حمدوا ربهم عز وجل الذي صدقهم وعده، ونعم الرب، فهو الصادق في وعده، الذي لا يخلفه عز وجل. وكان من ذكر الرسول ﷺ على الصفا والمروة أنه يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»^(١). أنجز وعده يعني صدقه فأنجزه.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ فقد وعد الله المتقين جنات النعيم ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ المراد هنا إما أرض الجنة؛ لأن الله أورث المتقين مكان المجرمين في الجنة، أو المراد أرض الدنيا، يعني أورثنا الأرض فنصرنا على أعدائنا لتبوأ من الجنة حيث نشاء؛ في ذلك قولان للعلماء.

قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٦)، وهذا ثناء في مقابل: ﴿فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٢).

وانظر - يا أخي - إلى الرب الكريم: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٦) جعل الله تعالى ذلك جزاء لعملهم، مع أن الذي من عليهم بالعمل هو الله، فله المنه أولا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

وآخرًا، لكنّه عزَّوجلَّ من حبه للكرم، وصفته الكرم، يجعلُ ثوابَ العاملِ في منزلةِ الأجر، واستمعُ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] سعيًا مشكورًا، والذي منَّ علينا بالسعي هو الله.

وانظرُ إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، هل جزاءُ العملِ إلا الثوابُ، الإحسانُ الأولُ العملُ، والإحسانُ الثاني هو الثوابُ، ومع ذلك فالذي أحسنَ إلينا بالعملِ الصَّالح هو الله، لكن من كرمه جعلنا مستحقينَ بعملنا، ولهذا قال هنا: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾.

فإن قال قائلٌ: أليس النبيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم قد قال: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»^(١)؟ فكيفَ نجمعُ بين الآياتِ الدَّالةِ على أن الإنسانَ يُجَازَى بعمله ثوابًا، وهو دخولُ الجنة، وبينَ هذا الحديثِ؟

يعني هذا حديثٌ يدلُّ على أن العملَ ما يُدْخَلُ الجنة، والآياتُ تدلُّ على أن العملَ يُدْخَلُ الجنة، فكيفَ نجمعُ بينهما؟ وانتبهوا إلى هذه المسألةِ حتى لا تعتقدَ أن نصوصَ الكتابِ والسنةِ تتناقضُ: كيفَ نجمعُ بين قوله: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» وبين قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ وما أشبه ذلك؟

فالجوابُ: أولًا: يجبُ عليك -أيها الأخ المسلم- أن تعلمَ أنه لا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ الكتابِ بعضه مع بعضٍ، ولا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ السنةِ بعضها

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم (٦٤٦٣)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، رقم (٢٨١٦).

مع بعضٍ، فهذان شيان، ولا يُمكنُ أن يتعارض الكتابُ مع صحيحِ السنةِ، فهذه ثلاثةٌ.

فالتَّعارضُ في هذه الأمورِ انحهُ من مُحيلَتِكَ، فلا يمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ الكتابِ بعضه مع بعضٍ هذا واحدٌ، والثَّاني: لا يُمكنُ أن يقعَ التَّعارضُ بينَ السنةِ بعضها مع بعضٍ، والثَّالثُ: القرآنُ مع صحيحِ السنةِ. فهذا لا يمكنُ؛ لأنَّ كلاً من عندِ الله، وقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فالكلُّ من عندِ الله، فلا بدُّ أن يكونَ هناكَ جمعٌ، يعني لو وردَ نصانِ ظاهرهما التَّعارضُ فلا بدُّ أن يكونَ هناكَ جمعٌ ينفي التَّعارضَ.

وهنا الجمعُ بينَ إثباتِ دخولِ الجنةِ بالعملِ، ونفيِ دخولِ الجنةِ بالعملِ أن يقالَ: العملُ سببٌ، وليسَ بعوضٍ، والذي نفى أن يكونَ العملُ عوضاً أنه ما يمكنُ لأحدٍ أن يدخلَ الجنةَ عوضاً عن عمله؛ لأنه لو قوبلَ العملُ بالثوابِ لم يكنِ العملُ شيئاً بالنسبةِ للثوابِ؛ لأنَّ نفسَ عملِ الإنسانِ العملُ الصَّالحُ من عندِ الله، ولهذا قالَ بعضُ الشعراءِ^(١):

إذا كانَ شكري نعمةَ اللهِ نعمةً عليَّ له في مثلها يجبُ الشكرُ

فكيفَ بلوغُ الشكرِ إلا بفضلِهِ وإن طالتِ الأيامُ واتصلَ العمرُ

فلو أن عملنا قوبلَ بنعمةٍ واحدةٍ من نعمِ اللهِ لاستغرقتُهُ هذه النعمُ، فالآنَ كلُّنا -والحمدُ لله- يخرجُ منا النفسُ بسهولةٍ، فاللهُ عزَّ وجلَّ قادرٌ على أن يجعلَ خروجَ

(١) قال ابن أبي الدنيا: أنشدني محمود الوراق. وذكره. الشكر لابن أبي الدنيا (ص: ٣١، رقم ٨٣).

النفس صعباً، ولو قبل جميع عملك بنعمة النفس فقط لكانت نعمة النفس أكثر من عملك، فالنفس نعمة مستمرة وأنت يقظان، أو نائم، أو قائم، أو قاعد، أو ماش، أو واقف، ولو أن أحداً أصيب بضيق النفس لكان يبذل الدنيا كلها حتى يعود نفسه سهلاً.

إذن لو قبل عملنا -يا إخوان- بنعمة واحدة من نعم الله، لاستوعبت هذه النعمة عمل الإنسان، إذن لا يدخل الإنسان الجنة بعمله، وليس دخول الجنة عوضاً عن عمله، ولكن العمل الصالح سبب لدخول الجنة وليس عوضاً. وهذا هو الجمع بين النفي والإثبات.

ثم قال الله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ ترى أيها الناظر، أيها المخاطب ﴿الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾. فهذا يا إخواني عالم الغيب، ولولا أن الله أعلمنا بهم ما علمنا عنهم شيئاً، فقد خلقهم الله من نور، وجعل أكلهم وشربهم وطعامهم التسبيح، فهم لا يحتاجون إلى أكل وشرب، فهم صمد، قال العلماء: أي ليس لهم أجواف^(١)؛ لأنهم يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، فلا يحتاجون إلى طعام وشراب.

المهم أنهم خلقوا من نور، وهم عدد لا يحصيهم إلا الله عز وجل، قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أُطِّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ»^(٢). الله أكبر! سعة السماء لا يعلمها

(١) عزاه المناوي في فيض القدير (٩٣/١) لابن عبد الهادي في تذكرته.

(٢) أخرجه الترمذي: أبواب الزهد، باب في قول النبي ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً»، رقم (٢٣١٢)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء، رقم (٤١٩٠).

إلا الله، ومع ذلك ما من موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو قاعد أو ساجد.
وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن البيت المعمور الذي في السماء السابعة: «يُصَلِّي فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ»^(١). فهذا عدد لا يُحصيه إلا الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ مُعْظَمِينَ لِرَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ خَاضِعِينَ لَهُ، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يُنْزِهُونَهُ جَلَّوَعَلَا عَنْ كُلِّ نَقْصٍ، وَعَنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَيُثْنُونَ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ.

قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي بين الناس، قُضِيَ بِالْحَقِّ بِالْعَدْلِ الَّذِي لَا جَوْرَ فِيهِ ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: أَبْهَمَ الْقَائِلُ؛ لِأَنَّ كُلَّ الْكُونِ يَشْهَدُ بِأَنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ بِمَا قُضِيَ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، وَعَدَمِ الْجَوْرِ.

هذا ما يتعلق بهذه الآيات الكريبات، وأسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

والحمد لله الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم (١٦٢).

الدَّرْسُ العَاشِرُ:

الحمدُ لله ربَّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسلِّم على نبيِّنا مُحَمَّد خاتم النبيِّين، وإمام المُتَّقِينَ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، أمَّا بعدُ:

فقد قال الله عزَّ وجلَّ لما ذكرَ مآل أهل النارِ وأهل الجنة: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]. لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَهْلُ لِلْحَمْدِ، لَا أَحَدَ يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ كُلَّهُ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عزَّ وجلَّ، وَحَمْدُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى شَيْئَيْنِ:

أَوَّلًا: عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَأَنَا أَحْمَدُ اللهُ، وَأَنْتَ تَحْمَدُ اللهُ عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِنْعَامِهِ، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُحْصِيَهَا، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وكم مِنْ نِقْمَةٍ انْعَقَدَتْ أَسْبَابُهَا وَلَكِنْ يَرْفَعُهَا اللهُ عَنْكَ.

مَا أَكْثَرَ النِّقَمَ الَّتِي تَنْعَقِدُ أَسْبَابُهَا وَتُوجَدُ مُوجِبَاتُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ يَرْفَعُهَا اللهُ عزَّ وجلَّ، عَدُّ هَذَا فِي نَفْسِكَ، وَعَدُّ هَذَا فِي غَيْرِكَ تَجِدُ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ.

إِذَنْ يُحْمَدُ عزَّ وجلَّ عَلَى إِفْضَالِهِ بِالْإِنْعَامِ وَدَفْعِ النِّقَمِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(١). إِذَا فَرَّغْتَ مِنَ الطَّعَامِ فَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. وَإِذَا فَرَّغْتَ مِنَ الشَّرَابِ فَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ إِذَا أَكَلَ أَوْ شَرِبَ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، وَإِذَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، رقم (٢٧٣٤).

شَرِبَ الشَّرْبَةَ أَنْ يُحْمَدَ عَلَيْهَا.

نَعَمْ هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْمَدَ عَلَى هَذَا، فَهَذَا الطَّعَامُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ، الْخَبْزُ الَّذِي تَأْكُلُهُ، هَلْ سَبَقَهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَعْمَالِ مِنْكَ، هَلْ عَمِلْتَهُ؟ فَقَدْ كَانَ حَبًّا بُذِرَ فِي الْأَرْضِ، فَأَنْبَتَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (٦٣) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿[الواقعة: ٦٣-٦٤]. بَلْ أَنْتَ يَا رَبَّنَا الَّذِي تَزْرَعُهُ، أَنْتَ الَّذِي تُنْبِتُهُ، أَنْتَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا صَارَ الْحَبُّ شَيْئًا، وَبَعْدَ أَنْ يُخْرَجَ يُنْمِيهِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ حَتَّى يَصِيرَ سُبُلًا، قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ (٦٥) إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿[الواقعة: ٦٥-٦٧].

وَبَعْدَ أَنْ صَارَ حَبًّا يَسَّرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَكَ أَنْ تَمْتَلِكَهُ بِهَالِكٍ وَكَذَلِكَ، ثُمَّ هُنَاكَ نَعَمْ أُخْرَى، مِنْهَا النَّارُ الَّتِي أَنْضَجْتَهُ، وَهِيَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ (٧١) ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿[الواقعة: ٧١-٧٢].

بَلْ أَنْتَ يَا رَبَّنَا الَّذِي أَنْشَأْتَهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا مَلَكْنَا لِأَنْفُسِنَا شَيْئًا، وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الطَّعَامَ الَّذِي يُلْقَى بَيْنَ يَدَيْكَ لَا يَصِلُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْكَ إِلَّا بَعْدَ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ نِعْمَةً.

وَمِنْ تِلْكَ النِّعَمِ أَيْضًا الْمَاءُ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَهُ مِنَ الْمُزْنِ وَسَاقَهُ حَتَّى صَارَ بَيْنَ يَدَيْكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ (٦٨) ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿[الواقعة: ٦٨-٦٩]، فَلَوْ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَخْلُقُوا قَطْرَةً وَاحِدَةً مَا اسْتَطَاعُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا، وَلَكِنَّ الرَّبَّ عَزَّوَجَلَّ بِقُدْرَتِهِ وَنِعْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ خَلَقَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ ﴿[الواقعة: ٧٠]،

لم يقل عزَّوجلَّ: لو نشاء لم نُنزله، بل قال: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾، فلا تستطيعون أن تشربوه، وهذا أشدُّ حَسْرَةً عَلَى الْإِنْسَانِ، فحَسْرَتُهُ إِذَا وَجَدَ الْمَاءَ وَلَمْ يَسْتَطِعْ شُرْبَهُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ مَعْدُومًا أَصْلًا، فَانْتَبِهْ لِلْقُرْآنِ فِيهِ عَجَائِبُ.

إِذَنْ، تَعَيَّنَ عَلَيْكَ أَنْ تَحْمَدَ اللَّهَ إِذَا أَكَلْتَ أَوْ شَرِبْتَ، فعندما تريد أن تأكل وتشرب تقول: بِاسْمِ اللَّهِ. تقولها وجوبًا لا استحبابًا، فيجبُ عليك أن تقول عند الأكل أو الشرب: بِاسْمِ اللَّهِ. فإن لم تفعل كُنْتَ عَاصِيًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وتكونُ بذلك قَدْ أَتَحَتَ الْفُرْصَةَ لِعَدُوِّكَ لِيَأْكُلَ مَعَكَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

إِذَا لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ أَكَلَ الشَّيْطَانُ مَعَكَ، فهل تَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَدُوُّكَ الَّذِي يُحِبُّ لَكَ كُلَّ سُوءٍ شَرِيكًا لَكَ فِي الْأَكْلِ؟! لَا شَكَّ أَنَّكَ لَا تَرِيدُ.

كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَبِيبُهُ، أَي ابْنُ زَوْجَتِهِ، وَاسْمُهُ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، وَكَانَ غُلَامًا صَغِيرًا، فَقُدِّمَ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامٌ لِيَأْكُلَهُ، وَالصَّبِيُّ لَا يَعْرِفُ أَدَبَ الطَّعَامِ، فَجَعَلَ هَذَا الْغُلَامُ تَتَخَبَّطُ يَدُهُ فِي الْقَصْعَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ الْمُرْشِدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(١). أَرْشَدَهُ إِلَى ثَلَاثِ سُنَنِ: (سَمِّ اللَّهَ)، وَ(كُلْ بِيَمِينِكَ)، وَ(كُلْ مِمَّا يَلِيكَ).

هَكَذَا يَكُونُ أَهْلُ الْعِلْمِ بَرَكَةً عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيُرْشَدُونَ وَيَدُلُّونَهُمْ، وَهَذَا الَّذِي عَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ، لِيُرْشِدَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، رقم (٥٠٦١)، ومسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما، رقم (٢٠٢٢).

هَذَا الْغُلَامَ الصَّغِيرَ، فَلَا يُمَكِّنُ لِهَذَا الْغُلَامِ أَنْ يَنْسَى هَذَا التَّعْلِيمَ بِفَضْلِ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ، وَلِهَذَا تَجَدُّ الشَّيْءُ الَّذِي مَرَّ عَلَيْكَ وَأَنْتَ صَغِيرٌ لَا تَنْسَاهُ، فَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ، فَإِذَا كَانَ ابْنُكَ الصَّغِيرُ يَأْكُلُ مَعَكَ وَتَتَخَبَّطُ يَدُهُ فِي الصَّحْفَةِ فَلَا تَنْسَ أَنْ تُرْشِدَهُ كَمَا أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا الْغُلَامَ السُّنَنَ الثَّلَاثَ، وَهِيَ: (سَمِّ اللَّهَ)، وَ(كُلِّ بِيَمِينِكَ)، وَ(كُلِّ مِمَّا يَلِيكَ). فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَكَ شَرِيكَ فِي الْأَكْلِ جَازَ لَكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الْجَوَانِبِ، وَلَيْسَ مِنَ الْأَعْلَى، إِلَّا إِذَا كَانَ الْأَعْلَى نَوْعًا آخَرَ، كَمَا لَوْ كَانَ لَحْمًا فِي وَسْطِ الصَّحْفَةِ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ طَعَامًا وَاحِدًا فَلَا تَأْكُلُ مِنْ أَعْلَى الصَّحْفَةِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ أَنَّ الْبَرَكَةَ تَنْزِلُ فِي أَغْلَاهَا^(١).

إِذْنُ، حَمْدُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَهُ سَبَبَانِ:

الأول: إِنْعَامُهُ وَإِفْضَالُهُ وَإِحْسَانُهُ: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الثاني: كِمَالُ صِفَاتِهِ عَزَّوَجَلَّ فَيُحَمَدُ عَلَى كِمَالِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ جَلَّوَعَلَا لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، أَيْ الْوَصْفُ الْأَكْمَلُ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

فَاسْتَشْعِرْ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ بِقَلْبِكَ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَأَنْتَ تَعْنِي: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ عَلَيْكَ، وَعَلَى مَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكِمَالِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُوصُوفٌ بِالْكِمَالِ الْمَطْلُوقِ الَّذِي لَا يَغْتَرِيهِ أَيْ نَقْصٌ.



(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصحيفة، رقم (٣٧٧٤).

سورة غافر

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

[غافر: ١-٢].

(حم) حرفان هجائيان، اختلف العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ في الكلام فيهما، أي في هذين الحرفين وغيرهما من الحروف الهجائية التي تُبتدأ بها بعض السور، مثل (الم) (الر) (ن) (ق) (ص) وما أشبهها؛ هل لهذه الحروف معنى أو ليس لها معنى.

والصَّواب في هذا ما قاله مُجَاهِدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه ليس لها معنى^(١)، بمعنى أن هذه الحروف حروف هجائية، ليس لها معنى في اللغة العربية، والقرآن نَزَلَ باللغة العربية، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنُنَزِّلُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١١٢ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١١٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝١١٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

وقال جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

(١) الطبري في التفسير (١/٢٠٨).

فإذا نظرنا إلى اللغة العربية وجدنا أن هذه الحروف الهجائية ليس لها معنى، وإذن نقول: هي في حد ذاتها ليس لها معنى بمقتضى اللغة العربية؛ لكن لها مغزى عظيم، وهو أن هذا القرآن الكريم لم يأت بحروف لا تعرفونها أيها العرب، وإنما أتى بحروف تعرفونها وترغبون منها كلامكم، ومع ذلك أعياكم وأعجزكم، فهذه الحروف لها مغزى، والمغزى هو أن إعجاز القرآن لكم أيها العرب ليس لأنه أتى بحروف غريبة، ولكن لأنه كلام رب العالمين؛ ولذلك لا تكاد تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وجدت بعدها ذكر القرآن، ومن ذلك هذه السورة التي نحن بصدد الكلام بها تيسر عليها: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

و(تنزيل) مُبتدأ، وهي مضاف و(الكتاب) مضاف إليه، وخبر المبتدأ محذوف، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ.

وتنزيل الكتاب من الله لا من غيره؛ لأن الكتاب العزيز كلام رب العالمين جَلَّوَعَلَا، فهو نازل منه.

قوله: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٢﴾ العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيء، ولا يقوم أمام قدرته وقوته شيء، فهو غالب لكل أحد، ولما قال المنافقون: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] يعنون بالأعز أنفسهم، وبالأذل رسول الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وسلم، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، يعني: وأما أنتم أيها المنافقون فليس لكم عزة، ولهذا جاءت الآية: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾، ولم تكن على هذا الذي يتوقعه الإنسان وهو أن

يقول: والأعزُّ سواكم؛ لأنَّه لو قال: الأعزُّ سواكم لكان لهم شيءٌ من العِزة، وهم لا عِزة لهم؛ لأنهم مُنافِقون.

إذن العزيز بمعنى الغالب، الَّذي لا يقوم لعزته شيءٌ.

والعليمُ: أي ذو العلمِ الواسع الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ؛ لا في الأرض ولا في السماء، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، يَعْلَمُ ما كان، وما يكون لو كان كيف كان يكون، سُبْحَانَ اللَّهِ! يعلم ما يتعلَّق بفعله، وما يتعلَّق بفعل عِباده. قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ توسوس: يعني تفكَّر، فالله يعلم حتَّى ما في القلب ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [١٦-١٧].

في القرآن العزيز قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

قال: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا أحد يعلمها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فكلُّ ما في البرِّ والبحرِ فهو معلوم عند الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه مخلوق لله، والمخلوق لا بُدَّ أن يكون معلوماً للخالق، كما قال جلَّ وعلا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]

قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، فالأوراق ولو صغرَتْ إذا سقطت من الشَّجرة فالله يعلمها، والأوراق التي لم تسقط يعلمها من باب أولى؛

لأنَّه إذا كانتِ الورقةُ إذا يَبَسَتْ وسقطتْ عَلِمَها، فكيف بالورقةِ الَّتِي تَنمو، فلا بُدَّ أن يكونَ عالِمًا بها جَلَّوَعَلَا.

قال: ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ يعني إلا يعلمها، صغيرة أو كبيرة، ولو صَغُرَتْ جَدًّا فإنه يَعْلَمُها.

وهل الأرضُ لها ظُلُماتٌ؟

الجواب: نعم، لِنَفَرِضْ أن حبةً صغيرةً مُنْغِمِسةً في قاعِ البحرِ، في ليلةٍ مظلمةٍ ممطرةٍ مُغِيمةٍ مُغْبِرةٍ، فهذه ظُلُماتٌ:

أولًا: الطين الَّذِي في قاع البحرِ.

ثانيًا: ماء البحرِ.

ثالثًا: ظُلْمَةُ اللَّيْلِ.

رابعًا: ظُلْمَةُ المَطَرِ.

خامسًا: ظُلْمَةُ السَّحَابِ.

سادسًا: ظُلْمَةُ الغُبَارِ.

وربما يكون هناك ظُلُمات أخرى لا نَعْلَمُها، فالحبةُ في هذه الحَالِ مَعْلومة

عند الله عَزَّوَجَلَّ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!

قال: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾، وهذا يَعْمُ كُلُّ شَيْءٍ؛ لأنَّ جميعَ الأشياءِ إما رَطْبة

وإما يابسة ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي في مَكْتُوبٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ، وهذا الكتابُ هو اللُّوح

المَحْفُوظُ، كَتَبَ اللهُ فيه مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ.

ثم قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. استدَلَّ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ
بهذه الآية على مسألتين هامتين أو فائدتين عظيمتين:

المسألة الأولى: عُلُوُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ في السَّماءِ؛ لأن كلمة (تنزيل)
تدلُّ على علوٍّ؛ إذ لا يكون شيءٌ نازلٍ إلا من أعلى؛ ففي الآية دليلٌ على علوِّ الله
عَزَّوَجَلَّ.

وهذه الصِّفةُ من صفاتِ الله لا تحتاجُ إلى عناءٍ كبيرٍ في إثباتها؛ وذلك لأن
النفوسَ مجبولة على ذلك، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ فوق السَّمَاوَاتِ على العرشِ، وكل إنسانٍ
يقول: يا ربَّ يشعرُ بأن الله فوق.

وهذا في الواقع أمرٌ فطريٌّ لا يحتاجُ إلى عناءٍ كبيرٍ في إثباته، ولكن لما زاعَ قومٌ
من هذه الأمة وقالوا: إن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكانٍ -نسأل الله العافية- حينئذٍ احتاج
الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى كثرة الاستدلالِ على علوِّ الله عَزَّوَجَلَّ؛ حتَّى لا يضلَّ النَّاسُ بهذا
الرأي الضالَّ، وسُبْحَانَ الَّذِي وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، كيف يكون عَزَّوَجَلَّ
في كل مكانٍ، وكرسيه وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ! فهذا لا يمكن، وما المكانُ الَّذي
يسع الله؟ وكم الأمكنة؛ مكان واحد أم أكثر؟!

فهناك مَسَاجِدُ، وَأَسْوَاقُ، وَبُيُوتٌ، وَصَحَارٌ، وَجِبَالٌ وَأَشْيَاءٌ مِمَّا لَا يُحْصِيهِ
الْإِنْسَانُ، فهل يكون الله في كل مكانٍ؟! لا يُمكن، إلا إذا قال هذا القائل: إن الله
يَتَجَرَّأُ، وحاشاهُ ذلك، أو قال: إن الله متعدّد بتعدد الأمكنة.

ولذلك كان هذا القول من أضلِّ الأقوال والعياذُ بالله؛ أن يقول الإنسان: الله
في كل مكانٍ، بل الله عَزَّوَجَلَّ في السَّماءِ.

استمع إلى هذه القصة العجيبة:

أراد معاوية بن الحَكَم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو غيرُ معاوية بن أبي سُفيان أمير المؤمنين، فمعاوية بن أبي سُفيان من أمراء المؤمنين الَّذِينَ مَلَكَوا مِنَ الدُّنْيَا ما شاء الله، ومعاوية بن الحَكَم كان له جارية، يعني أمة مملوكة، فغَضِبَ عليها يوماً من الأيام فصَكَّها، فأراد أن يكفِّر عن نفسه بإعتاق هذه الجارية، فاستأذن النَّبِيَّ ﷺ في ذلك، فأمر بها النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- فحَضَرَتْ، فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. وهي جارية لم تتعلم، ولم تدرس، قالت: فِي السَّمَاءِ، ما الَّذِي دَلَّها على ذلك؟ إِنَّهَا الْفِطْرَةُ ﴿فِطَرَتَ اللهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]. قال: «أَعْتَقُهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١).

إذن مَنْ لم يكنْ كذلك فليس بمؤمنٍ، فَمَنْ لم يَعْتَقِدْ أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ وأنه جَلَّوَعَلَا فوق كل شيءٍ فإنه ليس بمؤمنٍ؛ وذلك لأن الخطابَ له مَنْطوقٌ ومَفْهُومٌ، فإذا قلنا: إذا أقرَّ الإنسانُ بأنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ فهو مؤمنٌ، فهذا مَنْطوقٌ مَفْهُومُهُ: إذا لم يُقَرَّرْ فليس بمؤمنٍ، وهو كذلك.

إذن ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ تفيد فائدةً عظيمةً، وهي علوُّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ النزولَ لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

المسألة الثانية: أن هذا القرآنُ كلامُ اللهِ، تكلم به حقيقةً، وتلقاه جبريل فنزل به على قلبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وهذا أمرٌ أيضًا لا إشكال فيه، فلو لا ما حَدَّثَ من البدع الضالَّة -والعياذ بالله- ما احتاج النَّاسُ إلى عَنَاءٍ كبيرٍ في

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إثبات أن الله تعالى تكلم بالقرآن.

إذن القرآن كلامُ الله مُنزل غير مخلوق، ابتداءً اللهُ تعالى منه، وإليه ينتهي، كما قال أهل السنة رَحِمَهُمُ اللهُ في عقائدهم، فالقرآنُ كلامُ الله مُنزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، هذه عقيدة أهل السنة، أسأل الله تعالى أن يتوفاني وإياكم عليها، وألا يُزيغ قلوبنا بعد أن هدانا، وأن يهدي مَنْ أراد الحقَّ إلى الحقِّ؛ لأننا لا ننتهِمُ أحداً بنيته، فالنية عند الله عزَّ وجلَّ، لكننا نقول: مَنْ النَّاسُ مَنْ يَنْوِي الخيرَ ولا يُوفِّقُ له، فنسأل الله أن يُوفِّقَ إخواننا المسلمين جميعاً إلى الخير والهدى والصَّلاح والإصلاح.

والحمدُ لله الَّذي بنعمته تتم الصَّالحات، وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصحبه.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٦].

قَوْلُهُ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أَيُّ: أَنَّهُ تَعَالَى عَالِي الْمَقَامَاتِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَهُ بِأَنَّ مَعْنَاهُ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أَيُّ: رَافِعُ الدَّرَجَاتِ، فَلَيْسَ صَوَابًا؛ لِأَنَّ الْآيَةَ سِيَاقُهَا يَأْبَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِبْيَاءِ.

قَوْلُهُ: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ ذُو بِمَعْنَى: صَاحِبُ، أَيُّ: أَنَّهُ صَاحِبُ الْعَرْشِ الْمُخْتَصِّ بِهِ، فَإِذَا ضَمَمْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ اللَّهَ نَفْسَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا مُعْتَقَدُ السَّلَفِ الصَّالِحِ، فَالصَّحَابَةُ، وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَأُئِمَّةُ الْهُدَى مِنْ بَعْدِهِمْ، يُؤْمِنُونَ إِيمَانًا تَامًا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَرْشِ﴾ الْعَرْشُ هُوَ مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ عَقْلُنَا، اسْتَوَى اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ التَّكَلَّفَ أَنْ نَسْأَلَ مَنْ أَيْنَ مَادَةُ الْعَرْشِ؟! لَكِنْ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ: مَا عِظَمَ هَذَا الْعَرْشِ، وَمَا سَعَتُهُ؛ لِأَنَّ النُّصُوصَ بَيَّنَّتْ ذَلِكَ.

فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ عِنْدَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ

مُلَقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ».

والحلقة: المرادُ بِهَا حلقةُ المِغْفَرِ، وهو ثوبٌ مَصْنُوعٌ مِنْ حَلْقٍ مَرْبُوطٍ بِغُضْهِهَا بِبَعْضٍ، يَتَّقِي بِهِ الْإِنْسَانُ سِهَامَ الْمُقَاتِلِينَ، وَهِيَ حَلَقَةٌ صَغِيرَةٌ، فَإِذَا وَضَعْتَ هَذِهِ الْحَلَقَةَ الصَّغِيرَةَ فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَتَكُونُ نِسْبَةً هَذِهِ الْحَلَقَةِ إِلَى فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَاسِعَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا.

«وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ»^(١) إِذِنْ، الْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ قَدْرُهُ أَحَدٌ؛ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ لَا نَتَّصِرُهُ، وَإِذَا كَانَ الْكُرْسِيُّ قَدْ وَسِعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَمَا بَالُكَ بِالْعَرْشِ.

فَالْعَرْشُ هُوَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي نَعْلَمُهَا، وَقَدْ وُصِفَ الْعَرْشُ بِالْعَظِيمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

وَمِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ، أَيُّ: عَالٍ عَلَى الْعَرْشِ، وَلَيْسَ كَاسْتَوَائِنَا نَحْنُ، فَالْإِنْسَانُ -مَثَلًا- يَسْتَوِي عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ فَيَعْلُو عَلَيْهِ وَيَسْتَقِرُّ، يَسْتَوِي عَلَى الْكُرْسِيِّ فَيَعْلُو عَلَيْهِ وَيَسْتَقِرُّ، يَسْتَوِي عَلَى السَّرِيرِ فَيَعْلُو عَلَيْهِ وَيَسْتَقِرُّ، يَسْتَوِي عَلَى السَّفِينَةِ فَيَعْلُو عَلَيْهَا وَيَسْتَقِرُّ، لَكِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَاءً لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ نُحِيطَ بِهِ، وَنَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَ اسْتَوَائِنَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا عَلَى السَّرِيرِ، وَالْكُرْسِيِّ، وَالْبَعِيرِ، وَالْفُلْكِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وَهَذِهِ الْآيَةُ قَاعِدَةٌ فِي جَمِيعِ مَا وَصَفَ اللَّهُ

(١) أخرجه ابن حبان: (٢/ ٧٧، رقم ٣٦١).

بِهِ نَفْسُهُ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ لَيْسَ مِمَّاثِلًا لِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وقد ذكر استواء الله على عرشه في القرآن الكريم في سبعة مواضع، حتى لا يقول قائل: إن الاستواء لا يراد به العلو؛ لأن شيئاً يكرر سبع مرات بصيغة واحدة (استوى على)، فلا يمكن لأحد أن يقول: إن هذا الاستواء لا يراد به العلو؛ ولهذا أخطأ خطأً بيناً ظاهراً من قال: استوى على العرش بمعنى استولى على العرش، فهذا تحريف وجناية على كتاب الله من وجهين:

الوجه الأول: صرفه عما أراد الله به، بأن صرفه عن ظاهره.

الوجه الثاني: إثبات معنى ليس هو ظاهر اللفظ، وليس مراداً لله عز وجل.

فظاهر اللفظ في قوله تعالى: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] علا على العرش، هذا ظاهره في اللغة العربية، والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وباللغة العربية، ويُعلم من هذا التعبير (استوى على) أي: علا عليه، والشواهد في القرآن كثيرة، وكذلك في كلام العرب، فاستوى على العرش بمعنى: علا وارتفع على العرش.

فإن قال قائل: استوى على العرش يعني استولى عليه؟

قلنا: لقد حُرِّفَ كلام الله؛ لأن كلام الله بلسان عربي، ولا يعرف العرب (استوى على كذا) بمعنى استولى عليه أبداً، ففي خطب العرب، وأشعارهم، لم تجد (استوى على كذا) بمعنى: استولى عليه، وإنما ادَّعي، أنه جاء بمعنى استولى في قول الشاعر:

قَدْ اسْتَوَى بِشَرٍّ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا دَمٍ مِهْرَاقٍ

بِشَرٍّ: هُوَ بَشَرُ بْنُ مَرْوَانَ، وَهَذَا الْادِّعَاءُ بَاطِلٌ مِنْ وَجْهِ:

أَوَّلًا: أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ قَائِلُهُ.

ثَانِيًا: لَوْ عُلِمَ قَائِلُهُ، وَأَنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ الَّذِينَ كَلَامُهُمْ فَصِيحٌ يَحْتَجُّ بِهِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ: «اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ» لَا يَسْتَقِيمُ إِذَا قُلْنَا: اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ، أَيُّ: عَلَا عَلَيْهِ، إِلَّا أَنْ نَجْعَلَ الْعُلُوَّ هُنَا عَلَوًا مَعْنَوِيًّا، يَعْنِي: اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ، أَيُّ: عَلَا عَلَى نَفْسِ الْبَلَدِ! فَلَا يَصِحُّ هَذَا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْعُلُوُّ بِالطَّائِرَاتِ، فَالطَّائِرَةُ لَوْ طَارَتْ فِي الْعِرَاقِ فَتَطِيرَ عَلَى جِزءٍ يَسِيرُ مِنْهُ، فَإِذَنْ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُرَادَ بِاسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ، أَيُّ: عَلَا عَلَيْهِ، إِلَّا إِذَا جُعِلَ ذَلِكَ عَلَوًا مَعْنَوِيًّا، وَلَا مَانِعَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ صَحَّ أَنْ هَذَا الْبَيْتَ مُسْنَدٌ إِلَى رَجُلٍ مِمَّنْ يُحْتَجُّ بِلِسَانِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، فَإِنَّا نَقُولُ: الْاسْتِوَاءُ هُنَا بِمَعْنَى الْعُلُوِّ الْمَعْنَوِيِّ، أَمَّا اسْتَوَى عَلَى الشَّيْءِ بِمَعْنَى اسْتَوَى عَلَيْهِ، فَهَذَا لَا يُوْجَدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] أَيُّ: عَلَوْتُ

عَلَيْهِ، وَرَكِبْتُ عَلَيْهِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (١٢)

لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴿[الزخرف: ١٢-١٣]

تَرْكَبُ عَلَيْهَا، أَيُّ: تَعْلُو عَلَيْهَا، وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ.

وَإِذَا فُسِّرَتِ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوَى، فَيَكُونُ الْعَرْشُ قَبْلَ الْاسْتِيلَاءِ عَلَيْهِ لِغَيْرِ

اللَّهِ، ثُمَّ إِذَا قُلْتَ: اسْتَوَى عَلَيْهِ، فَلَا اسْتِيلَاءَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ إِثْرُ مُغَالَبَةٍ، فَمَنِ الَّذِي

غَالَبَ اللَّهَ؟! وَإِذَا قُلْتَ: اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى اسْتَوَى عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُلْزَمُكَ أَنْ

تقول: استَوَى عَلَى الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ الْأَرْضَ مُلْكُهُ، كَمَا أَنَّ الْعَرْشَ مُلْكُهُ.

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِشَخْصٍ أَنْ يُفَسِّرَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بِمَعْنَى اسْتَوَى عَلَيْهِ، فَاللَّهُ أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَمَاذَا يَكُونُ جَوَابَنَا إِنْ سَأَلْنَا عَنْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ الْإِسْتَوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ، فَنَعَجْزُ أَنْ نَجِدَ جَوَابًا صَوَابًا؛ فَاسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوَى، لَا يُوجَدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْقُرْآنُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، اسْمَعُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] أَي: صَيَّرْنَاهُ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] حَتَّى تَعْقِلُونَ وَتَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ، بِمُقْتَضَى ذَلِكَ اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ.

وَعَلَى هَذَا، فَيَجِبُ أَنْ نَعْتَقِدَ شَيْئَيْنِ:

الشَّيْءُ الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَفْسُهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَمْرُهُ فَوْقَ كُلِّ أَمْرٍ، وَسُلْطَانُهُ فَوْقَ كُلِّ سُلْطَانٍ، فَهُوَ عَلَى بَدَايِهِ، وَعَلَى بِصِفَاتِهِ.

الشَّيْءُ الثَّانِي: أَنَّ نُؤْمِنَ وَنَعْتَقِدَ بِأَنَّ اللَّهَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ اسْتِوَاءً حَقِيقِيًّا، بِمَعْنَى الْعُلُوِّ عَلَيْهِ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ.

وَهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ: هَلْ يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِنَا اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ حَقِيقَةُ أَنْ يَكُونَ مِمَّاثِلًا لِلْمَخْلُوقِ؟

الْجَوَابُ: لَا يَلْزَمُ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَنَا لَا أَعْقِلُ الْإِسْتِوَاءَ إِلَّا عَلَى مَا أَشَاهَدُ اسْتِوَاءَ الْمَخْلُوقِ، فَيَكُونُ اسْتِوَاءُ اللَّهِ تَعَالَى مِمَّاثِلًا لِاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ؟

نَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْقِلُ مَوْجُودًا إِلَّا عَلَى مَا تُشَاهِدُ الْمَخْلُوقَ؟ إِمَّا أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ، فَنَقُولُ: إِذَنْ وَجُودُ اللَّهِ كَوُجُودِ الْمَخْلُوقِ وَجُودًا مُمَكَّنًا جَائِزَ الزَّوَالِ، وَإِنْ قَالَ: لَا، أَبَدًا، وَجُودُ الْخَالِقِ يَخْتَصُّ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، قُلْنَا: إِذَنْ، اسْتَوَاءُ الْخَالِقِ عَلَى عَرْشِهِ خَاصٌّ مُحْتَصٌّ بِهِ لَا يُثَابِلُهُ اسْتَوَاءُ الْمَخْلُوقِينَ.

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مِنْ أَفِيدِ الْقَوَاعِدِ فِي الْعَقِيدَةِ؛ لِأَنَّهُ كَمَا لَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نُمَثِّلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَاتَهُ بِذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ عِلْمَهُ بِعِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ وَجُودَهُ بِوُجُودِ الْمَخْلُوقِينَ، أَوْ قُدْرَتَهُ بِقُدْرَةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَكَذَلِكَ بَاقِي الصِّفَاتِ، الْبَابُ فِيهَا وَاحِدٌ.

فَمَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ عَالِيًا بِذَاتِهِ وَلَيْسَ مُسْتَوِيًّا عَلَى الْعَرْشِ حَقِيقَةً، فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ، وَأَنْ لَا يُلَاقِيَ رَبَّهُ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فِي الْعُلُوِّ، أَوْ لَيْسَ مُسْتَوِيًّا عَلَى الْعَرْشِ، وَأَنْ يَكُونَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ إِمَامُهُ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْأَئِمَّةِ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَكَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ، فَإِنَّهُمْ أَحَقُّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُوَ يُقَرَّرُ عُلُوُّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عُلُوًّا حَقِيقِيًّا بِذَاتِهِ، وَهُوَ يَقُولُ فِي سَجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى»^(١)، وَيَقُولُ فِي رَقِيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبَّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ»^(٢)، وَيَقُولُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللَّهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(٣)، فَجَعَلَ إِقْرَارَهَا

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب السلام، باب الطب والمرض والرقى، رقم (٢١٨٦).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

بأنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ عَلاَمَةٌ عَلَى إِيْمَانِهَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إِذَا انْتَفَى الدَّلِيلُ انْتَفَى المَدْلُولُ، فَالْأَمْرُ خَطِيرٌ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ مَرَادَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَيَّنَ اللهُ؟» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، مُرَادُهُ أَيَّنَ مُلْكُهُ؟

قُلْنَا: هَذَا تَحْرِيفٌ، فَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَقُولَ أَيَّنَ مُلْكُ اللهِ، ثُمَّ هَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران ١٨٩]، فَمُلْكُهُ لَيْسَ لِلسَّمَاءِ فَقَطْ، بَلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي أَكْبَرِ تَجْمَعٍ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَفِي خَيْرِ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنْ أَيَّامِ الْعَامِ، وَهُوَ يَوْمُ عَرَفَةَ حِينَ خَطَبَ النَّاسُ الْخُطْبَةَ الْبَلِيغَةَ الْمَشْهُورَةَ، وَقَالَ لَهُمْ: «فَقَالَ: بِإِضْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»^(١) أَي: عَلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ أَقْرَأُوا بِأَنَّهُ بَلَّغَ، ثُمَّ أَعَادَهَا، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَلَا يُمَكِّنُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَقُولَ بَعْدَ هَذَا: إِنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ، وَنَحْنُ نُشْهَدُ اللهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَجَمِيعَ خَلْقِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تُوفِّيَ وَمَا طَائِرٌ يَقْلُبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لِأُمَّتِهِ مِنْهُ عَلِمًا^(٢)؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] مَا فِي شَيْءٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ بَيَانُهُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة في منى، رقم (١٧٤١)، ومسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه الطبراني: (٢/ ١٥٥، رقم ١٦٤٧).

والبيان أنواع، فقد يكون بصريح المقال، أو بظاهر المقال، أو بإشارة المقال، أو بفحوى المقال، أنواع الدلالة كثيرة.

بعض العلماء كان في مطعم في إحدى دول أوروبا، وكان في المطعم رجل من كبار النصاري، وهو يعرف هذا الرجل المسلم أنه عالم، فجاء النصراني إلى المسلم العالم يريد أن يمتحنه، وقال له: إن القرآن نزل تبياناً لكل شيء، فأين بيان هذه السلطة؟

فقال العالم هذا البيان موجود في القرآن، فقال النصراني أين؟ فقال -العالم المسلم- للطباخ: تعال، كيف تصنع هذه السلطة؟ فوصف له الطباخ كيف يصنعها فقال العالم هكذا في القرآن، إن الله يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

إذا أشكلت عليّ مسألة فقهية، فأسأل الفقهاء، وإذا أشكلت عليّ مسألة نحوية أسأل النحويين؛ لأن الله يقول: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، وعلل الأمر بالسؤال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعلى هذا، فكل شيء لا أعلمه فقد أرشد القرآن الكريم كيف أتوصل إلى علمه.

فإذا كان القرآن تبياناً لكل شيء، ووجدنا أنه ثبت في آيات كثيرة علو الله عز وجل نفسه فوق العباد، واستواءه على عرشه العظيم، فإنه لا عذر لنا أبداً أن نخالف هذا.

ويجب على الذين يعتقدون: أن الله ليس في السماء، سواء قالوا: ليس في السماء، ولا في الأرض، ولا يميناً ولا يساراً، أو قالوا: إن الله في كل مكان! بأن يرجعوا عن

هَذَا إِلَى الْحَقِّ، وَلَيْسَ سَبَبَ دَعْوَتِي لَهُمْ أَنْ يَعُودُوا إِلَى الْحَقِّ مِنْ أَجْلِ أَنِّي أَقُولُ هَذَا، فَقُولِي إِذَا خَالَفَ الْحَقُّ يَجِبُ أَنْ يُوضَعَ تَحْتَ النِّعَالِ، وَتَضْرِبَ بِهِ الْحَيْطَانُ، لَكِنِّي أَقُولُ: إِذَا تَبَيَّنَ الْحَقُّ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ يُوْمِنُ بِمَصَادِرِ الْحَقِّ، أَنْ يَقْبَلَ الْحَقَّ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ، وَالسُّنَّةُ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ الْمُخَالَفِ دَلِيلٌ أَنْ يَبَيِّنَهُ؛ حَتَّى تَقُومَ الْحُجَّةُ بِمُخَالَفَةِ الدَّلِيلِ إِنْ كَانَتْ هُنَاكَ مُخَالَفَةٌ.

فَنَصِيحَةٌ لِجَمِيعٍ مَنْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي صَلَاتِهِمْ، أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ كُبْرِيَاةِ أُمَّهَاتِ الْعَقَائِدِ، أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ إِلَهَكَ وَمَعْبُودَكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى فِي الْحَمَامَاتِ، وَالْمَرَاحِيضِ، وَالْأَسْوَاقِ الْقَدِيرَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ تَرْضَى أَنْ يَكُونَ مَعْبُودَكَ وَإِلَهَكَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِطْلَاقًا.

هَلْ تَرْضَى أَنْ يَقُولَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ إِلَهَكَ وَمَعْبُودَكَ الَّذِي قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا مُتَّصِلًا بِالعَالَمِ، وَلَا مُنْفَصِلًا عَنِ الْعَالَمِ، وَلَا يَمِينًا وَلَا يَسَارًا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَوْصَافَ السَّلْبِيَّةَ، تَعْنِي الْعَدَمَ، فَيَكُونُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ عِبَادَةً عَدَمًا، وَيَكُونُ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَلَى الْعَقِيدَةِ الْأُولَى عِبَادَةً مَنْ لَا يُنَزَّهُ عَنِ الْقَادُورَاتِ وَالْأَنْتَانِ، وَكُلُّ هَذِهِ أُمُورٌ خَطِيرَةٌ جَدًّا، إِنَّمَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ نَعْبُدُ إِلَهَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، الَّذِي هُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالَّذِي اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ.



الدَّرْسُ الثَّالِثُ؛

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

قَوْلُهُ: ﴿ثَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أَلْ فِرْعَوْنَ، هُمْ أَتْبَاعُهُ عَلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّرِكِ، وَهُوَ أَيْضًا عَلَى رَأْسِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسَخُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] فَهُوَ دَاعِيَةٌ ضَلَالٍ، وَدَاعِيَةٌ كُفْرٍ، وَدَاعِيَةٌ إِحَادٍ، مُقَاوِمٌ لِمَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى قَالَ مُهَدِّدًا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦]، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَظْهَرَ بِمَظْهَرٍ مَنْ يَمْنَعُ مِنْ قَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ: ﴿ذَرُونِي﴾ أَي: اتْرُكُونِي، ﴿أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّحْدِي لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ كَانَ لَهُ رَبٌّ، فَلْيَدْعُ هَذَا الرَّبَّ، لِيَحْمِيَهُ مِنِّي.

ثُمَّ عَلَّلَ هَذَا التَّهْدِيدَ السَّاحَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، يَقُولُ فِرْعَوْنُ: ﴿أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ إِلَى دِينِ الْحَقِّ، لَكِنَّهُ يَرَى أَنَّ هَذَا الدِّينَ الْحَقَّ، دِينٌ بَاطِلٌ، ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وَهُوَ مَا يُعْرِفُ الْآنَ عِنْدَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَقْدَحُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ، فَيُسَمُّونَهُمْ أَصُولِيِّينَ، أَوْ يُسَمُّونَهُمْ مُخْرِبِينَ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، نَفْسُ الشَّيْءِ قَالَهُ فِرْعَوْنُ

في حق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن اختلفت العبارة، فهؤلاء يقولون: هؤلاء أصوليون مخربون، أو يقولون: إنهم أصوليون مُتعتون، ومُتشددون، وهذا قول فرعون في حق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَوَ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

والذي يُظْهِرُ في الأرض الفساد، هو الذي يدعو إلى الباطل، ويقمع مَنْ يدعو إلى الحق، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١-١٢].

ولا شك أن الكفار أعداء للإسلام والمُسلمين، وأنهم يرمون كل مَنْ تمسك بدين الله بما هم أحق بوصفه منهم؛ لأجل أن يُنفّروا الناس عما يدعو إليه هؤلاء المُوفقون الذين يدعون إلى الله عزَّ وجلَّ.

وتأملوا كيف وصفوهم بالأصوليين ولم يقولوا المُسلمين؛ لأن كلمة الإسلام تُرعبهم، ويخافون من الإسلام أكثر من أي شيء آخر؛ لأنهم يعلمون أن الإسلام الحق لو انتشر في الأرض، لانتصر على أهل الكفر.

ولا يخفى على كثير منكم ما جرى لأبي سفيان مع هِرقل عظيم الروم، حين قدم أبو سفيان إلى الشام، وكان هِرقل رجلاً ذكياً، لكنه ليس بعاقِل، رجلٌ ذكيٌّ عنده علم، فسمع بمقدم أبي سفيان، وكان أبو سفيان مشركاً، وكان قدومه بين صلح الحديبية وفتح مكة، فلما سمع بهم هِرقل دعاهم، وسألهم عما يدعو إليه الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من عبادة الله، والصدق، والعفاف، والأخلاق الفاضلة، وعمن يتبعه من الناس؛ أ همُّ الملأ والأشراف، أم الضعفاء، فأخبروه بكل ما يعلمونه من صفات

الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما يدْعُو إِلَيْهِ.

فَقَالَ هِرْقَلُ: إِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ، فَسَيَمْلِكُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، أَي: يَمْلِكُ الشَّامَ، فَمَنْ يُصَدِّقُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الَّذِي خَرَجَ مُخْتَفِيًّا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، سَيَمْلِكُ الشَّامَ، وَيَسْقِطَ أَعْظَمَ دَوْلَةٍ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهِيَ دَوْلَةُ الرُّومِ.

فَخَرَجَ أَبُو سَفْيَانَ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَقَدْ أَمَرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، أَمْرٌ بِمَعْنَى: عَظُمَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] أَي: عَظِيمًا، (وَابْنُ أَبِي كَبْشَةَ) كَانَ الْكَفَارُ يُكْنُونَ الرَّسُولَ ﷺ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ؛ تَحْقِيرًا لَهُ، وَتَصْغِيرًا لَشَأْنِهِ، وَعَلَّلَ عِظَمَ أَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِأَنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، وَقَدْ حَدَّثَ مَا تَوَقَّعَهُ هِرْقَلُ أَنَّ مَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ^(١).

فَإِنْ قِيلَ: أَشْكَلَ عَلَيْنَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ الشَّامُ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَلَكَ الشَّامَ بِخُلَفَائِهِ وَدِينِهِ، فَإِنَّ الشَّامَ فُتِحَتْ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعُمَرُ هُوَ الْخَلِيفَةُ الثَّانِي بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَفُتِحَتْ بِدِينِهِ وَخُلَفَائِهِ، فَمَلَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِدِينِهِ، وَخُلَفَائِهِ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هِرْقَلِ.

فَالنَّصَارَى يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَوْ رَجَعُوا إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، فَسَيَزْلُزَلُونَ الْأَرْضَ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، وَيَمْلِكُونَ أَرْضِيهِمْ، وَلِذَلِكَ هُمْ يَخَافُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ أَشَدَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَحَاوِلُونَ الْقَضَاءَ عَلَيْهِ، وَمَا شَأْنُ النَّاسِ فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدَأِ الْوَحْيِ، كَيْفَ كَانَ بَدَأَ الْوَحْيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟، رَقْمُ (٧)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْمَغَازِي، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى هِرْقَلِ، رَقْمُ (١٧٧٣).

البُوسنة والهرسك ببعيد، فإننا نسمعُ في الأخبارِ ما تقشعُرُ منه الجلودُ، وتنفرُ منه النفوسُ، وتنكره الفطرُ السَّليمةُ مما يفعلُ هؤلاءِ النَّصارى الصَّربُ بالمُسلمينَ؛ لأنهم لا يريدون أن توجدَ دولةٌ إسلاميةٌ في وسطِ أوروبا، إذ إن هذا خطرٌ عليهم، ولذلك نجدُ الأممِ الكافِرةَ صامتةً على هذا الموضوعِ، ولم تُحركِ ساكنًا، مع أن هذا يُنافي ميثاقَ الأممِ المتحدة، ويخالفُ جميعَ الأعرافِ، لكن حالهم يقولُ: لَم آمُرُ بها، وَلَمْ تَسْؤُنِي.

ولكننا نستجيرُ باللهِ عزَّ وجلَّ ونستنصرُ بهِ على كلِّ عدوٍّ للإسلامِ والمُسلمينَ، ونسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ ينصرَ دينه، ويُعليَ كلمته، وأن يعذبَ هؤلاءِ بعذابٍ من عنده، أو بأيدينا، إنه جوادٌ كريمٌ، وما ذلكَ على اللهِ بعزيرٍ.

وإني أوصيكم -أيها الإخوة- أن تدعو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كلِّ موطنٍ إجابةً، وفي كلِّ زمنٍ إجابةً، وفي كلِّ حالٍ إجابةً، أن تدعو اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينصرَ المُسلمينَ في كلِّ مكانٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿[غافر: ٤٥-٤٦]، استدلل بعضُ العلماءِ بهذه الآية على إثباتِ عذابِ القبرِ، وقال إن عذابَ القبرِ ثابتٌ بالقرآنِ والسنةِ وإجماعِ المُسلمينَ، وهذا الاستدلالُ حقٌّ، فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾.

فقوله تعالى: ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ يعني قبلَ قيامِ السَّاعةِ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وهناك آيةٌ أخرى تدلُّ على ذلك وهي قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾، أي أيدي الملائكة، ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ اليوم أي اليوم الحاضر، فـ (ال) هنا للعهد الحضورى، ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وتأملوا قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾، مما يدل على أن هؤلاء شحيحون بأنفسهم لا يريدون أن تخرج الأنفس من الأجساد، لأنهم والعباد بالله إذا نزل بهم الموت ونزلت بهم ملائكة العذاب يقولون لأرواحهم: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى غضب الله عز وجل وسخطه فإذا سمعت النفس أو الروح هذا الوعيد تفرقت في البدن ونفرت ولم ترد الخروج ولكنهم يتزعونها بشدة عظيمة من هذا البدن الذي تشبث به، أما المؤمن فإنه تأتيه ملائكة الرحمة وتبشره بالجنة ورضوان من الله فتخرج نفسه منقاداً كالشعرة تسئل من العجين^(١).

فعذاب القبر ثابت بالقرآن والسنة المتواترة عملياً بين المسلمين، فكلنا نقرأ في صلواتنا هذا الدعاء: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»^(٢)، فكل المصلين يقرءونه في صلواتهم، فهو إذن متواتر ولا يمكن أن نقول «اللهم إني أعوذ بك من

(١) أخرجه أحمد (٢٨٧/٤، رقم ١٨٥٥٧)، والحاكم (٩٣/١، رقم ٩٨٩٣)، والبيهقي (١١٧/١٠٩، رقم ١٠٧)، وفي شعب الإيمان (٣٥٥/١، رقم ٣٩٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، رقم (١٣١١)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في صلاة، رقم (٥٨٨).

عَذَابِ الْقَبْرِ» وليس في القبر عذاب.

ووردت أحاديث خاصة في عذاب القبر على فعل شيء معين منها:

أولاً: حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ قَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ»، فالجملة هنا مؤكدة، «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» أي في أمر شاق عليهما بل هو في أمر سهل، «أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ لَا يَسْتَنْزِعُهُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»، فهذان الفعلان من أسباب عذاب القبر، عدم التنزه من البول، والاستبراء منه، فإذا أصاب ثوبك رِشَاشٌ من البول وتهاونت به ولم تطهره فهذا من أسباب عذاب القبر، وإذا قَضَيْتَ الْحَاجَةَ وَلَمْ تَسْتَنْجِ اسْتَنْجَاءً شَرْعِيًّا، سواءً بالماء أو بالأحجار، فهذا من أسباب عذاب القبر، وإذا كَانَ لَا يَسْتَنْزِعُهُ مِنَ الْغَائِطِ فَهُوَ فِي الْوَعِيدِ مِثْلُ الْبَوْلِ، فلا فرق، وكلاهما نجس، «وَأَمَّا الْآخَرُ: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»^(١)، فالنميمة أن ينقل الحديث من شخصٍ لآخر من أجل الإفساد بينهما، فالنميمة من أسباب عذاب القبر والعياذُ بالله.

ثم أخذ النبي ﷺ جَرِيدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا نَصْفَيْنِ وَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قالوا: لَمْ صَنَعْتَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَبْسَا»^(٢)، لعل للترجي أي أرجو أن يخفف الله عنهم العذاب ما لم يبسا، وهذا نوع من الشفاعة من رسول الله ﷺ لهذين القبرين اللذين يعذبان.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).
(٢) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول، رقم (٢١٨)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، رقم (٢٩٢).

فإن قال قائل: هل يُشرع لنا نحن أن نضع على القبر غصناً رطباً من جريد أو غيره أو لا يُشرع؟

فالجواب: لا يُشرع ذلك، والذي يضع جريدة رطبة، أو شجرة أو ما أشبه ذلك على القبر، فإنه يُسيء إلى صاحب القبر، لأنه اتهمه بأنه يُعذب، ولو سئل هذا الذي يضع الجريدة على القبر، هل تشهد أن صاحب هذا القبر يُعذب، ففعلك هذا يدل على أنك تشهد بأنه يُعذب؛ لأن الرسول ﷺ لم يكن يضع الجريدة الرطبة على كل قبر، بل وضعها على قبرين يُعذبان، فإذا وضعت على القبر جريدة أو شجرة أو ما أشبه ذلك، فيلزم من هذا الوضع أن تكون شاهداً بأن صاحب هذا القبر يُعذب.

فالذين يفعلون هذا يُسيئون إلى مَنّهم إساءة عظيمة، ثم إنهم اتبعوا ما لا علم لهم به، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ثم إنهم ابتدعوا في الدين ما ليس منه، فإن الرسول ﷺ لم يكن يضع ذلك على كل قبر بل وضعه أو وضع الجريدة على من كان يُعذب.

قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

الآل: هنا بمعنى الأتباع على دينه وعلى ملته، وهكذا نقول في قولنا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، أن المراد بآله أتباعه على دينه، وذلك أن كلمة آل إن قرن معها الصَّحْبُ والأتباع صار لها معنى، وإن أفردت صار لها معنى آخر، فإذا قيل: اللهم صل على محمد وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومن تبعهم بإحسان، صار المراد

بِالْآلِ مَنْ لَيْسُوا أَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِذَا قُلْنَا: عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ، فَالْمُرَادُ بِالْآلِ هُنَا: مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ آلِ بَيْتِهِ، لِيُخْرِجَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ آلِ بَيْتِهِ فَإِنَّهُ لَا كَرَامَةَ لَهُ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْآلِ مِثْلُ أَبِي هَبٍ عَمِّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ سُورَةً كَامِلَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تُتْلَى إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَإِذَا قُلْنَا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَشْمَلُ: الْآلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، أَمَّا أَصْحَابُ الرَّسُولِ فَكُلُّ مَنْ آمَنَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واجتمعَ بِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مَعَ أَصْحَابِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ أَجْمَعُ تَعْرِيفَ لِلصَّحَابِيِّ: أَنَّهُ مَنْ اجْتَمَعَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، وَأَتْبَاعُهُ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى نَهْجِهِ وَسِيرَتِهِ عَقِيدَةً قَوْلًا وَفِعْلًا.

وَيَنْبَغِي عِنْدَ ذِكْرِ الْأَتْبَاعِ أَنْ نُقِيدَهَا فَنَقُولُ أَتْبَاعُ بِإِحْسَانٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فَتَقِيدُ بِإِحْسَانٍ لئَلَّا يَدْخُلَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُحْسِنْ.



سورة فصلت

الدرس الأول:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ كُتِبَ فَصَّلَتْ ءَايَتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ [فصلت: ١-٣].

ابتدأ الله تعالى هذه السورة بحرفين هجائيين، وهما: ﴿حَمَّ﴾. والحروف الهجائية من حيث اللغة العربية التي نزل بها القرآن ليس لها معنى في ذاتها، بل هي حروف هجائية يُرَكَّبُ النَّاطِقُونَ منها كلامهم، وليس لها معنى في حد ذاتها، ولذلك لو كُتِبَ لك الحروف الهجائية من أولها الألف إلى آخرها الياء وقرأتها فلا تفهم شيئاً؛ لأنها حروف هجائية منها يتكوّن كلامُ البشر.

فإذا علمنا ذلك، وعلمنا أن القرآن نزل بلغة العرب؛ لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِنُنْزِلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] بَيِّنٍ وَاضِحٍ؛ إِذَا عَلِمْنَا ذَلِكَ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ الْهَجَائِيَّةَ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى فِي حَدِّ ذَاتِهَا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ نَزَلَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ،

والحروفُ الهجائيةُ في اللغة العربية ليس لها معنى في حد ذاتها. وقد ذكر ابنُ كثيرٍ هذا عن مُجاهِد رَحِمَهُ اللهُ، وهو إمامُ المفسِّرينَ في التَّابعينَ، أَنَّهُ ليس لها معنى في حدِّ ذاتها^(١).

ولكن يَرِد على هذا إشكالٌ، وهو كيف يكون في القرآن العظيم ما ليس له معنى؟

فيقال: المعنى نوعان:

■ نوعٌ دلَّ عليه اللفظُ بمقتضى تركيبه، وهذا واضح.

■ ونوعٌ دلَّ عليه اللفظُ من حيث المغزى.

والمغزى هنا أن نقول: إن هذا القرآن الذي أعجزَ العربَ، وهم أفصح الفصحاءِ، وأبينُ أهلِ البيانِ، إِنَّه لم يأتِ بحروفٍ لا يُركَّبُ العربُ كلامَهم منها، وإنما أتى بحروفِ العربِ يركبون كلامَهم منها، ولو جاء العربَ بحروفٍ جديدةٍ لكان عجزهم عن ذلك أمراً معقولاً، لكنَّه لم يأتِ إلى العربِ إلا بالحروفِ التي يركَّبون منها كلامَهم، ومع ذلك عَجَزُوا أن يأتوا بمثلِ هذا القرآن، بل عجزوا أن يأتوا بعشرِ سُورٍ منه، بل عجزوا أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ منه، بل عجزوا أن يأتوا بحديثٍ مثله، ولو أقلَّ من سورةٍ، قال اللهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ يعني أن مُحَمَّدًا قاله من عنده ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣].

فهم غير صادقين بقولهم هذا؛ لأنهم يعلمون أن مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يمكن أن يأتي بمثله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ إن كانوا صادقين ﴿[الطور: ٣٤]﴾،

فهل أتى العرب الحريصون على دفع آية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإبطالها، هل أتى العرب بمثله؟

نقول: لا والله عَجَزُوا، بل إن العرب سَحَرَهُمُ الْقُرْآنُ سِحْرًا حَتَّى كَانَ مِنْ أَكْبَرِهِمْ مَنْ يَأْتِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَجْلِسُ حَوْلَهُ سِرًّا يَسْمَعُ قِرَاءَتَهُ؛ لِأَنَّهُ سَحَرَهُمْ، وَعَجَزُوا عَنْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ.

فدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، بَلْ هُوَ مِنْ كَلَامِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مُتَحَدِّيًا جَمِيعَ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ﴿لَوْ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ ذَلِكَ، وَإِذَا تَعَاوَنُوا فَإِنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ﴾ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ، وَلَكِنَّهُ مِنْ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ.

إِذْنُ لَوْ سَأَلْنَا سَائِلٌ: مَا تَقُولُونَ فِي الْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَأَ اللَّهُ بِهَا بَعْضَ السُّورِ؟

فَالْجَوَابُ: أَمَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى الذَّاتِيُّ لَهَا فَلَيْسَ لَهَا مَعْنَى، وَالذَّلِيلُ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، وَلُغَةُ الْعَرَبِ لَيْسَ لِلْحُرُوفِ الْهَجَائِيَّةِ فِيهَا مَعْنَى ذَاتِيٌّ، وَلَكِنْ اللَّهُ أَنْزَلَهَا لِحِكْمَةٍ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي تَحَدَّى بِهِ الْعَرَبَ لَمْ يَأْتِ بِحُرُوفٍ جَدِيدَةٍ لَمْ يَعْرِفْهَا الْعَرَبُ، حَتَّى يَقُولُوا: لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ، وَلَكِنَّهُ أَتَى بِكَلَامٍ مِنْ حُرُوفِ الْعَرَبِ، وَمَعَ ذَلِكَ عَجَزُوا.

قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ② كَتَبْتُ فُصِّلْتُ أَيْتُهُ. ﴿

أوجه الإعراب قد تكون متعددة، وأحسن ما يقال في إعرابها أن (تنزيل) خبرٌ مُّقدَّم، و(كتابٌ فُصِّلَتْ آياته) مبتدأ مؤخر، والتقدير: كتابٌ فُصِّلَتْ آياته تنزيلٌ من الرحمن الرحيم، هذا أحسن ما يقال فيها، ولا يحتاج إلى تقدير، وكلما استغنيا عن التقدير في الإعراب كان أولى؛ لأن التقدير يعني أن في الكلام حذفًا، والأصل عدم الحذف.

قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يعني أن الكتاب -وهو القرآن- منزل من عند الله، وتأمل قوله: ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لِيَتَبَيَّنَ لك أن شرائع هذا الكتاب مبنية على الرحمة؛ لأنه نزل من الرحمن الرحيم، والنازل من الرحمن الرحيم لا بُدَّ أن يتضمَّن الرحمة، وهو كذلك؛ فإن الشريعة الإسلامية مبنية على الرحمة، وعلى التسهيل، وعلى التيسير.

وأصل إنزالها لمصلحة الخلق، فإن الله غنيٌّ عنا؛ إن أطعناه لم تنفعه الطاعة، وإن عصينا لم تضرَّه المعصية، ولكن لرحمته إيانا شرع لنا ما شرع حتى يُشِينَا على الطاعات، وحتى يعفو عن السيئات، إلَّا ما لا يعفو الله عنه كالشرك؛ فإن الله تعالى يغفر كلَّ شيءٍ لمن شاء إلَّا الشرك.

وفي قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دليل واضح على أن القرآن كلامُ الله. وقد جاءت آية مصرحة بأن القرآن كلامُ الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. يعني القرآن، بالاتفاق، فالقرآن كلامُ الله؛ لأن الله تعالى أضاف تنزيله إليه، والذي أضاف الله تنزيله إليه

ينقسم إلى قسمين:

■ عين قائمة بنفسها فهو مخلوق، ووصف الله عزَّجَلَّ فهو غير مخلوق.

■ فهل القرآن عين قائمة بنفسها أم وصف للمتكلِّم؟

الجواب: الثاني، إذن هو كلام الله عزَّجَلَّ، ولا يمكن أن يُضيف الله تعالى كلامًا أو إنزال كلام إلى نفسه والمتكلِّم به غيره، لا يمكن هذا إطلاقًا؛ لأن ذلك يُعتبر تدليسًا وتلبيسًا، وقرآن الله تعالى وكلام الله تعالى كله بيانٌ وهدي. فيستفاد من الآية أن القرآن كلام الله.

وهل القرآن كلام الله باللفظ أو بالمعنى؟

زعم بعض الناس أن الله لا يتكلَّم كلامًا يُسمَع، وإنما كلامه معنى قائم بنفسه، ثم يخلق أصواتًا تعبر عما في نفسه، وعلى هذا فمعنى تكلم الله أو كلم الله على رأيهم: خلق كلامًا سميَّه المُخاطَب.

ولا شك أن هذا تحريفٌ للكلم عن مواضعه؛ لأنَّه لا أحد يفهم إذا كان ذا فطرة سليمة أن معنى كلم الله: خلق كلامًا في غيره أبدًا؛ إلا من انحرفت فطرته، فنشكو إلى الله تعالى ذلك، ونسأله أن يهديه صراطه المستقيم.

فكلام الله -يا إخواني- هو المعنى واللفظ، فالقرآن تكلم الله تعالى به كلامًا مسموعًا سميَّه جبريل، ثم ألقاه إلى قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم. ولهذا قال الله تعالى لنبيه: ﴿لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا

قَرَأْنَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿[القيامة: ١٦-١٨].

فجعل قراءة جبريل قراءة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لَأَنَّ جبريلَ مُرْسَلٌ به، فيكون كلامُ المرسل كلامًا لَمَنْ أرسله، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾، ومعلوم أن القارئَ على النبي ﷺ هو جبريل، لكنه يقرأ كلامًا من الله، فكأن الله قرأه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فالقُرآن إذن كلامُ الله، فيجب علينا أن نَلْقَى رَبَّنَا ونحن نؤمنُ بأن القرآن كلامه؛ لفظه ومعناه، فمن لاقى رَبَّهُ وهو يَعْتَقِدُ أن الله خلق أصواتًا لتعبرَ عما في نفسه فقد أخطأ خطأ عظيمًا، فالشيءُ المضمَر في النَّفْسِ لا يُسَمَّى كلامًا، فلا يُعَدُّ كلامًا بل يُعَدُّ حديثَ نفسٍ، ويُعد تفكيرًا، أما أن يُعد كلامًا فلا.

قالوا: إن الله تعالى قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨].

فنقول: هذه الآية التي استدللتم بها هي حُجَّة عليكم، وليست حجة لكم؛ لأن الله لما أراد القول في النَّفْسِ قيد؛ قال: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، فالقول إذا أُطلق والكلام إذا أُطلق فهو اللفظ والمعنى، أما إذا قيد فهو حسب ما تقيّد به، فالقرآن الكريم قال الله تعالى فيه: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾، والحديث النبويُّ قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ»^(١).

لذلك ندعو إخواننا الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ هذه العقيدة - أن الله ليس يتكلم بكلام مسموع - أن يفكروا في الأمر بعلمٍ وعدلٍ، لا بهوىٍ وتقليدٍ، وأن يجردوا أنفسهم

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره.. رقم (٥٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن أمتي ما حدّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم، رقم (١٢٧).

من قول كل قائلٍ إلَّا قول الله ورسوله، وحينئذ يتبين لهم أن قول الله، وكلام الله هو كلامه المسموع، وأن الله تعالى يتكلم بصوت مسموع، يُسمعه من يشاء من خلقه.

علو الله عز وجل؛

وفي قوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ دليل على علو الله. ووجهه أن النزول لا يكون إلَّا من علو، فإذا كان نازلاً من الرحمن فالرحمن إذن عالٍ في السماء. وهذا القول هو الذي دلَّ عليه الكتاب، والسنة، وإجماع الصحابة، والعقل، والفطرة، خمسة أنواع من الأدلة، فكل ما يمكن أن يكون دليلاً فقد دلَّ على علو الله عز وجل وأنه عالٍ جلَّ وعلا بذاته فوق كل شيء:

القرآن والسنة:

أما القرآن فمملوء من ذكر العلو، وأما السنة فكذلك، وقد جاءت السنة بإثبات العلو على وجوه ثلاثة: قولية، وفعلية، وإقرارية.

فأما القولية فإننا نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يُصلي ويسجد، ويقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى».

وأما الفعلية فإنه كان في حجة الوداع يرفع أصبعه إلى السماء يشهد الله عز وجل على إقرار أمته بأنه بلغ البلاغ المبين، فإنه ﷺ خطب الناس يوم عرفة في حجة الوداع، وهو أكبر اجتماع يكون بين الرسول ﷺ وبين الصحابة، خطبهم خطبة بليغة، وقال: «وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟». قالوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ.

اللَّهُمَّ ارْضَ عَنْهُمْ، وَنَحْنُ نَشْهَدُ بِمَا شَهِدَ بِهِ الصَّحَابَةُ؛ أَنَّهُ ﷺ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ.

فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ^(١). فَيُشِيرُ إِلَى اللَّهِ فِي عُلُوِّهِ.

فَهَلْ يُعْقَلُ أَنَّ الرَّسُولَ يَشِيرُ بِإِصْبَعِهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» دُونَ أَنْ يُرِيدَ إِثْبَاتَ عُلُوِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ! لَا يُعْقَلُ.

أَمَّا الْإِقْرَارُ فَإِنَّهُ سَأَلَ جَارِيَةً مَمْلُوكَةً عَبْدَةً، وَالْغَالِبُ أَنَّ الْجَوَارِيَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُنَّ، قَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللَّهُ؟» وَ(أَيْنَ) يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ الْمَكَانِ، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. فَقَالَ لِسَيِّدِهَا: «أَعْتَقْتُهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ» ^(٢). وَلَمْ يَنْكَرْ عَلَيْهَا قَوْلَهَا: إِنَّ اللَّهَ فِي السَّمَاءِ، بَلْ أَقَرَّهَا، وَقَالَ: هَذَا هُوَ الْإِيْمَانُ.

الفطرة:

أَمَّا الْفِطْرَةُ فَلَوْ سَأَلْتَ أَيَّ وَاحِدٍ لَمْ يُغْلَفْ عَلَى قَلْبِهِ: أَيْنَ اللَّهُ؟ لَقَالَ: فِي السَّمَاءِ. وَلَوْ رَأَيْنَا كُلَّ دَاعٍ يَوْمِنَ بِاللَّهِ يَدْعُو اللَّهَ لَوْ جَدْنَاهُ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَلْبُهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَهُوَ يَرْفَعُ قَلْبَهُ وَيَدَيْهِ إِلَى مَنْ يَدْعُوهُ، وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

العقل:

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَبِاللَّهِ عَلَيْكُمْ لَوْ سَأَلْنَا: أَيُّهَا أَكْمَلُ: مَنْ يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ أَوْ مَنْ لَا يُوصَفُ بِهِ؟ لَقِيلَ: الَّذِي يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ أَكْمَلُ، فَكُلُّ الْعُقُولِ تَدُلُّ عَلَى هَذَا.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

إجماع الصحابة:

أما إجماع الصحابة، وهم خير الناس، على أن الله تعالى في السماء، فإنه لا يوجد عندهم حرف واحد يقول: إن الله ليس في السماء، أبداً، فكلهم مجمعون على ما دل عليه الكتاب والسنة من علو الله عز وجل، فكيف بعد هذا يأتي إنسان ويقول: إن الله ليس في العلو!

والذين أنكروا العلو انقسموا إلى قسمين:

قسم قالوا: إن الله بذاته في كل مكان، أعود بالله، أعود بالله، أعود بالله! كيف يستطيع عاقل أن يتفوه بهذا: إن الله بذاته في كل مكان! لا إله إلا الله! ﴿وَتَعَلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

فعلى هذا القول إن كنت في السوق فالله - على قولهم - في السوق، وإن كنت في المسجد فالله في المسجد، وإن كنت في المرحاض - تعالى الله - على قولهم يلزمهم بهذا أن يقولوا بهذا، وإلا فقد تناقضوا: فالله في المرحاض! من يستطيع أن يصف الله بأنه في المرحاض! نسأل الله العافية، فهذا أمرٌ خطيرٌ جداً، ولا يمكن للإنسان أن يلاقي ربه على هذه العقيدة.

فليُتَبَّ إلى الله تعالى من اعتقد هذا قبل فوات الأوان، قبل ألا يستطيع التخلص من هذه الورطة العظيمة، فأنت الآن إذا كنت في السوق فالله في السوق، وإذا كنت في المسجد فالله في المسجد، وفي البيت فالله في البيت، وفي المثل الآخر في المرحاض يلزم من قولهم أن يكون الله في المرحاض، فلو كان واحد آخر في السوق وأنت في المسجد فأين الله؟ على قولهم في السوق والمسجد، فإما

أن يكون الله اثنين فأكثر مما لا حصر له، وإما أن يكون الله مُتَجَزَّئًا مُتَفَرِّقًا، وكلاهما باطل.

النَّصَارَى لما قالوا: إن الله ثالثُ ثلاثة كَفَرَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فكيف بالَّذي يقول: إن الله في كلِّ الأُمَكَةِ! فالمسألة خطيرةٌ جدًّا جدًّا، وأنا قلت هذا عدَّةَ مراتٍ من على هذا الكرسيِّ في هذا المسجد؛ لأنني أعلمُ أن من أُمَّةِ الإسلامِ مَنْ يقول بهذا، وأسألُ اللهَ تَعَالَى أن يَهْدِيَهُمْ إلى الحقِّ قبل أن يَمُوتُوا فيفارقوا الجماعةَ، فهذه مسألةٌ خطيرةٌ، ويجب أن تعتقدَ بأن الله تَعَالَى في السَّمَاءِ فوقَ كلِّ شيءٍ.

ولكن هل هناك شيءٌ من مخلوقاته أحاط به، أو أن الله هو المحيطُ بكلِّ شيءٍ؟
الجواب: الثاني لا شكَّ في هذا، فإذا كان ما فوق المخلوقات ليس فيه إلا الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن شيءٌ من المخلوقات مُحِيطًا بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تَعَالَى فوقَ كلِّ شيءٍ، وكلُّ الأشياءِ بالنسبةِ له ليست بشيءٍ.

أخبر النبي ﷺ فيما يُروى عنه أنه قال: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ» أي: حلقة المغفر، وهي صغيرة جدًّا ما يدخل فيها الإصبع «وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ»^(١).

فلا أحد يمكنه أن يقول: إن الله تَعَالَى قد أحاط به شيءٌ، فالله تَعَالَى مُحِيطٌ بكلِّ شيءٍ، وليس شيءٌ من مخلوقاته مُحِيطًا به، وإذا أثبتنا أن الله فوقَ كلِّ شيءٍ ولا يُحِيط به شيءٌ؛ فأبى عقلٌ ينكر هذا ويقول: إنك وصفتَ الله بما لا يليق به، فالعقل يُنكر كلَّ الإنكارِ أن تقول: إن الله بذاته في كلِّ مكانٍ.

(١) أخرجه ابن حبان (٧٦/٢)، رقم (٣٦١).

وهناك قسم آخر أنكر علو الله وقال: لا يجوز أن تقول: إن الله فوق المخلوقات، ولا تحت المخلوقات، ولا عن يمين المخلوقات، ولا عن شمالها، ولا مُتَّصِلُ بها، ولا مُنفَصِلُ عنها.

فإذا قلنا: إن الله ليس هكذا فأين الله؟! ليس موجودًا! ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا صفوا الشيء المعلوم ما وجدنا وصفًا أدق من هذا الوصف، أن تقول: المعلوم من ليس فوق، ولا تحت، ولا يمينًا ولا شمالًا، ولا مُتَّصِلًا بالخلق، ولا مُنفَصِلًا عن الخلق^(١)، فهذا المعلوم، لكنك وصفته بأوصاف سلبية، والوصف بالأمور السلبية لا يجوز إلا عند الضرورة.

فاحمد الله - يا أخي - أن هداك صراطه المستقيم، وأن هداك لما اختلف فيه من الحق، إنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وانتشل إخوانك من هذه الورطة، التي وقع فيها بعض الناس الذين يقولون: إن الله في كل مكان.

شبهة من يقولون: إن الله في كل مكان:

وشبهتهم غريبة، وعجبًا لهم ولأمثالهم، أن يدعوا المحكم من القرآن ويأخذوا بالمتشابه، فالذين يدعون المحكم يأخذون بالمتشابه قال النبي ﷺ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاخَذَرُوهُمْ»^(٢).

وأنا - والله - لا أحب أن أتكلّم بهذا الكلام، لكن الأمر شديد، وليس لنا محيد

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/٢٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿مِنْهُ مَا يَكُنُّ مُحْكَمٌ﴾ [آل عمران: ٧]، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم: كتاب العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه، والنهي عن الاختلاف في القرآن، رقم (٢٦٦٥).

عن كلام الله ورسوله، فكلُّ إنسانٍ يتَّبِعُ المُتَشَابِهَ وَيَدَعِ المُحْكَمَ فقد قال فيه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَأَخَذَرُوهُمْ».

وكيف سَمَّى الله؟

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] يعني مَرَجِعَهُ، أي الَّذِي يجب أن يُرَدَّ إليه الكتابُ، وإذا رُدَّ المُتَشَابِهُ من الكتاب إلى المُحْكَم صار الجميع مُحْكَمًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فيها اشتباه، وفيها احتمال ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ يعني ويتركون ما كان مُحْكَمًا، ويصنعون ذلك ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧] فتنة النَّاسِ عن دينهم وصدِّهم عن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

ولذلك لا تجد زعماء هؤلاء الَّذِينَ يقولون: إن الله بذاته في كل مكانٍ من الصَّحَابَةِ، ولا من أئمة التَّابِعِينَ، ولا من أئمة المُسْلِمِينَ بعدهم، إنما هي عقولٌ مُتَنَاقِضَةٌ مُتَنَافِرَةٌ، أوجبَتْ أن يقولوا بهذا القولِ الفاسدِ المعلوم فسادُهُ بالضرورة من دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. وما موقف الرَّاسِخِينَ في العلم؟ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] يعني المُتَشَابِهَ والمُحْكَمَ من عند الله.

وإلى أيِّ شيءٍ نَرُدُّ المُتَشَابِهَ؟

أشار الله تعالى إلى شيءٍ نَرُدُّه إليه فقال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يعني ردوا المُتَشَابِهَ

إلى أصله؛ إلى المحكم؛ حتى يتبين لكم.

فما هي الآيات التي شَبَّهوا بها ولَبَّسوا بها، وليس لهم -والله- فيها دليل، إلا إن كان ذئب يُوسُفَ له حظٌّ من قتلِ يوسفَ -وليس له حظ، فإخوانه جاؤوا بدمٍ كَذِبٍ على ثيابه وقالوا: أكله الذئب-.

قالوا: إن الله تعالى صرَّح في عدة آيات أن الله مع كذا:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ

سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وما أشبه ذلك.

فهذه الآيات شَبَّهوا بها، والعامِّيُّ يُمكن أن يشتبه عليه هذا، ولكن نقول:

يا سُبْحَانَ اللَّهِ! كيف تأتون بهذه الآيات المُتشابهات، وتدعون الآيات المُحكَّمات؟!!

والآيات المُحكَّمات بالنسبة لمسألتنا أن الله فوق كل شيء، أما هذه الآيات

فليس فيها اشتباه لمن فتح الله قلبه، ولمن رَسَخَ في العلم قَدَمُهُ، فالمَعِيَّةُ لا تقتضي

الاختلاط، ولا تستلزم الاختلاط، فقد يكون الشيء مع غيره وهو بعيد عنه؛ رأيت

القمر يسير في كِبِدِ السَّمَاءِ، ألسنا نقول: «ما زِلْنَا نَسِيرُ والقمر معنا»؟ بلى نقول هذا،

وكل المسافرين يقولون هذا؛ من العرب الَّذِينَ قَبْلَ الرَّسُولِ، وَالَّذِينَ مَعَ الرَّسُولِ،

وَالَّذِينَ بَعْدَ الرَّسُولِ، يقولون مثل هذا الكلام، ولا أحد منهم يشك في أن القمرَ

مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ. فإذا كان لا تناقض بين المَعِيَّةِ والعلوِّ في مخلوق فكيف بالخالق

جَلَّوَعَلَا الَّذِي لَا يُمِثِّلُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ.

كذلك أيضًا رجلٌ في مكة، وزوجته في أقصى ما يكون من الشرق، وسألنا سائلٌ: هل فلانةٌ مع زوجها؟ فقلنا: نعم، والمعنى في عصمته وليس المعنى أنها في مكانه، بل في عصمته، مع بُعد ما بينهما، وربما يقتضي هذا السؤال أن المعنى معه في صحبته، مثل أن نقول: سافر فلانٌ من بلده إلى مكة، فحينئذٍ يتوجّه أن أقول: هل زوجته معه أي مُصاحبة له.

والضابطُ واللواءُ والفريقُ وما أشبه ذلك من الرُتب العسكرية، يقول الضابط للجنود: ادخلوا ساحة القتال وأنا معكم، فهل معناه أنه في غرفة القيادة، أو معناه أنه يخوض مضمار الحرب معهم؟

الجواب: الأول، وهو الكلام الصحيح، فالله معنا عَزَّوَجَلَّ يَعْلَمُنَا وَيَسْمَعُنَا وَيَرَانَا وَيَدَبِّرُنَا وَيُحِيطُ بِنَا، حَتَّى إِنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَكُونُ، وَيَعْلَمُ مَا لَا يَظْهَرُ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِثْلَ نَفْسِهِ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۖ﴾ [ق: ١٦] نَعْلَمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ لِلنَّاسِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْ بَوَاطِنَنَا خَيْرًا مِنْ ظَوَاهِرِنَا، وَأَعِزَّنَا مِنَ النِّفَاقِ وَالرِّيَاءِ- بَلْ إِنَّهُ يَعْلَمُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَمَا خَلْفَهُمْ كَذَلِكَ، يَعْلَمُ مَا مَضَى مَعَهُمَا تَطَاوَلَ زَمَنُهُ؛ لِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَنْسَى، وَيَعْلَمُ الْمُسْتَقْبَلَ مَعَهُمَا بَعْدَ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجْهَلُ. فَنَحْنُ نَقُولُ: إِنْ اللَّهُ مَعَنَا حَقًّا لَكِنَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَلَا مُنَافَاةَ وَلَا غَرَابَةَ.

وإن من أهمِّ الأمورِ هذه المسألة؛ لأنها شائعةٌ في كثيرٍ من العوامِّ، فكثيرٌ من العوامِّ يرى أن الله معك أي يمشي معك. أسأل الله العافية، فما يصحُّ هذا، فلذلك يجب علينا أن نبين، وقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب، وأسأل الله أن يجعلنا

وإياكم من العلماء به وبشره، أن نبين للناس؛ لأن هذا في أعناقنا، فإن لم نبين ما تبين لنا من كتاب الله دخلنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ۝١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْا فَأُولَٰئِكَ أَثُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ١٥٩-١٦٠﴾.

فأنا أرى أن من واجبي أن أبين للناس هذه المسألة الخطيرة، وأدعو جميع إخواني المسلمين إلى أن يؤمنوا بأن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه مُستَوٍ على عرشه الذي هو أعلى المخلوقات، فيجب أن نؤمن بهذا، ويجب أن نلقى الله بهذه العقيدة، وإلا فإننا على خطأ.

أما الذين قالوا بأن الله لا يُوصَف بأنه فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متَّصل ولا مُنفصل، فهذا قول تصوُّره فقط يُغني عن رده؛ لأنه قول باطل. ولهذا قال محمود بن سبكتكين^(١) رَحِمَهُ اللَّهُ أحد القواد المشهورين، قال لبعض أهل الكلام، وهو مُحَمَّد بن فُورَك، وقد حاجَّه في العلوّ فقال: إن الله لا يُوصَف بأنه فوق ولا تحت إلى آخره، فقال: لو أردت تصف المعدوم كيف كنت تصفه بأكثر من هذا؟!^(٢).

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ، ولذلك كان هذا القول مهجورًا، لكن القول الذي ما زال عليه بعض الناس اليوم، هو أن الله في كل مكان، وهذا خطأ عظيم، وخطر جسيم،

(١) هو السلطان أبو القاسم محمد بن سبكتكين التركي، صاحب خراسان والهند. انظر سير أعلام النبلاء (١٧/٤٨٣).

(٢) انظر درء تعارض العقل والنقل (٦/٢٥٣)، والصواعق المرسلة (٤/١٢٨٧).

وَلَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَلْقَى رَبَّهُ بِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَصَحَّحَ عَقِيدَتَهُ، وَيَبْنِيهَا عَلَى الْحَقِّ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِهِ حَسَبَ مَا جَاءَ فِي شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ إلى آخر الآيات [فصلت: ٣٠-٣١]، ففي هذه الآيات الكريمة يُخَبِّرُ اللَّهُ -سبحانه- عن جزاء الَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا، أي إنهم أَقَرُّوا واعْتَرَفُوا أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ رَبُّهُمْ، وَنَسْتَفِيدُ هَذَا الْحَصْرَ مِنْ تَعْرِيفِ رُكْنِي الْجُمْلَةِ، فـ(رَبُّنَا) هَذَا الرُّكْنُ الْأَوَّلُ هُوَ الْمَبْتَدَأُ، وَ(اللَّهُ) الرُّكْنُ الثَّانِي وَهُوَ الْخَبَرُ، وَالرُّكْنَانِ هُنَا مَعْرِفَتَانِ.

وَقَدْ ذَكَرَ عُلَمَاءُ الْبَلَاغَةِ أَنَّ مِنْ طُرُقِ الْحَصْرِ تَعْرِيفَ الرُّكْنَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ، يَعْنِي أَنَّ يَكُونُ طَرَفَاهَا مَعْرِفَتَيْنِ، أَيْ رَبُّنَا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا رَبَّ لَنَا غَيْرُهُ، وَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَهَذَا تَحْقِيقُ الْمُتَابَعَةِ.

يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ، لَيْسَ عِنْدَ الْمَوْتِ فَقَطْ، بَلْ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ خَيْرٍ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ لِتُطَمِّنَنَّهُمْ وَتُقَرِّرَ نُفُوسَهُمْ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا، أَلَّا تَخَافُوا عَلَى شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى شَيْءٍ مَاضٍ، وَالْإِنْسَانُ دَائِمًا يَغْتَمُّ مِنَ الْمَاضِي، وَيَهْتَمُّ لِلْمُسْتَقْبَلِ، فَإِذَا انْتَفَى عَنْهُ الْخَيْرُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالْحُزْنُ عَلَى الْمَاضِي تَمَّتْ لَهُ الرَّاحَةُ وَالطُّمَأْنِينَةُ.

إذن لا تخافوا من مُستقبلٍ، ولا تحزنوا على ماضٍ ﴿وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، فلما نفوا عنهم ما يخافون ويحزنون أثبت لهم ما يُسرُّون به ﴿وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نحن أولياؤكم في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فالملائكة أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة، ولهذا تجد المؤمن مُسددا دائما في أقواله وأفعاله؛ لأن الله سبحانه وتعالى يُسخِّر الملائكة بتشييته، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾ يعني في الآخرة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تطلبون، وهذا تمام النعيم، بل إن الله عز وجل يقول في سورة ق ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

ثم قال الله عز وجل: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ والنزل معناه: الضيافة التي تُقدَّم للضيف، فهو لاء يحصل لهم ما يشتهون وما يدعون نُزُلًا من الله عز وجل، بمغفرته لهم ورحمته إياهم وصلُّوا إلى هذا النزل، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، كلمة (مَنْ) استفهامية لكن هذا الاستفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أحسن قولًا ممن دعا إلى الله.

فإذا قال قائل: ما الفائدة من كون الاستفهام يقع موقع النفي؟

قلنا: إن الاستفهام إذا جاء مُرادًا به النفي صار مُشربًا بالتَّحْدِي، يعني كأنَّ المُتَكَلِّمَ يَتَحَدَّى الْمُخَاطَبَ، يقول: أرني أحسن من كذا وكذا، يعني لا أحد أحسن، وإذا كُنت تدعي ذلك فأرنيه.

وهذه قاعدة لطالب العلم ينبغي أن يفهمها، وهي: أن كل استفهام جاء بمعنى

النَّفْيِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مُشْرَبًا مَعْنَى التَّحْدِي، فَلَا أَحَدَ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ: ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أَيِ إِلَى دِينِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى قَوْلِهِ، وَهَنَّاكَ فَرَقٌ بَيْنَ شَخْصٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى قَوْلِهِ وَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَصِرَ لِقَوْلِهِ - سَوَاءٌ أَخْطَأَ أَمْ أَصَابَ - وَبَيْنَ شَخْصٍ يَدْعُو النَّاسَ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ، فَلَا أَوَّلَ لَا يَدْعُو لِلْهُدَى، وَإِنَّمَا يَدْعُو لِلْهَوَى، وَالثَّانِي هُوَ الَّذِي يَدْعُو لِلْهُدَى.

نَعَمْ لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا دَعَا لِقَوْلِهِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ لَا لِأَنَّهُ قَوْلُهُ، فَقَدْ لَا يُلَامُ عَلَى ذَلِكَ، أَمَّا أَنْ يَنْتَصِرَ لِنَفْسِهِ وَيُرِيدَ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَأْخُذُوا بِقَوْلِهِ لِأَنَّهُ قَوْلُهُ، فَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ، وَهَذَا الَّذِي يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقْبَلُوا قَوْلَهُ لِأَنَّهُ قَوْلُهُ قَدْ نَزَلَ مَنْرَلَةً.

فَلَا تُشْعِرْ بِأَنَّكَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى قَوْلِكَ لِأَنَّهُ قَوْلُكَ، وَلَكِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى قَوْلِكَ لِأَنَّهُ قَوْلُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَيِ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَلَا أَحَدَ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ.

وَمِنْ عِلَامَاتِ كَوْنِ الرَّجُلِ يَدْعُو إِلَى قَوْلِهِ لِأَنَّهُ قَوْلُهُ أَنَّكَ تَجِدُهُ إِذَا خَالَفَهُ أَحَدُ النَّاسِ فِي اجْتِهَادِهِ يَغْضَبُ، وَرُبَّمَا يُعَادِيهِ، وَرُبَّمَا يَتَّخِذُ مِنْ تِلْكَ الْمُخَالَفَةِ تَسَلُّطًا عَلَى هَذَا الْمُخَالَفِ بِالْقَدَحِ فِيهِ فِي الْمَجَالِسِ، وَفِي كُلِّ مُنَاسِبَةٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ لَا يُرِيدُ الْحَقَّ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُرِيدُ الْحَقَّ إِذَا أَخَذَ بِهِ فَإِنَّهُ يَعْذِرُ غَيْرَهُ إِذَا أَخَذَ بِهِ، فَأَنْتَ مَثَلًا إِذَا كُنْتَ تُخَالِفُنِي فِي رَأْيِي فَلَيْسَ مِنْ حَقِّي أَنْ أَلْوَمَكَ أَوْ أَعْتَدِي عَلَيْكَ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَلُومَنِي أَوْ تَعْتَدِي عَلَيَّ، لِأَنِّي لَوْ لِمُتَّكَ لَكُنْتَ أَنْتَ بِنَفْسِكَ تُوجِّهُ إِلَيَّ هَذَا، وَتَقُولُ: أَنَا أَلْوَمَكَ وَأَنْتَ تُخَالِفُنِي.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يُرِيدُ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَبْتَغِي الْحَقَّ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِهِ، وَلَا يَلُومُ غَيْرَهُ

إذا خالفه فيما يُسَوِّغ فيه الاجتهاد، وهذا له أمثلة كثيرة، منها: لو رأيت شخصًا إذا قام يصلي لا يضع يده اليمنى على يده اليسرى في الصلاة، فتجد من الناس من يكره هذا الرجل، ويُبغضه ويُعاديهِ ويتكلم فيه في المجالس، مع أن هذا الرجل قد خالفه لدليل كان عنده، وهذا خطأ، بل أنت يجب عليك أن تعذره فيما طريقه الاجتهاد.

كذلك لو رأيت إنسانًا إذا نزل للسجود يُقدِّم يديه، وأنت ترى أن الرَّاجِح أن يُقدِّم رُكْبتيه، فليس من حَقِّك أن تلومه على اجتهاده وتجعل من ذلك سُلماً للكلام فيه بين الناس والقدح فيه؛ لأنك إذا سَلَكْتَ هذا الطريق فسوف يَسْلُكُ هو هذا الطريق مَعَكَ أيضًا، ويَحْصُلُ التَّنَازُعُ والتَّفَرُّقُ والتَّبَاعُدُ.

ولو رأيت شخصًا إذا قام إلى الثانية أو إلى الرابعة في الصلاة الرباعية، جلس قليلاً ثم قام، فصرت تلومه على هذا الجلوس، فهذا أيضًا ليس من حَقِّك لأن هذا الرجل جلس عن اجتهاد، وهذا الذي أداه إليه اجتهاده، فإن لمته على فعل ما أداه إليه اجتهاده، فله الحق أن يلومك في ترك الشيء الذي أداه إليه الدافع إليه اجتهادك.

فالمهم أن الداعية إلى الله حقيقة هو الذي لا يدعو الناس لقوله لأنه قوله، بل يدعو الناس للحق، وإن كان هو الذي قال به، ففرق بين من يدعو الناس إلى الحق ويكون هو الذي قال به، وبين من يدعو الناس إلى قوله.

على كل حال، قال الله تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾، العمل الصالح ما جمع وصفتين: أن خالصًا لله، وأن يكون صوابًا على شريعة الله، أي موافقًا للشريعة، ولا تتحقق الموافقة للشريعة إلا إذا كانت العبادة موافقة للشريعة في أمور ستة: في سببها، وجنسها، وقدرها، وكيفيتها، وزمانها، ومكانها، فلو أن أحدًا من الناس تعبد

لله عِبَادَةٌ بِسَبَبٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ فِعِبَادَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ، مِثْلُ لَوْ تَعَبَّدَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ بِالثَّنَاءِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ مَوْلِدِهِ، قُلْنَا: هَذَا بِدْعَةٌ مَرْدُودَةٌ عَلَى مَنْ قَامَ بِهَا، لِأَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَجْعَلْ مَوْلِدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَبَبًا لِلثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَالاجْتِمَاعِ عَلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فِي جِنْسِهَا: لَوْ تَعَبَّدَ الْإِنْسَانُ لِلَّهِ بِعِبَادَةٍ بِجِنْسٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ، مِثْلُ أَنْ يُضَحِّيَ الْإِنْسَانُ بِفَرَسٍ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْفَرَسَ أَغْلَى فِي الْغَالِبِ مِنَ الْبَقَرَةِ، فَلَا تُجْزِئُ الْأُضْحِيَّةَ بِالْفَرَسِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ فِي الْجِنْسِ، إِذْ إِنَّ الْأُضْحَايَةَ لَا تُشْرَعُ إِلَّا مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ.

الْقَدْرُ: لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَحْدَثَ أَذْكَارًا مُعَيَّنَةً بَعْدَ مُعَيَّنٍ، فَقَالَ: سَأُسَبِّحُ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَأَهْلُلُ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَاتَّخِذْ ذَلِكَ شَرْعًا، قُلْنَا: هَذِهِ بِدْعَةٌ يُنْهَى الْإِنْسَانُ عَنْهَا، لِأَنَّهُ لَا تَوَافُقَ الشَّرْعَ فِي الْعَدَدِ.

الْكَيْفِيَّةُ: لَوْ تَعَبَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِبَادَةٍ عَلَى غَيْرِ الْكَيْفِيَّةِ الْمَشْرُوعَةِ، فَإِنِهَا لَا تُقْبَلُ لِمُخَالَفَتِهَا لِلشَّرْعِ فِي الْكَيْفِيَّةِ، مِثْلُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيَبْدَأُ أَوَّلًا بِقَدَمَيْهِ، ثُمَّ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ بِوَجْهِهِ، قُلْنَا: لَا يُقْبَلُ هَذَا الْوَضُوءُ، لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرِيعَةِ فِي الْكَيْفِيَّةِ، وَلَوْ سَجَدَ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الرُّكُوعِ، لَمْ تَصَحَّ الصَّلَاةُ، لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرْعِ فِي الْكَيْفِيَّةِ.

الزَّمَانُ: لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ ضَحَّى -أَيَ ذَبَحَ أَضْحِيَّتَهُ- يَوْمَ عَرَفَةَ قَبْلَ يَوْمِ الْعِيدِ، لَكَانَتِ الْأُضْحِيَّةُ غَيْرَ مَقْبُولَةٍ، لِأَنَّهُ مُخَالَفٌ لِلشَّرِيعَةِ فِي الزَّمَانِ.

الْمَكَانُ: لَوْ أَنَّ الْإِنْسَانَ اعْتَكَفَ فِي بَيْتِهِ فِي الْأَيَّامِ الْعَشْرِ الْآخِرَةِ مِنْ رَمَضَانَ، قُلْنَا: هَذَا الْاعْتِكَافُ لَا يَصِحُّ، لِمُخَالَفَتِهِ لِلشَّرِيعَةِ فِي الْمَكَانِ؛ لِأَنَّ الْاعْتِكَافَ

لا يَصِحُّ إِلَّا فِي مَسْجِدٍ تُقَامُ فِيهِ الْجَمَاعَةُ فِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْأَرْضِ، كُلُّ الْمَسَاجِدِ فِي الْأَرْضِ يَصِحُّ فِيهَا الْعَتَكَافُ.

وأما ما يُروى عن النَّبِيِّ ﷺ من أنه لا اعتكافَ إِلَّا فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ^(١)، فَإِنَّا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَبَيَّنَّا أَنَّهُ إِنْ سَلِمَ مِنَ الْقَوَادِحِ فَالْمَرَادُ بِالنَّفْيِ هُنَا نَفْيُ الْكَمَالِ، وَبَيَّنَّا أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَرَادُ، لِأَنَّ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَتَكَافَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِدِ، وَأَنَّهُ يُخَاطَبُ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ، لِأَنَّ الْمُخَاطَبَ بِالْعَتَكَافِ هُمُ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِالصِّيَامِ، وَالنَّاسُ الَّذِينَ يَصُومُونَ هُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَالْتَنَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾، الْمُخَاطَبُ بِهِ هَذِهِ الْجُمْلَةُ جَمِيعُ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الدُّنْيَا ﴿فَالْتَنَ بَشَرُوهُنَّ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، فَأَبَاحَ اللَّهُ مُبَاشَرَةَ النِّسَاءِ لَيْلًا لِمَنْ صَامَ، ثُمَّ نَهَى عَنْ مُبَاشَرَتِهِنَّ مُطْلَقًا لِمَنْ اعْتَكَفَ، فَالْخِطَابُ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُجْزَأَ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُجْعَلَ الْقُرْآنُ عِضِينَ، بَلِ الْقُرْآنُ أُسْلُوبُهُ وَاحِدٌ، وَخِطَابُهُ وَاحِدٌ، فَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ هُوَ الْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَالْتَنَ بَشَرُوهُنَّ﴾.

وَعَامَّةُ الْأُمَّةِ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَصْحَابُ الْمَذَاهِبِ الْمَتَّبِعَةِ عَلَى أَنَّ الْعَتَكَافَ يَصِحُّ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ؛ فِي الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ وَغَيْرِهَا، وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إِنْ صَحَّ

(١) أخرجه البيهقي (٤/ ٥١٩، رقم ٨٥٧٤).

وَسَلِمَ مِنَ الْقَوَادِحِ، فَإِنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْيِ هُنَا نَفْيُ الْكَمَالِ وَلَا بُدَّ، وَلَا يَجُوزُ سِوَى هَذَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمَرْوِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

إِذْنُ الْعِبَادَةِ لَا تَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا وَافَقَتِ الشَّرْعَ فِي سَبَبِهَا وَجِنْسِهَا وَقَدَرِهَا وَكَيْفِيَّتِهَا وَزَمَانِهَا وَمَكَانِهَا.

لَوْ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ نَجْشًا حَمِدَ اللَّهَ نَقُولُ: هَذَا غَيْرُ مَشْرُوعٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الشَّرْعِ أَوْ فِي السُّنَّةِ أَنَّ الْجُشَاءَ سَبَبٌ لِلْحَمْدِ.

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَ عَطَسَ حَمِدَ اللَّهَ قُلْنَا: هَذَا صَحِيحٌ، لِأَنَّ الشَّرْعَ قَدْ جَرَى بِهِ، فَالْعُطَاسُ سَبَبٌ لِلْحَمْدِ.

وَلَوْ عَطَسَ وَهُوَ يُصَلِّي فَإِنَّهُ يُحَمِّدُ اللَّهَ، وَلَكِنْ لَا يُظْهَرُ صَوْتًا، وَقَدْ وَرَدَ دَلِيلٌ، وَهُوَ حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ يُصَلِّي فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ: يَرْحُمُكَ اللَّهُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَرَمَانِي النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ يَعْنِي يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: وَائْكُلْ أُمِّيَاءَ، تَكَلِّمِ الثَّانِيَةَ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ عَلَى أَفْخَادِهِمْ يُسَكِّتُونَنِي، لَكِنِّي سَكَتُ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ دَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ مُعَاوِيَةُ: فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَوَاللَّهِ، مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(١).

وَجَهُّ الدَّلَالَةِ مِنَ الْحَدِيثِ: أَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي عَطَسَ حَمِدَ اللَّهَ وَلَمْ يُنْكَرْ عَلَيْهِ، وَلَدِينَا قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ مُهِمَّةٌ، وَهِيَ: أَنَّ كُلَّ مَا فُعِلَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، رقم (٥٣٧).

فهو حُجَّةٌ، سواءً عَلِمْنَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلِمَ به أم لم نَعْلَمْ، لأننا إذا عَلِمْنَا أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلِمَ به وأَقَرَّهُ، كَانَ ثَابِتًا فِي السُّنَّةِ الْإِقْرَارِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ نَعْلَمْ أَنَّهُ عَلِمَ به وأَقَرَّهُ كَانَ ثَابِتًا فِي إِقْرَارِ اللَّهِ لَهُ، وَبِهَذَا اسْتَدَلَّ الصَّحَابَةُ عَلَى جَوَازِ الْعَزْلِ بِإِقْرَارِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَيْهِ، وَالْعَزْلُ هُوَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا جَامَعَ زَوْجَتَهُ أَنْزَلَ خَارِجَ الْمَكَانِ، لِثَلَا تَحْمِلَ، فَكَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَلَمْ يُنْكِرِ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِذَا لَمْ يَرْضَ شَيْئًا أَنْكَرَهُ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ النَّاسُ.

أَلَمْ تَرَوْا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مَا يُبَيِّتُونَهُ مِمَّا لَا يَرْضَاهُ مِنَ الْقَوْلِ، مَعَ أَنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ بِذَلِكَ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَمْ يُنْكِرْهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا وَقَعَ فِي وَقْتِ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِي حَيَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ يُعْتَبَرُ حُجَّةً.

وَهَذَا يَنْفَعُ طَالِبَ الْعِلْمِ عِنْدَ الْمَنَاطِرَةِ، لَوْ اسْتَدَلَّتْ عَلَى أَحَدٍ بِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ وَقَعَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ، فَقَالَ لَكَ: هَاتِ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ عَلِمَ به وأَقَرَّهُ. تَقُولُ: إِنْ لَمْ يُقَرِّهِ الرَّسُولُ فَقَدْ أَقَرَّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلَوْ كَانَ مِمَّا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ لَأَنْكَرَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نَحْنُ نَتَكَلَّمُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فَلَا أَحَدَ أَحْسَنَ قَوْلًا مِنْ هَذَا الَّذِي دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَأَعْلَنَ إِسْلَامَهُ عَلَى الْمَلَأَ وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ إِذَا ذَكَرَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، فَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَأْخُذَ بِهَا، فَلَيْسَتْ قِصَّةٌ تُقَالُ فَقَطْ، بَلْ هَذَا مِمَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ نَأْخُذَ بِهِ حَتَّى نَتَّصِفَ بِهَذَا الْوَصْفِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلًا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ * فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَخْبِرُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَنِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ، وَالْوَصْفُ الثَّانِي: الْاسْتِقَامَةُ، وَهَذَانِ الْوَصْفَانِ هُمَا اللَّذَانِ أَجَابَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. يَعْنِي قَوْلًا حَاسِمًا، قَالَ: «قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقَمْتُ»^(١).

وَهَذَا الْجَوَابُ مُطَابِقٌ تَمَامًا لِلآيَةِ، قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ جَامِعِ أَوْصَافِ الْإِسْلَامِ، رَقْمُ (٣٨).

والإيمان بالله يتضمن أربعة أشياء:

الأمر الأول: الإيمان بوجود الله عزَّ وجلَّ وأنه جلَّ وعلا هو المدبر لكل الكون، فتؤمن بأن الله موجودٌ، ولا يُعلم أن أحداً أنكر وجود الله عزَّ وجلَّ، حتى فرعون الذي قصَّ الله علينا من نبيه ما قصَّ في آيات كثيرة؛ لم ينكر الله عزَّ وجلَّ، لقد قال له موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأُظُنُّكَ يَافِرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، قال له هذا القول ولم يستطع أن يردَّه، قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني ما جاء به موسى ﷺ من الآيات البينات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأُظُنُّكَ يَافِرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾، ولو كان فرعون منكراً لذلك لقال: لم أعلم هذا الأمر.

الأمر الثاني: يتضمن الإيمان بالله: الإيمان بربوبيته، وأنه ربُّ كل شيء ومليك كل شيء، وخالق كل شيء، والمصرف لجميع الأمور، لا يُشركه في ذلك أحدٌ، ولا يعينه في ذلك أحدٌ، بل هو سبحانه المنفرد بذلك.

الأمر الثالث: الإيمان بالوحيته؛ أن تؤمن بأن الله وحده هو الإله الحق، وأن كلَّ إليه سواه فباطل، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَّ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

الأمر الرابع: أن تؤمن بجميع أسمائه وصفاته على ما جاءت في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تمثيل.

وهذا الأمر الرابع هو الذي ضلَّ فيه مَنْ ضلَّ من أهل القبلة من هذه الأمة، فلم يهتدوا فيه إلى الصواب، ولكن الله هدى فيه إلى الصواب أهل السنة والجماعة،

الَّذِينَ أَخَذُوا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ واجتمعوا عليها، فآمنوا بكلِّ اسمِ سَمَّى اللهُ بِهِ نَفْسَهُ، وآمنوا بكلِّ صِفَةٍ وصفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَرِّفُوهَا عَنْ ظَاهِرِهَا، وَمَنْ غَيْرِ أَنْ يُمَثِّلُوهَا بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

وأسماءُ اللهِ تعالى كلها حسنى، و(حسنى) اسمٌ تفضيلٌ للمؤنث، ومذكرها (أحسن)، ووُصِفَتْ بهذا الوصفِ لأنها بالغةُ أكملِ الكمالاتِ في دلالاتِها، وفيما تضمنتهُ من المعاني، ولهذا لا تجدُ في أسماءِ اللهِ اسمًا غيرَ مشتقٍّ، بل كلُّ أسماءِ اللهِ مشتقةٌ من المعاني التي تدلُّ عليها، حتى اسمُ الجلالةِ مشتقٌّ من الألوهية، وليس اسمًا جامدًا كما ادَّعاهُ بعضُهم؛ لأننا لو جعلناه اسمًا جامدًا لم يكن من الأسماءِ الحسنَى، فكلُّ أسماءِ اللهِ دالةٌ على معانٍ، فالخالقُ دالٌّ على الخلق، والرزاقُ دالٌّ على الرزق، والعليمُ دالٌّ على العلم، والحكيمُ دالٌّ على الحكمةِ وعلى الحكمِ أيضًا، وهلمَّ جَرًّا.

وَمَنْ ثَمَّ نَعْلَمُ أَنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ جَامِدٌ لَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى، فَأَمَّا قَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»^(١) فَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَسْمَى بِهَذَا الْاسْمِ، لَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَا مَالِكُ الدَّهْرِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» وَلِأَنَّ الَّذِي يَسُبُّ الدَّهْرَ لَيْسَ يَسُبُّ اللَّهَ، وَإِنَّمَا يَسُبُّ الزَّمَانَ وَالْوَقْتَ، فَتَجَدُّهُ يَقُولُ: هَذَا يَوْمٌ شَرٌّ، هَذَا عَامٌ شَرٌّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ السَّبِّ لِلْأَزْمَانِ، وَخَالِقُ الْأَزْمَانِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ».

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، رقم (٤٨٢٦)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

فالدَّهْرُ ليسَ من أسماءِ الله، ووجهُ ذلكَ أنه لا يدخلُ في أسماءِ اللهِ الحسنى، ولأنَّ الذينَ يسبونَ الدَّهْرَ لا يُوجهونَ السبَّ إلى الله، وإنما يوجهونَ السبَّ إلى الدَّهْرِ. إذنُ فالإيمانُ باللهِ يتضمنُ الإيمانَ بألوهيته؛ أنه اللهُ المعبودُ حقًّا، وما عداهُ فعبادته باطلةٌ، وهذا يتضمنُ الإيمانَ بكلِّ ما أخبرَ اللهُ به؛ أخبرنا اللهُ تعالى بأنَّ له ملائكةً؛ فالإيمانُ بالملائكةِ من الإيمانِ باللهِ؛ لأننا لم نعلمْ أن هنالكَ ملائكةً إلا بإخبارِ اللهِ، فنحنُ لا نعلمُ ملائكةً إلا بإخبارِ اللهِ.

ويدخلُ في ذلكَ أيضًا الإيمانُ بالكتبِ؛ لأنها التي أنزلها اللهُ تعالى على الرُّسلِ. ويدخلُ في ذلكَ الإيمانُ بالرُّسلِ؛ لأنهم من عندِ اللهِ.

وعلى هذا فإذا أُطلقَ الإيمانُ باللهِ شَمَلَ جميعَ أركانِ الإيمانِ الستة، وهي الإيمانُ باللهِ، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليومِ الآخرِ، والقدرِ خيرِه وشرِه.

قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ استقاموا على شريعةِ اللهِ عَزَّجَلَّ ولم يُقصروا عنها، ولم يَزِدُوا عليها، بل كانت عبادتهم لله على وَفْقِ ما شرعها اللهُ، لا يزدون ولا ينقصون، ولا يُشرعون في دينِ اللهِ ما لم يشرعهُ اللهُ، يقولون: سمعنا وأطعنا، ولا يقولون: سمعنا وعصينا، إنما يستقيمون على شريعةِ اللهِ، ولهذا يُذمُّ المتطرفان: المقصرُ والغالي، يعني الزائد، فكلُّ منهما مخطئٌ، لكن الغالي أشدُّ إثماً من المقصر؛ لأن الغالي زاد في دينِ اللهِ ما ليسَ منه، والمقصر نقصَ عما يجبُ عليه العملُ به، وبقي الدينُ ليسَ فيه زيادةٌ ولا نقصٌ.

فالغالونَ المتشددونَ في الدينِ، المتنطعون فيه، المتعمقون فيه، هؤلاء أشدُّ من المقصرين، اللَّهُمَّ إلا أن يكونَ التقصيرُ مؤدياً إلى الكفرِ، أو ما أشبه ذلكَ.

ولهذا لما واصل الصَّحَابَةُ في الصوم - ومعنى الوصال أن يقرنوا بين يومين أو أكثر بدون أكلٍ وشربٍ بينهما - نهاهم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الوصالِ رحمةً بهم، وكراهةً للتنطع والتعمق في دين الله، لكنَّهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لحرصهم على الخير تأولوا وقالوا: إنما نهانا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رحمةً بنا ونحنُ بنا قوةً على الوصالِ، فواصلوا، فواصل بهم النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وواصل بهم، حتى رؤية هلالِ شوالٍ، وقال: «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُكُمْ»، كَالْمُنْكَلِ لَهُمْ^(١)، حيثُ تعمَّقُوا، وقال: «لَوْ مُدَّ بِيَ الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ»^(٢).

ولذلك يقال: دينُ الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فعليك - يا أخي - بالاعتدال في دين الله.

إِذِنْ اسْتَقَامُوا عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ١٨-٢٠]. إِذِنْ الِاسْتِقَامَةُ تَكُونُ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ.

ومأل هؤلاء القوم البررة الكرام الطيبين الذين قالوا: آمنا بالله ثم استقموا: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني عند الموت ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، بل إن

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، رقم (١٩٦٥)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو، رقم (٧٢٤١)، ومسلم: كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، رقم (١١٠٤).

الآية أعمُّ من ذلك؛ تنزلُ عليهم الملائكةُ في كلِّ الشدائدِ ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ في مستقبلِكُمْ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ في ماضيكم ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ بشرى سارةٌ عظيمةٌ يبشرونَ بها عندَ الموتِ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، فالَّذِينَ قَالُوا: رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا أوليائُهُم في الدُّنْيَا همُ الملائكةُ، يُسَدِّدُونَهُمْ ويدخلونَ عليهم السرورَ والنشاطَ في العملِ الصَّالحِ، والذبُّ عنِ العملِ السيئِ؛ لأنهم أولياءُ الله.

قوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ وفي الآخرةِ أيضًا الملائكةُ أوليائُهُم، يدخلونَ عليهم من كلِّ بابٍ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي في الآخرةِ ﴿مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ من كلِّ ملاذٍ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تطلبونَ ﴿نُزُلًا﴾ أي ضيافةٍ ﴿مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ وهو الله عزَّ وجلَّ.



الدَّرس الرَّابِعُ:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأُصَلِّي وأُسلِّمُ على نبيِّنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وأصحابه،
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال الله عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ
أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا
مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ تَزُولُ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا﴾ هذا هو الإيمان والتَّوْحِيدُ والإِخْلَاصُ لله عزَّوجلَّ،
فَلَا رَبَّ إِلَّا اللَّهُ عزَّوجلَّ، هُوَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، هُوَ
الَّذِي يُدَبِّرُ الْكَائِنَاتِ كَمَا يَشَاءُ، عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ وَعَدْلُهُ.

﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ استقاموا على دين الله، واستقاموا على شريعته عزَّوجلَّ،
لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهَا، وَلَا يَنْقُصُونَ عَنْهَا، وَلَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينِ اللَّهِ عزَّوجلَّ مَا لَيْسَ مِنْهُ.
والاستقامة هي الاعتدالُ والمشيُّ على الصِّراطِ الْمُسْتَقِيمِ، وهذه الكلمة أعني
﴿اسْتَقَمُوا﴾ هي الكلمة الصَّحِيحَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ
فِي سُنَّتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:
﴿فَاقْمْ وْجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم، ٣٠]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ رَجُلٌ قَالَ: قُلْ
لِي قَوْلًا فِي الْإِسْلَامِ لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ؟ قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»^(١)،
هذه الكلمة (استقم) هي الكلمة الصَّحِيحَةُ.

(١) أخرجه أحمد (١٤١/٢٤) رقم (١٥٤١٦).

وَأَمَّا مَا نَسْمَعُهُ الْيَوْمَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَيْثُ أَبْدَلَهَا بِقَوْلِهِ: (التَّزَمَ) فهذا ليس بقوي؛ لأنَّ الاستقامة هي الاعتدال، والالتزام هو الذلُّ والخضوع، ولا شكَّ أنَّ الذلَّ والخضوع لله عزَّ وجلَّ استقامة، لكن لا تدلُّ على ما يدلُّ عليه الاستقامة.

يُحْكِي لَنَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الْيَوْمَ يَقُولُ: فَلَانٌ مُلتزمٌ، نَعَمْ الالتزام؛ لكن لا تقلْ هَكَذَا، قلْ: فَلَانٌ مُستقيمٌ، كما جاء ذلك في كتابِ الله، وسنةِ رسوله ﷺ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ اللَّهُمَّ اجعلنا منهم، ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يَعْنِي شَيْئًا فَشَيْئًا، كُلَّمَا احْتَاجُوا إِلَى دَعْمٍ وَمُسَاعَدَةٍ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ فَأَيَّدَتْهُمْ، قَالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، وَتَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ فِي أَضْيَقِ حَالٍ، عِنْدَ حُضُورِ الْأَجَلِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ، مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ يَقْبِضُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَيَصْعَدُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ، يَقُولُونَ لَهُمْ أَيُّ الْمَلَائِكَةِ: لَا تَخَافُوا، وَلَا تَحْزَنُوا، لَا تَخَافُوا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنَّكُمْ مِنْهُ آمِنُونَ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا مَضَى، فَإِنَّكُمْ قَدْ شَغَلْتُمُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: تَوَلَّيْنَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، فِي الْحَيَاةِ تُسَدِّدُهُمْ، وَتَدْلُهُمْ عَلَى الْخَيْرِ، وَتَحْسِبُهُمْ عَلَيْهِ، وَتُبَيِّنُ لَهُمُ الشَّرَّ، وَتُحَذِّرُهُمْ مِنْهُ، وَفِي الْآخِرَةِ عِنْدَ نُزُولِ الْمَلِكِ لِقَبْضِ رُوحِ الْإِنْسَانِ تُؤَيِّدُهُمْ، وَتُنَاصِرُهُمْ، وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْخَيْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (٢١) ﴿لَكُمْ فِيهَا أَي: فِي الْآخِرَةِ، ﴿مَا نَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ﴾ مِنْ كُلِّ

شيء؛ حتى إنَّ الإنسانَ ليطلُبُ الشَّيْءَ ويُعطى أكثرَ ممَّا طلبَ، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: ما تطلبون، ﴿تُزَلَّأَنَّ مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ يعني أنَّها غياث من العزيز الرَّحِيمِ عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من أحسن: يعني لا أحدَ أحسنُ قولًا مِن دَعَا إِلَى اللَّهِ، إِلَى دينِهِ وَشَرِيعَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: عملَ عَمَلًا صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ مَا اشْتَمَلَ عَلَى شَيْئَيْنِ: الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ، وَالْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَنْ لَمْ يَخْلُصْ فَعَمَلُهُ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَهُ»^(١)، وَمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ لَكِنْ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةِ اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ مِنْهُ أَيْضًا؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(٢)، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافَقَةً لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا إِذَا وَافَقَتِ الشَّرِيعَةُ فِي أُمُورٍ سِتًّا:

الأول: السَّبَبُ.

الثاني: الجَنَسُ.

الثالث: القَدَرُ.

الرَّابِعُ: أَهْلِيَّةُ.

الخامس: الزَّمَانُ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٥٣٠٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (٣٢٤٩).

السَّادُسُ: المكانُ.

فإذا اختلَّ واحدٌ من هذه الأمور الست لم تكن العبادة للشرعية، فمثلاً: لو أن إنساناً أخلص لله، وضَحَّى بفرسٍ -وهي واحدة الخيل- لم يُقبل منه؛ لأنَّ ذلك جنسٌ لا يصحُّ في الأضحية، بينما لو ضَحَّى ببقرة أجزأ؛ لأنَّها من الجنسِ.

كذلك لو أن إنساناً ضَحَّى ببقرة؛ لكن في غير زمن الأضحية لم تقبل منه، فلو ضَحَّى ببقرة قبل صلاة عيد الأضحى لم تقبل منه؛ لأنَّها في غير وقتها، ولو أن رجلاً اعتكف في العشرة الأخيرة من رمضان في بيته دون المسجد لم يقبل؛ وذلك لأنَّه خالف الشريعة في المكان، ولو أن رجلاً توضَّأ مُنكسًا، أي: بدأ بالوضوء بيديه، أي: بغسل يديه إلى المرفقين، ثمَّ غَسَلَ الوجه؛ لم يقبل؛ لأنَّه على غير الهيئة المشروعة، فلا بدَّ في العمل أن يكون موافقاً للشرعية في هيئتها.

ولو أن رجلاً صَلَّى الظهرَ خمسَ ركعاتٍ فإنَّه لا يقبل منه، إلا أن يكون ناسياً، فتصحَّ الصَّلَاةُ، ويجبرها سجودُ السَّهْوِ؛ لكن عمداً لا تقبل؛ لأنَّه زاد في الصَّلَاة على العدد.

فاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا الْإِخْوَةُ وَاغْمَلُوا صَالِحًا، واستَعِدُّوا لِمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ حَيَاتِكُمْ، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُلَاحَظَ، وَأَمَّا مَا مَضَى فَأَمْرُهُ سَهْلٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي مَضَى إِنْ كَانَ وَاجِبًا قَامَ بِهِ الْإِنْسَانُ وَتَابَ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مُحَرَّمًا اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ مِنْهُ، وَأَدُّوا مَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْمَخَالَفَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا

أَسَاءَ إِلَيْكَ وَقَابَلْتَهُ بِالْإِحْسَانِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُقَلِّبُ حَالَ هَذِهِ الْإِسَاءَةِ إِلَى حَسَنَةٍ؛
لَأَنَّ الْقُلُوبَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَهَذَا شَيْءٌ مُجْرِبٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا
قَابَلَ الْإِسَاءَةَ بِالْإِحْسَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ هَذِهِ الْإِسَاءَةَ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً.

وَلَقَدْ أَتَى رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ لَهُ أَنَّ لَهُ
قَرَابَةً يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسَيِّئُونَ إِلَيْهِ، وَيَصْلُهُمْ فَيَقْطَعُونَهُ، وَيَحْنُ عَلَيْهِمْ فَيَجْهَلُونَ عَلَيْهِ،
فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا قُلْتَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
سَوْفَ يَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيَكُونُ عَوْنًا لَكَ»، وَكَذَلِكَ أَيْضًا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، إِنَّمَا الْوَاصِلُ هُوَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمَةُ
وَصَلُّهَا»^(١)، يَعْنِي الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَصِلُهُ أَقَارِبُهُ إِلَّا إِذَا وَصَلُوهُ لَيْسَ بِوَاصِلٍ فِي
الْحَقِيقَةِ؛ بَلْ هَذَا مُكَافِيٌّ، وَأَيُّ إِنْسَانٍ يُحْسِنُ إِلَيْكَ وَتَرُدُّ عَلَيْهِ فَهَذِهِ مُكَافَأَةٌ، وَلَيْسَتْ
صَلَةً، فَعَلَيْكُمْ بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ.

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَضَمَّنَ لِلرَّحِمِ أَنْ يَصِلَ مَنْ وَصَلَهَا، وَيَقْطَعَ مَنْ قَطَعَهَا،
وَهَذَا ضِمَانٌ مَكْفُولٌ بِلا شَكٍّ، وَهُوَ شَيْءٌ مُجْرِبٌ، فَإِنَّا نَجِدُ مِنَ النَّاسِ الْآنَ مَنْ
يَمْنُنُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِصَلَةِ الرَّحِمِ فَيَصِلُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَإِنْ كَانَ فِي الْعِبَادَاتِ الْأُخْرَى قُوًيًا
لَكِنْ يَصِلُهُ اللَّهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يَعْنِي كَأَنَّهُ قَرِيبٌ وَلِيٌّ صَدِيقٌ.

وَلَا عَجَبَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقَلِّبُ الْقُلُوبَ كَيْفَ يَشَاءُ، فَمَا مِنْ
قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقْلِبُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَعَلَيْكَ بِصَلَةِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافي، رقم (٥٥٥٩).

الرَّحِمِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِّجَارَتِهَا شَيْئًا وَلَوْ بِفَرَسَيْنِ»^(١) شَاةٍ»^(٢).

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ * يَعْنِي مَا يُوقِفُ لَهَا وَيُدْفَع بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا، ﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ * أَيُّ: يُوَفِّقُ لَهَا ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ * أَيُّ: نَصِيبٌ عَظِيمٌ.

واعلم - أخِي المسلم - أَنَّكَ كُلَّمَا كُنْتَ وَصُولًا لِرَحْمِكَ كَانَ اللَّهُ مَعَكَ، وَيَسَّرَ لَكَ الْأَمْرَ وَسَهَّلَهُ عَلَيْكَ؛ حَتَّى مَا تَنْفَقُهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ يُخْلِفُهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَيَكُونُ عَوْنًا لَكَ عَلَى أَقَارِبِكَ.

وَقَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ * يَعْنِي أَنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا تَسَلَّطَ عَلَيْكَ، وَأَدْخَلَ عَلَيْكَ الْوَسَاوِسَ وَالشُّكُوكَ وَالْارْتِيَابَ؛ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَعْنِي الْأَخِيرَةَ ابْتِلَاءَ الشَّيْطَانِ لِبَنِي آدَمَ، وَكَوْنُهُ يُوسُوسُ لَهُمْ فِي الطَّهَّارَةِ وَفِي الصَّلَاةِ وَفِي الطَّلَاقِ وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى إِنَّهُ لِيُوسُوسُ لَهُ فِي أُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ دَوَائِهَا بَيْنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَسْتَنْتِهِ»^(٣).

واعلم أَنَّ الشَّيْطَانَ لَنْ يَتَسَلَّطَ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا لِكِمَالِ إِيْمَانِهِمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المكاتب، باب إذا قال المكاتب اشتري وأعتقني، رقم (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، رقم (١٧١٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المكاتب، باب إذا قال المكاتب اشتري وأعتقني، رقم (٢٣٩٠)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، رقم (١٧١٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٠٥٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الوسوسة في الإيمان، رقم (١٩٥).

من أجل أن يفسد عليهم دينهم، وإلا فالرجل الذي ليس بكامل الإيمان لا يهمله الشيطان، لكن الذي كمل إيمانه واستقام دينه هو الذي يغزوه الشيطان بين آونة وأخرى، حتى يلبس عليه دينه، والدواء لمثل هذا بينه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو أن يستعيد الإنسان بالله ولينته، يعني يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولينته: أي: يُعرض عن هذا كله، وليقس نفسه بأنه رجل مسلم مؤمن، جاء إلى الصلاة ليعبد الله، فكيف يعبد ما يسمى فلاناً مثلاً؟! فإذا قاس الإنسان نفسه بهذا تبين له الحق، واستراح، وأعاده الله من الشيطان الرجيم.

أما من ذهب يتابع هذه الوسوس ولم يأل بها جهداً؛ فإنه ربما يضيع ويهلك، ولكن الإنسان إذا استعمل الدواء الذي ذكره النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سلم من الشر، فإذا أحسست بوسواس في وضوئك أو في صلاتك أو في إيمانك أو في أي شيء فقل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأعرض عن هذا كله.

وفي هذا السياق دليل على أن القرآن دواء لما في القلوب، ولما في الأجسام، وأنه مُصلح للمجتمع من كل ناحية، لما ذكر الله عز وجل عداوة بني آدم لبني آدم، وكيف دواؤها، ذكر عداوة الشيطان لبني آدم وكيف يتخلص منه.

نسأل الله عز وجل أن يعيدنا وإياكم من الشيطان الرجيم، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب.



الدُّرْسُ الْخَامِسُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ٣٥ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٣-٣٦]

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذه ثلاثة أوصافٍ بين الله فيها أنه لا أحد أحسن قولاً من هذا الوصف الأول: ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى سبيل الله، وشرعية الله، ودين الله؛ لأن التمسك بشريعة الله ودينه يُوصل إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالدَّعوة إلى ذلك دعوة إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وفي قوله: ﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ إشارة إلى الإخلاص، وأن الإنسان يجب أن تكون دعوته إلى الله فقط، لا إلى نفسه؛ لأن بعض الدعاة يدعوا إلى نفسه في الواقع ليبين أنه صاحب قولٍ فصيح، وبيانٍ بليغ، أو من أجل أن يصرف وجوه الناس إليه، نسأل الله السلامة والعافية.

لكن الدَّاعية حقيقةً هو الذي يدعو إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا كان يدعو إلى الله فلا بد أن يسلك الأساليب التي يكون فيها ترغيب الناس وترهيبهم، فلا يقتصر

على الترغيب فقط، ولا يقتصر على الترهيب، وإنما يكون مرةً هذا ومرةً هذا، كما هي طريقة القرآن الكريم، فإذا ذكر الله سبحانه وتعالى أوصاف أهل النار ذكر أوصاف أهل الجنة، وإذا ذكر نعيم الجنة ذكر عذاب النار؛ حتى يكون الإنسان سائرًا إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء؛ وذلك أن الإنسان إذا غلبه جانب الخوف استولى عليه اليأس من رحمة الله، وإذا غلب عليه جانب الرجاء استولى عليه الأمن من مكر الله، وإذا كان سير بين الخوف والرجاء فذلك هو السير القويم المستقيم.

ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا، فأيهما غلب صاحبه هلك»^(١).

قال تعالى: ﴿مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ والداعي إلى الله لا بد أن يكون عالمًا بشريعة الله، وهذا ركن أساسي في الدعوة إلى الله؛ أن يكون الداعي عالمًا بشريعة الله؛ لأنه إن كان جاهلًا فإلى أي شيء يدعو! وإن كان عالمًا فحينئذ يكون داعيًا إلى الله على بصيرة.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هذا عمله بنفسه، أي يعمل عملاً صالحًا يقربه إلى الله تبارك وتعالى، فما هو العمل الصالح؟

قال العلماء: العمل الصالح ما جمع شرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله.

والثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فالعمل الذي فيه شرك ليس بصالح، والعمل المبتدع ليس بصالح، فلا بد أن

يكونَ جامعًا بينَ أمرين؛ فيجبُ الإخلاصُ لله والمتابعةُ لرسولِ الله، فمنَ أشركَ مع الله أحدًا فعملُهُ مردودٌ؛ لقولِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديثِ القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرْكُهُ»^(١)؛ لأن الله غنيٌّ عن العالمين، فإذا عملَ الإنسانُ عملًا من العباداتِ وأشركَ فيه معَ الله أحدًا، فإن الله لا يقبلُهُ منه.

مثال ذلك: رجلٌ قامَ يصليّ أمامَ الناسِ من أجلِ أن يقولَ الناسُ: إن فلانا صاحبُ صلاةٍ، فهذا مشركٌ شركًا أصغرَ وليسَ أكبرَ؛ لأنه مُراءٍ، وهذه الصلاةُ لا تُقبلُ منه؛ لأنه أشركَ فيها معَ الله غيره.

مثال آخر: رجلٌ تصدقَ بصدقةٍ أمامَ الناسِ من أجلِ أن يقولَ الناسُ: إن فلانا كريمٌ، فصدقته هذه غيرُ مقبولةٍ وباطلةٍ؛ لأنه أشركَ فيها معَ الله غيره، أما لو تصدقَ أمامَ الناسِ من أجلِ أن يتأسى الناسُ به، فهذا محمودٌ، وهذا داخلٌ في قولِ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ»^(٢). ولهذا امتدَحَ اللهُ المنفقينَ سرًّا وعلانيةً حسبَ نياتِهِم.

ومن ابتدعَ في دينِ الله ما ليسَ منه فعملُهُ مردودٌ؛ لقولِ النبيّ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣). أي مردودٌ، حتى لو لَان قلبُ المبتدعِ لبدعته، واطمأنَّ فيها، وخشعَ فيها، وبكى، فإنها لا تُقبلُ منه؛ لعدمِ المتابعة، فلا بدَّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، رقم (١٠١٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

مِنَ الْمَتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا نقول: إن العمل الذي فيه اتباع أفضل من العمل الذي ليس فيه اتباع، وإن كثر الثاني، ولهذا أمثلة:

مثال ذلك: لو أن إنساناً قال: أريد أن أطيل صلاة سنة الفجر لأتمكن من التسبيح والدعاء، قلنا: لا تفعل، فالسنة هي التخفيف، فالذي يخفف سنة الفجر أفضل من الذي يطيلها.

ورجل آخر مع الإمام في حال سجود، قال: أنا أريد أن أدعو الله في سجودي، ومعى وقت، فالإمام سيقوم ويقرأ وربما يطيل القراءة، فأنا أريد أن أزيد في التسبيح، وفي السجود، وفي الدعاء، وآخر من حين رفع الإمام قام بعده، فأيهما أفضل؟

الثاني أفضل؛ لأن الثاني متبع، والأول قد نقص اتباعه، فالثاني الذي تابع الإمام هو الذي على السنة؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا»^(١).

إذن العمل الصالح ما جمع الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله.

و ضد الإخلاص الشرك، وضد المتابعة الابتداع.

قوله: «وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» يعني هذا الرجل الذي دعا إلى الله وعمل صالحاً قال معلناً: إنني من المسلمين، ولم يبال بلوم لائم، ولا بانتقاد متقيد، بل هو يعلن إسلامه ويجهز به على الملأ.

(١) أخرجه البخاري: أبواب تفسير الصلاة، باب صلاة القاعد، رقم (١١١٣)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب اتهام المأموم بالإمام، رقم (٤١٢).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ هذه الجملة استفهامية، ولكن هذا الاستفهام بمعنى النفي، ومعنى الآية: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله.

واعلم أن الاستفهام إذا جاء في موضع النهي كان أبلغ من النهي المجرد. فالقاعدة: إذا جاء الاستفهام في موضع النفي كان أبلغ من النفي المجرد، فقول القائل: لا أحد أحسن ممن دعا إلى الله، دون قوله: ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله؛ لأن الاستفهام إذا جاء في موضع النهي كان مُشرباً معنى التحدي، كأن المتكلم يقول: ائت لي بأحد يكون أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً.

إذن لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين.

فإذا قال قائل: كيف تكون الدعوة؟

قلنا: القرآن يفسر بعضه بعضاً؛ قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ بماذا؟ ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهذه طرق الدعوة، وهذه أساليب الدعوة؛ أن تكون بالحكمة، وهي وضع الشيء في موضعه، فقد تجد إنساناً على منكر لكن الحال لا تناسب أن تتكلم معه؛ إما لانفعاله، أو لضيق صدره، أو لسبب من الأسباب، فهنا لا بأس أن تؤخر دعوته إلى وقت يكون مناسباً؛ لأن الدعوة في وقت يكون مناسباً أرجى في القبول من الدعوة في وقت غير مناسب؛ لأنك لو دعوت إنساناً في حال غير مناسبة ربما تأخذه العزة بالإثم ويقول: انصرف عني، لا شأن لك بي، لكن إذا كان في الوقت المناسب

في حال طمأنينة؛ فإنه ربما يكون قبوله وإقناعه أقرب إلى المقصود.

كذلك أيضًا من الحكمة أن تُنزل النَّاس منازلهم، فهذه من الحكمة؛ أن تنزل النَّاس منازلهم، فليس من الحكمة أن تدعو شخصًا قد عُرف بالاستكبار والعناد كما تدعو شخصًا ساذجًا يغلب عليه الجهل، ولو بُين له الحقُّ بأدنى وسيلةٍ لقبله، فلا تستوي دعوة هذا وهذا، فالمعاندُ له حالٌ، والإنسانُ السَّاذجُ الَّذي ليس في قلبه شيءٌ ويقبل بكلِّ وسيلةٍ له حالٌ آخرى.

ولهذا نجدُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في إنكارِهِ المنكرَ تختلفُ أساليبه؛ فمرةً ينكرُ بعنفٍ، ومرةً ينكرُ بلينٍ؛ دخلَ أعرابيُّ المسجدَ، والأعرابيُّ هو البدويُّ، والغالبُ على البادية أنهم لا يعرفون كثيرًا من الأحكامِ الشرعية، فتنحى ناحيةً في المسجدِ وجعلَ يبولُ أمامَ النَّاسِ، وفي مسجدِ الرَّسُولِ ﷺ، فصاح النَّاسُ به وجعلوا يزجرونه، فنهاهم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقال: «دَعُوهُ وَلَا تُزْرِمُوهُ» أي لا تقطعوا عليه بوله.

فلما قضى بوله أمرَ النَّبِيِّ ﷺ أن يُراقَ عليه سَجْلٌ من ماءٍ، يعني دَلُوا، ودعا الأعرابيَّ وقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَالصَّلَاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ». أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(١).

فهناك فرقٌ بينَ معاملةِ الصَّحَابَةِ لَهُ ومعاملةِ النَّبِيِّ ﷺ له، فمعاملةُ النَّبِيِّ ﷺ أرفقُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٥)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد، وأن الأرض تطهر بالماء، من غير حاجة إلى حفرها، رقم (٢٨٤، ٢٨٥).

قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: «اللَّهُمَّ ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنأ أحدًا»؛ لأن الصحابة أغلظوا عليه في الإنكار، ومحمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رَفَقَ بِهِ وَعِلْمُهُ بِهِدْوٍ وَسَكِينَةٍ، فرأى هذا الأعرابيُّ لِقَصْرِ نظره أن الرَّحْمَةَ لَا تَسْعُ إِلَّا إِيَّاهُ وَمُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ ﷺ: «لَقَدْ تَحَجَّرْتَ وَاسِعًا»^(١).

أما مفسدة البولِ فقد زالت؛ حيثُ أمر النبي ﷺ أن يُراقَ على بوله سَجْلٌ من ماءٍ أو ذَنُوبٌ من ماءٍ، وانتهت القضية.

وقصةٌ أُخرى: دخل معاوية بنُ الحكمِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ، فَعَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْمُصَلِّينَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، فَقَالَ لَهُ معاوية: يَرْحُمُكَ اللهُ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ سَمِعَ عَاطِسًا عَطَسَ فَحَمَدَ اللهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَرْحُمُكَ اللهُ، فَرَمَاهُ النَّاسُ بِأَبْصَارِهِمْ، يَعْنِي نَظَرُوا إِلَيْهِ نَظَرَ إِنْكَارٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ قَالَ: وَائْكُلْ أُمِّيَاهُ. وَهَذِهِ تَقَالُ عِنْدَ التَّحْسِرِ وَالتَّحْزَنِ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ عَلَى أَفْخَادِهِمْ يُسَكِّتُونَهُ حَتَّى سَكَتَ، إِذْنِ الرَّجُلِ فَعَلَ فَعَلًا يَنَافِي الصَّلَاةَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: يَرْحُمُكَ اللهُ، وَهَذَا خَطَابٌ آدَمِيٌّ، وَقَوْلُهُ: وَائْكُلْ أُمِّيَاهُ. قَالَ معاوية: فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فَبَآبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أَوْ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ^(٢).

فَتَجَدُّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ عَامِلَةً بِاللَّطْفِ

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١/٤٢٣، رقم ١٦٥٨).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٧).

والرفق واللين.

ويستفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة، وهي أن من تكلم في صلاته وهو لا يدري أن الكلام حرام فصلاته صحيحة.

وهذه قاعدة في كل محظورات العبادات، فكل محظورات العبادات إذا فعلها الإنسان جاهلاً فلا شيء عليه، فجميع المحظورات -أي الممنوعات- في العبادات؛ في الصلاة، وفي الصيام وفي الحج، وفي أي عبادة، إذا فعل الإنسان شيئاً محرماً فيها مما يفسدها فإنها لا تفسد، ولا شيء عليه.

ولهذا لم يأمر النبي ﷺ معاوية بن الحكم بإعادة الصلاة.

ويستفاد منه أيضاً فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا عطس في صلاته فليقل: الحمد لله؛ لأن النبي ﷺ لم يقل شيئاً لهذا الرجل الذي حمد الله حين عطس.

فإن قال قائل: أليس الحمد كلاماً؟

قلنا: لأنه ذكر.

فإن قال قائل: رأيتم إن هبت الريح وهو يصلي وعصفت، فهل يقول: «اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»^(١)؟

قلنا: مقتضى هذا الحديث أن يقول ذلك؛ لأنه وجد سبب الذكر.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ تُنْشِئُ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ)، رقم (٣٢٠٦)، ومسلم: كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم، والفرح بالمطر، رقم (٨٩٩).

فلو سمعَ أذانَ الديكِ هل يقولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا سمعَ أذانَ الديكِ يُسَنُّ لَهُ أن يقولَ: أَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ^(١)؟

الجوابُ: نعم.

ولو سمعَ نُبَاحَ الكلابِ، أو نهيقَ الحميرِ، هل يقولُ: أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وهو يُصلي؟

الجوابُ: نعم، هذا مُقتضى الحديثِ.

ولو سمعَ المؤذنَ وهو يُصلي هل يجبُ المؤذنُ؟

الجوابُ: نعم يجبُ؛ لأنَّ كُلَّ ذِكْرٍ وَجَدَ سببُهُ في الصَّلَاةِ فإنه مشروعٌ، وهذا ما ذهبَ إليه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، وقال: إنه لا بأسَ أن يقولَ المصليُّ كُلَّ ذِكْرٍ مشروعٍ وَجَدَ سببُهُ في الصَّلَاةِ^(٢).

ولكن في النَّفْسِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ، وَالنَّفْسُ تَمِيلُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا كَانَ الذِّكْرُ يَسِيرًا لَا يَشْغُلُ عَنِ الصَّلَاةِ سَنَّ أَنْ يَقُولَهُ، وَإِنْ كَانَ طَوِيلًا فَلَا يُسَنُّ، فَمَثَلًا إجابةُ المؤذنِ طَوِيلَةٌ وَلَيْسَتْ قَصِيرَةً، وَأَنْتَ فِي شُغْلٍ «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا»^(٣).

أما كلمةٌ واحدةٌ عِنْدَ الْعَطَاسِ، أَوْ إِذَا وَسَّوسَ لَكَ الشَّيْطَانُ فِي صَلَاتِكَ

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب: خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، رقم (٣٣٠٣)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك، رقم (٢٧٢٩).

(٢) الفروع لابن مفلح (٢/٢٨).

(٣) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصَّلَاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصَّلَاة، رقم (١١٩٩)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصَّلَاة، باب تحريم الكلام في الصَّلَاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٨).

فإنك تنفث عن يسارك وتقول: أعود بالله من الشيطان الرجيم، فهذا شيء يسير لا يضر.

قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ هل معنى الآية: لا تستوي الحسنات بعضها مع بعض، أو السيئات بعضها مع بعض، أو المعنى لا تستوي الحسنات مع السيئة؟

فيها للعلماء قولان: قول أن المعنى: لا تستوي الحسنات مع السيئة، فالحسنة لا شك خير، والسيئة شر، وبعضهم قال: لا تستوي الحسنات في جزئياتها، أي أن الحسنات بعضها أعلى من بعض، والسيئات بعضها أعلى من بعض.

فعلى القول الأول أن المعنى أن الحسنات لا تساوي السيئة تكون (لا) في قوله: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ زائدة للتوكيد، كما هي في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] فإن (لا) هنا زائدة للتوكيد؛ لأن المعنى: غير المغضوب عليهم والضالين.

فإذا قلنا بالقول الأول أن الحسنات لا تساوي السيئة صارت (لا) زائدة للتوكيد، زائدة إعراباً لا معنى؛ لأن لها معنى وهو التوكيد، وإذا قلنا بالثاني: لا تستوي الحسنات بعضها مع بعض، ولا تستوي السيئات بعضها مع بعض، صارت (لا) ليست زائدة؛ لأن الجملة كأنها جملة مستقلة؛ كأن المعنى: ولا تستوي الحسنات ولا تستوي السيئات.

فإذا كانت تحتمل معنيين فهل نحملها على المعنيين، أو نطلب مرجحاً؟
نقول: لدينا قاعدة مهمة في التفسير، والحديث أيضاً: إذا كان النص يحتوي

على معنيين لا مُرَجَّحَ لأحدهما على الآخر، ولا منافاة بينهما وجب أن يحمل على المعنيين جميعًا؛ وذلك لأن المتكلم بذلك هو الله عزَّ وجلَّ، أو رسوله محمدٌ ﷺ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَمُ ما يحتمله هذا اللفظ، فإذا تكلم الله به محتملاً للأمرين، وليس لأحدهما مُرَجَّحٌ، ولا منافاة بينهما، فإنه يجب حمل الآية على المعنيين جميعًا، وكذلك يقال في الحديث.

فهذه قاعدة مفيدة: أنه إذا احتمل النصُّ القرآنيُّ أو النبويُّ معنيين، لا مُرَجَّحَ لأحدهما على الآخر، ولا منافاة بينهما، وجب حمله على المعنيين.

إذن ففي الآية الكريمة أنه لا تستوي الحسنات بعضها مع بعض، ولا تستوي السيئات بعضها مع بعض، ففي الحسنات حسناتٌ واجبةٌ مفروضةٌ، وحسناتٌ تطوع، الخيار فيها للإنسان، مثل راتبة صلاة الظهر؛ إن فعلها الإنسان أثيب، وإلا فلا عقاب عليه، والأحبُّ إلى الله والأفضل هو الصلاة المفروضة؛ ففي الحديث: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»^(١).

والعجب أن كثيرًا من العوامَّ يظنون أن التطوع أفضل من الفريضة، وهذا غلطٌ، فالفريضة أفضل من جنسها من التطوع.

وفي السيئات أيضًا هناك كبائر، وأكبر الكبائر، وصغائر، فالشرك أكبر الكبائر، وعقوق الوالدين أكبر الكبائر بالنسبة لحقوق الآدميين، وشهادة الزور أكبر الكبائر. وفي السيئات صغائر تُمَحَى بفعل الحسنات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ف«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاب، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»^(١).

قوله: ﴿ادْفَعِ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ فيه إشارة إلى أن عدم استواء الحسنات والسيئات يشمل ما كان في حق الله وما كان في حق آدميين.

﴿ادْفَعِ﴾ أي ادفع السيئة ﴿بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وليس ادفع الحسنة بما هو أحسن؛ لأن الحسنة لا يجب دفعها، يعني لا يلزم الإنسان بأن يدفع الحسنات بأحسنها، لكن ادفع السيئة بالتي هي أحسن منها، وهي الحسنة، فإذا أساء إليك شخص فقابل إساءته بالإحسان؛ فإنك إذا فعلت ذلك ملكته تمامًا، فإذا أساء إليك شخص فاعف عنه؛ فإن من عفا وأصلح فأجره على الله، ولكن هل الأفضل العفو مطلقًا، أو العفو بشرط أن يكون إصلاحيًا؟

الجواب: الثاني، فإياك أن تأخذك العاطفة وتعفو عن كل مجرم وعن كل مفسد، بل إذا كان العفو في محله فهو أفضل، وإذا لم يكن في محله فالأخذ بالحزم أفضل، فلو أن رجلًا معروفًا بالعدوان اعتدى عليك فهل الأفضل أن تأخذ بحقك، أو الأفضل أن تعفو عنه؟

الجواب: الأول الأفضل؛ أن تأخذ بحقك؛ حتى ترجع هذا المعتدي عن أن يعتدي على غيرك، أما إذا كان العدوان من شخص لم يُعرف بالعدوان، ومعروف بالاستقامة، ولكن بدرت منه هذه البادرة، فالأفضل أن تعفو عنه، ولكل مقام مقال.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم (٢٣٣).

ولذلك نحن لا نؤيدُ الذين إذا حصلَ حادثٌ على أحدٍ من أقاربهم، وهم أهلُ الحقِّ، أن يعفوا عن صاحبِ الحادثِ، لا نؤيدُ بل نقولُ: يجبُ النظرُ إلى المصلحةِ، فإذا كانَ في العفوِ إصلاحٌ فاعفُ، وإن لم يكنْ في العفوِ إصلاحٌ فلا، فلو أن رجلاً متهوراً يقودُ السيارةَ ولا يبالي دهسَ قريباً لك أنتَ وإرثه، فليسَ من الأفضلِ أن تعفو عنه، والأفضلُ أن تأخذَ بحقِّك كاملاً؛ لأن هذا متهورٌ، وأنتَ إذا عفوتَ عنه الآنَ ذهبَ غداً يدهسُ آخرَ، لكن إذا كانَ الحادثُ وقعَ من شخصٍ معروفٍ بالالتزام، ونعلمُ أنه أكره الناسَ لهذا الحادثِ، ولكن قدرَ اللهُ وما شاء فعلَ، فهذا العفو عنه أفضلُ.

لذلك يجبُ على الإنسانِ أن يُلاحظَ هذه الأمورَ، فقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ هذ مشروطٌ بما إذا كانَ الدفعُ أحسنَ؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ هكذا قالَ الربُّ عَزَّوَجَلَّ وهو أعلمُ بعبادِهِ، وهو الَّذي يقلبُ القلوبَ، وهو الَّذي ما مِن قلبٍ من قلوبِ بني آدمَ إلا وهو بينَ أصبعينِ مِن أصابعِهِ عَزَّوَجَلَّ^(١).

فهذا الرجلُ الَّذي بينك وبينه عداوةٌ إذا دافعتَ سيئته بالتي هي أحسنُ أصبحَ كأنه وليٌّ حميمٌ، أي قريبٌ صديقٌ، وكانَ في الأولِ عدوًّا ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ والقائلُ لهذا هو اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فلا تستبعدِ الأمرَ أن يكونَ هذا العدوُّ غداً صديقاً لك؛ لأن القلوبَ بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، رقم (٢٦٥٤).

بعض الناس يأخذ بالمقاصة ولا يدفع بالتي هي أحسن، ويقول: هذا الذي هجرني والله لأهجرته، هذا الذي أساء إليّ والله لأسيئنّ إليه، هذا الذي قطع الرحم بيني وبينه والله لأقطعنّ الرحم بيني وبينه، وهذا غلط، بل أنظر المصالح، وهذا العدو سيكون صديقاً لك إذا فعلت ما أمرك به الله عزّ وجلّ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ أي لا يوفق لهذه الخصلة -وهي الدفع بالتي هي أحسن- إلا الذين صبروا، أي حبسوا أنفسهم وحملوها على أحسن الأخلاق ﴿وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب عظيم.

ثم قال عزّ وجلّ: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهو شيطان الجن، يعني الشيطان الذي هو إبليس إن نزغك منه نزغ، أي نزغ يكون، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

نزغ الشيطان:

نزغ الشيطان شيئاً:

الشيء الأول: التفريط في الواجب، فإن الشيطان يثبط العزيمة ويهون الأمر ويقول للإنسان: انتظر، أو يقول: هذا شيء سهل لو تركته، فليس عليك إثم، فهذا نزغ من الشيطان.

الشيء الثاني: التهاون بالمحرم، فيقول لك: أقدم على هذا، فهذا شيء سهل، وباب التوبة مفتوح، فيزين لك سوء ويعدك ويؤمنيك، وما يعدك الشيطان إلا غروراً.

إذن ذكر الله عزّ وجلّ دواءً لعدوين: العدو البشري؛ أن تدافع سيئاته بالتي هي

أحسن؛ لأنه بشرٌ مثلك وتستطيع أن تدافعه بعملٍ من عملِكَ أنت، والعدوُّ الشَّيطانيُّ الجنِّيُّ، وتدفعُ عداوته بالاستعاذة بالله؛ لأنك لا تستطيع أن تدافعه بشيءٍ محسوسٍ، فلم يبقَ عليك إلا الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ وهو اللجوءُ إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من سوءٍ وشرٍّ هذا العدوُّ الشَّيطانيُّ.

فإذا نزعَكَ شيءٌ ورأيتَ من نفسك أن شيئاً يأمرُك بمعصية فهذا يُسمى نزغاً من الشَّيْطَانِ، وتداويه بالاستعاذة من الشَّيْطَانِ الرجيم؛ فتقول: أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرجيم، وإذا قلتَ ذلك بصدقٍ فإن الله تعالى يعيدُك منه.

وإذا تشاءَبَ الإنسانُ، والتأوَّبُ معروفٌ، فالسنة أن يكظمَ ذلك؛ يعني ألا يتشاءَبَ، فإن لم يستطع فليضع يده على فيه فقط، وهل يقول: أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرجيم؟

الجواب: لا يقول: أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرجيم؛ لأن النبي ﷺ لما ذكر التأوَّبَ قال: فليكظم ما استطاع فإن لم يستطع فليضع يده على فيه^(١)، ولم يأمرنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن نقول: أعوذُ بالله من الشَّيْطَانِ الرجيم.

فإن قال قائلٌ: أليس قد ثبتَ عن النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن التأوَّبَ من الشَّيْطَانِ؟

قلنا: بلى، لكن النبي ﷺ أخبرنا أنه من الشَّيْطَانِ لأن التأوَّبَ عنوانُ الكسلِ والخمولِ، والإنسانُ ينبغي أن يكونَ نشيطاً دائماً قوياً، ولكنه لم يأمرنا أن نستعيدَ بالله

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، رقم (٣٢٨٩)، ومسلم: كتاب الزهد والرفائق، باب تسميت العاطس، وكراهة التأوَّب، رقم (٢٩٩٤).

مَنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ لِأَن نَزَعَ الشَّيْطَانِ الَّذِي أُمِرْنَا أَنْ نَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ عِنْدَ حَصُولِهِ هَوَ الْأَمْرِ بِالْمَعْصِيَةِ، أَوْ التَّهَافُوتِ فِي الطَّاعَةِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَعِزَّنِي وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْقَائِمِينَ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى مَا يَحِبُّ وَيَرْضَى.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ السَّادِسُ:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٦].

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ الأول: إيمان، والثاني: إسلام.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ هذا إيمان بربوبية الله عزَّ وجلَّ وأنه الربُّ الخالقُ المالكُ المدبِّرُ لجميعِ الأمور.

وكلمة (قالوا) تعني القول باللسان والقول بالقلب، أما القول باللسان فظاهر، أن يقول الإنسان: ربُّنا الله، وأما القول بالقلب فأن يعتقد اعتقادًا جازمًا

لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

إِذْنُ قَالُوا بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ: رَبُّنَا اللَّهُ.

قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: استقاموا على دين الله وشريعته، وذلك بأن يأتوا بالشريعة من غير غُلُوٍّ ولا تَقْصِيرٍ؛ لأنَّ النَّاسَ بِاعْتِبَارِ الاستقامة يَنْقَسِمُونَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الأوَّل: غَالٍ فِي دِينِ اللَّهِ.

والثَّانِي: جَافٍ عَنِ دِينِ اللَّهِ.

والثَّالِث: مُعْتَدِلٌ مُسْتَقِيمٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، لَا غُلُوٌّ وَلَا تَفْرِيطٌ.

أما الأوَّل الغالي في دين الله فإنه واقع فيما نَهَى عنه النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وفيما حَذَّرَ مِنْهُ، حيث قال: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»^(١).

والغُلُوُّ فِي الدِّينِ رَبِّمَا يُوَدِّي إِلَى الْكُفْرِ الصَّرِيحِ؛ لِأَنَّ الْغَالِيَّ فِي الدِّينِ تَجَاوَزَ الْحَدَّ، وَمَنْ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فَهُوَ ظَالِمٌ، قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطَّلَاق: ١].

وقد أَدَّى الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ إِلَى تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَوَامِّهِمْ وَوُلَاتِهِمْ؛ كَمَا جَرَى ذَلِكَ مِنَ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ غَلَوْا فِي دِينِ اللَّهِ، فَكَانُوا يَتَجَاوَزُونَ الْحَدَّ فِيمَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، وَكَفَرُوا الْمُسْلِمِينَ، وَاسْتَبَاحُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، كَمَا جَرَى لِلْخَوَارِجِ فِي زَمَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْخَوَارِجَ كَانُوا مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

(١) أخرجه النسائي: كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، رقم (٣٠٥٧)، وابن ماجه: كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، رقم (٣٠٢٩).

على خصمه، ثم لما رضي علي رضي الله عنه بالتحكيم، الذي هو صلح، كفروا علي ابن أبي طالب، وخرجوا عليه وقاتلوه، ولكن كانت الدائرة - والله الحمد - عليهم، فقتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهناك أناس آخرون على العكس من هؤلاء؛ فرطوا في الدين وتهاونوا فيه، وقالوا: إن الدين هو العقيدة فقط، وأما الأعمال فلا دخل لها في الدين، والإنسان له أن يزني ويسرق ويقتل النفس ويفعل كل شيء ولا يخرج من الإسلام؛ ما دام عنده إيمان بالله عز وجل، واعتراف بأن الله تعالى هو الرب، فإن ذلك كاف.

فالأولون غلوا، وهؤلاء جفوا وفرطوا، وأخرجوا عن شريعة الله ما هو منها، أما الوسط، وهم الذين استقاموا، فهم الذين التزموا بدين الله عز وجل لا غلو ولا تقصير.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم، وأن يعيدنا من نزغات الشيطان، وأن يرزقنا الاستقامة على دين الله حتى نلقاه.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾؛ وخبر (إن) هو قوله: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي: تنزل عليهم الملائكة شيئاً فشيئاً. ويكون هذا التنزل في مواضع الخوف والذعر، تنزل عليهم الملائكة فيوطنونهم، وأحوج ما يكون الإنسان إليه في توطين نفسه عند الموت، فإن أضيّق ما يكون على الإنسان في تلك اللحظة - نسأل الله أن يحسن لنا جميعاً خاتمتنا - في تلك الحال تنزل الملائكة، يقولون: لا تخافوا ولا تحزنوا، أي: لا تخافوا من مستقبل، ولا تحزنوا على ماضي؛ لأن الحزن يكون على الماضي، والخوف يكون من المستقبل.

قوله تعالى: ﴿وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ والبشارة هي الإخبار بما يسر.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني التي وعدكم الله عز وجل، فإن الله تعالى وعد الجنة كل من آمن به واستقام على دينه.

قوله: ﴿مَنْ أُولِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ أما ولاية الملائكة للإنسان في الحياة الدنيا؛ فإن الملائكة تكون معه تُسدده، وتُشجعه على الخير، وتحذره من الشر، حتى يستقيم على دين الله، وأما في الآخرة فإن الملائكة تتلقاهم يوم الحشر وفي الجنة: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴿[الرعد: ٢٣-٢٤].

قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة أو في الآخرة ﴿مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تطلبون ﴿نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: ضيافة من الله عز وجل الذي هو غفور للذنوب، رحيم بالعباد عز وجل.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (من) اسم استفهام، لكن هذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، ولكن يأتي النفي بصيغة الاستفهام لأنه في هذه الحال يكون مُشرباً بالتحدي؛ كأن المتكلم يقول: أرني أحداً أحسن ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً.

فناخذ من هذا قاعدة: أن الاستفهام يأتي بمعنى النفي، وإذا جاء الاستفهام بمعنى النفي كان دالاً على أمرين: الأمر الأول: النفي، والثاني: التحدي.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: مَن اتصفَ بهذين الوصفين:

الأول: الدَّعوة إلى الله.

والثاني: أن يعملَ صالحًا.

الدَّعوة إلى الله:

والدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ هي سبيلُ الرُّسل؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ هي: أن يدعو النَّاسَ إلى دينِ اللهِ بأن يقومَ في مسجدٍ، أو في مجتمعٍ، أو في مجتمع خاصٍّ، فيدعو إلى الله، ويُذَكِّرُ النَّاسَ ويحُثُّهم على الخير، ويحذِّرهم من الشرِّ، ويجمع كلمتهم على الحقِّ.

شروط الدَّاعي إلى الله:

أولاً: أن يكون على علم:

ولا بُدَّ أن يكون الدَّاعي إلى الله عنده علم، فإنَّ دعا إلى الله على غير علمٍ كان إفساده أكثرَ من إصلاحه؛ لأنَّ الدَّاعي إلى الله على غير علمٍ ربما يُحَرِّمُ الحلالَ ويحلِّلُ الحرامَ وهو لا يدري، فلا بُدَّ أن يكون على علمٍ؛ لقوله تَعَالَى: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي: أدعو الله على بصيرةٍ، أي على علمٍ.

ثانياً: أن يكون حكيماً:

ولا بُدَّ أن يكون الدَّاعي حكيماً، فيبدأ بما هو أهمُّ، وبطريق الرِّفق واللين

والبيان والإقناع؛ لما بعث النبي ﷺ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» يَعْنِي مِنَ النَّصَارَى أَوْ مِنَ الْيَهُودِ، «فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ» وَهَذِهِ هِيَ أَصْلُ الْأَصُولِ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ عَمَلٍ أَنْ يُقْبَلَ إِلَّا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»؛ لِأَنَّ أَهْمَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلَاةُ، «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»^(١).

وهذا ترتيب للدعوة، يعني لا تبدأ الناس بالأقل أهمية قبل الأهم، فابدأ بالأهم فالأهم، ثم انظر هل يقبل الناس أو لا، فإذا قبلوا الأهم فانتقل بهم إلى المهم شيئاً فشيئاً؛ لأن النفوس، ولا سيما الذين اعتادوا على شيء، لا يمكن أن تقبل بمجرد دعوة، فلا بُدَّ من ممارسة، ولا بُدَّ من صبر.

إذن لا بُدَّ للداعي أن يكون حكيماً، يعرف كيف يدعو، وكيف يبدأ بالأهم فالأهم، فلو رأيت أناساً يشربون الخمر، ويشربون الدخان، فبأيهما تبدأ في النهي؛ الخمر أم الدخان؟

نقول: الخمر؛ لأن الخمر أشدُّ، فنبدأ في النهي بالأشدِّ، وفي الأمر بالأهم.

ثالثاً: أن يكون عالماً بحال المدعو:

ولا بُدَّ أيضاً في الداعي أن يكون عالماً بأحوال المدعو؛ لأن المدعويين

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

يختلفون، فأحياناً تدعو صاحبَ جدلٍ وخصومةٍ وعنادٍ، فلا بُدَّ أن تستعدَّ له، حتَّى تستطيع أن تُجادِلَه، وتَدَحْضَ حُجَّتَه، وأحياناً تدعو عامِّيًّا، فهذا يكفيهِ أدنى شيءٍ.

وبناءً على ذلك لا بُدَّ أن تستعدَّ عند الدَّعوةِ إلى اللهِ خوفاً من أن يقومَ مُنافِقٌ يُجادِلُكَ بالقرآنِ فتبقى حيرانَ، فلا بُدَّ أن يكونَ لديك علمٌ بحالِ الَّذي تدعوه، حتَّى تكونَ مستعدًّا لها سيُورِده من الشُّبه، ولا تقفَ حيرانَ.

رابعاً: أن يكون على خُلق:

ولا بُدَّ أيضاً للدَّاعيةِ أن يكونَ على خُلقٍ، حيثُ يقتدي به النَّاسُ، ويأخذون بأقواله، ويأخذون بأفعاله. وكثيرٌ من النَّاسِ يتأثَّرُ بخُلقِ الدَّاعيةِ أكثرَ ممَّا يتأثَّرُ بقوله، فتجده يترسَّمُ خطاه؛ ماذا فعل، وماذا ترك، وماذا قال، ويقلِّده تماماً، حتَّى يكونَ كأنه نُسخةٌ منه.

العمل الصَّالح:

قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾، فما هو العمل الصَّالحُ؟

العمل الصَّالح ما جمع بين شرطين:

الأوَّل: الإخلاص لله.

والثَّاني: المتابعةُ لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

أولاً: الإخلاص:

فإنْ فُقدَ الإخلاصُ فالعملُ مردودٌ، وإنْ فُقدتِ المتابعةُ فالعملُ مردودٌ.

والدَّليل: قال الله عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ،

مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكَتُهُ وَشِرْكُهُ»^(١).

وهذا نصٌّ صريحٌ في أن العمل إذا كان فيه شرك فهو مردود لا يقبله الله عزَّ وجلَّ.

مثال ذلك: رجل رأى الناس ينظرون إليه فقام وتصدَّق ليقول الناس: إنَّه رجل كريم، فإنه لا تُقبَل صدقته؛ لفقد الإخلاص.

رجلٌ آخر رأى الناس ينظرون إليه فقام يُصَلِّي، وهو لا يريد الصَّلَاةَ، لكن من أجل أن يقول الناس: هذا رجل متديِّن، فلا تُقبَل صلاته؛ لفقد الإخلاص.

ثانيًا: المتابعة:

أي المتابعة للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا وَأَخْلَصَ فِيهِ لِلَّهِ، لَكِنَّهُ عَلَى غَيْرِ سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنْ عَمَلَهُ لَا يُقْبَلُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وفي لفظٍ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

ولهذا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٣).

وبناءً على ذلك ما نسمع ممَّا يُقال من الأذكار والأوراد البدعية التي هي في حد ذاتها حقيقةٌ صحيحةٌ؛ لكن صيغَت على صفةٍ لم تَرِدْ بها الشريعةُ، مع إخلاص الذين ابتدعوها، فهذه بدعة لا تُقبَل.

(١) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصَّلَاة والخطبة، رقم (٨٦٧).

فبعض الناس له طُرُقَات في الأذكارِ، وفي التسبيحِ، وفي قراءة القرآنِ، وغير ذلك، وهم مُخلصون لله عَزَّوَجَلَّ لكنَّهم اتَّوَّأ بعملٍ يَتَعَبَّدُونَ به لله؛ والله تَعَالَى لم يَشْرَعْهُ، فهو لاءٍ لا يُقْبَل عملُهم؛ لفقد المتابعة، فلم يوافق شريعة الله، وقد قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ».

بقي أن يُقال: هل يُثابون أو يَأْتُمون؟

نقول: في هذا تفصيلٌ؛ فَإِنْ بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ، وَأَصْرُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ، فَهَمُ آتِمُونَ، وَإِلَّا فَإِنَّهُمْ يُثَابُونَ عَلَى أَصْلِ النِّيَّةِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُثَابُونَ عَلَى الْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَالنِّيَّةُ طَيِّبَةٌ، لَكِنْ لَا يَكْفِي الْإِخْلَاصُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنَ الْمَتَابَعَةِ.

مثال: رجلٌ صَلَّى بعد صلاة العصرِ، وطرأَ عليه فقامَ يتطَوَّع للصلاة بعد صلاة العصرِ، فإنه لا تُقْبَل صلاتُهُ؛ لِفَقْدِ المتابعة؛ لأن هذا وقتُ نَهْيٍ مِنْهُيٌّ عَنْهُ، فَكَيْفَ تَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِمَا نَهَى عَنْهُ! فَهَذَا لَا يَصِحُّ إِطْلَاقًا.

إِذْنٌ لَا بُدَّ مِنَ الْإِخْلَاصِ، وَلَا بُدَّ مِنَ الْمَتَابَعَةِ.

ويقول بعضُ النَّاسِ في الابتداعِ في دين الله: إن هذه بدعة حَسَنَةٌ، فنقول: مَنْ قَالَ: إِنَّ فِي الْبِدْعِ بَدْعَةً حَسَنَةً؟! وَأَقْصِدْ بِالِاسْتِفْهَامِ هُنَا الْإِنْكَارَ الشَّدِيدَ، فَلَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يَكُونَ فِي الْبِدْعَةِ حَسَنَةٌ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي الْبِدْعِ شَيْءٌ حَسَنٌ وَأَعْلَمُ الْخَلْقِ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ، وَأَنْصَحُ الْخَلْقَ لِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَفْصَحُ الْخَلْقِ فِيمَا يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَأَشَدُّ النَّاسِ إِرَادَةً لِلْحَقِّ، وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»؟!!

فهل النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَعْرِفُ مَا يَقُولُ! لَا وَاللَّهِ.. وَهَلِ النَّبِيُّ ﷺ يَرِيدُ

أَنْ يُعَمِّيَ عَلَى النَّاسِ وَيُضِلَّهُمْ بِدُونِ حَقٍّ! لَا وَاللَّهِ أَبَدًا.. وَهَلِ النَّبِيُّ ﷺ تَكَلَّمَ بِغَيْرِ عِلْمٍ! لَا.. إِذَنْ قَالَ أَنْصَحُ الْخَلْقَ، وَأَعْلَمُ الْخَلْقَ، وَأَفْصَحُ الْخَلْقَ، وَأَحْسَنُهُمْ إِرَادَةً: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، وَعَلَى هَذَا فَمَنْ قَسَمَ الْبِدْعَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ، أَوْ إِلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ فَإِنَّا نَرُدُّ عَلَيْهِ تَقْسِيمَهُ هَذَا وَلَا نُبَالِي أَيًّا كَانَتْ مَنَزَلَتُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي الْبِدْعَةِ شَيْءٌ حَسَنٌ وَالرَّسُولُ ﷺ يَقُولُ «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

فَمَنْ قَالَ: إِنْ مِنْ الْبِدْعِ مَا هُوَ حَسَنٌ، فَقَوْلُهُ مُرَدودٌ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِمَّا أَلَا يَكُونَ هَذَا بِدْعَةً، وَإِمَّا يَكُونَ بِدْعَةً سَيِّئَةً، أَمَا أَنْ يَصْدُقَ عَلَيْهِ أَنَّهُ بِدْعَةٌ ثُمَّ نَقُولُ: بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ، فَكَلَّا وَاللَّهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَلَيْسَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا جَمَعَ النَّاسَ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ عَلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ، خَرَجَ وَوَجَدَ النَّاسَ يُصَلُّونَ مَعَ إِمَامِهِمْ فَقَالَ: «نِعَمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ»^(١)، فَأَتْنِي عَلَى هَذِهِ الْبِدْعَةِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يَبْتَدِعْ هَذَا، فَقِيَامُ رَمَضَانَ بِإِمَامٍ ثَابِتٍ بِالسَّنَةِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَامَ بِأَصْحَابِهِ فِي رَمَضَانَ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَتَأَخَّرَ فِي الرَّابِعَةِ، وَقَالَ: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفَرِّضَ عَلَيْكُمْ»^(٢).

فَتَأَخَّرَ لِسَبَبٍ، وَهُوَ خَشْيَةُ أَنْ تُفَرِّضَ بَعْدَ وَفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ. وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُفَرِّضَ فَرَائِضَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَزَالَتِ الْعِلَّةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تَأَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْقِيَامِ بِالنَّاسِ، فَسَمَّاها عُمَرُ بِدْعَةً بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا تُرِكَتْ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ، بَابُ فَضْلِ مَنْ قَامَ رَمَضَانَ، رَقْمُ (٢٠١٠).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ مَنْ قَالَ فِي الْخُطْبَةِ بَعْدَ الثَّنَاءِ: أَمَا بَعْدُ، رَقْمُ (٩٢٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ

الصَّلَاةِ، بَابُ التَّرْغِيبِ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ، رَقْمُ (٧٦١).

وفي عهد أبي بكر، ثم أُحْيِيَتْ من جديد، فتكون بدعةً باعتبار أنَّها تُركت ثم أُعيدت، فهي سُنَّة مُعَادَة، فلا دليل فيها لأهل البدع.

ولو أننا قلنا: إِنَّ مِنَ الْبِدَعِ ما هو حَسَنٌ لَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ؛ وصار هَؤُلَاءِ يُحَدِّثُونَ أَشْيَاءَ ويقولون: هذه من الدين، وآخرون يُحَدِّثُونَ أَشْيَاءَ ويقولون: هذه من الدين، وتَفَرَّقَتِ الْأُمَّةُ بِلا مِيزَانٍ ولا استقامة.

فإذا قال قائل: ما هو الأصل في العبادات؟

فالجواب: أن الأصل في العبادات المنع، وألَّا يَتَعَبَّدَ أَحَدٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ إِلَّا بِدَلِيلٍ، فإذا رأينا أَحَدًا يَتَعَبَّدُ بِعِبَادَةٍ فَلنا أن نقول: ما دَلِيلُكَ على هذه العبادة؟ لأنَّه إذا لم يكن له دليل صار فعله بدعةً، فكلُّ إِنسانٍ يَتَعَبَّدُ لِلَّهِ بِشَيْءٍ قَوْلِيٍّ أو فِعْلِيٍّ أو عَقْدِيٍّ، فَإِنَّا نقول له: هاتِ الدَّلِيلَ على هذا، فإن أتى بِدَلِيلٍ صار عَمَلُهُ سُنَّةً وليس ببدعة، وإن لم يأتِ بِالدَّلِيلِ صار عَمَلُهُ بدعةً مردوداً عليه، وهو به ضالٌّ مُضِلٌّ إذا كان مَنَّ يُقْتَدَى به.

إذن نقول: قوله في الآية الكريمة: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ العمل الصالح ما جمع شرطين: الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ.

قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا الوصف الثالث؛ فالأول: الدعاء إلى الله، والثاني: العمل الصالح، والثالث: إعلان الإسلام؛ أن يُعلن إسلامه ويقول: إني من المسلمين، وهذا مشروط بما إذا لم يكن في الإعلان ضرر على الدعوة، فإن كان في ذلك ضرر على الدعوة فلا بأس أن يُخفي إسلامه، ويدل لهذا أن دعوة النبي

ﷺ أَوَّلَ مَا دَعَا كَانَتْ سِرًّا، ثُمَّ أَمَرَ بِالْإِعْلَانِ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وانظر إلى قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ مُؤْمِنٍ آلِ فِرْعَوْنَ.. وَفِرْعَوْنُ تَوَعَّدَ مُوسَى
بِالْقَتْلِ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ
أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، فقام رجل مؤمن من آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ
إِيمَانَهُ؛ خَوْفًا أَنْ يُقْتَلَ وَتَضَعُفَ الدَّعْوَةُ، وَهُوَ لَا يُهَمُّهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ؛
لأن كل إنسان سوف ينتقل إن عاجلاً وإن آجلاً، لكن إذا قُتِلَ الدَّاعِيَةُ بَطَلَتْ
الدَّعْوَةُ، وَنَقَصَتِ الدَّعْوَةُ.. فيقول هذا الرَّجُلُ الَّذِي يَكْتُمُ إِيمَانَهُ: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]. فانظر إلى الفصاحة، وَالْحِذْقَ وَالذِّكَاءَ وَالْعَقْلَ، قَالَ:
﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وهو يعلم أن هذا الرَّجُلَ مُوسَى، لكن لم يقل:
مُوسَى؛ لئَلَّا يَظُنَّ أَحَدٌ أَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ صِلَةٌ وَمَعْرِفَةٌ، بَلْ جَاءَ بِصِغَةِ النِّكَرَةِ: ﴿أَنْقَتُلُونَ
رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾.

فلو قال: أَتَقْتُلُونَ مُوسَى لَقِيلَ: هذا صاحبٌ له يُدَافِعُ عَنْهُ، لكن أتى بِصِغَةِ
النِّكَرَةِ حَتَّى لَا يَتَوَهَّمُوا وَاهِمٌ أَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ صِلَةٌ. وَلَا شَكَّ أَنْ بَيْنَهُمَا صِلَةٌ لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ،
ولكن هو أَمَامَ أَعْدَاءٍ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ، قَالَ: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] إِلَى آخِرِهِ.

المهم أن قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني إعلان إسلامه ولا يبالي،
وهذا الإعلانُ مَحْمُودٌ بِشَرَطِ أَلَّا يَتَرْتَبَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ أَشَدُّ مِنَ الْإِخْفَاءِ، فَإِنْ تَرْتَبَ عَلَيْهِ
ضَرَرٌ فَلْيُخَفِّهِ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَإِيَّاكُمْ مِنْ دُعَاةِ الْحَقِّ، وَأَنْصَارِ الْحَقِّ، وَأَنْ يُعِينَنَا عَلَى أَنْفُسِنَا أَوَّلًا، ثُمَّ عَلَى غَيْرِنَا ثَانِيًا، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ في هذا التعبير احتمالان:

أحدهما: أن يكون معنى قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: ولا تستوي الحسنات؛ فإن الحسنات بعضها أفضل من بعض لا شك، فالواجب من العبادات أفضل من المسنون، وبعض الواجبات أوكد من بعض، وبعض المسنونات أوكد من بعض، ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ يعني: ولا تستوي السيئات، ففي السيئات ما هو فاحشة، ومنها ما هو كبيرة، ومنها ما هو صغيرة، فتختلف.

وينبغي لنا أن نفهم هذا المعنى وهذا الاحتمال: فلا تستوي الحسنات يعني بعضها مع بعض، ولا السيئات يعني بعضها مع بعض، بل في الحسنات ما هو في قمة الحسنى، ومنها ما هو دون ذلك، ومن السيئات ما هو أسفل شيء ومنها ما هو فوق ذلك، هذا احتمال.

الثاني: ولا تستوي الحسنة مع السيئة؛ يعني أن الحسنة لا تستوي هي والسيئة، فإن الحسنة أكمل وأفضل من السيئة، والسيئة على اسمها سيئة.

فعلى القول الأول أو الاحتمال الأول تكون (لا) في قوله: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ مؤسَّسة، بمعنى أنها غير زائدة.

وعلى الثاني تكون مؤكدة؛ أي أنها زائدة للتوكيد، وأنها لو حذفت وقيل في غير القرآن: (ولا تستوي الحسنة والسيئة) لاستقام الكلام.

والثاني أقرب، أي أن معنى الآية: لا تستوي الحسنات والسيئات.

ونظير ذلك: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ [فاطر: ١٩-٢١]، فـ(لا) في هذه المواضع مؤكدة وليست مؤسّسة.

أما كون الحسنات تختلف بعضها مع بعض، وكذلك السيئات، فهذا أمر ظاهر؛ لكن يؤخذ من نصوص أخرى.

وإذا كانت لا تستوي الحسنة والسيئة وجرى من غيرك إساءة إليك فبماذا تدفع إساءته؟

قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا كان قد اعتدى عليك في عرضك، وبلغك أنه يغتابك في المجالس، فادفع بالتي هي أحسن. والذي هو أحسن ليس أن تغتابه في المجالس كما كان يغتابك في المجالس، بل بالتي هي أحسن. ومن ذلك أن تذهب إليه وتقول: يا أخي، بلغني أنك تقول في كذا وكذا، فإن كان حقاً فهذه غيبة منك لي، وإن كان كذباً فهذا بهتان.

لأن النبي ﷺ لما تكلم على الغيبة قال: «اتذرون ما الغيبة؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبتك، وإن لم يكن فيه فقد بهت»^(١).

إذن عامل من أساء إليك بالتي هي أحسن، والتي هي أحسن -يا إخواني- لا تظنوا أنه الإحسان؛ فبالتي هي أحسن أي: بالخصلة التي هي أحسن، فقد يكون الأحسن أن تُسيء إليه كما أساء إليك، والآية لم يقل الله فيها: ادفع بالحسن، بل قال:

(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الغيبة رقم (٢٥٨٩).

﴿يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي هي أحسن قد تكون المعاملة الحسنة، وقد تكون المعاملة بالعدل، فإذا كان هذا الذي أساء إليك رجلاً مجرماً شريراً لا يدع مؤمناً إلا وقع في عريضه، فهل الدفاع هنا أن تترقق له، وتلين له القول، أم أن تأخذ بالعدل؟

نقول: بالعدل، ولهذا لما ذكر الله عز وجل العفو؛ قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] ولهذا إن جاءنا واحد يقول: فلان جنى عليّ فأثيماً أولى؛ أن أعفو عنه أو آخذ بحقي؟ قلنا: إن كان في أخذك بحقك إصلاح فخذ به، وإن كان في العفو إصلاح فخذ به.

وهنا ننبه على مسألة: إن حوادث السيارات الواقعة الآن كثيرة، فإذا وقع حادث ومات بسببه إنسان، فهل الأفضل لأوليائه هذا الميت أن يعفوا عمن جرى منه الحادث أو ألا يعفوا؟

نقول: فيه تفصيل؛ فإذا كان في العفو إصلاح فالعفو أفضل، وإلا فلا، فإذا علمنا أن هذا الذي حصل منه الحادث رجل متهور لا يبالى بأرواح الأبرياء ولا يهتم، وإذا قيل له: يا فلان، ترفق ولا تسرع فربما يحصل منك حادث، قال: وإذا حدث فالحمد لله الدية بالطبلون. ويضرب بيده على الطبلون^(١) حتى يكاد أن ينكسر، أي أنه غير مبالٍ، فهذا لا ينبغي أن نعفو عنه، ولا كرامة له حتى يرتدع هو وأمثاله.

لكن لو جرى الحادث من شخص نعلم أنه رجل متزن، ولكن قضاء الله لا مفر منه، وحصل منه خطأ فحصل به الحادث، فالأفضل في حق هذا العفو؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

(١) الطبلون: هو دُرج في مقدّم السيارة تحفظ فيه الأوراق والأشياء غالباً.

قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ختام الآية بهذه الجملة يفيد أن المراد بالأحسن هو العفو والإصلاح، وهذا ما لم يترتب على العفو والإصلاح ضررٌ، فالضرر لا تأتي به الشريعة.

و(إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا الَّذِي﴾ عند النحويين ليست شرطية، بل هي فجائية، كقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

و(إذا) تأتي لعدة معانٍ، منها الشرطية، ومنها الفجائية، ومعنى الفجائية أن يأتي الشيء بسرعة مفاجئة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ يعني إذا دفعت بالتي هي أحسن فجاك هذا الأمر، بدل أن كان عدواً فإنه ينقلب فيكون ولياً حميماً.

وهذا الوعد من الله عز وجل العالم بكل شيء، المصرف للقلوب، فكم من قلب مملوء بغضاً لشخص وإذا به يكون مملوءاً حباً له، وكم من قلب مملوء عداءً لشخص فإذا به مملوء ولاية له.

إذن إذا دفعت بالتي هي أحسن انقلبت العداءة الأولى إلى ولاية، وليس ولاية فقط، بل قال: ﴿وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ شديد الولاية، ومع الولاية قرابة.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا يُلْقِهَا﴾ أي ما يوفق لها ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ يعني: لا يوفق لهذه الخصلة، وهي الدفاع بالتي هي أحسن، إلا رجل صابر يحبس نفسه، وإلا فلو رجعنا إلى مقتضى النفوس لكان أن الإنسان يريد أن يأخذ بالثأر، فهذا مقتضى طبيعة الإنسان، لكن إذا وفق الإنسان وصبر وحبس نفسه وفعل ما أمر الله به في قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فإنه ذو حظ عظيم.

ولما ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دِفَاعَ العَدُوِّ مِنَ الْإِنْسِ، ذكرَ دِفَاعَ العَدُوِّ مِنَ الْجِنِّ، فقال: ﴿وَمَا يَزْعُغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. والشَّيْطَانُ لا يَمَكِنُ أَنْ تُقَابِلَهُ بِشَيْءٍ مُحْسُوسٍ؛ لِأَنَّ مَا يُوسُوسُ بِهِ الشَّيْطَانُ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ، وَإِلَّا فَالشَّيْطَانُ جِسْمٌ كَسَائِرِ الْأَجْسَامِ، لَكِنْ مَا يُوسُوسُ بِهِ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ لا يَمَكِنُ دِفَاعُهُ إِلَّا بِالْإِسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وما هو نَزْغُ الشَّيْطَانِ؟

نَزْغُ الشَّيْطَانِ وَعْدٌ بِالشَّرِّ وَإِغْرَاءٌ بِهِ، فَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ مِيلًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ نَفْسِكَ تَهَاوُنًا فِي وَاجِبَاتِ اللَّهِ فَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ، وَدَوَاؤُهُ أَنْ تَسْتَعِذَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَإِذَا اسْتَعِذْتَ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَعَاذَكَ: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذا من بلاغة القرآن؛ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ مَدَافِعَ العَدُوِّ مِنَ الْإِنْسِ ذَكَرَ مَدَافِعَ العَدُوِّ مِنَ الْجِنِّ.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُعِيدَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.



الدَّرْسُ السَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد استمعنا فيما قرأه إمامنا إلى قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣١-٣٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ بقلوبهم وألسنتهم، ثم استقاموا على دين الله، لم يزدوا فيه، ولم ينقصوا عنه، هؤلاء تَنَزَّلُ عليهم الملائكة، أي ينزلون عليهم أفواجا، فوجا بعد فوج قائلين لهم: أَلَّا تَخَافُوا فيما يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِكُمْ، ولا تحزنوا على ما مضى مِنْ حَيَاتِكُمْ، لأنكم قُمتُمْ بالإيمان والاستقامة.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وهذا عند الموت إذا قيل للروح في تلك اللحظة العصبية ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإن الروح تتطلع، وتفرح بما وُعدت به، ولهذا تَنَسَّلُ مِنَ الْجَسَدِ انسلالاً سهلاً كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ، إذا رَأَيْتَ فِي الْعَجِينِ شَعْرَةً ثم نزعتهَا سيكون ذلك سهلاً، الروح تخرج مِنَ جَسَدِ الْمُسْلِمِ - أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يجعلني وإياكم منهم - سهلة مُنْقَادَةٌ لأنها بُشِّرَتْ بهذه البُشْرَى، ولهذا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ». قالت عائشة: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ. قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ

وَكِرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، وَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(١)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿١﴾ أَي سَكَرَاتِهِ ﴿٢﴾ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴿٣﴾ أَي مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ ﴿٤﴾ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴿٥﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ النُّفُوسَ تَنْفِرُ إِذَا دُعِيَتْ لِلخُرُوجِ فَيَقَال ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴿٦﴾ كَرَهَا ﴿٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْوَاجَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٥٠] فَالْكَافِرُ إِذَا بُشِّرَ بِهَذَا فَإِنَّ نَفْسَهُ تَنْفِرُ وَتُرِيدُ أَنْ تَبْقَىٰ فِي الْبَدَنِ، لَكِنَّهُمْ يَنْزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ كَمَا يُنْزَعُ السَّفُودُ - الْحَدِيدَةُ الَّتِي يُشَوَّىٰ بِهَا اللَّحْمُ - مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت: ٣١] الْقَائِلُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ تَقُولُ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴿١١﴾﴾ فَوَلِيُّ الْمُؤْمِنِ الْمَلِكُ يَدُلُّهُ عَلَى الْخَيْرِ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الشَّرِّ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَقَرِينُهُ الشَّيْطَانُ بِأَمْرِهِ بِالْمَنْكَرِ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمَعْرُوفِ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا ﴿١٢﴾﴾ أَي فِي الْآخِرَةِ ﴿مَا نَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ ﴿١٣﴾﴾ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ مِنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنِّكَاحِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّ مَا يَشْتَهِيهِ الْإِنْسَانُ فِي الْجَنَّةِ فَلَهُ ذَلِكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، رَقْمُ (٦١٤٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُعَاءِ وَالتَّوْبَةِ، بَابُ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، رَقْمُ (٢٦٨٣).

قال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٥٤]، وَقَالَ
تعالى ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣] قالوا: إِنَّ الرَّجُلَ عَلَى سَرِيرِهِ يَنْظُرُ إِلَى الثَّمَرَةِ يَشْتَهِيهَا
فَيَنْزِلُ الْغُصْنَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقَعَ الثَّمَرَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَعَبٍ، وَلَا إِلَى
طَلَبٍ، مُجَرِّدُ مَا يَقَعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُرِيدُ هَذِهِ الثَّمَرَةَ يَنْزِلُ الْغُصْنَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تطلبون ﴿تُزَلًّا﴾ أي ضيافة، ﴿مَنْ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ وَهُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] يعني أَخْبِرُونِي مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِنَ الَّذِي ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ: هَلْ أَحَدٌ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ هَذَا
الْقَائِلِ؟ لَا وَاللَّهِ؛ لَأَنَّ اللَّهَ يَسْأَلُ مُتَحَدِّيًا ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ
صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وَتَأْمَلْ يَا أَخِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ أي إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ لَتَعْرِفَ
أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ مِنَ الْإِخْلَاصِ، أَمَا مَنْ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُعَظِّمَهُ النَّاسُ،
وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ -اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا مِنْ ذَلِكَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ- أَوْ
دَعَا إِلَى مَذْهَبٍ بَاطِلٍ أَوْ بِدْعَةٍ مُضِلَّةٍ، فَهَذَا لَيْسَ فِي قَوْلِهِ حُسْنٌ، بَلْ قَوْلُهُ سَيِّئٌ، وَإِثْمُهُ
وَوِبَالُهُ عَلَيْهِ.

رَجُلٌ دَعَا إِلَى مَذْهَبٍ بَاطِلٍ، وَبِكُلِّ أَسْلُوبٍ، وَبِكُلِّ دِعَايَةٍ، فَلَيْسَ هَذَا حَسَنًا؛
لَأَنَّهُ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ، الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ هُوَ الَّذِي يُصِرُّ عَلَى الدَّعْوَةِ حَتَّى وَإِنْ أُوْذِيَ فِي
ذَلِكَ، وَحَتَّى وَإِنْ سَخِرَ مِنْهُ النَّاسُ، وَحَتَّى وَإِنْ رُدَّ عَلَيْهِ، فَمَا دَامَ عَلَى الصِّرَاطِ لَا يَهْمُهُ

أحد، يَدْعُو إلى الله.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ انتبه أيها الداعي، تدعو إلى الله وَلَا تعمل صالحًا لا يصلح هذا، فمثلاً: دعا إلى إقامة الصَّلَاة وَهُوَ لَا يصلي، كيف هذا؟ دعوته هذه وبإلٍ عليه، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢-٣] تقول للناس: أقيموا الصَّلَاة. ولكن لا تُقيمها أنت، تقول: أَنْفِقُوا في سبيل الله. ولا تُنفق، تقول: بِرُّوا آبَاءكم. ولا تَبِرُّ، اسمع قول الله تَعَالَى: ﴿مَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

والعمل الصَّالح ما اجتمع فيه شيان:

الأوَّل: الإِخْلَاصُ لله، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا لك مخلصين.

والثَّاني: المتابعة لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا يُرَائِي به النَّاسُ لا يكون عمله صالحًا؛ لأنه فَقَدَ الإِخْلَاصَ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا على غير الشَّرِيعَةِ لَكِنَّهُ مُخْلِصٌ، لا يكون عمله صالحًا، ولهذا يوجد من أهل البدع مَنْ هُمْ مخلصون لله عَزَّوَجَلَّ إِخْلَاصًا تامًّا، تدمعُ أعينُهُم وتخشع قلوبُهُم، وتجدُّهم على أكملِ حالٍ في مَظْهَرِهِم، لكن عملهم هذا حَاطٌّ باطل؛ لأنه مُخَالَفٌ لشرِيعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

واعلم أخي المسلم أَنَّ الموافقة للشرِيعَةِ لا تَتِمُّ إِلَّا إذا وافقَ العملُ الشَّرِيعَةَ

في أمورٍ سِتَّة:

الأول: السَّبَبُ: لو أَنَّ الإنسانَ عَبَدَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بِعِبَادَةٍ هي حقٌّ، لكن قَرَنَهَا

بسبب لم تُقَرَّنْ به شَرْعًا، فإنها تكون باطلة؛ لأنه على غيرِ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْ ذَلِكَ

مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ عِنْدَ مَرُورِ الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ ربيعِ الأولِ مِمَّا يُسَمُّونَهُ الْمَوْلِدَ النَّبَوِيَّ، وَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَعْظَمُ مِنَّةً مِنَ اللَّهِ بِهِ عَلَيْنَا ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وَلَا شَكَّ أَنَّهُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْنَا، نَشْكُرُهُ عَلَيْهَا، لَكِنْ مِنْ تَمَامِ شُكْرِهِ أَنْ نَمْشِيَ عَلَى هَدْيِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

هَذِهِ الْبِدْعَةُ أَصْحَابُهَا تَحْمِلُهَا الْمَحَبَّةُ وَالْمَوَدَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقِيمُوهَا، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ مَحَبَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ هُوَ وَاللَّهُ، وَاللَّهُ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ آبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، وَلَكِنْ مَقْتَضَى الْمَحَبَّةِ أَنْ نَمْشِيَ عَلَى شَرِيعَتِهِ، فَنَقُولُ: هَذِهِ الْبِدْعَةُ لَا أَصْلَ لَهَا مِنْ نَاحِيَةِ التَّارِيخِ، وَلَا أَصْلَ لَهَا مِنْ نَاحِيَةِ الشَّرْعِ، فَيَا مُسْلِمُونَ سَتُقْبَلُونَ عَلَيْهَا عَنْ قَرِيبٍ، وَلَكِنْ الْوَاجِبُ عَلَيَّ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّهَا لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّى عِبَادَهُ، وَلَكِنْ هَلِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وُلِدَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ؟ فِي ذَلِكَ خِلَافٌ عَلَى سِتَّةِ أَقْوَالٍ أَوْ سَبْعَةٍ، وَقَدْ رَجَّحَ أَحَدُ الْفَلَكَائِنِ الْمَصْرِيِّينَ أَنَّ وَلادَتَهُ كَانَتْ فِي الْيَوْمِ التَّاسِعِ مِنْ ربيعِ الأولِ، إِذْنِ، لَا أَصْلَ لَهَا مِنْ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَّةِ، فَكَيْفَ نَفْرِضُ عَلَى التَّارِيخِ أَنَّهَا فِي الْيَوْمِ الثَّانِي عَشَرَ وَلَيْسَ فِيهِ؟ هَذَا غُلَطٌ عَظِيمٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ! اتَّغَلَّطَ النَّاسَ كُلَّهُمْ؟ قُلْنَا: وَلَيْكُنْ، هَذَا التَّارِيخُ أَمَامُنَا، وَإِذَا كَانَ الَّذِي ابْتَدَعَ هَذِهِ الْبِدْعَةَ ابْتَدَعَهَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، أَوْ فِي هَذَا الْيَوْمِ فَعَلَى أَيِّ أَصْلٍ؟ لِأَنَّ هَذِهِ الْبِدْعَةَ أَوَّلُ مَا ظَهَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ، يَعْنِي قَدْ مَضَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَةُ قُرُونٍ وَزِيَادَةٌ، وَلَمْ يَعْرِفُوا هَذِهِ الْبِدْعَةَ، فَأَيْنَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذَا

الاحتفال في هذه المدة؟ أغافلون هم، أم جاهلون، أم مُفَرِّطُونَ، أم هم لا يُحِبُّون الرسول؟ طبعًا لا، لكنهم يعرفون أن هذا ليس من هديِهِ.

هذا مِنَ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَةِ، إذن هي باطلة مِنَ النَّاحِيَةِ التَّارِيخِيَةِ؛ لأنها لَيْسَتْ فِي الثَّانِي عَشَرَ.

ثانيًا: مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّرْعِيَةِ، نحن نتلقى الشرع مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَعَمَلِ الصَّحَابَةِ، فأتوني بآية مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي الْإِحْتِفَالُ بِمَوْلِدِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلَكُمْ مِنَ الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ابْحَثُوا لَكُمْ الْيَوْمَ وَغَدًا وَبَعْدَ غَدٍ فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلْنَنْظُرْ.

أما مِنَ السُّنَّةِ، فهل يمكن أن تُوردوا لي أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ- أَمَرَ بِالْإِحْتِفَالِ لِمَوْلَدِهِ، أَوْ أَقَرَّ الْإِحْتِفَالُ بِمَوْلَدِهِ؟ لَكُمْ مِنَ الْيَوْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَنْ تَجِدُوا هَذَا.

وأما ما احتجَّ به مَنْ احتجَّ بقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ قَالَ: «ذَاكَ يَوْمٌ وَلِدْتُ فِيهِ، وَبُعِثْتُ فِيهِ»، أَوْ «أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ»^(١). فنقول: أولاً: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَقُلْ: اعْتَبِرُوا التَّارِيخَ مِنَ الشَّهْرِ، بَلْ اعْتَبِرُوا الْيَوْمَ مِنَ الْأُسْبُوعِ، وَهَؤُلَاءِ لَا يُبَالُونَ أَصَادَفَ يَوْمُ الثَّانِي عَشَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ أَوْ غَيْرَهُ.

ثانيًا: الَّذِي أَقَرَّهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الصِّيَامُ، وَنَقُولُ: جَزَاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا، إِذَا كَانَ يَوْمُ الْمَوْلِدِ وَأَرَدْتُمْ أَنْ تَحْتَجُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ فَصُومُوا فَقَطْ، أَمَا أَنْ تَأْتُوا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس، رقم (١١٦٢).

بالاحتفالات التي لا أحب أن أنشر ما سمعتُ عنها في هذا المَقَام، لكن يعرفها أصحابها، فهذا غلط، ليس فيه استدلال.

والخلفاء الراشدون أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ لم يُقيموا لهذا المولد احتفالاً، أ هم جاهلون بما يجب للرسول؟ لا والله، أ هم عالمون وتركوا ذلك عمداً؟ لا والله أبداً، أ هم أقلُّ منّا حباً للرسول؟ لا والله، أ هم أشدُّ منّا حباً للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلماذا لم يُقيموا هذا المولد؟ لماذا مضت ثلاثة قرون للمسلمين لم يُقيموا هذا المولد؟

إذن، هذه العبادة - وإن كان الذين يُقيمونها على زعمهم أنها عبادة وإظهار لمحبة الرسول ﷺ وإحياء لذكره - ليست من العمل الصالح لأنها خالفت الشريعة في سببها.

الثاني: الجنس: بأن تكون موافقة للشريعة في جنسها، فإن خالفت الشريعة في الجنس فليست عملاً صالحاً، مثال ذلك: لو أهديت ظبياً فإنه لا يُجزئ، لكن يُضحى بالضأن، بالبقر، بالإبل، بالمعز، فلو كان غزلاً قيمة الواحد تُساوي خمس شياه ولحمها لذيذ وطيب، وشكلها جميل، فإنها لا تُجزئ، وليست عملاً صالحاً، لأنها خالفت الشريعة بالجنس، فلا يمكن أن يُهدى أو يُضحى إلا بالأنعام الثلاثة: الإبل والبقر والغنم.

الثالث: القدر: لا بُدَّ أن يوافق العمل الشريعة في القدر، فلو أن إنساناً راغباً في الخير وقال: أحب أن أصلي الفجر أربع ركعات، لأنه أكثر من ركعتين. لا يصح؛ لأنه خالف الشريعة في القدر، فلا تقبل.

ولو توضأ الإنسان - وأعضاء الوضوء معروفة - ولكنه مسح مع ذلك الرقبة، فإنه لا يقبل منه هذا المسح لأنه مخالف للشرعة.

الرابع: الكيفية: لو أن الإنسان توضأ فبدأ بغسل رجليه، ثم مسح رأسه، ثم غسل يديه، ثم غسل وجهه، فهذا عمل غير صالح؛ لأنه خالف الشريعة في الكيفية. ولو أن إنساناً صلى وبدأ بالسجود ثم قام وركع، فهذا غير صالح؛ لأنه خالف الشريعة في الكيفية.

الخامس: الزمان: فالأضحى تكون في العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، فلو أن إنساناً قال: سأضحى في عيد رمضان اليوم الأول من شوال والثاني والثالث والرابع. وضحى بأضحى ممتازة، لا تقبل، وليس عملاً صالحاً.

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أحد الصحابة - وهو أبو بردة بن نيار رضي الله عنه - في عيد الأضحى ضحى بأضحى قبل الصلاة، يعني يوم النحر، فخطب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال: «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسْكَنا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسْكَ، وَمَنْ نَسَكَ قَبْلَ الصَّلَاةِ، فِتْلِكَ شَاةٌ لَحْمٌ».

عندما قال هذا الكلام قام أبو بردة بن نيار وقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إني ذبحت أضحيتي قبل أن أصلي لأكل منها أول من يأكل، فقال له: «تِلْكَ شَاةٌ لَحْمٌ»^(١)، يعني ما قبلت مع أنها أضحى، لأنها لم توافق الشرع في الزمان، فذبح بدلها.

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب، رقم (٩٨٣).

السَّادُسُ: الْمَكَانُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] فلو أَنَّ رَجُلًا مِنَ النَّاسِ قَالَ: لَا دَاعِيَ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي الْمَسْجِدِ؛ لَأَنِي إِذَا بَقِيتُ فِي الْمَسْجِدِ أَتَانِي رَفِيقِي وَصَدِيقِي، وَجَعَلَ يَتَحَدَّثُ إِلَيَّ وَيُلْهِينِي عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، أَنَا سَاعَتَكَفُ فِي حُجْرَةٍ فِي بَيْتِي حَتَّى أَنْفِرَ، وَأَتَخَلَّى لِلْعِبَادَةِ. فَاعْتَكَفُ فِي بَيْتِهِ، فَهَذَا الْاعْتِكَافُ لَا يَصْلُحُ لِمُخَالَفَةِ الشَّرِيعَةِ فِي الْمَكَانِ.

إِذَنْ، لَا يَكُونُ الْعَمَلُ صَالِحًا حَتَّى يُوَافِقَ الشَّرِيعَةَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ السَّتَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٢٢) وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴿[فصلت: ٣٣-٣٤]﴾ فَإِلْحَسَانٌ إِلَى النَّاسِ وَالْإِسَاءَةُ إِلَيْهِمْ لَا يَسْتَوِيَانِ، هَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ السَّيِّئَةَ لَا تَسَاوِي الْحَسَنَةَ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ (لَا) تَكُونُ زَائِدَةً لِلتَّوَكُّيدِ كَمَا هِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا، فبَعْضُهَا أَرْفَعُ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا السَّيِّئَةُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا، فبَعْضُهَا أَدْنَى مِنْ بَعْضٍ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] يَعْنِي ادْفَعْ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ لِأَنَّ الْحَسَنَةَ أَحْسَنُ، فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ شَخْصٌ فَلَا تُقَابِلْهُ بِالْإِسَاءَةِ، وَلَكِنْ قَابِلْهُ بِالْإِحْسَانِ، إِلَّا إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ لَيْسَ أَهْلًا لِلْإِحْسَانِ فَخُذْ بِحَقِّكَ، أَمَّا إِذَا كَانَ أَهْلًا لِلْإِحْسَانِ فَأَحْسِنْ.

﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] سُبْحَانَ اللَّهِ! يَعْنِي

لو أساء إليك رَجُلٌ، وبدأت تُحسِن إليه ستنقلب إساءته إلى إحسان ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: قريبٌ صديق، وهذا كلامُ الله الَّذي بيده الأمورُ والقلوب.

﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥] أي: ما يُوفَّقُ لهذا، وهو المدافعة بالتي هي أحسن ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ وما يُوفَّقُ لها ﴿إِلَّا ذُو حَظٍ﴾ أي نصيبٌ ﴿عَظِيمٍ﴾.

إذا أساء إليك جارُك فلا تُقابل إساءته بإساءة، بل قابل إساءته بإحسان، وسينقلب هذا الجار الَّذي أساء إليك قريباً صديقاً بإذن الله عزَّ وجلَّ، فصبرٌ نفسك، وتحمل إساءة من يُسيء إليك، وستنقلب هذه الإساءة إلى إحسان، كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] إمّا: (إن) شرطية، و(ما) مؤكدة، يعني أي نزع ينزعك من الشَّيْطَانِ فالجاء إلى الله عزَّ وجلَّ، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وكلمة (نزع) نكرة في سياق الشرط فتعم، أي شيء يلقيه الشَّيْطَانُ في قلبك فاستعذ بالله، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

كثرت الوسوس والأمراض النفسية في هذا الزَّمن مع كثرة النعم حتى كان الشَّيْطَانُ يوسوس في قلب بني آدم في أمورٍ طوامٍ عظيمة، والدواء عند الله؛ قال تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولهذا لما شكى الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما يجدونه في قلوبهم، حتى إن الشَّيْطَانُ يقول:

مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حتى يقول: مَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ أَمَرَهُمْ بِأَمْرَيْنِ هُمَا الدَّوَاءُ فَقَالَ: «فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَتَّهِ»^(١). يعني يُعْرِضُ عَنْ هَذَا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، يَصَلِّي وَيَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَفْعَلُ الْخَيْرَ، وَلَا يَلْتَفِتُ لِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ، وَطَهَّرَ قَلْبَكَ يَا أَخِي مِنْ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ.

أحيانًا يَأْتِي الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ وَيَقُولُ لَهُ فِي صَلَاتِهِ: إِنَّكَ لَمْ تُكَبِّرْ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ، وَإِذَا لَمْ يَكْبُرِ الْإِنْسَانُ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ لَمْ تَنْعَقِدْ صَلَاتُهُ، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَاتْرُكْهُ وَامْضِ فِي صَلَاتِكَ.

يَأْتِيكَ الشَّيْطَانُ حَتَّى فِيهَا بَيْنُكَ وَبَيْنَ زَوْجَتِكَ، يَقُولُ لَكَ: تَرَاكَ طَلَّقْتَ زَوْجَتَكَ. حَتَّى إِنْ بَعْضُهُمْ إِذَا كَلَّمَ صَدِيقَهُ قَالَ: تُرَاكَ قُلْتَ: إِنْ زَوْجَتِي طَالِقٌ. إِذَا قَرَأَ وَقَلَبَ الصَّفْحَةَ قَالَ الشَّيْطَانُ: تُرَى أَنْتَ طَلَّقْتَ زَوْجَتَكَ وَقُلْتَ: إِنْ قَلَبْتُ الصَّفْحَةَ فزَوْجَتِي طَالِقٌ.

هَكَذَا يُبْتَلَى الْإِنْسَانُ، فَالْوَاجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ فَيَقُولُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَأَنْ يَنْتَهِيَ عَنْ هَذِهِ التَّقْدِيرَاتِ كُلِّهَا، وَحِينَئِذٍ لَا تَضُرُّ.

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ ابْتُلُوا بِالْوَسَاوِسِ -نَسَأَلَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمُ الْعَافِيَةَ- يَبْقَى لِيُكَبِّرَ تَكْبِيرَةَ الْإِحْرَامِ نِصْفَ سَاعَةٍ، نِصْفَ سَاعَةٍ لَيَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ وَيَعْجِزُ، وَلَوْ قَالُوا مِنْ غَيْرِ الصَّلَاةِ لَسَهَلَتْ عَلَيْهِ كَغَيْرِهِ، وَبِهَذَا نَعْرِفُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ابْتُلِيَ بِهَذَا فَلْيَسْتَعِذْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ عَزَّوَجَلَّ وَيُعْرِضْ عَنْ هَذَا، وَيَمْضِ فِي صَلَاتِهِ، وَلَا يَهْمَهُ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ صِفَةِ إِبْلِيسَ وَجَنُودِهِ، رَقْمُ (٣٢٧٦)، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ الْوَسْوَسَةِ فِي الْإِيمَانِ وَمَا يَقُولُهُ مِنْ وَجْدِهَا، رَقْمُ (١٣٤).

ويأتيه الشيطان ويقول له: أحدثت، نزل منك نقطة بول، خرج منك ريح، فليقل: أعودُ بالله من الشيطان الرجيم. ولا يلتفت لهذا إطلاقاً، وليُصلِّ حتى لو غلبَ على ظنه أنه أحدث فلا يهتم بهذا، يعني لو كان عنده تسعون في المئة أنه أحدث وعشرة في المئة أنه باقٍ على طهارته يُغلبُ البقاء على الطهارة، ولا يلتفت لهذا؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم شكى إليه الرجلُ يُخَيِّلُ إليه في الصلاة أنه أحدث قال: «لَا يَنْفَتِلْ -أَوْ لَا يَنْصَرِفْ- حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»^(١). ومُراد النبي ﷺ حتى يَتَيَقَّنَ يَقِينًا لَا مَرِيَّةَ فِيهِ أنه أحدث، فالحمد لله على هذه النعمة أنَّ الله تعالى رفع عنا مثل هذا الشك.

فمتى أصابك من الشيطان نَزْعٌ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لَنَا سَبِيلًا، اللَّهُمَّ أَبْعِدْهُ عَنَّا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ اكْتُبْ ذَلِكَ لَنَا وَلِوَالِدَيْنَا وَلِدُرِّيَاتِنَا، وَلِمَنْ لَهُ حَقٌّ عَلَيْنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الوضوء، باب من لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (١٣٧)، ومسلم: كتاب الحيض، باب الدليل على أن من يقن الطهارة، ثم شك في الحدث فله أن يصلي بطهارته تلك، رقم (٣٦١).

سورة الشورى

الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

قَوْلُهُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾، الشَّرْعُ، وَالشَّرْعَةُ: هُوَ الطَّرِيقُ وَالْمَنْهَاجُ الَّذِي يَسِيرُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، وَمِنْهُ سَمِيَ: لَفْظُ (الشَّارِعِ) لِأَنَّهُ يَسْلُكُهُ النَّاسُ وَيَسِيرُونَ عَلَيْهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾، أَي جَعَلَ لَكُمْ طَرِيقًا تَسِيرُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَوْلُهُ: ﴿مِنَ الدِّينِ﴾ أَي مِنَ الْعَمَلِ الَّذِينَ تُدَانُونَ عَلَيْهِ، وَتَجَازُونَ عَلَيْهِ.

وَالدِّينُ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيْنِ:

المَعْنَى الْأَوَّلُ: الْعَمَلُ وَالشَّرْعَةُ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا النَّاسُ.

المَعْنَى الثَّانِي: الْجَزَاءُ الَّذِي يُجَازَى بِهِ الْعَامِلُ.

فَمِنَ الْمَعْنَى الْأَوَّلِ: قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ ❶ لَا أَعْبُدُ

مَا تَعْبُدُونَ ﴿[الكافرون: ١-٢]، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، أَي عَمَلُكُمْ الَّذِي تَدِينُونَ بِهِ، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أَي عَمَلِي الَّذِي أَدِينُ بِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ

تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أما الدينُ بمعنى الجزاء، فمنهُ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٩]، فالمرادُ بالدين هنا: الجزاء؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ مَالِكُ ذَلِكَ الْيَوْمِ، ﴿يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي يومُ الجزاء، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَالِكُ لِيَوْمِ الدِّينِ، وليومِ الدنيا، ولكنَّ ظهورَ مُلْكِهِ الظهورَ التَّامَّ إنما يكونُ يومَ الْقِيَامَةِ، حينَ لا يوجدُ مَلِكٌ يمتازُ على المملوكِ، ولا حرٌّ يمتازُ على العبدِ، ولا غنيٌّ يمتازُ على الفقيرِ، ولا قويٌّ يمتازُ على الضعيفِ، ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ومن الأمثالِ المشهورة: «كما تدينُ تُدان»، (كما تدين)، يرادُ العملُ، وتُدانُ يرادُ الجزاءُ، أي: كما تعملُ تُجازى.

قوله: ﴿مَا وَصَّيْ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾.

نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، ودليلُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦].

ومن السُّنَّةِ: ما جاءَ في حديثِ الشَّفاعَةِ، أن النَّاسَ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ ما لا يُطِيقُونَ فيذهبونَ إلى آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُونَهُ الشَّفاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أنْ يُرِيحَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ الْعَظِيمِ فيعتذرُ بأنَّهُ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ، وقد نُهيَ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، ثم

يأتونَ إلى نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولونَ لَهُ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الشَّاهِدُ^(١).

فَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ الرُّسُلِ، وَبِهَذَا نَعْرِفُ خَطَأَ مَنْ نَقَلَ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَنَّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنْ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ نُوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَوَّلُ الرُّسُلِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ.

وَالْأَنْبِيَاءُ الْمَذْكُورُونَ فِي الْقُرْآنِ كُلُّهُمْ رُسُلٌ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، فَكُلُّ مَنْ قَصَّ اللَّهُ نَبَأَهُ عَلَيْنَا فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَسُولٌ حَتَّى وَإِنْ وَصَفَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ نَبِيٌّ فَإِنَّهُ رَسُولٌ نَبِيٌّ.

فَمِنْ عَقِيدَتِنَا أَنَّ أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ هُوَ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا وَصَّي بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فِيهِ ذِكْرُ أَوَّلِ الرِّسَالَاتِ، وَآخِرِ الرِّسَالَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي وَشَرَعَ لَكُمْ الدِّينَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ هَذَا يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ دِينِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَدِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، رَقْمُ (٣١٦٢)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ فِيهَا، رَقْمُ (١٩٤).

قلنا: أما من حيث الأصول العامة فإن الشرائع مُتَّفَقَةٌ فيها، وأما من حيث التفصيل فقد قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [البائدة: ٤٨]، وذلك لأن التفاصيل تختلف مصالحتها باختلاف الأمم والأزمان والأحوال، فكان لكل أمة من الشريعة والمنهاج ما يناسبها.

أما الأصول العامة كتوحيد الله عزَّ وجلَّ، والإيمان بالبعث، والإيمان بالقدر، وأصول الديانات العملية: كالصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، فإن الشرائع مُتَّفَقَةٌ فيها من حيث الأصول، لا من حيث التفاصيل، لأن التفاصيل تختلف فيها المِلل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

هذه الآية جمعت بين خمسة من الرُّسل، وسُمُّوا جميعًا في آية أخرى من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، ولم يذكرُوا جميعًا سوى في هاتين الآيتين، وهؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرُّسل عند جمهور أهل العلم، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يُرْوَنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَبَلَغٌ يُّهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وآمن من قومه مع هذه المدة الطويلة، اثنا عشر فقط، قال تعالى: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أما إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقد وقعت له أعظم محنة عظيمة بالنسبة للعاطفة البشرية، حيث إن الله أمره أن يذبح ابنه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، ورؤيا الأنبياء وحي؛ ولهذا قال له ابنه: ﴿يَتَأْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فعزم على أن يذبح ابنه واستسلما هو وابنُه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَابِرْهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٣-١٠٤] ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ فلم يَضِجْهُ على جنبه، ولا على ظهره، وإنما على وجهه، حتى لا ينزعج عند ذبحه وعند إمرار السكين على رقبتِه؛ لأن الأمر عظيم وخطير.

ولما حصل الامتثال للأمر الإلهي، قال الله تعالى: ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَابِرْهِيمُ﴾. وجاءت الواو في جواب الشرط في قوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَابِرْهِيمُ﴾. والمعروف أن جواب الشرط إنما يرتبط بالفاء دون الواو، لأنها هي التي تدل على التعقيب، فجواب الشرط محذوف، والواو عاطفة على ذلك الشرط المحذوف، والتقدير ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ تحقق فيه صدق الإرادة والعزيمة وحينئذ ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَتَابِرْهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقَ الرُّبِّيُّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، فالواو عاطفة على شيء مقدر.

ونظيرها من بعض الوجوه قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، فجواب الشرط محذوف، والواو عاطفة على ذلك الجواب المحذوف، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ فشفع النبي ﷺ في افتتاحها، وفتحت أبوابها إلى آخر الآيات؛ لأن الجنة إذا ورد أهلها إليها وجدوها مغلقة، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، ويقتصن لبعضهم من بعض

الاقتصاصَ النهائيَّ، ثم يشفعُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الله، في أن يفتحَ بابَ الجنةِ لأهلِ الجنةِ، فتفتحُ الأبوابُ^(١).

وقيل: إن الواوَ زائدةٌ، وهي واوُ الثمانية؛ لأن أبوابَ الجنةِ ثمانية، لكن الرَّاجحُ ما قلناه أولاً.

موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ أَشَدِّ الْأَنْبِيَاءِ وَأَقْوَاهُمْ؛ ولهذا لما رجعَ إلى قومه ووجدَ أنهم قد عبدُوا العجلَ، وكانت معه التوراةُ مكتوبةً، ألقى الألواحَ مِنْ شدةِ الغضبِ، وأخذَ برأسِ أخيه يجرُّهُ إليه ويوبخُه، كيف عبدَ هؤلاءِ القومُ العجلَ وأنتَ فيهم؟!، فيقولُ هارونُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]، وهذه أعظمُ محنةٍ جرتَ لموسى في حالِ نبوته.

أما المحنةُ التي حدثتَ لموسى فقد بينها اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُهُمْ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنِّي إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فحينما اختارَ موسى سبعينَ رجلاً لمِقاتِ رَبِّهِ، فأخذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ والرجفةُ وهلكُوا، فضاقَ عليه الأمرُ؛ لأنه إذا رجعَ إلى بني إسرائيلَ وقد اختارَ منهم سبعينَ رجلاً، ثم قالَ إنهم هلكُوا صارتِ المصيبةُ عظيمةً، ولهذا قالَ: رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَايَ، فدعا اللهُ عَزَّوَجَلَّ حتى بعثَهُمُ اللهُ بعدَ موتِهِم، ورجعَ بهم إلى قومِهِم.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم (٦٥٣٥).

وعيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَيْضًا لَهُ ضَائِقَةٌ، فاليهودُ أَرَادُوا أَنْ يَقْتُلُوهُ وَيَصْلُبُوهُ، بَلِ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ لَكِنْ شُبَّهَ لَهُمْ، أَلْقَى اللَّهُ شَبَّهُهُ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَقَالُوا هَذَا عِيسَى فَقَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، وادَّعَوْا أَنَّهُمْ قَتَلُوا الْمَسِيحَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ وَصَلَبُوهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعُ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ﴾ (١٥٧) بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿[النساء: ١٥٧-١٥٨].

فعيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يُصَلَّبْ، وَمِنْ ضَلَالِ النَّصَارَى وَسَفَهِ عَقُولِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْدُسُونَ الصَّلِيبَ، لِأَنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ عِيسَى صَلَّبَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُقْتَضَى الْعَقْلِ أَنْ يَكْسِرُوا الصَّلِيبَ؛ لِأَنَّهُ صَلَّبَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُمْ، شَيْءٌ صَلَّبَ عَلَيْهِ نَبِيُّكُمْ كَيْفَ تَقْدُسُونَهُ؟ وَالصَّلِيبُ إِهَانَةٌ لَا شَكَّ، ﴿إِنَّمَا حَزَبُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [البائدة: ٣٣].

وَلَكِنْ النَّصَارَى يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ تَمَامًا وَصَفُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِأَنَّهُمْ ضَالُونَ، فَعِنْدَهُمْ ضَلَالٌ وَسَفَهٌ، فَهَذَا مِنْ جَمَلَةِ سَفَهِهِمُ الْعَظِيمِ، أَنْ يُقَدِّسُوا الصَّلِيبَ الَّذِي صَلَّبَ عَلَيْهِ نَبِيُّهُمْ كَمَا زَعَمُوا، وَنَحْنُ نُشْهَدُ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَجَمِيعَ خَلْقِهِ أَنَّ عِيسَى لَمْ يُقْتَلْ وَلَمْ يُصَلَّبْ بَلْ أَكْرَمَهُ اللَّهُ وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَسَيَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ يُحْكَمُ بِالْقِسْطِ، وَيَكْسَرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ^(١).

قَوْلُهُ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الَّذِينَ وَلَا تَنْفَرِقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، هَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ، إِقَامَةُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم (٢١٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا - محمد ﷺ -، رقم (١٥٥).

الدِّينِ وإِقامَةُ الشَّرِيعَةِ، فيجبُ على الأُمّةِ الإِسْلامِيّةِ أن تقيمَ شريعةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَمَ، ولا تَتَفَرَّقَ في الدِّينِ، فيجبُ على الأُمّةِ أن تتحدَّ، وأن تتفقَ على دينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولا يحلُّ للأُمّةِ أن تَفرَّقَ لأن التَّفَرُّقَ طريقُ غيرِ المُسلمينَ، قالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

فإن قال قائلٌ: هل وقعَ التَّفَرُّقُ بينَ الأُمّةِ؟ وهل الاختلافُ رحمةٌ أو نِقْمَةٌ؟
فالجوابُ: نعم، وقعَ التَّفَرُّقُ بينَ الأُمّةِ، فاختلفتِ اليهودُ على إحدى وسبعينَ فرقةً، وافتَرقتِ النَّصارى على ثنتينِ وسبعينَ فرقةً، وستفرقُ هذه الأُمّةُ كما قالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وسَلَمَ على ثلاثٍ وسبعينَ فرقةً كلها في النارِ إلا واحدةً وهي مَنْ كانَ على مِثْلِ ما عليه النَّبِيُّ ﷺ وأَصْحَابُهُ^(١).

فالتَّفَرُّقُ وَقَعَ، ولهذا لما تفرقتِ الأُمّةُ لحَقَّها الذُّلُّ وزالَ عنها العِزُّ، لحَقَّها الضعفُ وزالتْ عنها القوةُ، تكالبتْ عليها الأعداءُ، تَدَاعَتْ عليها الأُممُ كما تَدَاعَتْ الأكلةُ على صَحْفَتِها، وأصبحتِ الأُمّةُ الإِسْلامِيّةُ أُمَّةً مُمزَّقةً يُضِلُّ بعضها بعضًا، ويطعنُ بعضها في بعضٍ، ولا شكَّ أن هذا خلافُ ما أمرَ اللهُ بِهِ مِنَ الاتِّفاقِ، ووقوعُ فيما نَهَى عَنْهُ مِنَ التَّفَرُّقِ، والوَاجِبُ عَلَيْنَا أن نتفقَ جميعًا في دينِ اللهِ وألا نَتَفَرَّقَ.

فإن قال قائلٌ: ما هو دواءُ هذا التفرقِ؟

(١) أخرجه أبو داود: كتاب السنة، باب شرح السنة، رقم (٤٥٩٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب افتراق الأُمّة، رقم (٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب الفتن، باب افتراق الأُمم، رقم (٣٩٩١).

قلنا: دواء هذا التفرق سلوك سبيل الحكمة الذي أمر الله به، قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَنْزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، فالواجب أن نجتمع وأن ننظر ما اختلفنا فيه، ثم نرجع في ذلك إلى الكتاب والسنة، ولكن قد لا تتفق الأفهام في فهم النص، قد يفهم منه فلان معنى، ويفهم منه فلان الآخر معنى آخر، وهذا لا يعد تفرقا ما دامت النية حسنة، وما دام الإنسان قد اتقى الله ما استطاع، ولم يتبين له أكثر مما فهم؛ لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

والأمثلة على ذلك كثيرة:

المثال الأول: الاختلاف في أقسام المياه:

اختلف الناس في أقسام المياه، هل هي ثلاثة أقسام أو قسمان؟

من العلماء من قال إن أقسام المياه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: طهور.

القسم الثاني: طاهر.

القسم الثالث: نجس.

ومنهم من قال بل هي قسمان:

القسم الأول: طهور.

القسم الثاني: نجس.

وليس هناك قسم يسمى طاهرا.

التطبيق العملي لهذا المثال: رجلٌ قامَ من نومِ اللَّيْلِ، وغمَسَ يَدَهُ في إناءٍ به ماءً، فما حكمُ هذا الماءِ؟

مَنْ قَالَ إنْ أَقْسَامَ المِيَاهِ ثَلَاثَةٌ: قَالَ هَذَا المَاءُ طَاهِرٌ غَيْرُ مُطَهَّرٍ.

وَمَنْ قَالَ إنْ أَقْسَامَ المِيَاهِ قِسْمَانِ: قَالَ هَذَا المَاءُ طَهُورٌ مُطَهَّرٌ.

وهذا الاختلافُ لا يُعَدُّ في الحقيقةِ اختلافَ قلوبٍ، بلِ اختلافَ أفهامٍ، وكلُّ واحدٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ، قامَ بما يجبُ عليه مِنَ النَّظَرِ، ولكنَّهُ لم يَهْتَدِ إلى أَكْثَرِ مِمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ فَهَمُّهُ، ولا يَكْلِفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.

وَالصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ المَاءَ قِسْمَانِ، قِسْمٌ غَيَّرَتِ النِّجَاسَةُ طَعْمَهُ أَوْ لَوْنَهُ أَوْ رِيحَهُ، فَهُوَ نَجِسٌ، وَالْآخَرُ طَهُورٌ وَهُوَ مَا لَمْ يَتَغَيَّرْ بِالنِّجَاسَةِ، وَعَلَى هَذَا فَالْمَاءُ الَّذِي غُمِسَتْ فِيهِ يَدُ مَنْ قَامَ مِنَ النُّومِ لَيْلًا يُعْتَبَرُ طَهُورًا، وَيَجُوزُ التَّطَهُّرُ بِهِ، وَيَرْفَعُ الْحَدَثَ.

المثال الثاني: عدة المرأة إذا توفى عنها زوجها وهي حامل:

وَمَنْ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا فِي عِدَةِ الْمَرْأَةِ إِذَا تُوفِيَ عَنْهَا زَوْجُهَا وَهِيَ حَامِلٌ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: تَعْتَدُّ بِأَطْوَلِ الْأَجَلَيْنِ: وَضِعَ الْحَمْلِ، أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ، فَإِنْ وَضَعَتْ قَبْلَ تَمَامِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَشْرٍ، وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تُكْمَلَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَإِنْ تَمَّتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا قَبْلَ أَنْ تَضَعَ، وَجَبَ عَلَيْهَا أَنْ تَنْتَظِرَ حَتَّى تَضَعَ.

فَإِنْ تُوفِيَ عَنْهَا زَوْجُهَا فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ مُحْرِمٍ، وَوَضَعَتْ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ فِي شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ فَلَا تَنْقُضِي عِدَّتَهَا، وَيَبْقَى عَلَيْهَا شَهْرَانِ وَعَشْرَةُ أَيَّامٍ.

وَإِنْ تُوفِيَ عَنْهَا زَوْجُهَا فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرِ مُحْرِمٍ، وَمَضَى أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَهِيَ:

محرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثاني، جمادى الأول، وهي لم تضع فتتظر حتى تضع، وهذا رأي من آراء العلماء ومن رأى هذا الرأي: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبد الله بن عباس وناهيك بهما علما وفقها^(١).

ومن العلماء من قال تعتد بوضع الحمل، وإن صارت مدته أقل من أربعة أشهر وعشر، فإذا وضعت بعد موت زوجها ولو بليلة واحدة انتهت عدتها، وهذا القول قول جمهور أهل العلم^(٢).

والذي يحكم بين هؤلاء وهؤلاء هو كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، فكل واحدة من الآيتين فيها عموم:

الآية الأولى: تشمل من اعتدت لوفاة، ومن اعتدت لطلاق.

الآية الثانية: تشمل من كانت حاملاً أو غير حامل، فلا سبيل إلى الأخذ بالآيتين، إلا إذا قلنا بأنها تعتد بأطول الأجلين، وإلى هذا ذهب علي، وابن عباس رضي الله عنهما.

أما السنة: فنجد أن السنة دلت على أن المعتبر الحمل، ولو قلت مدته.

ودليله ما ثبت في الصحيحين، عن سبيعة الأسلمية رضي الله عنها، أنها نفست بعد موت زوجها بليال لم تبلغ شهراً، ولم تبلغ أربعة أشهر وعشراً، فأذن لها

(١) انظر الشرح الكبير على متن المقنع لابن قدامة (٧٩ / ٩).

(٢) انظر زاد المعاد (٥٢٨ / ٥).

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَتَزَوَّجَ، وبهذا عُرِفَ أَنَّ الْمُعْتَبَرَ هُوَ وَضْعُ الْحَمْلِ، وَأَنَّ قَوْلَ الْجُمْهُورِ هُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ السَّنَةَ دَلَّتْ عَلَيْهِ^(١).

هَذَا الْخِلَافُ الَّذِي يَحْصُلُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ لَا يَضُرُّ؛ لِأَنَّ كُلَّ قَصْدِهِمُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَتِ الْأَفْهَامُ، أَوْ اخْتَلَفَتِ الْعُلُومُ، فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْطِيهِ اللَّهُ تَعَالَى فَهْمًا قَوِيًّا، وَيَفْهَمُ مِنَ النَّصِّ مَا لَا يَفْهَمُهُ غَيْرُهُ، وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ فَهْمُهُ قَاصِرًا، وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْطِيهِ اللَّهُ عِلْمًا، وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقِلُّ عِلْمُهُ، فَهَذَا الْاِخْتِلَافُ لَا يَدْخُلُ فِي الْاِخْتِلَافِ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ اِخْتِلَافٌ فِي الْمَفْهُومِ وَلَا يَضُرُّ.

وَلَكِنْ الْمَشْكَلُ أَنَّ نَجْدًا أَنَّ بَعْضَ الْخِلَافِ يَصُلُّ إِلَى الْاِخْتِلَافِ فِي الْقُلُوبِ، وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ أَنَّ تَخْتَلِفَ الْقُلُوبُ، فَتَحْمِلُ الْأَحْقَادَ عَلَى الْآخَرِينَ، وَأَنَّ تَتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ، وَأَنَّ تُشِيعَ الْخَطَأَ، وَتَكْتُمَ الصَّوَابَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الَّذِي نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنفَرُقُوا فِيهِ﴾.

فَيَجِبُ عَلَيْنَا إِذَا رَأَى أَحَدُنَا مِنْ أَخِيهِ خَطَأً أَنْ يَتَّصِلَ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْمَحَبَّةِ، مَحَبَّةِ الْخَيْرِ لَهُ، وَمَحَبَّةِ تَصْحِيحِ الْخَطَأِ سِرًّا لَا عِلَانِيَةً، وَيَتَنَاقَشُ مَعَهُ، وَإِذَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْهُمَا حُسْنَ النِّيَّةِ، فَكَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الزَّوْجَيْنِ: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النِّسَاءُ: ٣٥]، هَذَا وَهُوَ خِلَافٌ بَيْنَ رَجُلٍ وَزَوْجَتِهِ، فَكَيْفَ بِالْخِلَافِ بَيْنَ قَادَةِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَطَلِبَةِ الْعِلْمِ.

فَإِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ وَنَظَرُوا سَبَبَ هَذَا الْخِلَافِ، وَأَرَادُوا الْإِصْلَاحَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوَفِّقُ بَيْنَهُمْ، وَيُدْلِّهِمْ عَلَى الْحَقِّ، أَمَا أَنْ يَأْخُذَ النَّاسُ مِنْ هَذَا الْخِلَافِ سَبَبًا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ إِذَا عَرَضَ بِنْفِي الْوَلَدِ، رَقْمُ (٥٣٠٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ انْقِضَاءِ عِدَّةِ الْمُتَوَفَى عَنْهَا زَوْجِهَا...، رَقْمُ (١٥٠٠).

لاختلاف القلوب والتفرق وتتبع الزلات، فلا شك أن هذا خلاف ما أمر الله به من وجوب الاتفاق وجمع الكلمة، وأنه وقوع في المنهي عنه من التفرق، وأن ذلك سوف يقتل النهضة الإسلامية التي وجدت الآن والله الحمد بين شباب هذه الأمة وغيرها.

وبسبب هذا الاختلاف نشأ بين الشباب مشاكل في مسائل تتعلق بالعقيدة، ومسائل تتعلق بالأشياء الاجتماعية، وكان من نتيجة ذلك تفرق الشباب بسبب هذا الخلاف؛ لأنهم لم يجدوا حكماً يرجعون إليه يحكم بينهم، وهذا لا شك أنه خطر عظيم على هذه النهضة الإسلامية.

فالواجب الإصلاح ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، حتى يزول هذا الخلاف وتنشأ المحبة في القلوب، ويزول عنها هذا الصدا الذي سوف يفتتها حتى تتكسر، نسأل الله السلامة والعافية.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] ﴿كَبُرَ﴾ بمعنى عَظُمَ، والذي يدعُوهم إليه: هو الدعوة إلى التوحيد، وهي عند المشركين كبيرة عظيمة؛ لأنها تنافي مقصدهم، فهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، والعُجَابُ أن يجعل الكافرون مع الله إلهاً آخر، وليس العُجَابُ أن يوحدوا الله، لكن هؤلاء المشركين قد نكس الله قلوبهم فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

تحقيق قول لا إله إلا الله:

كل المسلمين يقولون سرّاً وعلناً: أشهد أن لا إله إلا الله، فمنابر المساجد يُرفع فيها كل يوم خمس مرات قول: أشهد أن لا إله إلا الله، والمسلمون في صلواتهم

يقرأون التشهد ويقولون: أشهد أن لا إله إلا الله، وإذا تطهر المسلم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فكل المسلمين يقولون هذا ولا يطبقونه بفعلهم، إلا قليلاً منهم.

فتجد القائل من هؤلاء القليل يقول: لا إله إلا الله، ولكنه يعتقد أن الولي المعين، أو الإمام المعين، هو الذي يرجع إليه في الشكوى والتضرع وكشف الكربات وما أشبه ذلك، حتى أننا نسمع أنه من الناس من يدعو الله سبحانه وتعالى في الأمور السهلة، ويدعو غير الله في الأمور الصعبة، فهذا لا يكون محققاً لقول لا إله إلا الله، ومناقضاً لقول لا إله إلا الله، فكيف تقول لا إله إلا الله وتعبّد غير الله.

فكل من عبّد غير الله فقد عبّد الشيطان، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فهؤلاء المتعلقون بالأولياء أو بالأئمة يدعونهم من دون الله ويفزعون إليهم عند الشدائد هؤلاء مشركون بالله، ولا ينفعهم قول لا إله إلا الله، لا تنفعهم يوم القيامة، وقد سَفَّهَ اللهُ هؤلاء وبينَ ضلالهم فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَّهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وملة إبراهيم هي الحنيفية السمحة، والتوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وضللَّ اللهُ سبحانه وتعالى هؤلاء، فسَفَّهَ عقولهم، وضللَّ آراءهم؛ فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾، استفهام بمعنى النفي، يعني لا أحد أضلُّ ﴿مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا

يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ [الأحقاف: ٥] لا يستجيبون لهم كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وتكون النتيجة يوم القيامة: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

فعلى من يدعون الأئمة والأولياء، أن يعلموا أن هؤلاء الأئمة وهؤلاء الأولياء الذين يدعونهم لن ينفعوهم أبداً، ولن يكشفوا عنهم ضرراً، وأن يتقوا الله عز وجل، وأن ينيبوا إلى الله وحده وأن يرجوا الله وحده لكشف الكربات، وأن يدعوا الله وحده لحصول المطلوبات، لأن هؤلاء الأئمة والأولياء قد ماتوا وأصبحوا جثثاً هامدة، وربما تكون الأرض قد أكلتهم، ولم يبق منهم إلا عجب الذنب^(١)، فكيف يدعونهم من دون الله.

وربما يُبتلى الإنسان فيدعو هذا الولي أو هذا الإمام، ثم يحصل له المطلوب، فإذا حصل هذا الأمر، فإننا نعلم علم اليقين أنه ليس هذا الإمام أو هذا الولي هو الذي أعطاه هذا المطلوب، لقوله تعالى: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

لكن حدث المطلوب عند هذا الفعل لا بهذا الفعل، وفرق بين حصول الشيء عند الشيء، وحصول الشيء بالشيء، إذا قلت حدث الشيء بالشيء، فمعناه أنه كان سبباً في حصوله، وإذا قلت حصل عنده، فمعناه أنه كان وقت حصوله، ولكنه ليس هو السبب.

(١) هو العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز. النهاية عجب.

فربما يُفْتَنُ الْعَبْدُ وَيُبْتَلَى وَيَحْصُلُ مَطْلُوبُهُ عِنْدَ هَذَا الشَّيْءِ، وَلَيْسَ بِهَذَا الشَّيْءِ،
لأننا نعلمُ علمَ اليقينِ أن هؤلاء المدعوين لا يستجيبون لأحد: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا
يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾
[فاطر: ١٤].

وسبحان الله! هؤلاء المدعوون إذا كان يومُ القيامةِ كفروا بشركٍ من أشرك
بهم، وكانوا أعداءَ لهم، مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ: ﴿وَإِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ٣١ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنتَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴿[البقرة: ١٦٦-١٦٧]، انظر يومَ القيامةِ، هؤلاء الأتباعُ يَتَمَنُونَ أن
تكونَ لهم رَجْعَةٌ إلى الدنيا؛ مِنْ أَجْلِ أن يتبرَّءوا مِنْ هؤلاء، كما تبرَّأ منهم هؤلاء في
الآخرة.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ
النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]؛ لَأَن ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وعلى طلبة العلم أن يُبينوا لهؤلاء خطأهم وضلالهم، وأنهم منحرفون عن
صراطِ الله الذي هدى إليه مَنْ شاءَ مِنْ عِبَادِهِ؛ لَأَن واجبَ طلبة العلم أن يُبينوا
للنَّاسِ ما نُزِّلَ إلى محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وسلم.



الدَّرْسُ الثَّانِي:

إِنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَبَلَغَ الرِّسَالَةَ، وَأَدَّى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَتَرَكَهَا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيضَاءَ، لَيْلَهَا كُنْهَارُهَا، لَا يَزِغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ، فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ شَرَعَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ خُلَاصَةً مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ، وَعَلَى رَأْسِهِمُ الرُّسُلُ الْخَمْسَةُ، أُولُو الْعِزِّ، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٌ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ هُمْ أُولُو الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ، وَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعٍ، فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ، فَهَذَا يَقُولُ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، وَقَالَ فِي الْأَحْزَابِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧].

وَالْوَصِيَّةُ بِالشَّيْءِ تَدُلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ وَالْعَنَايَةِ بِهِ، وَهَذَا الشَّيْءُ الْمَوْصَى بِهِ وَالْمَوْحَى بِهِ هُوَ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، كَلِمَتَانِ: إِقَامَةُ الدِّينِ، وَعَدَمُ التَّفَرُّقِ فِيهِ، أَمَّا إِقَامَةُ الدِّينِ فَأَنْ نَكُونَ جَمِيعًا مُتَعَاوِنِينَ عَلَى تَنْفِيزِ شَرِيعَةِ اللَّهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ، وَمَنْ

ذَٰلِكَ أَنَّ نُقِيمَهَا بِأَنْفُسِنَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَبْدَأُ بِنَفْسِهِ قَبْلَ غَيْرِهِ، فَإِذَا أَقَمْنَا دِينَ اللَّهِ فِي أَنْفُسِنَا وَفِي عِبَادِ اللَّهِ؛ فَهَٰذَا هُوَ امْتِثَالُ قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾، وَيَلْزَمُ مِنْ هَٰذَا أَنَّ نَتَّعَاوَنَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، إِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا قَائِمًا بِمَشْرُوعِ بِرٍّ أَعْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا وَأَبْدَانِنَا وَأَقْوَالِنَا وَجَاهِنَا، بِكُلِّ مَا نَسْتَطِيعُ، وَإِذَا رَأَيْنَا شَخْصًا مُتَّقِيًا لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ نُعِينُهُ عَلَى التَّقْوَى، وَعَلَى تَرْكِ الْمَحَارِمِ، وَنَصْبِرُهُ عَلَى ذَٰلِكَ، وَنَقُولُ لَهُ: اصْبِرْ عَنِ الْمَحْرَمِ، وَإِنْ جَادَلْتِكَ نَفْسُكَ فَاصْبِرْ وَصَابِرْ وَرَابِطٌ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

وَيَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَيْضًا أَنْ نَتَوَاصَى بِالْحَقِّ، وَأَنْ نَتَوَاصَى بِالصَّبْرِ، وَأَنْ نَتَوَاصَى بِالْمَرْحَمَةِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿[العصر: ١-٢]، اسْتَشْنَى مَنْ؟﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿[العصر: ٣].

نَتَوَاصَى بِالْحَقِّ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَمَعْنَى التَّوَاصَى بِهِ أَيُّ: يُوصِي بَعْضُنَا بَعْضًا، كَمَا يُوصِي الرَّجُلُ عِنْدَ مَوْتِهِ عَلَى صِغَارِ أَطْفَالِهِ، وَكَذَٰلِكَ نَتَوَاصَى بِالصَّبْرِ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ يَحْتَاجُ إِلَى مُثَابَرَةٍ، إِذَا لَمْ يَصْبِرِ الْإِنْسَانُ عَلَى الْحَقِّ عَجَزَ وَاسْتَحْسَرَ وَتَرَكَهُ؛ وَلِهَٰذَا يُقَالُ: إِنَّ الصَّبْرَ ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٍ، بَعْضُهَا أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ:

الْأَوَّلُ: الصَّبْرُ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ.

الثَّانِي: الصَّبْرُ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

الثَّالِثُ: الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَمَةِ.

فَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى أَوَامِرِ اللَّهِ فَأَنْ يَصْبِرَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَا يُصِيبُهُ مِنْ تَنْفِيدِ الطَّاعَةِ؛ لِأَنَّ الطَّاعَةَ شَاقَّةٌ عَلَى النَّفْسِ، لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ تَنَقَّادُ نَفْسُهُ إِلَى الطَّاعَةِ، وَأَيْضًا قَدْ تَنَقَّادُ

نفسه إلى الطاعة ويحبُّ الخير؛ لكنه يعبدُ اللهَ بالهوى، لا بالهدى، فتنبه لذلك، يعبدُ اللهَ بالهوى لا بالهدى، فتجده تأخذه العاطفة الدنيئة حتى يزيد في دين الله، ويغلو في دين الله، ويُسَدِّد في دين الله على نفسه وعلى غيره؛ لأنَّ عنده عاطفة قوية في الدين، وغيرة عظيمة؛ لكنه لا يُحْكِم هذه العاطفة ويُقرنها بالعقل؛ ولهذا يُقال: النَّاسُ أَقْسَامٌ، مِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ عَاطِفَةٌ وَعَقْلٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ بَلَا عَاطِفَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ عِنْدَهُ عَاطِفَةٌ بَلَا عَقْلٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ عَاطِفَةٌ وَلَا عَقْلٌ، وَأَكْمَلُ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا مَنْ عِنْدَهُ عَاطِفَةٌ وَعَقْلٌ؛ لَأَنَّهُ لَوْ لَا الْعَاطِفَةُ مَا نَشِطَ الْإِنْسَانُ وَلَا تَحَرَّكَ، وَلَوْ لَا الْعَقْلُ لَكَانَ تَصَرُّفُهُ أَخْرَقَ؛ إِمَّا فِي غُلُوٍّ، وَإِمَّا فِي تَقْصِيرٍ، فَإِذَا اجْتَمَعَتِ الْعَاطِفَةُ الَّتِي تَحْذُوهُ وَتُحْسِنُهُ عَلَى الْعَمَلِ وَعَلَى الْإِقْبَالِ مَعَ الْعَقْلِ الَّذِي يَحْكُمُ صَنِيعَهُ حَصَلَ الْكَمَالُ، عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا بَدَّ مَنْ أَنْ نَتَوَاصَى بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ.

وَأَمَّا الصَّبْرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ فَالْمَعْاصِي كَثِيرَةٌ، وَهِيَ إِمَّا لِشَهْوَةِ الْفَرْجِ، أَوْ لِشَهْوَةِ الْبَطْنِ، أَوْ لِشَهْوَةِ الرَّئَاسَةِ، أَوْ لِشَهْوَةِ الْمَالِ، أَوْ لِشَهْوَةِ الْجَاهِ، فَالشَّهَوَاتُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، تَجْدُ بَعْضَ النَّاسِ يَمِيلُ إِلَى الْمَالِ، وَبَعْضُهُمْ يَمِيلُ إِلَى الْجَاهِ، وَبَعْضُهُمْ يَمِيلُ إِلَى الرَّئَاسَةِ، وَبَعْضُهُمْ يَمِيلُ إِلَى النِّسَاءِ، تَخْتَلِفُ الْإِرَادَاتُ وَالْأَهْوَاءُ فِي الْمَعْاصِي، لَكِنْ لَا بَدَّ مِنَ الصَّبْرِ عَنِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، بَأَنْ تَحْبَسَ نَفْسُكَ، لَوْ صَوَّرْتَ لَكَ نَفْسُكَ أَنْ تَعْمَلَ الْمَعْصِيَةَ فَاحْبِسْهَا وَجَاهِدْهَا، حَتَّى تَكْمُنَ.

وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلِّمَةِ؛ فَذَلِكَ لِأَنَّ أَقْدَارَ اللَّهِ تَتَنَوَّعُ؛ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُؤَلِّمَةً، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُلَائِمَةً، فَالْمُلَائِمَةُ مَا يُلَائِمُ الطَّبِيعَةَ وَتَرْتَاحُ لَهُ، وَالْمُؤَلِّمَةُ مَا لَا يُلَائِمُ الطَّبِيعَةَ وَلَا تَرْتَاحُ لَهُ، فَالْمَرُضُ -مَثَلًا- مِنَ الْأَقْدَارِ الْمُؤَلِّمَةِ، وَكَذَلِكَ الْفَقْرُ،

والجذب، والقحط، وتلف الأموال، كل ذلك مؤلم، والصحة، والأولاد، والزوجات، والمال هذه من الأقدار الملائمة، والأقدار الملائمة في الحقيقة تحتاج إلى صبر أيضاً، وهو الصبر على شكر النعمة، لكن الأقدار المؤلمة هي التي نريدها هنا، الصبر على أقدار الله المؤلمة، الإنسان يُبتلى في الدنيا ولا شك، ولا أحد يسلم من الابتلاء في الدنيا، والشاعر يقول:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نَسَاءً وَيَوْمٌ نَسْرٌ^(١)

فكر في نفسك، تأمل حياتك، هل ينطبق عليك هذا البيت أو لا؟ نعم، الغالب أنه ينطبق، تجد الإنسان يوماً من الأيام مسروراً مُشرَحَ الصدر، وفي اليوم الثاني بالعكس، وفي اليوم الثالث كالיום الأول، وفي اليوم الرابع كالיום الثاني، وهكذا، سواءً أكان يوماً بعد يوم، أو يومين بعد يومين، أو ثلاثة بعد ثلاثة، المهم أن الدنيا لا تتم لأحد، لا بد من أقدار مؤلمة، فالواجب علينا أن نقابل هذه الأقدار بالصبر؛ وذلك أن الإنسان أمام هذه الأقدار لا يخلو من أربع حالات:

الأولى: الجزع.

الثانية: الصبر.

الثالثة: الرضا.

الرابعة: الشكر.

فأما الأول وهو الجزع فواضح، إذا أصيب بالمصيبة جزع وتسخط، وعلامة

(١) البيت للنمر بن تولب؛ ينظر: «ديوانه» (ص: ٥٧).

ذَلِكَ إِمَّا بِالْقَوْلِ، وَإِمَّا بِالْفِعْلِ، أَيْ: إِنَّ عَلاَمَةَ الْجَزَعِ إِمَّا قَوْلِيَّةٌ أَوْ فَعْلِيَّةٌ، فَمِنْ
الْعَلَامَاتِ الْقَوْلِيَّةِ أَنْ يَشْتَمَ الدَّهْرَ، وَيَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ
مِنْ دَعَاوَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَمَّا الْعَلَامَاتُ الْفَعْلِيَّةُ فَمِثْلُ نَتْفِ الشَّعْرِ، وَصَفْعِ الْخُدُودِ،
وَشَقِّ الْجُيُوبِ، وَخَشِّ الصُّدُورِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

إِذَنْ؛ الْجَزَعُ أَنْ يَتَسَخَّطَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَلَا يَرْضَاهُ بِقَلْبِهِ، وَعَلَامَتُهُ -
كَمَا سَبَقَ - إِمَّا قَوْلِيَّةٌ، وَإِمَّا فَعْلِيَّةٌ.

وَأَمَّا الثَّانِي وَهُوَ الصَّبْرُ فَإِنْ يَتَأَلَّمُ لِلْمَقْدُورِ لَكِنْ يَصْبِرُ، يَحْبِسُ لِسَانَهُ، وَيَحْبِسُ
جَوَارِحَهُ، وَيَحْبِسُ قَلْبَهُ، فَلَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ سَخَطٌ عَلَى الْقَضَاءِ، وَلَا فِي لِسَانِهِ قَوْلٌ
مُحَرَّمٌ، وَلَا فِي جَوَارِحِهِ فِعْلٌ مُحَرَّمٌ، لَكِنَّهُ مُتَأَلِّمٌ بِمَا أَصَابَهُ، كَرَجُلٍ أُصِيبَ بِفَقْدِ مَالٍ،
فَتَرَاهُ يَتَأَلَّمُ؛ وَلَكِنَّهُ قَدْ حَبَسَ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ وَجَوَارِحَهُ، فَهَذَا هُوَ مَقَامُ الصَّبْرِ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ فَالرِّضَا، وَهَذَا الْمَقَامُ هُوَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَأَلَّمُ؛ بَلْ يَكُونُ مُتَمَاشِيًا
مَعَ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، وَقَضَاءِ اللَّهِ لَهُ مَا يُلَاقِيهِ، أَوْ مَا يُؤْلِمُهُ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ؛ لِأَنَّهُ
رَاضٍ تَمَامًا بِالْقَضَاءِ، لَا يَتَأَلَّمُ، يَقُولُ: هَذَا قَضَاءُ اللَّهِ، وَهُوَ رَبِّي يَفْعَلُ بِي مَا شَاءَ، فَأَنَا
رَاضٍ، لَا أَتَأَلَّمُ، وَكَأَنَّ الَّذِي يُؤْلِمُنِي يُلَاقِيَنِي، وَوَاضِحٌ أَنَّ هَذَا الْمَقَامَ أَعْلَى مِنْ
مَقَامِ الصَّبْرِ.

وَأَمَّا الرَّابِعُ وَهُوَ الشُّكْرُ فَإِنْ يَشْكُرُ اللَّهُ عَلَى مَا أَصَابَهُ بِمَا يُؤْلِمُهُ، وَلَكِنْ هَذَا يَبْدُو
وَكأنَّه أَمْرٌ مُسْتَحِيلٌ، كَيْفَ يَشْكُرُ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ عَلَى شَيْءٍ يُؤْلِمُهُ؟ وَلَكِنْ يُقَالُ: إِنَّ ذَوِي
الْأَرْبَابِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَنَازِلِ الرَّفِيعَةِ، لَا يَتَعَذَّرُ هَذَا بِحَقِّهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا
الْقَضَاءِ أَوْ إِلَى هَذِهِ الْمَصِيبَةِ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِهَا إِهَانَةُ الْمَصَابِ، وَإِنَّمَا يَرَوْنَ أَنَّ الْمَرَادَ

بِهَا وَالْحِكْمَةُ مِنْهَا أَنْ يَعْلَوْ الْمَصَابُ دَرَجَاتٍ، وَيُكَفِّرُ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ، فَيَشْكُرَ اللَّهُ عَلَى نَتَائِجِهَا وَثَمَرَاتِهَا؛ لِأَنَّهُ يُكَفِّرُ بِهَا -أَي: بِهَذِهِ الْمَصَائِبِ- مِنْ خَطَايَاهُ، وَيَعْلُو بِهَا أَيْضًا دَرَجَاتٍ فِي الْآخِرَةِ، إِذَا نَظَرَ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ انْقَلَبَتْ هَذِهِ الْمَصِيبَةُ أَوْ هَذِهِ الْمَحَنَةُ مَنَحَةً، وَالْمَنَحَةُ يُشْكُرُ عَلَيْهَا. لَكِنْ هَذِهِ مَنَازِلٌ عَالِيَةٌ، لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا الْوَاحِدُ مِنَ الْأَلْفِ.

فَالنَّاسُ إِذَنْ أَمَامَ الْمَصَائِبِ لَهُمْ أَحْوَالٌ أَرْبَعٌ: سَخَطٌ، وَصَبْرٌ، وَرِضًا، وَشُكْرٌ.

حُكْمُ هَذِهِ الْأَحْوَالِ:

أَمَّا السَّخَطُ فَحَرَامٌ، وَمِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»^(١).

فَالْجَزَعُ ضَلَالٌ فِي الدِّينِ، وَسَفَهٌ فِي الْعَقْلِ أَيْضًا؛ لِأَنَّ هَذَا الْجَزَعَ لَا يَرُدُّ الْمَصِيبَةَ، وَلَا يَخَفِّفُ مِنْهَا؛ بَلْ يُزِيدُهَا أَلَمًا؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: (إِذَا أُصِيبَتْ بِمُصِيبَةٍ فَإِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ، وَإِمَّا تَسْلُوَ سُلُوكَ الْبَهَائِمِ)، سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا صَحِيحٌ، إِمَّا أَنْ تَصْبِرَ صَبْرَ الْكِرَامِ، وَإِمَّا أَنْ تَسْلُوَ سُلُوكَ الْبَهَائِمِ، يَعْنِي تَنْسَى الْمَصِيبَةَ، هَذَا مَعْنَى السَّلَوكِ.

وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَّا إِلَّا وَقَدْ أُصِيبَ مُصِيبَةً أَلَمَتْهُ، وَلَكِنْ بِطَوِيلِ الزَّمَنِ يَنْسَاهَا وَيَسْلُو عَنْهَا، فَإِذَا صَبَرَ عَلَيْهَا حِينَ الْمَصِيبَةِ نَالَ دَرَجَةَ الصَّابِرِينَ، وَإِنْ تَسَخَّطَ نَزَلَ عَنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَلَمْ يَغْنِ عَنْهُ التَّسَخُّطُ وَالْجَزَعُ شَيْئًا؛ وَلِهَذَا مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ وَهِيَ عِنْدَ قَبْرِ ابْنِهَا تَبْكِي، فَقَالَ لَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يَا هَذِهِ أَتَقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي»، فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢١٨).

وأخبرت به، جَاءَتْ تَعْتَذِرُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى»^(١).
إِذَنْ؛ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَجْزَعُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ لَنْ يَسْتَفِيدَ أَبَدًا، فَجَزَعُهُ ضَلَالٌ فِي
الدِّينِ، وَسَفَهٌ فِي الْعَقْلِ.

وَأَمَّا الصَّبْرُ فَحُكْمُهُ فَوَاجِبٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَثَوَابُهُ عَظِيمٌ: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
[الزمر: ١٠]، فَاصْبِرْ، وَتَحَمَّلْ، وَثِقْ أَنَّ الْحَالَ سَتَتَغَيَّرُ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الْمَسَاءِ، وَالْجَزَعُ
وَالْحُزْنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أَصَابَكَ فِي الْمَصِيبَةِ إِذَا صَبَرْتَ سَوْفَ يَنْقَلِبُ بَرْدًا وَسَلَامًا فِي
آخِرِ النَّهَارِ.

أَمَّا حُكْمُ الرِّضَا، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّهُ وَاجِبٌ كَالصَّبْرِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ
مُسْتَحَبٌّ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَقُومُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ، فَلَوْ أَوْجَبْنَاهُ
عَلَى النَّاسِ لَأَلْزَمْنَاهُمْ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُونَ، فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ.
وَحُكْمُ الشُّكْرِ أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ، مِنْ بَابِ أُولَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ الرِّضَا مُسْتَحَبًّا؛
فَالشُّكْرُ مِنْ بَابِ أُولَى؛ لِأَنَّهُ رِضَا وَزِيَادَةٌ، وَلَسْتُ أَتَكَلَّمُ الْآنَ عَلَى الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ،
وَإِنَّمَا أَتَكَلَّمُ عَنِ الشُّكْرِ عَلَى الْمَصِيبَةِ، فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ.

إِذَنْ؛ مِنْ جُمْلَةِ إِقَامَةِ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أَنْ
تَتَوَاصَى بِالصَّبْرِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ، وَمِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا أَنْ نَتَأَمَّرَ بِالْمَعْرُوفِ،
وَأَنْ نَتَنَاهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؛ حَتَّى نَكُونَ أُمَّةً وَاحِدَةً، تَتَفَقُّ فِي أَفْكَارِهَا وَاتِّجَاهَاتِهَا وَأَقْوَالِهَا
وَأَفْعَالِهَا وَأَحْوَالِهَا؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ نَأْمَرْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ تَفَرَّقْنَا وَلَا بَدَّ؛ لِأَنَّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، رقم (١٢٢٣).

صاحب المنكر يمشي مع فريقه، وصاحب المعروف يمشي مع فريقه، وهذا تفرُّق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا ﴿[آل عمران: ١٠٤، ١٠٥]، ولتكن منكم أمةٌ يدعون، ويأمرون، وينهون، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾، فدلَّ هذا على أن ترك الدعوة إلى الله، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سببٌ للتفرق ولا بدَّ، والأمة إذا تفرقت تنازعت، وإذا تنازعت فشلت وذهب ربحها، وصارت فريسةً لأعدائها.

ولهذا يقال: إن من سياسة الكفار تجاه المسلمين أنهم يأخذون بمبدأ يُسمى مبدأ فرّق تسد، يعني اجعل الناس يتفرقون تكن أنت السيد، وهذا حقيقة إذا تفرق المسلمون تنازعوا ففشلوا وذهبت ربحهم، وصاروا فريسةً لأعدائهم، فصار العدو يجلس يتفرج على تنازع المسلمين وتفرقهم، ويكون بأسهم بينهم، وعدوهم مُستريحًا.

تعريف المعروف والمنكر:

إذن نقول: من جملة إقامة الدين أن نتأمر بالمعروف وننهي عن المنكر، وهنا نقف لنسأل: ما هو المعروف؟ هل المعروف ما عرفه الناس، أو ما عرفه الشرع وأقره؟

والجواب: المعروف هو ما عرفه الشرع وأقره، لا ما عرفه الناس؛ لأن الناس قد يعرفون المنكر، وينكرون المعروف، وإنما المعروف ما عرفه الشرع وأقره كشرائع الإسلام، والمنكر ما أنكره الشرع وحذر منه كالمعاصي، هذا تعريف المعروف،

وتعريف المنكر، ولكن لا بدّ لذلك من شروط:

الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَالِمًا بِالْمَعْرُوفِ، يَعْنِي عَالِمًا بِأَنْ هَذَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، أَمَا إِذَا كَانَ جَاهِلًا فَكَيْفَ يَأْمُرُ؟! وَلِهَذَا يُفْسِدُ الْجَاهِلُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَهُوَ يَجْهَلُهُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ تَجَدُّهُ عَلَى مَنْكَرٍ! وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا فِي الْبَدْعِ فِي الدِّينِ، الْبَدْعُ الَّتِي تَقْسِمُ الْأَعْنَاقَ وَالظُّهُورَ، وَيَحْسِبُهَا الْجَاهِلُ حَقًّا وَهِيَ بَاطِلٌ، هِيَ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْجَاهِلُ، فَيُغْرَوْنَ الْعَوَامُّ، تَأْتِي لِلشَّخْصِ تَقُولُ لَهُ: هَذَا مَنْكَرٌ، فَيَقُولُ لَكَ: مَنْكَرٌ! فَلَنْ أَمُرَّ بِهِ، فَكَيْفَ يَكُونُ مَنْكَرًا؟! وَالَّذِي أَمَرَهُ بِهِ جَاهِلٌ؛ وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ تَأْمُرَ بِشَيْءٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ حَتَّى تَكُونَ عَالِمًا بِأَنَّهُ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ، وَإِلَّا كُنْتَ مَسْئُولًا مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّكَ نَسَبْتَ هَذَا الشَّيْءَ إِلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ وَلَيْسَ مِنْهُ، وَمِنْ جِهَةِ أُخْرَى أَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ عِبَادَ اللَّهِ، وَلَيْسَ مِمَّا تَعْبُدُهُمُ اللَّهُ بِهِ.

الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَالِمًا بِأَنْ هَذَا الشَّخْصُ تَرَكَ الْمَعْرُوفَ، فَلَا يَأْمُرُ بِشَيْءٍ وَفِيهِ احْتِمَالٌ أَنَّ الْمَأْمُورَ قَدْ فَعَلَهُ، حَتَّى يَسْتَفْسَرَ وَيَنْظُرَ؛ هَلْ فَعَلَ أَوْ لَمْ يَفْعَلْ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ الْمَأْمُورَ قَدْ فَعَلَهُ؛ صَارَ مُتَسَرِّعًا غَيْرَ حَكِيمٍ فِي أَمْرِهِ. وَانْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ الرَّسُولِ ﷺ، كَانَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ الْمَسْجِدَ وَجَلَسَ، وَالْجُلُوسُ عِنْدَ دُخُولِ الْمَسْجِدِ تَرْكٌ لِلْمَعْرُوفِ، وَالْمَعْرُوفُ وَقْتُئِذٍ صَلَاةُ رَكْعَتَيْنِ تَحِيَّةُ الْمَسْجِدِ، جَلَسَ الرَّجُلُ وَلَمْ يَقُلْ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ قُمْ فَصَلِّ، لَمْ يَقُلْ لَهُ ذَلِكَ؛ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ صَلَّى؛ وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: «أَصَلَّيْتَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «قُمْ فَصَلِّ رَكْعَتَيْنِ، وَتَجُوزُ فِيهِمَا»^(١)، فَاسْتَفْسَرَ أَوَّلًا: هَلْ فَعَلَ هَذَا الْمَعْرُوفَ أَمْ لَمْ يَفْعَلْهُ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب من جاء والإمام يخطب صلى ركعتين، رقم (٨٨٤).

فلما قال: لا، قال: قم فصل ركعتين، إذن لا بد أن تكون عالماً بحال المأمور، وأنه لم يقم بما أمر الله به، فإن كنت جاهلاً في ذلك تسأل وتستفسر قبل أن تأمره.

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: لا بد أن يكون الأمر مفيداً، أي: أن يكون على وجه يقبل منه، بحيث لا يأتي بعنف وشدة تُوجب نفور المأمور؛ لأنك لو أتيت بشدة لنفّر المأمور من أمرك، لكن لو أتيت برفق ولين لم ينفر، واطمأنت نفسه، وانشرح صدره، وأحبك، وقبل منك، وهذا شيءٌ مشاهدٌ، نجد العالم الكبير يأمر هذا الشخص بالمعروف؛ لكن بعنفٍ، فلا يقبل، ويجيء عامي من السوق يتكلم معه بسهولة ولين، فتراه يقبل منه، الغالب أنه يقبل؛ لأن صيغة الأمر لها تأثير على المأمور، في المنكر يُشترط أن نعلم أن هذا منكرٌ حسب الشريعة الإسلامية، فإن لم نعلم لم يجوز لنا أن ننه عنه.

وهاهنا مثالان:

المثال الأول: رجلٌ وجدناه يتعبد الله بها لم يشرعه الله، فالأصل أن نُنكر؛ لأننا نعلم أنه على غير شريعة، ونقول: تعال، ما هذه الصلاة؟ ما هذا التسييح؟ ما هذا القول؟ ما هذا الفعل؟ كيف تتعبد لله بهذا الشيء؟ نُنكر عليه حتى يوجد دليل على أن هذا من شرع الله، وإنما قلنا بذلك لأن الأصل في العبادات المنع، وأنه لا يمكن أن يتعبد أحد لله إلا بدليل، أي إنسان تراه يتعبد بلا دليل أنكر عليه، وقل: هاتِ الدليل، إذا قال لك: ما دليلك على أن هذا منكر؟ تقول: ما دليلك أنت على أن هذا عبادة؟ والأصل ألا نتعبد لله إلا بما شرع، فالأصل في العبادات المنع، فننكر على كل إنسان أحدث عبادة لا نعلم أنها من شريعة الله حتى يأتينا بدليل.

المثال الثاني: رَجُلٌ وَجَدْنَاهُ يَعْمَلُ عَمَلًا غَيْرَ عِبَادَةٍ، فَالْأَصْلُ أَلَّا تُنْكِرَ عَلَيْهِ، الْأَصْلُ عَدَمُ الْإِنْكَارِ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي غَيْرِ الْعِبَادَاتِ الْحُلُّ وَالْإِبَاحَةُ؛ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى الْمَنْعِ، بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ؛ مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ حَضَرَ مُحَاضِرَةً فَجَاءَ بِمَسْجَلٍ يُسَجِّلُ الْمُحَاضِرَةَ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: هَذَا حَرَامٌ، وَأَنْكَرَ عَلَيْهِ غَايَةَ الْإِنْكَارِ؟ هَلْ هُوَ عَلَى صَوَابٍ أَمْ عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ؟

نقول: عَلَى غَيْرِ صَوَابٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ عِبَادَةً، أَنَا لَمْ آتِ بِالْمَسْجَلِ لِأَتَعْبَدَ اللَّهَ بِالْمَجِيءِ بِهِ؛ لَكِنْ لِأَحْفَظَ هَذِهِ الْمُحَاضِرَةَ بَدَلًا مِنْ أَنْ أُتْعِبَ يَدَيَّ بِالْكِتَابَةِ، وَيَفُوتَنِي بَعْضُ الْكَلِمَاتِ، أُسَجِّلُ وَأَسْتَمِعُ إِلَى هَذَا عَلَى طَمَآنِينَةٍ، لَمْ آتِ لِأَتَعْبَدَ اللَّهَ بِإِحْضَارِهِ، فَكَيْفَ تُنْكِرُ عَلَيْهِ، فَإِنْ قَالَ هَذَا الْمَعْتَرِضُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! هَلْ هَذَا الْمَسْجَلُ مَوْجُودٌ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ؟ قُلْنَا لَهُ: غَيْرُ مَوْجُودٍ؛ لَكِنَّ الشَّرِيعَةَ صَالِحَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَلَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا، اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، أَيْنَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ أَنَّ هَذَا مَمْنُوعٌ؟ قُلْ لِي، أَجِبْ، هَلْ أَنْتَ تَقْرَأُ كِتَابًا مَطْبُوعًا؟ أَسْأَلُ مَنْ قَالَ: الْمَسْجَلُ حَرَامٌ، أَقُولُ لَهُ: هَلْ أَنْتَ تَقْرَأُ كِتَابًا مَطْبُوعًا؟ فَإِنْ كَانَ يَقْرَأُ فَسَيَقُولُ: نَعَمْ، فَنَقُولُ لَهُ: هَلِ الْمَطْبَاعُ مَوْجُودَةٌ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ؟ لَا، إِذَنْ لَا تَقْرَأُ الْكِتَابَ الْمَطْبُوعَةَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مَطْبُوعَةٌ بِأَلَةٍ حَادِثَةٍ، مَا كَانَتْ مَعْرُوفَةً فِي عَهْدِ الرَّسُولِ، وَلَا عَهْدِ أَصْحَابِهِ، فَهِيَ بِدْعَةٌ، لَا تَقْرَأُ الْكِتَابَ الْمَطْبُوعَ أَبَدًا، إِذَنْ؛ فَلَا تُنْكِرُ عَلَى الْمَسْجَلِ.

نَخْلُصُ مِنْ هَذَا إِلَى أَنَّ الَّذِي يُنْكِرُ عَلَى صَاحِبِ الْمَسْجَلِ تَسْجِيلَ الْمُحَاضِرَاتِ النَّافِعَةِ الْقِيَمَةِ لَيْسَ عَلَى صَوَابٍ، بَلْ إِنَّ إِنْكَارَهُ هُوَ الْمُنْكَرُ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ: لَا تُنْكِرُ إِلَّا مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ فِي الشَّرْعِ.

جَاءَنَا آخَرٌ، وَقَالَ: كَيْفَ تُصَلِّي بِالْمِكْرَفُونِ؟ هَذَا بِدْعَةٌ، حَرَامٌ، هَذَا بَوَقُ الْيَهُودِ؛ وَقَالَ بِحَرْمَةِ اسْتِعْمَالِ الْمِكْرَفُونِ فِي الصَّلَاةِ وَالْأَذَانِ، فَلَمَّا قُلْنَا لَهُ: لِمَ إِذَا تَشَدَّدُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْمِكْرَفُونِ؟ قَالَ: هَلْ كَانَ الرَّسُولُ وَأَصْحَابُهُ يَسْتَعْمِلُونَهُ؟ قُلْنَا لَهُ: لَا، مَا كَانُوا يَسْتَعْمِلُونَهُ؛ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَسْتَعْمِلُونَهُ لِأَنَّهُ حَرَامٌ؛ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِي عَهْدِهِمْ؛ وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ لَهُمْ صَوْتٌ عَالٍ أَنْ يُبَلِّغُوا، بَلْ أَمَرَ الَّذِي رَأَى الْأَذَانَ فِي الْمَنَامِ أَنْ يُلْقِيَهُ عَلَى بِلَالٍ، وَقَالَ: «إِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»^(١)، وَأَمَرَ أَبَا طَلْحَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ أَنْ يُنَادِيَ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولُهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ»^(٢)، وَأَمَرَ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ فِي غَزْوَةِ حَنِينٍ أَنْ يُنَادِيَ الصَّحَابَةَ الَّذِينَ فَرُّوا: «يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ»^(٣)؛ لِأَنَّهُ كَانَ قَوِيَّ الصَّوْتِ.

إِذَنْ فَرَفَعُ الصَّوْتِ بِالتَّبْلِيغِ أَصْلُهُ مَوْجُودٌ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنَّ الْآلَةَ هَذِهِ لَمْ تَكُنْ مَوْجُودَةً وَقَتِيذٌ؛ وَالْآلَةُ وَسِيلَةٌ فَقَطُ لِإِبْلَاغِ الصَّوْتِ، وَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ أَقْرَبَ أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يُبَلِّغَ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ حِينَمَا صَلَّى فِي النَّاسِ مَرِيضًا، كَانَ أَبُو بَكْرٍ يَبْلُغُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ؛ دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ اسْتِعْمَالِ مَا يُبَلِّغُ الصَّوْتِ إِلَى الْمُصَلِّينَ.

لَكِنْ هُنَا أَمْرٌ يَجِبُ أَنْ نُشِيرَ إِلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَسْتَعْمِلُ هَذَا الصَّوْتَ

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأذان والسنة فيها، باب بدء الأذان، رقم (٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (٣٩٢٠)، ومسلم: كتاب الصيد والذبائح

وما يؤكل من الحيوان، باب تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، رقم (٣٥٩٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٣٨١ رقم ١٧٧٥).

عَلَى وَجْهِ يُؤْذِي الْآخَرِينَ، كَمَا يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْمَدِينِ وَالْقُرَى يَقْرَءُونَ أَوْ يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ بِالْمِيكَرْفُونِ، وَيُسْمَعُ مِنْ عَلَى الْمَنَارَةِ، وَيَسْمَعُهُ جِيرَانُهُ، جِيرَانُ الْمَسْجِدِ مِنْ الْمَسَاجِدِ أَوْ مِنَ الْبُيُوتِ، فَيَشُوشُ عَلَيْهِمْ تَشْوِيشًا بِالْغَا، حَتَّى إِنَّهُ بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ الَّذِينَ يُصَلُّونَ خَلْفَ هَذَا الْإِمَامِ إِذَا سَمِعُوا قِرَاءَةَ الْمَسْجِدِ الثَّانِي بِمَكْبَرِ الصَّوْتِ، وَكَانَ صَوْتُهُ لَذِيذًا وَقِرَاءَتُهُ جَيِّدَةً، صَارُوا يَسْتَمْعُونَ إِلَى قِرَاءَتِهِ، وَتَرَكُوا الْإِسْتِمَاعَ إِلَى قِرَاءَةِ إِمَامِهِمْ، وَصَارَ إِمَامُهُمْ كَأَنَّمَا يَقْرَأُ عَلَى خُشْبٍ مُسَنَّدَةٍ، لَا يَسْتَمْعُونَ إِلَّا إِلَى قِرَاءَةِ الْمَسْجِدِ الْجَيِّدِ.

وَبَلَّغْنِي أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ كَانَ يَسْتَمَعُ إِلَى قِرَاءَةِ الْإِمَامِ الثَّانِي فِي الْمَسْجِدِ الثَّانِي، فَلَمَّا قَالَ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] قَالُوا: آمِينَ، وَإِمَامُهُمْ يَقْرَأُ بِالْفَاتِحَةِ وَلَمْ يُكْمَلْ؛ لَكِنَّهُمْ اسْتَمَعُوا إِلَى قِرَاءَةِ الْمَسْجِدِ الثَّانِي.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الصَّنِيعَ وَقُوعٌ فِيمَا نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَعْصِيَةٌ لِلرَّسُولِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ إِلَى الْإِثْمِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى السَّلَامَةِ؛ لِأَنَّهُ يُؤْذِي إِخْوَانَهُ وَيُشْوشُ عَلَيْهِمْ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَيَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ، فَقَالَ لَهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «كُلُّكُمْ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَلَا يَجْهَرَنَّ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ»، أَوْ قَالَ: «فِي الْقِرَاءَةِ»^(١)، وَقَدْ رُويَ فِي هَذَا حَدِيثَانِ، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّهَا صَحِيحَانِ، أَحَدُهُمَا فِي الْمَوْطَأِ^(٢)، وَالثَّانِي فِي أَبِي دَاوُدَ، وَلَفْظُ أَبِي دَاوُدَ: «فَلَا يُؤْذِينَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا»^(٣)، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا أَذْيَةً، وَصَدَّقَ الرَّسُولُ

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٥/ ٣٢ رَقْم ٨٠٩٢).

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٥/ ٣٢ رَقْم ٨٠٩٢).

(٣) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فِي رَفْعِ الصَّوْتِ بِالْقِرَاءَةِ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ، رَقْم (١٣٣٤).

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لَأَنَّهُ يُؤْذِي وَيُشَوِّشُ وَيُزْعِجُ.

فَإِذَا أَنْكَرَ إِنْسَانُ الصَّلَاةَ فِي الْمِيكَرُوفُونَ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ فَإِنْكَارُهُ صَوَابٌ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي نَهَى عَنْهُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا أَدْرِي مَاذَا يَكُونُ جَوَابُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟! إِذَا كَانَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «لَا يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، بِالْقِرَاءَةِ»^(١)، أَوْ: «لَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا»^(٢)، وَثَبَتَ أَنَّ هَذَا يُشَوِّشُ عَلَى الْآخَرِينَ أَوْ يُؤْذِيهِمْ، لَا أَدْرِي مَاذَا يَكُونُ جَوَابُ هَذَا الْفَاعِلِ الَّذِي بَلَغَهُ حَدِيثُ الرَّسُولِ ﷺ؟! وَهُمَا حَدِيثَانِ اثْنَانِ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، صَحَّحَهُمَا ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ، وَقَدْ كَانَ يَكْفِي مِنَ الدَّلِيلِ حَدِيثٌ وَاحِدٌ، وَاللَّهُ لَا أَدْرِي مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهُ؟! وَلَا أَدْرِي مَاذَا يَكُونُ إِحْسَاسُهُ بِإِخْوَانِهِ وَهُمْ سَاجِدُونَ تَبَعًا لِإِمَامِهِمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ، وَصَوْتُ هَذَا يَخْرُقُ آذَانَهُمْ بِالْقِرَاءَةِ وَلَا يَدْرُونَ مَاذَا يَدْعُونَ بِهِ؟! هَذَا فِيهِ جِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى الْآخَرِينَ، مَعَ أَنَّ الْفَائِدَةَ مِنْ هَذَا قَلِيلَةٌ جَدًّا، إِنْ قُدِّرَ أَنَّ فِيهِ فَائِدَةً، نَقُولُ: فَإِذَا أَنْكَرَ إِنْسَانٌ هَذَا الصَّوْتِ أَوْ اسْتَعْمَالَ الْمَكْبَرِ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ فَإِنْكَارُهُ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُشَوِّشَ النَّاسَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أَوْ يَجْهَرَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَقَدْ صَرَّحَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ مَا يُشَوِّشُ بِهِ عَلَى الْمَصَلِّينَ، ذَكَرَهُ فِي الْفَتَاوَى وَغَيْرِهَا^(٣)، وَنَحْنُ فِي غِنَى عَنْ كَلَامِ أَيِّ إِنْسَانٍ مَا دَامَ عِنْدَنَا كَلَامُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الَّذِي قَالَ: «لَا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا»^(٤).

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٤).

(٣) الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٨٦).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب الصلاة، باب في رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٣٤).

أَوْ: «لَا يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ»^(١).

وَلِهَذَا فَإِنِّي مِنْ هَذَا الْمَكَانِ أُحْمَلُ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَسْئُولِيَّةَ أَمَامَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِذَا سَأَلَهُ مَاذَا صَنَعَ فِي التَّشْوِيشِ عَلَى إِخْوَانِهِ، وَكُونِهِمْ يَدْعُونَ مَنْ أَمَرُوا بِالْإِنْصَاتِ لَهُ فَيَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الْهَدَايَةَ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّ هَذَا بِمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ قَبْلَ قَلِيلٍ، وَهُوَ تَغْلِيبُ الْعَاطِفَةِ عَلَى الْعَقْلِ، الْإِنْسَانُ إِذَا تَعَقَّلَ، وَقَالَ: مَا الَّذِي يَحْمِلُنِي أَنْ أَعْصِيَ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَأُوذِيَ إِخْوَانِي وَأَشْوَشَ عَلَيْهِمْ فِي أَمْرٍ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، وَالْفَائِدَةُ مِنْهُ قَلِيلَةٌ، يَغْنِي لَوْ قُدِّرَ أَنَّ فِيهِ فَائِدَةً فَالْفَائِدَةُ قَلِيلَةٌ.

أَمَّا اسْتِعْمَالُ مُكْبِرِ الصَّوْتِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ - كَصَلَاةِ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ - فَمَنْ النَّاسِ مَنْ أَقْرَهُ، وَقَالَ: هَذَا لَيْسَ فِيهِ تَشْوِيشٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُقَرِّهِ، وَقَالَ: نَعَمْ هَذَا لَيْسَ فِيهِ تَشْوِيشٌ، لَكِنْ قَدْ يَحْصُلُ أحيانًا إِذَا قَالَ إِمَامُ الْمَسْجِدِ الْمَجَاوِرِ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، فَقَدْ يَقُومُ هَوْلَاءٌ، يَحْسِبُونَ أَنَّهُ إِمَامُهُمْ.

وَبَعْضُ النَّاسِ قَالَ: إِنَّ نَقْلَ الصَّلَاةِ السَّرِيَّةِ فِي مُكْبِرِ الصَّوْتِ رُبَّمَا يَحْمَلُ بَعْضَ الْمَصْلُوحِينَ عَلَى التَّوَانِي فِي أَدَاءِ الصَّلَاةِ، فَإِذَا سَمِعَ الْإِمَامَ قَدْ كَبَّرَ لِلرَّكْعَةِ الْأُولَى تَبَاطُأً، وَقَالَ: هَذِهِ الرَّكْعَةُ الْأُولَى، مَا زَالَ أَمَامَهُ ثَلَاثُ رَكَعَاتٍ، فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى التَّبَاطُؤِ، أَمَّا إِذَا لَمْ تَنْقُلْ عَبْرَ مُكْبِرِ الصَّوْتِ فَإِنَّهُ يَهَبُ مَتَى سَمِعَ الْإِقَامَةَ، وَلَا يَتَنَظَّرُ حَتَّى يُصَلِّيَ إِمَامُهُ رَكَعَةً أَوْ رَكَعَتَيْنِ، إِذَنْ فَفِي نَقْلِ الصَّلَاةِ السَّرِيَّةِ عَبْرَ مُكْبِرِ الصَّوْتِ مِنَ الْمَنَارَةِ شَيْءٌ مِنَ النَّظَرِ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ كَالصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ.

(١) أخرجه النسائي (٥/ ٣٢ رقم ٨٠٩٢).

فإن قيل: نقل الإقامة دون الصلاة، هل يُنكر؟

قلنا: بعض الناس أقره، وقال: لا مانع منه؛ لأنه يحث الناس على الحضور؛ ولأن النبي ﷺ قال: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَاْمْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا»^(١)، وهذا يدل على أن الإقامة تُسمع من خارج المسجد، فلا بأس به.

وقال آخرون: لا نُقره؛ لأنَّ عندنا مَنْ إِذَا قُلْنَا لَهُ: قُمْ صَلِّ، قَالَ: اصْبِرْ حَتَّى يُقِيمَ، وَإِذَا ذَهَبَ بَعْدَ الْإِقَامَةِ رُبَّمَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ؛ لَكِنَّ الَّذِي أَرَى أَنَّ الْإِقَامَةَ لَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهَا مِنْ مَكْبَرِ الصَّوْتِ مِنْ عَلَى الْمَنَارَةِ؛ لِأَنَّا نَقُولُ: إِذَا كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَاْمْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ»؛ دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ لَمْ يَقُمْ إِلَى الصَّلَاةِ إِلَّا بَعْدَ الْإِقَامَةِ؛ لَكَانَ مُثَمِّلًا لِأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ، مَعَ أَنَّ الْأَفْضَلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ حِينَ أَنْ يَسْمَعَ الْأَذَانَ.

كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا الْمُنْكَرُ لَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ، دَاخِلٌ فِي قَوْلِنَا: إِنَّ الْمُنْكَرَ لَا بَدَّ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّهُ مُنْكَرٌ، فَإِنْ شَكَكْنَا وَجَبَ عَلَيْنَا التَّوَقُّفُ.

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَلَّا يَزُولَ الْمُنْكَرُ إِلَى مَا هُوَ أَنْكَرُ مِنْهُ، يَعْنِي لَا تَنَهَ عَنِ مُنْكَرٍ فَيَفْعَلَ الْمَنْهِيَّ مَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَنْكَرُ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، سَبُّ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ وَاجِبٌ، وَعَيْنُهَا وَاجِبٌ، لَكِنْ إِذَا كَانَ يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ سَبُّ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمَنْزُوعِ عَنْ كُلِّ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (٦٣٦).

عيبٍ ونقصٍ؛ وجبَ أنْ ندعَ سبَّ آلهِ المشركينَ؛ لأنَّنا لو سَبَّنا آلهَتَهُمْ لَسَبَّوا إلهنا عزَّوَجَلَّ، فلا نسبُ الآلهة؛ لأنَّ هذا المنكرَ يُؤدِّي إلى ما هو أنكرُ وأشدُّ، فَتَرَكَ السَّبَّ لِآلهَتِهِمْ واجبٌ، إذا كانَ سبُّ الآلهةِ يُؤدِّي إلى سبِّ الله.

وقد ذكرَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ مرَّ بقومٍ من التَّترِ في الشَّامِ وهم يشربون الخمرَ، وشُرِبُ الخمرِ مُنكَرٌ، لا إشكالَ في ذلكَ بإجماعِ المُسلمينَ، ولكنه لم ينههم عن الشربِ، وكانَ مع شيخ الإسلام صاحبٌ لَهُ، فقال: ما لكَ لم تنههم؟! قال: لو نهيناهم عن شربِ الخمرِ لذهبوا ينهبون أموالَ المُسلمينَ، ويُفسدون نساءَهُم، ونهبُ أموالِ المُسلمينَ وإفسادُ النساءِ أعظمُ من شربِهِم للخمرِ؛ لأنَّ مفسدةَ شربِهِم للخمرِ لا تتعدَّاهم، ومفسدةُ نهبِ أموالِ المُسلمينَ وإفسادِ نساءِهِم تتعدَّاهم، والضَّرُّ القاصرُ على فاعلهِ أهونُ من الضررِ المتعدِّي لِغيره، وهذا من حكمةِ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، المهمُّ أَنَّهُ يُشترطُ ألا يزولَ المنكرُ إلى ما هو أنكرُ منه.

فإن قيل: هل يُشترطُ أن يكونَ الأمرُ بالمعروفِ فاعلاً له، والنَّاهي عن المنكرِ مُجتنباً له؟

قلنا: لا يُشترطُ هذا؛ لأنَّنا لو اشترطنا هذا لم يَقمَ أمرٌ بِمَعروفٍ ولا نهيٌ عن مُنكرٍ؛ لأنَّه ما من إنسانٍ إلَّا وعندهُ إخلالٌ بِمَعروفٍ، أو فعلٌ لِمنكرٍ، كلُّ بني آدمَ خطاءٌ وخيرُ الخطائينَ التَّوابونَ، فنقولُ: يجبُ الأمرُ بالمعروفِ وإن كُنتَ لا تفعلُ، والنَّهي عن المنكرِ وإن كُنتَ تفعله؛ لأنَّكَ لو تَرَكْتَ الأمرَ بالمعروفِ وأنتَ لا تفعله تَرَكْتَ مأمورينَ، وهما: فِعْلُكَ، وأمرُكَ، ولو أمرتَ وأنتَ لم تفعلَ لتركْتَ مأموراً

وَاحِدًا، وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي الْمُنْكَرِ: لَوْ تَرَكْتَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَنْتَ تَفْعَلُ الْمُنْكَرَ لَوَقَعْتَ فِي نَهْيَيْنِ، وَهُمَا: عَدَمُ الْإِنْكَارِ، وَفَعْلُ الْمُنْكَرِ، وَلَوْ أَنْكَرْتَ مَعَ فَعْلِكَ لِلْمُنْكَرِ وَقَعْتَ فِي مُنْكَرٍ وَاحِدٍ: وَهُوَ: فَعْلُكَ لِلْمُنْكَرِ، وَالْإِنْسَانُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِالْوَاجِبِ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ، وَأَنْ يَدَعَ الْمُنْكَرَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ.

المهمُّ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، جُمْلَةً وَاحِدَةً وَتَسْتَوْعِبُ مُجْلَدَاتٍ، وَفَهْمِي بِالنِّسْبَةِ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَيْسَ بِشَيْءٍ، الْمَهْمُّ أَنَّ هَذِهِ الْإِقَامَةَ لِلدِّينِ تَشْمَلُ إِقَامَةَ الدِّينِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، وَإِقَامَةَ الدِّينِ مَعَ غَيْرِهِ، فَتَشْمَلُ صَلاَحَ الْفَرْدِ، وَصَلاَحَ الْأُمَّةِ جَمِيعًا.

وَالدِّينُ كُلُّ مَا يَدِينُ بِهِ النَّاسُ لِرَبِّهِمْ عَزَّوَجَلَّ، فَيَشْمَلُ مُهَمَّاتِ الْإِسْلَامِ، وَأُصُولَ الْإِسْلَامِ، وَمَا دُونَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ، كُلُّ هَذَا نَحْنُ مَأْمُورُونَ بِإِقَامَتِهِ؛ إِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْوُجُوبِ، وَإِمَّا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِحْبَابِ، حَسَبَ هَذِهِ الشَّعِيرَةِ الَّتِي نُرِيدُ أَنْ نُقِيمَهَا.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فَالْمَعْنَى: لَا تَتَفَرَّقُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَالتَّفَرُّقُ فِي دِينِ اللَّهِ هُوَ الَّذِي مَزَّقَ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ، وَجَعَلَهَا دُوِيَلَاتٍ، وَجَعَلَهَا أَحْزَابًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، وَالتَّفَرُّقُ فِي الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِ تَفَرُّقٌ فِي الْأُصُولِ، وَتَفَرُّقٌ فِي الْفُرُوعِ، وَالتَّفَرُّقُ فِي الْفُرُوعِ تَفَرُّقٌ فِي أُصُولِ الْفُرُوعِ، وَفِيهَا دُونَ ذَلِكَ، وَكُلُّ هَذَا بِمَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ نَتَفَرَّقَ فِيهِ، هَذِهِ الْأُمَّةُ أَخْبَرَ نَبِيُّهَا ﷺ أَنَّهَا سَتَتَفَرَّقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ

وأصحابه^(١)، وإذا نظرنا إلى الأمة الإسلامية وجدنا فيها التفرق كثيراً، في الأصول وفي الفروع، حتى في الذين ينضمون تحت لواء واحد، قد نجد منهم التفرق؛ وذلك لضعف في دينهم، وقلة في بصيرتهم، نجد مثلاً من أهل السنة المنتسبين للسنة - وأهل السنة هم الذين يتبعون طريقة السلف في أصولهم وفروعهم - نجد أن بينهم اختلافاً جَدَثَ في مسائل خفيفة لا تُعدُّ من أصول الدين، ومع ذلك يجعلون من هذا الاختلاف تفرقاً واختلافاً في القلوب، مع أن الله تعالى نهاهم عن ذلك.

نسأل الله تعالى أن يجمع شمل المسلمين، وأن يوحد كلمتهم.



(١) أخرجه أحمد (٨/ ٣٠١ رقم ٨٣٧٧)، وسنن الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم (٢٦٤٠).

الدَّرْسُ الثَّالِثُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا

يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾؛ أَيُّ إِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ شَخْصٌ، فَلَكَ الْحَقُّ أَنْ تَسِيءَ إِلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَسَاءَ إِلَيْكَ، فَإِذَا ضَرَبَكَ عَلَى ظَهْرِكَ مَرَّةً، فَاضْرِبْهُ عَلَى ظَهْرِهِ مَرَّةً، وَهَذِهِ بِهَذِهِ، فَإِنْ ضَرَبْتَهُ مَرَّتَيْنِ فَقَدْ اعْتَدَيْتَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ تَضْرِبْهُ فَقَدْ عَفَوْتَ، وَإِذَا قَالَ لَكَ: يَا بَهِيمَةً، فَقُلْتَ لَهُ: يَا بَهِيمَةً، فَقَدْ جَازَيْتَهُ سَيِّئَةً بِمِثْلِهَا، وَإِنْ قُلْتَ لَهُ: يَا حِمَارًا، فَقَدْ اعْتَدَيْتَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْبَهِيمَةَ أَخَفُّ مِنَ الْحِمَارِ.

فَقَدْ تَكُونُ الْبَهِيمَةُ بَعِيرًا، وَالْبَعِيرُ مِنَ الْحَيَوَانِ الطَّيِّبِ، لَكِنَّ الْحِمَارَ مِنَ الْحَيَوَانِ النَّجِسِ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ أَبَا طَلْحَةَ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ يَوْمَ خَيْبَرٍ: «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ»^(١)؛ أَيُّ نَجِسٍ.

وَإِذَا قَالَ: لَعَنَكَ اللَّهُ، فَتَقُولُ لَهُ بَلْ لَعَنَكَ اللَّهُ أَنْتَ، لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَجَزَّوْا

سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾.

مسائل:

الأولى: لو أَنَّ شَخْصًا جَنَى عَلَى إِنْسَانٍ فَقَطَعَ يَدَهُ، فَهَلْ نَقَطَعُ يَدَ الْقَاطِعِ إِذَا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب التكبير عند الحرب، رقم (٢٧٨٥).

تمت شروطُ القصاص؟ وهل نقطع رجله لو فرضنا أن يده التي تماثل يدَ المقطوع غيرُ موجودة؟

الجواب: نعم، تُقطع يدُ القاطع، ولكن لا تُقطع رجله لو فرضنا أن يده التي تماثل يدَ المقطوع غيرُ موجودة؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَجَزَّؤُا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا﴾.

الثانية: لو أنَّ شخصًا قتلَ إنسانًا معَ التَّمثِيلِ به؛ فقطع أولاً يديه ثمَّ رجله ثمَّ رأسه، فهل نفعلُ به كما فعل؟

الجواب: نعم، نفعلُ به كما فعل نقطع يديه، ثمَّ رجله، ثمَّ رأسه؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَجَزَّؤُا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا﴾، فإذا كانَ هذا الجاني قد مثَّلَ بالمجني عليه، فإننا كذلك نُمثِّلُ به؛ لأنَّ الله يقول: ﴿وَجَزَّؤُا سِنْتَهُ سِنْتَهُ مِثْلَهَا﴾، ولهذا قام يهوديٌّ في المدينة إلى جارية من الأنصار فقتلها بأن رَضَّ رأسها بين حجرين، «فأمرَ رسولُ الله ﷺ أن يرَضَّ رأسه بالحجارة»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ من عفا عَمَّنْ أساءَ إليه ﴿وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وإذا كانَ أجره على الله فإنه سيكونُ أعظمَ مما لو كانَ الأجرُ من سيئات هذا الجاني؛ لأنَّ الجاني لا بُدَّ أن يُقتَصَّ منه، إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرة إذا لم يعفُ صاحبُ الحق، فيقولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ عَفَا﴾؛ يعني عَمَّنْ أساءَ إليه ﴿وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وهذا قيدٌ مهمٌّ يتبيَّن به أنَّ العفو لا يكونُ خيرًا إلا إذا كانَ مصحوبًا بالإصلاح، أمَّا لو كانَ غيرَ مصحوبٍ بالإصلاح فإنه ليسَ بخير.

(١) أخرجه مسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر، رقم (٣١٧٤).

وَعَلَى هَذَا فَإِذَا جَنَى شَخْصٌ مَعْرُوفٌ بِالشَّرِّ عَلَى إِنْسَانٍ، فَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعْفَوْ عَنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْرُوفِ بِالشَّرِّ؛ لِأَنَّ هَذَا الْعَفْوَ لَا يَكُونُ بِهِ إِصْلَاحٌ، فَرُبَّمَا إِذَا عَفَا عَنْ هَذَا الشَّخْصِ الْمَعْرُوفِ بِالشَّرِّ، يَتَعَدَّى شَرُّهُ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ.

ولو أَنَّ شَخْصًا مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ، وَلَكِنْ لِسَبَبٍ مَا اعْتَدَى عَلَى شَخْصٍ، فنَقُولُ: إِنَّ الْعَفْوَ هُنَا مَطْلُوبٌ؛ لِأَنَّ الْعَفْوَ هُنَا إِصْلَاحٌ؛ فَإِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْمَعْرُوفَ بِالْإِسْقَامَةِ وَعَدَمِ الْعَدْوَانِ إِذَا عُفِيَ عَنْهُ كَانَ فِي هَذَا تَشْجِيعًا لَهُ عَلَى الْخُلُقِ الْفَاضِلِ الَّذِي هُوَ مُلْتَزِمٌ بِهِ.

ومما يَجِبُ التَّنَبُّهُ لَهُ مَسْأَلَةٌ تَقَعُ كَثِيرًا فِي حَوَادِثِ السَّيَّارَاتِ، فَيَحْدُثُ مِنَ الرَّجُلِ حَادِثٌ بِسَبَبِ تَهْوَرِهِ وَعَدَمِ تَقْيِيدِهِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُتَّقِيَهُ بِهِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالتَّهْوَرِ وَعَدَمِ الْمَبَالَاةِ، فَإِذَا حَصَلَ مِنْهُ الْحَادِثُ نَجَدُ بَعْضَ النَّاسِ يَفْزَعُ إِلَى صَاحِبِ الْحَقِّ يَطْلُبُ مِنْهُ الْعَفْوَ عَنْ هَذَا الْجَانِي، وَرُبَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمَجْنُونِ عَلَيْهِ عَاطِفَةٌ تَسْتَوْجِبُ أَنْ يَسْمَحَ عَنْ هَذَا الْجَانِي، فَبِالْحَالِ لَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الْعَفْوُ؛ لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ بِالتَّهْوَرِ وَعَدَمِ الْمَبَالَاةِ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَشْفَعَ لَهُ، بَلْ نَأْخُذُ مِنْهُ بِالْحَقِّ وَافِيًا، حَتَّى لَا يَعُودَ لِمِثْلِ هَذَا؛ لِأَنَّهُ رَجُلٌ لَوْ عَفَوْنَا عَنْهُ وَسَمَحْنَا عَنْهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ، فَإِنَّهُ سَوْفَ يَرْجِعُ وَيَفْعَلُ مِثْلًا فَعَلْ أَوَّلًا، وَالَّذِينَ الْإِسْلَامِيُّ دِينُ حَزْمٍ، وَلَيْسَ دِينُ ضَعْفٍ وَرَقَّةٍ تَخْرُجُ عَنِ الْحِكْمَةِ.

فَإِذَا اقْتَضَى اللَّيْنُ أَنْ يَكُونَ حَكْمَةً، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ مَأْمُورًا بِهِ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ مَأْمُورًا بِهِ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢٠]، فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَأْخُذَنَا الرَّأْفَةُ

بِالزَّانِي وَالزَّانِيَةِ فِي دِينِ اللَّهِ مَعَ أَنَّ الرَّأْفَةَ مَطْلُوبَةٌ، وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّهُ بِالْمُؤْمِنِينَ رءُوفٌ رَحِيمٌ، لَكِنَّ الرَّأْفَةَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا غَيْرُ مَطْلُوبَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النور: ٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].



الدَّرْسُ الرَّابِعُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أَيُّ: مُلْكُ أَعْيَانِهَا فَلَا يَمْلِكُ أَحَدٌ شَيْئًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا اللَّهُ، وَأَيْضًا لَهُ مُلْكُ تَدْبِيرِ شُؤُونِهَا فَمَنْ يُصَرِّفُ الرِّيحَ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِاللَّيْلِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالنَّهَارِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْحَرِّ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْبَرْدِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالسَّلَامِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْحَرْبِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْغِنَى؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْفَقْرِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالْمَرَضِ؟ وَمَنْ يَأْتِي بِالصَّحَةِ؟ كُلُّ ذَلِكَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

إِذَنْ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكٌ عَامٌّ؛ لِأَنَّ الْمُلْكَ قَدْ يَكُونُ مَلِكُ أَعْيَانٍ دُونَ تَدْبِيرٍ، وَقَدْ يَكُونُ مُلْكُ تَدْبِيرٍ دُونَ أَعْيَانٍ، فَاَلْمُسْتَأْجِرُ يَمْلِكُ عَيْنَ الدَّارِ وَلَا يَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي مَنَفْعَتِهَا، وَمَالِكُ الدَّارِ حِينَ تَأْجِيرِهَا يَمْلِكُ عَيْنَ الدَّارِ دُونَ تَدْبِيرِهَا وَمَنَفْعَتِهَا، أَمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ مَالِكٌ لِلْأَعْيَانِ وَلِلتَّصَرُّفِ فِيهَا.

وَفِي تَقْدِيمِ الْخَبَرِ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ﴾ إِفَادَةُ الْحَصْرِ، يَعْنِي: أَنَّ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِلَّهِ دُونَ غَيْرِهِ، فَهُوَ جَلَّوَعْلَا يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ: يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ، وَمَلَائِكَةٍ، وَدَوَابٍّ، وَوُحُوشٍ، وَغَيْرِهِمْ.

وَمِنْ جُمْلَةِ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْمَالُ الْمَخْلُوقَاتِ، فَأَفْعَالُ الْمَخْلُوقَاتِ خَلَقَ
لِلَّهِ، صَلَاةُ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، حَجُّ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، صِيَامُهُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ، وَجَمِيعُ
صِفَاتِهِ وَأَفْعَالُهُ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهَا مَخْلُوقٌ وَالْفَرْعُ يَتَّبِعُ الْأَصْلَ، فَالْإِنْسَانُ يَفْعَلُ
وَيَتَحَرَّكُ وَيَسْكُنُ، يَنَامُ وَيَسْتَيْقِظُ، كُلُّ هَذَا مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ نَفْسُهُ
مَخْلُوقٌ، وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ مِنَ الْأَفْعَالِ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ.

فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَعْيَانُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَوْصَافُ الْمَخْلُوقَاتِ،
وَأَفْعَالُ الْمَخْلُوقَاتِ، خَلَقَ الْآدَمِيَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ، وَخَلَقَ
الْحَيَوَانَاتَ الْأُخْرَى عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهُوَ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

قَوْلُهُ: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، وَمِنْ حِكْمَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا،
وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَهَبُ لَهُ ذَكَورًا
وَلَا إِنثًا؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَهُوَ الَّذِي يَهَبُ مَنْ يَشَاءُ مَا يَشَاءُ.

وَقَدْ يَسْتَدِلُّ الْكُفْرَةُ وَمُقَلِّدُوهُمْ عَلَى أَنَّ النِّسَاءَ مُقَدَّمُونَ عَلَى الذُّكُورِ، ﴿يَهَبُ
لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ٤٩، فَاللَّهُ قَدَّمَ الْإِنثَا، وَقَالَ الْمُقَدِّمُونَ
لِلْإِنثَا: نَحْنُ إِذَا قُلْنَا: سَيِّدَاتِي وَسَادَاتِي، فَإِنَّا وَافِقْنَا الْقُرْآنَ حَيْثُ قَدَّمَ الْإِنثَا:
﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ٤٩؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ أَنَّهُ جَعَلَ فِي مَخْلُوقَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ أَشْيَاءَ
مُشْتَبِهَةً، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ الزَّلَازِلَ، وَيُقَدِّرُ الْفَيْضَانَاتِ، وَيُقَدِّرُ الْعَوَاصِفَ،
وَهِيَ ضَارَةٌ لِبَعْضِ الْخَلْقِ، لَكِنَّ لَهَا نَفْعًا عَظِيمًا أَكْثَرَ مِمَّا تَضُرُّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ

وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴿[الروم: ٤١]﴾، كَذَلِكَ فِي آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ هُنَاكَ آيَاتٌ مُشْتَبِهَاتٌ يَحْتَجُّ بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى بَاطِلِهِمْ، فَمَاذَا نُجِيبُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُقَدِّمُونَ النِّسَاءَ عَلَى الرِّجَالِ؟

الأمْرُ فِي هَذَا سَهْلٌ جَدًّا، فَتَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَا يَتَنَاقَضُ، وَفِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ تَقْدِيمِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ الشَّيْءُ الْكَثِيرُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، بَلْ أَكْثَرُ خُطَابَاتِ الْقُرْآنِ مُوجَّهَةٌ لِلرِّجَالِ فَقَطْ؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ تَبَعٌ، وَإِذَا ذُكِرَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ قُدِّمَ الذَّكَورُ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فَكَيْفَ يُشَبَّهَ عَلَيْنَا هَذَا الْمَشَبَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَعَ أَنَّ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ تُقَدِّمُ الرِّجَالَ، بَلْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ ذُكِرَ الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ، بَلْ قَاصِمَةٌ ظَهَرَ هَذَا الرَّجُلُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وَالْحِكْمَةُ فِي أَنَّ اللَّهَ بَدَأَ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذَّكَورِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنَاثَ عِنْدَ الْعَرَبِ مَكْرُوهَاتٌ، حَتَّى إِنْ الرَّجُلَ إِذَا بُشِّرَ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ٥٨ ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: ٥٨-٥٩] يَخْتَبِئُ مِنَ الْقَوْمِ، يَخْتَبِئُ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، فَارَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ إِلَيْكُمْ حَتَّى تَخْتَارُونَ مَا شِئْتُمْ، فَبَدَأَ بِمَا يَكْرَهُونَ حَتَّى يُبَيِّنَ أَنَّ خَلْقَ اللَّهِ لِلشَّيْءِ يَكُونُ رُغْمًا عَلَى أَنْوَفِهِمْ، فَبَدَأَ بِالْإِنَاثِ.

وقد يشتهه على بعض الناس أن تقديم ذكر الإناث يعني تقديمهن، قال: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: (ذُكُورًا)، فَأَتَى بِ(أَل) الدَّالَّةِ عَلَى شَرَفِ الْمَقَامِ، وَعَلَى أَنَّ الذُّكُورَ هُمُ الْمَحْبُوبُونَ إِلَى النَّاسِ: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ ٤٩، يَعْنِي: لَوْ أَنَّ إِنْسَانًا قَرَأَ الْآيَةَ يَقُولُ: مَا تَطَابَقَتْ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾، وَكَانَ مُقْتَضَى اللَّفْظِ أَنْ يُقَالَ: «وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ ذُكُورًا» لَكِنْ قَالَ: «الذكور»؛ لِأَنَّ الذُّكُورَ هُمُ الْمَقْصُودُونَ؛ وَلِهَذَا دَخَلَتْ أَلٌ الَّتِي لِلتَّعْرِيفِ عَلَى الذُّكُورِ.

قَوْلُهُ: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَقِيمًا، سَوَاءٌ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ، وَأَنْ يَقُولَ: لَعَلَّ مَا حَدَثَ هُوَ الْخَيْرُ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، وَلَمْ يَقُلْ: (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوهنَّ وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهَا خَيْرًا كَثِيرًا) قَالَ: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ أَي شَيْءٌ، ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وَهَذَا وَاقِعٌ.

دَائِمًا نُرِيدُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يَتَسَرُّ وَيَحْصُلُ شَيْءٌ آخَرُ، وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ فِيمَا تَسِرُ لَنَا، وَاعْتَبَرَ هَذَا بِمَا يَجْرِي عَلَيْكَ مِنْ يَوْمِيَّاتٍ أَوْ أُسْبُوعِيَّاتٍ أَوْ شَهْرِيَّاتٍ، فَتَقُولُ: ارْضَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا خَيْرًا، فَرُبَّمَا يُوَلِّدُكَ وَلَدٌ يَصِيرُ عِلَّةً عَلَيْكَ، وَعَلَى مُجْتَمَعِهِ، كَمَا أَنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ خَيْرًا لَكَ وَلِلْمَجْتَمَعِ، لَكِنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهَا مَا يُعْلَمُ، وَمِنْهَا مَا لَا يُعْلَمُ.

قَوْلُهُ: ﴿لَئِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْمَقْرَرَةِ عِنْدَ

عُلِّمَاءِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ حَذْفَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْعُمُومَ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] وَلَمْ يَقُلْ: (فَأَوَّاكَ)، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وَلَمْ يَقُلْ: (فَهَدَاكَ)، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وَلَمْ يَقُلْ: (فَأَغْنَاكَ)؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَصَلَ إِيَوَاؤُهُ بِنَفْسِهِ، وَحَصَلَ بِهِ إِيَوَاءٌ مَنْ آمَنَ بِهِ، أَيْضًا حَصَلَ بِهَذَا الْوَحْيِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ الْهُدَايَةَ التَّامَّةَ لَهُ ﷺ وَهُدَايَةَ غَيْرِهِ.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ يَعْنِي: جَاهِلًا لَا تَعْلَمُ، فَعَلِمَكَ، كَمَا قَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] عِلْمَهُ، وَهَدَاهُ وَهَدَى بِهِ، ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، أَغْنَاهُ وَأَغْنَى بِهِ، وَانْظُرْ لِلْغَنَائِمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي حَصَلَتْ فِي التَّمَسُّكِ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَالْقَاعِدَةُ أَنَّ حَذْفَ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْعُمُومَ. إِذَنْ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ عَلَى شَيْءٍ، قَدِيرٌ يَفْعَلُ الشَّيْءَ بِلا عَجْزٍ: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وَمِنْ قُدْرَتِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧] يَعْنِي: بَلْ هُوَ أَقْرَبُ، وَقَالَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ أَنْ يُخْرَجُوا، فَيُخْرَجُوا فِي لَحْظَةٍ: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النَّازِعَات: ١٣-١٤].

إِذَنْ، قَدِيرٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مَهْمَا كَانَ صَعْبًا: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١].

قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ هَذِهِ ثَلَاثُ صِفَاتٍ فِي تَكْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْبَشَرِ: ﴿وَحْيًا﴾ وَهُوَ مَا يُلْقِيهِ فِي رَوْعِ الرَّسُولِ، ﴿أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾، كَكَلَامِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، وَكَذَلِكَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْلَةَ الطُّورِ، هَذَا كَلَامٌ، لَكِنْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَرَوْا اللَّهَ فِي الدُّنْيَا أَبَدًا، وَلَمَّا قَالَ مُوسَى لِرَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبِّ ارْنِيْ أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ لَهُ: ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ يَعْنِي: لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ فَنَظَرَ إِلَى الْجَبَلِ، فَلَمَّا تَجَلَّى اللَّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا لِعَظَمَةِ اللَّهِ، فَمَا بَالُكَ بِالْبَشَرِ! وَلِهَذَا لَمْ يَتَحَمَّلْ مُوسَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْجَبَلِ فَضْلًا عَنِ النَّظَرِ إِلَى اللَّهِ، فَلَمَّا رَأَى مُوسَى الْجَبَلَ مُنْذَكَّا خَرَّ صَعْقًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾: ﴿عَلِيٌّ﴾، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، فِي ذَاتِهِ، وَفِي صِفَاتِهِ. ﴿حَكِيمٌ﴾ جَمِيعُ أَحْكَامِهِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ، وَلَهُ الْحُكْمُ الْمَطْلُوقُ فِي شُؤُونِ خَلْقِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَالتَّذْبِيرِيَّةِ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي كُلِّ مَا فَعَلَ، وَفِي كُلِّ مَا شَرَعَ، وَفِي كُلِّ مَا خَلَقَ.

وَقَدْ تُشَكِّلُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَشْيَاءِ فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ، تُشَكِّلُ عَلَيْنَا حِكْمَتَهَا،

وَإِذَا أُشْكِلَتِ الْحِكْمَةُ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا التَّسْلِيمَ، وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ مُجْرَدَ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ حِكْمَةٌ، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا﴾ [المائدة: ٥٠] مُجْرَدَ مَا يَثْبُتُ الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ بِالتَّحْلِيلِ أَوْ التَّحْرِيمِ أَوْ الْإِيجَابِ، نَعْلَمُ أَنَّهُ حِكْمَةٌ.

وَمَنْ فِيهِ الصَّحَابَةُ: أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ وَكَانَ مُقْتَضِي الْعَقْلِ الْمَبْنِي عَلَى بَادِي الرَّأْيِ، أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ؟ فَانْظُرْ إِلَى جَوَابِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَهِيَ مِنْ أَفْقِهِ النِّسَاءِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَمَنْ أَعْلَمَ النِّسَاءِ، وَتَفُوقُ كَثِيرًا مِنَ الرِّجَالِ فِي الْفَقْهِ، وَيَرْجِعُ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ إِلَيْهَا فِي الْفَقْهِ.

قَالَتْ لِلْسَّائِلَةِ: «كُنَّا يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ»^(١)، يَعْنِي: يَأْمُرُهَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا يَأْمُرُهَا بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ، وَكَفَى بِذَلِكَ حِكْمَةٌ.



(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب لا تقضي الحائض الصَّلَاةَ، رقم (٣٢١)، ومسلم: كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الحائض الصوم، رقم (٣٣٥).

الدَّرْسُ الْخَامِسُ؛

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ
وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤٩] أي لله وحده
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مُلْكُ أَعْيَانِهَا، وَمُلْكُ التَّصَرُّفِ فِيهَا، فَلَا أَحَدَ يَمْلِكُ مِنْهَا
شَيْئًا مَعَ اللَّهِ، وَلَا أَحَدَ يُدَبِّرُ مِنْهَا شَيْئًا مَعَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوا
الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنِ ظَهِيرٌ﴾ [سبأ: ٢٢]، فَهَمَّ لَا يَمْلِكُونَ عَلَى وَجْهِ
الْإِنْفِرَادِ، وَلَا عَلَى وَجْهِ الْمَشَارَكَةِ، وَلَا عَلَى وَجْهِ الْمُعَاوَنَةِ، اللَّهُ وَحْدَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: بِمَ عَرَفْنَا هَذَا الْإِخْتِصَاصَ وَالْحَضَرَ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ قَدَّمَ فِيهِ الْخَبَرَ
﴿لِلَّهِ مُلْكُ﴾، وَالْخَبَرُ حَقُّهُ التَّأخِيرُ، وَإِذَا قُدِّمَ فِي الْجُمْلَةِ مَا حَقُّهُ التَّأخِيرُ كَانَ ذَلِكَ
دَلِيلًا عَلَى الْإِخْتِصَاصِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾
[الفاتحة: ٥]، الْمَعْنَى لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا إِيَّاكَ، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي هُوَ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَالِكُ أَعْيَانِهَا وَمَالِكُ التَّصَرُّفِ فِيهَا
جَلَّ وَعَلَا.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٩] مِنْ ذَوِي الْحَيَاةِ، وَمِنْ الْجَمَادَاتِ، وَمِنْ الْبَحَارِ
وَالْأَنْهَارِ وَالنُّجُومِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كُلُّ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يَخْلُقُهُ لِأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قَالَ اللَّهُ
عَزَّوَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أي مِنَ الْأَرْضِ

سَبْعَ أَرْضِينَ ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] أَي بَيْنَ السَّمَاوَاتِ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ
 وَبَيْنَ الْأَرْضِينَ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ وَبَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ﴾ [الطلاق: ١٢]، يَعْنِي أَخْبَرْنَاكُمْ بِذَلِكَ ﴿لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، إِذْنٌ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ مِنْ ذَوِي الْأَرْوَاحِ
 وَالْجَمَادَاتِ وَالْأَفلاكِ وَالْأَرْضِينَ وَكُلِّ شَيْءٍ، كُلُّ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يَخْلُقُهُ لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ عَزَّوَجَلَّ.
 ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ [الشورى: ٤٩] إِهْبَةُ يَعْنِي الْعَطِيَّةُ، يَعْنِي يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
 مِنْ عِبَادِهِ إِنَاثًا، ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۖ﴾ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا
 [الشورى: ٤٩-٥٠]، أَي يَجْعَلُهُمْ صِنْفَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾
 [الشورى: ٥٠] فهذه أربع أصناف:

الأول: أَنْ يَهَبَ لِلْإِنْسَانِ إِنَاثًا خُلَصًّا مَا فِيهِمْ ذَكَرٌ.

الثاني: أَنْ يَهَبَ لَهُ الذُّكُورَ خُلَصًّا لَيْسَ فِيهِمْ إِنَاثٌ.

الثالث: أَنْ يَجْعَلَ لَهُ صِنْفَيْنِ ذُكُورًا وَإِنَاثًا.

الرَّابِع: أَنَّهُ يَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا، لَا يُوَلِّدُ لَهُ، سِوَاءً مِنَ الْإِنَاثِ أَوْ مِنَ الذُّكُورِ.

وَلَا يَخْرُجُ الْخَلْقُ عَنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ، إِمَّا ذُكُورٍ خُلَصًّا أَوْ إِنَاثٍ خُلَصًّا

أَوْ مَزْدُوجِينَ مِنْ هَذَا وَهَذَا، أَوْ عَقِيمِينَ، بَيْنَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ذَلِكَ وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالْمُشَاهَدَةِ

حَتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ بِيَدِ اللَّهِ، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى الذُّكُورَ وَلَا يَحْصُلُونَ،

وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى الْإِنَاثَ وَلَا يَحْصُلْنَ، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَتَمَنَّى أَنْ يُوَلِّدَ لَهُ، وَلَكِنْ

لَا يُوَلِّدُ لَهُ!

وَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ خَلْقَ اللَّهِ مِنْ ذَكَرٍ إِلَى أُنْثَى، وَلَا مِنْ أُنْثَى إِلَى ذَكَرٍ؛ لِأَنَّ

هذا من اختصاصِ الربوبية، رُبوبية الله عَزَّوَجَلَّ، يَخْلُقُ ما يَشَاءُ، ثم فَصَّلَ فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ لِمَن يَشَاءُ عَاقِبًا ﴿[الشورى: ٤٩-٥٠].

ويندرج تحت هذه المسألة مسائل:

أولاً: يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا هُوَ أَفْضَلُ وَأَطْيَبُ وَأَنْسَبُ لِلزَّمَنِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَلْنَبْدَأُ بِأَسْمَاءِ الذُّكُورِ، «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»^(١) فَسَمَّ وَلَدَكَ بِعَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ ثَنَّ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَإِنْ ذَلِكَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ. وَقَدْ اشْتَهَرَ عِنْدَ الْعَوَامِ هَذَا الْمَعْنَى بِلَفْظِ: «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا مُحَمَّدٌ وَعَبْدٌ»^(٢)، وَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، هَذَا حَدِيثٌ مُضَوِّعٌ، لَا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَالصَّحِيحُ: «أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»، فَسَمَّ أَوَّلَ وَلَدِ عَبْدَ اللَّهِ، وَالثَّانِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ، ثُمَّ اخْتَرَهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ الْاسْمُ مُضَافًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الْعُبُودِيَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ، كَعَبْدِ الرَّحِيمِ، وَعَبْدِ الْوَهَّابِ، وَعَبْدِ الْكَرِيمِ، وَعَبْدِ الْغَنِيِّ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا، وَإِيَّاكَ أَنْ تُسَمِّيَ بِأَسْمَاءِ الْفَرَاعِنَةِ، فَإِنَّ الْقَائِلَ يَقُولُ^(٣):

وَقَلَّ إِنْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَكَّرْتَ فِي لَقَبِهِ

فَلَا تُسَمِّ وَلَدَكَ بِأَسْمَاءِ الْفَرَاعِنَةِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ سَمَّيْتَهُ بِذَلِكَ لَكَانَ هَذَا اللَّبَاسُ مُؤَثِّرًا عَلَى اللَّابِسِ، فَيُخْشَى أَنْ يَكُونَ فِي وَلَدِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الْفَرَاعِنَةِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ،

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، رقم (٤٩٥٠).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس رقم (١٢٤٥). وقال: قال النجم: لا يعرف...

وأقول: تقدم في الهمزة بلفظ: «أحب الأسماء إلى الله ما عبد وحمد»، وقال السيوطي: لم أقف عليه.

(٣) ذكره ابن القيم في زاد المعاد (٢/ ٣٣٦).

أَوْ تُسَمِّيهِ بِأَسْمَاءِ الشَّيَاطِينِ مِثْلَ إِبْلِيسَ أَوْ خَنْزَبٍ، فَخَنْزَبٌ هَذَا شَيْطَانٌ يَأْتِي النَّاسَ فِي الصَّلَاةِ يَفْتَحُ عَلَيْهِمْ بَابَ الْوَسْوَاسِ وَالْهَوَاجِسِ. فَاحْذَرِ أَنْ تُسَمِّيَ وَلَدَكَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْقَبِيحَةِ.

وَكُلُّ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - طَيِّبَةٌ، مِثْلَ أَحْمَدَ وَمُحَمَّدَ وَصَالِحَ وَشُعَيْبَ.

وَبالنَّسَبَةِ فِي الْإِنَاثِ كَذَلِكَ اخْتَرِ الْأِسْمَ الَّذِي يَكُونُ أَطْيَبَ وَأَنْسَبَ لِلْوَقْتِ الْحَاضِرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُسَمِّيَ بِأَسْمَاءِ قَبِيحَةٍ أَوْ بِأَسْمَاءِ خَاصَّةٍ بِإِنَاثِ الْكُفَّارِ مِثْلَ الْإِزْبِيثِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْخَاصَّةِ بِالْكَفَّارِ، لَا تُسَمِّ بِهَا؛ فَالْكَفَّارُ لَا حَيَاءَ فِيهِمْ وَلَا فِي أَسْمَائِهِمْ.

وَلْتَكُنِ التَّسْمِيَةُ حِينَ الْوِلَادَةِ، فَحِينَمَا يُوَلَّدُ لَكَ فَسَمِّ، وَهَذَا إِذَا كُنْتَ مُهَيِّئًا الْأِسْمَ، وَيَدُلُّ لِهَذَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ مُبَشِّرًا أَهْلَهُ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَلَدٌ وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ»^(١) عَلَى اسْمِ أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالشَّاهِدُ أَنَّهُ سَمَّاهُ حِينَ وِلَادَتِهِ، أَمَا إِذَا كَانَ الْأِسْمُ لَمْ يَهَيَّأْ، فَلْتَكُنِ التَّسْمِيَةُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ، وَالسَّابِعُ هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي يَلِيهِ يَوْمُ الْوِلَادَةِ، فَمَنْ وُلِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَسَابِعُهُ الْخَمِيسُ، وَمَنْ وُلِدَ الْخَمِيسَ فَسَابِعُهُ الْأَرْبَعَاءُ، فَسَمِّهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ.

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ اخْتِيَارُ الْأِسْمِ يَرْجِعُ لِلْأُمِّ أَوْ يَرْجِعُ لِلْأَبِ، أَوْ يَقَالُ: الذَّكَورُ لِلْأَبِ، وَالْإِنَاثُ لِلْأُمِّ؟ قُلْنَا: اخْتِيَارُ الْأِسْمِ يَرْجِعُ لِلْأَبِ، فَإِذَا اخْتَارَ لَهُ اسْمًا فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُعَارِضَهُ، لَكِنْ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَمِّيَ وَلَدَهُ الذَّكَرَ أَوْ الْأُنْثَى أَنْ يَتَشَاوَرَ مَعَ أُمِّهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَطْيَبُ لِقَلْبِهَا وَأَقْرَبُ لِمَوَدَّتِهَا، وَهِيَ لَهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، رقم (٢٣١٥).

في الولد، فلتكن التسمية باتفاق من الطرفين.

ثانيًا: وهنا بحث آخر، الحقيقة عن المولود، وهي سنة مؤكدة، حتى قال بعض العلماء: إنها واجبة. والحقيقة هي ذبيحة تُذبح للمولود يعني من أجل الولادة شكرًا لله عز وجل على النعمة، للذكر ثنتان وللأنثى واحدة تُذبح في اليوم السابع، فإن فات ففي اليوم الرابع عشر، فإن فات ففي اليوم الحادي والعشرين، ثلاثة أسابيع، فإن فات ففي أي يوم.

وتكون من الغنم الضأن أو البعير، ويرى بعض العلماء أنها لا تكون من الإبل؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «عن الغلام شاتان مكافأتان، وعن الجارية شاة»^(١). فعين، والبعير ليس شاة، فلو أن الإنسان عَقَّ عن ابنته بناقة وآخر عَقَّ عن ابنته بشاة أيها أصح؟ الذي عَقَّ بالشاة؛ لأنه أقرب للسنّة، وإذا قلنا بجواز الحقيقة بالبعير، فهل يُجزئ البعير عن سبعة أو لا يُجزئ إلا عن واحد؟ فالجواب على هذا أنه لا يُجزئ إلا عن واحد، ومع ذلك فالشاة أفضل لأنها هي التي ورَدَ بها النص.

وكيف يعمل بهذه الحقيقة؟ أيتصدق بها كلها أم يأكلها كلها أم ماذا؟ نقول: تصدق وكل؛ لأنها نسيكة يُقصد بها شكر الله عز وجل فهي كدم التمتع، يؤكل منه ويهدى ويتصدق. فإن قال قائل: هل الأفضل أن أتصدق بها نيئة أو أن أطبخها وأتصدق بها مطبوخة مع طعام؟

(١) أخرجه أحمد (٣٢١/١١)، وأبو داود: كتاب الضحايا، باب في الحقيقة، رقم (٢٨٣٤)، والترمذي: أبواب الأضاحي، باب ما جاء في الحقيقة، رقم (١٥١٣)، والنسائي: كتاب الحقيقة، رقم (٤٢١٢)، وابن ماجه: كتاب الذبائح، باب الحقيقة، رقم (٣١٦٢).

قلنا: الأفضل أن يُنظر ما هو أنفع للفقير، فإن كان ينفعه أن يتصدق بلحمها نيئاً فعل، وإن كان الأفضل أن يتصدق به مطبوخةً فعل. وينبغي أن تعزم الجيران عليها حتى تظهر هذه السنة التي ربما تكون خفيةً على بعض الناس.

فإن سأل سائل: هل يُشترط في العقيقة ما يُشترط في الأضحية؟ يعني أن تبلغ سنًا معينًا وأن تخلو من العيوب؟

قلنا: نعم، لا بُدَّ أن تبلغ السنَّ المُعتبرة شرعًا وأن تكون سالمةً من العيوب الهانئة من الإجزاء، وهذا له مكانٌ مُعَيَّن في بسط الكلام عليه.

ثالثًا: ومما يتعلق بالمولود أنه في اليوم السابع يُخلق الرأس، رأس الذكر يُخلق إذا وُجد حالقٌ حاذق؛ لأنَّ رأس الصبيَّ لينٌ جدًا، فيخشى إذا حلَّقه من لا يعرف أن يشقه، لذلك اطلب حالقًا حاذقًا يخلق شعر الغلام، ويتصدق بوزنه فضةً، وذلك كما ذكرنا في اليوم السابع.

رابعًا: ومما يتعلَّق بالولادة أيضًا الختان، ويسمى عند الناس الطهارة؛ لأنه يطهر لا شك، الختان من الفطرة كما قال النبي -صلى الله وعلى آله وسلم-: «خمس من الفطرة»^(١) وذكر الختان، وهو مع ذلك مفيدٌ جدًا للمختون حاضراً ومستقبلاً، بالنسبة للذكر تُقَصُّ الجلدَةُ التي على الحشفة حتى تبرز الحشفة؛ لأنَّ ذلك أكمل في الطهارة، فإن هذه الجلدَةُ لو بقيت صار يتبول ويحتقن من بوله شيءٌ بين هذه الجلدَةِ وبين الحشفة، ويحصل بذلك أذى، وربما يحصل بذلك تقرُّح، والذين

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب قص الشارب، رقم (٥٥٥٠)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة، رقم (٢٥٧).

لا يَحْتَنُونَ كَالنَّصَارَى مثلاً، تَجِدُ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَتَعَبُ تَعَبًا عَظِيمًا، وَرُبَّمَا حَصَلَ لَهُ تَوَرُّمٌ، وَإِذَا سَلِمَ مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ لَا يَتَلَذَّذُ بِالْجَمَاعِ كَمَا يَتَلَذَّذُ مَنْ خُتِنَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَالْخِتَانُ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ وَاجِبٌ فِي حَقِّ الذَّكَورِ، سُنَّةٌ فِي حَقِّ الْإِنَاثِ، وَهَذَا الْقَوْلُ وَسَطٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى الْجَنَسَيْنِ. وَمَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَى الْجَنَسَيْنِ. فَالصَّوَابُ التَّفْصِيلُ، وَهُوَ أَنَّهُ وَاجِبٌ فِي حَقِّ الذَّكَورِ، وَلَيْسَ وَاجِبًا فِي حَقِّ الْإِنَاثِ.

لكن متى يكون الختان؟

الْخِتَانُ وَقْتُهُ مُتَمَدِّدٌ إِلَى الْبُلُوغِ، إِذَا قَارَبَ الْبُلُوغَ وَجَبَ أَنْ يَخْتَنَ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ ذَلِكَ غَيْرُ مُكَلَّفٍ، وَلَا تَجِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ، وَلَكِنْ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ فِي زَمَنِ الصَّغَرِ أَفْضَلُ. وَكَذَلِكَ قَالَ الْأَطْبَاءُ، وَذَلِكَ لِسَبَبَيْنِ، السَّبَبُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ أَسْرَعُ بُرْءًا؛ لِأَنَّ نَمُوَ الطِّفْلِ قَوِيٌّ فَيَبْرَأُ بِسُرْعَةٍ. وَالثَّانِي: أَنَّ هَذَا الَّذِي خُتِنَ وَهُوَ صَغِيرٌ لَا يَتَأَلَّمُ قَلْبِيًّا، بِخِلَافِ مَا إِذَا كَانَ كَبِيرًا، فَتَجِدُهُ يَتَأَلَّمُ قَلْبِيًّا وَيُفَكِّرُ، رُبَّمَا تَعْدُو الْجُرُوحُ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ مَوْضِعِهَا فَيَتَأَلَّمُ قَلْبِيًّا، وَالصَّغِيرُ لَا يَتَأَلَّمُ قَلْبِيًّا إِنْ أُوجِعَهُ صَاحٌ، وَإِنْ سَكَنَ سَكَتَ، فَهُوَ فِي زَمَنِ الصَّغَرِ أَفْضَلُ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْ مَنْ يَشَاءُ عَاقِمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٥٠] فَمَا كَانَ مِنْ إِنَاثٍ فَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ ذُكُورٍ فَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ شَيْءٌ فَبِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَتَدَاوَى الْإِنْسَانُ مِنَ الْعُقْمِ؟

فالجواب: نعم، إذا عَلِمَ أَنَّ العُقْمَ له سَبَبٌ مُحْسُوسٌ مَعْلُومٌ يَعْرِفُهُ الْأَطْبَاءُ،
فلا حَرَجَ أَنْ يُعَالَجَ لِإِزَالَةِ الْعُقْمِ.

ثم قَالَ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ ۝٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴿[الشورى: ٥١-٥٢] وهو الْقُرْآنُ، وَسَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ رُوحًا لِأَنَّهُ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ، فَإِذَا أَرَدْتَ يَا أَخِي الْمُسْلِمَ حَيَاةَ قَلْبِكَ وَلِينَهُ فَعَلَيْكَ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ الْحَيَاةُ وَاللِّينُ، قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْقَوِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ^(١):

وَحَافِظٌ عَلَى دَرَسِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُلَيِّنُ قَلْبًا قَاسِيًا مِثْلَ جَلْمَدٍ

قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَكِنْ مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَذَا الْوَحْيِ فَعَلِمَ أُمَّتَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ لَهُمُ النُّورَ الْعَظِيمَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فَاللَّهُمَّ اهْدِنَا بَكِتَابِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] (تهدي) أَي تَدُلُّ، فَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ فَهُوَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ لَا اعْوْجَاجَ فِيهِ وَلَا ارْتِفَاعَ وَلَا انْخِفَاضَ، بَلْ هُوَ مُسْتَوٍ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ، وَعَلَى هَذَا فَكُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ فَهُوَ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) انظر منظومة الآداب لابن عبد القوي (ص: ٩٩).

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥٣] صراط الله، أضاف الله الصراط إلى نفسه لأنه تعالى هو الذي شرعه لعباده، ولأن هذا الصراط يُوصل إلى الله، فلو أراد الإنسان أن يصل إلى الله بغير شريعة الإسلام لم يصل.

فائدة:

إِنْ قِيلَ: قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾، وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١-٢]، وَفِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] فكيف نجمع؟

قلنا: إِنَّمَا أَضَافَ اللَّهُ الصَّرَاطَ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي شَرَعَهُ وَلِأَنَّهُ يُوَصِّلُ إِلَيْهِ تَعَالَى، وَأَضَافَهُ إِلَى الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ سَالِكُوهُ أَوِ الْآخِذُونَ بِهِ الْمُتَّبِعُونَ لَهُ. ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِيهَا حَصْرٌ وَتَأْكِيدٌ، التَّأْكِيدُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا﴾ لِأَنَّهَا لِلْإِسْتِفْتَاكِحِ وَالتَّأْكِيدِ، وَالْحَصْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أَيِ تَرْجِعُ جَمِيعُ أُمُورِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ؛ فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ عَلَى الْعِبَادِ، وَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ فِي الْعِبَادِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تَمَّ الْمَجْلَدُ الثَّالِثُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ
وَيَلِيهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمَجْلَدُ الرَّابِعُ
وَأَوَّلُهُ دُرُوسُ التَّفْسِيرِ (سُورَةُ الزُّخْرُفِ)

فهرس الآيات

الصفحة

الآية

- ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ ١٣
- ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ٢٠
- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ٢٤١، ٢١
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ٢٢
- ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ٣٨
- ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ٤٦
- ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ ٤٧
- ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ٤٨
- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصُمُونَ﴾ ٤٨
- ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ ٥٧
- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ٦٦
- ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ٦٨
- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ٨٥
- ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٨٥
- ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ ٨٦
- ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ٨٧
- ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ ٩١

- ﴿لَا تَحْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٩٢
- ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٩٤
- ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٥
- ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ ٩٥
- ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا مِنْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ٩٨
- ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ٩٨
- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ ٩٨
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ ٩٨
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ٩٩
- ﴿وَإِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩١﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ١٠١
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ١٠١
- ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ١٠٢
- ﴿الرُّبُّ يَلِكُ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ١٠٢
- ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ١٠٢
- ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٠٢
- ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ١٠٢
- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ١٠٣
- ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١٠٣
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١٠٦

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ ١٠٨
- ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ١٠٨
- ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٠٩
- ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَبْسُ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ١١٣
- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ ١١٣
- ﴿وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُكُمُوتَ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ ١١٥
- ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ ١١٧
- ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا﴾ ١٢٠
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ١٢١
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ١٢٢
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ ١٢٣
- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً﴾ ١٢٧
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ١٢٨
- ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٠
- ﴿فَإِنْ لَنَزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ١٣٠
- ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ١٣٥، ١٣٧، ١٤٩
- ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ﴾ ١٣٦
- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا﴾ ١٣٧
- ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ١٣٧
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ ١٣٨

- ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ ١٤٢
- ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ١٤٢
- ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ١٤٣
- ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٤٣
- ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ١٤٣
- ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ ١٤٤
- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ١٤٤
- ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ ١٤٥
- ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٤٧
- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ ١٤٩
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٥٠
- ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ١٥٠
- ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ ١٥١
- ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ ١٥١
- ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ١٥١
- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ ١٥١
- ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ ١٥١
- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٥٣
- ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١٥٤
- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ ١٥٦

- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ ١٥٦
- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ١٥٧
- ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٥٩
- ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ١٦١
- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ هُوَ يَعْظُهُمْ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ ١٦٤
- ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ١٦٤
- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ١٦٤
- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ ١٦٤
- ﴿وَأَنْ تَشْكُرُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ١٦٥
- ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ١٦٦
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ١٦٧
- ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ١٦٧
- ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ١٦٨
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ ١٦٩
- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ١٦٩
- ﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ١٦٩
- ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ١٧٠
- ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا﴾ ١٧١
- ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ ١٧٤
- ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ١٧٤، ١٩١

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ١٧٤
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ١٧٥
- ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ١٧٥، ١٩٢
- ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ١٧٥
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ١٧٧
- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ١٨١، ٢٢٠
- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ ١٨٥
- ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ ١٨٥
- ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ١٩٢
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ١٩٢
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ﴾ ١٩٣
- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ ١٩٣
- ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ ١٩٤
- ﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ ١٩٤
- ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ ١٩٤
- ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ١٩٥
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٩٦
- ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ١٩٧
- ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ﴿١١﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ ١٩٨
- ﴿فَأَمَّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَدَىٰ فَمِنْ أَتْبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ٢١٢

- ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ٢١٢
- ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ ٢١٣
- ﴿ وَلَئِذَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعَنِ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ٢١٧
- ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ ٢١٧
- ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ٢١٧
- ﴿ الَّذِي يَخْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ ٢١٧
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ ٢١٨
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ٢١٩
- ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ ٢٢١
- ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ ٢٢١
- ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ٢٢١
- ﴿ نَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ ٢٢٢
- ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فِيْدُهُنَّ ﴾ ٢٢٤
- ﴿ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ٢٢٥
- ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ ٢٢٦
- ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ ٢٢٨
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ ٢٢٨
- ﴿ تَجِيئُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ ٢٢٨
- ﴿ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَا مُوسَىٰ ﴾ ٢٣٠
- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ ٢٣٠

- ﴿وَلَا تُطِيعَنَّ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ ٢٣٠
- ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ٢٣٣
- ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ٢٤٢
- ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ ٢٤٢
- ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ﴾ ٢٤٣
- ﴿إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ٢٤٤
- ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُسْوَرُ وَحِينَ تَصْبِحُونَ﴾ ٢٤٧
- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ٢٤٨
- ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ٢٤٨
- ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ٢٤٨
- ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ٢٥٠
- ﴿عَلَى الْأَرْأْيِكِ يَنْظُرُونَ﴾ ٢٥٠
- ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ ٢٥٢
- ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ ٢٥٢
- ﴿ءَامِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ٢٥٣
- ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ٢٥٣
- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾ ٢٥٤
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٢٥٧
- ﴿وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِثُ﴾ ٢٥٧
- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢٥٨

- ﴿يَأْتِيهَا الْمُدَرُّ ۝١﴾ قُرْ فَأَنْذِرْ ﴿..... ٢٥٨
- ﴿تُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ٢٥٩
- ﴿جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا﴾ ٢٦٠
- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿..... ٢٦٠
- ﴿وَالْبَلِّ إِذَا عَسَّسَ ۝١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿..... ٢٦٠
- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ٢٦٠
- ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٢٦١
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ٢٦٢
- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ٢٦٢
- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ ٢٦٢
- ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ٢٦٢
- ﴿قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ٢٦٤
- ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ ٢٦٤
- ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ٢٦٦
- ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿..... ٢٦٦
- ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿..... ٢٦٦
- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ٢٦٧
- ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ﴾ ٢٦٧
- ﴿وَإِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴿..... ٢٦٨
- ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ٢٦٩

- ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ٢٧٢
- ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكَ لِيَقْضَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ٢٧٢
- ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ٢٧٣
- ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ ٢٧٣
- ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ ٢٧٣
- ﴿قُلْ يَتُوفَنَكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ٢٧٣
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٧٤
- ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ ٢٧٥
- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ٢٧٥
- ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ٢٧٩
- ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ٢٨١
- ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ٢٨٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ٢٨٣
- ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ٢٩٩
- ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ٣٠٠
- ﴿فَتَلَوْتُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٠٠
- ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ٣٠١
- ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيْنَهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمْ فَإِنْ نَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ٣٠٢
- ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ﴾ ٣٠٨
- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ٣٠٨

- ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ ٣١٣
- ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ ٣١٥
- ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ٣٢٢
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ٣٢٢
- ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ٣٢٧
- ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ ٣٢٧
- ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ ٣٢٧
- ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ٣٢٨
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ٣٣٠
- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ ٣٣٣
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ٣٣٣
- ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ٣٣٣
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٣٥
- ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْهَ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ ٣٣٧
- ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ٣٣٧
- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ ٣٣٩
- ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ٣٤١
- ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ٣٤٦
- ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ٣٤٨
- ﴿يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٣٤٨

- ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ ٣٥٠
- ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ٣٥٠
- ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ ٣٥١
- ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ٣٥٣
- ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٣٥٣
- ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ٣٥٤
- ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ ٣٥٤
- ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ٣٥٥
- ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ ﴾ ٣٥٨
- ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ ٣٦١
- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ٣٦٤
- ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ﴾ ٣٦٤
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ ٣٦٤
- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٣٦٤
- ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ ٣٦٥
- ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ٣٦٥
- ﴿ مَتَنِي وَتِلْكَ وَرُبُّعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٣٦٧
- ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ٣٦٨
- ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ٣٦٩
- ﴿ وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ٣٧٠

- ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ ٣٧٠
- ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٧٠
- ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ ٣٧٠
- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٣٧١
- ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ٣٧٢
- ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ ٣٧٢، ٣٨٦، ٤١٠
- ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ ٣٧٢
- ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ ٣٧٢
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ ٣٧٤
- ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ ٣٧٤
- ﴿الَّذِيكَ نُفَعُّهُ﴾ ٣٧٤
- ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ٣٧٥
- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ٣٧٦
- ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ٣٨٥
- ﴿وَمِمَّنْ دَابَّتْ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ ٣٨٦
- ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ٣٨٦
- ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ٣٨٧
- ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٣٨٨
- ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ ٣٨٨
- ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ٣٩٢

- ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئِسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ يَوْمَ تَشْقَى الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ٣٩٨
- ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ فَأَلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ٣٩٨
- ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٣٩٨
- ﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ٣٩٩
- ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٣٩٩
- ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ ٣٩٩
- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ٤٠٢
- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ ﴾ ٤٠٣
- ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرَبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْنِكَ الْقَى أَخْرَجَكَ ﴾ ٤٠٤
- ﴿ فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لِمَ أَوْتِ كِتَابِيَهٗ ﴾ ٤٠٦
- ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٤٠٧
- ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ٤٠٧
- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾ ٤٠٨
- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُكُونَ ﴾ ٤٠٩
- ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴾ ٤١١
- ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقٍ ﴾ ٤١٢

- ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٤١٣
- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٤١٣
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ لَا رَبِّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ٤١٣
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ ٤١٣
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ الْحَكِيمِ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ أَنْزَلَهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ الْمُبِينِ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ ﴾ ٤١٤
- ﴿ كَهَيْعَتِ (١) ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ ٤١٤
- ﴿ طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِنَشْفِقَ ﴾ ٤١٤
- ﴿ طه (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ٤١٤
- ﴿ طه (١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ٤١٤
- ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴾ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ٤١٥
- ﴿ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ ٤١٥
- ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ٤١٥
- ﴿ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴾ ٤١٥

- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٤١٧
- ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ٤١٩
- ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ ٤١٩
- ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ٤١٩
- ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ﴾ ٤١٩
- ﴿أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٤٢٤
- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ ٤٢٧
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ٤٣٠
- ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ﴾ ٤٣٤
- ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ٤٣٧
- ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ٤٣٧
- ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ ٤٣٨
- ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ ٤٣٨
- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ٤٣٩
- ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ﴾ ٤٣٩
- ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٤٤٠
- ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ ٤٤٠
- ﴿فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٤٤١
- ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ ٤٤٢
- ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ ٤٤٢

- ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝۱۱﴾ مَن شَاءَ ذَكَرْهُ ۝۱۲ ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ ٤٤٢
- ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ﴾ ٤٤٣
- ﴿ثَمَنِيَّةً أزْوَاجَ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ ٤٤٣
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ٤٤٤
- ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ٤٤٥
- ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ٤٤٧
- ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ٤٤٧
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ ٤٤٨
- ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ٤٥٠
- ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝۱۷﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿..... ٤٥٣
- ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ٤٥٣
- ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفِرُوا جَمِيعًا﴾ ٤٥٣
- ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ ٤٥٣
- ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾ ٤٥٤
- ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ٤٥٥
- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ٤٥٥
- ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ ٤٥٦
- ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ ٤٥٧
- ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٤٥٧
- ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ ٤٥٨

- ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ نَقَشِعُرُّ مِنْهُ جُلُودٌ﴾ ٤٦٠
- ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ ٤٦٠
- ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ ٤٦٠
- ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ٤٦٠
- ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ٤٦١
- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٤٦٢
- ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ٤٦٢
- ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ٤٦٤
- ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْنِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٤٦٤
- ﴿يَوْمَ يَدْعِيهِ يَوْمَ الدِّينِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ٤٦٥
- ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ٤٦٥
- ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ٤٦٨
- ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ ٤٦٨
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ ٤٦٩
- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ ٤٧١
- ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ٤٧٣
- ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ٤٧٦
- ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ٤٧٨
- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ ٤٧٨
- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ٤٧٨

- ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ ٤٧٨
- ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ٤٨٢
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ٤٨٢
- ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ ٤٨٣
- ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ ٤٨٦
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ٤٨٨
- ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٤٨٨
- ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٤٨٩
- ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ ٤٩٠
- ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ ٤٩٠
- ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ٤٩٠
- ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٤٩٢
- ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ ٤٩٢
- ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ٤٩٢
- ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ٤٩٣
- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ٤٩٤
- ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَتُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ ٤٩٩
- ﴿يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ٥٠٢
- ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ ٥٠٢
- ﴿وَلَهُ لِنَزِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ٥٠٤

- ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ ٥٠٥
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ٥٠٦
- ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ ٥١١
- ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ ٥١٣
- ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾ ٥١٥
- ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ٥١٦
- ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٥١٦
- ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ ٥١٩
- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٥٢٠
- ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾ ٥٢٠
- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ٥٢٢
- ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٢٣
- ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ ٥٢٣
- ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ ٥٢٤
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ٥٢٤
- ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ٥٢٥
- ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ٥٢٥
- ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ٥٢٥
- ﴿التَّكْوِينُ الْعَبْدُوتُ الْحَمِيدُوتُ السَّكِينُوتُ الرَّكْعُوتُ﴾ ٥٢٨
- ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ ٥٢٨

- ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مُسْلِمَاتٍ﴾ ٥٢٨
- ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ٥٢٩
- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ٥٣٠
- ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ ٥٣٠
- ﴿اتَّخِذْ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرِنَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٥٣٢
- ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ٥٣٢
- ﴿وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا﴾ ٥٣٢
- ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ٥٣٢
- ﴿فَمَا تَتَفَعَّلُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ ٥٣٣
- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ٥٣٣
- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ ٥٣٥
- ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ٥٣٦
- ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ، وَأَوْثَقَنَا الْأَرْضَ﴾ ٥٣٧
- ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ٥٣٨
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ ٥٣٨
- ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ٥٣٩
- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ٥٣٩
- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ ٥٣٩
- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ ٥٤٠
- ﴿وَيُفَيْخُ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ٥٤١

- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ٥٤٢
- ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَبِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ٥٤٣
- ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ٥٤٤
- ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ ٥٤٥
- ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ٥٤٦
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ ٥٤٦
- ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ٥٤٧
- ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ٥٥٣
- ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ ٥٥٣
- ﴿كَلَّمَآ أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَالَمٌ خَازِنُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٥٥٤
- ﴿وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ٥٥٥
- ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٥٥٨
- ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ ٥٦١
- ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ ٥٦١
- ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ٥٦٥
- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٦﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ٥٦٦
- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ٥٦٧
- ﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ ٥٦٨
- ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ٥٦٨
- ﴿لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٥٧١

- ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ٥٧١
- ﴿فَظَرَّتْ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ٥٧٤
- ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ ٥٧٦
- ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٥٧٧
- ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ ٥٧٩
- ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ٥٧٩
- ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٥٨٣
- ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِثَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ ٥٨٥
- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ ٥٩١
- ﴿وَالسَّيْقُوتِ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ﴾ ٥٩٢
- ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ٥٩٧
- ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكُمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٦٠٤
- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ٦٠٥
- ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ٦٠٥
- ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ٦٠٥
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ﴾ ٦٠٧
- ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ ٦٠٩
- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ ٦١٨
- ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ٦٢٢
- ﴿وَالْمَلَكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿١٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ ٦٤٩

- ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ ٦٥٠
- ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٦٥٧
- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ٦٥٧
- ﴿ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ٦٦١
- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾ ٦٦٤
- ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ ٦٧٥
- ﴿ قُلْ يَتَّيَبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ٦٧٥
- ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ٦٧٦
- ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ٦٧٦
- ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ٦٧٦
- ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ ٦٨١
- ﴿ وَأُولَئِ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ٦٨٥
- ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ ٦٨٥
- ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ ٦٨٧
- ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ٦٨٧
- ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ ٦٨٨
- ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ٦٨٨
- ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ٦٨٨
- ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ ٦٨٨
- ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ ٦٨٩

- ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ٦٨٩
- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ٦٨٩
- ﴿وَإِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ٦٩٠
- ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ٦٩٠
- ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٦٩٧
- ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ٦٩٨
- ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ٧٠٦
- ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ ٧١٠
- ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ ٧١٢
- ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً﴾ ٧١٣
- ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ٧١٤
- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ ٧١٥
- ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ٧١٦
- ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ ٧١٦
- ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ ٧١٦
- ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ٧١٦
- ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ ٧١٦
- ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ﴾ ٧١٦
- ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ ٧١٨
- ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ ٧١٨

- ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ٧١٨
- ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ٧١٨
- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٧١٨
- ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ ٧١٩
- ﴿لِنَعْلَمَ مَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٧٢٢



فهرس الأحاديث والآثار

الصفحة	الحديث
٥٩	«أَبْلَكَ جُنُونٌ؟»
٦٥٩	«اتَّذَرُونَ مَا الْغِيَّةُ؟»
٥١١، ٤٦	«اتَّذِرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»
٣٥٩	«اتَّزُونَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ إِلَّا أَسْمِعُكُمْ؟ وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ»
٢٥٤	«اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»
٧٢٣	«أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»
٣٨١	«اخْرُجْ بِأَخِيكَ مِنَ الْحَرَمِ، فَلْتَهْلِلْ بِعُمْرَةٍ»
٤٤٧، ٣٦٨، ١٢٢	«إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ»
٢٥٧	«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ»
٣٨٨	«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا»
٢٤١	«إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ»
٧٠٦	«إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ، فَاْمْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ..»
٢٨٨	«إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»
١١٠	«إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ»
٥٥	«إِذْهَبْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»
٤٥٨	«إِذْهَبُوا بِخَمِيصَتِي هَذِهِ إِلَى أَبِي جَهْمٍ وَأُتُونِي بِأَنْبِجَانِيَّةٍ أَبِي جَهْمٍ»
٩٢	«إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ»

- «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتْ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطْتَ وَادِيًا لَهُ عُذْوَتَانِ» ٤٠٣
- «أُشْنِمِطُ زَانٍ» ٧٤
- «أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَيْطَّ مَا فِيهَا قَدْرُ مَوْضِعِ أَصْبُعٍ» ٥٦٣
- «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤَمِّنَةٌ» ١٤، ٢٥٤، ٥٧٤، ٥٨١، ٦٠٠
- «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ» ٥٥٨
- «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْخَبَائِثِ» ١٤٥، ٢٣٧
- «أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟» ٤٠٢
- «أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ» ٤١٦
- «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» ٤٥٤
- «أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ» ٢٠٦
- «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ١٣، ٢٥٤
- «الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ» ١٥، ٤٥٠
- «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيْنَا بُورِكَ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا» ٣٥٥
- «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَوْ كَبِيرٌ» ٣٨٢
- «الْجَارُ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» ٢٨٧
- «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي» ١٤٦، ٢٣٨
- «الْحَمُّوُ الْمَوْتُ» ٤٢، ٣٣٦
- «الْحَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْحَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٤٥٨
- «الزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ» ٢٥٠
- «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» ١٢، ١٥٣

- «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ» ٥٢٧، ٢٢٧
- «اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا» ٦٣٦
- «اللَّهُمَّ أَغْنِنَا، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا، اللَّهُمَّ أَغْنِنَا» ٢٠١
- «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي...» ٥٣٦
- «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ» ٢٤٣
- «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالظُّرَابِ» ٢٠١
- «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ» ٢٧٢
- «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ» ٢٨٢
- «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ» ٤٤٤
- «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ» ١٧٧
- «أَمَّا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ» ٣٦٨، ١٢٣
- «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٤٥٤
- «أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ» ٤٠٢
- «إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ» ٣٠
- «إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ» ٤٤٧
- «إِنَّ السُّنَّ عَظِيمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمُدَى الْحَبْشَةِ» ٢٢٧
- «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ» ١٩٩
- «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» ٢٨١
- «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» ٥٩٨، ٢٧٧
- «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» ٤٧١

- «إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا» ٤٨٥
- «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ» ٥٦٥، ٢٣٧
- «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ٤٩٢
- «إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولُهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ» ٧١٠، ٧٠٢
- «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَرِ جَبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ» ٣٦٥
- «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟» ٣٥١، ١٧٦
- «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ» ٦٤، ٤٤
- «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ شَحِيحٍ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى» ٣٨٣
- «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ» ١٧٣
- «إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا» ٦٣٨
- «إِنَّ لِلَّهِ مِثَّةَ رَحْمَةٍ، فَمِنْهَا رَحْمَةٌ بِهَا يَتَرَأَّحُ الْخَلْقُ بَيْنَهُمْ» ٣٨٥
- «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٣٦٠
- «إِنْ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» ٣٠
- «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَىٰ بَنَاتِ آدَمَ» ٣٨٠
- «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ» ٦٣٦، ٦١٥
- «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ» ٦٣٥
- «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي»
- ٦٥٢، ٦٣٢، ٦٢٥، ٢٧
- «انْظُرْ وَلَوْ خَاتِمًا مِنْ حَدِيدٍ» ٥٥
- «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» ٦٥١، ٢٦٥

- «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» ٦٩٧
- «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» ٤٦٨، ٤٣٢
- «إِنَّهُ أُنْدَى صَوْتًا مِنْكَ» ٧٠٢
- «أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا وَأَجْلَهَا» ١٩٠
- «إِنِّي أُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنُقُودًا» ٣٣٢
- «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» ٤٧٤، ٩٠
- «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ» ١٧٣
- «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا مَكْرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ» ٢٤٣
- «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ» ٦٥، ٤٤
- «إِيَّاكُمْ وَالذُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ» ٣٣٦، ٤٢
- «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوفَ فِي الدِّينِ» ٦٤٧
- «أَيْنَ اللَّهُ؟» ٦٠٠، ٥٨١، ٥٧٤، ٢٥٣، ١٤
- «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ» ٣٢٠
- «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» ٣٢٨، ٢١٤
- «تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ» ٩٣
- «تَرَكْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ» ١٤٦، ١١٠
- «تَكَلَّمْتُكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ» ٤١٦
- «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ» ٤٨
- «حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي» ٥٣٦
- «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» ٤٣٠

- «حَقَّ الْغَرِيمِ، وَبَرِيءٌ مِنْهُمَا الْمَيْتُ؟» ٥٤
- «خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ» ١٧٧
- «خَمْسٌ مِنَ الْفِطْرَةِ» ٧٢٦
- «خَيْرُ الْأَسْمَاءِ مَا حُمِدَ وَعُبِدَ» ٧٢٣، ١٥٥
- «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» ١١٦
- «دَعُوهُ لَا تَزِرْ مَوْهُ» ٦٣٥
- «ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ» ٤٨٠، ٢٧٦
- «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» ٦٥٩، ٤٩٧
- «رُبَّ صَائِمٍ حَظَّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ» ٢٩١
- «رَبُّنَا اللَّهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ» ٥٨١
- «عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفْضُ الْفَلَاحِ عَلَى الْحَلَقَةِ» ٦٠٢، ٥٧٧، ٨
- «عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ، تَعْدِلُ حَجَّةً» ٣٧٩
- «عَنِ الْغُلَامِ شَاتَانِ مُكَافَأَتَانِ، وَعَنِ الْجَارِيَةِ شَاةٌ» ٧٢٥
- «فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُرَضَّ رَأْسُهُ بِالْحِجَارَةِ» ٧١١
- «فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي أَمْرُؤٌ صَائِمٌ» ٥١، ٢٤
- «قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتَ يَا أُمَّ هَانِيٍّ» ٣٤
- «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ» ٦٢٣، ٦١٧
- «قُلُوبُ بَنِي آدَمَ كُلُّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ» ٦٤٢، ٢٢٠
- «قُومُوا فَاَنْحَرُوا ثُمَّ اخْلِقُوا» ٩٠
- «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ» ٢٢٥

- «كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ، فَنُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ، وَلَا نُؤْمِرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ» ١٧٠
- «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ» ٣٢
- «كُلَّكُمْ يُتَاجَى رَبَّهُ، فَلَا يُؤْذِنَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا» ٧٠٣، ٢٩٦
- «لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةً لِحَارَتِهَا شَيْئًا وَلَوْ بِفَرَسَنِ شَاةٍ» ٦٢٨
- «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ» ٤١٥
- «لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ» ١٦٢
- «لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ» ١٦٠
- «لَا تَقُولُوا: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ» ٣٤١
- «لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ إِلَيْهَا» ١٧١
- «لَا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ» ٥١٢، ٤٩٩، ٤٧
- «لَا طَلَاقَ، وَلَا عَتَاقَ فِي إِغْلَاقٍ» ٢٧٧
- «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ» ٣٥٧
- «لَا يَجْهَرُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ» ٧٠٤
- «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ» ٧١، ٦٧
- «لَا يَخْلُونَ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثُهُمَا الشَّيْطَانُ» ٤١
- «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» ٢٩٢، ١٦٦
- «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ» ٢٤٤، ٢٣٤
- «لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ» ٢١٨، ٩٤
- «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» ١١٧
- «لَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ» ٢١٢

- «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ مُحْسِنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» ٤٩٤
- «لَا يَنْصَرِفُ حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا» ٢٧٨، ٦٧٤
- «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ٢٩٧
- «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ» ٣٤٥
- «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ٣١٣، ٣٣٠
- «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذِكْرٌ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، تَجِدُونَهُ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا» ٢٢٧
- «لَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ» ٤٦٩
- «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» ٥٦١
- «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ» ٨٧
- «لَوْ أَذْرَكْتُ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ لَا سَتَخَلَفْتُهُ وَمَا شَاوَزْتُ فِيهِ» ٤٠٢
- «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ» ١٤٦
- «لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُمْ» ٦٢١
- «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَا تَتَّخِذْتُ أَبَا بَكْرٍ» ٤٧٥
- «لَوْ مَدَّ بِيَ الشَّهْرُ لَوَاصِلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ» ٦٢٠
- «لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ» ٤٣٤
- «لِيَخْرُجَنَّ وَهْنًا تَفَلَاتٌ» ١٧٢
- «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» ٤٠٧
- «لَيْسَ السَّنَةُ بِأَنْ لَا تُمَطَّرُوا، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمَطَّرُوا» ١٧٩، ٢٠١، ٢٠٧
- «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي، إِنَّمَا الْوَاصِلُ هُوَ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا» ٦٢٧
- «لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللَّهِ» ٦٦٣

- «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطَيِّرَ لَهُ» ٢٠٠
- «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ» ٦٩٦
- «لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوْ لَوْ الْأَخْلَامِ وَالنُّهَى» ٢٩٦
- «لِيَهْنِ لَكَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ الْعِلْمُ» ٤٦٣
- «مَا أَزَالَ أَجْدُ أَلَمِ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْرٍ» ٣١١
- «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ عِنْدَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ» ٦٠٢، ٥٧٦، ٨
- «مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِكُلُّ، إِلَّا السِّنَّ وَالظُّفْرَ» ٢٢٧
- «مَا خَلَّاتِ الْقَضَوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ» ٤٧٢
- «مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟» ٢٣٣
- «مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ» ١٦٠
- «مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا» ٥٣٥
- «مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ» ٤٨٩، ٤٠٧
- «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ» ٧١
- «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» ٦٦٣
- «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» ٦٥٣، ٦٣٢
- «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ» ٣٧٠
- «مَنْ اقْتَطَعَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا» ٤٩٧، ٣٦٤
- «مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكَرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا» ٣٠٣
- «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ نُودِيَ فِي الْجَنَّةِ» ٥٥٩
- «مَنْ تَعَدَّوْنَ الْمُفْلِسَ فَيَكُفُّكُمْ؟» ٣٨٧

- «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ» ٥٢٧
- «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» ٤١٥
- «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ» ٦٣
- «مَنْ سَمِعَ بِالِدِّجَالِ فَلْيَنَأْ عَنْهُ» ٢٢٠
- «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا» ٦٣٢، ٣٧٧
- «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَجْمَهُ اللَّهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ٣٦٢
- «مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ» ٢٤٧
- «مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَنَسَكَ نُسُكَنَا، فَقَدْ أَصَابَ النُّسُكَ» ٦٧٠
- «مَنْ عَمَلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» ٦٥٣، ٦٢٥، ١٤٦
- «مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ» ٥٧، ٣٢
- «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ» ٢٨٨
- «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ٣٠٤
- «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ» ٢٩٣
- «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلِ قَوْمٍ لُوطٍ، فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ٣٠٧، ٤٠، ٣٧
- «نِعَمَ الْبِدْعَةُ هَذِهِ» ٦٥٥
- «نَهَى عَنْ قَتْلِ أَرْبَعٍ مِنَ الدَّوَابِّ: النَّمْلَةُ، وَالنَّحْلَةُ، وَالْهُدُودُ، وَالصُّرَدُ» ١١٠
- «هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَّا مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» ٧٩
- «هَلَّا تَرَكْتُمُوهُ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ، فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ» ٥٩
- «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْ لَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ٥١٢، ١٥٢
- «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعْظَمُونَ فِيهَا حُرْمَاتِ اللَّهِ» ٤٧٢

- «والسارق والسارقة فاقطعوا أيماهما» ٣٩
- «وَاللّٰهُ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهِ» ٤٧٦
- «وَاللّٰهُ مَا الْفَقْرَ أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تُبْسَطَ» ٥١٤
- «وَاللّٰهُ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ» ٤٧٠
- «وَإِنَّمِ اللّٰهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ٣٢٠
- «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَلَدٌ وَسَمَّيْتُهُ إِبْرَاهِيمَ» ٧٢٤
- «وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ» ٤٧٢
- «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟» ٤٤٦
- «يَا أَصْحَابَ السَّمُرَةِ، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ» ٧٠٢، ٣٧٢
- «يَا رَسُولَ اللّٰهِ، مَا عَلَى أَحَدٍ يُدْعَى مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ مِنْ ضُرُورَةٍ» ٥٥٩
- «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي»
- ٣٤٤، ٣١١، ٢٩٣، ٢٨٥
- «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنُّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
- فَسَأَلُونِي» ٨١٠
- «يَا غَلَامُ، سَمَّ اللّٰهُ وَكُلَّ يَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ» ٢٣٧
- «يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ» ٢٢٥
- «يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللّٰهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ» ١٢١
- «يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ» ٢٢٠
- «يَا هَذِهِ اتَّقِي اللّٰهَ وَاصْبِرِي» ٦٩٦
- «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟» ٣٧٥، ٢٧٤

- «يَتَّبَعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ» ٣٧٥
- «يُجْزَى عَنْكَ طَوَافُكَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، عَنْ حَجِّكَ وَعُمْرَتِكَ» ٣٨١
- «يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ» ٥٦٤
- «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ» ١٥٤



فهرس الفوائد

الصفحة

الفائدة

- يَلْزَمُنَا أَنْ نُثَبِّتَ كُلَّ وَصْفٍ أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَوْ فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ ٦
- كُلُّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ نَفْسِهِ إِثْبَاتًا أَوْ نَفْيًا وَجَبَ عَلَيْنَا الْإِيْمَانُ بِهِ ٨
- عُلُوُّ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ لَا يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ مُفْتَقِرٌ إِلَى هَذَا الْعَرْشِ ٨
- كُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَالسَّلَفُ - الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ - قَدْ قَالُوا بِهِ؛ لِأَنَّ رَأْيَهُمْ لَوْ كَانَ خِلَافَهُ لَيَبْتَنُوهُ ١٤
- مِنْ طُرُقِ إِثْبَاتِ إِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ أَلَّا يُوجَدَ فِي كَلَامِهِمْ مُخَالَفٌ لَهَا فِي الْقُرْآنِ ١٤
- يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُنْكِرَ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ بِأَنَّ اللَّهَ بَذَاتِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَنْ نَدْعُوهُ إِلَى أَنْ يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ ١٨
- الْمَنَافِقُ لَهُ زِيٌّ حَسَنٌ، وَهَيْئَةٌ حَسَنَةٌ، وَكَلَامٌ سَاحِرٌ ٣٠
- النَّفُوسُ الَّتِي حَرَّمَهَا اللَّهُ أَرْبَعَةٌ أَصْنَافٍ: الْمُسْلِمُ، وَالذَّمِّيُّ، وَالْمُعَاهِدُ وَالْمُسْتَأْمِنُ ٣١
- الْمُعَاهِدُ وَالذَّمِّيُّ كِلَاهُمَا أُعْطُوا وَثَاقٌ مِنْ وُلاَةِ الْأُمُورِ، وَلَيْسَ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ أَفْرَادَ النَّاسِ لَيْسَ مِنْهُمْ حَلٌّ وَلَا عَقْدٌ ٣٢
- الْمُعَاهِدُ لَيْسَ مُقِيمًا مَعْنَا، بَلْ هُوَ فِي بَلَدِهِ لَكِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ عَهْدٌ أَلَّا يُحَارِبَنَا وَلَا نُحَارِبَهُ ٣٢
- إِذَا عَاهَدْنَا الْكُفَّارَ عَهْدًا دَائِمًا أَلَّا نَحَارِبَهُمْ فَهَذَا يَعْنِي إِسْقَاطَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا يُمْكِنُ إِسْقَاطُهُ، فَالْجِهَادُ مَاضٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٣٣
- الْأَنْفُسُ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ الْمُسْلِمِ وَالذَّمِّيِّ وَالْمُعَاهِدِ وَالْمُسْتَأْمِنِ ٣٤
- خُلِقَ الْإِسْلَامُ الْوَفَاءُ لِلْمُعَاهِدِ وَالْمُسْتَأْمِنِ ٣٥

- صوابُ الكلمة أن يُقال: المُستأمن - بكسر الميم - ليكونَ اسمَ فاعِلٍ ٣٥
- اللواطُ لا يُمكن التحرُّزُ منه، بمعنى لا يمكن إذا رأيتَ شابين يمشيان جميعًا أن تقول: قف، من هذا الشاب ٣٧
- يجب على أولياء الأمور أن يُحافظوا على شبابهم محافظةً تامَّةً، حتَّى يَعْرِفُوا مَنْ أصحابهم، وما مَسَلَكُهم، فيحصل بذلك رَدْعُ الشرِّ. ٣٨
- الزنا: فعل الفاحشة في قُبَلٍ أو دُبُرٍ. ويدخل في ذلك اللواطُ، لكن اللواطُ أَقْبَحُ من الزنا ٤٠
- لا يَحِلُّ لِإنسانٍ أن يَمْكُنَ نساءَهُ من الركوبِ مع السائقِ إذا كان وحده ٤١
- التوبة تعريفها: الرجوعُ من معصية الله إلى طاعة الله ٤٤
- التوبةُ مِنَ الشُّركِ بالتوحيد والإخلاص ٤٤
- التوبةُ مِنَ البدعةِ بالاتباعِ وحُسنِ الأُسوةِ برسولِ الله ﷺ ٤٤
- التوبةُ مِنَ الزنا بالعَفاف ٤٤
- يجب أن يبادرَ الإنسانُ بالتوبة؛ لأنَّه لا يَدْرِي متى يَفْجُؤُهُ الموتُ، ٤٦
- إذا كان الموتُ قد يأتي بغتَةً فالواجب علينا أن نُبادِرَ بالتوبة؛ لئلا يأتي الموتُ بغتَةً ونحن لم نُنَبِّ. ٤٦
- إذا خرجَتِ الشمسُ من مَغربها فإن النَّاسَ كلهم يؤمنون ٤٧
- مَنْ استوفى من الأجرِ العملَ ولم يُعطِهِ كان الله يومَ القِيَامَةِ خَصَمَهُ ٤٨
- السُّجُودُ أَشْرَفُ أفعالِ الصَّلَاةِ في هَيْئَتِهِ، والقيامُ أَشْرَفُ أفعالِ الصَّلَاةِ في ذِكرِهِ. ٥١
- إذا كان النَصْرُ يَحْتَمِلُ معنيين لا مُرَجِّحَ لأحدهما على الآخرِ، ولا يُعارض أحدهما الآخرَ، وجبَ أن يُحْمَلَ النَصْرُ على المعنيين جميعًا ٥٢

- عبادُ الرَّحْمَنِ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا؛ أَي لَمْ يَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ فِي إِنْفَاقِهِمْ، وَلَمْ يَقْتُرُوا؛
 ٥٣..... أَي لَمْ يَقْصُرُوا فِي الْإِنْفَاقِ عَمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُنْفِقُوهُ
- الشُّرْكُ: إِخْلَالٌ بِحَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ..... ٥٦.....
- الزَّنا - والعياذ بالله - هَتَكٌ لِلْأَعْرَاضِ وَاجْتِلَاطٌ لِلْأَنْسَابِ..... ٥٦.....
- عبادُ الرَّحْمَنِ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالْحَقُّ كُلُّ مَا يَبِيحُ الدَّمُ الْمُحْتَرَمَ... ٥٨.....
- التَّوْبَةُ تُجِبُّ مَا قَبْلَهَا..... ٦٠.....
- إِذَا شَهِدَ شَاهِدٌ وَحَلَفَ الْمُدَّعِي فَإِنَّهُ يُقْضَى لَهُ..... ٦٢.....
- قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ جُرْمًا فِي حَقِّ الْآدَمِيِّينَ..... ٦٥.....
- الدَّعَاءُ يَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ: دَعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدَعَاءُ عِبَادَةٍ..... ٦٦.....
- النَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَرْبَعَةٌ أَنْفُسٍ: الْأُولَى: الْمُسْلِمُ، وَالثَّانِيَّةُ: الذَّمِيُّ، وَالثَّلَاثَةُ:
 الْمَعَاهِدُ، وَالرَّابِعَةُ: الْمُسْتَأْمِنُ..... ٦٧.....
- الذَّمِيُّ هُوَ الرَّجُلُ الْكَافِرُ يَقِيمُ فِي بِلَادِنَا تَحْتَ ظِلِّ الْإِسْلَامِ، وَيَبْذُلُ الْجُزْيَةَ..... ٦٧.....
- الْمَعَاهِدُ نَفْسُهُ مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُحَرَّمَةِ، إِلَّا إِذَا نَقَضَ الْعَهْدَ، فَإِنَّ احْتِرَامَهُ يَزُولُ..... ٦٩.....
- الْمُسْتَأْمِنُ، وَهُوَ الَّذِي لَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طَائِفَتِهِ عَهْدٌ، لَكِنْ هُوَ بِنَفْسِهِ دَخَلَ إِلَى بِلَادِنَا
 مُسْتَأْمِنًا..... ٦٩.....
- الْثِيْبُ هُوَ الَّذِي جَامَعَ زَوْجَتَهُ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ..... ٧٠.....
- الذَّمِيُّ أَيْضًا إِذَا نَقَضَ الْعَهْدَ أَوْ نَقَضَ الذِّمَّةَ وَجَبَ قَتْلُهُ..... ٧١.....
- فَسَادُ الْأُمَمِ بِالزَّنا يَكُونُ بِاجْتِلَاطِ الْأَنْسَابِ حَتَّى لَا يُدْرَى هَذَا الْوَلَدُ وَلَدُ الزَّانِي
 أَوْ وَلَدِ الزَّوْجِ..... ٧٢.....
- حَرَّمَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ كُلَّ وَسِيلَةٍ تَوْدِي إِلَى الزَّنا؛ فَحَرَّمَ النَّظَرَ لغيرِ الزَّوْجَةِ، وَحَرَّمَ

- النظرَ بشهوةٍ حتى لمحارمك ٧٢
- سدَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كُلَّ طريقٍ يوصلُ إلى الزنا فأمرَ بغَضِّ البصرِ، ونهى المرأةَ أن تُبديَ
زيتَها إلا ما ظهرَ ٧٢
- يَعُدُّ جدًّا أن يُرادَ بالزينةِ الوجهُ والكفانِ؛ لأن هذا ليسَ بزينةٍ، فهذا جزءٌ من
الإنسانِ، والجزءُ من الإنسانِ ليسَ زينةً له ٧٣
- الجيبُ هو أعلى النحرِ ٧٤
- اعلمُ أن الزنا يتضاعفُ بحسبِ جُرمِهِ وإثمِهِ، فزنا الشيخِ الكبيرِ أعظمُ من زنا الشابِّ ... ٧٤
- يعظمُ الزنا إذا كانَ بإحدى المحارمِ ٧٤
- القولُ الراجحُ أن مَنْ زنى بواحدةٍ من محارمِهِ فإنه يقتلُ بكلِّ حالٍ ٧٥
- التوبةُ مِنَ القتلِ لا تصحُّ إلا إذا سلمَ القاتلُ نفسه لأوليائِ المقتولِ ٧٧
- لو تابَ القاتلُ وبرئَ من حقِّ أوليائِ المقتولِ فإنه يبقى عليه حقُّ آخرٍ، وهو حقُّ
المقتولِ نفسه ٧٨
- ينبغي لطالبِ العلمِ أن يعتنيَ باستنباطِ الفوائدِ من الأدلةِ الشرعيةِ ٧٩
- إنما حَشَرَ فِرْعَوْنُ السَّحَرَةَ؛ لأن آياتِ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من جنسِ السحرِ،
لكنها ليست سحرًا ٨٢
- كان للسحرِ في عهدِ فِرْعَوْنَ شأنٌ عظيمٌ ٨٢
- مَنْ استكبرَ عن آياتِ الله فإن ماله أن يذللَّ ويخزى ٨٤
- لقد تكالبَ النَّاسُ على الدُّنيا حتَّى صارت الدُّنيا أكبرَ هَمِّهم، ومبَلِّغَ عِلْمهم، وصاروا
لا يهتمُّون بنقصِ الدينِ إذا زادتِ الدُّنيا ٨٥
- إذا ضاقتْ بك الحِيلُ فانتظرِ الفرجَ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تَرَكْنِ إِلَّا إلى الله، ولا تستعِنْ
إِلَّا بالله، ولا تسألْ إِلَّا الله ٩٣

- كُلُّ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ سَمِعَ بِرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ مَاتَ عَلَى هَذَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ، فَإِنَّهُ
 ٩٤..... مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ
- لَا يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِفُلَانٍ، وَقَدْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ الْاِعْتِدَاءِ
 ٩٥..... فِي الدُّعَاءِ
- اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ لُغَةُ الْقُرْآنِ، وَلُغَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَالصَّحَابَةِ، وَلُغَةُ مَنْ نَفَتْخَرَ بِالانْتِسَابِ
 ٩٦..... إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَرَبِ
- جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَسَمَّاهُ اللَّهُ رُوحًا لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بِمَا فِيهِ الرُّوحُ، أَيُّ: الْحَيَاةُ الْقَلْبِيَّةُ،
 ١٠٠..... وَهِيَ حَيَاةُ الْإِيمَانِ وَالذِّينِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ
- الْإِنْذَارُ هُوَ الْإِعْلَامُ الْمُقْرُونُ بِالتَّخْوِيفِ وَالتَّرْهِيْبِ ١٠١
- ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ يُحْرَمُ عَلَى الْمَرْءِ الْعَرَبِيِّ أَنْ يَنْطِقَ بِغَيْرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَدَلًا
 ١٠٥..... مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
- تَعَلَّمَ غَيْرَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ جَائِزٌ، وَقَدْ يَكُونُ وَاجِبًا أَحْيَانًا، إِذَا كَانَ وَسِيلَةً لِإِبْلَاغِ
 ١٠٥..... الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
- لَيْسَ دَاوُدُ مَلِكًا فَقَطْ كَمَا تَزْعُمُهُ الْيَهُودُ ١٠٨
- وَادِي النَّمْلِ هُوَ وَادٍ مَعْرُوفٌ بِهَذَا الْاسْمِ، وَذَلِكَ لِكَثْرَةِ النَّمْلِ فِيهِ ١٠٩
- النَّمْلُ حَيَوَانٌ يَعْقِلُ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ فِيهِ مَصْلَحَتُهُ، لَيْسَ عَاقِلًا عَقْلًا مُطْلَقًا يَكُونُ
 ١٠٩..... مَنَاطًا لِلتَّكْلِيفِ كَعَقْلِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ
- كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ وَهُوَ كَافِرٌ فَإِنَّهُ يُسَمَّى فِرْعَوْنًا ١١٢
- الشَّيْطَانُ هُوَ رَأْسُ الْفِتْنَةِ ١١٣
- أَرَادَ الشَّيْطَانُ بِنَا شَيْئًا فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ عَلَيْهِ فِي غَايَةِ الْحَرَصِ ١١٣
- الشَّيْطَانُ حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يُلْقِيَ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَيْنَ النَّاسِ ١١٣

- الهدفُ لمن أرادَ الآخرةَ من طلابِ العلمِ إعلاءُ كلمةِ الله، وإقامةُ دينِ الله في عبادِ الله ١١٤
- الواجبُ علينا أن نقولَ للحقِّ: حقٌّ، من أيِّ شخصٍ كان ١١٤
- الواجبُ أن نقولَ للباطلِ: باطلٌ، من أيِّ شخصٍ كان ١١٤
- كلُّ إنسانٍ يُمكنُ أن يُخطئَ خطأً كبيراً أو خطأً صغيراً ١١٤
- طريقُ السلفِ الصالحِ الرجوعُ إلى شيئين، لا ثالثَ لهما، ألا وهما كتابُ الله، وسنةُ رسولِهِ ﷺ ١١٤
- الأصلُ فيما قاله القائلُ أنه قوله حتى يُعلنَ أنه رجَعَ عنه إعلاناً واضحاً بيناً ١١٦
- الخطأُ خطأً، والصوابُ صوابٌ أيّاً كان القائلُ به ١١٦
- استشعارُ القلبِ امتثالَ أمرِ الله عندَ فعلِ العبادةِ واتباعِ رسولِ الله ﷺ له شأنٌ كبيرٌ في صلاحِ القلبِ ١١٧
- الغفلةُ وفعلُ الشيءِ على العادةِ فهذا لا يُكسبُ العبادةَ رُوحاً ومعناها والمرادُ بها ١١٧
- حصلَ الاختلافُ منَ الصحابةِ، ولكنِ القلوبُ واحدةٌ متفقةٌ مؤتلفةٌ، والمحبةُ باقيةٌ، والتألفُ باقٍ ١١٩
- لا يجوزُ للشبابِ، ولا سيّما طلبةَ العلمِ، أن يتفرّقوا من أجلِ اختلافٍ في التأويلِ، إذا كانَ للتأويلِ مساعٌ ١٢٠
- الصوابُ يجبُ أن يُقبلَ حتى من أكفرِ الكافرينَ ١٢٠
- النبيُّ ﷺ قبلَ الحقِّ من اليهودِ الذين هم أبعدُ الناسِ عن الحقِّ ١٢١
- أخبارُ اليهودِ أشدُّ جرماً من عوامِّ اليهودِ ١٢١
- الدينُ الإسلاميُّ ضدُّ الأحزابِ ١٢٣
- لن يُصلَحَ آخرَ هذهِ الأمةِ إلا ما أصلَحَ أولها ١٢٥

- ١٢٧ فرعونُ كانَ مَلِكًا لمُضر، وكانَ مَلِكًا كافِرًا جَبَّارًا مُتَكَبِّرًا، عَلَا في الأَرْضِ
- ١٢٧ كانَ مِنْ طَرِيقَةِ فرعونَ أَنه جَعَلَ أَهْلَ الأَرْضِ شِيعًا وطوائِفَ
- الواجِبُ على الجميعِ مِنْ وُلاَةِ الأمورِ مِنَ الحُكَّامِ والعُلَماءِ أَن يَتَفَطَّنُوا لِمَا يَريُدُ
- ١٢٧ أعداؤُهُم بِهِمْ مِنْ تَفْرِيقِ كَلِمَتِهِمْ
- ١٢٩ كُلُّ مَنْ قامَ لِلَّهِ وباللَّهِ وفي اللَّهِ؛ فَإِنَّ العاقِبَةَ تَكُونُ لَهُ
- ما فَاتَ الأُمَّةَ الإِسْلامِيَّةَ مِنَ النَّصْرِ، وما فَاتَهَا مِنَ العِزَّةِ إِلَّا بِسَبَبِ عَدَمِ الأُخْذِ
- ١٢٩ بِتَوَجِّهِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ
- ١٣٠ الخُرُوجُ عَنِ إِجماعِ المُسْلِمِينَ ضَلالٌ
- ١٣٥ المُعَلَّقَاتُ هِيَ قِصائِدٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ العَرَبِ كانوا يُعَلِّقُونَهَا على الكَعْبَةِ
- ١٣٧ مَنْ ماتَ على الشُّرْكِ فَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُ مِنَ أَصْحابِ الجَحِيمِ
- ١٣٧ كَمْ مِنْ إنسانٍ كانَ على ضَلالٍ ثُمَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالهِدَايَةِ
- ١٣٩ لا يَمْكَنُ أَنْ تَهْدِيَ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ أَبَدًا
- ١٤١ العِبْرَةُ بالخَوَاتِيمِ
- ١٤٢ كَمْ مِنْ إنسانٍ تأتيهِ النَّصائِحُ مِنْ كُلِّ جانبٍ وَمِنْ كُلِّ شَفِيقٍ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ لا يَهْتَدِي
- ١٤٣ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يُضِلَّ أَحَدًا لَيْسَ أَهْلًا لِلإِضْلالِ
- ١٤٣ التَّنَاقُضُ يَلْزَمُ مِنْهُ تَكْذِيبُ أَحَدِ الأَمْرَيْنِ
- ١٤٣ القُرْآنُ الكَرِيمُ لا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَنَاقُضٌ
- ١٤٣ صَحِيحُ السُّنَّةِ لا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَنَاقُضٌ
- ١٤٤ الهدايةُ نَوْعانٍ
- ١٤٥ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ بَيَّنَّ لِلأُمَّةِ كُلِّ ما تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، بَيَّنَّه إِمَّا بِقَوْلِهِ، وإِمَّا بِفِعْلِهِ، وإِمَّا بِإِقْرَارِهِ ..

- التَّسْبِيحُ حَقٌّ، والتَّحْمِيدُ حَقٌّ، والتَّكْبِيرُ حَقٌّ، والتَّهْلِيلُ حَقٌّ ١٤٦
- الأصلُ في العِبَادَاتِ التحريمُ حتَّى يقومَ دليلٌ على أنَّها مشروعة ١٤٧
- الأصلُ في الأشياءِ الحِلُّ إلَّا ما وردَ تحريمُهُ ١٤٧
- الأصلُ في العِبَادَاتِ المنعُ إلَّا ما وردتْ شَرْعِيَّتُهُ. ١٤٧
- الهدايةُ نوعانٍ: هدايةٌ دلالةٌ وبيانٍ ١٤٧
- المؤمنُ يُوفي بالوعدِ ١٥١
- الاستنباطُ بحثٌ طالبُ العلمِ على تدبرِ القرآنِ ١٥١
- العلمُ كُلُّ العلمِ في القرآنِ الكريمِ، حتَّى ما بَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ مِنَ القرآنِ فَهُوَ مِنَ القرآنِ. ١٥١.
- يحرمُ تقديمُ قولِ الإمامِ على قولِ الرُّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ١٥٤
- أقوالُ العُلَمَاءِ يحتجُّ لها وَلَا يحتجُّ بها ١٥٥
- أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنِ اسْتَبَانَ لَهُ سُنَّةُ الرُّسُولِ ﷺ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يِعَارِضَهَا
لقولِ غَيْرِهِ. ١٥٥
- العوامُّ في الحقيقةِ يَتَّبِعُونَ علماءَهُم ١٥٥
- حتى لا يَحْصُلَ التَّنَافُرُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ، جَعَلَهَا مِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ ١٥٦
- الواجبُ على الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ مَتَّصِفًا بِمَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ، بِمَعْنَى الرَّجُولَةِ ١٥٧
- لا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُطَلِّقَ زَوْجَتَهُ فِي حَالَيْنِ ١٥٧
- لا يَجُوزُ أَنْ يُطَلِّقَهَا الْإِنْسَانُ فِي طَهْرِ جَامِعِهَا فِيهِ ١٥٧
- إِذَا كَانَتْ تُرْضِعُ فَإِنَّ الْحَيْضَ لَا يَأْتِيهَا فِي الْغَالِبِ إِلَّا بَعْدَ السَّنَةِ الْأُولَى ١٥٨
- تَشْرُفُ الْأَعْمَالُ فِي عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ ١٦١
- مَا كُتِّفَ بِهِ عَلَى سَبِيلِ الْوَجُوبِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا يَفْعَلُهُ الْمَرْءُ عَلَى سَبِيلِ التَّطَوُّعِ ١٦١

- ١٦٢ الصحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ
- ١٦٣ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ تَفَاضُلَ الْأَعْمَالِ وَأَسْبَابَ هَذَا التَّفَاضُلِ
- ١٦٤ أَعْظَمُ حَقُوقِ الْمَخْلُوقِينَ بَعْدَ حَقِّ الْأَنْبِيَاءِ حَقُوقُ الْوَالِدِينَ
- ١٦٦ لَا يَجُوزُ لِلْأَبْنَاءِ أَنْ يَطِيعُوا أَحَدًا مِنَ الْوَالِدِينَ بِقَطِيعَةِ الرَّحِمِ
- ١٦٦ قَطِيعَةُ الرَّحِمِ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ
- ١٦٦ تَكْفُلُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلرَّحِمِ أَنْ يَصِلَ مَنْ وَصَلَهَا، وَيَقْطَعَ مَنْ قَطَعَهَا
- ١٦٧ الْمَنْكَرُ كُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ
- ١٦٨ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ تَشْتَبِهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؛ الدَّعْوَةُ، وَالْأَمْرُ، وَالتَّغْيِيرُ
- ١٦٨ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَقْتَضِي الْحَالُ أَنْ يُخَاطَبَ بِالْأَدَلَّةِ السَّمْعِيَّةِ
- ١٦٨ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا تَكْفِيهِ الْأَدَلَّةُ السَّمْعِيَّةُ، وَلَا يَقْتَنِعُ بِهَا
- ١٧٠ يَجِبُ الْعَنَاءُ بِالْأَدَلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ لَا سِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي كَثُرَ فِيهِ الْإِلْحَادُ
- ١٧٠ الْحَائِضُ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ
- ١٧١ الْحُرُورَةُ لَقَبٌ لِلْخَوَارِجِ
- ١٧٢ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ إِذَا سَمِعَ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَنْ يَقُولَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
- ١٧٣ الْأَمْرُ الْمُسْتَحَبُّ لَيْسَ أَمْرًا حَتْمًا عَلَى الْإِنْسَانِ، بَلْ لَهُ أَنْ يَتْرَكَهُ
- ١٧٤ خَمْسَةُ أَشْيَاءٍ اخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا، وَهِيَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ
- ١٧٦ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ أَيْضًا مَا نَدْرِي مِنْ أَيِّ مَادَّةٍ هُوَ
- ١٧٧ الْإِنْسَانُ مَأْمُورٌ بِفَعْلِ الْأَسْبَابِ الْوَاقِعَةِ قَبْلَ وَقُوعِ الشَّيْءِ
- ١٧٧ الْإِنْسَانُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْأَسْبَابَ
- ١٧٨ كُلُّ وَصْفٍ يَخْتَصُّ بِالْمَرْأَةِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّاءِ الْفَارِقَةِ

- المرضعُ خاصٌّ بالأُنثى ١٧٨
- لا أحدَ يمكنُ أن يعلمَ السَّاعةَ متى تقومُ ١٧٩
- من ادَّعى علمَ السَّاعةِ فهوَ كافرٌ كاذبٌ ١٧٩
- النكرةُ في سياقِ النَّفي تفيدُ العمومَ ١٨٠
- لا تعلمُ نفسٌ ماذا تكسبُ غداً ١٨١
- لا أحدَ يدري أنه سيموتُ في المكانِ الفلاني ١٨٢
- لا أحدَ يدري بأيِّ أرضٍ يموتُ ١٨٢
- علمُ السَّاعةِ هوَ القيامةُ العامَّةُ ١٨٤
- علمُ السَّاعةِ لا يُمكنُ لأحدٍ أن يدركهُ إلاَّ الربُّ عزَّوجلَّ ١٨٤
- من طُرِقَ الحصرِ تقديمَ ما حقُّهُ التَّأخيرُ ١٨٥
- مَن يُصدِّقُ مَن ادَّعى علمَ السَّاعةِ فإنَّه يكفرُ ١٨٥
- في عَصرِنا الحاضرِ توَصَّلَ الطبُّ إلى أن يعلمَ ما في بَطنِ الأُنثى ١٨٧
- ما صحَّ من السُّنَّةِ والقرآنِ، فإنَّه لا يُمكنُ أن يُعارضَ الواقعَ ١٨٨
- من أركانِ الإيِّمانِ أن تُؤمنَ بالقدرِ ١٩١
- القلمُ كتبَ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القيامةِ ١٩٣
- يَجِبُ أن تُؤمنَ بأنَّ حَرَكَاتِنا وَسَكَنَاتِنا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ ١٩٣
- لا يُمكنُ للإنسانِ أن يُعارضَ مَشِيئَةَ رَبِّه ١٩٤
- لو أُكْرِهَ الإنسانُ عَلَى المعصيةِ لَم يَكُنْ عَلَيْهِ إِثْمٌ ١٩٤
- إِذَا سَجَدَ لِلصَّنَمِ مُكْرَهاً فَلَا شَيْءَ عَلَيْهِ ١٩٥
- الَّذِي أَقْدَرَكَ عَلَى الفَعْلِ هُوَ اللَّهُ ١٩٦

- لَيْسَ الْمَثْوَى الْأَخِيرُ أَنْ يَمُوتَ الْإِنْسَانُ ١٩٧
- عِلْمُ السَّاعَةِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ١٩٨
- مَا يَذْكُرُهُ الدَّجَالُونَ فِي الصَّحَفِ أَوْ الْمَجَلَاتِ فَهُوَ كَذِبٌ ١٩٩
- الْحَوَادِثُ الْفَلَكَيَّةُ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْأَحْوَالِ الْأَرْضِيَّةِ ١٩٩
- قَدْ يَنْزِلُ الْمَطَرُ وَلَا يَكُونُ بِهِ الْغَوْثُ ٢٠١
- لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَنْزِلَ مَطَرًا ٢٠٢
- تَدَبَّرِ الْقُرْآنَ فَسَتَجِدَ فِيهِ الْعَجَائِبَ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ ٢١٢
- مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ مُتَّقِيًا فَلْيَأْتِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ٢١٣
- الْحَضَرُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ إِثْبَاتُ الْحُكْمِ فِي الْمَذْكُورِ، وَنَفْيُهُ عَمَّا سِوَاهُ ٢١٤
- وَمِنْ عَلَامَاتِهَا بَعَثَةُ الرَّسُولِ ﷺ ٢١٤
- الْمُسْلِمُونَ يُؤْمِنُونَ بِالْمَسِيحِ، وَالنَّصَارَى لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ٢١٧
- كُفْرُ النَّصَارَى بِالْقُرْآنِ كُفْرٌ بِالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ٢١٨
- لِلنَّبِيِّ ﷺ أَسْمَاءٌ عَدِيدَةٌ ٢١٨
- اسْمُ أَحْمَدَ اسْمٌ تَفْصِيلٌ، أَيُ: أَحْمَدُ الْخَلْقِ لِلَّهِ، وَأَحْمَدُ الْخَلْقِ خِصَالًا، فَهُوَ أَحْمَدُ بِمَعْنَى
مَحْمُودٍ، وَأَحْمَدُ بِمَعْنَى حَامِدٍ ٢١٨
- لَا بُدَّ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ مِنْ فَهْمٍ ٢١٩
- لَوْ أُرْسِلَ عَرَبِيًّا إِلَى عَجَمٍ مَا قَامَتِ الْحُجَّةُ ٢١٩
- لَوْ أُرْسِلَ أَعْجَمِيًّا إِلَى عَرَبٍ مَا قَامَتِ الْحُجَّةُ ٢١٩
- إِذَا نَزَلَ عِيسَى فَسَوْفَ يَكْسِرُ الصَّلِيبَ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ، وَيَقْتُلُ الْخَنَزِيرَ، وَلَا يَقْبَلُ
إِلَّا الْإِسْلَامَ ٢١٩

- لا تتعرَّض إلى الفتن ٢٢٠
- نحن لا نعرفُ هذه السَّنوات الميلادية ٢٢١
- العربُ في الجاهلية تَارَةً يَجْعَلُونَ الْحَجَّ فِي ذِي الْحِجَّةِ، وتَارَةً يجعلونه في مُحَرَّم ٢٢١
- يَحِبُّ على المسلمين أن يكونوا أَعَزَّةً بدينهم وتاريخهم ولُغَتِهِم ٢٢٢
- لا يجوزُ أن تُهنَّئهم بأعيادهم ٢٢٣
- التهنئةُ بأعيادهم الدِّينية يعني الرِّضا بشعائر الكُفْرِ ٢٢٣
- ذِكْرُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ له أَقْسَامٌ كَثِيرَةٌ ٢٢٥
- من الذِّكْرِ ما هو مَخْصُوصٌ بشيءٍ مُعَيَّن ٢٢٦
- من الأذكارِ المَقِيَّدَةِ: الأذكارُ عندَ دُخُولِ المَسْجِدِ ٢٢٧
- من الأذكارِ المَقِيَّدَةِ: التَّسْمِيَةُ عندَ الذَّبِيحَةِ ٢٢٧
- اللهُ تَعَالَى إِذَا صَدَّرَ الخُطَابَ بِالنِّدَاءِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ على أَهْمِيَّةِ هَذَا الخُطَابِ ٢٢٩
- النِّدَاءُ من جُمْلَةِ فَوَائِدِهِ تَنْبِيهُ المَخَاطَبِ، والتَّنبِيهُ للخُطَابِ يَدُلُّ على أَهْمِيَّتِهِ ٢٢٩
- الذِّكْرُ يَكُونُ بِالْقَلْبِ، وَيَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَيَكُونُ بِالْجَوَارِحِ ٢٣٠
- كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَذْكُرُ اللَّهَ بِلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ وَقَلْبُهُ غَافِلٌ ٢٣٠
- كُلُّ قَوْلٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي ذِكْرِ اللِّسَانِ ٢٣١
- كُلُّ فِعْلٍ يَتَقَرَّبُ بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى اللَّهِ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ٢٣٢
- لَا تَجِدُ عِبَادَةً مِثْلَ الصَّلَاةِ مُشْتَمِلَةً عَلَى كُلِّ أَنْوَاعِ الذِّكْرِ ٢٣٢
- النَّوَافِلُ فِي الْبَيْتِ أَفْضَلُ مِنَ النَّوَافِلِ فِي الْمَسْجِدِ ٢٣٢
- الذِّكْرُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ مُقَيَّدٌ بِالصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ ٢٣٤
- الْعِبَادَةُ إِذَا وَرَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ مُتَنَوِّعَةٌ فَالْأَفْضَلُ وَالْأَوْفَقُ لِلسُّنَّةِ أَنْ تَأْتِيَ بِهَا تَارَةً

- ٢٣٥ كذا، وتارة كذا.....
- ٢٣٧ الخُبْتُ: الشرُّ، والخبائثُ: النفوسُ الخبيثةُ الشريرة.
- ٢٤٢ كُلُّ حَرَكَةٍ تُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ فَهِيَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.
- إذا جاء ذِكْرٌ مطلقٌ وقَيِّدُهُ الْإِنْسَانُ بِحالٍ أو مكانٍ أو زمانٍ لم تَرُدْ به الشريعةُ صار بدعةً.....
- ٢٤٤ الْإِنْسَانُ كُلَّمَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ أَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَانْشَرَحَ صَدْرُهُ.....
- ٢٤٤ طَلَبُ الْعِلْمِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.....
- ٢٤٧ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ صَلَاتَا الْفَجْرِ وَالْعَصْرِ.....
- ٢٤٧ رُؤْيَا اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا لِتَشْبِيهِ اللَّهِ بِالْقَمَرِ.....
- ٢٤٩ نَفْيُ الْإِدْرَاكِ دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الرُّؤْيَا.....
- ٢٥٠ مَنْ تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ مُتَجَرِّدًا مِنَ الْهَوَى فَإِنَّهُ يَتَبَيَّنُ لَهُ.....
- ٢٥٠ اللَّهُ هُوَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ مِنْ خَلْقِهِ.....
- ٢٥١ الرُّؤْيَا تُبَيِّنُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ وَإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ.....
- ٢٥٢ لَا أَحَدٌ يَقُولُ: إِنْ صِفَاتِ اللَّهِ فِيهَا نَقْصٌ.....
- ٢٥٥ الْإِجْمَاعُ الْمَعْتَبَرُ هُوَ إِجْمَاعُ السَّلَفِ.....
- ٢٥٦ اللَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْعَرْشِ وَلَا إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ.....
- ٢٥٧ قَوْلُنَا: (بِاللَّهِ أَقُولُ) فَالْمَرَادُ الْإِسْتِعَانَةُ.....
- ٢٥٧ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ.....
- ٢٥٧ قَوْلُ الْإِنْسَانِ قَدْ يُوَافِقُ الشَّرْعَ وَقَدْ لَا يُوَافِقُهُ.....
- ٢٥٨ النَّبِيُّ أَوْحَى إِلَيْهِ بِالشَّرْعِ لَكِنْ لَمْ يَكْلَفْ بِالْإِبْلَاغِ.....

- إذا وَجَدَ قَوْلَانِ فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ فِي مَعْنَى آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ، وَكَانَ اللَّفْظُ يَحْتَمِلُهَا
وَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى الْمَعْنَيْنِ ٢٦٠
- إِقْبَالُ اللَّيْلِ أَوْ إِدْبَارُهُ كِلَاهُمَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٢٦٠
- الَّذِي يُؤَخِّرُ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ٢٦١
- الَّذِي يَمْنَعُ الزَّكَاةَ الْوَاجِبَةَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ٢٦١
- مَنْ الدَّعَاةُ مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ، لَا إِلَى رَبِّهِ ٢٦٣
- مَنْ كَانَ يَدْعُو لِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَدْعُو لِنَفْسِهِ فَسَوْفَ يَغْضَبُ إِذَا خُولِفَ وَلَوْ فِي الْحَقِّ ٢٦٤
- مَا تَعَلَّقَ بِالشَّرْعِ فَهُوَ إِذْنٌ شَرْعِيٌّ ٢٦٤
- الْإِذْنُ الْكُونِيُّ فَهُوَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْخَلْقِ وَالْكُونِ ٢٦٤
- لَا بَدَّ لِلدَّاعِيَةِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، وَالْعِلْمِ بِأَحْوَالِ الْمَدْعُومِينَ ٢٦٥
- الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ ٢٦٦
- الْمَنَافِقُ يُخْفِي كُفْرَهُ ٢٦٧
- الْمَلَائِكَةُ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ ٢٦٩
- عِظَمُ الْمَخْلُوقِ يَدُلُّ عَلَى عِظَمِ الْخَالِقِ جَلَّوَعَلَا ٢٧٠
- يُمْكِنُ لِلْمَلَكِ أَنْ يَتَكَيَّفَ بِكَيْفِيَةِ الْإِنْسَانِ ٢٧٢
- مِيكَائِيلُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ ٢٧٢
- إِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِنَفْخِ الصُّورِ ٢٧٢
- مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالنَّارِ، وَهُوَ مَالِكٌ ٢٧٢
- لَمْ يَرَدْ أَنْ مَلَكَ الْمَوْتِ اسْمُهُ عِزْرَائِيلُ ٢٧٣
- لِلَّهِ مَلَائِكَةٌ مُوَكَّلُونَ بِعَمَلِ الْإِنْسَانِ يَكْتُبُونَهُ ٢٧٥

- ٢٧٧ ما حَدَّثَ الْإِنْسَانُ بِهِ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَرْكَنْ إِلَيْهِ لَا يَضُرُّهُ
- ٢٧٨ قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنْ طَلَّقَ الْمَوْسُوسِ لَا يَقَعُ
- ٢٧٨ الدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ يَرِيدُ مِنْ أَهْلِهِ أَلَّا يَكُونُوا فِي قَلْبِهِ وَلَا فِي تَعَبِهِ
- ٢٧٩ هُنَاكَ مَلَائِكَةٌ مُسَخَّرُونَ لِلْإِنْسَانِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ
- ٢٨١ عَلَيْكَ بِالتَّزَامِ الدِّينِ وَدَعْ عَنْكَ الْبِدْعَ
- ٢٨٢ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُحَمَّدٌ خَلِيلُ اللَّهِ وَمُوسَى كَلِيمُ اللَّهِ
- ٢٨٣ الْعُلَمَاءُ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ لِلْمُسْلِمِ بِالرَّحْمَةِ
- ٢٨٣ اخْتَلَفُوا هَلْ يَجُوزُ أَنْ يُصَلَّى عَلَى الْمُسْلِمِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ
- ٢٨٦ الَّذِينَ يَسُبُّونَ الدَّهْرَ إِنَّمَا أَرَادُوا سَبَّ الدَّهْرِ لَا سَبَّ اللَّهِ
- ٢٨٧ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ يَتَحَاشَى الْإِنْسَانُ أَذِيَةَ إِخْوَانِهِ
- ٢٨٩ «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ» مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ أَثْنِ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى
- الْأَمْرُ الْمَطْلُوقُ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ إِذَا امْتَثَلَهُ الْإِنْسَانُ مَرَّةً وَاحِدَةً
- ٢٩٠ بَرِئْتُ مِنْهُ الذَّمَّةُ
- ٢٩٠ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ وَاجِبَةٌ
- ٢٩٠ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ سُنَّةٌ وَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ
- ٢٩٢ الْوَعِيدُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ
- ٢٩٣ مَنْ حَادَّ اللَّهَ فِي قَدَرِهِ، وَسَبَّ قَدَرَ اللَّهِ وَقَضَاءَهُ فَقَدْ آذَى اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ
- ٢٩٤ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَا يَضُرُّهُ الْعَاصِينَ بِمَعَاصِيهِمْ وَلَكِنْهُمْ يُوْذُونَهُ
- ٢٩٤ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ:
- ٢٩٥ مِنَ الْأَذِيَّةِ أَنْ يَتَخَطَّى الْإِنْسَانُ رِقَابَ النَّاسِ

- لا يجوز لأحد أن يحتجز مكاناً في المسجد الحرام، ولا في غيره ٢٩٦
- لا يجهر بالقرآن على وجه يشوش به على غيره من المصلين وغيرهم ٢٩٧
- من أذية المؤمنين ما يحصل من بعض السائقين الذين يوقفون السيارات على الأرصفة المعدة للمشاة ٢٩٧
- الذين يؤذون الله ورسوله ﷺ يستحقون اللعنة والعذاب المهيئ ٢٩٨
- تكون أذية الله، بوصفه بما لا يليق به ٢٩٨
- الله سبحانه وتعالى لا يضره أحد من خلقه، ولا تضره معصية العاصين ٢٩٩
- لا يلزم من الأذية الضرر ٢٩٩
- من أذية الرسول عليه الصلاة والسلام: أن يسب سُنَّتَه وشريعته ٢٩٩
- من أذية الرسول عليه الصلاة والسلام: سب أصحابه ٣٠٠
- سب الله ورسوله ﷺ أعظم من سب المؤمنين ٣٠١
- سب الله ورسوله ﷺ كفر ٣٠١
- من أذية المؤمنين: شتمهم، أو سبهم، أو القدح فيهم ٣٠٢
- أذية المؤمنين لا شك أنها محرمة ٣٠٣
- من أذية المسلمين: أن يضع في طرقاتهم ما يؤذيهم ٣٠٣
- من الأذية العظيمة: أن ينسب إلى الشخص ما لم يقله ٣٠٤
- الكذب على العلماء ليس كالكذب على العامة ٣٠٤
- من أذية المؤمنين: التحريش بين المؤمنين ٣٠٥
- إذا رأيت من أخيك خطأ فلا تقره عليه ٣٠٧
- طبيعة البشر إذا عوند فإنه يعاند ٣٠٧

- لا يوجد مثالٌ صحيحٌ لنسخِ القرآنِ بالسنةِ ٣٠٨
- الفاحشةُ باللواطِ أعظمُ منَ الفاحشةِ بالزنا ٣٠٨
- اللهُ تعالى لا يضرُّه شيءٌ، فلا يَتَنَفَّعُ بطاعةِ الطَّائِعِينَ، ولا يَتَضَرَّرُ بمعصيةِ العاصِينَ ٣١٠
- مَنْ لعنهُ اللهُ فلا خيرَ يُرَجَى من وراءِهِ ٣١٢
- النَّصَارَى مَلْعُونُونَ، واليهودُ مَلْعُونُونَ، ولم يُسَلِّطُوا على المسلمينَ إِلَّا بتفريطِ المسلمينَ في دينهم، وبُعْدِهِم عن دينهم ٣١٣
- الملائكةُ تتأذى مما يتأذى منه بنو آدمَ ٣١٤
- كبائرُ الذنوبِ لا تكفرُها الصَّلَاةُ، ولا الصَّيَامُ ٣١٤
- الغيبَةُ من كبائرِ الذنوبِ ٣١٥
- الغيبَةُ يَشْتَدُّ إِثْمُهَا وَيَعْظُمُ قُبْحُهَا إِذَا كَانَتْ آثَارُهَا سَيِّئَةً ٣١٥
- غيبَةُ العُلَمَاءِ أعظمُ إِثْمًا وأكْبَرُ جُرْمًا، وأشدُّ قُبْحًا من غيبَةِ العوامِّ ٣١٥
- غيبَةُ الْحُكَّامِ أَشدُّ جُرْمًا وأعظمُ إِثْمًا من غيبَةِ الْعَامَّةِ ٣١٥
- بعضُ النَّاسِ يَخَاطِبُ الْعُلَمَاءَ الْأَجَلَاءِ مَخَاطَبَةَ النَّدِّ لِلنَّدِّ ٣١٨
- إِذَا كَانَتِ الْعُقُوبَةُ مُوَازِنَةً لِلْجُرْمِ فَلَيْسَ فِيهَا ظُلْمٌ ٣١٩
- الْقصاصُ ليس بحدٍّ ٣٢٠
- السَّاعَةُ أَمْرُهَا مَهْمٌ ٣٢٢
- الوصفُ إِذَا كَانَ خَاصًّا بِالْإِنَاثِ فَإِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَاءِ التَّأْنِيثِ ٣٢٢
- جبريلُ أَشْرَفُ الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمُحَمَّدٌ أَشْرَفُ الرُّسُلِ مِنَ الْبَشَرِ ٣٢٥
- السَّاعَةُ لَا تَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً بَعْدَ أَنْ تُوجَدَ أَشْرَاطُهَا ٣٢٦
- عمرُ الْإِنْسَانِ أَقْرَبُ مِنَ السَّاعَةِ ٣٢٨

- الشأنُ كُلُّ الشأنِ على أيِّ شيءٍ تموتُ ٣٢٩
- الكسوفُ هو انحجابُ ضوءِ الشَّمسِ أو القمرِ ٣٢١
- يجبُ على المرأةِ أن تُدنيَ عليها من جَلابِيبِها ٣٢٥
- الجلبابُ عبارةٌ عن لفافَةٍ تشملُ المرأةَ كلها ٣٢٥
- الواجبُ على المرأةِ أن تتقيَ اللهَ في نَفْسِها أولاً، وفي بَناتها ثانياً ٣٢٥
- الواجبُ أن تكونَ المرأةُ حيَّةً؛ لأنَّ الحياءَ من الإيمانِ ٣٢٦
- الخلوةُ بالمرأةِ الأجنبية مُحَرَّمَةٌ ٣٣٦
- المنافقُ أشدُّ الناسِ عداوةً للمؤمنِ ٣٣٧
- معنى الصَّلَاةِ عليه: أن اللهَ يُثني عليه في المَلَأِ الأعلى ٣٣٩
- مَنْ لم يؤمنَ بهذه الأصولِ الستَةِ فَإِنَّهُ لا إيمانَ له ٣٤٠
- النَّاسُ في الآخرةِ يحتاجونَ إلى السَّلامِ والسَّلامةِ ٣٤٢
- الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي التَّشْهَدِ الأخيرِ ركنٌ عند بعضِ العُلَمَاءِ ٣٤٣
- الركنُ لا تصحُّ الصَّلَاةُ إِلَّا به ٣٤٣
- الواجبُ إذا تركته سهواً لم يجبْ عليك الإتيانُ به ٣٤٣
- اللَّعْنُ هُوَ الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله ٣٤٥
- لعنُ المؤمنِ من كبائرِ الذنوبِ ٣٤٦
- لعنُ المعينِ حرامٌ، حتَّى ولو كان كافراً ٣٤٦
- المؤمنُ لَيْسَ باللَّعَانِ ولا بالطَّعَانِ ٣٤٧
- الأصلُ في الإنسانِ أَنَّهُ ظَلومٌ جهولٌ ٣٥٢
- الأمانةُ في حقِّ الله أن تعبدَ اللهَ تعالى بشرِعه، مخلصاً له الدينَ ٣٥٢

- ٣٥٢ من ابتدَع في الدين فإنه لم يَقَمْ بالأمانة
- ٣٥٣ الشَّيْطَانُ يَزِينُ لِأَهْلِ الْبِدْعَةِ بِدَعَتِهِمْ
- ٣٥٣ ضررُ الفتنَةِ وشرُّ الفتنَةِ أعظمُ من شرِّ الفجورِ والفسوقِ
- ٣٥٤ المخلصُ لا يهْمُهُ النَّاسُ
- ٣٥٤ الإخلاصُ صعبٌ على النفوسِ
- ٣٥٤ الحسابُ يومَ القيامةِ على ما في القلبِ
- ٣٥٧ منَ الأمانةِ العظيمةِ أداءُ الأمانةِ بالنسبةِ للولايةِ
- ٣٥٩ اجعلِ الكلامَ بينَكَ وبينَ ولاةِ الأمورِ سرًّا
- ٣٦٠ لا يحلُّ للإنسانِ أن يتحدَّثَ بما يجري بينَهُ وبينَ أهلهِ
- ٣٦٣ الأمانةُ أمرٌ واسعٌ
- ٣٦٤ (جَعَلَ) إِنْ تَعَدَّتْ إِلَى مَفْعُولَيْنِ فَهِيَ بِمَعْنَى (صَيَّرَ)
- ٣٦٦ قُوَّةُ الْمَلَائِكَةِ أَعْظَمُ مِنْ قُوَّةِ الْجِنِّ
- ٣٦٧ الْمَلَائِكَةُ هِيَ قُوَى الْخَيْرِ، وَالشَّيَاطِينُ قُوَى الشَّرِّ
- ٣٦٩ آيَةُ الْكُرْسِيِّ هِيَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
- ٣٧٠ الْمُتَمَنِّصَاتُ وَالنَّامِصَاتُ مَلْعُونَاتٌ
- ٣٧٤ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ الْخَلْقَ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ
- ٣٧٧ الْعُلَمَاءُ يُهْتَدَى بِهِمْ إِنْ كَانُوا عُلَمَاءَ رَبَّانِيْنَ صَالِحِينَ
- ٣٧٨ الْعِلْمُ لَا مُنْتَهَى لِفَائِدَتِهِ إِذَا صَدَرَ عَنْ قَلْبٍ مُخْلِصٍ
- ٣٨١ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الدَّلِيلُ مَسَاوِيًا لِلْمَدْلُولِ، أَوْ أَعَمُّ مِنْهُ
- ٣٨٢ الْإِحْصَاءُ هُوَ ضَبْطُ الْعَدَدِ

- الأوقاف الخاصة قد يكون ضررها أكثر من نفعها ٣٨٤
- جميع الخلائق محضرون عند الله ٣٨٦
- الإعادة أهون من الابتداء ٣٩١
- النكرة في سياق الشرط تفيد العموم ٣٩٣
- إسرافيل؛ أحد الملائكة الكرام العظام ٣٩٦
- الأقوال الإلهية ثلاثة: كوني، وشرعي، وكوني شرعي ٤٠١
- الإنسان لا يملك أن يميت نفسه ٤٠١
- الدفع أسهل من الرفع ٤٠٣
- التاء إذا كنت مخاطب أحداً افتحها، وإذا كنت تتحدث عن نفسك ضمها. ٤٠٥
- الإنسان يطمئن إلى ما شاهد أكثر مما يطمئن إلى ما أخبر به ٤٠٧
- الأدلة العقلية والحسية على إثبات البعث فإنها كثيرة في القرآن ٤٠٨
- الشجر الأخضر شجر معروف بالحجاز، يؤقّد الناس منه النار ٤١٠
- اختلف العلماء في هذه الحروف هل لها معنى، أو ليس لها معنى، إلى ثلاثة أقوال ٤١٢
- الحروف الهجائية لها مغزى عظيم ٤١٣
- أقسم الله بالقرآن لعظمته ٤١٥
- الله تعالى يقسم بما شاء من خلقه، ونحن لا نقسم بالمخلوقات ٤١٥
- لا يجوز أن نحلف بالرسول عليه الصلاة والسلام ٤١٦
- ما أيسر الكذب عند اليهود والخيانة ٤١٩
- الخصم مفرد وليس جمعا ٤٢٦
- احترسوا احتراساً تاماً من كل قصة تخالف ظاهر القرآن ٤٢٩

- ٤٣٠ أخبار بني إسرائيل تنقسم إلى ثلاثة أقسام
- ٤٣١ بيع التمر بالتمر لا بد فيه من شرطين
- ٤٣٣ (سأل) لا تتعدى ب (إلى)
- ٤٣٧ إن الفتوى تتغير بتغير الزمان
- ٤٣٩ إن الشرع صالح لكل زمان ومكان
- ٤٤٠ القرآن الكريم أفضل كتاب نزل على أفضل نبي أرسل
- ٤٤١ العوائق التي تحول بين الإنسان وبين فهم كتاب الله، وهي ثلاثة:
- ٤٤٣ القرآن كلام الله غير مخلوق
- ٤٤٤ من بركة هذا القرآن أن من قرأه فله بكل حرف منه حسنة، والحسنة بعشر أمثالها
- ٤٤٦ سورة الفاتحة رقية
- ٤٤٨ القرآن الكريم أفصح الكلام العربي لا شك
- ٤٥١ الإنسان العاقل يتعظ بما يعلم من معاني آيات هذا القرآن
- ٤٥٢ التدبر: هو التفكير في معاني الآيات الكريمة
- ٤٦٠ هذا القرآن هو أحسن الحديث بلا شك لفظاً ومعنى
- ٤٦٢ المخلوق شيء زائد عن الخالق - لأنه مفصول
- ٤٦٢ كل الأخبار في النصوص الثابتة لا يمكن أن يكذب بعضها بعضاً
- ٤٦٦ يوم القيامة يوم طويل تختلف فيه الأحوال
- ٤٦٧ هناك لغة للعرب يجعلون المثنى بالألف دائماً
- ٤٦٩ جميع خصائص البشر كلها لاحقة بالنبي ﷺ
- ٤٧١ الحياة الدنيا تحتاج إلى طعام وشراب وهواء

- ٤٧١ الحَيَاةُ الْبَرْزَخِيَّةُ، فَعِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، لَا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ كَيْفِيَّتِهَا
- ٤٧٢ حَابِسُ الْفِيلِ هُوَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ
- ٤٧٦ ارْتَدَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ مَوْتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
- ٤٧٦ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَاتَ كَمَا يَمُوتُ الْبَشَرُ
- ٤٧٩ الْإِسْرَافَ تَجَاوَزُ الْحَدَّ
- ٤٧٩ الْقُنُوطُ أَشَدُّ الْيَأْسِ
- ٤٨٢ الْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ كُفْرٌ
- ٤٨٣ مَنْ تَابَ مِنَ الذَّنْبِ فَاللَّهُ يَغْفِرُ ذَنْبَهُ مَهْمَا عَظُمَ
- ٤٨٧ التَّوْبَةُ مِنْ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ لَا تَتِمُّ إِلَّا إِذَا وَصَلَ الْحَقُّ إِلَى مَسْتَحِقِّهِ
- ٤٨٨ لَوْ لَمْ يَتُبِ الْإِنْسَانُ إِلَّا حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَإِنْ تَوْبَتَهُ لَا تُقْبَلُ
- ٤٨٩ يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُبَادِرَ بِالتَّوْبَةِ
- ٤٩١ النَّبِيُّ ﷺ مَأْمُورٌ أَنْ يُبَلِّغَ الْأُمَّةَ كُلَّ الْقُرْآنِ
- ٤٩٣ لَا تَغْتَرِ بِالنِّعَمِ إِذَا تَوَالَتْ عَلَيْكَ وَأَنْتَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ
- ٤٩٤ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ وَرَجَاؤُهُ وَاحِدًا
- ٤٩٥ الْإِنْسَانُ طَبِيبٌ نَفْسِهِ
- ٤٩٥ الْمُصِرُّ لَوْ أَصَرَ عَلَى الشِّرْكِ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ
- ٤٩٨ الْأُمَمُ الرَّاقِيَةُ طَبِيبًا يَمْنَعُونَ مِنْ شُرْبِ الدِّخَانِ فِي التَّجْمَعَاتِ كَالْأُتُوبِيَّاتِ وَالْمَقَاهِي
- ٥٠٠ التَّوْبَةُ تَنْقَطِعُ بِحُضُورِ الْأَجْلِ
- إِنْ كَانَ الذَّنْبُ الْكُفْرَ فَلَا بُدَّ مِنْ تَوْبَةٍ، وَإِنْ كَانَ دُونَ الْكُفْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يَعْفُو عَنْهُ وَإِنْ لَمْ تَحْصُلْ تَوْبَةٌ
- ٥٠٣

- العبدُ يجبُ أن يكون ممتثلًا للأوامرِ، مجتنبًا للنواهي ٥٠٥
- من شروطِ التَّوبَةِ أن يُقْلَعَ الإنسانُ عن المعصيةِ التي هو عليها ٥٠٧
- كثرتِ الحُجَجُ الباطلةُ، والدَّعاوى الكاذبةُ في هذا الزَّمانِ ٥٠٩
- المعاصي سببٌ لقسوةِ القلبِ ٥١٣
- من أعظمِ العذابِ قسوةُ القلوبِ ٥١٤
- لا قِوامةَ للدينِ إلا بالطُمأنينةِ والأمنِ ٥١٤
- الصُّورُ قالَ العلماءُ: إنه قرْنٌ عظيمٌ سعته كما بين السَّماء والأرض ٥١٨
- العلماءُ يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالاتِ الله ٥١٩
- عددُ أبوابِ جهنمَ سبعةٌ ٥٢٣
- التَّقوى: أن يتَّخذَ الإنسانُ وقايةً من عذابِ الله ٥٢٦
- ليسَ هناكِ وأو تُسمَّى وأو الثَّمانية ٥٢٨
- لِلرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثلاثُ شفاعاتٍ خاصَّاتٍ به ٥٢٩
- حالُ آدمَ بعد التَّوبَةِ عليه أكملُ من حالِهِ قبلَ أن يأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ٥٣٠
- أبو طالبٍ ماتَ على الكُفْرِ ٥٣٢
- الكافرِ لا تنفعُ فيه الشَّفاعةُ ٥٣٣
- جليسُ السَّوءِ كلُّهُ شرٌّ وسُوءٌ ٥٣٤
- يجوزُ الشرُّطُ في الدُّعاء ٥٣٦
- التَّعليقُ جائزٌ حتَّى في العباداتِ ٥٣٦
- بالوحي حياةُ القلوبِ ٥٤٢
- لا يُوجدُ شيءٌ أسرعُ من لمحِ البصرِ ٥٤٣

- لَوْ أَنَّنَا أَحْصَيْنَا أَقْوَالَ النَّاسِ لَوْجَدْنَا أَقْوَالَ كَثِيرَةً لَغَوَا ٥٤٥
- اللُّغُو مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَلَا مِنَ السَّيِّئَاتِ ٥٤٥
- كُلُّ شَيْءٍ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ مُدُونٌ لَا يُزَادُ فِيهِ وَلَا يُنْقُصُ ٥٥٢
- الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْنَا بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ اللَّهُ ٥٦١
- لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَتَعَاضَّضَ الْكِتَابُ مَعَ صَحِيحِ السَّنَةِ ٥٦١
- مَا أَكْثَرَ النِّقَمَ الَّتِي تَنْعَقِدُ أَسْبَابُهَا وَتُوجَدُ مُوجِبَاتُهَا ٥٦٥
- تَعَيَّنَ عَلَيْكَ أَنَّ تَحْمَدَ اللَّهَ إِذَا أَكَلْتَ أَوْ شَرِبْتَ ٥٦٧
- إِذَا لَمْ تُسَمِّ اللَّهَ أَكَلَ الشَّيْطَانُ مَعَكَ ٥٦٧
- أَهْلُ الْعِلْمِ بَرَكَةٌ عَلَى غَيْرِهِمْ ٥٦٧
- الْحُرُوفُ الْهَجَائِيَّةُ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى ٥٦٩
- كُلُّ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَهُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ ٥٧١
- كَلِمَةٌ (تَنْزِيلٌ) تَدُلُّ عَلَى عُلُوٍّ ٥٧٣
- الْعَرْشُ هُوَ مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهُ ٥٧٦
- مِنْ أَصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ ٥٧٧
- الْكَفَّارُ أَعْدَاءُ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ٥٨٦
- عَذَابُ الْقَبْرِ ثَابِتٌ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ الْمَتَوَاتِرَةِ ٥٨٩
- لَوْ اجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَمْ يُمَكِّنْهُمْ ٥٩٥
- مِنْ طُرُقِ الْحَضَرِ تَعْرِيفُ الرُّكْنَيْنِ فِي الْجُمْلَةِ ٦٠٩
- الْمَلَائِكَةُ أَوْلِيَاءُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ٦١٠
- الْإِعْتِكَافُ يَصِحُّ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ ٦١٤

- ٦١٩ كُلُّ أَسْمَاءِ اللَّهِ دَالَّةٌ عَلَى مَعَانٍ
- ٦٢٣ الْإِسْتِقَامَةُ هِيَ الْإِعْتِدَالُ وَالْمَشْيُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ
- ٦٢٥ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْعِبَادَةُ مُوَافَقَةً لِلشَّرِيعَةِ إِلَّا إِذَا وَافَقَتِ الشَّرِيعَةُ فِي أُمُورٍ سِتٍّ:
- ٦٣١ الْعَمَلُ الَّذِي فِيهِ شِرْكٌ لَيْسَ بِصَالِحٍ
- ٧١٥ صَلَاةُ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ
- ٧١٦ كِتَابُ اللَّهِ لَا يَتَنَاقَضُ
- ٧١٨ حَذْفُ الْمَعْمُولِ يُفِيدُ الْعُمُومَ
- ٧٢٠ إِذَا أَشْكِلَتِ الْحِكْمَةُ، فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ
- ٧٢٣ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْتَارَ مِنَ الْأَسْمَاءِ مَا هُوَ أَفْضَلُ
- ٧٢٣ لَا تُسَمِّ وَلَدَكَ بِأَسْمَاءِ الْفِرَاعَةِ
- ٧٢٤ كُلُّ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - طَيِّبَةٌ
- ٧٢٤ التَّسْمِيَةُ حِينَ الْوِلَادَةِ
- ٧٢٥ الْعَقِيقَةُ هِيَ ذَبِيحَةٌ تُذْبَحُ لِلْمَوْلُودِ
- ٧٢٧ الْخِتَانُ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ وَاجِبٌ فِي حَقِّ الذَّكَورِ، سُنَّةٌ فِي حَقِّ الْإِنَاثِ
- ٧٢٧ الْخِتَانُ وَقْتُهِ مُتَمَدُّ إِلَى الْبُلُوغِ
- ٧٢٨ سَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ رُوحًا لِأَنَّهُ نَحْيًا بِهِ الْقُلُوبُ
- ٧٢٨ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ
- ٧٢٩ لَوْ أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَصِلَ إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لَمْ يَصِلْ



فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

دروس التفسير

٥	سورة الفرقان.....
٥	الدرس الأول:
٢٠	الدرس الثاني:
٥٠	الدرس الثالث:
٦٤	الدرس الرابع:
٦٥	من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر:
٦٧	قتل النفس بغير حق:
٧٢	من صفات عباد الرحمن: أنهم لا يزنون:
٧٧	توبة المشرك:
٧٧	توبة القاتل:
٧٨	توبة الزاني:
٨١	سورة الشعراء.....
٨١	الدرس الأول:
٩٤	الدرس الثاني:
٩٧	فائدة:
١٠٠	الدرس الثالث:

١٠٤	في هذه الآياتِ الكريمةِ بيانٌ لأُمُورٍ:
١٠٨	سورة النمل
١٠٨	الدرس الأول:
١١٢	الدَّرسُ الأوَّلُ:
١١٧	الاختلافُ عند الصَّحابة:
١٢٠	الحقُّ مقبولٌ دُونَ النَّظَرِ لِقَائِهِ:
١٢٧	الدَّرسُ الثَّانِي:
١٣٥	الدَّرسُ الرَّابِعُ:
١٣٩	الدَّرسُ الخَامِسُ:
١٤٨	الدَّرسُ السَّادِسُ:
١٥٢	الدَّرسُ السَّابِعُ:
١٥٥	سورة الروم
١٥٧	والطَّلَاقُ المباحُّ يكونُ في حَالَيْنِ:
١٥٨	مَسْأَلَةٌ فِي مِضَاعَفَةِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ:
١٦٣	سورة لقمان
١٦٣	الدَّرسُ الأوَّلُ:
١٧٣	الدَّرسُ الثَّانِي:
١٨٣	الدَّرسُ الثَّالِثُ:
١٨٧	فائدة:
١٩٠	الدَّرسُ الرَّابِعُ:

١٩٦.....	مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ:
١٩٦.....	الأُولَى: عِلْمُ السَّاعَةِ:
٢٠٤.....	الدَّرْسُ الْخَامِسُ:
٢١٢.....	سُورَةُ الْأَحْزَابِ:
٢١٢.....	الدَّرْسُ الْأَوَّلُ:
٢٢٤.....	الدَّرْسُ الثَّانِي:
٢٢٨.....	الدَّرْسُ الثَّلَاثُ:
٢٢٩.....	الذِّكْرُ بِالْقَلْبِ:
٢٣٠.....	الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ:
٢٣١.....	الذِّكْرُ بِالْجَوَارِحِ:
٢٣٣.....	الذِّكْرُ الْمَطْلُوقُ:
٢٣٣.....	الذِّكْرُ الْمَقِيدُ: وَمِنْ أَنْوَاعِهِ:
٢٣٣.....	الذِّكْرُ أَدْبَارَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَةِ:
٢٣٣.....	التَّسْبِيحُ لَهُ أَرْبَعَةٌ أَوْجِهٌ:
٢٣٥.....	الذِّكْرُ عِنْدَ الطَّعَامِ:
٢٤٠.....	الدَّرْسُ الرَّابِعُ:
٢٤٧.....	أَدْلَةُ رُؤْيَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ:
٢٥٠.....	مَسْأَلَةُ الْعُلُوِّ:
٢٥٦.....	الدَّرْسُ الْخَامِسُ:
٢٦٨.....	الدَّرْسُ السَّادِسُ:

٢٨٨	الدَّرس السَّابع:
٢٨٨	مَعْنَى الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ:
٢٩٧	الدَّرس الثَّامن:
٣٠٩	الدَّرس التاسع:
٣٢١	الدَّرس العاشر:
٣٣٤	الدَّرس الحادي عشر:
٣٣٨	الدَّرس الثَّاني عشر:
٣٤٥	مَا حُكِّمَ لَعْنِ الْمُؤْمِنِ؟
٣٤٧	الدَّرس الثَّالث عشر:
٣٤٩	الدَّرس الرَّابع عشر:
٣٥٠	الأمانةُ في حقِّ الله:
٣٥٢	منَ الأمانةِ في حقِّ الله: الإخلاصُ:
٣٥٨	حفظُ الأسرار:
٣٥٩	مَنْ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ:
٣٥٩	الغشُّ في الاختبارات:
٣٦٠	الأمانةُ في وضعِ الأسئلة:
٣٦٠	الأمانةُ في المراقبة:
٣٦١	الأمانةُ في التصحيح:
٣٦٣	سورة فاطر
٣٧٣	سورة يس

٣٧٣	الدَّرسُ الأوَّلُ:
٣٨٤	الدَّرسُ الثَّانِي:
٣٨٩	الدَّرسُ الثَّالِثُ:
٣٩٥	الدَّرسُ الرَّابِعُ:
٤٠٨	الدَّرسُ الخَامِسُ:
٤١١	سورة (ص)
٤١١	الدَّرسُ الأوَّلُ:
٤١٨	الدَّرسُ الثَّانِي:
٤٢٣	الدَّرسُ الثَّالِثُ:
٤٣٦	الدَّرسُ الرَّابِعُ:
٤٣٦	الشَّرِيعَةُ صَالِحَةٌ لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ:
٤٣٩	الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَشْمَلُ كِتَابٍ نَزَلَ مِنَ الْكِتَابِ السَّمَاوِيِّ:
٤٤٠	الْقُرْآنُ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ:
٤٥١	الدَّرسُ الخَامِسُ:
٤٥٩	سورة الزمر
٤٥٩	الدَّرسُ الأوَّلُ:
٤٦٠	الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ:
٤٦٧	الدَّرسُ الثَّانِي:
٤٦٨	وفاة النَّبِيِّ ﷺ:
٤٧٧	الدَّرسُ الثَّالِثُ:

- الإسرافُ على النَّفسِ: ٤٧٨
- التَّوْبَةُ وشُرُوطُهَا: ٤٨٠
- الدَّرْسُ الرَّابِعُ: ٤٩٠
- القِسْمُ الْأَوَّلُ: مَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ٤٩١
- القِسْمُ الثَّانِي: مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ: ٤٩٢
- القِسْمُ الثَّالِثُ: الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ مَكْرَ اللَّهِ: ٤٩٣
- شُرُوطُ التَّوْبَةِ: ٤٩٥
- الدَّرْسُ الْخَامِسُ: ٥٠١
- الدَّرْسُ السَّادِسُ: ٥٠٣
- مِنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ: ٥٠٤
- التَّوْبَةُ وشُرُوطُهَا: ٥٠٥
- أَقْسَامُ حُقُوقِ الْعِبَادِ: ٥٠٦
- مِنْ عُقُوبَاتِ الْمَعَاصِي: ٥١٢
- الدَّرْسُ السَّابِعُ: ٥١٤
- التَّقْوَى: ٥٢٥
- الشَّفَاعَةُ: ٥٢٨
- الدَّرْسُ الثَّامِنُ: ٥٤٠
- النَّفْخُ فِي الصُّورِ: ٥٤٠
- كُتُبُ الْأَعْمَالِ: ٥٤٣
- الدَّرْسُ التَّاسِعُ: ٥٤٨

٥٦٤	الدَّرس العَاشِر:
٥٦٨	سورة غافر
٥٦٨	الدَّرس الأوَّل:
٥٧٥	الدَّرس الثَّاني:
٥٨٤	الدَّرس الثَّالث:
٥٩٢	سورة فصلت
٥٩٢	الدَّرس الأوَّل:
٥٩٨	علوُّ الله عزَّوجلَّ:
٥٩٨	الْقُرْآن والسَّنة:
٥٩٩	الفطرة:
٥٩٩	العقل:
٦٠٠	إجماع الصَّحابة:
٦٠٨	الدَّرس الثَّاني:
٦١٦	الدَّرس الثَّالث:
٦٢٢	الدَّرس الرَّابِع:
٦٢٩	الدَّرس الحَافِس:
٦٤٢	نزعُ الشَّيْطان:
٦٤٥	الدَّرس السَّادِس:
٦٤٩	شروط الدَّاعي إلى الله:
٦٥١	العمل الصَّالح:

٦٦٢	الدَّرس السَّابع:
٦٧٤	سورة الشورى
٦٧٤	الدَّرس الأوَّل:
٦٨٢	المثال الأوَّل: الاختلافُ في أقسامِ المياه:
٦٨٣	المثال الثاني: عدةُ المرأةِ إذا تُوفيَ عنها زوجها وهي حاملٌ:
٦٨٦	تحقيقُ قولِ لا إلهَ إلا اللهُ:
٦٩٠	الدَّرس الثاني:
٦٩٧	تعريفُ المعروفِ والمنكرِ:
٧٠٩	الدَّرس الثالث:
٧٠٩	مسائلُ:
٧١٣	الدَّرس الرَّابع:
٧٢٠	الدَّرس الخامس:
٧٢٨	فائدةٌ:
٧٢٩	فهرس الآيات
٧٥٥	فهرس الأحاديث والآثار
٧٦٧	فهرس الفوائد
٧٩٣	فهرس الموضوعات

